بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم

دلالة التّصريف القرآني أوْلى من دِلالة ولفْظ التِّكرار

الجُزءُ الأول

الدّكتور عبد الله محمّد النقراط




بلاغة تصريف القول
في القرآن الكريم

الطبعة الأولى
1423 هـ - 2002 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والديّ الكريمين بارك اللّه في عمرهما، ومتّعهما بالصحة والعافية، وغفر لهما ذنوبهما.

وإلى من كان لي سبباً في اختيار هذا الموضوع، ألا وهو أستاذي الجليل **الدكتور أحمد أبو زيد**، حفظه الله ورعاه، وأبقاه سنداً لطلاب المعرفة.

وإلى أستاذي الفاضل: **علي عبد الله جوان**، الذي أشرف على رسالتي التي نلت بها درجة الإجازة العالية (الماجستير) أمدَّ الله في عمره، ومتّعه بالصحة، وحفظه لطلاب العلم.

فلهؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل، اعترافاً بفضلهم عليّ، سائلاً الله العلي القدير أن ينفعني وإيّاهم به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، وأنزل القرآن بلسان عربي مبين، وحفظه ونزهه من التحريف والتصحيف، على مدى الدهور والعصور، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، أفصح من بيَّنَ أسرار كتاب الله العزيز، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعدُ، فإن أفضل ما يفنى فيه العمر، ويعطى له الكثير من الوقت دراسةُ كتاب الله العزيز، ومعرفةُ أسراره التي تنوعت وتعددت بتنوع أساليبه وأحكامه.

وإن الاعتناءَ بدراسة أوجه الإعجاز القرآني ومعرفة أسراره لمن أوجب الواجبات على من يتفرغ لدراسة الكتاب العزيز وعلومه؛ ليعرف كنهها وحقيقتها؛ وليتمكن من الكشف عن أسراره، ودلائل إعجازه، وكنوز عظمته.

وعن أفضلية دراسة أسرار المعجزة الخالدة والتأمل والتفكير فيها يحدثنا الزركشي فيقول: «إن أولَى ما أعملتْ فيه القرائح، وعَلِقَت به الأفكار اللواقح الفحصُ عن أسرار التنزيل والكشفُ عن حقائق التأويل، الذي تقوم به المعالم، وتثبت به الدعائمُ، فهو العصمة الواقية، والنعمة الباقية، والحجةُ البالغة، والدلالة الدامغةُ، وهو شفاء الصدور والحكَم العدْل عند مشتبهات الأمور: وهو الكلام الجزْل، وهو الفصْلُ الذي ليس بالهزل... بهرتْ بلاغتُهُ العقول، وظهرت فصاحته على كلّ مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارَن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوتْ كلَّ البيان جوامعه، وبدائعه، قد أحكم الحكيمُ صيغتَه ومبناه، وقسّم لفظه ومعناه...

- فسبحان - مَنْ سلكه ينابيع في القلوب، وصرّفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب لا يستقصي معانيه فهمُ الخلْق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطَّلْق،

فالسعيد من صرف همتَه إليه، ووقف فكرَه وعزمه عليه، والموفَّق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكّره»[1].

وقد كانت خصائص القرآن الكريم، ومازالت مثار الإعجاب ومصدره، من عصر النزول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولاشك في أن العكوف على هذه الكنوز فيما يخص موضوعاً قرآنياً ما، سيعين على ظهور كثير مما خفي من أسرار القرآن الكريم، وهي كثيرة لا يستطيع الإنسان حصرها، مهما حاول وأفرغ وسعه فيه.

وقد أدركتُ أهمية هذا الجانب وعظمته من اطلاعي على كلام السابقين وحثهم على دراسة بلاغة القرآن الكريم وفهم إعجازه.

من أجل هذا وغيره اخترت: **بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى)** لتكون موضوعاً لأطروحتي؛ لنيل درجة الدكتوراه في مجال الدراسات القرآنية والبلاغية.

وقد دعاني للكتابة في هذا الموضوع رغبتي في التدبر والتأمل في كتاب الله العزيز انطلاقاً من دعوة المولى - عزَّ وجلَّ - إلى ذلك، إذ قال تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[4].

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 3 وما بعدها.

(2) ص 29.

(3) الزمر 9.

(4) الدخان 58.

وقد اقتديتُ في هذه الدراسة المتواضعة بكتاب الله ـ تعالى ـ الذي وردت فيه آيات كثيرة ترشدنا إلى هذا المصطلح اللائق بكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذ يقول تعالى:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[6].

وغيرها من الآيات الدالة على التصريف القرآني، الذي يعني أن تصريف الآيات هو تنويعها، وعرضها بطرائق شتَّى، وصور مختلفة، حسب السياق الواردة فيه تلك الآيات، وهو أيضاً تنويع المعاني والأساليب، والانتقال من معنى إلى آخر، ومن أسلوب إلى آخر، في روعة من الانسجام والتماسك البديع، والتفنن الدقيق،

(1) الأنعام 46.
(2) الأنعام 65.
(3) الأنعام 105.
(4) الأعراف 58.
(5) الإسراء 41.
(6) الإسراء 89.

الذي لا نظير لـه في بيانـه، وهـو أيضاً التفنـن فـي أداء المعنـى الواحـد بألفـاظ وطـرق متعددة، وذلك لتقريـر أصـول العقيـدة وعـرض أدلـتـها، وإيـراد القصـص والأمثـال، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتشريع والأحكـام، والأوامـر والنواهـي، وما إلى ذلك مما صرف القرآن بيانه.

وقد دفعني إلى اختيـار هـذا الموضـوع أيضـاً رغبتـي فـي البحـث فـي كتـاب اللـه العزيز، لَعلّي أسهـم بجهدي المتواضع في دراسة موضـوع مـن أهـم الموضوعـات التـي تبـين روعـة القـرآن الكريـم وإعجـازه، وهـو: **بلاغـة تصريـف القـول فـي القـرآن الكريـم (المقاصد الكبرى)** الذي جعلته عنواناً لأطروحتي للأسباب الآتية:

1 - النهل من ينابيع القرآن الكريم التي لا تنضب والوقوف عند أسراره، والتـأمل فيـها والإفادة منها، امتثالاً لقوله تعالى:

﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾[1].

وغيرها من الآيات الدالة على التأمل في تصريف الآيات، التـي جعلتـها دليلـي فـي هذه الأطروحة.

2 - خدمةً لكتاب الله - تعالى - لمزيد الكشف عن وجـوه إعجـازه، واسـتخراج كنـوزه، واستنباط أحكامه، والسير على نهجه القويم.

3 - إغفال التأليف في هذا الجانب من جوانب البيان القرآني، إلا مـا ورد مـن إشـارات مقتضبة أشرت إليها في التمهيد لهذا الموضوع.

4 - الإسهام بجهدي المتواضع في إيضاح مصطلح تصريف القول في القـرآن الكريـم، الذي نصَّ عليه الله - سبحانه وتعالى - في غير ما آيـة فيـه، وتعميـق هـذا المصطلـح، وإبراز بلاغته وفتح أبواب الدراسة فيه.

5 - الاستعمال الخاطئ لمصطلحات لا تليق بالقرآن الكريم وعظمته، والاضطـراب فـي توجيه الآيات من خلالها.

---

(1) الأنعام 46.

6 ـ حاجة المكتبة العربية للتأليف في هذا الجانب المتخصص، وهو: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى).

7 ـ قناعتي الراسخة بأهمية هذا الموضوع، وإثرائه، ولَمِّ شَتَاته.

8 ـ أنَّ هذه الدراسة تعتبر تكميلاً للدراسات السابقة في هذا الشأن.

لكل هذه الأسباب اخترت البحث في هذا الموضوع؛ وهو جدير بالدراسة بما لا يختلف عليه اثنان؛ لأنه يتناول المعجزة الخالدة، القرآن الكريم؛ ليستكشف أسرارها.

وقد شجعني على اختيار هذا الموضوع، توجيه أستاذي المشرف: الدكتور أحمد أبو زيد الذي اقترح عليّ أن أدرس بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم؛ لما لهذا الموضوع من أهمية عظيمة في مجال الدراسات القرآنية والبلاغية، ونعم التوجيه والاقتراح هو.

بعد رجوعي إلى المؤلَّفات التي عُنِيت بالدراسات القرآنية والبلاغية، تبين لي أن هذا الموضوع جدير بالدراسة حقاً.

وقد وجدت في نفسي الرغبة في دراسته لعلّي أُقدّم ما يخدم المكتبة القرآنية في مجال الإعجاز القرآني وبلاغته.

وقد تبيّن لي أيضاً أن هذا الموضوع ـ فيما وصل إليه علمي ـ لم يسبق لأحد دراسته، لا في القديم، ولا في الحديث؛ لأنني لم أجد في علوم القرآن الكريم، والتفسير، والبلاغة القرآنية، من خص هذا الموضوع بالبحث، تأصيلاً لمسائله، وكشفاً عن أسراره، وإظهاراً لمحاسنه.

إن هذا الموضوع الذي خصصته بالدراسة، لم ينل من عناية الباحثين ما يستحقه من الدراسة التي تبرز خصائصه المعنوية والأسلوبية؛ بل اتجهت دراستهم نحو مصطلحات التكرار، والترداد، والمتشابهات، والوجوه والنظائر، محاولين أن يجدوا مبرراً لكثرة ورود الآيات المناظرة، وكثرة تنوع المعاني والأساليب المتشابهة؛ للرد على الملحدين والطاعنين في القرآن الكريم، ولم ينتبهوا إلى المصطلح الصحيح، الذي كان عليهم أن يوجهوا الآيات من خلاله.

وقد غالى بعض المهتمين بالدراسات القرآنية في وصف الآيات القرآنية بالتكرار، وصرحوا بما لم يصرح به الله في كتابه - لو أنهم في رأينا - أمعنوا النظر في الآيات التي صرحت بتصريف القول، لاهتدوا إلى هذا المصطلح المناسب لمقام القرآن وجلاله.

إن تعميم مصطلح التكرار وإغفال التميز بينه وبين مصطلح التصريف القرآني أمر ليس مقبولاً عند التحقيق والنظر، فيما يراه من يدَّعي التكرار من جميع الجوانب.

وهكذا يتأكد لنا، أن هذا التنوع البياني في المعاني والأساليب، هو تصريف للقول البليغ، والتفنن الدقيق بأوجه متعددة وأساليب مختلفة، محققاً روعة البيان القرآني وإعجازه.

على أن الذي فات المفسرين والبلاغيين هو استمرارهم في استخدام مصطلح التكرار، وعدم إحياء مصطلح التصريف، الذي هو أولى منه دلالة، وتنزيهاً للقرآن عن المطاعن، وإبعاداً لكل ما نسب إليه مما ليس فيه، وبخاصة إذا كان التكرار يوصف بأوصاف لا تليق بعظمة القرآن الكريم وجلاله(1).

إن هؤلاء، علي الرغم من الجهود التي بذلوها في الدفاع عن القرآن الكريم، ودفع شبهات الطاعنين في القرآن وبيانه، فإنهم - في رأينا - لم يكونوا مُوفَّقين في استعمالهم هذا المصطلح للرد على هؤلاء، وكان الأجدر بهم لدفع هذا الطعن أن يستعملوا مصطلح التصريف؛ لأنه مصطلح قرآني ارتضاه الله - تعالى - لوصف هذا الوجه من بلاغة كتابه.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أن القرآن الكريم صرح بذكر اللفظ المناسب وبعدم استعمال ما فيه طعن، مثل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(2).

---

(1) بيّنتُ هذه الأوصاف في التمهيد تحت عنوان: مساوي مصطلحي التكرار والترداد.

(2) البقرة 104.

وقد لاحظنا خلو الدرس القرآني والبلاغي من هذا المصطلح إلا ما أشرنا إليه من إشارات متناثرة جاءت في ثنايا حديث بعضهم؛ فقد فضلوا استعمال مصطلح التكرار، ظناً منهم أن هذا المصطلح جدير بدفع الشبهات عن القرآن الكريم.

وقد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق كثير من العلماء، منهم الإمام الغزالي الذي نفى التكرار في القرآن الكريم نفياً قاطعاً، ولغيره من العلماء إشارات في هذا الصدد - ذكرناها في مواضعها من هذه الأطروحة[1].

إننا بهذا البحث ندعو المهتمين بالتفسير وعلوم القرآن الكريم وبلاغته إلى إحياء مصطلح التصريف القرآني، وإيثاره على غيره من المصطلحات الأخرى التي نافسته في الاستعمال.

وقد حاولت هذه الدراسة المتواضعة، أن تستدرك ما فات الدرس القرآني والبلاغي، حين قصر دراسته على مصطلحي التكرار الترداد.

وسوف تحاول أيضاً - إن شاء الله تعالى - أن تجيب على هذه الإشكالية وفقاً لمنهج البحث المقترح.

ونبدأ أولاً بالتساؤل عن المقصود بهذا المصطلح، فأقول: ماذا نعني بتصريف القول في القرآن الكريم؟ وما هي مظاهره؟ وأين نجده؟ ولماذا آثرنا تسميته بهذا الاسم؟ وما علاقة بناء السور والآيات بالمقاصد الكبرى؟.

إن هذه التساؤلات هي ما ستجيب عنها هذه الأطروحة في تمهيدها، وفصولها، ومباحثها المتنوعة.

ويتجلى هذا التنوع في قضايا العقدية والموعظة، والأحكام التشريعية وغيرها.

غير أننا اقتصرنا في دراستنا لهذا التنوع على بعضها لعدم استطاعتنا الوفاء بها جميعاً؛ لأن ذلك يتطلب دراسة القرآن كله، وهو أمر صعب، يعجز عن دراسته شخص بمفرده ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

---

(1) ينظر التمهيد، وغيره من فصولها ومباحثها.

وأما عن العلاقة التي تربط بناء السور والآيات بالمقاصد الكبرى، التي حددناها عنواناً للأطروحة، فنقول: إن العلاقة بينهما قوية، ولكي نصل إلى تلك المقاصد وتصريفها، رأينا أنه من الضروري أن نعقد باباً لبناء السور والآيات؛ لنعرف منه الطريقة التي سلكها القرآن الكريم في بناء مقاصده المختلفة، انطلاقاً من السور والآيات؛ لأنه عن طريقها تتنوع المقاصد، وتتنوع الأساليب المحققة لتلك المقاصد.

ومما ينبغي التنبيه إليه أننا لا ندعي الإحاطة بكل المقاصد الكبرى وبناء السور والآيات؛ لأن المقام لا يتسع لدراستها جميعاً، وإنما اقتصرنا على بعضها وأهمها في مجال العقيدة والموعظة، وبيان الطريقة التي سلكها القرآن الكريم في بناء سوره وآياته.

وأؤكد أن ما لم نتمكن من دراسته، يتعين أن يكون محلاً للدراسة، وموضعاً للاهتمام؛ لإحياء هذا المصطلح اللائق بالقرآن الكريم وعظمته.

وقد حاولنا في هذه الدراسة، أن نعتمد على المفسرين والبلاغيين؛ لعلاقة الموضوع بعلمَيْ التفسير والبلاغة؛ لأن البلاغة تُبيِّن ما يغيب عن بعض المفسرين من نكت بيانية دقيقة، تكشف روعة القرآن الكريم وإعجازه، فمن هذا المنطلق كان اهتمامنا بهذين العلمين الجليلين، محاولين أن يجد هذا المصطلح مكانه اللائق في علمَيْ التفسير والبلاغة.

أما كونه في التفسير فإنه رافد من روافده، وأما في البلاغة فلكون هذا المصطلح مظهراً من مظاهرها باعتبار ما يحققه من نكت بيانية، تخدم النص القرآني في تفسيره، وتثريه بما يحتمله من مقاصد سامية، ذلك أن البلاغة تُظهر جمال المعنى، وما يكتنفه من دقة التعبير، وروعة الانسجام بين المعاني المختلفة التي يتصرف إليها البيان، تمشياً مع السياق، ومقتضيات الأحوال، فإن لكل مقام مقالا، ولكل أسلوب مقاصد يؤديها.

وأما منهج دراسة هذا الموضوع فنعتقد أن تصريف القول في القرآن الكريم وغيره من طرق الأداء يتسع لمناهج عديدة تتآلف ولا تتنافر، ذلك أن «المناهج العلمية

مهمتها رسم المعالم التي ترشد إلى الاستخدام السليم للعقل الإنساني حتى يبدع ويجدد، ومع هذا لا تسلب المناهج العلمية بمبادئها حرية العقل في القبول أو الرفض، لبعض تلك المبادئ، إنها أشبه ما تكون بتوجيهات كلية تدعو إلى الاهتداء بها في أثناء البحث، وليس فيها أي تضييق على الباحث أو خنق لروحه، إذ لا يفرض على الباحث المتخصص أنْ يتبع قواعد المنهج بحرفية تامة، فله مطلق الحرية في اتّباعها أو عدم اتّباعها، أو تعديلها بما يتلاءم وموضوع بحثه.

إن البحث العلمي الأصيل لا يعتمد على منهج واحد، وإنما يستعين بكلّ منهج له العمقُ والنضجُ والكمالُ»[1].

وحقاً كما قيل: «فنحن في حاجة إلى منهج شامل يُنظر في أسلوبه من حيث العبارات، ومن حيث المعاني، ويُقارن ويُستخلص، فإن القرآن مازال بكراً عزيز المنال، وهذه المناهج كلها أعون على كشف أسراره ومعانيه»[2].

ولما رأيت أن هذا الموضوع متعدد الجوانب، ولا يكفي في دراسته الاعتماد على منهج معين، للوصول إلى النتائج المتوخَّاة منه، فإني اعتمدت في هذه الدراسة على منهجية حاولت أن تكون تكاملية تجمع بين أربعة مناهج، وهي:

1 ـ المنهج الوصفي.

2 ـ المنهج الاستقرائي.

3 ـ المنهج التحليلي.

4 ـ المنهج المقارن.

وذلك لعلاج الموضوعات المتنوعة الواردة في ثنايا الأطروحة؛ لأننا وجدنا أنفسنا مضطرين للتعامل مع هذه المناهج لطبيعة الدراسة؛ ولأننا رأينا أن هذه المناهج مجتمعة تتآزر في خدمة هذا الموضوع.

---

(1) منهج البحث في العلوم الإسلامية ص15 وما بعدها.

(2) خصائص التعبير القرآني 2/ 145.

إن تنوع الحقول المعرفية لهذا الموضوع المنبثقة من تنوع دلالاته هو الذي أملى علينا اختيارنا لهذه المناهج ؛ لنتمكن من فهم دقائق القرآن الكريم وأسراره البلاغية ؛ لما رأينا فيها من مميزات تتناسب مع هذا الموضوع ، فلا نفرض عليه مناهج مازالت غير واضحة لدينا. ومن ثم الوصول إلى النتائج المتوخاة منه ، ذلك أننا لا نتعصب لمنهج معين ، وإنما استعملنا المنهج المناسب في مكانه المناسب ، الذي رأيناه أفضل من غيره لدراسة موضوع معين من الموضوعات التي تتناولها الدارسة ، مستعينين في ذلك بما ألف القدماء والمحدثون في التفسير وعلوم القرآن وبلاغته ؛ لنأخذ منه ما يدعم الموضوع ، ويكشف وجهاً من وجوه القول المختلفة.

وقد تبيَّن لنا من خلال منهج أستاذنا القيِّم وأفكاره النيِّرة في البيان القرآني وإعجازه ، أن قيمة البحث البياني في القرآن الكريم تكمن في الاستقراء والتحليل لآيات كتاب الله - تعالى - موضوع الدراسة.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على القرآن الكريم واستنطقناه بكل ما يرتبط بموضوع الأطروحة ، وصنّفنا الآيات تبعاً لموضوعاتها ، متتبعين ومحللين تلك الآيات ، اعتماداً على أمهات كتب التفسير ، وأمهات كتب الإعجاز القرآني وبلاغته.

نستقري أحياناً الآيات في موضوع ما ، ونفرعها على جزئيات الموضوع ، ثم نقوم بوصفها وتحليلها للوصول إلى نتيجة تنفي ما يظن أنه مكرر في القرآن الكريم ، وتثبت أنه تصريف للقول فيه ، من خلال ما ينكشف لنا من فروق بين الآيات المتشابهة في المعاني والأساليب ؛ لنصل من ذلك إلى الحكم بأن هذا التشابه قد يختلف في بعض المعاني والأساليب الدقيقة ، التي يعود الأمر فيها إلى أمور عدة بيّنّاها عند المقارنة بين الآيات المتشابهة.

وأما الصعوبات التي واجهت هذه الدراسة فأهمها ندرة المصادر والمراجع المباشرة في هذا الموضوع ، فلم يجد الباحث ما يستعين به من دراسات قديمة وحديثة ، اللهم إلا ما وجده متناثراً في التفاسير والدراسات القرآنية والبلاغية ، التي أشرنا إليها في التمهيد لهذه الأطروحة.

إن هذا العمل الذي ننجزه ليس مسبوقاً بأي عمل مشابه له في بابه، فهو، حسب علمنا، أول عمل أكاديمي يدرس بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى) بهذه الطريقة.

ومن ثم لم نجد عملاً نستأنس به في هذه الدراسة، عدا المادة التي اعتمدنا عليها وهو القرآن الكريم.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على تفاسير القرآن الكريم، وعلومه، وبلاغته، التي أفدت منها، ووظفتها في خدمة هذا الموضوع، والتي لم تكن مباشرة أستقي منها مادة هذه الأطروحة.

والحق أن هذه الدراسة قد أفادت من مصادر ومراجع متنوعة منها: المخطوط، والمطبوع، والمرقون، والدوريات والمجلات العلمية. وتقتضي مقدمة البحث أن أذكر أهمها وأكثرها تردداً في هذه الدراسة، وأولها القرآن الكريم، رواية الإمام حفص عن عاصم، والرسم العثماني، توثيقاً، وتخريجاً، وضبطاً، ورسماً[1].

وأفادت هذه الدراسة من تفاسير القرآن الكريم، ومن الدراسات القرآنية والبلاغية قديماً وحديثاً، وانتفعت بما ألف في مجال العقيدة والقصص القرآني وأمثاله، مما هو بين أيدينا، ويتصل بموضوعنا، وأفادت كذلك من كتب السنة، ومعاجم اللغة، وكتب التراجم، إلى غير ذلك من المصادر والمراجع التي أفادت هذه الأطروحة منها، إفادة كبيرة، مما هو مدرج في هوامشها، وفي الثبت الأخير منها، واستعانت في تصنيف الآيات حسب مواضعها بالمفردات للراغب، وبالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وتصنيف آيات القرآن الكريم، وتفصيل آيات القرآن الحكيم.

وقد قسمت هذه الأطروحة بعون الله ـ تعالى ـ وتوفيقه إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب ـ تخللها فصول ومباحث ـ وخاتمة وفهارس.

---

(1) اعتمد الباحث في هذه الأطروحة على رواية الإمام قالون عن نافع، والرسم العثماني على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني، ثم غيرت برواية حفص عن عاصم، رغبة من دار قتيبة التي تولت نشر هذا الكتاب.

أما **المقدمة** فقد تناولت فيها أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، والصعاب التي واجهتني فيه، والمنهج المتبع في هذه الأطروحة، والمصادر التي اعتمدت عليها، وطريقة بنائها.

أما **التمهيد** فقد خصصته لتقديم فكرة موجزة عن بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، ولتوضيح بعض المصطلحات المهمة التي يدور عليها هذا البحث، التي تضمنت التعريف بمصطلح التصريف، وأتبعته بذكر الآيات الدالة على هذا المصطلح، مسترشداً بتوجيه بعض المفسرين لهذه الآيات، ومبيناً المصطلحات المرادفة للتصريف، محدداً إياها في مصطلحي التكرار والترداد، ذاكراً بعض من صنف فيهما ومبيناً مساويهما واضطراب بعض العلماء فيهما.

ثم بينت التصريف في دراسات السابقين، وأتبعته ببيان الحكم والغايات المقصودة من تصريف القول في القرآن الكريم، ثم أعطيت فكرة موجزة عن الموضوعات التي تناولتها الدراسة.

وأما **الباب الأول** فقد خصصته للتصريف في بناء السور والآيات، وجعلته في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التصريف في بناء السور، وتكلمت فيه عن أقسام القرآن حسب أنواعها، ثم أجملت القول عن تنوع بنائها في كل قسم.

الفصل الثاني: التصريف في فواتح السور وخواتمها، وتحدثت فيه عن تنوعها، وحكمة تصريفها.

الفصل الثالث: التصريف في بناء الآيات، وتكلمت فيه عن معنى الآية لغة واصطلاحاً، وعن ترتيب الآيات، والدقة في بنائها، واختيار الكلمات المناسبة لمعانيها، ومثلت لذلك بأمثلة من القرآن الكريم، وتكلمت عن بناء الآيات في المكي والمدني، وبينت تصريف الكلمة الواحدة في المعاني المختلفة، وذلك بذكر بعض الأمثلة التي تبين التصريف البديع، والتفنن العجيب.

أما **الباب الثاني** فقد خصصته لتصريف القول في آيات العقيدة، وقسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تصريف القول في إثبات التوحيد وإبطال الشرك واعتقادات المشركين، تكلمت فيه عن التوحيد ـ مصطلحه وغايته ـ وعن تصريف القول في إثباته، وعن تنويع القرآن لأدلته وإيرادها بطرائق شتى وأساليب مختلفة.

وتناولت في هذا الفصل أيضاً تصريف القول في إثبات الصفات الإلهية، وتصريف القول في إبطال الشرك واعتقادات المشركين، وتصريف القول في أساليب إثبات التوحيد.

الفصل الثاني: تصريف القول في إثبات البعث والجزاء، ومشاهد القيامة والحساب.

وتكلمت فيه عن البعث والجزاء ـ مصطلحه وأهميته ـ وعن عناية القرآن الكريم بهما وعن إثباتهما، وتحققهما، وعن تنوع المعاني والأساليب الدالة عليهما، وعن تصريف القول في أسماء يوم البعث والجزاء، والعدالة الإلهية في ذلك، وعن أصحاب الجنة وجزائهم فيها، وعن أصحاب النار وجزائهم فيها، وعن تصريف القول في مشاهدة النعيم والعذاب.

الفصل الثالث: تصريف القول في إثبات النبوة والرسالة: وتحدثت فيه عن مكانة النبوة، والرسالة في القرآن الكريم، وعن تنوع أدلة إثباتها في القرآن الكريم، وعن تصريف القول في آيات الوحي.

وأما **الباب الثالث** فقد خصصته لتصريف القول في آيات الموعظة، وجعلته في فصلين:

الفصل الأول: تصريف القول في القصص القرآني

وتكلمت فيه عن بلاغة تصريف القصص القرآني، وعن مقاصده وأسلوبه، ومثلت له بنماذج من تصريف القصص القرآني.

الفصل الثاني: تصريف الأمثال في القرآن الكريم، وتكلمت فيه عن بلاغة تصريف الأمثال في القرآن الكريم، وعن مقاصدها وتنوعها.

وأما **الخاتمة** فقد جاءت لتبيِّن أهم النتائج التي توصلتُ إليها في هذه الدراسة المتواضعة، وأتبعتها بثَبْت للمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات، ورتبت ثَبْت المصادر والمراجع على حروف المعجم، وهي المصادر التي أفادت منها الأطروحة، وأخذت عنها.

وقد حاولت المقاربة في الطول بين جميع أبواب الأطروحة وفصولها، لكن طبيعة الموضوعات حالت دون ذلك، فجاء الباب الثاني أطول من البابين الأول والثالث.

وإنني إذ أقوم بهذه الدراسة عن بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى) لا أدّعي أنني بلغت فيها درجة الكمال؛ لأن النقص من طبيعة البشر، والكمال لله وحده، وإنما حسبي أنني حاولت قدر المستطاع أن يأخذ هذا الموضوع مكانه اللائق به في الدراسات القرآنية والبلاغية، واجتهدت قدر وسعي، وعشت مع آيات كتاب الله - تعالى - في هذه الأطروحة ألتمس مزيداً من الفهم والإدراك لآيات القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخالد المعجز، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه.

ويسعدني أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير، والعرفان بالجميل، لأستاذي الجليل العلامة: الدكتور أحمد أبو زيد، أستاذ الإعجاز القرآني بكُلِّيَّة الآداب، جامعة محمد الخامس، الذي تفضل بتوجيهي وإرشادي إلى هذا الموضوع، وقَبِلَ الإشراف عليه، وتابع جميع مراحل دراسته بكل العناية والاهتمام، على الرغم من مشاغله الكثيرة، وأعماله المتواصلة.

وما كان لهذا العمل المتواضع أن يخرج بهذه الصورة، لولا التوجيهات الصادقة المشفوعة بالدقة التامة، التي قدمها لي أستاذي الفاضل، الذي بذل لي من الجهد والوقت، وأعطى من العلم والمعرفة، وأسدى من النصح والإرشاد، ما أعجز عن التعبير عنه، وما لا أجد له ما يليق به من عبارات الشكر والثناء، فهو الذي

شجعني أيضاً على تجاوز صعابه، ودلني على طرائق اختيار جزئياته، وأفادني بمنهجه القيم فكان لي خير زاد خلال رحلتي العلمية هذه.

ـ فالله سبحانه وتعالى أسأل أن يجازيه عنّي خير الجزاء ـ.

كما أغتنم هذه الفرص لأتوجه بالشكر الجزيل، إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ بالرباط ـ الموقَّرة التي انتسبت إليها، ومكنتني من الدراسة فيها.

ويطيب لي أن أشكر كُلَّ من مَدَّ لي يد العون والمساعدة في هذا العمل العلمي، ووفّر لي من جهده ووقته، وما احتجته من المصادر والمراجع والتوجيهات.

وجزى الله الجميع عنّي كلّ خير.

وأرجو في ختام هذه المقدمة أن أكون قد وفقت في إنجاز هذا العمل بالصورة المرضية، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب، والحمد لله رب العالمين ـ وصلّى الله على خاتم أنبيائه وأفضل خلقه أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

د. عبد الله محمد النقراط

الرباط في 10. 5. 1998

الفصل التمهيدي
أهم القضايا والمصطلحات المتعلقة ببلاغة تصريف القول في القرآن الكريم
(المقاصد الكبرى)

يعدُّ موضوع بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم موضوعاً مهماً، باعتباره يدرس بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وهو أيضاً موضوع جديد، لم ينل العناية اللائقة به؛ لأنه من خلال بلاغة القرآن يتم تذوق أسلوبه، وفهم معانيه، والاطلاع على أسراره، ومعرفة إعجازه، لذا قصدت في هذا التمهيد، أن أبين أهم القضايا والمصطلحات الخاصة بهذا الموضوع.

ومن هنا يجدر أن أبين ما الذي نقصده بتصريف القول في القرآن الكريم، وهذا بدوره يقودنا إلى تعريفه لغةً واصطلاحاً، وإلى استخلاص الأدلة، التي تُخَوِّلنا دراسته، وتسميته بهذا الاسم، ويتضح لنا هذا الأمر جليّاً من خلال ما نستعرضه من آيات كتاب الله ـ تعالى ـ وما نستعرضه أيضاً من تعريفات، وبيان لجهود السابقين.

ومن خلال تتبعنا مصطلح تصريف القول في الدراسات القرآنية ـ نجد أن الذين استعملوا هذا المصطلح قلة، وقد شاع عند الكثيرين ممن اعتنوا بإعجاز القرآن الكريم وبلاغته استعمالُ مصطلح التكرار والترداد، والمتشابهات، وقد تداخل مصطلح التصريف مع هذه المصطلحات، ذلك ما ستبينه الدراسة اللاحقة.

وقد آثرت تسميته بمصطلح تصريف القول في القرآن الكريم، اقتداء بكتاب الله ـ تعالى ـ الذي وردت فيه آيات كثيرة في التصريف، وسأتناولها ـ إن شاء الله تعالى ـ في موضعها، وسيأتي مزيد بيان للمصطلحات الأخرى المرادفة لهذا المصطلح.

أولاً. التصريف لغةً:

قال الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن»: «الصّرف ردُّ الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره. يقال صرفْتُهُ فانصرف، قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾[1].

وقال الله تعالى:

﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾[2].

وقال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾[3].

والتصريف كالصّرف إلا في التكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر، وتصريف الرياح، هو صرفها من حال إلى حال، قال الله تعالى:

﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ ﴾[4]. ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾[5].

ومنه تصريف الكلام، وتصريف الدراهم»[6].

وقال صاحب «اللسان»: «الصّرف ردّ الشيء عن وجهه.. صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانصرف، وصارف نفْسَه عن الشيء: صرفها عنه.. إلخ ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أي: بيّنّاها، وتصريف الآيات تبيينُها، والصرف أن تصرف إنساناً عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك.

---

(1) آل عمران: 152.

(2) هود: 8.

(3) التوبة: 127.

(4) الأحقاف: 27.

(5) طه: 113.

(6) المفردات في غريب القرآن ص 279 - 180، كتاب الصاد - مادة: صرف.

ومنه تصاريف الرياح والسّحاب، الليث: تصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة، وكذلك تصريف السيول والخيول، والأمور والآيات، وتصريف الرياح: جعلُها جنُوباً وشمالاً وصبَاً ودبُوراً، فجعلها ضروبا في أجناسها»[1].

ثانياً. التصريف اصطلاحاً:

قال الرّماني في رسالته «النكت في إعجاز القرآن»: «التصريف: تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها به على جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة، كتصريف الملك في معاني الصفات، فصُرّف في معنى مالك، وملك، ذي الملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك، والتمالك والإملاك، والتملك والمملوك.

كذلك تصريف معنى العرض في الأعراض، والاعتراض، والاستعراض، والتعرض والتعريض والمعارضة، والعرض والعروض، وكله منعقد بمعنى الظهور، ومنه: أعرضت اليمامة، أي ظهرت، وهو الأصل، ومنه أيضاً الإعراض عن الإنسان: لأنه انزواءٌ عن الظهور له، ومنه الاعتراض، وهو ظهور ما يصد عن الذهاب، ومنه الاستعراض للجارية؛ لأنه طلبٌ لظهورها للحاسة. ومنه التعريض للأمر؛ لأنه طلبٌ لظهوره بالفعل.. إلخ»[2].

وقد عقب الأستاذ أبو زيد[3] على هذا التعريف قائلاً: «هذا أول تعريف للتصريف، يلتقي به الباحث المتصفح للدراسات القرآنية، وقد انفرد أبو الحسن الرماني باستعمال هذا المصطلح وبجعْله باباً من أبواب بلاغة القرآن، لكنه أوجز الكلام في هذا الباب بصورة جعلت حقيقة التصريف غير واضحة، وعذره في ذلك أنه التزم بشرطه في رسالته، وهو الاختصار، غير أنه أحسن التقريب حين ذكر أن

(1) لسان العرب 9/ 189 مادة: صرف.

(2) النكت في إعجاز القرآن ص 101.

(3) هو الدكتور أحمد أبو زيد، أستاذ التعليم العالي، بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس، وهو الأستاذ المشرف على هذه الأطروحة.

التصريف جاء في القرآن في غير قصة، كقصة موسى ـ عليه السلام ـ ذُكرت في سورة الأعراف وفي طه والشعراء وغيرها، ففي ذلك تقريب لحقيقة التصريف ومدلوله البياني»[1].

وبمثل تعريف الرماني، عرفه أبو بكر الباقلاني، ولعله نقله منه، دون أن يعزوه لصاحبه، ـ وبخاصة أن الرماني متقدم عليه، فقال: «وأما التَّصْريف فهو تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة، كتصريف «الملك» في معاني الصفات، فصُرِّف في معنى «مالك» و«ملك» و«ذي الملكوت» و«المليك» وفي معنى «التمليك» و«التملك» و«الإملاك»؛ وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، ما كرر من قصة موسى في مواضع»[2].

ويعرفه السجلماسي فيقول: «إن التصريف مقولٌ وضعاً بمعنى التغيير وبيان نسبة النقل من جمهوري الاستعمال بَيِّنٌ بحيث تخطِّيه إلى الفاعل، فالفاعل هو: إعادة اللفظ الواحد بنوع المادة فقط في القولين، ببنائين مختلفي الصورتين مرتين فصاعداً، وبالجملة فهو لفظ يُشتقّ من لفظ، ولهذا النوع في القول، إذا استُعمل في موضعه ووقع منه في موقعه رونق وحلاوة وروعة وطلاوة، وللنفس نحوه ارتياح واهتزاز، وله فيها تأثير بَيِّنٌ واستفزاز اقتضى له ذلك المزية على التجنيس، والفضل في الجنس عليه، لأخذه من المعنى بقسط، وضربه فيه بنصيب، وذلك واضح جداً»[3].

وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾[4].

«ومعنى صرّفنا: نوّعْنا من جهة إلى جهة، ومن مثال إلى مثال، والتصريف لغة: صرف الشيء من جهة إلى جهة.

---

(1) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم، وهو بحث للأستاذ أبو زيد لمّا ينشر بعد ص 4.

(2) إعجاز القرآن ص 274.

(3) المنزع البديع ص 499 ـ 500.

(4) الإسراء 41.

ثم صار كناية عن التبيين، فقال لم نجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومحكماً ومتشابهاً، وأمراً ونهياً، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثل تصريف الرياح من صَبَا ودَبُور، وجنوب وشمال، ومفعول صرّفنا محذوف، أي صرّفنا الأمثال، والعبر والحكم، والأحكام، والأعلام»[1].

وأوضح من هذا قول محمد الطاهر بن عاشور، عند تفسير قوله تعالى:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[2].

إذ قال: «وتصريف الآيات اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات السموات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله. فالآيات هنا هي دلائل الوحدانية، فهي متحدة في الغاية مختلفة في الأساليب، متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام، عامِّها وخاصِّها، وهي أيضاً مختلفة في تركيب دلائلها من جهة المقدمات، العقلية وغيرها، ومن جهة الترغيب والترهيب، ومن التنبيه والتذكير بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول»[3].

يتبين لنا من التعريفين اللغوي والاصطلاحي، أن تصريف الآيات: هو تنويعها في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد، وعرضها بصور شتى وأساليب مختلفة، وذلك لتقرير أصول العقيدة وعرض أدلتها وبيان الحجج والدلائل الدالة على الوحدانية، وعظيم القدرة الإلهية، وإثبات البعث والجزاء، والنبوة والرسالة، وإيراد القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، وما إلى ذلك مما صرف القرآن بيانه.

فهذه الموضوعات تتردد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وفي كل سورة تقريباً، لكن طرائق عرضها وأساليب تقريرها، تبدو في كل موضع

---

(1) البحر المحيط 6/ 36 ـ 37.

(2) الأنعام 46.

(3) التحرير والتنوير 7/ 235.

جديدة، وقد تظن عند النظرة السطحية أن ذلك تكرار، قصد به ترسيخ تلك المعاني، لكن عند التدبر والتعمق يظهر أنه ليس تكراراً، ولا ينبغي أن يسمى تكراراً، وأن الاسم الأنسب له هو التصريف، أي تصريف القول في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد[1]. ذلك ما تبينه الآيات الدالة على التصريف، وتفسير بعض المفسرين لهذه الآيات.

ثالثاً. مصطلح التصريف في القرآن الكريم:

إن المستقرئ لنصوص القرآن الكريم، يجد نصوصاً ذكرت التصريف في مواضع متفرقة من آيات الكتاب العزيز، أذكر منها ما يخص غرضنا، مسترشداً بتوجيه بعض المفسرين لهذه الآيات، ومهتدياً بآرائهم لتتبع أسرارها، وفيما يلي النصوص الدالة على ذلك:

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(1) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم ص 6.

(2) الأنعام 46.

(3) نفسها 65.

(4) نفسها 105.

وقال تعالى :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾(2) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[3] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[4] .

وقال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[5] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[6] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[7] .

---

(1) الأعراف 58 .

(2) الإسراء 41 .

(3) الإسراء 89 .

(4) الكهف 54 .

(5) طه 113 .

(6) الفرقان 50 .

(7) الأحقاف 27 .

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3].

تلك الآيات الدالة على تصريف القول في القرآن الكريم، وقد جاء فعل التصريف فيها واقعاً على الآية في مواضع، وعلى المثل والوعيد، وعلى القرآن كله في مواضع أخرى، ذلك ما سنراه في معاني التصريف عند المفسرين.

رابعاً. معاني التصريف عند المفسرين:

إن المتتبع لتفسير بعض المفسرين لتلك الآيات يلاحظ أن للتصريف معاني متعددة، بحسب فهم كل منهم لمصطلح تصريف القول في القرآن الكريم.

فهذا القرطبي فسر معنى التصريف في قوله تعالى:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[4].

---

(1) البقرة 164.

(2) الجاثية 1 ـ 5.

(3) القصص 51.

(4) الأنعام 46.

بالإتيان بها من جهات من إعذار وإنذار، وترغيب وترهيب، ونحو ذلك[1]، وفي موضع آخر، أن تصريف الآيات في الوعد والوعيد، والوعظ والتنبيه[2].

وعند القاسمي، إيراد الآيات بطرق مختلفة[3] وفي موضع آخر: إيرادها على وجوه كثيرة في سائر المواضع لتكمل الحجة على المخالفين[4] وعند صاحب «المنار»: تنويع الحجج والبيانات الكثيرة، وجعلها على وجوه شتى[5].

وفسر القاسمي التصريف في قوله تعالى:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[6].

بالتحويل من نوع إلى آخر[7].

وقال محمد بن عاشور: «وتصريف الآيات: تنويعها بالترغيب تارة والترهيب أخرى»[8].

وقال أبو حيان الأندلسي، في تفسير قوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[9].

«أي مثل هذا التصريف والترديد والتنويع ننوّع الآيات ونردّدها، وهي الحجج الدالة على الوحدانية والقدرة الإلهية التامة»[10].

نفهم من تفسيره لهذه الآية أنه جعل التصريف والترديد والتنويع بمعنى واحد، ثم خلص حسب فهمنا إلى أن التصريف هو التنويع والترديد، وذلك ما دل عليه قوله: «ننوّع الآيات ونردّدها».

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 6 ـ 428.

(2) نفسه 7/ 58.

(3) محاسن التأويل 6/ 2315.

(4) نفسه 6/ 2456.

(5) تفسير المنار 7/ 417.

(6) الأنعام 65.

(7) محاسن التأويل 6/ 2355.

(8) التحرير والتنوير 7/ 285.

(9) الأعراف 58.

(10) البحر المحيط 4/ 322 ـ 323.

ونجد أن من معاني التصريف: التنويع والتفنن، وذلك ما أشار إليه محمد بن عاشور، إذ قال: «والإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ إلى تفنن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانية، والدالة أيضاً على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابلية الناس للهدى، والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيِّن، المقرب جميع ذلك، فذلك تصريف، أي: تنويع وتفنين للآيات، أي الدلائل»[1].

ونجد أيضاً أن من معاني التصريف، بيان وجوه الحجج الدالة على الإيمان، وذلك ما أشار إليه القاسمي، عند تفسيره للآية السابقة، إذ قال: «أي نبين وجوه الحجج ونرددها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يعني كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان، آيةً بعد آية، وحُجّةً بعد حُجّةٍ، لقوم يشكرون الله ـ تعالى ـ على إنعامه عليهم بالهداية»[2].

وقال صاحب «عمدة الحفاظ»: أي نُبينها تبيين من يقلّب الشيءَ، هذا إن أريد بها ما أرسله من العلامات والدلالات، فالتصريف على حاله، أي ليُشيعها ويقلّبها ويردّدها بين الناس، إما بالمشاهدة وإما بالسماع ليرتدعوا»[3].

وفسره القرطبي في موضع آخر بالبيان والتكرير، إذ قال: «أي بيَّنّا وقيل: كَرَّرنا، والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة، والمراد بهذا التصريف، البيان والتكرير»[4].

وتبعه القاسمي إذ قال: «أي كرّرنا للناس البيان بوجوه كثيرة، وبيّنّا فيه من كل مثل»[5].

---

(1) التحرير والتنوير 8/ 186.

(2) محاسن التأويل 7/ 2760.

(3) عمدة الحفاظ 2/ 1434.

(4) الجامع لأحكام القرآن 10/ 264.

(5) محاسن التأويل 10/ 393.

وذهب الزمخشري إلى أن المقصود بالتصريف في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾[1].

«أحد أمرين، إما أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرر ذكره، والمعنى ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، وأوقعنا التصريف فيه، وجعلناه مكاناً للتكرير، وإما أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل، ويريد ولقد صرفنا يعني هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فتُرك الضمير لأنه معلوم»[2].

وذهب حسن محمد باجودة إلى أن في الآية حذفاً بلاغياً تقديره: ولقد صرفنا القول في هذا القرآن ليذكروا، بمعنى أن هذه القضية، الغاية في الأهمية، قضية التوحيد، اقتضت منه ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يحول القول في القرآن الكريم من وجه إلى وجه، بقصد حمل الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم أولاً على أن يتدبروا هذا القرآن ويفهموه، ويقروا بوحدانية الله ـ تعالى ـ وينبذوا الآلهة التي لا تخلق شيئاً، ولا تنفع، ولا تضر.

وقد كان تصريف القول في القرآن الكريم، متمثلاً في اشتماله على ضروب القول المختلفة، من وعد ووعيد، وقصص وأمثال، وخبر وبشارة وإنذار، وما إلى ذلك من طرق القول[3].

وذكر القرطبي أن معنى التصريف في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[4].

توجيه القول بكل مثل يجب به الاعتبار من الآيات، والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأولين، والجنة والنار، والقيامة[5].

---

(1) الإسراء 41.

(2) الكشاف 2/ 450.

(3) تأملات في سورة الإسراء ص 184 ـ 185.

(4) الإسراء 89.

(5) الجامع لأحكام القرآن 10/ 327.

وذكر القاسمي أن التصريف في قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[1].

إيراد القول بعبارات شتى تصريحاً وتلويحاً، وضروب أمثال، وإقامة براهين[2].

يتبين لنا من العرض السابق لأقوال المفسرين في بيان مصطلح التصريف، أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، بل إن كل واحد منها يكمل الآخر في تفسير المصطلح، الذي يعني أن تصريف الآيات في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد هو تنويعها، وعرضها بأساليب وصور مختلفة، من توحيد وبعث وجزاء، وقصص وأمثال، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وخبر وبشارة وإنذار، وما إلى ذلك من طرق القول المختلفة التي صرف القرآن بيانها.

خامساً. المصطلحات المرادفة للتصريف:

استعمل بعض العلماء الذين اهتموا بالبلاغة وعلوم القرآن، مصطلحات مرادفة لمصطلح التصريف، وهو مصطلح التكرار والترداد، ويتضح لنا ذلك من خلال استعراض آرائهم حول هذه المصطلحات، ومناقشتها، إذ نجد غير واحد من المتقدمين وغيرهم عدل عن مصطلح التصريف، وصرف الكلام إلى التكرار والترداد، على أن هذا المصطلح لم ينل كثيراً من عناية الباحثين، كما بينا ـ فيما سبق ذكره ـ.

1 ـ التكرار[3]:

شاع استعمال مصطلح التكرار في القديم والحديث بين المهتمين بعلوم القرآن وبلاغته، وأفرده بعضهم بالتأليف، فألف فيه ابن جماعة كتاباً سماه «المقتنص في

---

(1) طه 113.

(2) محاسن التأويل 11/ 4212.

(3) كرر الشيء تكريراً، وتكراراً: أعاده مرة بعد أخرى. وتكرر عليه كذا: أعيد عليه مرة بعد أخرى. (المعجم الوسيط 2/ 813 مادة: كرّ) والتكرار على وزن: تفعال، وقد سمع في فعَّل يُفعِّل: نحو بيّن يُبيِّنُ: تبياناً، وهو عند سيبويه: اسم وضع موضع المضمر (أنظر الطريف في علم التصريف ص 209).

فوائد تكرار القصص»[1] وألف فيه من المحدثين: عبد المنعم السيد حسن، كتاباً سمَّاه «ظاهرة التكرار في القرآن الكريم»[2].

هذا فيما يتعلق بالمؤلفات التي ألفت فيه، وأما فيما يتعلق بالذين تعرضوا له من خلال كتاباتهم فكثيرون، نذكر منهم أصحاب المتشابهات، والذين ألفوا في البلاغة وعلوم القرآن.

أ. المصنفون في المتشابهات:

أفرد الذين صنفوا في المتشابهات مصطلح التكرار بالحديث وتوسعوا فيه، ويأتي في مقدمتهم الخطيب الإسكافي، ثم الكرماني، ثم ابن الزبير الغرناطي، ثم بدر الدين بن جماعة، وهذا الترتيب الذي اخترته راجع إلى ترتيب وفياتهم لا إلى قيمة مصنفاتهم، التي سيأتي الحديث عنها في موضعه - إن شاء الله تعالى.

وقد اهتم الذين صنفوا في المتشابهات، بهذا النوع من البيان القرآني، وسمَّوْه التكرار، وبينوا فوائده، وتناسُبَ وقوعه في كل آية من الآيات الوارد فيها، إذ أحصوا الآيات المتناظرة في كتاب الله، وبينوا فوائد تكرارها في القرآن، رداً على الجاحدين والملحدين الذين طعنوا في القرآن الكريم، بما تراءى لهم من تكرار في نظرهم، وهو غير ما رأوا؛ لأنهم جهلوا تصريف بيانه وتفنن أساليبه.

وقد اضطربوا في توجيههم لهذه الآيات، فمرة يرون أنه تكرار وله فوائد بينوا بعضها في مؤلفاتهم، ومرة ينفون عنه هذه الصفة، التي صرح أكثر من واحد منهم بأن لا نطلقها على القرآن، وهو الذي نميل إليه ونختاره.

---

(1) انظر معترك الأقران 1/ 263 والإتقان 3/ 204 وذكره صاحب كشف الظنون بعنوان «المقتص في فوائد تكرار القصص» (أنظر كشف الظنون 2/ 1793). وقد أثبته محقق «كشف المعاني في المتشابه من المثاني» عبد الجواد خلف بعنوان «المقتص» اعتماداً على ما ذكره حاجي خليفة وإسماعيل باشا (أنظر كشف المعاني ص 36).

(2) ذلك ما بينه في مقدمة كتابه إذ قال: «ولما شرفني الله بارتياد تلك الآفاق الرحبة عنَّ لي أن أشرف باختبار ظاهرة من ظواهر القرآن الكريم، هي ظاهرة التكرار، أو بالأحرى ظاهرة ما يحسبه الناس تكراراً، فاستخرت الله في أمر دراسة هذه الظاهرة وبحثها» ص 5.

فهذا الخطيب الإسكافي، المتوفى سنة (420هـ) تعرض لمصطلح التكرار في كتابه «درّة التنزيل وغرّة التأويل» ضمن ما تعرض له من موضوعات في توجيهه للآيات المتشابهة، وكان له فضل السبق في التصنيف فيها تصنيفاً مستقلاً.

وقد أبان عن ذلك في مقدمته حين قال: «إني مذ خصّني الله بإكرامه وعنايته، وشرّفني بإقراء كلامه ودرايته، تدعوني دواع قوية، يبعثها نظر وروية في الآيات المتكررة، بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآياتها دون إشكالها»[1].

ثم أخذ يبيّن ما يراه متشابها بأي نوع من أنواع التشابه، وعندما يأتي على آية أو آيات يراها مكررة، يقدم لها بسؤال يسأل فيه عن الفائدة من تكرارها.

وفي آيات كثيرة نجده ينفي التكرار عن تلك الآيات، منها على سبيل المثال، ما ورد في قوله تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2].

وفي سورة الأنفال قوله تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[3].

وبعدها قوله تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾[4].

---

(1) درّة التنزيل وغرة التأويل ص 7.

(2) آل عمران 11.

(3) آية 52.

(4) آية 54.

فقال: «والمسألة الخامسة عن فائدة التكرار في سورة الأنفال في موضع لا يحجز بينهما إلا آية واحدة»[1].

وأجاب عن ذلك بقوله: «وهذه المسألة قد أجاب عنها بعض أهل النظر، بأن قال: أخبر الله - تعالى - عن إجراء العادة فيهم بنوعين من العذاب مختلفين، وإذا كان كذلك لم يكن تكراراً»[2].

وكأنه بتوجيهه هذا يبين أن في هذه الآيات تصريفاً للقول دون أن يصرح به.

ويؤكد في موضع آخر، أن ذلك لا يسمى تكراراً، إذا أعيد الكلام لأسباب مختلفة[3].

تلك نبذة مختصرة عما ذكره الخطيب الإسكافي عن التكرار، نخلص منها إلى أنه كان بقصده هذا يبين فوائد التكرار في الآيات أحياناً، وينفي التكرار عن الآيات أحياناً أخرى، كما هو الحال فيما ذكرناه من أمثلة.

ثم جاء بعده الكرماني، تاج القراء محمود بن حمزة، المتوفى حوالي (505هـ) وقد تحدث كذلك عن هذا المصطلح وأسبابه في كتابه «البرهان في متشابه القرآن» أبان عن ذلك في مقدمة كتابه هذا حين قال: «فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات، التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة»[4].

ونجده أحياناً ينفي مصطلح التكرار، كما في قوله تعالى:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[5].

إذا قال: «وفي قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ليس بتكرار؛ لأن كل واحد منهما متصل بفعل غير الآخر، وهو الإنعام والغضب، وكل واحد منهما يقتضيه اللفظ، وما كان هذا سبيله فليس بتكرار ولا من المتشابه»[6].

---

(1) درة التنزيل وغرة التأويل ص 60.

(2) نفسه ص 63.

(3) نفسه ص 82.

(4) البرهان في متشابه القرآن ص 110.

(5) الفاتحة 7.

(6) البرهان في متشابه القرآن ص 113.

وقد تعرض لذكر مصطلح التكرار في القرآن: ابن الزبير الغرناطي، المتوفى سنة (708هـ) من ضمن توجيهه للآيات المتشابهة، إذ أبان عن ذلك في مقدمة كتابه «ملاك التأويل» حين قال فيها: «وإن من مغفلات مصنّفي أئمّتنا - رضي الله عنهم - في خدمة علومه وتدبّر منطوقه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرّر من آياته لفظاً»[1].

ونجده يستعمل هذا المصطلح في غير محله، عند توجيهه لما بدئ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواقع في خمس سور من كتاب الله - تعالى - حين تعرض لبيان السبب الذي لأجله كرر لفظ (رَبّ) الذي خلص منه إلى أنه أعاد ذكر ربوبيته مع كل هذه المخلوقات العظام المنصوبة للاستدلال بها، والاعتبار بعظيم خلقها، وما فيها[2].

إن هذا في رأينا لم يكن تكراراً، وإنما هو تصريف للقول، على سبيل التدرج في الاستدلال.

ونجده يستعمل هذا المصطلح في محل تصريف القول، وذلك عند توجيهه لقوله تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾[3].

فقال: «وللسائل أن يسأل عن وجه تكرار هذه الآية بنصها فيما بعد»[4] ثم أجاب عن ذلك بأن التكرار لتنوع ما نُصَّ عليهم في مرتكباتهم الدائرة على جامع واحد[5].

وقد تعرض بدر الدين بن جماعة، المتوفى سنة (733هـ) مثل سابقيه للآيات المتشابهة التي يراها مكررة، ونلاحظ ذلك من مقدمته التي قال فيها: «.. من اختلاف ألفاظ معان مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة»[6].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 3.

(2) نفسه ص 12.

(3) البقرة 134.

(4) يعني بذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة 141).

(5) ملاك التأويل 1/ 94.

(6) كشف المعاني ص 80.

وفي سبب تكرار قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1].

قال: «كررت إياك المفيدة للحصر للتصريح بتوكيد حصر الإخلاص في العبادة له، وحصر الاستعانة أيضاً به ـ تعالى ـ»[2].

ونجده يستبدل بهذا المصطلح، مصطلحاً آخر، وهو التفنن؛ لكراهة التكرار، إذ يقول: «إن ذلك كما قدمنا مرات للتفنن، لكراهة التكرار لما فيه من مج النفوس»[3].

ويرى ابن جماعة أيضاً أن التكرار، قد يكون للمشاكلة في الألفاظ، وقد يكون للتنبيه والتوكيد[4].

وصرح في توجيهه لقوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إلى أنه ليس بتكرار في المعنى، وإنما هو من معجزاته ـ ﷺ ـ وقد يكون التكرار لمشابهة رؤوس الآي، إذ القصد البيان كما في سورة الناس[5].

تلك نبذة مختصرة عما ذكره ابن جماعة عن مصطلح التكرار، نخلص منها إلى أنه يستعمل هذا المصطلح أحياناً للتأكيد، وللتقرير وللمشاكلة، ولمشابهة رؤوس الآي، وأحياناً يستبدل به التفنّن، وأحياناً أخرى ينفيه أصلاً.

ب.المصنفون في البلاغة وعلوم القرآن:

اهتم البلاغيون وأصحاب الدراسات القرآنية بمصطلح التكرار، واختاروا لذلك أمثلة من القرآن الكريم، أوردها كل من تحدث منهم في هذا الموضوع، وكانت نتائجهم متفقة، وكأنها دراسة لشخص واحد.

فلعل ابن قتيبة أول من عرض لمصطلح التكرار، عرضاً موجزاً مركزاً، إذ عقد له باب سماه باب تكرار الكلام والزيادة فيه وقد قال في ذلك: «أما تكرار

---

(1) الفاتحة 5.

(2) كشف المعاني ص 86.

(3) نفسه ص 273.

(4) نفسه ص 323.

(5) نفسه ص 383

الأنباء والقصص فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل القرآن في نجوم . . » ثم مضى يسرد الحكم إلى أن قال : «وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثنّاة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم»[1] .

واستعمل الباقلاني مصطلح التكرار مراداً به التصريف ، إذ قال : «وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة ما كرر في قصة موسى في مواضع»[2] .

وعرفه ابن الأثير بأنه : «دلالة اللفظ على المعنى مُردَّداً» وقسمه : قسمين : أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى ، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ .

ومثل لكل منهما بأمثلة لا يتسع المقام لذكرها ، وبين أن كُلا من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وغير مفيد ، ومثَّل لهما بأمثلة ، منها قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[3] .

ثم قال : «هذا تكرير في اللفظ والمعنى ، وهو قوله : ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ و﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وإنما جيء هاهنا لاختلاف المراد ، وذاك أنَّ الأول تميزٌ بين الإرادتين ، والثاني : بيانٌ لغرضه ، فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه ما نصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض»[4] .

فهذا في رأينا لم يكن تكراراً ؛ لاختلاف المراد ، وذلك ما بيَّنه ابن الأثير في تعقيبه على هذه الآية .

(1) تأويل مشكل القرآن ص 232 .
(2) إعجاز القرآن ص 274 .
(3) الأنفال 7 ـ 8 .
(4) المثل السائر 4/ 3 ـ 4 .

وتحدث عنه الإمام عز الدين بن عبد السلام في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» وعدَّه النوع الثالث عشر، من مقاصد القرآن، ويرى أنه دالٌّ على الاعتناء والاهتمام بالمكرر، فتكرير صفات الله - تعالى - دالٌّ على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها، وتكرير القصص دالٌّ على الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار[1].

ومن هنا نجد أنه استعمل هذا المصطلح في غير محله، وبخاصة فيما يتعلق بصفات الله - تعالى - والقصص، فذلك تصريف للقول على ما مر بيانه.

وعدَّه السجلماسي الجنس العاشر، في كتابه «المنزع البديع» وفصَّل القول في أنواعه، ثم وصل من خلال ذلك إلى أن المقاربة وهو نوع من التكرار - جنس متوسط تحته نوعان: أحدهما التصريف، والثاني: المعادلة، وذلك أنه إما أن يعيد لفظين فصاعداً متفقي المادة فقط دون الصورة، وهذا هو التصريفُ، وإما أن يُعيد لفظيْن متفقَي الصورة فقط دون المادّة وهذا هو المعادلة[2].

وعدَّه ابن النقيب، القِسم الحادي عشر في مقدمة تفسيره[3] ورأى أن الكلام فيه من وجوه: الأول في حقيقته، والثاني في ذكر الفائدة التي أتي به من أجلها، والثالث في أقسامه، والرابع في ذكر ما يتهيّأ فيه التكرار، الحسن منه والقبيح.

وقد أتى بأمثلة من القرآن الكريم لكل قسم ونوع من الأنواع التي يرى التكرار فيها حسناً، وقال عن النوع الثاني، وهو التكرار القبيح: «فهو التكرار العاري عن الفائدة، وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده، أو في المعنى واللفظ معاً، أما الأول فقد أعابه بعضهم مطلقاً، وبعضهم فصّل فأعابه على الناثر، وعلى الناظم، وأما الثاني: فقد اتُّفِق على قبحه»[4].

---

(1) الإشارة إلى الإيجاز ص 217.

(2) المنزع البديع ص 499.

(3) المنسوب خطأً لابن القيم إمام الجوزية، بعنوان «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان». وهو ما نبهنا إليه أستاذنا أحمد أبو زيد.

(4) مقدمة تفسير ابن النقيب ص 111 - 113.

وذكر الخطابي: أنه يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ومعناه.

وقد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف، واستدل على كل منهما بأمثلة من القرآن، وخص منه بالذكر التكرار، الذي مثَّلَ له بتصريف قوله تعالى:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في سورة الرحمن.

وقوله تعالى:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ في سورة المرسلات.

ثم قال: «وليس واحد من المذهبين بالمحمود عند أهل اللسان، ولا بالمعدود في النوع الأفضل من طبقات البيان»[1].

وعدَّه الزركشي: القسم الرابع عشر في كتابه «البرهان في علوم القرآن» وعرَّفه بقوله: «وهو مصدر كرَّر إذا ردّد وأعاد».

وقال: «وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض».

ويمضي بعد هذا موضحاً للتكرار في القرآن، مستشهداً بأدلة من القرآن نفسه لبيان ذلك، وقد صرّح بأهم غرض للتكرار، بقوله: «وفائدته العظمى التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر»[2].

وقد استشهد أيضاً للسبب الذي لأجله كرر الله ـ سبحانه وتعالى ـ القصص والأخبار بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[4].

---

(1) بيان إعجاز القرآن ص 39 ـ 40.

(2) البرهان 3/ 8 ـ 10.

(3) القصص 51.

(4) طه 113.

وهاتان الآيتان في رأينا دالتان على التصريف لا على التكرار، وقد استغرب الأستاذ أبو زيد من أن بعض المصنفين في علوم القرآن، من القدماء يُؤْثِر مصطلح التكرار في عنوان الباب، وحين يصل إلى الحديث عن فوائد التكرار يستدل بالآيات التي جاء فيها لفظ التصريف، كما هو عند الزركشي والسيوطي، وغيرهما، وفي هذا الصنيع ما يدل على أن هؤلاء كانوا يتساهلون في استخدام هذه المصطلحات ولا يلتزمون التدقيق والتحديد، وإلا فكيف يفسر هذا الانصراف عن مصطلح التصريف الذي ورد في القرآن، وإيثار مصطلح التكرار الذي لا يؤدي حقيقة مفهوم التصريف، ولا يناسب كلام الله المنزّه عن كل نقص أو فساد[1].

ثم انتقل الزركشي بعد ذلك لبيان فوائد التكرار حسبما رآه، وحصرها في سبع فوائد، هي على الترتيب التأكيد، وزيادة التنبيه، وتطرية للكلام وتجديد لعهده، والتعظيم والتهويل، وفي مقام الوعيد والتهديد، والتعجب، ولتعدد المتعلق.

وقد ذكر لكل فائدة من هذه الفوائد أمثلة يضيق المقام لذكرها[2].

وعدّه السيوطي النوع الرابع من أنواع الإطناب بالزيادة في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» ويرى أنه أبلغ من التأكيد، ومن محاسن الفصاحة، خلافاً لبعض من غلط[3]. وتعرض له كذلك في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن»[4] وهو نفس ما ذكره في «الإتقان». ومن ثم اكتفي بهذه الإشارة عن السيوطي؛ لأن ما ذكره قد تعرض له الزركشي قبله بنصه.

وتعرض له أيضاً الفقيه العالم الطوفي سليمان في كتابه «الإكسير في علم التفسير» وعرفه بقوله: «وهو ذكر الشيء مرتين فصاعداً» ويرى أن فائدته تكمن في تأكيد الأمر وتفخيمه وتعظيمه، أو عكس ذلك وهو عنده قسمان: تكرار اللفظ

---

(1) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم ص 13.
(2) البرهان 3/ 11 ـ 33.
(3) 3/ 199.
(4) 1/ 258 وما بعدها.

والمعنى جميعاً، وتكرار المعنى دون اللفظ، وصرح بأن كلاً منهما مفيد وغير مفيد، واستشهد لذلك بأمثلة من القرآن نفسه لكل قسم منها يطول ذكرها[1].

وسار على نهجهم المحدثون في استعمال مصطلح التكرار، فاستخدموه في مصنفاتهم بدل مصطلح التصريف.

فهذا مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ يرى أن للتكرار معنى دقيقاً في التحدي، فقال: «وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً، وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد، وبسط الموعظة، وتثبيت الحجة ونحوها.. وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم للتهويل، والتوكيد، والتخويف، والتفجُّع، وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة»[2].

وقد نبه الإمام محمد أبو زهرة في حديثه عن الإطناب ومواضعه في القرآن إلى أن التكرار ليس من الإطناب، وهو من الحشو، إذا كان في سياق واحد، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى، ولا يتكرر فيه اللفظ، وإذا بدا للقارئ الذي لا يمحص المعاني والحقائق أن في الكلام القرآني تكراراً للمعنى، فإن ذلك عند ذوي الفهم السليم تفكير سقيم؛ لأن تكرار المعنى له وصف آخر، يؤدي فكرة جديدة.

وقد ضرب لذلك أمثلة وناقشها رداً على من ادَّعى تكراراً في المعنى، مبيِّناً أنه لا تكرار، وأنه لا يوجد تكرار لفظي في جملة واحدة، ولا في موضع واحد[3].

---

(1) ص 245.

(2) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية 193 ـ 194.

(3) المعجزة الكبرى القرآن ص 313 ـ 315.

ولندعه يحدثنا عن ذلك بقوله: «وقد ادَّعى بعض العلماء التكرار في مواضع في القرآن، وعلّله بما لا يتنافى مع إعجاز القرآن الكريم، بل إنه من دلائل الإعجاز، إذ إن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة في مواضع مختلفة مع جمال الألفاظ والجمل في مواضعها المختلفة، كأن يكرر المعنى في قصة في سور مختلفة، وكل عبارة معجزة في ذاتها، ويتحدى بها في نغمها وموسيقاها وألفاظها وجملها، وعَجْزُ العرب عن أن يأتوا بأي عبارة منها دليل على كمال الإعجاز في جملته وفي أجزائه.

ونحن نرى أنه لا تكرار في عبارات القرآن، بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة إليه، بل ذكرنا أنه إذا تكرر لفظ أو معنى فإنما يكون ذلك لمناسبة جديدة، ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار إخلالا، وذلك مستحيل على كتاب الله ـ تعالى ـ»[1].

ويرى محمد قطب في كتابه «دراسات قرآنية»: أن التكرار في القرآن من الظواهر التي تلفت النظر، وقد تكون أشدَّ وضوحاً في السور المكية منها في السور المدنية، ولكن السور المدنية كذلك لا تخلو من التكرار.

ويؤكد بأن التكرار لا يأتي اعتباطاً، إنما يأتي لهدف مقصود، وقد أشار إلى أن القرآن حين يُتلى مجمّعا على صورته في المصحف، لا نجد فيه تكراراً حقيقياً بالمعنى المفهوم من اللفظ، إنما نجد ظاهرة أخرى في الحقيقة من حيث هي جمال فنّي في التعبير، ومن حيث هي لون من التأثير الوجداني فريد.

وقد قرر أن قليلاً جداً من الآيات، أو من العبارات هي التي وردت بنصها أكثر من مرة في القرآن لأمر مقصود..

وفيما عدا هذا القليل النادر، الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي «التكرار» وإنما هي التنويع.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن ص 315 ـ 316.

وقد أشار كذلك إلى أن أكثر الموضوعات تكرر وتنوع في ذات الوقت هي موضوعات العقيدة، وذلك في السور المكية والمدنية على السواء.

وقد أتى على بعض النماذج من القصة في بعض السور، التي يوهم لأول وهلة أن هناك تكراراً في المفردات وفي المجموع[1].

وقد استنتج من هذه النماذج التي أوردها أنها تجيء في كل مرة بصيغة مختلفة تماماً، ذلك أن كل سورة تركز على جانب معين، وتعرض ذات القصة لهدف مختلف، وكذلك تختلف المقادير المأخوذة من كل موضوع، في كل سورة عن الأخرى، باختلاف الهدف من إيرادها، ونقطة التركيز فيها.

ومع ذلك لا توجد صورة مكررة بمعنى التماثل مع أية صورة أخرى، في أثناء هذا القصص المتكرر كله؛ لأن التماثل لا يحدث قط في القصص القرآني.

وأخيراً، قرر، أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن، وأنّ إعجاز هذا الكتاب، أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكرها للتذكير، والتربية والتوجيه، وبهذا القدر المعجز من التنويع، بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن كله، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع[2].

ويرى صاحب «الظاهرة الجمالية في القرآن» أن التكرار التام قليل في القرآن لا يتجاوز سوراً ستاً، مثل الرحمن والتكاثر، أما الكثرة الكثيرة فهي تكرار في كلمة وأحياناً (معدلة) أو في تركيب يزاد فيه أو ينقص منه حسب الحاجة الفكرية والجمالية في اللفظ والمعنى، والإيقاع متشابه الألفاظ والتراكيب[3].

وذكر صاحب «الإعجاز في دراسات السابقين» أنه وقع في القرآن الكريم صور من التكرار اللفظي لبعض الجمل والكلمات أو الأحداث، كالقصص ونحوها، وبعض هذا التكرار يمر دون أن يجد من القارئ أو السامع شيئاً يلفته إليه إذ يقع

---

(1) دراسات قرآنية ص 245 ـ 249.

(2) نفسه ص 251 ـ 261.

(3) انظر الظاهرة الجمالية في القرآن ص 108.

التكرار على نحو مألوف للأذن، على ما جرت به الأساليب البيانية في اللغة، وذلك كأن يتكرر اللفظ أو الجملة لغرض التوكيد.

وقد يجيء التكرار على صورة غير مألوفة فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً غير مقصد التوكيد، إذ يمتد ويطول في سلسلة تنتظم السورة كلها، وتأخذ بها من جميع أطرافها[1]. ثم قال: «إن تفرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب، مع احتفاظه بمستواه الذي عرف له من روعة النظم، وجماله، واتساق نغمه، هو شهادة قائمة للقرآن بالإعجاز»[2].

وممن قالوا بوجود التكرار في القرآن الكريم، صاحب «خصائص التعبير القرآني» مبيناً أنه يقع على وجوه منها:

1 ـ مرة يكون المكرر أداة تؤدي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفي ركنيها الأساسيين.

2 ـ وأخرى تكرر كلمة مع أختها لداعٍ، بحيث تفيد معنى لا يمكن الحصول عليه بدونها.

3 ـ فاصلة تكرر في سورة واحدة على نمط واحد.

4 ـ قصة تكرر في مواضع متعددة مع اختلاف في طرق الصياغة، وعرض الفكرة.

5 ـ بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصح مما يقرر حكماً شرعياً..

ثم قال: «وتكرار القرآن في جميع هذه المواضع التي ذكرناها، والتي لم نذكرها مما يُلحظ عليها سمة التكرار، في هذا كله يباين التكرار القرآني ما يقع في غيره من الأساليب؛ لأن التكرار وهو فن قولي معروف، قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضطراب، فيكون هدفاً للنقد والطعن؛ لأن التكرار ر خصة في الأسلوب، إذا صح هذا التعبير، والرُّخَصُ يجب أن تؤتى في حَذَر ويقَظَة»[3].

---

(1) الإعجاز في دراسات السابقين ص 393.

(2) نفسه ص 413.

(3) خصائص التعبير القرآني 1/ 321 ـ 322.

إننا لسنا معه فيما يراه من تكرار في القرآن الكريم، بحثاً له عن تعليل مناسب؛ لأسباب منها: أولاً ـ ما ذكره من أن التكرار فنٌّ قولي قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضطراب، فيكون هدفاً للنقد والطعن.

ومن ثم فإن التكرار إذا كان أسلوبه لا يسلم من القلق والاضطراب.. إلخ فإن ذلك لا ينبغي أن نصف آي كتاب الله ـ تعالى ـ بهذا الوصف، الذي لم يصرح به القرآن الكريم، وقد أبدلنا خيراً منه مصطلحاً مناسباً لمقامه الكريم، وهو تصريف القول، في غير ما آية ـ ذكرناها في هذا التمهيد ـ ثانياً ـ ما صرح به من اختلاف طرق الصياغة وعرض الفكرة، فإن في اختلاف طرق الصياغة وعرض الفكرة نفي للتكرار؛ لأنه إذا اختلفت طرق الصياغة اختلفت معه المعاني.

2 ـ الترداد:

يسمي بعض المهتمين بالبلاغة وعلوم القرآن، مصطلح التكرار بالترداد، إذ نجد الجاحظ قد عقد له مبحثاً خاصاً، في كتابه «البيان والتبيين» وسماه بهذا الاسم، ونقل في كتابه هذا أقوالاً نورد منها قوله: «وجعل ابن السَّمَّاك يوماً يتكلم، وجارية له حيثُ تسمع كلامه، فلما انصرف إليها، قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده، قال: أردّده حتّى يَفْهَمَهُ مَن لم يَفهمه، قالت: إلى أن يفهمَه من لا يفهمه قد مَلَّه من فهمه».

ونقل أيضاً قول سفيان بن عُيَيْنة عن الزُّهري قوله: «إعادة الحديث أشدُّ من نقل الصخر»، ثم قال: «وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يُؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواصّ».

وقد ورد هذا المصطلح في كلامه مراداً به التصريف، وذلك قوله: «وقد رأينا الله ـ عز وجل ـ ردد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثيرة؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب، وأصناف العجم وأكثرهم غبيٌّ غافل، أو معاند مشغول الفكر، ساهي القلب»[1].

(1) البيان والتبيين 1/ 104 ـ 105.

وعقد له أيضاً ابن أبي الإصبع المصري مبحثاً خاصاً في كتابه «تحرير التحبير» وهو عنده أن يعلّق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردّها بعينها ويعلقها بمعنى آخر، كقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1].

فالجلالة الأولى مضاف إليها، والثانية مبتدأ بها.

ومن الترديد نوع يُسمّى الترديد المتعدّد، وهو أن يتردد حرف من حروف المعاني، إما مرَّة أو مرات، وهو الذي يتغير فيه مفهوم المسمَّى لتغير الاسم.

إما لتغاير الاتصال، أو تغاير ما يتعلق بالاسم، ومثال هذا النوع[2] قوله:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[3].

وفرّق بين مصطلحي التكرار والترداد، إذ قال: «والفارق بين الترديد والتكرار أن اللفظة التي تُكرّر في التكرار لا تُفيد معنى زائداً بل الأولى هي تبيين للثانية، وبالعكس، واللفظة التي تتردّد تفيد مَعْنًى غير معنى الأولى منهما، واشتقاقهما مشعر بذلك؛ لأن الرّاد من وجه لا يبلغ إلا الموضع الذي أراده، والكارّ هو الذي انتهى إلى الموضع المراد»[4].

وورد هذا المصطلح عند صاحب «الطراز» مراداً به معنى غير معنى التصريف، وذلك قوله: «والترديد تفعيل من قولهم ردَّد الثوبَ من جانب إلى جانب، وردّد الحديث ترديداً، أي كرّره، ومعناه في مصطلح علماء البيان أن تُعَلِّقَ اللفظة بمعنى من المعاني، ثم تردُّها بعينها وتعلِّقها بمعنى آخر، وعند هذا يحسن رَصْفُه ويُعْجِبُ تأليفه»[5].

---

(1) الأنعام 124.

(2) تحرير التحبير ص 2543.

(3) المائدة 51.

(4) نفسه 254 ـ 255.

(5) الطراز 3/ 82.

وعدّه السيوطي في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن» قسْماً من أقسام التكرار، إذ قال: «ومنه ما كان لتعدد المتعلق، بأن يكون المكرر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد، كقوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[1].

وقد وقع فيها الترديد أربع مرات»[2].

وتَعَقَّبه الأستاذ أبو زيد، قائلاً: «ويفهم من كلام السيوطي أنه استعمل الترديد بمعنى غير معنى التصريف، كما يفهم منه أن في القرآن أسلوباً يظن تكراراً وليس منه.

وذكر من أمثلة هذا الأسلوب، الأمثال والقصص، لكنه لم يذكر أن هذا الأسلوب هو ما سماه القرآن بالتصريف»[3].

وقد ورد هذا المصطلح مراداً به التصريف في تفسير أبي حيان الأندلسي، عند تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[4].

إذ قال: «لما ذكر - تعالى - عجز الإنس والجنّ عن أن يأتوا بمثل القرآن نبّه على فضله - تعالى - بما رد فيه، وضرب من الأمثال والعبر التي تدل على توحيده - تعالى - ومع كثرة ما ورد من الأمثلة وأسبغ من النعم أبى أكثر الناس إلا كفوراً»[5].

---

(1) النور 35.

(2) 1/ 260.

(3) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم ص 9 - 10.

(4) الإسراء 89.

(5) البحر المحيط 6/ 77.

3 ـ مساوي مُصْطَلَحَيْ التكرار والترداد :

تباينت آراء العلماء حول هذيـن المصطلحـين ، كمـا رأينـا ، فمنـهم مـن يـرى أن التكرار والترداد كلاهما من الفصاحة والبيان ، ومنهم من يـرى عكـس ذلـك ، وأنـا لا أنكر أن بعـض أنـواع التكـرار والـترداد مـن الفصاحـة ، ولكـن أرى استـبدال مصطلـح تصريف القول بهما ؛ لما في هذين المصطلحين من المسـاوي التـي يراهـا بعـض العلمـاء الذين تعرضوا لهذين المصطلحين ، والتي ألخصها في :

1 ـ **الكراهة :** إذ يرى كثير مـن العلمـاء أن فـي التكـرار والـترداد كراهـة ، كمـا قـال ابـن جماعة ، عند توجيهه لقوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾[1] . «إن فـي ذلك كما قدمنا مرات للتفنن لكراهة التكرار ، لما فيه من مج النفوس»[2] .

2 ـ **القبح :** وممن وصفه بذلك ابن النقيب ، فقال : «فهو التكرار العـاري عـن الفـائدة ، وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده ، أو في المعنـى واللفـظ معـاً ، أمـا الأول فقد أعابه بعضهم مطلقاً ، وبعضهم فصَّل فأعابه على النـاثر وعلـى النـاظم ، وأمـا الثاني فقد اتُّفِقَ على قبحه»[3] .

3 ـ **عديم الفائدة :** كما صرح بذلك الطوفي سليمان ، حين قسمه إلى مفيد وغير مفيد[4] .

4 ـ **التكرار من الحشو :** كما صرح بذلك الإمام محمد أبو زهرة حين قال : «إن التكرار ليس من الإطناب وهو من الحشو»[5] .

5 ـ **السآمة والملل :** اللذان يحدثهما التكرار والـترداد ، وقـد أشـار إلـى شـيء مـن ذلـك الجاحظ حين قصّ علينا مـا حصـل بـين ابـن السّمّاك وجاريتـه ، عندمـا سألهـا عـن ترداد كلامه ، فأجابته : ما أحسنه لولا كثرة ترداده ، وحاورها في ذلك حتى قـالـت له : قد مله من فهمه[6] .

---

(1) النور 58 .

(2) كشف المعاني ص 273 .

(3) مقدمة تفسير ابن النقيب ص 113 .

(4) الإكسير في علم التفسير ص 245 .

(5) المعجزة الكبرى ص 313 .

(6) البيان والتبيين 1/ 104 .

4 ـ التصريف أولى دلالة من التكرار في توجيه الآيات الكريمة :

يتبين لنا من العرض الوافي لمصطلحي التكرار والترداد، وما ظهر لنا من مساويهما، أن نسمح لأنفسنا باستعمال مصطلح التصريف، اقتداء بتلك النصوص الكريمة التي ترشدنا إلى هذا المصطلح، واهتداء بآراء العلماء، وتوجيه المفسرين لتلك النصوص، وما رأيناه من تضارب في مصطلحي التكرار والترداد بين العلماء، وحتى الواحد منهم تراه غير مستقر على رأي معين، فمره يثبت التكرار ومرة ينفيه.

وتأسيساً على ما ذكرنا من أدلة نرى أنه ليس هنالك تكرار في القرآن الكريم، وإنما هو تصريف للقول، بدليل أن الذي يستقري نصوص الكتاب العزيز، لا يجد نصاً بذلك؛ بمعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقل: كررنا الآيات أو ردّدناها، وإنما قال تعالى:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾[2].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾[3].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾[4].

وقال: ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ ﴾[5].

وهذا من باب أولى أن ينفي هذه الصفة عن القرآن الكريم الذي قال فيه:

﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[6].

---

(1) الأنعام 46.

(2) نفسها 105.

(3) الإسراء 41.

(4) الفرقان 50.

(5) الأحقاف 27.

(6) هود 1.

وقد نفى الإمام الغزالي في كتابه «جواهر القرآن» نفياً قاطعاً وجود التكرار في القرآن، في الفصل الثاني عشر، الذي خصصه لأسرار الفاتحة، واشتمالها على ثمانية أصناف من جملة الأصناف العشرة من نفائس القرآن، وذكر طرفاً من معاني: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال: «وإذا تفكرت وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملة على ثمانية مناهج، فقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نبأ عن الذات، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نبأ عن صفة من صفات خاصة..

وقوله ثانياً: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى الصفة مرة أخرى، ولا تظن أنه مكرر، فلا تكرار في القرآن، إذ حدُّ المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة، وذكر الرحمن بعد ذكر العالمين، وقبل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفضيل مجاري الرحمة..

والمقصود أنه لا مكرر في القرآن، فإن رأيت شيئاً مكرراً من حيث الظاهر فانظر في سوابقه ولواحقه، لينكشف لك مزيد الفائدة في إعادته»[1].

«وقد ناقش في كون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بمعنىً واحدٍ، العلاَّمة الشيخ محمد عبده المصري في بعض مباحثه التفسيرية قائلاً: إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها، ثم قال: وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه، إن في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها، ولا معنى لها في نفسها، بل ليس في القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود»[2].

وقد تصدى لهذا الرأي - يعني التكرار - سابقون في فهم اللغة والدين، أحدهم الشريف الرَّضيّ - الذي دفع في كتابه «حقائق التأويل» أن يكون قد وقع في الكتاب تكرار للتوكيد، وأحدهم أبو العباس بن المعتز، الذي قال في كتابه «البديع» حين

---

(1) جواهر القرآن ص 39 - 42.

(2) تفسير القاسمي 2/ 5. وتفسير المنار 1/ 46.

تكلم عن المذهب الكلامي: «وهذا باب - أي التكرار - ما علمت أني وجدت منه في القرآن شيئاً وهو ينسب إلى التكلف - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً -.

أما ما قيل: من أنها معان تكررت في القرآن فإنه أمر أشد صعوبة، وأبعد خطراً، فقد تجيء هذه المعاني في نظائر مختلفة الألفاظ ومسالك الأداء، فتبلغ في تصرُّفها وتعدُّد أساليبها حداً معجزاً، قد لا يمر أحد، مهما تكشف له من بلاغة القرآن، إلا أن تغيب عنه أسرار من هذه النظائر والأشباه..

وحتى من قالوا بمذهب التكرير في القرآن، فإنهم لم يتعدوا عن كونه يقع في مواقع مختلفة تكون مقدمات لمقاصد أو نتائج لمقدمات، وكلها تختلف مواقعها وأغراضها[1].

وقد نفاه أيضاً الرازي، عند تفسير قوله تعالى:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[2].

فقال: «أما قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ ﴾ فليس بتكرار؛ لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم، وأما «الحكمة» فهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها..

أما قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ فهذا تنبيه على أنه - تعالى - أرسله على حين فترة من الرسل»[3].

وكذلك عند تفسير قوله تعالى:

﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةً لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[4].

(1) حقائق التأويل في متشابه التنزيل ص 82، ومن الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص 17.
(2) البقرة 151.
(3) تفسير الفخر الرازي 4/ 158.
(4) المائدة 46.

فقال: «السؤال الثاني: لم كرر قوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾؟

والجواب: ليس فيه تكرار؛ لأن في الأول أن المسيح يصدق التوراة، وفي الثاني الإنجيل يصدق التوراة»[1].

وقد نفاه أيضاً مصطفى محمود، وأشار إلى التصريف دون أن يُصرِّح به، في كتابه «القرآن كائن حيّ» إذ قال: «يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن، ربما كان أهم من كل هذه الوجوه، يحتاج إلى وقفة طويلة، وهو ما أسميته بالمعمار أو البنية الهندسية، أو التركيب العضوي، أو الترابط الحيّ بين الكلمة والكلمة، وما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي.. الكلمة فيه أشبه بالخلية، فالخلايا تتكرر وتتشابه في الكائن الحي، ومع ذلك فهي لا تتكرر أبداً، وإنما تتنّوع وتختلف، وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني، ربما مئات المرات، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبداً برغم ذلك، إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديداً، وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل، وأنها تتفرع تفرعاً عضوياً تماماً»[2].

وقد أشار صاحب «ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين» إلى أن ما يظنه بعضهم تكراراً، هو ليس من التكرار، وضرب لذلك مثالاً بسورة «الكافرون»، ثم قال: «فإن من يعاود النظر يجد أن الموقف اقتضى اختيار تلك الوحدات اللغوية، وأن الدلالة كانت في حاجة لها، وأن المعنى اللغوي لا يكمل إلا بها وأنه لا تكرار فيها، والحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة، في الماضي والحاضر والمستقبل»[3].

وقد رأينا في توجيه بعض المفسرين لآيات التصريف، أن التكرار هو التصريف، حيث جاء في تفسير القاسمي لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ

---

(1) تفسير الفخر الرازي 12/ 10.

(2) القرآن كائن حي ص 4.

(3) ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين ص 67.

﴿ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾[1] : «أي نبين وجوه الحجج ونرددها ونكررها»[2] وفي توجيه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾[3].

وقال القرطبي: «أي بينا وقيل: كررنا، والمراد بهذا التصريف: البيان والتكرير»[4].

وقال الزمخشري: «لأنه مما صرفه وكرر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى وأوقعنا التصريف فيه، وجعلناه مكاناً للتكرير»[5].

تلك بعض الأدلة نتبين منها أنه لا تكرار ولا ترداد في القرآن، بل هو تصريف وبيان، وينبغي أن نبعد هذه الصفة عن القرآن الكريم؛ لأنها لا تليق ببيانه، وسر عظمته، وتفوُّق إعجازه.

ومما يؤكد كذلك ما اخترناه من أن ما يراه بعض المهتمين بالبلاغة وعلوم القرآن في القرآن تكراراً، هو تصريف للقول، ما عرفه به أبو بكر الباقلاني بقوله: «وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة ما كرر من قصة موسى في مواضع»[6].

ويرى محمد أبو زهرة: أن التكرار من تصريف البيان، لا من الإطناب المجرد، إنما هو لمقاصد ولتوجيه النظر، ومناسبة المقام.

ويقول أيضاً: «ومن المواضع التي يحسن فيها الإطناب، بل التكرار أحياناً، قصص القرآن، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الإعجاز في ذاته، فلذلك موضع خاص من القول، إنما نذكره من ناحية التكرار فيه، وموضع ذلك من سر الإعجاز، وبلاغة القرآن التي لا تساميها بلاغة في الوجود، وإن ذلك التكرار من

---

(1) الأعراف 58.
(2) محاسن التأويل 4/ 2760.
(3) الإسراء 41.
(4) الجامع لأحكام القرآن 10/ 264.
(5) الكشاف 2/ 450.
(6) إعجاز القرآن ص 274.

تصريف القول، الذي هو وجه من وجوه البيان القرآني، الذي قصد إليه الكتاب العزيز»[1].

إن الذي يتضح لنا هو أن ما ذهب إليه أولئك لا يعد تكراراً؛ فلو تأملنا الآيات المتشابهة، والآيات التي يرون أنها مكررة، لتبيّن لنا اختلاف كبير في بعض مفرداتها، واختلاف في سوابقها ولواحقها، وأسباب نزولها.

ومن هنا فإن هذا التنوع البياني في الآيات، هو تصريف للقول في القرآن الكريم، في أعلى مراتبه، وله مقاصد ومَرَامٍ سامية يرمي إليها في كل مرة، بل في كل كلمة من آي كتاب الله العزيز، ذلكم البيان الرائع والتصرف العجيب، الذي أعجز الإنس والجن فرادى ومجتمعين.

سادساً. التصريف في دراسات السابقين:

حسب علمنا لم تقم دراسات متخصصة في «بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى)» على التصور الذي قدمناه والعمل الذي قمنا به، عدا المؤلفات التي صنفت في البلاغة وإعجاز القرآن، والتي ستكون محور دراستي، وسأركز عليها للاستفادة منها.

إن المتتبع للدراسات القرآنية، لا يجدها تهتم بمصطلح تصريف القول اهتماماً كبيراً، اللهم إلا إشارات متناثرة هنا وهناك، وردت في بعض مؤلفات من اعتنوا بالدراسات القرآنية والبلاغية.

وقد ذكر الأستاذ أبو زيد أن مصطلح التصريف كان قليل الاستعمال في القديم والحديث[2].

فهذا أبو الحسن علي بن عيسى الرمّاني، المتوفى سنة (386هـ) أول من تكلم في هذا الموضوع في رسالته «النكت في إعجاز القرآن» واشترط في مقدمته عدم

(1) المعجزة الكبرى القرآن ص 160 ـ 162.

(2) مصطلحات بيانية في القرآن ص 7.

التطويل، فقال: «سألت وفقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن، دون التطويل بالحِجاج»[1].

وقد تحدّث في هذه الرسالة عن وجوه إعجاز القرآن، التي عدّها سبع جهات ومن بين هذه الوجوه: البلاغة، وجعل البلاغة ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان أعلاها فهو معجز، وهو بلاغة القرآن.

وقد عدَّ التصريف قسماً من أقسام البلاغة العشرة وتكلم عنه بإيجاز، ولم يتوسع فيه، وتمثل ذلك في تعريفه لهذا القسم من أقسام البلاغة عنده، وقد أوردت ذلك في موضعه من هذا البحث.

ثم بيَّن أن في هذا التصريف بياناً عجيباً بقوله: «وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب، يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهر وتدل عليه»[2].

ثم ذكر الحكمة من التصريف في القصص القرآني، بقوله: «أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصة، منها قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذُكرت في سورة «الأعراف» وفي «طه» و«الشعراء»، وغيرها؛ لوجوه من الحكمة، منها التصرف في البلاغة، من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة، ومنها حل الشبهة في المعجزة»[3].

فهذا ما تكلم عنه الرمَّاني في رسالته، وذلك في نظري راجع إلى شرطه الذي اشترطه على نفسه في مقدمته، وهو ما قرره الأستاذ أبو زيد حين قال: «لكنه أوجز الكلام في هذا الباب بصورة جعلت حقيقة التصريف غير واضحة، وعذره في ذلك أنه التزم بشرطه في رسالته، وهو الاختصار»[4].

---

(1) النكت في إعجاز القرآن ص 75.

(2) نفسه ص 101.

(3) النكت في لإعجاز القرآن ص 101 ـ 102.

(4) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم ص 4.

وقد تحدث الإمام أبو بكر بن الطيب الباقلاني، المتوفى عام (403هـ) عن هذا الموضوع حديثاً عابراً في كتابه «إعجاز القرآن» في فصل بعنوان «في وصف وجوه من البلاغة».

وقد سار على نهج الرمَّاني في تقسيم البلاغة عشرة أقسام، وذكر من بين هذه الأقسام: التصريف، وهو نفس التقسيم والترتيب الذي اختاره الرمَّاني في رسالته «النكت في إعجاز القرآن».

ثم أخذ يعرف هذه الأقسام قسماً، قسماً، إلى أن وصل إلى التصريف فعرفه بنفس ما عرفه به الرمَّاني، فلم يزد عليه شيئاً[1].

وقد أشار الشاطبي إلى التصريف في البيان القرآني، في كتابه «الموافقات» عندما تحدث عن خصائص اللغة العربية، فقال: «ثم يتنوّع أيضاً بحسب تعظيمه أو تحقيره - أعني المخْبَرَ عنه - وبحسب الكناية عنه والتصريح به، وبحسب ما يقصد في مساق الأخبار، وما يعطيه مقتضى الحال، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها.

فمثل هذه التصرفات التي يختلف معنى الكلام الواحد بحسبها ليست هي المقصود الأصلي، ولكنها من مكملاته ومتمماته، ويطول الباع في هذا النوع بحسب مساق الكلام، إذا لم يكن فيه منكر.

وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن؛ لأنه يأتي مساقُ القصة في بعض السور على وجه، وفي بعضها على وجه آخر، وفي ثالثة على وجه ثالث، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأول، إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في بعض، ونص عليه في بعض، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت»[2].

وقد أشار أيضاً الخروبي إلى التصريف القرآني دون التصريح به فقال: «وقد خاطب الله - تعالى - بني إسرائيل على أنحاء مختلفة، فتارة بذكر النعم التي أنعم بها

---

(1) انظر إعجاز القرآن ص 274.

(2) المرافقات 2/ 67.

عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف والتهديد، وتارة بإقامة الحجة عليهم وتوبيخهم على سوء أفعالهم وذكر العقوبات التي عاقبهم بها»[1].

وقد بين سبب التصريف القرآني وحكمته في بعض الأحيان، مستشهداً بمخاطبات القرآن الكريم لبني إسرائيل فقال: «وإنما اختلفت أنحاء مخاطباته ـ تعالى ـ لبني إسرائيل لاختلاف أحوالهم، ففي حالة اللطف يلاطفهم، وفي حالة القسوة يهددهم، وفي حالة الأمن يُخوِّفهم، وفي حالة نسيان النعم يُذكِّرهم إياها حكمة منه ـ تعالى»[2].

وأشار الأستاذ أبو زيد إلى أن يحيى بن سلام استعمله عنواناً لكتابه الذي صنفه في موضوع الوجوه والنظائر، وعنوانه «كتاب التصاريف» وتساءل: فهل يرى أن الوجوه والنظائر نوع من التصريف؟ ثم أجاب عن ذلك قائلاً: «إذا كان يرى ذلك فإننا نعدُّه أول من استعمل هذا المصطلح».

والحق أن الوجوه والنظائر، نوع من التصريف للكلمة الواحدة، فالمقصود بالنظائر أن تُذكر الكلمة الواحدة في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركه واحدة، ويراد بها في كل مكان معنى غير المعاني الأخرى، وتفسير كل كلمة في موضعها بمعنى غير الأخرى هو الوجوه، وفي اعتقادي أن هذا تصريف للكلمة الواحدة في الدلالات المتنوعة، حسب السياق الذي يكتنفها[3].

واستعمل هذا المصطلح من المحدثين الإمام محمد أبو زهرة في كتابه «المعجزة الكبرى القرآن» ففي هذا الكتاب تكلم عن أوجه إعجاز القرآن إحداها التصريف في القول والمعاني، إذ قال: «ولذلك كان تصريف القول فيه: من تهديد وإنذار وتبشير وإثارة للتأمل، ودعوة للتفكير في آيات الله ـ تعالى ـ الكونية والقرآنية والتفكير في النفس وفي الحس، كل ذلك من دلائل الإعجاز وسرِّه»[4].

---

(1) رياض الأزهار وكنز الأسرار، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 22362 ص 16.

(2) نفسه ص 117.

(3) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم ص 7.

(4) المعجزة الكبرى ص 155.

ثم قال أيضاً: «إن التصريف في القرآن الكريم على ضربين أحدهما في المعاني، وثانيهما في الألفاظ والأساليب، فأما التصريف في المعاني، فإن المُؤدّى في جملته يكون واحداً، ولكن يختلف في دلالته بالنسبة للسياق، فالقصة الواحدة، كقصة نوح تذكر في القرآن في عدة مواضع، ولكن لها في كل مرة عبرة، وهذا تصريف في المعاني، وإن كانت الألفاظ تختلف أو تتفاوت، أو تتحد العبارات في بعض الأحيان»[1].

وعد صاحب «مناهل العرفان» تصريف القول من الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن، إذ قال: «براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنه يعدد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء»[2].

ثم قال في موضع آخر: «وهكذا تجد القرآن يفتنّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتَكَلُّمٍ وغَيْبة، وخطاب، ومضي وحضور واستقبال، واسمية وفعلية، واستفهام وامتنان، ووصف ووعد ووعيد، إلى غير ذلك، ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط، كثيراً ما تجده سريعاً لا يجارى في سرعته، ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مُكبّاً على وجهه، مضطرباً أو متَعثِّراً، بل هو محتفظ دائماً بمكانته العليا في البلاغة.

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان، لباساً فضفاضاً من الجدّة والروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يمل قارئه ولا يسأم سامعه مهما كثرت القراءة والسماع، بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غناء من فنن إلى فنن، ومن زهر إلى زهر»[3].

---

(1) نفسه ص 157.

(2) مناهل العرفان في علوم القرآن 2/ 318.

(3) نفسه ص 322.

وأكد أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو، كان فنّاً من فنون إعجازه الأسلوبي، وكان في الوقت نفسه منّةً يمنُّها الله على الناس؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن، والإقبال عليه قراءة وسماعاً، وتدبُّراً وعملاً، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه[1].

واستعمل هذا المصطلح أيضاً: حسن محمد باجودة، في كتابه «تأملات في سورة الإسراء» إذ قال: «وعلى الرغم من تصريف القول في القرآن الكريم وتنويعه كي يكف المشركون من غربهم[2]، ويعودوا إلى الصراط المستقيم، فإنهم لا يزدادون إلا ابتعاداً عن الحق ونفوراً منه.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾[3].

هذه الفئة الضالة من العرب، كان الأَوْلى بها أن تنتفع من هذا القرآن الكريم، الذي يَسَّره رب العزَّة للذِّكْر، فأنزله على المصطفى ـ ﷺ ـ بلسان عربيٍّ مُبِين، ومع ذلك فهم يُصرُّون على عدم السماع أساساً وعلى عدم القبول ابتداء»[4].

وأشار إليه في موضع آخر، تحت عنوان «من مظاهر تصريف القول» وذلك عند إيراد قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾[5].

إذ قال: «تهديد وتعليل وتسلية، ألفاظ ثلاثة يمكن أن يقال: إنها تحدد مظاهر تصريف القول في الآيات الثلاث»[6].

---

(1) انظر المصدر نفسه.

(2) الغرب: الحدَّةُ والتمادي والبُعْدُ عن الحق (القاموس المحيط 1/ 146 مادة: الغرب).

(3) الإسراء 41.

(4) تأملات في سورة الإسراء ص 183.

(5) الإسراء 58.

(6) تأملات في سورة الإسراء ص 205.

وأشار في موضع آخر إلى أن المراد بتصريف القرآن الكريم، تنويعه من وعد ووعيد، وأمثال وقصص، ووصف، وما إلى ذلك[1].

وقد وردت إشارات عند الأستاذ أبي زيد في كتابه «التناسب البياني في القرآن» عن تصريف القول في القرآن الكريم، عند حديثه على التناسب المعنوي في آيات العقيدة، إذ قال: «وَيُظْهِر الاستقراء أيضاً أن القرآن صرّف القول في تقرير هذه الحقيقة، على أوجه وأساليب شتى، وذلك لأنها كانت محل إنكار شديد، ولأنها ذات تأثير كبير في تهذيب النفوس، وفي الإقبال على الخير وتجنب الشر»[2].

واستنتج أن القرآن الكريم لا يسير على أسلوب واحد في نظم هذه المعاني - يعني أصول العقيدة - بل يُصرِّف القول في نظمها على أوجه كثيرة وأساليب متنوعة، لكنها كلها بليغة[3].

كما أنه عقد بحثاً بعنوان «مصطلحات بيانية في القرآن الكريم، تحدث فيه عن مجموعة من المصطلحات البيانية، من بينها مصطلح تصريف القول في القرآن الكريم، متتبعاً هذا المصطلح، ومقارناً بينه وبين المصطلحات التي نافسته في الاستعمال، منبِّهاً على وجوب الاهتمام بهذا المصطلح، وإيثاره على غيره، وخصوصاً حين يكون الكلام متعلقاً بأساليب البيان القرآني وعلومه[4].

وقد خلص من هذه الدراسة إلى أن في القرآن مصطلحات بيانية دقيقة ينبغي إحياؤها واستعمالها في الدراسات القرآنية والبيانية والأسلوبية عموماً، والتزام الدقة والوضوح ما أمكن، وتصحيح ما وقع من السهو أو الخطأ في كتب المؤلفين، نتيجة للتساهل الذي طبع تعاملهم مع المصطلحات البيانية وغيرها[5].

---

(1) تأملات في سورة الفرقان ص 125.

(2) التناسب البياني في القرآن ص 81.

(3) نفسه ص 83.

(4) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم ص 1.

(5) نفسها ص 16.

تلك نبذة عن جهود السابقين في دراسة مصطلح تصريف القول في القرآن الكريم، وهي جهود متواضعة، لم تعط الموضوع حقه من الدراسة والتحليل، ذلك أن هذه الدراسات، جاءت موجزة، إشارات هنا وهناك، وبذلك نصل إلى أن هذا الجانب من الدراسات القرآنية مازال بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة للوصول إلى جوانبه المختلفة، والنظر والتأمل في أسرار هذا الكتاب المعجز، إذ يعتبر هذا الموضوع أيضاً من أبرز الموضوعات التي لم تحظ بعناية الباحثين، باستثناء ما ورد في بعض المؤلفات من جزئيات متفرقة، لا شك في أنها ستكون مراجع أساسية لهذه الأطروحة، وبذلك تعتبر هذه الدراسة تكميلاً للدراسات السابقة في مجال الإعجاز القرآني.

سابعاً. الحِكَمُ والغايات المقصودة من تصريف القول في القرآن الكريم:

يجدر بنا في هذا المقام أن نبيِّن الحِكَمَ والغايات المقصودة من تصريف القول في القرآن الكريم، إجمالاً، وذلك اهتَداءً بما ورد في آيات التصريف من بيان لهذه الحِكَم والغايات.

وهكذا فإن الغاية الأولى: **التفقه**، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير: «أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه»[2] ونقل الرازي عن غيره أن هذا يدل على أنه ـ تعالى ـ أراد بتصريف هذه الآيات وتقرير هذه البيِّنات، أن يفهم الكل تلك الدلائل ويفقه الكل تلك البينات.

وأما الرازي فيرى: أن ظاهر الآية يدل على أنه ـ تعالى ـ ما صرّف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض وتمرد فهو ـ تعالى ـ ما صرف هذه الآيات لهم[3].

وأما الغاية الثانية، فإنها التبيين، وذلك ما أشار إليه قوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

(1) الأنعام 65.
(2) تفسيره 3/ 42.
(3) تفسير الرازي 13/ 23.
(4) الأنعام 105.

«إن الله ـ تعالى بين أن الحكمة في هذا التصريف أن يظهر منه البيان والفهم والعلم»[1].

«أي ولنبين هذا القرآن المشتمل على ما ذكر من تصريف الآيات، الذي يقول فيه بعض المكابرين إنه إثر درس واجتهاد، أو لنبين التصريف المفهوم من (نصرف) لقوم يعلمون بالفعل أو بالاستعداد، الذي لا يعارضه تقليد ولا عناد، ما تدل عليه الآيات من الحقائق، وما يترتب عليه الاهتداء بها من السعادة»[2].

وأمّا الغاية والحكمة الثالثة، فهي التذكّر، إذ قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾[4].

قال الرزاي: «والمعنى ليتذكروا» ونقل عن الواحدي أن التذكر ههنا أشبه من الذكر، لأن المراد منه التدبر والتفكير، وليس المراد منه الذكر الذي يحصل بعد النسيان.

وذكَر معنى ثانياً، وهو أن يكون المعنى: صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن ليذكروه بألسنتهم، فإن الذكر باللسان قد يؤدي إلى تأثر القلب بمعناه.

وقيل: إنما أنزل هذا القرآن، وإنما أكثر فيه من ذكر الدلائل؛ لأنه ـ تعالى ـ أراد منهم فهمها والإيمان بها[5].

وقد يكون المراد بالتذكر، أن يذكروا ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عمَّا هم فيه من الشرك والظلم والإفك[6].

---

(1) نفسه ص 136.

(2) المنار 7/ 660.

(3) الإسراء 41.

(4) الفرقان 50.

(5) تفسير الرازي 20/ 216.

(6) تفسير ابن كثير 4/ 310.

وأما الغاية الرابعة، فهي التقوى، إذ قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[1].

قال الرازي: «والمراد اتِّقاء المحرَّمات»[2].

وأما الغاية الخامسة، فهي الرجوع إلى الله، إذ قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3].

«أي لعل أهل القرى يرجعون، فالمراد بالتصريف الأحوال الهائلة التي وجدت قبل الإهلاك، قال الجبائي قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ معناه لكي يرجعوا عن كفرهم، دل بذلك على أنه ـ تعالى ـ أراد رجوعهم ولم يرد إصرارهم»[4].

«والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عمّا هم فيه من الشرك والعناد، والرجاء من الله ـ تعالى ـ يستعمل مجازاً في الطلب، أي توسعةً لهم وإمهالاً ليتدبروا ويتعظوا، وهذا تعريض بمشركي أهل مكة، فهم سواء في تكوين ضروب تصريف الآيات، زيادة على ما صرف لهم من آيات إعجاز القرآن»[5].

ثامناً. فكرة موجزة عن الموضوعات التي تناولتها الدراسة:

يتضح من التمهيد السابق أن التصريف في كل باب من أبواب القول في القرآن الكريم، وهو موضوع واسع، لذا اقتصرنا في دراسته على المقاصد الكبرى، وقد رأينا ذلك من النصوص الكريمة التي جعلناها دليلنا في هذا الكتاب، وكذلك من توجيه بعض المفسرين لهذه النصوص، وقد استخلصنا منها أن القرآن الكريم يُصَرِّف القول بقصد تقرير العقيدة، وذلك بتنويع أدلة إثباتها، وتنويع المعاني والأساليب في

---

(1) طه 113.

(2) تفسير الرازي 22/ 121.

(3) الأحقاف 27.

(4) تفسير الرزاي 28/ 30.

(5) التحرير والتنوير 26/ 54.

القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، وما إلى ذلك من طرق القول المختلفة، «بمعنى أنه يتضمن الأمر بالتوحيد والتكليفات الشرعية التي بها صلاح المجتمع بأوجه مختلفة من البيان، من تهديد وإنذار إلى تبشير وتوبيخ، واستنكار، ودعوة إلى التأمل في خلق الله ـ تعالى ـ وفي الأنفس، ومن قصص يدركها أولو الألباب لسياق العبر والمثلات، وهكذا تتنوع أساليب القول ومناهج التأثير لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[1].

ومن ثم سيتناول هذا الموضوع وهو بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى) ما يلي:

1 ـ تصريف القول في بناء السور والآيات، ونعني بذلك بيان الطريقة التي سلكها القرآن في إيراد مقاصده وتنويعها بأساليب شتى وطرق مختلفة.

يرى الإمام محمد أبو زهرة: أن أول تصريف يكون في السور؛ لأن منها الطويل التي يجد فيها القارئ أبواب العلم الإسلامي المختلفة من بيان الوحدانية، وبطلان الوثنية، وتوجيه الأنظار إلى الكون، وما فيه من دلالة على قدرة الله[2].

2 ـ تصريف القول في آيات العقيدة، ذلك أن القرآن الكريم يُصَرِّف القول في آيات العقيدة على وجوه شتى، ويوردها بطرق كثيرة؛ لبيان وجوه الحجج والدلالات القاطعة على وحدانيته ـ سبحانه وتعالى ـ وأن هذا التصريف يستهدف تحقيق الإيمان ومعرفة جلال الله وعظمته وقدرته الباهرة، وحكمته البالغة، وتفرده بالوحدانية، وصفات الألوهية.

قيل: إن هذا اللون من أساليب القرآن مبثوت في آياته الكونية التي سيقت في مواضعها من سوره لبيان عظمة الوجود الإلهي، وعظمة هذا الكون بما يدل على تفرده ـ تعالى ـ بقدرة الإبداع والخلق، ويدل على وحدانيته وربوبيته[3].

---

(1) المعجزة الكبرى ص 157.

(2) نفسه.

(3) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 17.

ومن ثَمّ فإن هذه الدراسة ستتناول في هذا المقصد: التوحيد والصفات، وإثبات النُّبُوَّة والرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وما يدخل تحت هذه المقاصد من تفريعات.

3 ـ تصريف القول في آيات الموعظة، ونعني بها القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، ذلك «أن قصص القرآن، وهو قصص لأمور واقعة يساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال، وعاقبة الهداية، وبيان ما يقوم به النبيُّون ووراءهم كل الدعاة للحق، فهو قصص للعبرة بيِّن الواقعات»[1].

فتصريف الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمثل هذه الآيات، إنما هو للموعظة والاعتبار، ولبيان الآيات الدالة على التوحيد والإيمان.

(1) المعجزة الكبرى ص 162 ـ 163.

الباب الأول

التصريف
في بناء السور والآيات

يتميز القرآن الكريم في بناء سوره وآياته بقدرته على الانتقال من موضوع إلى آخر في روعة من الانسجام والتماسك بين المعاني المختلفة، وهو مظهر من مظاهر إعجازه وسرٌّ من أسرار بلاغته، وهو ما أكده صاحب «خصائص التعبير القرآني» إذ قال: «فالطريقة المفضّلة في القرآن أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد من المعاني استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة، بل يعرض في الوحدة - السورة - الواحدة مجموعة من المعاني يربط بينها برباط خاص، هذا هو الرأي الصائب الذي عليه جُلَّة العلماء وفضلاؤهم، والذي يؤيده الواقع وتنطق به الآيات»[1].

وقال غيره: «فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر، رأيت البيان القرآني يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر، بحسن التخلص والتمهيد، بشكل يتلاقى فيه المتباعدان ويتصافح به المتناكران»[2].

إن القرآن الكريم ينوِّع مقاصده في السورة الواحدة - وبخاصة في السور الطول - تنويعاً عجيباً، وينتقل من مقصد إلى آخر، في ترابط قويّ وتماسك متين.

ومعنى ذلك أنه ينوِّع المعاني بطرائق مختلفة وأساليب شتى، غاية في الروعة والبيان، فنجده مثلاً يقرر التوحيد، ويعرض أدلته، ويبيِّن الحجج الدالة على الوحدانية، وكمال القدرة الإلهية.

ثم ينتقل إلى إثبات البعث والجزاء، وقد ينتقل إلى إثبات النبوة والرسالة، وقد يعود إلى قضية التوحيد مرة ثانية فيعرضها بطريقة جديدة، تختلف في المعاني والأساليب. ثم نجده يتحدث عن القصص ويعرض حلقات متنوّعةً، ثم ينتقل إلى موضوع آخر.

وقد يتحدث عن الشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، إلى غير ذلك مما صرَّف القرآن بيانه، ذلك أن المفردة أو الآية القرآنية تختار اختياراً مناسباً لتؤدي

---

(1) خصائص التعبير القرآن 1/ 399.

(2) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ص 178.

معانيها في دقة وإحكام، مبنية بناءً محكماً، ومرتبطةً مع ما قبلها وما بعدها ارتباطاً قوياً، لا تفكك فيه، بل انسجام وتماسك يحقق المقاصد السامية في أعلى درجات البلاغة والفصاحة.

إن هذا وذاك هو ما ستكشف عنه هذه الدراسة التي سأقسمها إلى ثلاثة فصول، على النحو التالي:

الفصل الأول: التصريف في بناء السُّوَر.

الفصل الثاني: التصريف في فواتح السّوَر وخواتمها.

الفصل الثالث: التصريف في بناء الآيات.

الفصل الأول
التصريف في بناء السور

إن هذا الموضوع له أهميته البالغة، التي تكمن في معرفة أسرار كتاب الله - تعالى - ومنها معرفة مقاصده التي يتصرف إليها، ومعرفة بناء السُّوَر وقوة ارتباطها.

إن القرآن الكريم على كثرة سوره وتفرق مناسبات نزوله، واختلاف مقاصده وتنوُّعِها، فهو بناء متماسك في تصريف سُوَرِه، وبناء تلك المقاصد في السُّوَر؛ لأنه تنزيلُ الحكيم الحميد، الذي أحكم إنزاله وحفظه من التبديل والتغيير على أمد الدهر، فسبحانه - القادر على كل شيء -.

إن سُوَر القرآن - كما قلنا - تختلف في تصريف مقاصدها، فمنها السُّوَر الطُّول التي تشتمل على أبواب العلم الإسلامي المختلفة من بيان الوحدانية وإقامة الأدلة عليها، وإثبات الوحي والنبوة، والبعث والجزاء، والتأمل والنظر في الكون، وما فيه من دلالة على قدرة الله وفيها أيضاً الأحكام التشريعية[1].

ومنها المئون والمثاني التي تشتمل كذلك على جميع مقاصد الشريعة. ومنها المفَصَّل التي تشتمل على موضوعات متعددة، وفيها بيان الوحدانية، وبعض الأحكام التشريعية.

ومع ذلك الاختلاف في بنائها، وفي تنوع مقاصدها، فهي كلها في أعلى درجات البلاغة، والفصاحة، كل منها تؤدي مقاصدها في دقة وإحكام، وهو ما ستبينه الدراسة اللاحقة، التي سنتكلم فيها عن أقسام القرآن حسب أنواع السُّوَر، ثم نظرة إجمالية عن تنوُّع بناء السُّوَر في كل قسم.

---

(1) انظر: المعجزة الكبرى: 157.

المبحث الأول
أقسام القرآن حسب أنواع السُّوَر

رأينا أن نفرد هذا المبحث للحديث عن أقسام القرآن حسب أنواع السُّوَر، وتعريف السورة لغةً واصطلاحاً، وفائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سُوَراً، ثم عن ترتيب السُّوَر، لأن المقام يقتضي منا ذلك ـ وبخاصة أننا نتحدث عن بناء السُّوَر ـ لذا ارتأينا أن نخصص هذا المبحث للحديث عن هذه العناصر.

أولاً . أقسام القرآن حسب أنواع السُّور:

قسم العلماء سُوَرَ القرآن إلى أربعة أقسام، وجعلوا لكل قسم اسماً معيناً، هي: الطول، والمئون، والمثاني، والمفصل.

فهذا الزركشي يقول: «القرآن العزيز أربعة أقسام» ثم عدد الأقسام التي ذكرتها، مستنداً في ذلك على الحديث المرفوع الذي أخرجه أبو عبيد من جهة سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أعطيت السبع الطول مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفُضِّلتُ بالمفصل».

ثم قال: «وهذا حديث غريب، وسعيد بن بشير فيه لين»[1]. وقد أورده السيوطي في «الإتقان» بنصه عن أحمد وغيره، ولم يذكر فيه علة[2]. وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عن عمران عن قتادة عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع، قال، قال النبي ـ ﷺ ـ: «أعطيت مكان التوراة السبع الطول، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»[3].

---

(1) البرهان 1/ 244.

(2) الإتقان 1/ 163.

(3) مسنده ص 136. وأخرجه البيهقي في السُّنن الصغير 1/ 343 وهو أيضاً في المسند الجامع 15/ 669.

فالسبع الطُّول أولها البقرة وآخرها براءة؛ لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة، ولذلك لم يَفْصِلوا بينهما؛ لأنهما نزلتا جميعاً في مغازي رسول الله - ﷺ - وسميت طولاً لطولها.

وحكي عن سعيد بن جبير[1]، أنه عدّ السبع الطول: البقرة وآل عمران والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف ويونس.

والطُّوَل - بضم الطاء - جمع طُولى كالكُبر جمع كُبْرى، قال أبو حيان التوحيديّ - وكسر الطاء مرذول[2].

وقال السيوطي «السبع الطُّوَل: أولها البقرة وآخرها براءة، كذلك قال جماعة، لكن أخرج الحاكم والنسائي وغيرهما عن ابن عباس، قال: السبع الطُّوَل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، قال الراوي: وذكر السابعة فنسيتُها، وفي رواية صحيحة عن ابن أبي حاتم وغيره عن سعيد بن جبير أنها يونس، وتقدم عن ابن عباس، مثله في النوع الأول، وفي رواية عن الحاكم أنها الكهف»[3].

وقال عز الدين بن عبد السلام: «السبع الطُّوَل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، والأصح أن السابعة سورة يوسف، وقال ابن جبير وابن عباس، سميت طولاً لطولها على سائر السور»[4].

---

(1) السنن الصغير للبيهقي 1/ 343.

(2) البرهان في علوم القرآن 1/ 244، ومعنى مرذول: وهو الذي انتُقي جيِّدُهُ وبقي أرذَلُه (المصباح المنير ص 118 رذل)وقد ضبط كلمة الطول الفيروزابادي في القاموس المحيط فقال: والسَّبْعُ الطُّوَل، كَصُرَد: من البقرة إلى الأعراف، والسابعة سورة يونس أو الأنفال وبراءةُ جميعاً» (القاموس المحيط 3/ 564 مادة: طال) وقال نظام الدين الحسن النيسابوري في غرائب القرآن ورغائب الفُرقان 1/ 31: «فالسبع الطول - مضمومة الطاء مفتوحة الواو - جمع طولى كالفضلى والفُضَل».

(3) الإتقان 1/ 179، وانظر معاني القرآن للفراء 2/ 91، والمحرر الوجيز 3/ 373 والبحر المحيط 5/ 452، وإرشاد العقل السليم 5/ 88.

(4) الإشارة إلى الإيجاز ص 222.

والمئون: ما ولي السبع الطُّوَل، سميت بذلك لأنّ كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها، وذلك ما أشار إليه ابن قتيبة، إذ قال: «والسُّوَر التي تعرف بالمئين هي ما ولي السَّبع الطُّوَل، سميت بمئين لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها»[1].

وتبعه عز الدين بن عبد السلام فقال: «المئون كل سورة عدد آيها مائة أو تزيد شيئاً، أو تنقص شيئاً»[2].

والمثاني، ما ولي المئين، وقد تسمَّى سور القرآن كلها مثاني، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[4].

وإنما سمي القرآن كله مثاني؛ لأن الأنباء والقصص تثنى فيه، ويقال: إن المثاني في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ هي آيات سورة الحمد، سماها مثاني؛ لأنها تُثَنّى في كل ركعة[5].

«وقيل سميت بذلك: لأنها ثنتها، أي كانت بعدها، فهي لها ثوان، والمئون لها أوائل، وقال الفرَّاء: هي السورة التي آيها أقل من مائة؛ لأنها تثنى أكثرً مما يثنى الطُّول والمئون، وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر حكاه النكزاوي»[6].

---

(1) تفسير غريب القرآن ص 35.

(2) الإشارة إلى الإيجاز ص 222.

(3) الزمر 23.

(4) الحجر 87.

(5) البرهان في علوم القرآن 1/ 245 وانظر تفسير غريب القرآن ص 35، ومجاز القرآن ص 354 والمحرر الوجيز 3/ 373، وتفسير القرطبي 10/ 54 والإشارة إلى الإيجاز ص 222 وغريب القرآن وتفسيره ص 93. والفوائد الجميلة على الآيات الجليلةص 503 ـ 504.

(6) الإتقان 1/ 179، والنكزاوي هو: عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر النكزاوي. معين الدين، أبو محمد مقرئ من أهل الإسكندرية، له «الشامل» في القراءات السبع، و«الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء» (انظر الأعلام للزركلي 4/ 270).

وقال الزجَّاج: «السبع من المثاني هي فاتحة الكتاب[1] وهي سبع آيات، وإنما قيل لها المثاني لأنها يُثَنَّى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة ويثنى بها مع ما يُقرأ من القرآن، ويجوز - والله أعلم - أن يكون من المثاني، أي مما أثني به على الله؛ لأن فيها حَمْدَ الله، وتوحيده وذكر ملائكته وملكه يوم الدّين.

وروي في التفسير إنه ما أعطيت أمّة كما أعطيت أمّة محمد «ﷺ» - من سورة الحمد.. وقيل سبعاً من المثاني: السبع الطُّوَل من البقرة إلى الأعراف ستٌّ، واختلفوا في السابعة، فقال بعضهم سورة يونس، وقيل الأنفال وبراءة، وإنما سميت مثاني لذكر الأقاصيص فيها مثناة»[2].

والمفصَّل: ما يلي المثاني من قصار السُّوَر، سمّي مفصّلا لكثرة الفصول التي بين السُّور بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، وقيل: لقلة المنسوخ فيه[3].

وذلك ما ذهب إليه عز الدين بن عبد السلام إذ قال: «المفصَّل سمي مُفَصَّلاً لكثرة فصوله بالبسملة وآخره سورة الناس، وأوله عند الأكثرين سورة محمد - ﷺ - وعند كثير من الصحابة (ق)، وعن ابن عباس سورة الضحى، وكان يفصل من الضحى بين كل سورتين بالتكبير، وهو رأي قراء مكة»[4].

ولهذا يسمى بالمحكم أيضاً كما روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: «إن الذي تدعونه المفصّل: هو المحكم وآخره سورة الناس»[5].

---

(1) أخرج البخاري في صحيحه 3/ 1453 باب ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.
عن أبي سعيد بن المعلى. فقال:
«الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُهُ» وأخرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن العظيم هي السَّبْعُ المثاني والقرآن العظيم» (وانظر صحيح البخاري بحاشية السند 1/ 108 والموطأ 1/ 83 والمحرر الوجيز 3/ 373).

(2) معاني القرآن وإعرابه 3/ 185 - 186 وانظر لسان العرب 2/ 138 - 139 مادة ثنى، وغرر التبيان في من لم يسم في القرآن ص 299.

(3) البرهان في علوم القرآن 1/ 245 وانظر تفسير غريب القرآن ص 36.

(4) الإشارة إلى الإيجاز ص 222.

(5) الإتقان 1/ 180، وأخرجه البخاري في صحيحه 4/ 1622 والإمام أحمد في مسنده 1/ 253 عن سعيد بن جبير قال سمعت ابن عباس، قال: «إن الذي تدعونه المفصَّل هو المحكم، توفي رسول الله - ﷺ - وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم». =

واختلفوا في تعيين أوله على اثني عشر قولاً:

أحدها: «الجاثية»، ثانيها: «القتال»، وعزاه الماوردي للأكثرين، ثالثها: «الحجرات»، رابعها: «ق»، قيل: وهي أوّله في مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ وفيه حديث ذكره الخطابي[1] في غريبة، يرويه عيسى بن يونس، قال حدثنا عبد الرحمن بن يعلى الطائفي، قال: حدثني عمر بن عبد الله بن أوس بن حذيفة عن جده، أنه وفد على رسول الله ـ ﷺ ـ في وفد ثقيف فسمع من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أنه كان يحزّب القرآن، قال: «وحزب المفصّل من (ق) وقيل: إن أحمد رواه في المسند[2]، وقال الماورديّ في تفسيره حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة للحديث المذكور.

الخامس: «الصافات»، السادس: «الصف»، السابع: «تبارك»، حكى هذه الثلاثة ابن ابي الصيف اليمني في «نكت التنبيه»[3].

الثامن: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ حكاه الذماري في «شرح التنبيه» المسمى «رفع التمويه»[4].

التاسع: «الرحمن»، حكاه ابن السيّد[5] في أماليه على «الموطأ» وقال: إنه كذلك في مصحف ابن مسعود، قلت رواه أحمد في مسنده كذلك.

= وأورد البقاعي في مصاعد النظر 1/ 336 ـ 337 «وللبخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وقد قرأت المفصَّل، وفي رواية أنه قال: جمعت المحكم في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ قال سعيد بن جبير فقلت له: وما المحكم؟ قال: المفصَّل».

(1) أعلام السنن في شرح صحيح البخاري 1/ 317.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده 4/ 9، وص 343.

(3) ذكره صاحب «كشف الظنون» 1/ 493.

(4) نفسه 1/ 490 وفيه: «شرح أحمد بن كشتاسب (كشتاسب) الدرماري (الدزماري) سنة 643 وهو في مجلدين سماه (رفع التمويه على مشكل التنبيه)».

(5) هو: عبد الله بن محمد السيد ـ بكسر السين ـ أبو محمد البطليوسيّ، كان عالماً باللغة والآداب، متبحراً فيها، صنّف «شرح أدب الكاتب» و«شرح الموطأ» توفي سنة 521هـ (أنظر بغية الوعاة 2/ 55 ـ 56 والأعلام للزركلي 4/ 268).

العاشر: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾[1].

الحادي عشر: (سَبِّحْ): حكاه ابن الفركاح[2] في تعليقه على المرزوقي.

الثاني عشر: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ وعزاه الماورديّ لابن عباس، حكاه الخطابي في غريبه، ووجهه بأن القارئ يفصل بين هذه السور بالتكبير، قال: وهو مذهب ابن عباس، وقرَّاء مكة[3].

وقال الراغب: «والمفصّل من القرآن السُّبُعُ الأخير، وذلك للفصل بين القصص بالسُّور القصار»[4].

وقد ذكر هذه الأقوال السيوطي كذلك بتقديم وتأخير في بعضها، ولم يذكر القول الثامن، وتعداده إلى التاسع، مع أنه ذكر أن هذه الأقوال اثنا عشر قولاً مثل الزركشي، ولعله سقط من الناسخ أو أثناء طبع الكتاب[5]. والصحيح عند أهل الأثر أن أوّله (ق). قال أبو داود في سننه في باب تحزيب القرآن، حدثنا مسدد، أخبرنا قرّان ابن تمام، ح، وحدثنا عبد الله بن سعيد، أخبرنا أبو خالد، وهذا لفظه، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده، قال عبد الله بن سعيد في حديث أوس بن حذيفة، قال: قدمنا على رسول الله ـ ﷺ ـ في قُبَّة له، قال، مسدد: يحدثنا قال، أبو سعيد: قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش، ثم يقول: لا سواءٌ كنَّا مستضعفين مستذلين، قال مسدد: بمكة، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، نُدالُ عليهم، ويُدالون علينا، فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنَّا الليلة، قال: إنه طرأ عليّ حزبي

---

(1) الإنسان 1.
(2) هو برهان الدين بن إبراهيم بن الفركاح المتوفى سنة 729هـ (كشف الظنون 1/ 489).
(3) البرهان في علوم القرآن 1/ 245 ـ 246.
(4) المفردات في غريب القرآن ص 381 مادة فصل.
(5) الإتقان 1/ 180.

من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه، قال أوس: سألت أصحاب رسول الله - ﷺ - كيف تُحزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصّل وحده[1].

وأخرجه ابن ماجة في سننه عن أبي بكر بن أبي شيبة، ثنا، أبو خالد الأحمر، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جدّه أوس بن حُذيفة، قال: قدمنا على رسول الله - ﷺ - في وفد ثقيف، فنزلوا الأحلاف على المغيرة بن شعبه، وأنزل رسول الله - ﷺ - بني مالك في قُبّة له، فكان يأتينا كلَّ ليلة بعد العشاء، فيحدِّثُنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه، وأكثر ما يحدِّثنا ما لقي من قومه من قريش، ويقول: «ولا سواء كنا مستضعفين مستذلين، فلما خرجنا إلى المدينة، كانت سِجالُ الحرب بيننا وبينهم، نُدال عليهم ويُدالون علينا» فلما كان ذات ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلت: يا رسول الله! لقد أبطأت علينا الليلة، قال: «إنّهُ طرأ عليَّ حزبي من القرآن فكرهتُ أن أخرج حتَّى أُتِمَّهُ».

قال أوس: فسألت أصحاب رسول الله - ﷺ - كيف تحزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل[2].

«وحينئذ فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة كانت التي بعد من سورة (ق) بيانه: ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء، وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال، وبراءة، وسبع: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، وتسع: سبحان والكهف، ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، وإحدى عشرة: الشعراء إلى يس، وثلاث عشر: الصافات إلى الحجرات، ثم بعد ذلك حزب المفصَّل، وأوله سورة (ق)»[3].

---

(1) سنن أبي داود 2/ 55 وانظر البرهان للزركشي 1/ 246 - 247.

(2) سنن ابن ماجه 1/ 427 - 428.

(3) البرهان في علوم القرآن 1/ 247 - 248.

قال صاحب «مناهل العرفان»: «المفصَّل ثلاثة أقسام، طول وأوساط وقصار، فطواله من أول الحجرات إلى سورة البروج وأوساطه من الطارق إلى سورة لم يكن، وقصاره من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن»[1].

ثانياً. معنى السورة لغة واصطلاحاً:

السورة قطعة من القرآن، معينة بمبدأ ونهاية، لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام، تركز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسقة.

وتسمية القطعة المعينة من عدة آيات القرآن سورة، من مصطلحات القرآن، وشاعت تلك التسمية عند العرب حتى المشركين منهم.

ووجه تسمية الجزء المعين من القرآن سورة، قيل مأخوذة من السُّور ـ بضم السين وتسكين الواو ـ وهو الجدار المحيط بالمدينة أو بمحلة قوم زادوه هاء تأنيث في آخره مراعاة لمعنى القطعة من الكلام، كما سمَّوا الذي يقوله القائل خطبة أو رسالة، أو مقامة[2].

«ولفظ السورة يحمل في طي دلالاته معنى الإحاطة، وتوحيد الأجزاء المتعددة، فالسورة هي القطعة من القرآن، وقيل سميت بهذا الاسم تشبيها لها بسور البناء، أي القطعة منه، وقيل: أخذت من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسُّور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد»[3].

«وأما تسمية السورة سورة فقيل: إن ذلك يفيد الإبانة من غيرها من السُّوَر»[4]. وأما السورة فإن قريشاً كلها، ومن جاورها من قبائل العرب، كهذيل وسعد بن بكر، وكنانة، يقولون: سورة بغير همز، وتميم كلها وغيرهم أيضاً

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/ 345.
(2) التحرير والتنوير 1/ 84 ـ 85.
(3) التناسب البياني في القرآن ص 55.
(4) نكت الانتصار لنقل القرآن، ص 57.

يهمزون، فيقولون سوار وسؤرة، فأما من همز فهي عنده كالبقية من الشيء والقطعة منه، وأما من لا يهمز فمنهم من يراها من المعنى المتقدم، إلا أنها سهلت همزتها، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء، أي القطعة منه؛ لأن كل بناء فإنما يبنى قطعة بعد قطعة، وكل قطعة منها سورة.

ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة في المجد والملك سورة، ومنه قول النابغة الذبياني[1] للنعمان بن المنذر:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كلّ ملك دونها يتذبذبُ[2]

يتبين من العرض السابق أنّ السورة هي القطعة من القرآن، ثلاث آيات فأكثر، ذات بناء متماسك، آياتها مترابطة ترابطاً قوياً، ومتناسبة تناسباً متيناً، كالبنيان يشد بعضه بعضاً، رتبت توقيفياً.

ثالثاً. فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سُوَراً:

قال الزمخشري: ليست الفائدة في ذلك واحدة، ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور، وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسوّرة مترجمة السور، وبوَّب المصنِّفون في كل من كتبهم أبواباً موشَّحة الصدور بالتراجم.

ومن فوائده: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبل، وأفخم من أن يكون بياناً واحداً.

ومنها: أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأهزَّ لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوى فرسخاً، أو انتهى إلى رأس بريد[3]، نفس ذلك منه ونشطه للسير.

---

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 1/ 56 ـ 57.

(2) في ديوانه ص 25.

(3) والبريدُ: فرسخان، وقيل ما بين كل منزلين بريد، والبريد الرسل على دواب البريد (اللسان 3/ 86 ماد برد).

ومنها: أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه، ويجلّ في نفسه ويغتبط به.

ومنها: أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني، ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع[1].

والحكمة في تقطيع القرآن سُوَراً، أن تكون كل سورة بل كل آية فنّاً مستقلاً وقرآناً معتبراً، وفي تسوير القرآن، تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى[2].

والإشارة إلى أن كل سورة نمطٌ مستقل، فسورة يوسف تترجم عن قصته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم إلى غير ذلك، وسُوِّرت السُّوَر طوالاً وأوساطاً وقصاراً تنبيهاً على أن الطُّول ليس من شرط الإعجاز.

ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم وتدريج الأطفال من السُّوَر القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه[3].

رابعاً. ترتيب السور توقيفي:

تنوعت سور القرآن الكريم في بنائها وفق نظام بديع، وحكمة إلهية بالغة أمرت النبي ـ ﷺ ـ أو وفق اجتهاد الصحابة على الخلاف في ذلك، أن يرتبها وفق ما هي عليه الآن في المصحف الشريف، بداية بسورة الفاتحة ونهاية بسورة الناس.

وقد تباينت الآراء حول هذا الموضوع تبايناً واسعاً، فمنهم من يرى أن ترتيب السور توقيفي، ومنهم من يرى أنه اجتهادي، ومنهم من يرى أن أغلب السور توقيفي وبعضها اجتهادي، ومن هؤلاء ابن الزبير الغرناطي، الذي وجه عنايةً كبيرةً في ترتيب السور، وذلك من خلال مؤلفه «البرهان في ترتيب سُوَر القرآن»، إذْ يرى أن الاختلاف واقع في ترتيب السور على ما هي عليه الآن في مصحف عثمان بن عفان

---

(1) الكشاف 1/ 240 ـ 241.

(2) البرهان في علوم القرآن 1/ 264.

(3) الإتقان 1/ 186.

ـ رضي الله عنه ـ الذي بعث بنسخه إلى الآفاق، وأطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سوره وعمله فيه، فذهب مالك، والقاضي أبو بكر بن الطيب، فيما اعتمده واستقر عليه مذهبه من قوله، والجمهور من العلماء إلى أن ترتيب السور إنما وقع باجتهاد الصحابة، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ فوَّض ذلك إلى أمته بعده، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن ذلك إنما وقع بتوقيفه ـ ﷺ ـ وأمره، ولكل من الطائفتين جهات تعلُّق، وكلا القولين ـ والحمد لله ـ لا يقدح في الدين ولا يثمر إلا اليقين[1].

بيد أنني أميل إلى الرأي القائل بالتوقيف؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن اكتمل القرآن، قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[2]؛

ولأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ عُرف عنهم الورع والخوف من كتابة القرآن عندما كان النبي ـ ﷺ ـ بين ظهرانيهم[3]، فما بالك بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فذلك أدعى للورع أكثر.

قال ابن الزبير: «والأمر في ذلك كيفما قدر، فلابد من رعي التناسب والتفات التواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه ـ ﷺ ـ فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسَلَّم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول الآيات، ومواقع الكلمات، وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ـ ﷺ ـ وهذا قول مالك في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين، فكيفما دار الأمر فمنه ـ ﷺ ـ عرف ترتيب السور وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر»[4].

---

(1) البرهان في ترتيب سور القرآن ص 182.

(2) المائدة من الآية 3.

(3) وظهْرانَيْهم ـ بفتح النون ـ ولا يكسر: بين أظهُرهم، وفي الحديث فأقاموا بين ظهرانيهم وبين أظهرهم.. ثم كثر حتى استعمل في الإقامة بين القوم مطلقاً. (لسان العرب 4/ 523 مادة ظهر).

(4) البرهان في ترتيب سور القرآن ص 183.

فقول مالك الذي نقله عنه ابن الزبير، والقائل: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله - ﷺ - يوحي بأن ذلك الترتيب هو بتوقيف من الله؛ لأنهم ألفوا القرآن على هذا النحو من الترتيب في حضرة النبي - ﷺ.

وحكى الخطابي: فيما ذكره ابن الزبير أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة القدر عقيب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بها الكتابة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[1] إشارة إلى قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي، وهذا بديع جداً، قلت: ومن ظن ممن اعتقد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه، فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعى، وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالطبع، بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن، الواقع ترتيبها بأمره - عليه السلام، وتوقيفه بغير خلاف، ألا ترى أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه - عليه السلام - في الصحيح المقطوع به، وتقدُّم المدنيّ على المكِّيّ في ترتيب السور والآي كثير جداً، فإذا سقط تعلق الضمان بترتيب النزول، لم يبق إلا رعي التناسب والاشتباه وارتباط النظائر والأشباه[2].

وتجد ذلك واضحاً في عدة سور كالأنفال، وبراءة، والطلاق، والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحى وألم نشرح، والفيل وقريش، والمعوذتين إلى غير هذه السور، مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر.

وقد مال القاضي أبو محمد بن عطية - رحمه الله - في ترتيب السور إلى القول بالتفصيل، وهو أنّ كثيراً من سور القرآن قد كان عُلمَ ترتيبُها في أيامه - ﷺ - كالسبع الطول، والحواميم، والمفصَّل، وأشار كلامه إلى أَن ما سوى ذلك يمكن أن يكون - عليه السلام - فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، ولم يقطع القاضي أبو محمد في هذا القسم الثاني بشيء.

---

(1) القدر: 1.

(2) البرهان في ترتيب سور القرآن ص 184.

وظواهر الآثار شاهدة بصحة ما ذهب إليه في أكثر ما نُصَّ عليه، ثم يبقى بعدُ قليل من السور يمكن فيها جري الخلاف، أو يكون وقع، وإذا كان مستند المسألة النقل لم يصعب خلاف غير أهله[1].

وأما رأي ابن عطية هذا فله دلالتان، أولهما أن كثيراً من سور القرآن قد كان علم ترتيبها في أيامه - ﷺ - كالسبع الطول والحواميم.

فهذا صحيح ومقبول، وأما الدلالة الثانية المتعلقة بتفويض النبي - ﷺ - أمته بعده في ذلك، فهذا في رأيي لا يتصور؛ لأن النبي - ﷺ - لا يبين بعض القرآن ويترك الآخر، ذلك لا يقال في حقه - ﷺ - لأن الله أمره بالتبليغ، فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2].

قال الشاطبي: «فإن القاعدة المحصلة أن النبي - عليه السلام - لا يسكت عما يسمعه أو يراه من الباطل، حتى يغيِّره أو يبيِّنه، إلا إذا تقرر عندهم بطلانه، فعند ذلك يمكن السكوت إحالةً على ما تقدم من البيان فيه»[3].

وكذلك فإن من مهمته البيان، بنص القرآن، فقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

ومن ثم نستطيع القول: إن ترتيب السُّوَر من صميم رسالته، ويشهد لذلك قوله - ﷺ -: «اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران»[5].

وقوله أيضاً: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمُهُ سورة البقرة وآل عمران»[6].

---

(1) البرهان في ترتيب سور القرآن ص 185.

(2) المائدة 67.

(3) الموافقات 3/ 358.

(4) النحل 44.

(5) صحيح مسلم بشرح النووي 6/ 90. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير 1/ 340 وانظر المسند الجامع 7/ 447.

(6) صحيح مسلم نفسه.

وكذلك ما رواه البخاري في صحيحة، عن عبد الرحمن بن يزيد، قال سمعت ابن مسعود يقول: في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «إنهن من العتاق الأُوَل وهنَّ من تلادي»[1].

إذ ذكرها نسقاً على ترتيب المصحف الآن، فهذه الأحاديث الصحيحة تُقَوِّي أن ترتيب القرآن كان بتوقيفه - ﷺ.

وقد قرّر ابن الزبير أن الوارد من الأحاديث عن النبي - ﷺ - وعن كبار الصحابة قبل كتب المصحف كثير ومَرْوِيٌّ بطرق شتى، وفي أحوال مختلفة، فإن قيل: فقد كان يجب على ما أشرت إليه أن يكون القول بالتوقيف أكثر وأشهر، والأمر على خلاف ذلك، فإن مالكاً - رحمه الله - والقاضي أبا بكر من المتكلمين[2]، وأكثر أهل العلم قائلون بأن ترتيب السُّوَر اجتهاد من الصحابة.

وإن الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر ولم يرد فيما بين كل سورتين، ولاشك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم، ولو فيما بين سورتين، جرى المقول المشهور عليه وصح اعتماده، ثم إن الآثار هي مستند اجتهادهم وأصل اتفاقهم وهذا ما أراد مالك - رحمه الله - بقوله: وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله - ﷺ -[3].

وفي «الجامع لأحكام القرآن الكريم» عن ابن وهب أنه قال: سمعت سليمان بن بلال، سمعت ربيعة يسأل: لم قدّمت البقرة على آل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قدّمتا وأُلّف القرآن على علم ممن ألّفه، وقد اجتمعوا عل العلم بذلك، فهذا مما ننتهي إليه ولا نسأل عنه.

---

(1) صحيح البخاري 4/ 1612.

(2) هو القاضي الباقلاني محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، قاض من كبار علماء الكلام - انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، من كتبه «إعجاز القرآن» و «الإنصاف» و«دقائق الكلام» توفي سنة 403هـ (تذكرة الحفاظ للذهبي 3/ 1079 وانظر الأعلام للزركلي 7/ 46).

(3) البرهان في ترتيب سور القرآن ص 187.

وعن سُنيد، أنه قال: حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة، قال: قال ابن مسعود: من كان منكم متأسيّاً فليتأسّ بأصحاب رسول الله - ﷺ - فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلُّفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً. اختارهم الله لصحبة نبيّه - ﷺ - وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم على الهُدى المستقيم.

وقال قوم من أهل العلم: إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبي - ﷺ - وأما ما روي عن اختلاف مصحف أُبيّ، وعليّ، وعبد الله، فإنما كان قبل العرض الأخير وأن رسول الله - ﷺ - رتّب لهم تأليف السُّوَر بعد أن لم يكن فعل ذلك.

وذكر أبو بكر الأنباري، كما نقل عن القرطبي: أن الله - تعالى - أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فُرِّق على النبي - ﷺ - في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر يسأل، ويوقفُ جبريلُ رسولَ الله - ﷺ - على موضع السورة والآية، فاتساق السُّوَر كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيّن - عليه الصلاة والسلام - عن ربّ العالمين، فمن أخرّ سورة مقدمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغَيَّر الحروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة؛ لأن رسول الله - ﷺ - أُخذَ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول: ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن، كان جبريل - عليه السلام - يقفه على مكان الآيات.

وإن من عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع، ونظم السُّوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يَدْرِ أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطرّ إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به، وردّ على محمد - ﷺ - ما حكاه عن ربّه - تعالى.

وقد قيل: إن علة تقديم المدني على المكي، هو أن الله ـ تعالى ـ خاطب العرب بلُغتها وما يُعرف من أفانين خطابها ومحاورتها، فلما كان فنّ من كلامهم مبنيّاً على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله ـ تعالى ـ الذي لو فقدوه من القرآن لقالوا ما باله غير ممترى[1] من هذا الباب الموجود في كلامنا، المستحلى من نظامنا[2].

وقال ابن الحصّار كما نقل عنه السيوطي: «ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا»[3]، وقد حصل اليقين من النّقل المتواتر بهذا الترتيب في تلاوة رسول الله ـ ﷺ ـ وممّا أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»[4].

وقال الكرماني: «أول القرآن سورة الفاتحة، ثم سورة البقرة، ثم سورة آل عمران، على هذا الترتيب إلى سورة الناس، وهكذا عند الله في اللوح المحفوظ وهو على هذا الترتيب كان يَعْرِضُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كل سنة، ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليه في السنة التي توفي فيها مرتين[5]، وكان آخر الآيات نزولاً قوله تعالى:

---

(1) الامتراء في الشيء: الشَّكُ فيه، وكذلك التّماري ـ والمراءُ: المماراةُ والجدال، والمراءُ أيضاً: من الامتراء، والشّكّ، وأصله في اللغة الجدال وأن يستخرج الرجلُ من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة وغيرها (اللسان 15/ 278 ماة: مرا).

(2) تفسير القرطبي 1/ 59 ـ 62.

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده 4/ 218 والحاكم في المستدرك على الصحيحين 2/ 211 والبيهقي في السُّنن الكبرى 2/ 42.

(4) الاتقان 1/ 176.

(5) أخرجه الحاكم في مستدركه 2/ 230 عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يعرض القرآن كل سنة على جبريل ـ عليه السلام، فلما كانت السنة التي قُبض فيها، عرضه عليه عرضتين» وجاء في المسند الجامع 17/ 787 عن أبي هريرة «قال: كان يُعرضُ على النبي ـ ﷺ ـ القرآنُ في كُلّ سنة مرَّة، فلما كان العام الذي قُبضَ فيه عُرضَ عليه مرتين» وذكره أيضاً في 9/ 406 باختلاف قليل في اللفظ.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدّين»[2].

فوضع آخر الآيات نزولاً في موضعها يدلّنا دلالة قاطعة على أن ترتيب الآيات توقيفي، لأنه إذا كان آخر الآيات قد رتّبت في موضعها من سورتها فمن باب أولى أن تكون السور التي نزلت قبلها قد رتّبت بالتوقيف كذلك، وهذا الذي يتصوره العقل؛ لأن الله لا يأمر ببعض ويترك الكل «حاشا أن يهمل رسول الله ـ ﷺ ـ أمر القرآن، وهو نور نُبُوَّته، وبرهان شريعته»[3].

وذكر السيوطي نقلاً عن الطيبي[4]: أن القرآن الكريم أنزل أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرّقاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ[5].

واختاره أبو جعفر النحاس ـ على ما نقله السيوطي ـ لحديث واثلة: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال...».

وقال: «فهذا الحديث يدلّ على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ـ ﷺ ـ وأنه من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ـ ﷺ ـ على تأليف القرآن»[6].

---

(1) البقرة 281.

(2) البرهان في متشابه القرآن ص 114 ـ 115، وأما ما ذكره من عرض النبي ـ ﷺ ـ القرآن على جبريل فقد رواه البخاري في صحيحة 4/ 1613 بلفظ: «حدثنا خالد بن يزيد حدثنا أبو بكر عن أبي حصين، عن ذكوان عن أبي هريرة، قال: كان يعرض على النبي ـ ﷺ ـ القرآن كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه».

(3) روح المعاني 1/ 26.

(4) هو: الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي ـ بكسر الطاء ـ الإمام المشهور العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان، صنف «شرح الكشاف» و«التبيان في المعاني والبيان» توفي سنة 743هـ (بغية الوعاة 1/ 522 ـ 523).

(5) الإتقان 1/ 177.

(6) نفسه 178، والحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص 136 وأخرجه السيوطي في صحيح الجامع الصغير 1/ 350 وأورده حسين بن علي الرجراجي الشوشاوي في الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة ص 432 ـ 433.

وقال السيوطي: «ومما يدلّ على أنه توقيفيّ، كون الحواميم رتّبت ولاءً وكذا الطواسين، ولم يرتّب المسبّحات ولاءً، بل فصَل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس، مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاءً، وأخّرت طس عن القصص، والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال»[1].

وقد انتصر للرأي القائل بالتوقيف، صاحب «مباحث في التفسير الموضوعي» إذ قال: «ذهب جمهور العلماء إلى أن ترتيب السور في المصحف توقيفي أيضاً للدلالة الكثيرة في ذلك.

أما من ذهب إلى أنه اجتهادي، أو بعضه توقيفي وبعضه اجتهادي فلا مستند لهم في قولهم سوى أمرين، أو بالأحرى شبهتين، الشبهة الأولى: قالوا: إن مصاحف بعض الصحابة لم تكن مرتبة ترتيب مصحف عثمان - رضي الله عنه - وهذا لا حجة فيه لهم؛ لأن مصاحف الصحابة كانت مصاحف شخصية، لم يحاولوا أن يلزموا بها أحداً، ولم يدّعوا أن مخالفتها محرمة والمرء قد يكتب لنفسه مصحفاً أو سوراً معيّنة، يخشى من التباس الأمر فيها، نسياناً أو غير ذلك فيكتب بالطريقة التي يشاء، وهذا ما يفسر لنا القول بأن بعض الصحابة لم يكتب في مصحفه المعوذتين.. الشبهة الثانية اعتمدوا على حديث ضعيف جداً بل يمكن أن يقال إنه لا أصل له: لأن إسناده يدور على «يزيد الفارسي» الذي رواه عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا يذكره البخاري في الضعفاء»[2].

والذي نراه في هذه المسألة وتميل إليه النفس، ويتصوره العقل، أن ترتيب جميع السور بدون استثناء توقيفي لأسباب ذكرناها فيما سبق، وللآثار الشاهدة

---

(1) الإتقان ص 179 وانظر الحديث الذي أخرجه البيهقي في السنن الكبرى 2/ 42.

(2) مباحث في التفسير الموضوعي ص 78 - 79. وينظر كتاب الضعفاء الصغير ص 205.

بذلك، ولما ارتآه كثير من العلماء الذين أخذوا بهذا الرأي، وهو ما رآه كذلك الإمام محمد أبي زهرة حين قال: «إن ترتيب السور كترتيب الآيات بوحي من الله العلي الحكيم»[1].

ذلك هو الرأي الصائب، الذي يؤيده الترابط القوي والتناسب البديع والتصرف العجيب، وفيما يلي زيادة على ما ذكرت بعض الدلائل التي ترجح أن ترتيب القرآن في المصحف كان بالوحي، ولم يكن من الصحابة، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

قال الكرماني في توجيهه لهذه الآية: «ليس في القرآن غيرها، لأن العبادة في الآية التوحيد، والتوحيد أول ما يلزم العبد من المعارف، فكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس في القرآن، فخاطبهم بما لزمهم أولاً، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات»[3].

وقال ابن الزبير الغرناطي عند توجيهه لقوله تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4].

«هي أم القرآن ومطلع الكتاب العزيز، وأول سورة في الترتيب الثابت»[5].

وفي موضع آخر قال: «إن أم القرآن لما كانت أول سوره ومطلع آياته وهو المبيِّن لكل شيء والمعرّف بوحدانيته ـ سبحانه ـ وانفراده بالخلق والاختراع ومُلْك الدارَيْن»[6].

وقال بعضهم: لترتيب وضع السُّوَر في المصحف أسباب تُطْلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم: أحدُهما بحسب الحروف، كما في الحواميم.

(1) المعجزة الكبرى ص 46.
(2) البقرة 21.
(3) البرهان في متشابه القرآن ص 114.
(4) الفاتحة 1.
(5) ملاك التأويل 1/ 7 ـ 8.
(6) ملاك التأويل 1/ 15.

الثاني: لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة.

الثالث: للوزن في اللفظ كآخر تَبَّتْ وأول (الإخلاص).

الرابع: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى، كالضحى وألم نشرح[1]. ذلك الترتيب التوقيفي هو الذي جعل السُّوَر مترابطةً ترابطاً قوياً ومبنيةً بناءً محكماً، وهو ما أوجب علينا الحديث عن بناء السُّوَر في تصريف مقاصدها، للوقوف على تلك الأسرار العجيبة، والتناسق القوي والترابط المتين.

(1) الإتقان 3/ 322.

المبحث الثاني
نظرة إجمالية عن تنوع بناء السُّوَر في كل قسم

يعتبر بناء السورة وقوّة ارتباطها وتناسقها، خصيصة من خصائص النَّظْم القرآني، وحكمة تصريفه، إذ إن سور القرآن مترابطة فيما بينها ترابطاً قوياً، غاية في الدقة والإحكام، كل واحدة تُحيل على التي تليها في تناسب منطقي، وأسلوب بديع، وتصرف عجيب، من أول سورة، وهي الفاتحة إلى آخر سورة وهي سورة الناس؛ لأنه تنزيل الحكيم الحميد، الذي بأمره إلى نبيّه ـ ﷺ ـ تم ترتيبه على هذا النحو الرائع، وقد جاء على كثرته وطوله متناسباً، غاية في الفصاحة، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1].

فحقاً كما ذكر الباقلاني: إنه عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف...

وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

والقرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتشابه كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب، تَبِيَن به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف.

وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه في جنسه ومائه[2].

---

(1) النساء 82.

(2) إعجاز القرآن ص 60 ـ 67.

إن هذه الخصائص حيَّرت أهل الفصاحة، فجعلتهم يفزعون إلى التعامل معه ويقابلونه في بعض أساليبهم ونظم كلامهم، ولكنهم عجزوا عن ذلك، وفاق القرآن في تصرفه أساليب كلامهم، فظهرت براعته وقوة ارتباطه، وتماسك بنائه وتنوع مقاصده، وحكمته العالية التي أودعها إيّاه العليم الخبير.

وعلى الرغم من ترتيب سوره على هذا النحو المترابط المتناسب، فله طريقة عجيبة في تصريف مقاصده حين يذكرها متفرقة على سوره وآياته، من ذكر الوحدانية، والإيمان بالأنبياء، والبعث والجزاء، والقصص والأمثال، والشرائع والأحكام، والأخلاق والفضائل، وما إلى ذلك من مقاصده التي تعرض لبيانها، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

فهو لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، وذلك بأسلوب بديع، وبلاغة عجيبة، تأخذ الألباب؛ لحكمة تميز هذا الكتاب المعجز عن غيره من الكتب السماوية قبله، فظهر بذلك إعجازه للناس أجمعين.

وقد نبّه على بعض هذه الخصائص، وطريقة القرآن في بناء مقاصده وتوزيعها على سُوَرِه، محمد رشيد رضا بقوله: لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد بها إصلاح شؤون البشر، جمع كل نوع منها وحده، كترتيب أسفار التوراة التاريخي التي لا يعلم أحد مُرتِّبها، أو كتب العلم والفقه والقوانين، لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول من التشريع، وحكمة التنزيل، وهو التعبد به، واستفادة كل حافظ للكثير أو للقليل من سوره حتى القصير منها، كثيراً من مسائل الإيمان، والفضائل والأحكام، والحكم المنبثة في جميع السور؛ لأن السورة الواحدة لا تحوي في هذا الترتيب المفروض إلا مقصداً واحداً من تلك المقاصد، فمن لم يحفظ إلاّ سورة طويلة في موضوع واحد يتعبد بها وحدها فلا شك أنه يملها.

---

(1) الأنعام 38.

وأما سوره المنزلة بهذا الأسلوب الغريب، والنظم العجيب فقد يكون في الآية الواحدة الطويلة، والسورة الواحدة القصيرة عدة ألوان من الهداية، وإن كانت في موضوع واحد، فترى في سورة الفيل وقريش، على قصرهما، ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش، فيما يجب عليهم من توحيد الله، وعبادته بما منّ عليهم من عنايته بحفظ البيت الحرام وأمنه، وهو مَناط عِزِّهم وفخرهم وشرفهم ومَعْقِل حياتهم، ومأمَنُ تجارتهم ورزقهم[1].

ففي تصريف القرآن الكريم لمقاصده على النحو الموزع في سوره وآياته التي خالف فيها الكتب المتقدمة، وما يسمى اليوم بالكتب المقسَّمة والمبوَّبة، سرّ عظيم وحكمة إلهية بالغة، جعلت منه تماسكاً قوياً وترابطاً متيناً، وقد أعجز الإنس والجن في أسلوبه ونظمه، وفي تصريف مقاصده بالطرق المختلفة وفي كل ما اشتمل عليه من المقاصد، بحيث أثر هذا التصريف البديع في أتباعه تأثيراً عميقاً، جعلهم يُقْبلون على دراسته وتلاوته، وفهم أحكامه وشرائعه، وفهم أسراره ومعانيه، لا يَمَلُّون تلاوته، واستنباط أحكامه وشرائعه.

قال الخطابي: «وأما قولهم: لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيّز وقبيل، لكان أحسن نظماً وأكثر فائدة ونفعاً.

فالجواب: إنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة، وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه، ولو كان لكل باب منه قبيل، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته، ولكان الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين له، إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة به إلا في النوع الواحد، الذي تضمنته السورة الواحدة فقط، فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظّاً، وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد للمعنى»[2].

---

(1) الوحي المحمدي ص 143.

(2) بيان إعجاز القرآن ص 54.

يتضح لنا من العرض السابق أن بناء السور على هذا النحو خصيصة من خصائص القرآن الكريم التي انفرد بها عن غيره من الكتب السماوية قبله، وما يسمى اليوم بالكتب المبوبة والمقسمة، وأن ذلك التنوع في إيراد المقاصد بطُرق شتَّى وأساليب مختلفة سر من أسرار إعجازه، وأن ذلك التصريف على تنوعه، وحدة مترابطة الأجزاء بين الآيات في السورة كُلّها، متّصل بعضها ببعض في نسق رائع، وكل آية في السورة مرتبطة بما قبلها وما بعدها برباط قويّ.

ذلك ما نراه في تصريف السور القرآنية في ذكر مقاصدها بطرق مختلفة. فقد تكون السورة ذات مقصد واحد تتحدث عنه ولا تتعداه إلى غيره من المقاصد، مثل كثير من قصار السور، مثل سورة النبأ والنازعات، والقارعة وغيرها، فهي تتحدث عن يوم القيامة بطرق شتى، وأساليب مختلفة، وقد تتصرف السورة إلى مقاصد شتى ترمي إليها، مثل السور الطُّوَل والمئين والمثاني، فتتنوع مقاصدها، من إثبات التوحيد، وإثبات النبوّة والرسالة وإثبات البعث والجزاء، والقصص والأمثال، والشرائع والأحكام، وعرض الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة من الأنفس والآفاق، إلى غير ذلك من المقاصد التي تعرضت لبيانها، ومع ذلك التنوع العجيب، فالسورة متماسكة ذات رابط قويّ فيما بين آياتها، وفيما بينها والتي تليها، ذلك هو المنهج القرآني في تصريف مقاصده، وارتباط سوره ووحدة مقاصده، فحقق بذلك أهدافه على أكمل وجه وأبلغه.

والسُّوَر على الرغم من طول بعضها وتَنَوُّع ما فيها من الموضوعات، فهي ذات تنسيق دقيق في بنائها، يربط هذه الموضوعات المتنوعة كلها رباط محكم، بحيث يصبح له على تنوعه، مقاصد واضحة محددة ترمي إليها، وغاية تُحَقِّقُها، وذلك كما قال محمد عبد الله درّاز: «إن هذه المعاني تنسق في السورة كما تنسق الحُجُرات في البنيان، لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباطٌ موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل... ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معيّن، وتؤدي بمجموعها غرضاً

خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية»[1].

«ومع هذا الترتيب الموحى به الذي لم يكن على حسب النزول، نجد السورة كلها مترابطة الأجزاء متصلة، يأخذ بعضها بحجز بعض في نسق بياني رائع، وكل آية مرتبطة برباط معنوي وبياني، فالآية تتبع ما قبلها، لا في الموضوع ولكن في نظام يشبه تداعي المعاني»[2].

إن الناظر في كتاب الله والمتأمل فيه يلاحظ أن سور القرآن مبنيةٌ بناءً محكماً دقيقاً، ومتناسبة تناسباً قوياً، وذلك ما سنلاحظه في بناء السور التي تتناولها الدراسة، بعرض بعض النماذج لكل قسم، من أقسام القرآن التي تحدثنا عنها وذلك في نظرة إجمالية، تبين تصريف بيانه، وترابط سوره وآياته، وتنوع مقاصده.

الأنموذج الأول: السُّوَرُ الطُّوَلُ:

أولاً: بناء سورة البقرة وتَنَوُّع مقاصدها:

سورة البقرة مدنية، وآياتها مئتان وست وثمانون آية، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، وفيها آخر ما نزل من القرآن الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[3].

وقد تنوعت مقاصدها تنوعاً كبيراً، وهي أجمع سور القرآن لأصول الإسلام، وارتبطت آياتها ارتباطاً قوياً، وتلاحمت تلاحماً متيناً، والسورة على الرغم من طولها وتنوع مقاصدها، فهي ذات تنسيق دقيق في بنائها، يربطها رباط مُحكَم، لتؤدى مقاصدها في تناسق متين لا تشعر فيه بتفكك، وإنما تشعر بالتلاحم والترابط بين الآيات، حين تنتقل من مقصد لآخر في تسلسل منطقي وترابط معنويّ وبياني.

---

(1) النبأ العظيم ص 155.

(2) المعجزة الكبرى ص 330.

(3) سورة البقرة الآية 281.

وقد أشار الرازي إلى لطائف نظم هذه السورة فقال: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه مُعْجزٌ بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجزٌ بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر[1]

ويصدق عليها وعلى غيرها من السور الكريمة ما قاله محمد عبدالله دراز بقوله: «أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً، فإذا هي، لو تدبرتَ، بنيةٌ متماسكةٌ قد بنيت من المقاصد الكلية على أسُس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شُعبٌ وفصول، وامتدَّ من كل شعبة منها فروعٌ تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حُجُرات وأفنية في بنيان واحد قد وُضع رسمه مرة واحدة، ولا تُحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والالتحام»[2].

ذلك فعلى الرغم مما تصرف فيها من قضايا متعددة، فإنه كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك[3] وهو ما سنراه في بناء سورة البقرة وارتباط آياتها.

---

(1) تفسيره 7/ 139.

(2) النبأ العظيم ص 155.

(3) الموافقات 3/ 414 - 415.

وهكذا فقد نوعت سورة البقرة مقاصدها تنويعاً عجيباً، غاية في الدقة والإحكام، وفيما يلي بيان إجمالي لتلك المقاصد المتنوعة، لنتبين منها بناء هذه السورة وترابط آياتها.

فبدأت بذكر أقسام الناس، إذ قسمت الناس ثلاثة أنواع، وهم المتقون، والمنافقون والكافرون، وبينت صفات كل منهم، فبدأت بالمتقين؛ لأنهم أشرف هذه الطوائف، ثم عددت صفاتهم، وهي الإيمان بالغيب وأداء الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، والإيمان بالكتب السابقة لرسالة محمد ـ ﷺ ـ والإيمان بالآخرة، تلك إذاً هي القواعد الأساسية للعقيدة الإسلامية، فقال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1].

إن «هناك تساوقاً وتناسقاً بين هذه الصفات جميعاً، هو الذي يؤلف بينها وحدة متناسقة متكاملة، فالتقوى شعور في الضمير وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال»[2].

وقد لاحظ محمد باجودة أن كُلا من النعوت الثلاثة مرتبط بزمن خاص به، وهذه الأزمان الثلاثة ترتّب في نسق بديع. إن نزول القرآن الكريم مرتبط بالزمن الحاضر، وإن نزول الكتب السماوية السابقة، وهي من جنس الكتاب المنزل على محمد ـ ﷺ ـ مرتبط بالزّمن الماضي، فثمة عودة إلى الماضي الذي يصحّ، بل ينبغي أن يكون سحيقاً، فلم يبق سوى أن يتمّ التّحوّل إلى زمن سحيق مقابل للماضي ألا وهو الزّمن المستقبل، وبما أن القرآن الكريم آخرُ الكتب السماوية، فلا كتاب سماوياً بعده، فقد كان التحول إلى اليوم الآخر، الذي يعتبر الإيمان به والتصديق بكل متعلقاته من أكبر ثمار الإيمان بهذه الكتب السّماويّة، والتصديق بها، إن لم يكن أكبر الثمار فعْلاً[3].

(1) البقرة 1 ـ 5.
(2) في ظلال القرآن 1/ 41.
(3) تأملات في سورة البقرة 1/ 33 ـ 34.

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الصنف الثاني، وهم الكافرون، فصرّحت الآيات بعدم إيمانهم، ومثّلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوبٍ ختمَ اللهُ عليها حتى دخلوا في زمرة الأنعام التي لا تعي شيئاً، ولا تفقهه[1].

ثم بينت جزاءهم، فقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[2].

ثم انتقلت في تناسق وترابط لبيان الصنف الثالث، وهم المنافقون، وتوسعت في الحديث عنهم، وضربت لهم الأمثال، يأتي الحديث عنها في موضعه - إن شاء الله تعالى - قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[3].

«وخلاصة القول فيما سبق من الآيات أنها وصفت الأتقياء في ثلاث آيات، ووصفت الكافرين في آيتين، ووصفت المنافقين في ثلاث عشرة آية، وذلك يدل على استطارة شرهم وخطورة أثرهم على الجماعة كلها»[4].

وقد اشتمل الحديث عن الطوائف الثلاث على ثلاثة عناصر مرتبة على هذا النمط: وصف الحقيقة الواقعة، فبيان السبب فيها، فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة.

فحقيقة الطائفة الأولى أنهم قوم حصّلوا فضيلة التقوى بركنيها العلمي والعملي، وسبب ذلك استمساكهم بالهدف وإمدادهم بالتوفيق من ربهم، ومآل أمرهم الفوز والفلاح.

---

(1) من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم 2/ 30.

(2) البقرة 6 - 7.

(3) الآيات 8 - 20.

(4) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص 12.

وحقيقة الطائفة الثانية أنهم مجردون من أساس التقوى وهو الإيمان، وأنهم مُصرّون على ذلك إصراراً، لا ينفع معه إنذار، والسبب عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم، وعاقبة أمرهم العذاب العظيم.

وحقيقة الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير وباطن سوء، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون، وليس في قلوبهم من الإيمان شيء، ولكل من الوصفين سبب وجزاء، أما دعواهم الإيمان فسببها قصد المخادعة، وجزاء الخداع عائد إليهم، وأما إسرارهم الكفر فسببه مرض قلوبهم، وجزاؤه زيادة المرض والعذاب الأليم[1].

وقد أشار إلى الترابط بين المعاني في الآيات السابقة محمد باجودة فقال: «تحدّثت السورة الكريمة - يعني سورة البقرة - ابتداءً من المؤمنين المتّقين وبيّنت عدداً من نُعوتهم، وتحدّثت بعد ذلك عن الكافرين المعاندين، وهؤلاء يخالفون المؤمنون المتّقين في الصّفات. ومن ثمّ فالربّاط بين الموضوعين التّضاد في الصفات، والمعروف أن التّضاد أو التقابل في الصفات، من أهمّ وسائل الترابط بين المعاني وتداعيها، ولما كان ثمة فريق ثالث يجمع بخُبْث ودهاء بين صفات الفريقين السابقين، هذا إلى كونه قد تأخّر وجوده زمناً عن الكافرين، فقد تحدّثت السورة الكريمة وأفاضت في الحديث عن هذا الفريق الثالث المنافق، الذي يدّعي الإيمان والتّحلي بصفات المؤمنين، بينما هو يضمر الكفر، والمعروف أن النّفاق إنما ظهر بعد هجرة المصطفى - ﷺ - إلى المدينة المنورة»[2].

ثم انتقلت إلى دعوة الناس عامة إلى عبادة الله - تعالى - وتوحيده، والإيمان بالكتاب المنزل، وتحدي المرتابين فيه، وإنذار الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة، إذ قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(1) النبأ العظيم ص 167.

(2) تأملات في سورة البقرة 1/ 73.

إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] ، ثم انتقلت إلى بيان حقيقة الأمثال القرآنية ، وفرقت بين المؤمنين بها والكافرين ، وبينت جزاء الذين ينقضون عهد الله فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ إلى قوله الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2] .

ثم تعجبت من أمر الذين يكفرون بالله ، مذكرة إيّاهم بحقيقة البعث والجزاء ، فقال الله تعالى :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3] .

فمن هذا الترابط أنه ساق هذه الآيات على نسق عجيب مترابط بعضه ببعض ، فلما أمر بعبادته وتوحيده ، وتذكير الناس بنعمه عليهم ، علويةً وسفليةً ، إجمالاً ، فصل في هذا المقصد ، فتعجب من الذين كفروا ، على الرغم ممّا أمرهم به من توحيده ـ تعالى ـ فهم لم يمتثلوا أمره ، على الرغم من الدلائل القاهرة والبراهين الساطعة على قدرته ووحدانيته ، إذ زاد تفصيلاً لهذه النعم محتجاً عليهم بنعمة الخَلْقِ والإيجاد ، مذكّراً إيّاهم بالبعث والجزاء .

قال محمد الغزالي ، معقباً على هذه الآيات : «أكان رب العالمين جديراً بهذا الموقف الخسيس؟ هل جزاء النعمة المسداة ، نعمة الإيجاد والإمداد أن نكفر صاحبها؟ وبهذا الكنود ! !»[4] .

وتناولت الآيات استخلاف آدم في الأرض ، وأمر الملائكة بالسجود له فامتثلوا أمر ربّهم ، إلا إبليس ، أبى واستكبر فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ

(1) الآيات 21 ـ 25 .
(2) الآيتان 26 ـ 27 .
(3) الآيتان 28 ـ 29 .
(4) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص 12 .

بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1]، فقد ذكر فيما سبق نبوة النبي الخاتم، وهنا يذكر نبوة النبي الأول آدم، لنعلم أن نبيًّنا لم يكن بِدْعاً من الرسل، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم يتصل بنشأة الإنسان، وقد مهد لهذا البيان بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة، وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري، إذ اختاره الله لخلافة الأرض وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم[2].

ثم يمضي السياق بتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وذكر أعمالهم القبيحة، وما جرى بينهم وبين نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وتنبيه المؤمنين إلى خبث اليهود ومكرهم، إذ يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

«كان لابد ـ وسورة البقرة أول ما نزل بالمدينة ـ أن تتصدى السورة لبني إسرائيل مُفَنِّدةً موقفهم من الرسالة الخاتمة ومسالكهم المعيبة في القديم والحديث»[4].

وهكذا تصرفت هذه الآيات على أتم تناسق وترابط، ذلك أن اشتمال هذه الآيات المتوالية على ذكر قصة بني إسرائيل، ونبيهم ـ عليه السلام ـ يدل على التناسق والترابط المتين بين الآيات، وأنها مرتبة بوحي إلهي، وذلك ما أشار إليه صاحب «في ظلال القرآن» إذ قال: «ثم نلحظ في جانب التناسق الفني والنفسي، في الأداء

---

(1) آية 30 ـ 39.

(2) النبأ العظيم ص 177.

(3) آية 40 ـ 101.

(4) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص 12.

القرآني، أن بدء هذه الجولة يلتحم بختام قصة آدم، وهذا جانب من التكامل في السياق القرآني بين القصص، والوسط الذي تعرض فيه»[1].

ثم تتحدّث الآيات عن قصة سليمان وهاروت وماروت والسحر والسحرة، بإيجاز فقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[2]، وهكذا تمضي الآيات متناسقة في سياقها مرتبطة بما قبلها وذلك ما نلحظه من نبذ فريق من أهل الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم، أي إنهم تركوا ما أُنزل مصدقاً لما معهم، وراحوا يتبعون الشيطان على عهد سليمان؛ لأنهم لو صدّقوا بهذا الكتاب واتبعوه لما اتبعوا الشيطان، فذلك من أعظم التناسق والترابط بين الآيات.

ثم يتجه الخطاب إلى الذين آمنوا، منادياً إيّاهم بالصفة التي تميزهم وتربطهم بربهم ونبيهم، وهي الإيمان، إذ ينهاهم عن مجاراة اليهود في قولهم ﴿رَٰعِنَا﴾ مستبدلاً بها قوله ﴿ٱنظُرْنَا﴾ يأمرهم بالسمع ويحذرهم من مصير الكافرين.

وهكذا يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كُلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تُؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء.

ولما كان لكلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ معنى في العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها، فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى[3].

---

(1) في ظلال القرآن 1/ 65.
(2) آية 102 ـ 103.
(3) من بلاغة القرآن ص 57 ـ 58.

ويمضي السياق مرتبطاً بعضه ببعض، فالنهي عن مجاراة اليهود في قولهم ﴿ رَاعِنَا ﴾ جعل القرآن يكشف لأصحابه عما يكنه اليهود للمسلمين من الشر والعداء، والقرآن الكريم يجمع بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر لأنهم جميعاً منكرون لأصول الإسلام وقواعده.

ثم تمضي الآيات لتُذكِّر بنعمة النبوة والرسالة، وقد بينت حسد الكفار وحقدهم على المؤمنين، وزعم اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرهم، مذكرة إياهم بدلائل الآفاق وقدرة الله الباهرة.

وترى ما أسلفنا الحديث عنه من قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

ويمضي السياق مبيِّناً طعن اليهود والنصارى بعضهم في بعض، وما تراه كل طائفة من أن الأخرى ليست على الحق، والآيات الآتية تصور قولهم هذا أحسن تصوير، قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

ثم يتصرف السياق فيبين اشتراك الطوائف الثلاث: المشركين واليهود والنصارى في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله، واشتراكهم في الجهل بالله

---

(1) آية 104 ـ 112.

(2) آية 113.

ونسبتهم الولد إليه، واشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسل حتى يكلمهم الله، أو ينزل عليهم آية ملجئة[1].

كل هذه القبائح يصورها القرآن فيقول الله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2].

وهكذا تمضي الآيات في ترابطها وتناسقها، بعضها مع بعض، فلما تحدثت الآيات عن مكايد الفرق الثلاث: اليهود والنصارى والمشركين، وسعيهم لإخلاء المساجد من ذكر الله، وبينت جزاءهم في الدنيا والآخرة، أعقبت ذلك بيان أنه أينما يتجه الإنسان فَثَمّ وجه الله، ثم بينت أن هؤلاء ليست هذه مكايدهم وحدها بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك فنسبوا الولد لله - سبحانه وتعالى - الذي له ملك السموات والأرض، فاستدل على نفي الولد بدلائل من الآفاق.

وبعد أن فندت الآيات أباطيلهم الكاذبة ودعاويهم وكشفت الدوافع الكامنة وراء ذلك، اتجه الخطاب إلى رسول الله - ﷺ - يبين له وظيفته، ويبيِّن له أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبّع ملّتهم.

ثم يعود الخطاب إلى بني إسرائيل مذكراً إياهم مرّة أخرى بنعم الله عليهم وتفضيله إياهم، وذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

---

(1) انظر النبأ العظيم ص 183.
(2) الآيات 114 - 121.
(3) آية 122.

ويمضي السياق في تناسقه المتين وترابطه القوي، فيربط تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، بتذكيرهم بأصلهم الأول؛ لأنهم أتباع إبراهيم - عليه السلام - فتحدثت الآيات عن ابتلائه، وعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيته الحرام، ودعوة إبراهيم بأن يجعل ذلك البلد آمناً وأن يرزق أهله من الثمرات، ورفع إبراهيم قواعد البيت يساعده إسماعيل - عليهما السلام - وهما يدعوان أن يتقبل الله منهما، وأن يجعلهما مسلمَيْن ومن ذريتهما كذلك، وتحدثت عن دعاء إبراهيم بأن يبعث فيهم رسولاً من أَنفسهم وهو محمد - ﷺ - ثم تعجبت ممن يرغبون عن اتباع ملة إبراهيم - عليه السلام - والمقصود - والله أعلم - بنو إسرائيل ومن لفّ لفهم؛ لأن الإسلام وصية إبراهيم لبنيه وهم من أتباع إبراهيم من ابنه إسحاق، قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

هذه الحقائق التي تمثل شطراً من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي، يجلوها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب، وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع، يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم - عليه السلام - منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه، وتنصيبه للناس إماماً إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد - ﷺ - استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام.

كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب، حافل بالإشارات الموحية والوقفات العميقة الدلالة، والإيضاح القوي التأثير[2].

وهكذا بعد الرحلة الطويلة التي عاشتها السورة في بيان التوحيد وأصول الإيمان وحال الناس منه، وصفاتهم وجزائهم، وما ضربته لهم من الأمثال وما

---

(1) الآيات 124 - 141.

(2) في ظلال القرآن 1/ 111 - 112.

توسعت فيه من حديث طويل مع بني إسرائيل، وذكر قبائحهم وجرائمهم، وتنبيههم إلى أصلهم الأول، ملة إبراهيم، وما دار من صراع بين قوى الخير والشر متمثلاً في صراع آدم مع إبليس، وأهل الكتاب والمشركين مع دعوة الإسلام، انتقلت بعد ذلك إلى بيان الأحكام التشريعية، بعد أن مهدت لها بتلك المقاصد الجليلة التي سبق الحديث عنها، وفي الحديث عن هذه الأحكام نجدها تبدأ بالحديث عن القبلة والملابسات التي أحاطت بها، والدسائس التي حاول اليهود بثها بين صفوف المسلمين، التي كشفت عنها الآيات المبتدئة من قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1].

ففي هذه الآيات يخبر القرآن عن السفهاء من اليهود الذين تكلموا في أمر تغيير القبلة، وما بثوه من دسائس بين المسلمين، لذا أمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يجيب هؤلاء أن المشرق لله والمغرب لله، فكلّ متوجه فهو إليه وفي أي اتجاه، وفي هذا إبطال لهذه الدسائس من جذورها.

ثم بيّنت علّة الاتجاه الذي كان عليه قبل تحويل القبلة، وهو لأجل الاختبار: «وطفق ينثر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد، فيقول: إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختباراً لإيمان المهاجرين ليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وأما تشريع هذه القبلة الباقية فإنه ينطوي على الحِكَم البالغة والمقاصد الجليلة»[2].

ثم انتقلت إلى الامتنان على العرب بإرسال رسول منهم، مبينةً مهمته، آمرةً إياهم بذكره وشكره فقال تعالى:

---

(1) الآيات 142 ـ 150.

(2) النبأ العظيم ص 187.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1].

وهكذا يستمر السياق في ترابطه، فبناء الآية اللاحقة مع ما قبلها بناء محكم، إذ ارتبطت بما قبلها برباط قوي، نلاحظه في المقصد السابق، الذي قرّر فيه القبلة، وبين فيه دسائس اليهود حين أعقبه بالأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة على التكاليف التي أمر بها، ومن بينها الاتجاه نحو القبلة فارتبطت الآيات بعضها ببعض أتم ارتباط فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[2].

ثم تتحدث الآيات عن وجوب السعي بين الصفا والمروة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[3]، وهذه الشعيرة من شعائر الإسلام مما يستعين على أدائها بالصبر، الذي أمر به في المقصد السابق، وذلك هو الترابط القوي والبناء المحكم.

ثم انتقل السياق إلى الوعيد الشديد المقصود به علماء اليهود والنصارى، الذين يخفون ما بيّنه - تعالى - في أمر نبوة محمد - ﷺ - وما أوضحه في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم[4].

ثم رغَّب في التوبة عن كتمان نبوة محمد - ﷺ - فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[5].

---

(1) الآيتان 151 - 152.

(2) الآيات 153 - 157.

(3) الآية 158.

(4) مختصر تفسير الطبري 1/ 77.

(5) الآيات 159 - 162.

ويمضي السياق في تناسقه مقرراً التوحيد ومبيناً دلائله فقال تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾[1].

ذلك أن تقرير وحدة الخالق المعبود، جاءت في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها، فإن ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفا والمروة كان من شأنه أن يلقى في روع الحديث العهد بالإسلام معنىً من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد، ولا سيما أنّ هذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مباءة[2] للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها، فوجب ألا يترك هذا العظيم دون تحديد وتقييد، حتى لا يبقى شك في أن قيام المصلين عند مقام إبراهيم وتوجيه وجوههم نحو الكعبة، وتمسح الطائفين بأركانها، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروة، كل أولئك لا يقصد به الإسلام توجيه القلوب إلى هذه الأحجار والآثار تزلفاً بعبادتها أو رجاءً لرحمتها، أو طلباً لشفاعتها، وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومظان بركته، وحتى تنتظم منها أمة واحدة تدور حول محور واحد، وتتجه إلى مقصد واحد هو أعلى المقاصد وأسماها، وهو الإله الواحد المتصف بالصفات الجليلة[3].

ويمضي السياق بعد إثبات التوحيد الخالص، والاستدلال عليه بدلائل الآفاق، فيأمر بأكل الحلال، والابتعاد عن خطوات الشيطان، وهذا في غاية التناسق والترابط، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ إلى قوله تعالى:

---

(1) الآيات 163 ـ 165.

(2) وتبوأ: تعادل، وبوّأه منزلاً، وفيه أنزله والمكان: حلّه وأقام، كأباء به وتبوّأ، والمباءةُ: المنزل كالبيئة والباءة (القاموس المحيط 1/ 7 مادة: باء).

(3) انظر النبأ العظيم ص 190.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[1] .

ولما أمر الناس جميعاً بأكل الحلال والابتعاد عن خطوات الشيطان في الآية السابقة، وضرب مثلاً للذين كفروا[2] ، توجه بالخطاب للذين آمنوا إذ أمرهم بأكل الطيبات، وذلك من الترابط القوي في بناء الآيات، فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾[3] .

وهكذا لـمَّا أمر بأكل الطيبات نَاسَبَه أنْ يبيِّن بعض المحرمات فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] .

ثم بينت الآيات جزاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[5] .

ويمضي السياق في تصرفه فيبيِّن ما يحقق البر، وهو الإيمان حين يقول :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[6] .

ثم يأتي الأمر بالقصاص وحكمه فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[7] .

---

(1) الآيات 168 ـ 170 .

(2) في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ آية 171 .

(3) آية 172 .

(4) آية 173 .

(5) الآيات 174 ـ 176 .

(6) آية 177 .

(7) الآيات 178 ـ 179 .

ثم يمضي السياق في إيجاب الوصية عند الموت، مبيّناً لمن تكون هذه الوصية، فقال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

قال أبو حيان: «مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أنه لما ذكر - تعالى - القتل في القصاص والدية أتبع ذلك بالتنبيه على الوصية وبيان أنها مما كتبه الله، على عباده، حتى يتنبه كل أحد فيوصي قبل مفاجأة الموت فيموت على غير وصية، ولا ضرورة تدعو إلى أن كُتب أصله العطف على كتب عليكم القصاص في القتلى، وكتب عليكم، وأن الواو حُذفتْ للطول، بل هذه جملة مستأنفة ظاهرة الارتباط بما قبلها؛ لأن من أشرف على أن يقتص منه فهو بعض من حضره الموت»[2].

وهكذا تتوالى الأحكام التشريعية، فيأتي الأمر بصيام رمضان وما يتعلق به من الأحكام، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[3].

وفي التعقيب على القصاص ترد إشارة إلى التقوى، وكذلك في التعقيب على الصيام، وعلل ذلك أبو حيان بقوله: «وإذا كان التكليف شاقاً ناسب أن يعقب بترجي التقوى، وإذا كانت تيسيراً ورخصة ناسب أن يعقب بترجي الشكر، وجاء عقب ذلك لأن الصيام والقصاص من أشق التكاليف، وكذلك يجيء أسلوب القرآن

---

(1) الآيات 180 ـ 182.

(2) البحر المحيط 2/ 19.

(3) الآيات 183 ـ 187.

فيما هو شاق وفيما فيه رخصة، أو ترقية، فينبغي أن يلحظ ذلك حيث جاء فإنه من محاسن البيان»[1].

قال الشاطبي: «كلام واحد وإن نزل في أوقات شتّى، وحاصله بيان الصيام وأحكامه، وكيفية آدابه، وقضائه، وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لابد منها، ولا ينبني إلا عليها»[2].

ويمضي السياق فينهى عن أكل الأموال بالباطل، ويبيّن أن الأهلة مواقيت للناس والحج، ثم يأمر بالقتال وأحكامه، ثم يأمر بإتمام الحج والعمرة وأحكامهما، ثم بينت الآيات أن فريقاً من الناس منافقون، ثم السؤال عن الإنفاق، وفرض القتال ومشروعيته في الأشهر الحرم، والسؤال عن الخمر والميسر وبيان حكمهما، والسؤال عن اليتامى، ونكاح المشركات والمشركين، والنهي عن مباشرة النساء في المحيض، وحكم الأيمان، وحكم الإيلاء، والطلاق وأحكامه، وحكم الرضاعة، وعدة المتوفى عنها زوجها، وحكم التعريض بخطبة النساء أثناء العدة، وحكم المطلقة قبل الدخول، والمحافظة على الصلوات، والحث على القرض، وقصة الملأ من بني إسرائيل، وملك طالوت وقتل جالوت، وذكر التوحيد، والنهي عن الإكراه في الدين، ومحاجة إبراهيم، وقصة الذي مرّ على قرية فوجدها خاوية، وطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، والأمر بالإنفاق من الطيبات، وحكم البيع والربا، والأمر بكتابة الدَّين، والإيمان، والختم بالدعاء.

تلك المقاصد تناولتها الآيات من قوله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3] إلى آخر السورة.

---

(1) البحر المحيط 2/ 52.

(2) الموافقات 3/ 415.

(3) آية 188 وما بعدها.

نستخلص من العرض السابق أن سورة البقرة توسعت في تصريف مقاصدها توسعاً كبيراً، وعلى الرغم من ذلك التوسُّع والتنوُّع الكبير، الذي لا تجده في أي سورة أخرى، فهي متناسقة ومترابطة في بنائها، وبذلك فهي أحْرى من غيرها بتقدُّمها سور القرآن بعد الفاتحة، إذ اشتملت الفاتحة على مقاصد القرآن كله إجمالاً، وهذه اشتملت عليها تفصيلاً.

إن هذه السورة ركزت تركيزاً كبيراً على الأحكام التشريعية، بعد تمهيد طويل عن أصول الإيمان وأركانه الأساسية، وعن الناس وأصنافهم ومدى استجابة بعضهم لدعوة الإسلام، وعن قصص بني إسرائيل وبعض الأنبياء، وسنن الله في خلقه، المتمثل في الصراع بين الخير والشر، وهكذا وصلت من هذا التمهيد إلى الأحكام التشريعية المتنوعة التي تأتي تارة محللة، وتارة محرمة، وتارة موجبة للحكم إيجاباً قطعياً، وتارة تتدرج في بيان حكمه، مراعية في ذلك حالة الناس، وبخاصة من كان منهم جديد عهد بالإسلام، وتارة تورد السؤال وتذكر الحكم، ثم إنها بين الفَيْنَة[1] والأخرى تذكّر بقدرة الله ووحدانيته وكمال صفاته، ذاكرة دلائل من الآفاق والأنفس، الدالة على تلك القدرة العظيمة، وتذكر الوحي والنبوة، والبعث، والجزاء، وتضرب الأمثال.

وتبين لنا أن هذه السورة بُنيت مقاصدها على التدرج في الأحكام مصداقاً لقوله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2].

وأن الآيات مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً قوياً، ومتماسكة تماسكاً متيناً، والآيات تطول وتقصر، والفواصل تختلف من آية إلى أخرى أغلب الأحيان، وتتنوع التعقيبات وأغلبها بالصفات الجليلة، وكل تعقيب مناسب لما أُعقب به.

---

(1) الفَيْنَةُ: الحينُ (لسان العرب 13/ 329 مادة فين)

(2) آية 286.

وقد أشار الرازي إلى الموافقة بين أول سورة البقرة وآخرها، إذ قال: «إنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ـ ﷺ ـ فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[1] وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[2] ثم قال ههنا: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[3] وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[4] ثم قال ههنا: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[5] وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[6] ثم حكى عنهم كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[7] إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[8] فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها[9].

ثانياً. مناسبة سورة آل عمران لما قبلها:

سورة آل عمران المدنية، التي آياتها مئتا آية، رتّبت في المصحف الشريف بعد سورة البقرة لأسباب ذكرها السيوطي بقوله: «فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب، عن شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها كثير من

---

(1) آية 285.

(2) آية 3.

(3) آية 285.

(4) آية 3.

(5) آية 285.

(6) آية 4.

(7) آية 286.

(8) آية 5.

(9) التفسير الكبير 7/ 138.

المتشابه لما تمسك به النصارى. فأوجب الحج في آل عمران، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى في آل عمران، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر؛ لأن التوراة أصل، والإنجيل فرع لها، والنبي - ﷺ - لمّا هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب»[1].

وذكر في سورة البقرة خلق الناس، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام، وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا، مبدأ خلق أولاده، وألطف من ذلك أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب، وهو عيسى - عليه السلام -.

ومن وجوه تلازم السورتين أنه قال في البقرة في صفة النار ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2].

ولم يقل في الجنة: أعدت للمتقين، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً، وقال ذلك في آخر آل عمران في قوله:

﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[3].

فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة.

وأمر آخر استقرأه السيوطي[4]: وهو أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى، للدلالة على الاتحاد، وفي السورة المستقلة عمّا بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها، وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة، فإنها افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون، وختمت آل عمران بقوله:

---

(1) أسرار ترتيب القرآن ص 76.

(2) آية 24.

(3) سورة آل عمران: الآية 133.

(4) أسرار ترتيب القرآن ص 86 - 87.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

هذا فيما يخص مناسبة هذه السورة لما قبلها، وأما فيما يتعلق ببناء آياتها وارتباط بعضها ببعض فهذا ما سنتحدث عنه فيما يلي:

ثالثاً: بناء سورة آل عمران وارتباط آياتها:

تضمنت سورة آل عمران مقصدين أساسيين، هما: ركن العقيدة الإسلامية وركن التشريع، واشتمل كل مقصد منهما على مقاصد أخرى فرعية.

فأما المقصد الأول وهو ركن العقيدة الإسلامية، فوزع على السورة توزيعاً دقيقاً، وتصرف تصرفاً عجيباً، أخذ نصف السورة تقريباً، فبدأت السورة ببيان الأركان الأساسية للعقيدة الإسلامية، المتمثلة في إثبات التوحيد الخالص، والنبوة، وإثبات صدق القرآن الكريم، وأنه مصدق لما قبله من الكتب السماوية، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب، حول القرآن الكريم وحول الإسلام، ونبيّ الإسلام - عليه أفضل الصلاة والسلام - فبينت أنه الدّين الخالص.

وفيها جاء الرد الحاسم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة على مزاعم النصارى وعقائدهم الزائغة، وافترائهم على مريم وابنها عيسى - عليهما السلام - ودحض شبهاتهم، وذكر قصة آل عمران، ودعت السورة أهل الكتاب إلى عبادة الله وعدم الإشراك به، وبينت أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وفيها ذكر اصطفاء آدم ونوحٍ وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وقصة امرأة عمران، ومجادلة الرسول ﷺ في أمر عيسى، وختمت قصة عيسى بأن هذه القصة حق لا شك فيها ولامت الآيات أهل الكتاب على الكفر، وعلى إلباس الحق بالباطل وكتمانه، كل هذه المقاصد تناولتها السورة في ترابط قويّ وبناء متماسك، من قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ إلى قوله تعالى:

---

(1) سورة آل عمران: الآية 200.

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

هكذا تضمنت السورة من أولها إلى هنا ، أصول الإيمان وأركانه الأساسية ومخاطبة أهل الكتاب من الفريقين اليهود والنصارى ، ومحاجتهم في أمر عيسى بالحجة القاطعة والبرهان الساطع ، لإدحاض شبهاتهم وافتراءاتهم الكاذبة ، وصولاً إلى الإيمان الحق ، والتوحيد الخالص ، تمهيداً لتشريع الأحكام وهو ما تحدثت عنه السورة في نصفها الثاني ، حين بينت أن أول بيت وضع للناس ، هو البيت الحرام ، الذي فيه مقام إبراهيم ، ثم أمرت بحج البيت الحرام ، وأمرت بالتقوى ؛ لأنها أساس امتثال الأوامر واجتناب النواهي والاعتصام بحبل الله ، والنهي عن التفرق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحديث عن الغزوات ، كغزوة بدر ، ثم إن هذه الآيات ما تفتأ تُذكّر بقدرة الله بدلائل الآفاق ، والنهي عن أكل الربا ، ففي سورة البقرة بيَّن الله ـ تعالى ـ أن الربا حرام ، وهنا نهى عن أكله نهي تحريم ، «والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا ، بلا تحديد ولا تقييد»[2] .

ثم تحدثت الآيات بالتفصيل عن النفاق والمنافقين ، وموقفهم من الدعوة الإسلامية ، وحذرت من كيدهم وخبثهم ، ولفتت الأنظار إلى التدبر والتأمل في الكون ، وما فيه من إتقان وأسرار تدل على وجود الخالق العظيم وقدرته الباهرة ، ثم ختمت السورة بالأمر بالصبر وتقوى الله .

فهذه المقاصد التي سبق ذكرها تناولتها الآيات من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] إلى آخر السورة .

نستخلص من العرض السابق أن سورة آل عمران مرتبطة بسورة البقرة ارتباطاً قوياً ، إذ فصلت بعض ما أجمل في سورة البقرة ، وهذا من ترابط السورتين ، وأن

---

(1) الآيات من 1 ـ 95.

(2) في ظلال القرآن: 1/ 473.

(3) الآيات من 96 ـ 200.

آياتها مترابطة فيما بينها، ومبنية بعضها ببعض في تلاحم قويّ، وتسلسل منطقي، فالسورة بدأت بالأصل الأساسي وهو العقيدة الإسلامية، بكل فروعها المختلفة، ثم بينت دسائس أهل الكتاب، وشبهاتهم حول الإسلام وأهله، حتى يكون المسلمون على بينة منها، وجادلتهم جدالاً عنيفاً مبطلة دعاويهم الباطلة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، مذكّرة إيّاهم بأصلهم الأول، كل ذلك في تناسق عجيب، وبناء محكم دقيق، وصولاً للإيمان الخالص، واتباع الدّين الصحيح، وهو دين الإسلام، واتباع تعاليمه وتنفيذ أحكامه، لذلك اتبعت هذه الرحلة الطويلة المتضمنة إرساء دعائم الإيمان بالتشريع والمعاملات، بأسلوب بديع وتفنن عجيب.

إن لهذه السورة أسلوبها، وطريقتها الخاصة في بناء آياتها، تختلف عمّا هو في سورة البقرة وغيرها، فلكل سورة شخصيتها المتميزة.

قال السيوطي: «ومنها أنه قال في البقرة:

﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾[1] وقال هنا:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2]، فزاد إطناباً وتفصيلاً.

ومنها أنه حذر من الربا في البقرة، ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً، وزاد هنا قوله: ﴿ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾[3] وذلك بيان وبسط، ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ ﴾[4] وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالاً، وفصّله هنا بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى

---

(1) آية 247.

(2) آل عمران: آية 26.

(3) آل عمران: 130.

(4) آية 196.

﴿ ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾[1] وزاد بيان شرط الوجوب بقوله: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

رابعاً. مناسبة ارتباط سورة النساء بسورة آل عمران:

سورة النساء مدنية وآياتها مائة وست وسبعون آية، وأما مناسبة ارتباطها بسورة آل عمران، فلما ختمت الثانية بالأمر بالتقوى، إذ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]، ناسب أن تفتتح سورة النساء بالأمر به كذلك، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾[4].

فارتبطت السورتان معاً ارتباطاً متلاحماً «وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من البديع يسمى تشابه الأطراف»[5].

خامساً. بناء سورة النساء وارتباط آياتها:

اعتمدت هذه السورة في بنائها على التنوع في الأحكام التشريعية، وخصوصاً فيما يتعلق بالأسرة والمجتمع، فقد فصلت الأحكام التشريعية أكثر تفصيلاً مما سبقها من السور، فبدأت بالتذكير بنعمة الخلق والإيجاد، والأمر بتقوى الله، وهو عماد كل تكليف، واجتناب كل ما نهى عنه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم تناولت حقوق اليتامى، بعد أن أمرت بتقوى الله، وفي ذلك ترابط قويّ؛ لأن اليتامى أولى بتقوى الله فيهم، لكي تصلهم حقوقهم على أكمل وجه، ثم تناولت تعدد الزوجات بشرط العدل، وقرنته بصداق المرأة المراد زواجها، وأمرت بالحجر على السفهاء، وأمرت

(1) الآية 97.

(2) نفسها.

(3) نفسها 200.

(4) النساء: الآية 1.

(5) أسرار ترتيب القرآن ص: 90.

باختبار اليتامى بعد البلوغ، ودفع أموالهم إليهم إذا آنس الأولياء رشدهم، ونهت عن أكل أمول اليتامى.

وأمرت بالإشهاد على دفع الأموال إليهم، إذا بلغوا النكاح، كل ذلك في تناسق متين وترابط قويّ، تناولته الآيات من قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1].

ثم تناولت الميراث، فقسمته على الوجه الدقيق العادل بين الوارثين، فبينت لكل واحد نصيبه من الذكور والإناث على السواء، في ترتيب دقيق وتناسب بديع، قال الله تعالى:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[2].

وختم هذا المقصد العظيم الذي يتناول الحقوق كلها ويبين لكل ذي حق حقه، ولا يفرق بين الرجال والنساء إلا بما حدده الشرع الحكيم، بالترغيب فيه لكي تصل الحقوق إلى أصحابها، فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3] وبالترهيب من مخالفة أوامر الله ورسوله، فقال تعالى:

---

(1) الآيات: 1 ـ 6.

(2) آية: 7.

(3) آية: 13.

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1].

ثم تناولت ذكر المحرمات من النساء بالنسب والرضاع، والمصاهرة، وعلّة هذا التحريم، وحكم من تأتي بالفاحشة من النساء، والنهي عن ميراث النساء، ونكاح المحصنات من النساء وأسبابه، والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل، إلا إذا كانت تجارة عن تراض، والنهي عن قتل الإنسان نفسه؛ لأن الله به رحيم، ثم بينت جزاء من يخالف هذه النواهي، وتنظيم العلاقات الزوجية، والأمر بعبادة الله وعدم الإشراك به، والإحسان إلى الوالدين، والنهي عن قرب الصلاة في حالة السكر، حتى يعلم الإنسان ما يقول. وهذا النهي، فيما اعتقد، كان في بداية تحريم الخمر، لأنه جاء تدريجياً، وهذا من بديع بناء السورة، إذ إنّه في سورة البقرة عبر عنه بأنه إثم، وفي هذه نهي عن قرب الصلاة إذا كان الإنسان في حالة سكر ثم جاء التحريم التأبيدي في سورة المائدة، فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

إن في هذا التدرج دلالة كبيرة على الترابط والبناء المتين في ترتيب السور في المصحف الشريف، وأنه بوحي إلهي روعي فيه مصالح العباد وحالهم.

وتناولت أيضاً مشروعية التيمم، والأمر بأداء الأمانات إلى أهلها وذكر المنافقين وإنذارهم وبيان حالهم، والأمر بأخذ الحذر من الأعداء، والتأكيد على جمع الناس يوم القيامة، وحكم من يقتل مؤمناً خطأ، ومن يقتله متعمداً، وتفضيل المجاهدين على القاعدين، وقَصْر الصلاة، وذكر دلائل من الآفاق كثيرة في أثناء السورة، وقصة أهل الكتاب مع موسى - عليه السلام - وفعلهم، ومع عيسى وأمه

---

(1) آية: 14.

(2) سورة المائدة: الآية 90.

الطاهرة، ـ عليهما السلام ـ وأن الوحي سنة الله في أنبيائه، والإيمان بالرسول ﷺ، مقروناً بدلائل الآفاق، ونهي أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وأن يقولوا الحق في المسيح، فهو رسول الله، والنهي عن القول ثلاثة، كل هذه المقاصد تناولتها الآيات في ترابط وتناسق من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾[1] إلى آخر السورة.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر مثالاً لذلك البناء القوي والترابط المتين بين آيات هذه السورة، على الرغم من الفارق الزمني بين الآيات في النزول، وذلك ما أشار إليه صاحب «مباحث في التفسير الموضوعي» حين أورد قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً ﴾[2].

مبيناً أن هذه الآيات نزلت في كعب بن الأشرف عندما ذهب إلى مكة، وجاء بعد هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾[3] وهذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة.

وبين الآيتين ست سنوات، ومع ذلك فالمناسبة بين الآيات الأولى والآية الأخيرة في غاية الوضوح، حيث ذكر المفسرون أن أحبار اليهود كانوا على اطلاع بما

---

(1) سورة النساء: الآيات 22 ـ 176.

(2) سورة النساء: الآيات 51 ـ 57.

(3) سورة النساء: الآية 58.

في كتبهم في وصف محمد ـ ﷺ ـ وأُخذت عليهم المواثيق للإيمان به ونصرته، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾[1].

ثم إن هؤلاء الأحبار خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق ولم يؤدوا هذه المسؤولية، فالسياق سياق تحمّل مسؤولية وأمانة وأدائها على الوجه المبرئ للذمة.

وهكذا فالموضوع واحد والسياق منسجم تماماً على الرغم من وجود الفاصل الزمني بين الآيات[2].

يتبين لنا من العرض السابق أن سورة النساء توسعت في تفصيل الأحكام التشريعية والاجتماعية، بأسلوب بديع، يختلف عن أسلوب ما سبقها من السور، فهي مفصلة لما أجمل فيما قبلها من السور الكريمة، مرتبطة بعضها ببعض، ارتباطاً قوياً، ومتلاحمة تلاحماً متيناً، وقد تنوع الخطاب فيها على ثلاثة أنواع، خطاب الناس عامة، وهو ما افتتحت به السورة وخطاب المؤمنين كثيراً، وبخاصة في الأحكام التكليفية؛ لأنهم المكلفون بامتثالها وأدائها خير أداء كما أراد الله لها.

وفيها أيضا خطاب أهل الكتاب، ومحاولة إقناعهم وتذكيرهم بالحق، وبيان قبائح أعمالهم، ودحض شبهاتهم الباطلة بالحجج القاطعة، وكثر فيها ختم الآيات بالصفات الجليلة الدالة على عظيم القدرة الإلهية.

سادساً: بناء سورة المائدة وارتباط آياتها:

سورة المائدة مدنية وقد تنوعت مقاصدها تنوعاً كبيراً، فبنيت على الترابط والتلاحم فيما بينها، ولها شخصيتها المميزة عن بقية السور، إذ تنوعت أحكامها فجاءت معظمها شارحة ومفصلة للأحكام في السور التي قبلها، ذلك مما يدل

---

(1) آل عمران: الآية 81.

(2) مباحث في التفسير الموضوعي ص: 70 ـ 71.

على الترابط القوي والبناء المتماسك بين السور في ترتيبها التوقيفي، وقد تبين لنا من السور التي تحدثنا عنها، أن السورة الأولى تأتي مجملة والأخرى مفصلة لما قبلها، أو الأولى مشرعة لحكم على سبيل التدرج، والأخرى قاطعة بالحكم على جهة التأبيد.

وأما ما يربط سورة المائدة بسورة النساء، فقد ظهر للسيوطي في ارتباطهما وجه بديع جداً، وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً، فالصريح، عقود الأنكحة وعقد الصداق، وغير ذلك، والضمني عقد الوصية والوديعة والوكالة، والعارية، وغير ذلك، فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود، فكان ذلك في غاية التلاحم، والتناسب والارتباط، وقد ختمت المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك، وافتتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى[1].

ويظهر أيضاً وجه آخر في ارتباطهما، أنه لما ختم سورة النساء بصفة العلم المطلق، ناسبه أن يفتتح سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود، فعلمه محيط بكل شيء يشمل من أوفى بهذا الأمر، ومن خالفه، فالعليم بكل شيء هو الذي أمر بذلك، لذا وجب امتثاله والوفاء به.

هذه السورة ـ كما قلنا ـ تنوعت مقاصدها، مثل السور الطول التي سبقتها إذ تصرفت في إيرادها بطرق شتى وأساليب مختلفة، الرابط بينها كما قال سيد قطب: «هو الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع، على أساس من عقيدة خاصة، وتصور مُعيَّن، وبناء جديد، الأصل فيه إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان.

وتربطها بربها إلى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعها، والتشريعات الدولية التي تنظم علاقتها بغيرها، إلى جانب التشريعات التي تحلل

---

(1) أسرار ترتيب القرآن ص: 95 ـ 96.

وتحرم ألواناً من المآكل والمشارب والمناكح، أو ألواناً من الأعمال والمسالك، كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة، يمثل معنى «الدين[1]».

ويمكن أن نجمل مقاصد هذه السورة في النقاط التالية:

أولاً: الجانب الاعتقادي:

تناولت السورة في مجملها الأركان الأساسية للعقيدة الإسلامية، مركزة على تصحيح العقيدة، وبيان الفاسد الذي لا ينتمي إليها.

ثانياً: الجانب التشريعي:

توسعت السورة في الحديث عنه، فبينت أحكام العقود، وأحكام الصيد حالة الإحرام، وما يحل وما يحرم من الأطعمة ونكاح الكتابيات، وأحكام الطهارة المائية والترابية، وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وذكر نقبائهم، وأخذ الميثاق على النصارى، والرسالة والرسول، وذم النصارى بفاسد اعتقادهم، وذكر دلائل من الآفاق والأنفس على فساد هذا الاعتقاد، وادعاء اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله وأحبَّاؤه، وذكر لهذه الدعوة الباطلة دليل من الآفاق، استدلالاً على كمال وحدانيته ودحض الدعاوي الباطلة، التي يدعيها هؤلاء، وأتى بهذه الأدلة؛ لأنهم يشاهدونها، وقصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ودخول الأرض المقدسة، وقصة ابني آدم، وهذا من بديع الارتباط، فلما ذكر قصة بني إسرائيل وتمردهم على نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ أردفها بقصة ابنَيْ آدم؛ لأن ذلك سنة الله في الخلق، فالصراع دائر بين الخير والشر.

وبينت حكم الحرابة، وحكم السرقة، وتحدثت عن المنافقين من أهل الكتاب، وحكم القصاص في الجراحات، وبينت أن الكتاب الكريم مصدق للكتب الأخرى، ونهت عن موالاة اليهود والنصارى، وأمرت الرسول ـ ﷺ ـ بتبليغ الرسالة، وكفّرت الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، والذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وبينت أن أشد الناس عداوة للذين آمنوا، اليهود والذين أشركوا، ونهت عن تحريم الطيبات،

---

(1) في ظلال القرآن: 2/ 825.

وبينت حكم الأيمان وكفّارتها، وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وأمرت بطاعة الله وطاعة الرسول، ونهت عن قتل الصيد حال الإحرام، وبينت حكمه، والإشهاد على الوصية حال الاحتضار، كل هذه المقاصد تناولتها السورة من أولها إلى آخرها، في تناسق بديع وترابط قوي.

نستخلص من العرض السابق أن هذه السورة تعرضت لركنين أساسيين هما: ركن العقيدة وركن التشريع، ففي الركن الأول تعرضت لتصحيح العقيدة، وذلك ببيان فساد عقيدة أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين، وفي الجانب التشريعي تعرضت لكثير من الأحكام التي يجب امتثالها، والأحكام التي يجب اجتنابها.

إنّ هذه السورة فصلت وشرحت كثيراً من الأحكام التي أجملت في السور التي سبقتها، وفيما يلي بعض الأمثلة:

إن الله - تعالى - أوجب القصاص في سورة البقرة، وحدّده في القتل، وأوجب هنا قصاص الجراحات، وهذا من التفصيل، وفي سورة البقرة ذكر قصة آدم مع إبليس، بياناً لجانب الخير وجانب الشر، وهنا ذكر قصة ابني آدم لنفس الغرض، بيد أنه روعي السبق، فآدم أسبق لابنيه، وفي سورة البقرة بين أن في الخمر إثماً ومنافع للناس، وأن الإثم أكبر من النفع، وفي هذه أمر باجتنابه أمر تحريم؛ لأنه رجس، فذلك - والله أعلم - من باب التدرُّج في التشريع وتفصيل الأحكام.

سابعاً: بناء سورة الأنعام:

نلتقي مع أنموذج جديد للسور الطول، ألا وهي سورة الأنعام المكية التي بنيت مقاصدها حول الإيمان وأصول العقيدة، وهي تختلف في أسلوبها وطريقة عرضها عن السور المدنية، إذ فصلت الأركان الأساسية للعقيدة أتم تفصيل، من إيمان بالله وإثبات صفاته - تعالى - والاستدلال على ذلك بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، وإثبات النبوة والرسالة، وإثبات للبعث والجزاء، فتصرفت في عرض ذلك بطرق شتى وأساليب مختلفة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن قضايا الإيمان التي يذكرها القرآن دائماً يصرفها بطرق مختلفة، «ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة»[1]. ويمكن إجمال مقاصد هذه السورة في الآتي:

1 ـ التوحيد:

وذلك بإثبات الألوهية والربوبية لله رب العالمين، بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، ودحض شبهات الكفار، ونفي الشرك، إذ بدأت السورة بمواجهة المشركين بتلك الدلائل، التي لا يستطيعون إنكارها حين بينت قدرته العظيمة في خلق السموات والأرض، وإنشاء الليل والنهار، فقال تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[2].

ثم ذكّرهم بأصل خلقهم من طين، فقال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[3].

ثم أثبت التوحيد في مقام آخر فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4].

وبينت كذلك أن الوحي لإثبات التوحيد، والتبرُّؤ من الشرك فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[5].

---

(1) في ظلال القرآن: 2/ 1004.

(2) آية: 1.

(3) آية: 2.

(4) آية: 14.

(5) آية: 19.

وأثبتت الآيات التوحيد بطريق السؤال والجواب في أكثر من آية لإفحام المعاندين، فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

وأثبتت التوحيد بذكر الدلائل ونفي الولد والصاحبة فقال تعالى:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2].

وقد ورد قبل هاتين الآيتين دلائل كثيرة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وكمال قدرته، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3].

2 ـ **الرسالة والوحي**:

وذلك ببيان وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ وتفنيد شبهات الكفار حول الرسول والقرآن الكريم، فبدأت بذكر تشكيكهم في الوحي فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[4].

---

(1) الآيتان 46 ـ 47.

(2) الآيتان 101 ـ 102.

(3) الآيات 95 ـ 100.

(4) آية 7.

ثم تحدثت عن طعنهم في القرآن فقال تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1] وإنكارهم إنزاله فقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾[2].

وإثبات الوحي فقال تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[3].

وأمرت الرسول باتباع الوحي والإعراض عن المشركين فقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

3 ـ البعث والجزاء:

أثبتت الآيات البعث والجزاء بدلائل القدرة الإلهية والتأكيد على جمع الناس يوم القيامة، وأن هذا اليوم واقع لا شك فيه، فقال تعالى:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

وإثبات الحشر بقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[6] ثم تحدثت عن تشكيكهم في البعث، فقال تعالى:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[7] ثم أثبتت البعث بقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[8].

---

(1) آية: 25.
(2) آية 91.
(3) آية 50.
(4) آية 106.
(5) آية 12.
(6) آية 22.
(7) آية 29.
(8) آية 36.

قال صاحب المنار: «إذا استقصى القارئ آيات البعث في هذه السورة يراها تخبر بشيء ثابت مقرر، هو لصدق المخبر به، كأنه مسلم لإنذار ما يقع في يومه من العذاب»[1].

4 ـ الوصايا العشر:

تناولتها الآيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

5 ـ محاجة إبراهيم أباه وقومه في التوحيد:

وما آتاه الله من الحجة عليهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3].

نستخلص من العرض السابق أن هذه السورة تعرضت لأصول الإيمان وأركانه الأساسية بطرق شتى وأساليب مختلفة، أكثر مما تعرضت له السور قبلها، ويكاد يكون موضوعها الأساسيّ؛ لأنها مكية تعالج العقيدة بالدرجة الأولى، كغيرها من السور المكية، وأن لهذه السورة شخصيتها المميزة، في بناء مقاصدها وطرق عرضها.

وقد كثرت فيها الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة، التي تبين صحة القضايا التي تناولتها، مستدلة بين الحين والآخر بدلائل القدرة على إثبات التوحيد تارة، وإثبات النبوة والوحي، والبعث والجزاء وتحققهما تارة أخرى، وأن لها كذلك

---

(1) تفسير المنار: 8/ 283.

(2) الآيات: 151 ـ 153.

(3) الآيات: 74 ـ 83.

أسلوبها المتميز، إذ كثر فيها إثبات هذه القضايا بطريق السؤال والجواب، إفحاماً للمعاندين والمكذبين، في تناسق متين وترابط قوي.

كل ذلك لأجل إثبات التوحيد الخالص لله رب العالمين، وتسلية الرسول ـ ﷺ ـ عن تكذيب المكذبين وإلزامهم الحجة.

ثامناً: بناء سورة الأعراف:

سورة الأعراف، وهي أول سورة من هذا القسم عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، ففي السور التي سبقتها ذُكرت بعض قصصهم إجمالاً، وهذه فصلت تلك القصص وذكرت جديداً لم تذكره تلك السور، ومقاصدها كمقاصد السور المكية، تقرير أصول العقيدة الإسلامية وأركانها الأساسية، من توحيد وإثبات للوحي والرسالة، والبعث والجزاء، ويمكن إجمال مقاصدها على النحو التالي:

بدأت هذه السورة بإثبات القرآن الكريم معجزة النبي ـ ﷺ ـ الخالدة، وتسليته ـ ﷺ ـ عن تكذيب الكفار إيّاه، ثم ذكّرت البشر بنعمة خلقهم من أبٍ واحد، وتكريمهم، وحذّرت من كيد الشيطان، وقصة آدم مع إبليس، كنموذج للصراع بين الخير والشر والحق والباطل، فقال تعالى:

﴿ الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾[1].

وأمرتْ باتخاذ الزينة وتحريم الفواحش، فقال تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[2] وقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[3].

---

(1) الآيات: 1 ـ 27.

(2) آية: 31.

(3) آية: 33.

وعرضت الآيات لمشهد من مشاهد القيامة، تجري فيه المحادثة بين فرق ثلاث: فرقة المؤمنين أصحاب الجنة، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة أصحاب الأعراف، الّذين استوت حسناتهم وسيآتهم فقال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[1].

ثم عرضت لدلائل التوحيد، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[2] ونهت عن الإفساد في الأرض فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

ثم ذكرت دلائل من الآفاق متبوعةً بإثبات البعث والجزاء، فقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

ثم توالت الآيات في الحديث عن بعض الرسل ودعوتهم لعبادة الله وتوحيده، وما لاقوه من عناد وتكذيب، وقد اتفقت كلمتهم على التوحيد والعبادة، ذلك مما

---

(1) الآيات: 44 ـ 51.

(2) آية: 54.

(3) آية: 56.

(4) آية: 57.

يدل على أن توحيد الله واحد في كل أمة، وقد تشابهت أقوال أقوامهم في الرد على أنبيائهم، فبدأت بنوح - عليه السلام - ثم إرسال هود إلى عاد، وصالح إلى ثمود، وإرسال لوط، وشعيب إلى مدين وذلك من قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾(1).

ثم بينت الآيات أن ذلك هو قصص الأنبياء مع أقوامهم، وأن هؤلاء الرسل جاءوهم بالبينات فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾(2).

وهكذا يمضي السياق مترابطاً متماسكاً بين الآيات، فبعد أن قصّ الله على نبيه، - ﷺ - قصص بعض الأمم مع أنبيائها مرتبةً، أتبعها بقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملائه والسحرة، وما فيها من العبر والعظات، فتناولتها السورة بالتفصيل، وذلك من بديع ترتيب الأفكار وترابطها، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(3).

ثم تمضي الآيات في تناسقها مثبتةً الرسالة لمحمد - ﷺ - وأنها للناس عامةً، متبوعةً بدلائل القدرة الإلهية، فقال تعالى:

---

(1) الآيات: 59 - 93.

(2) آية: 101.

(3) الآيات: 103 - 157.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

ثم عادت الآيات لقصة موسى ـ عليه السلام ـ وقومه إذ قال تعالى :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] ثم بينت أن الساعة علمها عند الله ، فقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾[3].

يتضح لنا من العرض السابق ، أن سورة الأعراف هي أول سورة من السور الطول تحدثت بالتفصيل عن قصص الأنبياء ، ففصلت ما ذُكر من قصص في السور التي قبلها ، وجاءت بجديد لم تذكره تلك السور.

إنّ هذه السورة بُنيت مقاصدها على التوحيد ، وإثبات الرسالة والنُّبوَّة ، والبعث والجزاء ، مدلِّلَةً على إثباتها بدلائل من الأنفس والآفاق ، وإنّ هذه السورة ركزت على قصص الأنبياء فتوسعت فيه توسعاً كبيراً ، أخذ معظم السورة وذلك لإثبات التوحيد ، وتسلية النبي ـ ﷺ ـ عما يلاقيه من قومه في سبيل دعوته ، وتَبيَّن لنا من هذه السورة أن الأنبياء والرسل جميعاً اتفقت كلمتهم على التوحيد وهو أصل كل رسالة ، إذ إن دعوتهم إليها واحدة ، وأقوال أقوامهم نحو ذلك متشابهة ، وأن لهذه السورة كذلك أسلوبها وطريقتها الخاصة التي تميزها عن غيرها من السور في بناء مقاصدها ، وذلك في ترابط قوي وتناسق بديع.

---

(1) آية : 158.

(2) الآيات : 159 ـ 171.

(3) آية : 187.

ونظراً للاختلاف في تحديد السورة السابعة من السبع الطول، كما مرّ، ولطول الحديث في هذا القسم، نكتفي في دراسة هذا القسم بسورة الأعراف، ونستخلص من استعراض أنموذج السبع الطول، أن سور هذا القسم منها المدني ومنها المكي، فالمدني اهتم بالجانب التشريعي بفروعه المختلفة، وقد يأتي في سورة مجملاً ثم تُفَصِّله التي بعدها، وقد يترقى في أحكامه من السهل إلى الصعب، تمشياً مع سماحة الإسلام، وتدرج أحكامه، ومع ذلك لم تغفل جانب العقيدة، فهي من حين لآخر، تثبت التوحيد، والنبوة والرسالة، والبعث والجزاء، مع عرض الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على إثبات ذلك وتحققه، وتعرضت كذلك لقصص بعض الأنبياء والأمم، تسلية للنبي ـ ﷺ ـ عما يلاقيه من أعداء الدعوة والمكذبين بها.

وأما السور المكية فقد تعرضت بالتفصيل لجانب العقيدة بكل أركانه، ففصلت ما جاء في السور المدنية، وتوسعت في ذلك توسعاً كبيراً؛ لأن ذلك من خصائصها التي تميزت بها، عارضة الأدلة الباهرة والبراهين القاطعة، فتنوعت في عرضها تحقيقاً لأصول الإيمان وأركانه الأساسية، وتعرضت كذلك بالتفصيل لقصص الأنبياء والأمم السابقة، التي سبق ذكرها في السور المدنية، وأتت بجديد لم تذكره تلك السور، فتوسعت في ذلك توسعاً كبيراً أيضاً، وذلك في بناء محكم، وتناسق متين، وترابط قوي، غاية في الدقة والإحكام، والسور على الرغم من طولها وتنوع مقاصدها فهي متناسقة في بنائها، ومتلاحمة في ترتيبها، وأن آيات كل سورة مترابطة فيما بينها ومبنية بعضها ببعض في تلاحم قويّ وتسلسل منطقي، وأن لكل سورة شخصيتها التي تميزها عن غيرها من السور في أسلوبها وطريقة عرضها، وبناء مقاصدها.

الأنموذج الثاني: المئون:

المئون: ما ولي السبع الطول، سُمّي بذلك لأن كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها؛ لذلك ستكون سور هذا القسم هي سورة هود وآياتها 122، ويوسف 111، والحجر 99، والنحل 128، والإسراء 110، والكهف 105، ومريم 98، وطه 134،

والأنبياء 111، والمؤمنون 119، والشعراء 227، والنمل 95، وأما سورة الرعد التي آياتها 44 وسورة إبراهيم 54، فهما من المثاني، إذا أخذنا بهذا الضابط، وبذلك تكون سور هذا القسم كلها مكية، والحديث فيه يطول؛ لأنه يشتمل على سور كثيرة، ذات آيات كثيرة أيضاً، لذلك سأقتصر في دراسته على بعض النماذج لنتبين منها ذلك البناء المحكم، والترابط القويّ بين سور القرآن الكريم وآياته، وقد أشرنا ـ فيما سبق ـ أن لكل سورة شخصيتها التي تميزها عن السور الأخرى، وأن للسور المدنية أسلوبها الخاص، وللسور المكية كذلك، ولتكن البداية بسورة هود على اعتبار أن سورة يونس مُخْتَلَفٌ فيها أهي من السبع الطول أم من المئين؟ وحيث إن السبع الطول قد أتينا لها ببعض النماذج، فإن كانت هي من القسم الأول فقد أغنى عنها ذلك، وإن كانت من هذا القسم فسيكفي عنها كذلك ما بعدها، وذلك لأننا لا نستطيع أن نفصل القول في بناء سور القرآن كلها، فذلك عمل واسع ليس هذا محله.

أولاً: بناء سورة هود:

صرفت سورة هود ذكر مقاصدها بإثبات أصول العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين عليها، ودحض الشبهات التي كان يثيرها المكذبون حول الوحي والرسالة، وتفصيل قصص الأنبياء، فقد بدأت السورة بذكر الكتاب الّذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، مقروناً بالتوحيد والرسالة، إذ إن في هذا الافتتاح ثلاثة أركان من أركان العقيدة الإسلامية، إثبات القرآن معجزة محمد ـ ﷺ ـ وصدقه، وتوحيد الله، وإثبات النبوة فقال الله تعالى:

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾[1].

وهكذا بُنيت تلك المقاصد وهي التوحيد والوحي والرسالة، والبعث والجزاء على طريقة إيراد الحجج القاطعة والبراهين الساطعة فقال تعالى:

---

(1) الآيات: 1 ـ 2.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] .

ثم تحدثت السورة عن الوحي، وتبيين مهمة الرسول ـ ﷺ ـ وتحدي القرآن المكذبين به، فقال تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2] .

ثم توالت السورة تفصل قصص الأنبياء مع أقوامهم، بدءاً بقصة نوح ـ عليه السلام ـ فقصة هود مع عاد، وقصة صالح مع ثمود، وقصة إبراهيم ولوط، وقصة شعيب مع مدين، وقصة موسى مع فرعون، من قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾[3]، ثم تحدثت عن الغاية من ذكر هذه القصص، وهي العبرة والخوف من عذاب الآخرة، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾[4]، ثم تحدثت عن حال الناس في هذا اليوم وقسمتهم إلى صنفين، الأشقياء والسعداء، وبينت جزاء كل صنف فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ إلى قوله تعالى:

---

(1) آية: 7.

(2) الآيات: 12 ـ 14.

(3) الآيات: 25 ـ 99.

(4) الآيات: 100 ـ 104.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[1].

وهكذا مضت السورة في بناء مقاصدها، في ترابط قوي وتناسق متين يبين أن لهذه السورة شخصيتها المتميزة، التي تجعلها في الغالب تتشابه مع سورة الأعراف، وبالذات تفصيل قصص الأنبياء، ويكاد يكون نفس القصص التي تناولته تلك السورة، وذلك من التصرف العجيب والتفنن البديع الّذي سيتم الحديث عنه في محله ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ثانياً: بناء سورة يوسف:

تختلف سورة يوسف عن سوابقها ولواحقها من السور الكريمة الأخرى، حيث إن لها شخصيتها المتميزة المختصة في موضوع واحد، وهي قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وما ترتب عليها من الأحداث والقصص الأخرى، وهي كذلك تتميز عن القصص القرآني بأنها أوردت تلك القصة في هذه السورة لا في غيرها من السور الأخرى، فجميع حلقات القصة تضمنتها هذه السورة بخلاف القصص الأخرى التي نجد لها في كل سورة حلقة أو بعض الحلقات تكملها حلقات في سور أخرى، فذلك ما امتازت به هذه السورة، في بنائها، وتصريف بيانها، ففصلت قصة يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وما لاقاه من ضروب المحن والشدائد، تسلية للرسول ـ ﷺ ـ لما لاقاه من أذى وتكذيب، في سبيل دعوته، قال أبو حيان: «ليحصل للرسول ـ ﷺ ـ التسلية الجامعة، لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب، وجاءت هذه القصة مطولة مستوفاة، فلذلك لم يتكرر في القرآن إلا ما أخبر به مؤمن آل فرعون في سورة غافر»[2].

«والسورة ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة، فالقصص القرآني ـ غير قصة يوسف ـ يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوّها، وحتى القَصَص الّذي ورد كاملاً في سورة واحدة

---

(1) الآيات: 105 ـ 109.

(2) البحر المحيط: 5/ 278.

كقَصَص هود، وصالح، ولوط، وشعيب، ورد مختصراً مجملاً، أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة، وهو طابع متفرد في السور القرآنية، جميعاً»[1].

هكذا ذكرت السورة قصة يوسف ـ عليه السلام ـ بجميع حلقاتها في تناسق قوي وترابط متين.

ثالثاً. بناء سورة الحجر:

إن سورة الحجر، تصرفت في بناء مقاصدها بإثبات الوحي والرسالة، والبعث والجزاء، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وكمال قدرته، مذكرةً بمصير المكذبين، تسليةً للرسول ـ ﷺ ـ وتثبيتاً للمسلمين على عقيدة التوحيد الخالصة التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، والتي اتفقت دعوتهم فيها.

وقد عقد سيد قطب مقارنة بين سورة الأعراف وسورة الحجر، خلص منها إلى أن «المحور في السورتين واحد، ولكن شخصية كل منهما متميزة وإيقاعهما يتشابه ولا يتماثل، على عادة القرآن الكريم، في تناوله لموضوعاته الموحدة بطرق شتى، تختلف وتتشابه، ولكنها لا تتكرر أبداً ولا تتماثل»[2].

ويمكن إجمال مقاصد هذه السورة فيما بدأت به من الإنذار والتهديد الضمني للكافرين، والطاعنين في الرسول ودعوته، وإثبات إنزال القرآن وحفظه، وأثبتت إرسال الرسل، قبل محمد ـ ﷺ ـ وبينت أن التكذيب والطعن فيما جاء به الرسل هو حال بعض الناس في كل زمان، فقال تعالى:

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾[3].

ثم عرضت دلائل التوحيد والعظمة الإلهية، فقال تعالى:

---

(1) في ظلال القرآن: 4/ 1951.

(2) في ظلال القرآن: 4/ 2123.

(3) الآيات: 1 ـ 15.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[1].

ثم أتبعت ببيان القدرة الإلهية على البعث والجزاء فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

ولفتت الأنظار إلى قصة آدم وإبليس فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[3].

وبينت جزاء المتقين فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[4].

وتحدثت عن مصارع الغابرين من الأقوام السابقة، وقصص بعض الأنبياء، بإيجاز، لوط وشعيب وصالح فقال تعالى:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[5].

ومن بيان هذا القصص تنتقل لإقامة الأدلة على مجيء الساعة فقال تعالى:

---

(1) الآيات: 16 ـ 22.

(2) الآيات: 23 ـ 25.

(3) الآيات: 26 ـ 44.

(4) الآيات: 45 ـ 48.

(5) الآيات: 49 ـ 84.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[1].

ثم تحدثت عن الرسالة والرسول فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[2].

رابعاً: بناء سورة النحل:

إن سورة النحل كغيرها من السور المكية تعالج الأركان الأساسية للعقيدة، بأسلوب وطريقة وهدف مختلفة عن بقية السور، إذ بدأت السورة ببيان أن عذاب الله للمشركين سيتحقق لا محالة في الموعد الّذي حدده المولى ـ سبحانه وتعالى ـ وأردفه بنزول الوحي عن طريق الملائكة، مبيناً مهمة الرسول ـ ﷺ ـ وهي إثبات التوحيد، مدَلّلاً على ذلك بدلائل الأنفس والآفاق، مذكراً إياهم بنعمه العظيمة التي لا تحصى ولا تعد، قال تعالى:

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[3].

ثم تحدثت عن شبهات الكافرين حول القرآن، فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4]، وتحدثت عن البعث والجزاء فقال تعالى:

---

(1) آية: 85.
(2) الآيات: 87 ـ 99.
(3) الآيات: 1 ـ 23.
(4) آية: 24.

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وذكّرت بعاقبة المكذبين فقال تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[2].

ثم عادت مرة ثانية لإثبات البعث والجزاء، فقال تعالى:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3].

ثم بينت جزاء الّذين يهاجرون في سبيل الله من بعد ما ظُلموا فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[4].

ثم تحدثت عن الوحي وبيان مهمة الرسول ـ ﷺ ـ فقال تعالى:

---

(1) الآيات: 25 ـ 32.

(2) الآيات: 33 ـ 37.

(3) الآيات: 38 ـ 40.

(4) الآيات: 41 ـ 42.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[2]، ثم هدّدت المكذبين فقال تعالى:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾[3].

ثم نهت عن تعدد الآلهة وأثبتت التوحيد لله رب العالمين، ونزهت المولى - سبحانه وتعالى - عن البنات فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[4].

ثم ذكّرت بنعم الله على خلقه فقال تعالى:

---

(1) الآيات: 43 - 44.

(2) آية: 64.

(3) الآيات: 45 - 48.

(4) الآيات: 51 - 60.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[1]، وأمرت بالوفاء بالعهد فقال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[2]، ثم كشفت افتراءات الكافرين عن النبي - ﷺ - فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[3]، ثم تحدثت عن الجانب التشريعي في شيء من الإيجاز، وذلك بتحريم ما ذكرته الآيات إلا لأسباب عينتها فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

خامساً: بناء سورة الإسراء:

تصرفت سورة الإسراء كغيرها من السور في ذكر مقاصدها بطرق شتى وأساليب مختلفة، فتحدثت عن موضوعات شتى معظمها عن العقيدة الإسلامية، وأركانها الأساسية، ثم تحدثت عن قواعد السلوك الفردي والجمعي، لأجل بناء مجتمع قوي متمسك بتعاليم الإسلام الخالدة، ثم تعرضت لشيء من القصص، ولكن العنصر البارز في كيان هذه السورة كما قيل هو: «شخص الرسول - ﷺ -

---

(1) الآيات: 78 - 81.

(2) آية: 91.

(3) آية: 103.

(4) أية: 115.

وموقف القوم منه في مكة والقرآن الّذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن، وما يهدي إليه، واستقبال القوم له»[1].

فقد بدأت السورة بتنزيه المولى - سبحانه وتعالى - وهو: «أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضيء»[2].

ثم قصّت علينا إسراء النبي - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليلاً، وذكرت نبذة مختصرة عن موسى - عليه السلام - وقومه بإيجاز، وأكدت أن هذا القرآن معجزة محمد - ﷺ - الخالدة، يهدي للتي هي أقوم، وذكرت نعم الله العظيمة، ونهت عن اتخاذ إله آخر مع الله الواحد الأحد، وأمرت بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين، ونهت عن التبذير وأمرت بالتوسط في الإنفاق، ونهت عن قتل الأولاد خشية الفقر، ونهت عن الزنى، وعن قتل النفس إلا بالحق، وعن قرب مال اليتيم، وأمرت بإيفاء الكيل، ونهت عن اتباع ما لم يعلم الإنسان علم اليقين، وعن الكبر، وعن الإشراك، وتحدثت عن البعث والجزاء، وقصت علينا طرفاً من قصة ثمود، وذكرت قصة آدم مع إبليس، وتحدي القرآن للإنس والجن، وقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون، وأثبتت الرسالة، وختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد، وهكذا بدأت السورة بالتنزيه وختمت به، فهذا من بديع الترابط والتناسق في السورة.

هذا مجمل مقاصد سورة الإسراء، إذ الطابع الغالب على أسلوبها أوامر ونواه، كما رأينا، وقد بُنيت هذه المقاصد بناءً محكماً، وارتبطت الآيات بعضها ببعض ارتباطاً قويّاً.

---

(1) في ظلال القرآن: 4/ 2208.

(2) نفسه: ص 2211.

يتبين لنا من العرض السابق أن سور هذا القسم كلها مكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وأركانها الأساسية، إذ توسعت في إيرادها توسعاً كبيراً أخذ معظم هذه السور، وعرضت لكثير من دلائل الأنفس والآفاق، استدلالاً على وحدانية الله - تعالى - وكمال قدرته على إرسال الرسل، وإنزال الوحي، وحفظ كتابه من التبديل والتغيير، وقدرته كذلك على البعث والجزاء، وأنها عرضت لكثير من شبهات الكفار، حول القرآن المعجزة الخالدة، وحول النبي - ﷺ - وأدحضَتْها بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة، وأنها عرضت لكثير من القصص، وضربت الأمثال لأجل الاعتبار بالمكذبين من الأقوام السابقة، وذكّرت بمصيرهم، تسلية للرسول - ﷺ - عما يلاقيه من أذى وتكذيب في سبيل دعوته، وتثبيتاً للمسلمين على عقيدة التوحيد الخالصة، وأنها ذكّرت بنعم الله على عباده، التي لا تحصى ولا تعد، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[1].

ومع ذلك فهي لم تغفل الجانب التشريعي، إذ وردت إشارات في بعض السور في هذا الجانب.

أن الطابع الغالب على أسلوبها القوة والعنف، فهي تواجه المشركين، والمشككين في الدعوة الإسلامية.

إنّ هذا القسم تميز بقصر السور والآيات بخلاف القسم الأول الّذي طالت فيه السور والآيات، وأن لكل منها شخصيتها المتميزة في أسلوبها وطريقة بنائها، وقد تتشابه في بعض الأحيان، ولكنها لا تتماثل، على عادة القرآن في تصريف مقاصده بطرق شتى وأساليب مختلفة، في ترابط قوي، وتسلسل منطقي، غاية في الدقة والإحكام.

---

(1) إبراهيم 34.

الأنموذج الثالث: المثاني:

كما قلنا في الحديث عن القسم السابق إنه إذا أخذنا بضابط تحديد الآيات فإن أول سور هذا القسم هي سورة الرعد، فسورة إبراهيم، ثم سورة الحج والنور والفرقان والقصص إلى سورة ق، وهذا القسم منه المكي ومنه المدني، والمكي أكثر من المدني، وحيث إن سور هذا القسم أيضاً كثيرة جداً، لذلك سأقتصر في دراسة بنائها على أنموذج، لكل من المكي والمدني، لنتبين منها ذلك الترابط القوي، والبناء المحكم.

أولاً: بناء سورة الحج:

سورة الحج مدنية وآياتها ثمان وسبعون آية، وقد تنوّعت مقاصدها تنوّعاً كبيراً، يمكن إجمالها في موضوعين أساسيين، هما: الجانب التشريعي والجانب الاعتقادي، إذ تصرفت في ذلك تصرُّفاً عجيباً، وتفنّنت تفنّناً بديعاً، فبدأت بنداء الناس جميعاً، وأمْرِهم بتقوى الله، وأكدت هذا الأمر بالتخويف من الساعة، ثم بينت أن بعض الناس من يجادل في معرفة الله بغير علمٍ متبعاً في ذلك الشيطان، ثم أكدت البعث بأصل الخلق ومراحله، ثم أكدت أن الساعة آتية لا شك فيها، وأن البعث متحقق لا شك فيه، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾[1].

إن هذه الآيات تدور حول البعث والجزاء وتحققهما فقد بدأت «بمطلع عنيف ومشهد ترتجف لهوله القلوب، يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً»[2].

---

(1) الآيات: 1 ـ 7.

(2) في ظلال القرآن: 4/ 2408.

ثـم بينـت أن بعـض النـاس يعبـد اللـه علـى هـواه ومصلحتـه فـي النفـع وعدمـه فقال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1].

ثم تحدثت عن الأساس الّذي أقيـم عليـه المسجد الحرام، وقصـة بنائـه، ونـداء إبراهيم في الناس، فاستجاب الناس دعوته لحج بيت الله الحرام، امتثالاً لأمـر اللـه، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ إلى قوله تعالى :
﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

ثم تعرضت لمشروعية القتال، حماية للعقيدة، فقال تعالى :
﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[3].

وذكرت قصة تكذيب الأمم السابقة لرسلهم، تسلية للرسول ـ ﷺ ـ فقال تعالى :
﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾[4].

«فهي سُنَّةٌ مطَّـردة فـي الرسـالات كلـهـا، قبـل الرسـالة الأخيـرة، أن يجـيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون، فليس الرسول ـ ﷺ ـ بدعاً مـن الرسـل حين يكذبه المشركون»[5].

---

(1) آية : 11.
(2) الآيات : 25 ـ 37.
(3) الآيتان : 39 ـ 40.
(4) الآيتان : 42 ـ 43.
(5) في ظلال القرآن : 4/ 2429.

وتحدثت عن استعجال الكفار الرسول ـ ﷺ ـ بالعذاب فقال تعالى:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[1].

ثم عن الوحي والرسالة فقال تعالى:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]، ثم عرضت لأدلة من الكون، فقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾[3].

تلك هي معظم مقاصد هذه السورة، جاءت مترابطة وفق نظام بديع يغلب على أسلوبها أسلوب السُّوَر المكية، وذلك لما فيها من التخويف والتهديد في معظمها.

ثانياً: بناء سورة النور:

سورة النور مدنية وآياتها أربع وستون آية، بنيت مقاصدها، على الجانب التشريعي، بكل ما فيه من حدود وآداب اجتماعية، فركّزت على الأسرة؛ لأنها النواة الأساسية للمجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع بكامله، إذ بدأت السورة: «بمطلع فريد في القرآن كله، الجديد فيه كلمة ﴿ وَفَرَضْنَـٰهَا ﴾ والمقصود بها، توكيد الأخذ بكل ما في السُّورة على درجة سواء، ففرضية الآداب والأخلاق فيها كفرضية الحدود والعقوبات، هذه الآداب والأخلاق المركوزة في الفطرة التي ينساها الناس تحت تأثير المغريات والانحرافات، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين»[4].

(1) آية: 47.
(2) آية: 49.
(3) الآيات: 61ـ66.
(4) في ظلال القرآن: 4/ 2487.

ثم أردف هذا المطلع الفريد كما مرّ، بحد الزنا، وحد القذف وأحكام اللعان، وبيان عقوبة من يحب إشاعة السوء بين المؤمنين.

ومن بديع التدرج في التشريع وسماحة الإسلام، أن حد الزنا كان في أول الإسلام وعلى ما جاء في سورة النساء، الحبس للنساء في البيوت، والأذى بالتعيير، وحد الرجال الأذى بالتعيير[1]، فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾[2].

وفي سورة الإسراء نهى عن قربه؛ لأنه فاحشة، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾[3].

وسورة الإسراء مكية فهي أسبق في النزول، لذلك يكون النهي أولاً، وبيان حدّه في سورة النساء ثانياً، وفي سورة النور شرع الله تعالى حد الزنا، تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى واختلاط الأنساب.

ثم انتقلت السورة لتعليم المؤمنين آداب دخول البيوت، وذلك بالاستئذان والسلام على أهلها، ثم أتبعت ذلك بالأمر بغض النظر للرجل والمرأة على السواء، وذلك ممّا يصون الكرامة، ويحفظ العرض والشرف، ثم أمرٌ بالزواج وتيسير أسبابه، ونهيٌ عن إكراه الفتيات على البغاء، وذلك من بديع الترابط والتناسق في بناء الآيات بعضها مع بعض.

ثم انتقلت إلى ضرب الأمثال، ثم مدْح الّذين يذكرون الله ويقيمون الصلاة ويؤدُّون الزكاة، ثم ذكرت دلائل من الآفاق، ثم انتقلت إلى الحديث عن المنافقين

---

(1) انظر المحرر الوجيز 2/ 12 وتفسير القرطبي 5/ 84 ـ 86 ومحاسن التأويل 5/ 1153، والرسالة للإمام الشافعي ص 248.

(2) سورة النساء، الآيتان: 15 ـ 16.

(3) سورة الإسراء، آية: 32.

والأمر بطاعة الله والرسول، ثم انتقلت إلى تنظيم علاقة الزيارة والطعام والأصدقاء، ومن تنظيم العلاقات بين الأقارب ينتقل السياق إلى تنظيم العلاقة بين المسلمين والرسول محمد - ﷺ -.

تلك هي مقاصد سورة النور، تصرفت وفق نظام عجيب، وتفنن بديع، وبناء محكم.

ثالثاً: بناء سورة الفرقان:

سورة الفرقان، التي آياتها سبع وسبعون آية كغيرها من السور المكية بنيت مقاصدها على الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية، غير أن لها شخصيتها المتميزة، التي تميزها عن غيرها من السور، وذلك لاختلاف الأسباب والمواقف التي أنزلت بسببها السُّوَر والآيات، والتي وردت هذه المقاصد لعلاجها، وبيان الحقيقة فيها، فمقاصدها وحدة متصلة مترابطة ترابطاً متيناً، متناسقاً تناسقاً قوياً، أغلبها بُني على ذكر القرآن وشبهات المشركين حوله، وإثبات الرسالة والوحي، وتسلية الرسول - ﷺ - عما يلاقيه من أذى المشركين وعنادهم، مبيناً له أن ذلك سنة مطردة مع الأنبياء والرسل جميعاً، إذ واجهوا من العناد والتكذيب مثل ما واجه النبي - ﷺ - وفيما يلي إجمال لهذه المقاصد: حيث بدأت السورة بتنزيه المولى - سبحانه وتعالى - الّذي أنزل القرآن على عبده ليكون هادياً للناس أجمعين، وفارقاً بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، مدلّلاً على ذلك بدلائل من الآفاق التي تدل على ملكية الله المطلقة لهذا الكون، ونزهته أيضاً عن الولد والشريك، ثم عابت على الّذين اتّخذوا من دونه آلهة، وبينت سبب ذلك، وهو عجز هؤلاء الآلهة الباطلة التي لا تنفع ولا تضر، ولا تملك الموت والحياة فذلك لله وحده.

ثم انتقلت الآيات إلى ذكر افتراءات المشركين وشبهاتهم حول القرآن، ومن أنزل عليه القرآن، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[1]، ثم عرضت مشهداً من مشاهد

(1) الآيات: 4 - 8.

القيامة، ثم قرّرت حقيقة بشرية الرسل، وذكرت شكوى الرسول -ﷺ- لربه من هجر قومه للقرآن، وتسلية ربّه إيّاه بأن ذلك سُنّةٌ جاريةٌ في جميع الرسالات، واعتراض المشركين على تنزيل القرآن في تناسق وترتيب بديع، ثم بسطت الآيات بإيجاز قصص بعض الرسل، ونبهت الرسول -ﷺ- إلى استهزاء المشركين به، ولم يكتف بهذا التنبيه بل أتبعه بتسلية رسوله -ﷺ- بأنهم ذهبوا أكثر من ذلك، فقد اتّخذوا هواهم آلهة، ويختم ذلك بتصويرهم بأنهم كالأنعام في ضلالهم؛ بل هم أضل منها، ثم انتقل السياق المترابط إلى ذكر دلائل قدرة الله ووحدانيته، وعجائب صنعه في هذا الكون البديع، ثم ختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن. تلك هي مقاصد سورة الفرقان إجمالاً، جاءت مترابطةً، ومبنيةً بناء محكماً.

رابعاً: بناء سورة العنكبوت:

سورة العنكبوت، التي آياتها تسع وستون آية، بنيت مقاصدها على الأصول الأساسية شأنها في ذلك شأن السُّوَر المكية، غير أنها تتميز بشخصيتها وأسلوبها، وترتيب تناسق مقاصدها.

إن تنوع المقاصد وعرضها بطرق شتى راجع إلى ما تعالجه السورة من الموضوعات، ومناسبة ذلك، والمواقف التي تواجه المسلمين أثناء نزولها، وجملة مقاصدها كما قلنا هي مقاصد القرآن المكي، أصول الإيمان من توحيد وإثبات للرسالة والوحي، وإثبات للبعث والجزاء، وبيان مصير المكذبين، ومصير المهتدين، حيث ابتدأت السورة بالحروف المقطعة، ثم تحدثت عن الإيمان وجهاد النفس، ثم انتقلت إلى بيان أن الله أوصى الإنسان بطاعة الوالدين إلا في حالة واحدة وهي دعوته إلى الشرك بالله، ثم انتقلت إلى الحديث عن المنافقين، ثم يمضي السياق فيبين فتنة الإغراء التي عرضها الكافرون على المؤمنين، مبيناً فساد تصورهم.

وتمضي الآيات في تناسقها وترابط بنائها، إذ تذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وكفاحهم في سبيل نصرة دين الله، وما لاقوه من محن وشدائد، منهم نوح

وإبراهيم، ومنه إلى بيان أن تكذيب المكذبين هو سُنّة الله مع أنبيائه، وأن مهمة الرسل البلاغ، ثم انتقل السياق إلى الاستدلال على إثبات الرسالة ودحض شبهاتهم بالخلق والإعادة، والأمر بالنظر والتدبر في الخلق والإعادة، ثم يعود السياق فيذكر بعض الأنبياء، بدءاً بجواب قوم إبراهيم - عليه السلام - ونجاته من النار، ثم انتقلت إلى تمثيل الّذين يعبدون من دون الله بالعنكبوت، ثم يمضي السياق في إثبات القرآن وإثبات صدق الرسالة والرسول، ثم تحدثت عن استعجال الكافرين الرسول بالعذاب، ثم انتقلت إلى عرض الدلائل الدالة على وحدانية الله - تعالى - وكمال قدرته، بطريقة السؤال والجواب، وإلى بيان حقيقة الحياة الدنيا وزخارفها، وختمت ببيان جزاء الصابرين على المحن والشدائد، تلك أهم مقاصد سورة العنكبوت، وردت مترابطة، ونُسّقت تنسيقاً بديعاً، وبنيت بناء محكماً.

خامساً: بناء سورة الأحزاب:

سورة الأحزاب التي آياتها ثلاث وسبعون آية، بنيت مقاصدها على تشريع الأحكام وإبطال العادات والتقاليد التي كانت في الجاهلية، وتعرضت للمنافقين وكشفت أسرارهم، وتناولت بعض الآداب الإسلامية، لأجل بناء المجتمع الإسلامي على الفضائل والأخلاق، في تناسق متين، وترابط قوي.

قيل إنها: «من السور التي تباعدت أغراضها، ويصعب لأول وهلة، معرفة الصلة بينها والمدار الّذي تدور عليه في عرضها، ولكن المتأمل، يظهر له التناسق في هذه السورة بأنها صورة عما يعرض لحياة مؤمن متعبد، وعلى رأسها حياة الرسول الأعظم، فكان ذلك رباط معانيها، وموضوع وحدتها»[1].

بدأت السورة بنداء النبي - ﷺ - والأمر بتقوى الله، والأمر هنا له ولأمته، فالجميع مطالبون بتقوى الله - سبحانه وتعالى - ففي هذه الآيات ثلاثة أوامر هي على التوالي، تقوى الله، واتباع الوحي، والتوكل على الله، فذلك من بديع التناسق والارتباط.

---

(1) من أسرار التعبير القرآني، ص2.

ثم أبطلت عادة الظهار والتبني، ثم انتقلت للحديث عن غزوة الأحزاب وابتلاء المؤمنين، وموقف المنافقين، ووصف الفريقين بأبلغ وصف، غاية في التناسق والترابط، فقد بنيت بناءً محكماً، ورتبت ترتيباً دقيقاً، وانتقلت إلى الحديث عن الأسرة بدءاً بزوجات النبي - ﷺ - وتخييرهن بين الحياة وزينتها، وبين الله ورسوله وما أعده الله لهن من الأجر العظيم، وقد وجهت الآيات لهن مجموعة من الطاعات والنصائح التي يجب اتباعها، ومن بعدهن نساء المؤمنين، لأنهن القدوة الحسنة، ثم انتقلت إلى تأكيد المغفرة والأجر الأعظم الّذي أعده الله للمسلمين والمسلمات، الّذين اتصفوا بالصفات المذكورة في الآية، ثم قصَّت علينا قصة زينت بنت جحش، وأسامة بن زيد، وزواج النبي - ﷺ - منها، وإنْ أُبهم ذكرها، بيد أن الآثار الصحيحة بينت ذلك[1].

ثم نفت أبوة محمد - ﷺ - لأحد من الرجال، وأثبتت أنه رسول الله وخاتم النبيين ثم أمرت المؤمنين بذكر الله وتسبيحه، وبينت وظيفة الرسول - ﷺ - وفضله على المؤمنين وبينت حكم الطلاق قبل الدخول، وأتبعته بأحكام خاصة بالنبي - ﷺ - لتنظيم حياته مع زوجاته، وعلاقتهن بالمسلمين، وعلاقة المسلمين ببيت الرسول - ﷺ - ثم تحدثت عن آداب دخول بيوت النبي - ﷺ - وأمرت النبي - ﷺ - أن يأمر نساءه ونساء المؤمنين بالحجاب الشرعي.

تلك معظم المقاصد التي اشتملت عليها سورة الأحزاب، نكتفي منها بهذا القدر من الأمثلة لسور القسم الثالث من القرآن الكريم، مستخلصين ما يأتي: أن هذا

---

(1) قال السهيلي: «فلما نزع عن زيد بن حارثة شرف أبوة محمد - ﷺ - وعلم الله تعالى وحشته من ذلك، شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحداً من أصحاب النبي - ﷺ - وهي أنه سماه في القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب 37) يعني من زينت» (التعريف والإعلام ص 259).

القسم منه المكي ومنه المدني، والمكي - كما قلنا - أكثر من المدني - ولكل منهما موضوعه الخاص، والقضايا التي يتناولها، فالمدني يتناول الجانب التشريعي، والمكي يتناول الجانب الاعتقادي، ومع ذلك لا يغفل كل منهما الجانب الآخر، فترِدُ إشارات للجانب الاعتقادي في المدني، والعكس في السور المكية.

ففي الجانب التشريعي تناولت السُّوَر الأحكام التشريعية، والآداب الاجتماعية وكل ما من شأنه إقامة الدين، وإصلاح المجتمع الإسلامي، وإرساء دعائمه، على الحق، والعدل والمساواة.

وفي الجانب الاعتقادي تناولت أصول الإيمان، وأركانه الأساسية، مدلِّلةً على إثباتها بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، بطرق شتى وأساليب مختلفة، تتشابه ولا تتماثل على عادة القرآن في تصريف مقاصده، وتنويعها، وقد توسعت في ذلك توسعاً كبيراً، أخذ معظم هذه السُّوَر - وبخاصة السور المكية - التي من أخص خصائصها، إثبات العقيدة وتصحيحها، ودحض شبهات المكذبين، وافتراءاتهم، ونوعت إثباتها حسب المواقف، والأسباب الداعية لذلك، فجاءت مترابطة ترابطاً قوياً.

وتناولت كذلك قصص الأنبياء، وما لاقوه من محن وشدائد في سبيل دعوتهم تسليةً للرسول - ﷺ - عما يلاقيه من تكذيب قومه، وتبياناً له أن ذلك سنة مطردة مع جميع الأنبياء، إذ واجهوا من العناد والتكذيب مثل ما واجه النبي - ﷺ - وفيها أيضاً تثبيت للمسلمين على العقيدة الصحيحة التي جاء بها النبي - ﷺ - وتربية لهم على الصبر في سبيل الطاعات، وبياناً لمصير المكذبين، وجزاء المصدقين، وتناولت أيضاً، دسائس المكذبين وشبهاتهم حول القرآن الكريم، ورسوله الأمين، وبينت مصيرهم.

إنّ الطابع الغالب على السور المدنية اللين والتدرج في التشريع، وأحياناً القوة والعنف - كما في سورة الحج - والطابع الغالب على السور المكية القوة والعنف، والتخويف والتهديد.

إن لهذه السُّور شخصيتها المتميزة التي تميز كل سورة عن غيرها من السُّور، وذلك لاختلاف الأسباب والمواقف التي أنزلت بسببها السُّور والآيات التي جاءت مقاصد هذه أو تلك لعلاجها وبيان حكمها، فمقاصد كل سورة وحدة متصلة، مترابطة ترابطاً متيناً، ومتناسقة تناسقاً قوياً، وإن تنوع هذه المقاصد وعرضها بطرق شتى، راجع إلى ما تعالجه السُّور من الموضوعات، ومناسبة ذلك، والمواقف التي تواجه المسلمين أثناء نزولها.

إن هذه السُّوَرَ تتشابه بعض آياتها مع الآيات الأخر، ولا تتماثل على عادة القرآن في تصريف مقاصده، إذ تصرفت في ذلك تصرُّفاً عجيباً، وتفنَّنت تفنُّناً دقيقاً، وبنيت بناءً محكماً، لا تشعر فيها بالتفكك، وإنّما تشعر بالترابط والتلاحم، الّذي ينقلك من آية إلى أخرى في تسلسل منطقي وبيان عجيب.

الأنموذج الرابع: سُوَر المفصّل:

قلنا - فيما سبق - أن سُوَر المفصّل مختلَف في بدايتها على أقوال ذكرناها في محلها؛ لذا نأخذ بالرأي الراجح الّذي يعتبر أولها سورة (ق).

إن لهذه السُّوَر مميزاتها الخاصةَ الواضحة التي تتميز بها عن سُوَر الأقسام الأخر في بنائها.

قال الإمام محمد أبو زهرة: «نجد في قصار السُّوَر وصفين، أحدهما: أن نظم السُّوَر القصار كله يكاد يكون على نسق واحد، مؤتلف النغم متآخي الألفاظ متلائماً في نظمه، اقرأ قوله تعالى:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾[1].

وإنك لترى النغم متَّحداً، والفواصل متَّحدة، والتلاؤم بين ألفاظها منهاجه واحد، وكأنها لقصرها لا تتغير فيها الأنغام ولا مقاطع الكلام.

الثاني: من الأوصاف الواضحة في السُّوَر إيجاز القِصَر، فتجد القصة من قصص القرآن تذكر في كلمات جامعة، ويبعد فيها الأسلوبَ عن الإطناب في القصة

---

(1) سورة الشمس، الآيات: 1 ـ 4.

لحالها في مواضع من القرآن الكريم، وكلها معجز ببيانه وبلاغته والسُّوَر القصيرة كلها في موضوع واحد»[1].

أولاً: بناء سورة ق:

وليكن أول أنموذج هذا القسم سورة (ق) المكية، وآياتها خمس وأربعون آية، وقد قال عنها سيد قطب: «إنها سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجَرْس فواصلها»[2].

هذه السورة تعالج قضية أساسية من قضايا الإيمان، ألا وهي قضية البعث والجزاء، وإنكار المشركين لها، فمعظمها يدور حول هذه القضية، فتذكرها بين الحين والآخر، وتذكر البراهين على صحتها، إذ بدأت هذه السورة بذكر تعجب المشركين من إرسال الرسول الّذي هو منهم، وهم أقرب إلى معرفته، ثم أردفت قضية الرسالة باستبعادهم البعث، وعرضت أدلة على صحة القضية، متعجبةً من حالهم، فكما أن هذه الدلائل لا يستطيع إنكارها أحد فكذلك البعث مثلها لا يستطيع إنكاره أحد، وقد أشارت إشارة سريعة إلى الأقوام السابقة، وتكذيبهم للرسل.

ويمضي السياق إلى آخر السورة مع قضية البعث وحالاتها. وهكذا تبين لنا أن هذه السورة عالجت قضية أساسية من قضايا العقيدة الإسلامية، ألا وهي قضية البعث والجزاء، بطرق شتى، تارةً بذكر الدلائل والبراهين الدالة على قدرة الله على البعث والجزاء، وتارةً بقياس الإعادة على الخلق، وتارةً مذكرةً بمصير المكذبين مع الرسل السابقين، وقد ذكرت كل ما يتعلق بهذا المصير من الحساب والجزاء، والساعة وقيامها.

ثانياً: بناء سورة الطور:

ننتقل لأنموذج آخر من نماذج سُوَر المفصَّل، ألا وهي سورة الطور المكية التي آياتها تسع وأربعون آية، وقد تصرفت في بنائها حول أصول العقيدة الإسلامية

---

(1) المعجزة الكبرى: ص 328.

(2) في ظلال القرآن: 6/ 3356

وأركانها الأساسية، إذ بدأت السورة بقَسَمِ الله - سبحانه وتعالى - بمخلوقاته العظيمة في الأرض والسماء، بعضها معلوم وبعضها مجهول على عادة القرآن في القَسَم ببعض الأشياء المحسوسة في أسلوب عنيف، وحملة على الباطل والشبهات، التي يثيرها المشركون حول البعث والجزاء، فجاءت الآيات مؤكدة حصول ذلك ووقوعه لا محالة، وتناولت في بيانها جزاء المكذبين، وجزاء المصدقين، في مقابلة بين جزاء الفريقين، «هذه الآيات القصيرة والفواصل المنغمة والإيقاعات الفاصلة، تصاحب السورة في مطلعها، وهي تبدأ كلمة واحدة، ثم تصبح كلمتين، ثم تطول شيئاً فشيئاً حتى تبلغ نهاية المقطع اثنتي عشرة كلمة مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع»[1].

ثم انتقلت الآيات إلى الرسول - ﷺ -، إذ أمرته بالتذكير ونفت عنه وعن الكتاب العزيز شبهات المكذبين، بإظهار التحدي لهم، وتذكيرهم بأصل خلقهم وقدرة الله - تعالى - في إيجادهم وتكوينهم، وتنزيه المولى - سبحانه وتعالى - عن الشرك والشركاء، وإنذار المكذبين، وختمت السورة بأمر الرسول - ﷺ - بالصبر لحكم ربه.

ومن ثم نخلص من هذا العرض إلى أن السورة بنيت على مقصد واحد، وهو العقيدة، متمثلة في الأركان الأساسية لها:

أولاً: التوحيد، وذلك بتنزيه المولى - سبحانه - عن الشرك، وبيان القدرة الإلهية بذكر الدلائل الواضحة على قدرته، على البعث والجزاء، وإرسال الرسل، وإنزال الكتاب.

وثانياً: البعث والجزاء، وبيان جزاء المصدقين بالله وبأركان الإسلام الأساسية، وجزاء المكذبين بذلك.

وثالثاً: إثبات الرسالة، ونفي شبهات المكذبين.

---

(1) في ظلال القرآن 6/ 3393.

ثالثاً: بناء سورة الواقعة:

إن سورة الواقعة المكية[1] آياتها قصيرة جداً، وأسلوبها قويّ عنيف، وقد بُنيت آياتها على تفصيل أحوال الناس يوم القيامة، وأقسام الناس في هذا اليوم، وجزاء كل فريق، كل ذلك في تناسق قويّ، وترابط متين، وأسلوبها يغلب عليه التقابل بين أحوال الناس يوم القيامة، وما أعده الله لهم من الجزاء العادل الّذي يتناسب مع حال كل فريق، وإيراد الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، الدالة على وقوع هذا اليوم وتحقُّقه، والدالة كذلك على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع صنعه.

إذ بدأت السورة بوصف يوم القيامة، وتأكيد تحقُّقه، وأقسام الناس حينئذ، وهي ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، ثم انتقلت الآيات في تناسق وترابط، إلى تفصيل أحوال الفرق الثلاثة، وما يلقاه كل فريق من جزاء عادل يوم القيامة يتناسب مع عمله، فبدأت بذكر السابقين إلى الإيمان والعمل الصالح، وبينت جزاءهم والنعيم الذي سيلقونه من ربهم في ذلك اليوم، ثم ذكرت الفريق الثاني، وهم أصحاب اليمين الّذين هم في المرتبة الثانية بعد السابقين، وبينت جزاءهم، ثم ذكرت الفريق الثالث، وهم الأشقياء الّذين يأخذون كتابهم بشمالهم، وفصلت حالهم وبينت جزاءهم مقابلاً مع جزاء الفريق السابق، وذلك لإصرارهم على الكفر والعناد، وتكذيبهم بيوم البعث، ثم تحدثت على دلائل القدرة والوحدانية، كبرهان على صحة قضية البعث.

ثم تحدثت عن القرآن الكريم، وتأكيد إنزاله وعظمته، وتكفُّل المولى بحفظه؛ لأنه تنزيل من رب العالمين، ثم ختمت بما بدأت به من ذكر الطوائف الثلاثة وبيان جزائهم.

ومن ثم نستطيع القول إن هذه السورة تعالج موضوعاً واحداً، وهو يوم القيامة، وما يتبعه من جزاء وعقاب، واستدلت على ذلك بالدلائل الواضحة

---

(1) آياتها ست وتسعون آية.

والبراهين الساطعة الدالة على القدرة الإلهية وكمالها، كبرهان على صحة هذا اليوم وتحقُّق وقوعه.

وبعد أن أتينا بنماذج لهذا القسم من السُّوَر المكِّيّة، نأتي بنموذج من السُّوَر المدنية يختلف في أسلوبه، وفي بناء مقاصده؛ لأن القرآن المكي غالباً ما يعالج أصول العقيدة، والمدني يعالج الجانب التشريعي، فذلك، من أظهر سماتهما.

رابعاً: بناء سورة المجادلة:

ولتكن هذه السورة: المجادلة التي آياتها اثنتان وعشرون آية، وقد اهتمت بالجانب التشريعي بدءاً بذكر قصة المجادلة: خولة بنت ثعلبة[1]، التي ظاهر منها زوجها على عادة الجاهلية، وشكواها إلى الرسول - ﷺ - واستجابة المولى - سبحانه وتعالى - لها، فبيّن حُكْم كفَّارة الظِّهار، وانتقلت الآيات في تسلسل عجيب، وترابط قويّ إلى بيان علم الله المطلق، إذ ذكرت التناجي وحُكْمَه، وبينت أن ذلك هو عادة اليهود والمنافقين، وأمرت المؤمنين بالابتعاد عنه، إلا إذا كان في البر والتقوى، ووصفته بأنه عمل الشيطان لينفر المسلمين منه، ثم انتقلت الآيات في تصريف بيانها إلى تعليم المسلمين أدباً آخر من آداب الإسلام في علاقتهم مع رسول الله - ﷺ - ثم يعود تصريف البيان إلى بيان حُكْمِ المناجاة مع رسول - ﷺ - ومنه إلى بيان أحوال المنافقين الّذين يتولون اليهود وأعمالهم، وبينت جزاءهم وما سيؤول إليه حالهم يوم القيامة، إذ كشفت حالهم وفضحتهم، ثم تحدثت عن الّذين يُعادون الله ورسوله، وبينت أن الغلبة لله ولرسوله، وختمت السورة بإقرار قاعدة الإيمان التي يجب أن يسير عليها المؤمنون، تلك مقاصد هذه السورة بنيت بناءً محكماً.

خامساً: بناء سورة الملك:

ثم نأخذ أنموذجاً آخر لسُوَر المفصَّل المكِّية، وهي سورة الملك، التي آياتها ثلاثون آية، وقد عالجت في بيانها موضوع العقيدة الإسلامية، إذ تناولت بعض

---

(1) قال السيهلي: هي خولة بنت ثعلبة، وقيل: بنت حكيم، وقيل: اسمها جميلة، وخولة أصح ما قيل في ذلك، وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، ذكر ذلك في كتابه: (التعريف والإعلام ص: 321).

الأركان الأساسية لهذه العقيدة، حين بدأت بتنزيه المولى - سبحانه وتعالى - وبيان قدرته المطلقة، ثم استدلت على تلك القدرة بخلق الموت والحياة لأجل الاختبار، إذاً في هذا الافتتاح ركنان أساسيان من أركان العقيدة، هما: التوحيد المتمثل في القدرة الإلهية، والبعث والجزاء.

ثم انتقلت إلى بيان دلائل الوحدانية، وتوجيه النظر إلى خلق الله في السموات والأرض، تلك الدلائل الباهرة، الدالة على القدرة العظيمة، وبينت جزاء الكافرين وحالهم واعترافهم بذنوبهم، وقابلت بينهم وبين المطيعين فبينت جزاءهم، على سبيل التقابل.

ثم انتقلت إلى بيان الدلائل الدالة على القدرة الإلهية وبيان الحشْر والنشْر والبعْث والجزاء.

ومن ثم نستخلص أن هذه السورة تناولت ركنين أساسيين من أركان العقيدة الإسلامية هما التوحيد، وذلك ببيان دلائل القدرة الإلهية، والبعث والجزاء، مدلِّلةً على تحقُّقِهما بدلائل صنع اللّه.

سادساً: بناء سورة المزمل:

نأخذ أنموذجاً آخر من سور المفصل المكية وهي سورة المزمل والتي آياتها عشرون آية، وقد بُنيت آياتها على بيان جانب من حياة الرسول - ﷺ - فبدأت بنداء الرسول - ﷺ - وأمرته بإقامة الليل، وترتيل القرآن، وانتقلت منه إلى موضوع الوحي، وأمرته بذكر اسم ربه، والتوكل عليه في جميع أموره، وأمرته بالصبر على أذى المشركين وشبهاتهم وهجرهم هجراً جميلاً، ثم هددت المشركين بالعذاب يوم القيامة.

ويتصرف السياق في ارتباطه مؤكداً إرسال الرسول، ومبيناً مهمته، ومذكراً بإرسال موسى إلى فرعون وعصيانه ومصيره، فذلك مصير المكذبين برسالة محمد - ﷺ - ثم ختمت بتخفيف الله عن رسوله والمؤمنين من قيام الليل رحمة بهم.

يتبين لنا من العرض السابق أن هذه السورة تعرضت لموضوع واحد، وهو الرسول ورسالته، والقرآن الكريم الّذي أنزل عليه، في ترابط متين وتناسق قوي.

سابعاً: بناء سورة النبأ:

ننتقل إلى أنموذج آخر من سور المفصل، ذات الموضوع الواحد ألا وهي سورة النبأ، التي آياتها أربعون أية، قصيرة متقاربة، «هذا الجزء كله، ومنه هذه السورة ذو طابع غالب، وكلها من قصار السُّوَر على تفاوت في القِصَر، وهي ذات طابع خاص يجعلها وحدةً على وجه التقريب في موضوعها واتجاهها وإيقاعها وصورها وظلالها وأسلوبها العام»[1].

هذه السورة تصرّف بيانها حول مقصد واحد، وهو يوم القيامة، والبعث والجزاء، إذ بدأت السورة بالسؤال المتعجَّب فيه من حال المكذبين بهذا اليوم والمشككين فيه ولم تذكر هذا اليوم باسمه، وقد وصفته بالعظمة، وبينت حالهم حول تحقُّقه، فمنهم مُصَدّق به وهم المؤمنون، ومنهم مُكَذِّب به وهم المشركون، ثم أعقبه باللفظ الدال على الردع والزجر، ثم يمضي السياق مُدلِّلاً على وقوع هذا اليوم وتحقُّقه بذكر الدلائل الباهرة، والنعم العظيمة التي تفضّل بها على عباده، لعل هؤلاء المكذبين يرجعون إلى صوابهم، فيؤمنوا بهذا اليوم الّذي هو ركن من أركان الإيمان.

وينتقل السياق ليؤكد وقوع الحشر وتحقُّقه، وما يحدث فيه من عجائب القدرة، وهكذا ينتقل السياق مرتبطاً بعضه ببعض في تناسق قوي، وترابط متين، فكل مقصد من تلك المقاصد الفرعية مبنيّ على ما قبله وما بعده، إذ إن بعد الحشر يكون بيان الجزاء ومقداره، بدءاً بجزاء المكذبين الضالين، الّذين كذبوا بالله وبهذا اليوم، ثم أعقبت ذلك ببيان جزاء المؤمنين، وما أعده الله لهم من أنواع النعم على سبيل التقابل مع جزاء المكذبين، ثم ختمت السورة ببيان هول يوم القيامة وحال الكافرين في ذلك اليوم.

ومن ثم نكتفي بهذا القدر من النماذج لسُوَر المفصَّل نخلص منه إلى أن سُوَر هذا القسم منها المكي ومنها المدني، ولكل منهما سماته الخاصة التي تميزه عن الآخر

---

(1) في ظلال القرآن: 6/ 3800.

في بنائه، وبالأخص كلما قصرت السُّوَر، وأن نظمها يكاد يكون على نسق واحد، وأن أغلبها ذو موضوع واحد ذلك ما قرره الشاطبي إذ قال: «غير أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحداً بالاعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، عليه أكثر سُوَر المفصل»[1] وأنها تتميز كذلك بالإيجاز، ومع ذلك فقد تناولت مقاصد القرآن إجمالاً، وأنها تتميز بقصر السُّوَر والآيات بخلاف الأقسام الأُخر التي تطول فيها على تفاوت في القصر كلما قصرت.

---

(1) الموافقات: 3/ 414.

الفصل الثاني
التصريف في فواتح السُّوَر وخواتمها

تنوعت فواتح السُّوَر وخواتمها، تنوعاً بديعاً، غاية في الروعة والبيان، محققة مقاصدها في دقة وإحكام، منسجمةً مع سُوَرِها تمام الانسجام.

إن فواتح السُّوَر وخواتمها تتصرف في كل موضع تابعة لسياقها، مرتبطة مع ما افتتحت أو ختمت به ارتباط قوياً.

إن التنويع في فواتح السُّوَر، وخواتمها هو ما ستكشف عنه هذه الدراسة، التي سأقسمها إلى مبحثين:

الأول: التصريف في فواتح السُّور.

الثاني: التصريف في خواتم السُّور.

المبحث الأول
التصريف في فواتح السُّوَر

إن التصريف في فواتح السُّور، مرجعه سر الإعجاز القرآني، ودقته المتناهية التي جعلته في أعلى مراتب الحُسْن والبيان، في ألفاظه ومعانيه.

وقد عدّه السيوطي الوجه الخامس من وجوه إعجاز القرآن، وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين، وهو أن يتأنّق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً، أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، وإن كان في نهاية الحُسْن، فينبغي أن يُؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقّه، وأجزله، وأسلسه وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصحه معنىً وأوضحه، وأخلاه من التعقيد، والتقديم والتأخير المُلْبِس، أو الذي لا يناسب.

وقد أتت فواتح جميع السُّوَر على أحسن الوجود وأكملها، كالتحميدات، وحروف النداء، والهجاء وغير ذلك.

ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلَّمَ فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعَلَمُ الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن، فإنها مشتملة على جميع مقاصده، لأنه افتتح فيها، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة[1].

«ولهذا تجد الافتتاحات في القرآن الكريم على أحسن ما يكون وأبلغه، لملائمة المقصود بالسورة من إيقاظ كقوله تعالى:

---

(1) معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 58 ـ 61. وانظر من أسرار البلاغة في القرآن ص 201.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ وهكذا جميع السُّوَر فإنها دالة على المقصود في الابتداء»[1].

وقد ذكر السيوطي أنّ ابن أبي الإصبع قد أفرد فواتح السُّوَر في كتاب سماه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح». ثم قال: «وهأنا ألخص هنا ما ذكره مع زوائد من غيره»[2]. فتنوع افتتاح السُّوَر من بديع تصريف القرآن الكريم، وهو سر من أسرار إعجازه.

وقد صُرِّفتْ أسرار الفواتح تصريفاً عجيباً، ينبئ عن عظمة هذا الكتاب وعظمة مُنزله، ومن أُنزل عليه.

وقد ذكر الزركشي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ افتتح كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السُّوَر عنها.

النوع الأول: الاستفتاح بالثناء على الله:. عزَّوجلّ.

والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه عن صفات النقص.

والإثبات نحو قوله: (الحمد لله) في خمس سُوَر، و(تبارك) في سورتين، الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ والملك: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ والتنزيه، نحو قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ كلاهما في سبع سور.

فهذه أربع عشرة سورة استُفْتِحَت بالثناء على الله، نِصْفُها لثبوت صفات الكمال، ونِصْفُها لسلب النقائص، وهو سر عظيم من أسرار الألوهية[3].

---

(1) الطراز: 3/ 364، 365.

(2) معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 61.

(3) البرهان في علوم القرآن 1/ 164 ـ 165.

قال الزركشي فيما نقله عن «صاحب العجائب»[1] : (سبح لله) هذه كلمة استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر منها في بني إسرائيل؛ لأنه أصل، ثم بالماضي: (سبح لله) في الحديد.

والحشر والصف؛ لأنه أسبق الزمانين، ثم المستقبل في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في سورة الأعلى، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها، وهي أربع: المصدر، والماضي، والمستقبل، والأمر المخاطب، فهذه أعجوبة وبرهان»[2] .

وذكر الزمخشري أن: سبح جاء في بعض السور على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع، وكل واحد منهما معناه أن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيراه وديدنه[3] .

وذكر ابن جماعة أنه لما أخبر أولاً بأنه سبح له ما في السموات وما في الأرض أخبر أن ذلك التسبيح دائم لا ينقطع، وبأنه باقٍ ببقائه، دائم بدوام صفاته الموجبات لتسبيحه[4] .

وقد علل صاحب «سر الإعجاز في تنُّوع الصيغ» أن تصريف افتتاح سورة الحديد والحشر والصف بصيغة الماضي: (سبّح) وافتتاح سورتي الجمعة والتغابن بصيغة المضارع: يسبّح) أن كل سورة من السُّور الثلاث التي افتتحت بصيغة الماضي، ورد فيها قصتان تعبّران عن الماضي، على حين لم يرد إلا قصة واحدة استغلت للحاضر في كل من السورتين اللتين افتتحتا بصيغة المضارع، ذلك أن الفعل الماضي

---

(1) وصاحب العجائب هو محمود بن حمزة الكرماني، المعروف بتاج القُرّاء، المتوفى بعد سنة 500هـ (انظر كشف الظنون 2/ 1126).

(2) البرهان في علوم القرآن 1/ 165.

(3) الكشاف 4/ 60.

(4) كشف المعاني ص 350.

ورد في سياق قصص تدل على الماضي، وأن الفعل المضارع ورد في سياق قصة وجهت نحو الحاضر وليس الماضي.

فسورة الصف وردت فيها قصة موسى ـ عليه السلام ـ ثم قصة عيسى ـ عليه السلام ـ مختصرتين، وكانت قد افتُتحت بالفعل الماضي (سبّح).

وسورة الحشر: وردت فيها قصة بني النضير الذين أخرجهم الرسول ـ ﷺ ـ من المدينة، عندما نقضوا عهدهم معه، واتفقوا على حربه مع أهل مكة، ثم قصة المنافقين من الأنصار كعبد الله بن أُبيّ بن سلول، وكانت قد افتتحت بالفعل الماضي كذلك.

ومثلهما سورة الحديد: وردت فيها إشارة إلى قصة إرسال الرسل عليهم السلام ـ والمبادئ التي بثُّوها بين أقوامهم، ثم أشير إلى قصة رسولين أحدهما نوح والآخر عيسى.

واضح إذاً أن صيغة الماضي (سبّح) جاءت فاتحة لكي تدل على الماضي ينبث[1] في سياق كل سورة من السُّوَر الثلاث التي وردت فيها، ولكي ترتبط ارتباط عضوياً بهذا السياق، وأن صيغة المضارع: (يسبّح) جاءت فاتحة لسورتين لتدل على اتجاه سياق السورتين، الذي يدل على الحاضر والمستقبل، ولترتبط ارتباط عضوياً ـ كذلك ـ بهذا السياق[2].

1ـ الفرق بين التسبيح والتحميد:

قال السيوطي: «في تذكرة الشيخ تاج الدين السبكيّ ومن خطه نقلت: سُئل الإمام: ما الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن

(1) معنى ينبث: يظهر (لسان العرب 2/ 193 نبث).

(2) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن ص 75 ـ 76.

التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد، نحـو: (فسبّح بحمد ربك) «وسبحان الله والحمد لله»[1].

وأجاب ابن الزملكاني[2] بأن سورة (سبحان) لما اشتملت على الإسراء الذي كذّب المشركون به ـ النبيّ ـ ﷺ ـ وتكذيبه تكذيب لله ـ سبحانه وتعالى ـ أتى بسبحان لتنزيه الله ـ تعالى ـ عمّا نُسب إلى نبيّه من الكذب.

وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصّة أصحاب الكهف وتأخر الوحي، نزلت مبيّنة أن الله لم يقطع نعمته عن نبيّه ولا عن المؤمنين، بل أتمّ عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة»[3].

ويرى الإمام الرازي أن الابتداء بالتحميد أولى، إذ قال: «لقائل أن يقول: التسبيح مقدم على التحميد؛ لأنه يقال: سبحان الله والحمد لله، فما السبب ههنا من وقوع البداية بالتحميد؟

والجواب: أن التحميد يدل على التسبيح دلالة التضمن، فإن التسبيح يدل على كونه مبرأ في ذاته وصفاته عن النقائص والآفات، والتحميد يدل مع محصول تلك الصفة على كونه محسناً إلى الخلق منعماً عليهم، رحيماً بهم، فالتسبيح إشارة إلى كونه ـ تعالى ـ تاماً، والتحميد يدل على كونه ـ تعالى ـ فوق التمام، فلهذا السبب كان الابتداء بالتحميد أولى»[4].

---

(1) أخرج الحاكم في مستدركه أحاديث كثيرة، ورد فيها تقديم التسبيح على التحميد (انظر 1/ 511، وص 512، و2/ 611).

(2) هو محمد بن علي بن عبد الواحد، الأنصاري، كمال الدين المعروف بابن الزملكاني له رسالة في الرد على ابن تيمية في مسألتي الطلاق والزيارة، وتعليقات على «المنهاج» للنووي، توفي سنة 727هـ (أنظر الأعلام للزركلي 7/ 175).

(3) الإتقان 3/ 337.

(4) التفسير الكبير 1/ 228.

أرى أن كلا الرأيين على صواب، الأول من حيث افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح فهو مناسب لما افتُتِحَتْ به، وكذلك سورة الكهف بالتحميد.

وقد ورد هذا الافتتاح حسب الأسباب والمواقف التي أنزلت فيها السورتان.

والثاني من حيث إن الابتداء بالتحميد أولى عند ابتداء الأمور وانقضائها، وهو ما أشار إليه السهيلي إذ قال: «وانظر كيف أنزلت عليه سورة الحمد، وخص بها دون سائر الأنبياء، وخص بلواء الحمد، وخص بالمقام المحمود، وأنظر كيف شرع له سُنَّةً وقرآناً أن يقول عند اختتام الأفعال، وانقضاء الأمور: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

2.وجه افتتاح السور الخمس بالتحميد:

افتتح الله ـ سبحانه وتعالى ـ خمس سور من كتابه العزيز بالتحميد وهي الفاتحة، والأنعام، وسورة الكهف، وسبأ، وفاطر، فجاء كل افتتاح مناسباً لموضعه.

فسورة الفاتحة من أول السور، ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت بافتتاحها بحمده ـ تعالى ـ بيِّنٌ.

وأما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثّنويّة[2]، ومن قال بمثل قولهم، ممن جعل الأفعال بين فاعلَيْن إلى ما يرجع إلى هذا.

وأما سورة الكهف فذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف، وذكر ذي القرنين حسبما ألقَتْ يهودُ لسائلهم من كفّار قريش، وذلك مما لم يتكرّر في القرآن، فافتتحت بحمده ـ تعالى ـ وذلك بيِّنٌ.

وأما سورة سبأ، فإن قصة سبأ لم يَرِدْ أيضاً فيها في غير هذه السورة، إلا الإيماء الوارد في سورة النمل، إذ قال تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[3]

---

(1) التعريف والإعلام ص 334.

(2) الثّنويّة: هؤلاء أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام. (كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل 2/ 80).

(3) سورة النمل، آية: 22.

فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ما منحهما الله ـ سبحانه ـ من تسخير الجبال والطير والجن، وإلانة الحديد، ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها، أفتتحها ـ سبحانه ـ بحمده وانفراده بملك السموات والأرض وما فيهما، وأنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة.

وأما سورة فاطر، ففيها التعريف بخلق الملائكة ـ عليهم السلام ـ وجعلهم رسلاً أولي أجنحة، إلى خلق السموات والأرض وإمساكهما أن تزولا، وانفراده بذلك، ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن، فناسب هذه المقاصد المفردة، التي لم ترد في غير هذه السور ما افتُتحت به، ولا يلزم على هذا اطّراد ذلك في كل سورة انفردت بتعريف، أو حكم ليس في غيرها، بل جواز ذلك مُنسَحِب على الجميع، واختصاص هذه السور بذلك واضح[1].

وقد اختصت كل آية مما أفتتح بالتحميد بوصف من أوصافه تعالى ـ ففي سورة الفاتحة قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وفي سورة الكهف قال ـ عز وجل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وفي سورة فاطر قال تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقد ذهب ابن الزبير إلى أن أمَّ القرآن لما كانت أوّل سُوَرِه ومطلع آياته، وهو المبيّنُ لكل شيء والمعرّف بوحدانيته ـ سبحانه ـ وانفراده بالخلق والاختراع وملك الدّاريْن، ووصفه بما هو أهله، والجامع لعلوم الدارين، فناسب ذلك من أوصافه

(1) أنظر ملاك التأويل 1/ 7 ـ 15.

العليّة ما يُشير إلى ذلك كله، من أنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه مالك يوم الدين، حتى تنقطع الدعاوى، وتظهر الحقائق، ويبرز ما كان خبراً إلى العيان.

أما مناسبة الوصف الوارد في سورة الأنعام، فمن حيث ما وقع فيها من الإشارة إلى من عبد الأنوار، وجعل الخير من النور والشّرّ من الظلمة، فأفتتحها ـ تعالى ـ بوصفه أنه خالق السموات والأرض.

وأما سورة الكهف، فإنها لما انطوت على التعريف بقصّة أصحاب الكهف ولقاء موسى ـ عليه السلام ـ الخضر، وما كان من أمرهما، وذكر الرجل الطوّاف وبلوغه مطلع الشمس ومغربها وكل هذا إخبار بما لا مجال للعقل في إدراكه، ولا تعرف حقيقته إلا بالوحي، والأنباء الصدق، الذي لا عوج فيه، ولا زيغ، ناسب ذكر افتتاح السورة المعرّفة بذلك بالوحي المقطوع به.

وأما سورة سبأ، فلما تضمنت ما منح ـ سبحانه ـ داود وسليمان من تسخير الجبال والطير، والريح، وإلانة الحديد، ناسب ذكر ما به افتُتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقه المسخّر لها، والمتصرف في الكل بما يشاء.

وأما سورة فاطر فمناسبةُ وصفه ـ تعالى ـ باختراع السموات والأرض لما ذكره من خلق عامري السموات من الملائكة وجعلهم رسلاً أولي أجنحة وإمساكه السموات والأرض أن تزولا، وهو أبين شيء وأوضحه، وليس شيء من هذه الأوصاف العلية بمناسب لغير موضعه، كمناسبة موضعه الوارد فيه، فقد بان مجيء كلّ منها في موضعه ملائماً لما اتصل به ـ والله أعلم ـ[1].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 15 ـ 17.

وذهب الخُوَيِّي[1] فيما نقله عنه السيوطي إلى أن الفاتحة ابتدئت بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فوصَفَ بأنه مالك جميع المخلوقين، وفي الأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، لم يوصف بذلك، بل بفرد من أفراد صفاته، وهو خلق السموات والأرض، والظلمات والنور، في الأنعام، وأنزل الكتاب في الكهف وملك ما في السموات والأرض في سبأ، وخلقهما في فاطر؛ لأن الفاتحة أم القرآن ومطلعه، فناسب الإتيان فيها بأبلغ الصفات، وأعمّها، وأشملها[2].

يتبين لنا من العرض السابق أن الافتتاح بالحمد ورد في خمس سُوَر هي على الترتيب، الفاتحة والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وأن لكل سورة وجه خاص في افتتاحها بحمده ـ تعالى ـ وذلك لما انفردت به من قضايا لم تذكر في غيرها.

وقد أتبع حمده ـ تعالى ـ في كل منها بوصف من أوصافه ـ تعالى ـ لم يذكر في الأخرى، فناسب كل منها ما أُتبعت به. تلك بلاغة القرآن، وتفنن أساليبه، وحكمة تصريفه.

النوع الثاني: استفتاح السّور بحروف التهجي:

افتتح القرآن الكريم تسعاً وعشرين سورة بحروف التهجي، مثل ألم، ألمص، ألمر، كهيعص، طه، طس، طسم، حم، حمعسق، ق، ن.

وقد أشار الزمخشري إلى أن ما أورده الله ـ عزّ سلطانه ـ في الفواتح من هذه الأسماء نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشرة سواء، وهي الألف واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم.

---

(1) هو: محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر، شهاب الدين أبو عبد الله شمس الدين الخُوَيِّي، برع في الفقه، والنحو والتفسير، من مؤلفاته «شرح الفصول» و«نظم الفصيح» توفي سنة 693هـ (بغية الوعاة 1/ 23 ـ 24).

(2) الإتقان 3/ 337 ـ 338.

ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون.

ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف، ومن الرخوة: نصفها، اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون، ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء، ومن المنفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء والنون ومن المُسْتَعْلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء، ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين والسين، والحاء، والنون.

ومن حروف القلقلة[1] نصفها: القاف والطاء، ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ـ فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته ـ.

وقد علمت أن معظم الشيء وجعله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله ـ عزّ اسمه ـ عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إيّاهم[2].

---

(1) قال محمد باجودة: «حروف القلقلة خمسة، قطب جد» فثمة تسامحٌ في التعبير (تأملات في سورة البقرة 1/ 18).

(2) الكشاف 1/ 100 ـ 105.

ذكر ابن قيّم الجوزية السر في حروف (ألم) وما اشتملت عليه هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان، والشفتين، وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجاً، فيصير منها تسعة وعشرون حرفاً عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمنها سراً عجيباً، وهو أن للألف البداية، واللام التوسط والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه، فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، تجد ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة والروم.

والذي يتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة يجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك (ق) التي بنيت كلماتها على القاف، من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقى الملكين، قول العبد وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر، والعلو والانفتاح.

وتجد ذلك أيضاً في سورة (ص) التي اشتملت على الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي - ﷺ - وقولهم:

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[1]

إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه وحلفه ليغوينّهم أجمعين، إلا أهل الإخلاص منهم.

وهكذا فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير (ص) وبسورة (ق) غير حرفها، وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف - والله أعلم -[2].

وقد صرف القرآن الكريم هذه الأحرف على عادة العرب في افتنان أساليب كلامهم وتصرفهم فيه على طرق شتى، ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك[3].

1 - تَنَوُّع الافتتاح بالحروف المقطَّعة:

تنوّع الافتتاح بالحروف المقطّعة، فمنها ما جاء على حرف واحد، ومنها ما جاء على حرفين، ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف، ومنها ما جاء على أربعة أحرف، ومنها ما جاء على خمسة أحرف بيانها كالآتي:

1 - ما جاء على حرف واحد، وذلك في ثلاث سُوَر، وهي سورة (ص)، وسورة (ق)، وسورة: (القلم).

---

(1) ص آية 5.

(2) بدائع الفوائد 3/ 148 - 149.

(3) الكشاف 1/ 105.

2 ـ ما جاء على حرفين، وهو نوعان:

أ ـ ما اختلف فيه الحرفان، وذلك في ثلاث سُوَر، وهي سورة (طه)، وسورة (النمل)، وسورة (يس).

ب ـ ما اتحد فيه الحرفان، وذلك في ست سُوَر، وهي سورة (غافر)، و(فصلت)، و(الزخرف)، و(الدخان)، و(الجاثية)، و(الأحقاف).

3 ـ ما جاء على ثلاثة أحرف، وهو ثلاثة أنواع:

أ ـ ألم، وذلك في ست سُوَر هي: (البقرة) و(آل عمران)، و(العنكبوت)، و(الروم)، و(لقمان)، و(السجدة).

ب ـ ألر، وذلك في خمس سُوَر، هي: (يونس) و(هود) و(يوسف) و(إبراهيم) و(الحِجْر).

ج ـ طسم، وذلك في سورتين هما: (الشعراء)، و(القصص).

4 ـ ما جاء على أربعة أحرف، وذلك في سورتين هما: (الأعراف) و(الرعد).

5 ـ ما جاء على خمسة أحرف، وذلك في سورتين أيضاً هما: (مريم) و(الشورى).

2 ـ اختلاف العلماء في الحروف المقَطَّعة:

اختلف العلماء في الحروف المقَطَّعة أوائل السُّوَر على قولين:

الأول: أن هذا علم مستور وسر محجوب، استأثر الله به، ويرى أصحاب هذا الرأي، عدم الخوض فيها، ويعدُّونها من المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلا الله.

ولهذا قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: «في كل كتاب سرّ وسِرُّه في القرآن أوائل السُّوَر».

وقال الشعبيّ: «إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونَكِلُ العلم فيها إلى الله ـ عزَّ وجلّ ـ»[1].

(1) المحرر الوجيز 1/ 81 ـ 82 والتفسير الكبير 2/ 3 والبرهان في علوم القرآن 1/ 172 ـ 173. والتسهيل لعلوم التنزيل ص 35.

وقال ابن خلدون: «وثَبَّتَ في هذا القرآن الكريم حروفاً من الهجاء مقطعة في أوائل بعض السور لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها، وسمّى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهاً وذمّ على اتّباعها»[1].

وقال الإمام الرازي فيما نقله عنه الزركشي «وقد أنكر المتكلّمون هذا القول، وقالوا لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يفهمه الخلق؛ لأنّ الله - تعالى - أمر بتدبُّره، والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه، ولأنه كما جاز التعبّد بما لا يُعْقَلُ معناه في الأفعال، فلم لا يجوز في الأقوال، بأن يأمرنا الله تارةً بأن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون القصدُ منه ظهور الانقياد والتسليم»[2].

وأما القول الثاني: فإن المراد منها معلوم، ويرى أصحاب هذا الرأي ضرورة البحث عن معانيها ومدلولاتها، وذكروا فيها ما يزيد على عشرين وجهاً فمنها البعيد، ومنها القريب.

أحدها: أن هذه الحروف أسماء لله - سبحانه وتعالى - وهو الاسم الأعظم[3]. وهذا مرويٌّ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وجعله ابن فارس وجهاً جيداً، مستشهداً عليه بكلام العرب: قلنا لها قفي: فقالت: ق، فعبّر عن قولها: وقَفْتُ بق[4].

الثاني: أن الله أقسم بهذه الحروف على صدق القرآن المنزل على محمد - ﷺ -.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 442.

(2) البرهان في علوم القرآن / 173.

(3) ذكر هذا القول أيضاً السيوطي وتعقبه بقوله: «إلا أنا لا نعرف تأليفه منها، وكذا نقله ابن عطية». (راجع معترك الأقران 1/ 117). وانظر التبيان في إعراب القرآن 1/ 14.

(4) البرهان 1/ 173، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز 1/ 82 للشاعر الوليد بن المغيرة، وذكره صاحب اللسان في 1/ 11 باب تفسير الحروف المقطعة، عن أبي إسحاق الزجّاج، إذ أنشده بلفظ:
قلت لها قفي فقالت: ق، وفي موضع آخر 9/ 359 مادة وقف: قال ابن بري: ومما جاء شاهداً على أوقفت الدابة قول الشاعر: قلت لها قفي لنا، فقالت قاف إنما أراد قد وقَفْتُ، فاكتفى بذكر القاف».

الثالث: أنها الدائرة من الحروف التسعة والعشرين، فليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ـ عزَّ وجلَّ ـ أو آلائه.

الرابع: أنها رموز دالة على الاسم العام والصفة التامة، مثل: (ألم) أنا الله أعلم، وهو مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً ـ رضي الله عنهما ـ.

الخامس: أنها أسماء للسور.

السادس: أن لكل كتاب سِراً، وسرّ القرآن فواتح السور.

السابع: أنزلِ هذا النظم البديع ليعجب منه العرب، ويكون تعجبّهم سبباً لاستماعهم، واستماعهم سبباً لاستماع ما بعده، فَتَرِقُّ القلوب وتلين الأفئدة.

الثامن: دلالة على أن القرآن أنزل بالحروف التي يعقلونها ويبنُون كلامهم منها.

التاسع: وهو اختيار ابن فارس وغيره: وذلك أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً، فيقال: إن الله ـ جلَّ وعلا ـ أفتتح السُّوَر بهذه الحروف إرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة؛ لأن تكون افتتاحاً وأن يكون كلّ واحد منها دالاً على اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ وأن يكون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد وضعها هذا الوضع وتَسَمَّى بها، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين، وهي مأخوذة من صفات الله ـ تعالى ـ في إنعامه، وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن من لم يكن سمع، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدّال على نبوّة محمد ـ ﷺ ـ بهذه الحروف، وأنّ عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالَمة بينهم دليل على كفرهم، وعنادهم وجحودهم، وأن كلّ عدد منها إذا وقع أول كلّ سورة فهو اسم لتلك السورة.

العاشر: أنها كالمهيّجة لمن سمعها من الفصحاء الموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل، والأخذ في التفاضل.

الحادي عشر: للتنبيه.

الثاني عشر: انحصارها في نصف حروف المعجم.

الثالث عشر: مجيئها في تسعٍ وعشرين سورة بعدد الحروف[1].

وقيل: إنها من المتشابه، والمختار فيها أنها أيضاً من الأسرار التي انفرد الله بعلمها، وقد كثرت الأقوال فيها، ومرجعها كلها إلى قول واحد، وهو أنها حروف مقطعة، كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه ـ تعالى ـ والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية.

وأخرج ابن جرير بسند صحيح عن ابن مسعود، قال: «هو اسم الله الأعظم»[2] وقال السهيلي لعل عدد الحروف التي في أوائل السُّوَر مع حذف المكرر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة[3].

وتعَقَّبه ابن حجر قائلاً: «وهذا باطل لا يُعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد «أبي جاد» والإشارة إلى ذلك من جملة السحر؛ وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة»[4].

وقال القاضي ابن العربي في فوائد رحلته ـ فيما نقله عنه السيوطي: «ومن الباطل علمُ الحروف المقطعة في أوائل السُّور، وقد تحصّل لي فيها عشرون قولاً وأزيد، ولا أعرف واحداً يحكم عليها بعلم، ولا يصل فيها إلى فهم»[5].

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 173 ـ 177.

(2) معترك الأقران 1/ 117.

(3) نفسه، والذي قاله السهيلي في التعريف والإعلام ص 275: «فإن يس، وألم، ونحو ذلك القول فيها واحد، وإنما هي حروف مقطعة إما مأخوذة عن أسماء الله تعالى، كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كل كتاب سرّ، وسرّه في القرآن فواتح السُّوَر».

(4) معترك الأقران نفسه ص 117 ـ 118، وذكر محقق تفسير ابن عرفه، أن ابن عرفة أنكر قول السهيلي هذا، وقال: «هذا غير صحيح» وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في سورة الأعراف الآية 187 (انظر تفسير ابن عرفة 1/ 111).

(5) معترك الأقران 1/ 118.

وخالفه السيوطي فقال: «والذي أقول إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداولاً بينهم، لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي - ﷺ - بل تلا عليهم (حم) فُصِّلَتْ و(ص) وغيرهما فلم ينكروا ذلك، بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة، مع تشوُّفهم إلى عثرة، وحرصهم على زلة؛ فدل على أنه أمراً معروفاً عندهم لا إنكار فيه.

وقيل: هي تنبيهات - كما في النداء - عَدَّه ابن عطية مغايراً للقول بأنها فواتح، والظاهر أنه معناه.

قال أبو عبيدة[1]: (ألم) افتتاح كلام، وقال الحوفي[2]: القول بأنها تنبيهات جيِّد؛ لأن القرآن كلام عزيز، وفوائده غزيرة، فيريد أن يَرِدَ على السامع متنبِّهاً، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي - ﷺ - في عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله (ألم)، و(ألمر)، و(حم)؛ ليسمع النبي - ﷺ - صوت جبريل، فيقبل عليه ويصغي إليه، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألاَ، وأمَا؛ لأنها من الألفاظ التي يتعارفها النّاس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يُؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تُعهد ليكون أبلغ من قَرْع سمعه»[3].

وقال جمهور العلماء فيما نقله ابن عطية: «بل يجب أن يُتكلم فيها، وتُلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها. واختلفوا في ذلك على اثني عشر قولاً»[4] وهي في جملتها لا تخرج عما ذكره الزركشي والسيوطي، وبعد أن ذكر هذه

---

(1) مجاز القرآن 1/ 28 وأبو عبيدة هو مَعْمَر بن المثنّى اللغوي البصري أبو عبيدة، صنّف المجاز في غريب القرآن، ومعاني القرآن، توفي سنة تسع وقيل: ثمان، وقيل: عشر، وقيل: إحدى عشرة ومائتين (انظر بغية الوعاة 2/ 294 - 296 ومعجم طبقات الحفاظ والمفسّرين ص 292).

(2) الحوفي هو علي بن إبراهيم بن سعيد أبو الحسن الحوفي، نحوي من العلماء باللغة والتفسير من أهل الحوف، من كتبه «البرهان في تفسير القرآن» و«الموضح في النحو» توفي سنة 430 (انظر الأعلام للزركلي 5/ 53).

(3) معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 118.

(4) المحرر الوجيز 1/ 82.

الأقوال عقَّب عليها بقوله: «والصواب ما قاله الجمهور أن تفسر هذه الحروف ويلتمس لها التأويل، لأنا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطَّعة، نظماً لها ووضعاً، بدل الكلمات التي الحروف منها»[1].

وتابعه ابن الزبير فقال: «والثاني القول بتأويلها على مقتضى اللسان، وهذا مسلك الجمهور، الذي نعتقد أنه الحق؛ لأن العرب تُحدّيتْ بالقرآن، وطُولبتْ بمعارضته أو التسليم والانقياد، وبمعرفتهم أنه بلسانهم، ومعروف تخاطبهم وعجزهم مع ذلك عنه، قامت الحجة عليهم، وعلى كافة الخلق، وإذا سلم هذا فكيف يرد في شيء منه خطابهم بما لا طريق لهم إلى فهمه، فلو كان هذا لتعلقوا به، ووجدوا إلى التعلُّل في العجز عنه»[2].

وقال ابن كثير: «إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرِّد، وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفرّاء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب ابن تيمية».

ثم قال أيضاً: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء.

وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[4]

---

(1) نفسه.

(2) ملاك التأويل 1/ 27.

(3) البقرة 1.

(4) آل عمران 1 ـ 2.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾[1].

وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر»[2].

وذهب صاحب «تفسير المنار» إلى أن عدم إعراب هذه الحروف يرجح أن حكمة افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن، والإشارة إلى إعجازه؛ لأن المكي منها كان يتلى على المشركين للدعوة إلى الإسلام، ومثل هذه السورة وما بعدها ـ يعني البقرة وآل عمران ـ لدعوة أهل الكتاب إليه وإقامة الحجج عليهم به[3].

وقد اختار هذا الرأي القائل بالتنبيه فقال: «والمختار عندنا أن حكمة افتتاح هذه السور وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام هي تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام، حتى لا يفوته منه شيء، فهي كأداة الافتتاح (ألا) وهاء التنبيه»[4].

وقد أوضح الغرض من افتتاح السور بهذه الحروف بقوله: «إن من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير، أن ينبه المتكلمُ المخاطَبَ إلى مهمات كلامه والمقاصد الأولى بها، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها، وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان»[5].

---

(1) الأعراف 1 ـ 2.

(2) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير 1/ 52 ـ 53.

(3) تفسير المنار 1/ 122.

(4) نفسه 8/ 296 وما بعدها.

(5) نفسه 8/ 299.

وقال الألوسي: «فاعلم أن كل ما ذكر النّاس فيها رشفة من بحار معانيها، ومن ادعى قصراً فمن قصوره، أو زعم أنه أتى بكثير فمن قلة نوره، والعارف يقول باندماج جميع ما ذكروه في صدف فوائدها، وامتزاج سائر ما سطروه في طمطام[1] فوائدها، فإن شئت فقل كما أنها مشتملة على هاتيك الأسرار»[2].

وقيل: إن لسائر الحروف الفواتح شأن ليس لغيرها، ووراء ذلك من الأسرار الإلهية ما لا تستقل بفهمه البشرية.

ومن تدبر بعض آيات الكتاب العزيز علم أنّ جوهره أصفى من الإبريز، وأنه المعجز الجامع للمعاني الجمة في اللفظ الوجيز[3].

يتبين لنا من العرض السابق أن هذه الأقوال منها المعقول الذي تؤيده الآثار الصحيحة ويقبله العقل السليم، ومنها عكس ذلك، وأن في هذه الحروف إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأن في افتتاح بعض السور بها من حسن البيان، وتفنن أساليب القرآن الكريم، وحكمةُ تصريفه، ما لا يخفى.

ويصدق عليها ما قاله الألوسي: «إن في كل ما قيل فيها رشفة من بحار معانيها»[4].

ذلك أن «هذه الحروف الهجائية المقطعة تؤكد أمر الإعجاز في القرآن الكريم، وتُصوِّر مدى تحدي القرآن لأساطين البلاغة، وأرباب البيان، الذين وقفوا مشدوهين أمام بلاغته التي بلغت الذروة العليا في الفصاحة والبراعة»[5]. وفيها دليل على صدق الرسول ـ ﷺ ـ[6].

(1) الطمطام: وهو وسط البحر (اللسان 12/ 371 مادة طمم).
(2) روح المعاني 1/ 103.
(3) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص 60.
(4) روح المعاني 1/ 103.
(5) معاني القرآن، تفسير لغوي موجز، الربع الثاني ص 5.
(6) عمدة الحفاظ 1/ 170.

وقد ذهب محمد باجودة إلى أن من أنْفَسِ الآراء في هذا المجال الرأي الذي ينسب إلى قُطْرب والفرّاء وغيرهما، والذي يذهب إلى كون هذه الحروف المقطعة التي أفتتح بها عددٌ من سور القرآن الكريم، مكملة للتّحدي بالقرآن الكريم ومتمّمة لإعجازه، فإذا كان العرب عموماً وقبيلة قريش خصوصاً، قد أقرّوا جميعاً بالعجز عن قبول التّحدّي القرآني، فإن حروف الفواتح امتدادٌ لذلك الإعجاز، وتنبيهٌ عليه وتأييدٌ له. فهذه الحروف التي لا زال البشر يجتهدون في البحث عن معانٍ جديدة لها، حينما تقرع الآذان، يتبيّن السّامعون أنّها هي ذات الحروف التي تألفت منها ألفاظهم، ونظّمت فيها عباراتهم، ومن ثمّ فالتحدّي لهم إنما تمّ بكلام مؤلف من ذات الحروف التي يؤلفون بها ألفاظهم وينظمون بها كلامهم الشعري والنثري على حدّ سواء.

فلم يقع التحدّي بكلامٍ مؤلَّفٍ من غير حروفهم وألفاظهم، وحينما يقف البشر على هذه الحقيقة يكون التحدي بالقرآن الكريم أعمق غوراً، وأبعد أثراً[1].

وخلصت عائشة عبد الرحمن من الاستقراء الكامل للفواتح في سورها وترتيب سياقها إلى أنها بدأت من أوائل الوحي في سورة القلم، لافتة إلى سر الحرف، ثم كثرت وتتابعت في أواسط العهد المكي، من سورة (ق) وترتيب نزولها الرابعة والثلاثون إلى سورة (القصص) وترتيب نزولها التاسعة والأربعون، حين بلغ الجدل في القرآن أشده، فعُرِضتْ قضية التحدي - وظلت آيات القرآن تعاجزهم وتتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، إلى أول العهد المدني الذي نزلت فيه آية (البقرة) فحسمت الجدل العقيم، بعد أن لزمتهم الحجة على صدق المعجزة، بعجزهم مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله.

وتؤكد أن ما من سورة بُدئت بالحروف المقطَّعة إلا كان فيها احتجاج للقرآن وتقرير نزوله من عند الله، ودحض لدعاوى من جادلوا فيه، مع التنظير لموقف المجادلين فيه، بموقف أمم قبلهم كذبوا بآيات الله واستهزؤوا برسله - تعالى - فحق عليهم العقاب.

---

(1) تأملات في سورة البقرة 1/ 17.

وأن أكثر السور المبدوءة بالفواتح، نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عُتُوّ المشركين أقصى المدى، وأفحشوا في حمل الوحي على الافتراء والسحر والشعر والكهانة، فواجههم القرآن بالتحدي، وعاجزهم مجتمعين، ومن ظاهرهم من الجن، أن يأتوا بسورة من مثله مفتراة، أو فليأتوا بعشر سور، أو بحديث مثله، ما داموا يزعمون أن محمداً افتراه وتَقَوَّله.

وأُفحموا، وعجزوا جميعاً عن أن يأتوا بسورة من مثله، وإنه لكتاب عربي مبين؛ ألفاظه من لغتهم، وحروفه هي حروف معجمهم، تلك الحروف التي تقرأ مقطعة، مفردة أو مركبة، فلا تعطي دلالة ما، لكنها حين تأخذ مكانها في القرآن يتجلى سرها البياني المعجز[1].

3 ـ وجه اختصاص كل سورة بما افتتحت به من الحروف المقطعة:

إن وجه اختصاص كل سورة بما افتتحت به من الحروف المقطعة، قد تنبه له ابن الزبير الغرناطي، ولم يسبق إليه، إذ قال «والملائم لما نحن بسبيله ما نذكره مما لم أرَ من تعرّض له، وهو وجه اختصاص كل سورة من المفتتحة بهذه الحروف بما افتتحت به منها»[2].

إن كل حرف من الحروف المقطعة واقع في موضعه من السورة المفتتح بها، وإن كل حرف من تلك الحروف لا يحل محل غيره، وذلك ما أشار إليه ابن الزبير إذ قال: «حتى لم يكن لِيَردَ (ألم) في موضع (ألمر) و(حم) في موضع (طس) و(ن) في موضع (ق) إلى سائرها»[3].

وقد أرجع وجه اختصاص كل سورة بما افتتحت به إلى ما كثر ترداده في السورة لما يماثلها في عدد كلمها وحروفها. ذلك أن الناظر في الحروف المفتتح بها تلك السورة إفراداً وتركيباً، يجد أنها أكثر عدداً في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها

(1) الإعجاز البياني للقرآن ص 179 ـ 180.
(2) ملاك التأويل 1/ 27.
(3) ملاك التأويل 1/ 28.

في عدد كلمها وحروفها، فإن لم تجد لسورة منها ما يماثلها في عدد كلمها، ففي إطّراد ذلك في المتماثلات مما يوجد له النظير.

وقد اطرّد هذا في أكثرها، فحقّ لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وقع في موضع **(ق)** من سورة **(ق)**، و**(ن)** من سورة **(ن والقلم)** وموضع **(ن)** **(ق)** لم يكن لعدم المناسبة المتأصل رعيُها في كتاب الله تعالى.

ومن هنا فقد بان وجه اختصاص كل سورة بما به افتتحت وأنه لا يناسب سورة منها، ما افتتح به غيرها ـ والله تعالى أعلم بما أراد ـ[1].

وهذا ينطبق على كل القرآن الكريم، فكل آية، بل كل حرف من الحروف المقطعة. أو ركب في كلمة لا يصلح غيره أن يحل محله، فهو مختص في موضعه، مترابط مع ما قبله وما بعده ترابطاً متيناً، مبنياً بناءً محكماً، وذلك راجع إلى إعجاز القرآن الكريم وحكمة تصريفه.

ويلاحظ أن القرآن الكريم في ذكر هذه الحروف يذكر بعدها ما يتعلّق بالقرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[3].

إلا أربع سور وهي سورة مريم والعنكبوت والروم، والقلم، وليس فيها ما يتعلق به.

إن في هذا المتعلق سرّاً في وصف الكتاب مرّة بالحكمة ومرّة بالبيان في افتتاح السور بعد الحروف المقطعة؛ إذ قال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾[6].

---

(1) نفسه ص 30 ـ 31.

(2) البقرة 1 ـ 2.

(3) آل عمران 1 ـ 3.

(4) يونس: 1.

(5) لقمان: 1 ـ 2.

(6) يوسف: 1.

ذلك أن سُورتَيْ يونس ولقمان تردّد فيهما من الآيات المعتَبر بها المطلع على عظيم حكمته وإتقانه للأشياء ما لم يرد في سورة يوسف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1] وخلق السموات والأرض وما انطوت عليه من أعظم المعتبرات، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

والمراد من هذا الكلام تعجيزهم وقطعهم عما كانوا يَرومون من المكر به - عليه الصلاة والسلام - وإرادة إهلاكه، وقد قطع - عليه الصلاة والسلام - بنصرة الله إيّاه عليهم وقطعهم دون ما يرومونه وإن تألفوا واجتمعوا.

وأما سورة لقمان فورد فيها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[4] وبعد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[5]. وفي هذه السورة أيضاً ما مُنح لقمان من الحكمة، وما انطوت عليه قصته من حكمة، وما صدر عنه في وصيته ولم تخرج أي هذه السورة عن هذا، فهذا وجه وصف الكتاب في هاتين السورتين بالحكيم.

وأما سورة (يوسف) - عليه السلام - فلم تنطو على غير قصته وبسط التعريف بقضيته، وبيان ما جرى له مع أبيه في فراقه، وامتحانه بإلقائه في الجبّ - والبيع، والتعرض له بالفتنة، وتخلُّصه بسابق اصطفائه مما كيد به، وابتلائه بالسجن وجمعه بأخيه واشتمال شمله بأبيه وإخوته، ولم تخرج آية من آي هذه السورة عن هذا من

(1) يونس 3.

(2) غافر 57.

(3) الجاثية 2.

(4) آية 10.

(5) آية 20.

بسط هذه القصة، فلهذا أتبع الكتاب بالوصف المبين، فقد وضح وورد كل من الموضعين على ما يجب ويناسب[1].

ونجد أن الميم وردت في سورة (لقمان) مكان الراء في سورتي يونس ويوسف.

وقد فصل هذا الوجه من التصريف ابن الزبير حين ذهب إلى أن سورة (لقمان) تضمنت من التنبيه والتحريك للاعتبار إفصاحاً وإيماء للمؤمن والكافر ما لم تتضمن سورة (يونس) على طولها، وإن كانت آيُهَا كلها آيُ اعتبار إلا أنها ليست كالوارد في ذلك في سورة لقمان، فمن التنبيه المتضمّن تقريع من عبد غيره - سبحانه وتعالى - بعد ذكر خلق السموات بغير عمد وإرساء الأرض بالجبال، وذكر ما فيها من الدواب، وإنزال الماء، وذكر ما أنبت - سبحانه - من كل زوج بهيج، فقال تعالى:

﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[2].

ولا تجد مثل هذا إلا حيث يُراد المبالغة في توبيخ من عَبَدَ مع الله غيره، ويجاري هذا - في هذا القصد - إلا أنه أرْفَقُ في التعنيف، قوله تعالى في سورة (يونس):

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3].

إلا أنها ليست كآية لقمان، ولا خُتمت بمثل ما خُتمت به، وقد تكرر هذا في آيات، وآية لقمان من أشدّها وعيداً، ولعظيم ما انطوت عليه أتبعها - تعالى - بتأنيس نبيه - ﷺ - بعد قصة لقمان بقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾[4]. وبإخباره أنهم لو سئلوا عن خلق السموات والأرض لم يجدوا مصرفاً غير الاعتراف، فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[5] ليعلم - عليه الصلاة

---

(1) ملاك التأويل 1/ 478 - 481.

(2) لقمان 11.

(3) آية 34.

(4) لقمان 23.

(5) نفسها 25.

والسلام ـ أن ذلك من حالهم جارٍ بقدر الله، وما سبق في علمه، وهو الحكيم في أفعاله.

فناسب ذلك مع ما في هذه السورة من التنبيه الذي لم يرد ما يماثلُه فيما ذكر قبلُ في سورة (يونس) وورود صورة أداة التنبيه في مطلعها بوقوع الميم مكان الراء الواردة من مطلع سورة (يونس).

وأما سورة (يونس) فمبْنية على التعريف بربوبية اللهَ تعالى ـ وقهره، وقد ابتُدئت ثالث آيها بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1].

ثم ذكر فيها أسم الرب ـ سبحانه ـ في بضعة عشر موضعاً، ولم يرد من هذا في سورة (لقمان) غير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾[2] ثم إنه ورد في سورة (يونس) من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة، وعشرون كلمة أو نحوها، وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة (النحل)، وهي أطول منها، والوارد فيها ممّا تركب على الراء من كلمها مائتا كلمة، مع زيادتها في الطول عليها، فلمجموع ما ذُكر وردت في الحروف المقطعة من مطلعها ـ الراء ـ مكان الميم ـ الواردة في (لقمان)، وجاء كل على ما يجب ويناسب[3].

4 ـ السرّ في اقتران الحروف المقطعة بذكر الكتاب العزيز في الغالب:

يجد المتأمل في تصريف الحروف المقطعة أوائل السُّوَر أنها مقترنة بذكر الكتاب العزيز في الغالب، إلا سورة (مريم)، و(العنكبوت)، و(الروم)، و(القلم)، وإن كان في كل منها معنى ما في هذه السُّوَر.

---

(1) آية 4.

(2) آية 33.

(3) ملاك التأويل 1/ 481 ـ 483.

ومن ثم فإن هذا الاقتران قد يكون بالإشارة إلى الكتاب، لعلو شأنه وارتفاع منزلته، وقد يكون بذكر بعض أوصاف هذا الكتاب.

قال محمد باجودة: «ومن لطيف ما لوحظ أن الحديث عن القرآن الكريم يجيء إثر هذه الفواتح غالباً»[1].

ولا شك أن في اقتران هذه الحروف بذكر الكتاب، وجهاً من وجوه إعجازه، وسراً من أسرار بلاغته، ودليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على أنه تنزيل الحكيم العليم، وأن هذا الكتاب قد فاق كل كتاب في بيانه وتشريعه وأحكامه، وأن في ذلك بياناً لعلو رتبته، ورفعة قدره وشأنه.

فسورة البقرة افتتحها - عزَّ وجلَّ - بقوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾.

قال ابن عرفة: «وعبر عنه باسم الإشارة دون ضمير الغيبة تنبيهاً على أنه كالمحسوس المشار إليه فهو دليل عظمته في النفوس»[2]. وقال صاحب «صفوة التفاسير»: «فأشار بالبعيد عن القريب للإيذان بعلو شأنه وبعد مرتبته في الكمال، فنزّل بُعد المرتبة منزلة البعد الحسي»[3].

وقال في افتتاح سورة آل عمران:

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾[4].

فجاءت هذه الحروف مصاحبة للتوحيد، وذكر الكتاب، ليدل على إعجازه، وأنه منزل من عند الله الحيّ الباقي الذي لا يموت، القائم على تدبير شؤون خلقه.

---

(1) تأملات في سورة البقرة 1/ 20.

(2) تفسير ابن عرفة 1/ 112.

(3) صفوة التفاسير 1/ 32.

(4) الآيتان 1، 3.

ومن ثم نستطيع القول: إن في اقتران هذه الحروف المقطعة، بالتوحيد، والكتاب براهين ساطعة وحججاً قاطعة على ألوهيته ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو أيضاً حجة وبرهان على نبوة محمد ـ ﷺ ـ الذي أنزلت عليه المعجزة الخالدة ـ والذي خاطبه ربه بقوله: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

«فعبر عن هذا القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس، إيذاناً بكمال تفوّقه على بقية الكتب السماوية، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب»[1].

وقال تعالى في افتتاح سورة الأعراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

وقال في سورة هود: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

وقال تعالى في سورة يوسف: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

وقال تعالى في سورة الرعد: ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

---

(1) صفوة التفاسير 1/ 185.

وقال تعالى في سورة السجدة: ﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقال تعالى في سورة يس: ﴿ يسٓ (١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

وقال تعالى في سورة ص: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾.

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿ حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿ حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

وقال تعالى في سورة ق: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾.

هكذا اقترنت هذه الحروف بذكر الكتاب ووصفه بصفات الإحكام والبيان، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، ولا يدخله شك، ولا يعتريه كذب؛ لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد نظمت آياته نظماً محكماً، وبُنيت بناءً متقناً، أفحم البلغاء وأعجز الحكماء، وهو المنظوم من أبدع الأساليب، وأرقى المعاني، الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن قدرة العباد.

ففي هذه الفواتح جميعاً إشارة إلى الإعجاز، وحسن البيان، فمن هذه الحروف وأمثالها تألفت آيات الكتاب المعجز في بيانه الساطع، وفي حججه وبراهينه الواضحة، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، ـ فسبحان ـ من أنزله بأبلغ معنى، وصرفه في أحسن أسلوب.

وخلاصة القول في جميعها، إن التصريف في هذه الفواتح ومصاحبتها لذكر القرآن المجيد إشارة إلى إعجازه الواضح الجليّ، الظاهر لمن تأمّله وفكّر فيه، وتدبّر معانيه، أنزله علاّم الغيوب، خالق الأرض ومبدع الكون.

قال ابن كثير: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسعٍ وعشرين سورة»[1].

النوع الثالث: استفتاح السُّوَر بالنداء

تنوع افتتاح السُّوَر بالنداء على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: نداء النّاس عامة:

وذلك في سورتين، ففي النساء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ وفي سورة الحج، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ وفي كليهما جاء الأمر بالتقوى، وهو طاعة الله واجتناب محارمه.

الوجه الثاني: نداء النبي:

وهو نوعان: نداء النبيّ بهذه الصيغة: «على سبيل التشريف والتكرمة؛ لأن لفظ النبوّة مشعر بالتعظيم والتكريم»[2].

قال أبو السعود: «في ندائه ـ ﷺ ـ بعنوان النبوّة تنويه بشأنه وتنبيه على سُمُوِّ مكانه»[3].

وقال القاسمي: «نداء النبي بالنبوّة، وفيه فائدة التفخيم والإكرام، والحثّ على الطاعة، والإذعان شكراً لنعمة النبوّة»[4].

ونداء مشتق من حالته التي هو عليها.

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/ 86.

(2) صفوة التفاسير 2/ 511.

(3) إرشاد العقل السليم 7/ 89.

(4) محاسن التأويل 1/ 255.

أما النوع الأول، فافتتح به سورة الأحزاب، إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وافتتح به أيضاً سورة الطلاق إذ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وافتتح به كذلك سورة التحريم، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

وأما النوع الثاني فافتتح به سورتي المزَّمِّل والمدَّثِّر، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

قال السهيلي: «فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سَمَّوْه باسم مشتق من حالته التي هو عليها»[1].

الوجه الثالث: نداء المؤمنين خاصة:

وقد ورد هذا النداء في ثلاث سُوَر، ففي سورة المائدة قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ وفي الحجرات قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفي سورة الممتحنة قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

وقد ذكر القاسمي أن لهذا النداء فائدتين: إحداهما الحثّ على ما يأمر به وينهى عنه بعد النداء، فإن الإيمان موجب للطاعة والإذعان، الفائدة الثانية، إكرام المؤمنين بندائهم بأشرف أوصافهم وأحبّها فيحثهم ذلك الإكرام على لزوم الطاعة والإذعان[2].

النوع الرابع: الاستفتاح بالجمل الخبرية:

ورد الاستفتاح بالجمل الخبرية في ثلاث وعشرين سورة، وهي الأنفال، إذ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

---

(1) التعريف والإعلام ص 355.

(2) محاسن التأويل 1/ 255.

والتوبة فقال تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ والنحل فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ والأنبياء فقال: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ والمؤمنون فقال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ والنور فقال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا ﴾ والزمر فقال: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ ومحمد فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ والفتح فقال: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ والقمر فقال: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ والرحمن فقال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ والمجادلة فقال تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ﴾ والحاقة فقال: ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ والمعارج فقال: ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾ ونوح فقال: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ والقيامة فقال: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ وعبس فقال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ والبلد فقال تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ والقدر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ والبيّنة: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ والقارعة: ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ والتكاثر: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ والكوثر: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾.

النوع الخامس: افتتاح السُّوَر بالقَسَم:

ورد الاستفتاح بالقسم في خمس عشرة سورة، وهي سورة: الصافات، إذ قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾ [1].

ففي هذا القَسَم إثبات للتوحيد[2] وذلك ما بيَّنه جواب القَسَم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾.

---

(1) الصافات 1 ـ 4.

(2) انظر التبيان في أقسام القرآن ص 22.

قال ابن عطية: «ثم بيّن - تعالى - المقسَم عليه أنه توحيده، وأنه واحد، أي متَّحد في جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر، ثم وصف تعالى نفسه بربو بيته جميع المخلوقات»[1].

وقال أبو السعود: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ جواب القَسَم، والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد، بما هو المألوف في كلامهم من التأكيد القَسَمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به، أعني قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[2] فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته»[3].

وافتتح به سورة الذاريات فقال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾.

وقد أقسم المولى - سبحانه وتعالى - في هذه الآية على الجزاء والوعد والوعيد، ومثلها في الطور والمرسلات[4] يدل عليه جواب القَسَم بعد هذه الآيات فقال في سورة الذاريات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾[5] وقال في الطور: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾[6] وقال في سورة المرسلات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾[7].

قال أبو السعود في توجيهه لجواب القَسَم في الذاريات «جواب للقَسَم وفي تخصيص الأمور المذكورة بالأقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسَم عليها من حيث إنها أمور مخالفة لمقتضى الطبيعة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود»[8].

---

(1) المحرر الوجيز 4/ 465 وأنظر البحر المحيط 7/ 337.

(2) الصافات 5.

(3) تفسيره 7/ 184.

(4) ينظر التبيان في أقسام القرآن ص 24.

(5) الآيتان 5، 6.

(6) الآيتان 7، 8.

(7) آية 7.

(8) تفسيره 8/ 136.

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾.

وقد أقسم المولى - جلَّ جلالُه - في هذه الآية على صدق الرسول - ﷺ - وصدق الوحي.

وذكر ابن عطية أنَّ القَسَم بهذا المخلوق تشريف له، وتنبيه منه ليكون معتبراً فيه حتى تولى العبرة إلى معرفة الله - تعالى -[1].

ومن ثَمَّ نستطيع القول: إن الله - عزَّ وجلَّ - أقسم في هذه السُّوَر على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أنَّ القرآن حقّ، وتارة على أن الرسول حقّ، وتارة على الجزاء، والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان[2].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴾ فقد أقسم في هذه الآية الكريمة بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذاك من أعظم آياته[3].

وأقسم - سبحانه بالبروج فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴾ التي تنزلها الشمس والقمر، وفسرت بالنجوم، أو نوع منها، وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته؛ لأنَّ جعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم[4].

وأقسم بالسماء والطارق فقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾.

«والمقصود أنه - سبحانه - أقسم بالسماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمَّى النجم طارقاً؛ لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق النّاس، أو أهله ليلاً»[5].

---

(1) المحرر الوجيز 5/ 195.

(2) التبيان في أقسام القرآن ص 22.

(3) نفسه ص 170.

(4) نفسه 119.

(5) التبيان في أقسام القرآن ص 131 وأنظر المحرر الوجيز 5/ 464.

وأقسم بالفجر، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ وبالشمس فقال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ وبالليل، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾.

فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئاً بعد شيء[1].

وبالضحى فقال: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ فقد أقسم بذلك «على إنعامه على رسوله ـ ﷺ ـ وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمِّن لتصديقه له، فهو قَسَم على صحة نُبُوَّته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قَسَم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار فتأمَّل مطابقة هذا القَسَم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربُّهُ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه»[2].

وأقسم بالتين، فقال تعالى:

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾[3].

«فأقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما، وهو أرض بيت المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً»[4].

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 81.

(2) التبيان في أقسام القرآن ص 100.

(3) التين 1 ـ 3.

(4) التبيان في أقسام القرآن ص 68. وقال السهيلي: »ومن سورة التين، أقسم الله بطورتينا، وطورزيتا، وهما جبلان عند بيت المقدس، وكذلك طور سينا، ومعنى سيناء بالعربية مبارك، والطور عند أكثر النّاس هو الجبل« (التعريف والإعلام ص 381). وانظر معجم البلدان 4/ 47 ومعجم ما استعجم 3/ 897.

وأقسم بالعاديات، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ وبالعصر فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾.

وقد أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة العصر على عاقبة الإنسان، وهو قَسَم على الجزاء[1].

النوع السادس: استفتاح السُّوَر بالشرط:

ورد الاستفتاح بالشرط في سبع سُوَر، وهي سورة الواقعة، إذ قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ والمنافقون فقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ والتكوير فقال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ والانفطار فقال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ والانشقاق فقال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ والزلزلة فقال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ والنصر فقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾.

النوع السابع: الاستفتاح بالأمر:

ورد الاستفتاح بالأمر في ست سُوَر ففي سورة الجن قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾ والعلق فقال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ وسورة الكافرون فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ والإخلاص فقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وسورة الفلق فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وسورة النّاس، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾.

النوع الثامن: الاستفتاح بالاستفهام:

ورد الاستفتاح بالاستفهام في ست سُوَر، ففي سورة الإنسان قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ وفي سورة النبأ قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وفي سورة الغاشية قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾ وفي سورة: الشرح قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ

(1) ينظر التبيان في أقسام القرآن ص 68.

لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وفي سورة الفيل، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ وفي سورة الماعون قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾.

النوع التاسع: الاستفتاح بالدعاء:

ورد الاستفتاح بالدعاء في ثلاث سُوَر، ففي سورة المطففين قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ وفي سورة الهُمَزَة فقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ وفي سورة المسد فقال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾.

النوع العاشر: الاستفتاح بالتعليل:

ورد الاستفتاح بالتعليل في موضع واحد، وهو قوله تعالى ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾.

تلك جملة تصريف فواتح السُّوَر، التي نوَّع القرآن الكريم بيانها بطرق شتى، غاية في الروعة والبيان، والدقة والإحكام.

وقد اختص كل واحد منها بما افتتح به، وأن غيره لا يحلّ محله، ولا يؤدي غرضه.

إنَّ هذا التصريف يكشف عن إعجاز القرآن الكريم، وتفنن أساليبه، وتنوُّع مقاصده.

المبحث الثاني
التصريف في خواتم السُّوَر

تحدثنا في المبحث السابق عن تصريف فواتح السُّوَر، وتنوُّعها، وحكمة تصريفها. وفي هذا المبحث ستتناول الدراسة تصريف خواتم السُّوَر وأسرار ذلك؛ إذ إنها مثل الفواتح في الحسن[1]؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النفس إلى ما يذكر بعد.

ومن أوضحه خاتمة سورة إبراهيم، وهو قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾[2] وخاتمة سورة الأحقاف، إذ قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[3] ولأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، ومواعظ وتحميد وتهليل، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك، كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة فاتحة الكتاب، إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببّة لغضب الله والضلال، ففصّل جملة ذلك بقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[4].

والمراد المؤمنون، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيّده ليتناول كلّ إنعام؛ لأن من أنعم عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم عليه بكلّ نعمة؛ لأن نعمة الإيمان مستتبعة لجميع النعم، ثم وصفهم بقوله:

﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[5].

---

(1) قرر صاحب «من أسرار البلاغة في القرآن» ص 211: أن الخواتم كلها في كل سورة على نهاية الحسن والرشاقة.

(2) آية 52.

(3) آية 35.

(4) آية 7.

(5) آية 7.

يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة وهي نعمةُ الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال المسببيّن عن معاصيه وتعدّي حدوده[1].

إنّ المتأمل في خواتم السُّوَر يجدها تنوعت تنوُّعاً عجيباً، بطرائق مختلفة من البيان، وعلى وجوه كثيرة من الإعجاز في سائر المواضع التي ختم فيها سُوَر الكتاب العزيز، وهذا التنوُّع البديع، والتصريف العجيب، ينبئ عن تفنن الاستدلال بالدلائل الواضحة، الدالة على عظمة القدرة الإلهية، التي أنزلت هذا الكتاب، وعلى هذه المعجزة الباقية التي أعجزت العرب البلغاء على الرغم من نزوله بلسانهم، فقد بهتوا أمام أسلوبه ومعانيه، وكل ما احتوى عليه من الروعة والبيان، والدقة والانسجام.

وقد أشار إلى هذا النوع من البيان القرآني، صاحب كتاب «الطراز» إذ قال: «وهذا تجده في القرآن - يعني الخواتم - على أحسن شيء وأعجبه، فإن الله - تعالى - ختم البقرة بالدعاء، والإيمان بالله - تعالى - والتصديق برسله، وختم سورة آل عمران بالتنبيه على النظر في المخلوقات، والأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة إلى غير ذلك من جميع السّوَر فإنك تجدها ملائمة، وتجد المطالع والمقاصد والخواتيم كلّها مسوقة على أعجب نظام وأكمله»[2].

وهكذا فقد ختم سورة الفاتحة بذكر إنعامه على أهل الإيمان خاصة، إذ فيه بيان الحجج التي يجب بها الاعتبار، وهو أن الإيمان هو المنجي من غضب الله، وقد تناسب هذا التصريف مع ختم سورة البقرة، وذلك قد يحصل التقصير من أهل الإيمان، وهم الّذين أنعم الله عليهم بالنعم الجليلة التي تستحق الشكر الدائم، فيرجعون إلى ربهم متضرعين لما بدَر منهم من تقصير في حقوق الخالق العظيم، متذكرين لأخطائهم ونسيانهم حقوق ربهم، فيطلبون المغفرة والرضوان، والذي يدل على ذلك قوله تعالى:

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 182.

(2) الطراز 3/ 366.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا ﴾[1].

و﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا ﴾ هم اليهود والنصارى، الّذين أشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[2].

وذكْرُ الفريقين أهلِ الإيمان وأهلِ الكفر في السورتين أوضح مناسبة في ارتباط سورة البقرة بسورة الفاتحة.

قال السهيلي في تأويل قوله تعالى: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ هم اليهود والنصارى جاء ذلك مفسراً عن النبي ـ ﷺ ـ في حديث عديّ بن حاتم وقصة إسلامه[3]، ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى في اليهود: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[4].

وقال في النصارى: ﴿ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[5]. إن المتأمل في خاتمة سورة آل عمران بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[6].

يجدها قد اشتملت على وجوه من التصريف، فأولها الأمر بالصبر على مشاق الطاعات وما يصيب المؤمن من الشدائد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ ﴾ وثانيها: مغالبة أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ وثالثها: ملازمة الثغور استعداداً للجهاد

---

(1) البقرة 286.

(2) الفاتحة 7.

(3) انظر كتاب السير والمغازي لابن إسحاق، ص287، فقد ذكر قصة إسلام عدي بن حاتم في حديث طويل ـ وانظر السيرة النبوية لابن هشام، 4/ 578 وما بعدها.

(4) البقرة 61.

(5) المائدة 77، وانظر التعريف والإعلام ص 54.

(6) آية 200.

والغزو في سبيل نصرة الدين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ ورابعها: الأمر بتقوى الله، للفوز بسعادة الدارين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

فتلك أربعة أوجه من التصريف تضمّنتها هذه الخاتمة، رتّب عليها الفلاح، بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

قال أبو حيان: «ختم الله هذه السورة بهذه الوصايا التي جمعت الظهور في الدنيا على العدو، والفوز بنعيم الآخرة»[1].

والمتأمل في خاتمة سورة النساء يجدها قد اشتملت على وجوه من التصريف متمثلة في الوصايا والفرائض التي ذكرها الله تعالى بقوله:

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ ﴾[2].

ثم أخذ يُفَصِّل هذه الفرائض بوجوه من البيان، غاية في الدقة والإحكام، ثم عقب هذا الختم بالغاية التي من أجلها بين هذه الوصايا والفرائض، وهو قوله تعالى:

﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

وقد ختمت سورة المائدة ببيان أنّ الجميع ملك الله ـ تعالى ـ وتحت قهره ومشيئته، وهو القادر على كل شيء.

فذلك تصريف بين فيه المولى ـ عزّ وجلّ ـ حججاً من مشاهدات السموات والأرض، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3].

وآخر بحجج من دلائل نفوس النّاس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فذلك تعبير بليغ، ودقة في البيان، يشمل كل ما في هذا الكون من مخلوقات تحت تصرُّفه ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(1) البحر المحيط 3/ 156.

(2) آية 176.

(3) المائدة 120.

قال الزركشي: «ولإرادة المبالغة في التعظيم اختيرت «ما» على «من» لإفادة العموم، فيتناول الأجناس كلها»[1].

وأما سورة الأنعام فقد اشتملت خاتمتها على وجوه من البيان في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[2].

فأولها: جعل الله النّاس خلائف يخلف بعضهم بعضاً، وهذه سنة في خلقه وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

وثانيها: جعل النّاس درجات في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف، وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ وثالثها: بيان الغاية من هذين الوجهين، وهو الاختبار فيما آتاهم الله من النعم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ورابعها: الجزاء الذي يناله كل من المطيع والعاصي، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾.

قال الزركشي: «وكالوعيد الذي ختمت به سورة الأنعام بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ ولذلك أورد على وجه المبالغة في وصف العقاب بالسرعة وتوكيد الرحمة بالكلام المفيد لتحقيق الوقوع، وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذي ختمت به سورة الأعراف»[3]. إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾[4].

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 183.

(2) آية 165.

(3) البرهان في علوم القرآن ص 1/ 183 ـ 184.

(4) آية 206.

تضمنت هذه الخاتمة وجوهاً من البيان، أولها: بيان أن الملائكة الأطهار لا يتكبرون عن عبادة ربهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ وثانيها: أن هؤلاء الملائكة يُنَزِّهون المولى - جلَّ جلالُه - عما لا يليق به، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾ وثالثها: أن الملائكة لا يسجدون إلا لله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾.

وأما سورة الأنفال فقد ختمت بالحض على الجهاد وصلَة الأرحام، فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[1].

وقد تضمنت هذه الخاتمة وجوهاً من التصريف، أولها: بيان القسم الثالث من المؤمنين، وهم المؤمنون الّذين هاجروا بعد الهجرة الأولى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾ وثانيها: بيان الحكم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ وثالثها: بيان أن أصحاب القربات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ ورابعها: بيان أن الله - تعالى - قد أحاط بكل شيء علماً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ وهو «ختم في غاية البراعة، إذ قد تضمنت أحكاماً كثيرة في مهمات الدين، وقوامه، وتفصيلاً لأحوال، فصفة العلم تجمع ذلك كله وتحيط بمبادئه وغاياته»[2].

وأما سورة التوبة فختمت بقوله تعالى:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3].

---

(1) آية 75.

(2) البحر المحيط 4/ 519.

(3) آية 129.

وقد تضمنت هذه الخاتمة وجوهاً من التصريف، أولها أمر النبي - ﷺ - إذا أعرض المشركون عن الإيمان أن يقول يكفيني ربي من كل شيء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ وثانيها: بيان أن الله هو المعبود بحق، إذا قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وثالثها: بيان أن الاعتماد لا يكون إلا على الله - سبحانه وتعالى - فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ورابعها: أن الله - سبحانه - هو المحيط بكل شيء وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وأما سورة يونس، فقد ختمت بتسلية النبي - ﷺ - ووعيد للمشركين، إذ قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(1).

وقد اشتملت هذه الخاتمة على وجوه من البيان، أولها: أمر النبي - ﷺ - باتباع الوحي، إذ قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ وثانيها: أمره بالصبر على ما يعتريه من مشاق التبليغ، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ وثالثها: بيان أن الله - سبحانه - خير من يفصل في الحكم، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وكذلك ختمت سورة هود بتسلية النبي - ﷺ - وتهديد الكفار بالانتقام بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(2).

إذْ تضمنت هذه الخاتمة أوجهاً من التصريف، أولها: بيان أن الله وحده هو الذي يعلم غيب السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وثانيها: أن كل أمر مرجعه إلى الله - تعالى - فقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وثالثها: الأمر بعبادة الله وحده، إذ قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ ورابعها: تفويض الأمر

(1) آية 109.

(2) آية 123.

إلى الله - تعالى - فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ وخامسها: الله - سبحانه - لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، فقال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وأما سورة يوسف، فقد ختمت بوصف القرآن الكريم، ومدحه، إذ قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(1).

وقد تضمنت هذه الخاتمة وجوهاً من التصريف، أولها: بيان أن القرآن الكريم من عند الله، إذ قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ وثانيها: أن القرآن مُصَدِّقٌ لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل، فقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وثالثها: أن القرآن فيه تبيان كل شيء أي كل ما يحتاجه النّاس من الحلال، ومعرفة الحرام، والشرائع والأحكام، إذ قال تعالى: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ورابعها: أن القرآن هداية من الضلال، ورحمة من العذاب، للمؤمنين خاصة، فقال تعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قال أبو حيان: «وخص المؤمنون بذلك؛ لأنهم هم الّذين ينتفعون بذلك»(2).

وأما سورة الرعد، فقد ختمت بالرد على من كَذَّبَ الرسول - ﷺ - بقوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾(3).

إذ تضمنت وجوهاً من التصريف، أولها: قول الكفار للنبي - ﷺ - بأنه ليس مرسلاً من عند الله، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ وثانيها:

---

(1) آية 111.

(2) البحر المحيط 5/ 349.

(3) الآية 43.

الأمر الموجه للرسول ـ ﷺ ـ بأن يقول: حسبي شهادة الله تعالى ـ بصدقي، بما أيّدني به من المعجزات فقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وثالثها: شهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب على صدق النبي ـ ﷺ ـ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأما سورة إبراهيم، فختمت «بمدح القرآن وذكر فائدته، والعلّة في أنه إله واحد»[1] إذ قال تعالى:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

وقد تضمنت هذه الخاتمة وجوهاً من البيان، أولها: الإشارة بهذا إلى القرآن الكريم وأنه بلاغ لجميع الخلق، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ وثانيها: الإنذار به والتخويف من عقاب الله، فقال تعالى: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ وثالثها: ليعلم الخلق جميعاً أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الإله الواحد، فقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ورابعها: ليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة، فقال تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قال أبو حيان: «وأسند التذكير والاتعاظ إلى من له لب؛ لأنهم هم الّذين يجدي فيهم التذكر»[3].

وأما سورة الحجر فختمت بوصية الرسول ـ ﷺ ـ بقوله تعالى:

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[4].

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 185.

(2) آية 52.

(3) البحر المحيط 5/ 429.

(4) آية 99.

وقد اشتملت على وجوه من البيان، أولها: وصيّة الرسول ـ ﷺ ـ بالعبادة، وهي وصية عامة له ولأمته، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ وثانيها: أن العبادة مستمرة لا تنقطع حتى الموت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

قال أبو السعود: «والمعنى دُمْ على العبادة ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظة»[1]. وأما سورة النحل فختمت بتسلية الرسول بطمأنينته ووعد الله سبحانه فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2].

وأما سورة الإسراء فقد ختمت بوجوه من الدلائل الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير، فقال تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[3]. أولها: تنزيه المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عن الولد، فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وثانيها: أن الله ـ سبحانه ـ ليس له شريك في ألوهيته، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ وثالثها: نفي الولد والنصير عن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ورابعها: الأمر بذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصفات العظمة والجلال، فقال تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

وأما سورة الكهف، فقد ختمت: «بتحضيض الرسول على البلاغ، والإقرار بالتنزيه والأمر بالتوحيد»[4] قال تعالى:

---

(1) إرشاد العقل السليم 5/ 93.

(2) آية 128.

(3) آية 111.

(4) البرهان في علوم القرآن 1/ 185.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1].

وقد تضمنت هذه الخاتمة أوجهاً من التصريف، أولها: الأمر الموجه للنبي - ﷺ - بإبلاغ النّاس بأنه بشر مثلهم، خصه الله - سبحانه وتعالى - بالوحي، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ وثانيها: التوحيد، وهو الإخبار بأن الله واحد أحد لا شريك له، قال تعالى: ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وثالثها: الإيمان بالبعث، فقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ ورابعها: الإخلاص لله بالعبادة، فقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ وخامسها: النهي والابتعاد عن الشرك بالله، فالعبادة لابد أن تكون خالصة لوجه الله، ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾.

تلك هي خواتم النصف الأول من القرآن الكريم، نكتفي بها، وهي على وجازتها فقد تضمنت في مجموعها وجوهاً من التصريف البليغ، والبيان البديع المعجز.

وخلاصة القول فيها: إن هذه الخواتم، تضمنت وجوهاً من البيان أجملها فيما يلي:

أولاً: فيما يتعلق بالتوحيد: فقد تضمنت أوجهاً من الاستدلال بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الحاجة إلى الولد، والولي والنصير، وذكره - تعالى - بصفات العظمة والجلال، وأن هذا الكون وما فيه، ملكه - سبحانه وتعالى - ومرجعهم ومصيرهم إليه - جل جلاله -.

ثانياً: فيما يتعلق بالرسول - ﷺ - والقرآن الكريم، فقد تضمنت هذه الخواتم الأمر باتباع الوحي، وأنّ القرآن الكريم من عند الله، مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية،

---

(1) آية 110.

وأنه هداية للناس من الضلال، ورحمة من العذاب، ومدح القرآن وذكر فائدته، ووصف الرسول -ﷺ- ومدحه وتسليته وتحضيضه على البلاغ.

ثالثاً: فيما يتعلق بالعباد: فقد تضمنت الأمر بالإيمان، وذكر النعمة التي أنعم الله بها على عباده، والأمر بالصبر على مشاق الطاعات، وذكر الوصايا والفرائض، والوعد والوعيد، والحض على الجهاد، وصلة الأرحام، وبيان أن النّاس درجات، والجزاء الذي يناله المطيع والعاصي.

الفصل الثالث
التصريف في بناء الآيات

ينوع القرآن الكريم مقاصده بناء على صلات وثيقة، تربط بين مقاصده المتنوعة برباط قوي، وسبب متلاحم، بحيث تتضافر المقاصد جميعاً في الوصول إلى الغاية المقصودة، وتحقيقها بأسلوب بديع، وتفنن دقيق، وذلك ببناء كل آية بل كل لفظ في محله الأخص به، الذي لا يصلح غيره أن يكون في موضعه.

ومما يؤكد ذلك البناء الدقيق بين الآيات، أن كل حرف وكل كلمة أو جملة في آية من الآيات والسُّوَر، له دلالته الخاصة به، ولا يفي به غيره عنه، فيتصرف كل لفظ في موضعه من الآية، بحيث يكون الأليَق في مكانه الذي لا يصلح غيره أن يكون بدلاً منه.

قال صاحب «المعجزة الكبرى»: «إذا إن الآيتين المتلاصقتين مع أنهما قد تكونان نزلتا في زمنين متباعدين، نجد أن كل واحدة [سقف][1] للأخرى، وهما صنْوان متلازمان، متآخيان، وذلك من سر الإعجاز ودلائله، إذ إنّ التناسق البياني بينَهما متصل، والمعاني متلاقية، وكل واحدة منهما تتمّم الأخرى في الموضوع في أحيان كثيرة، وفي التوجيه النفسي، والتوالد المعنوي بينهما، بحيث لا يتصور القارئ للقرآن الكريم، أو المستمع لترتيله والمدرك لنغمه، لا يحسب أن بينهما فارقاً زمنياً في النزول»[2].

ويجدر بنا قبل الدخول في دراسة هذا الفصل والتعمق فيه، أن نمهد له ببيان معنى الآية لغة واصطلاحاً، وأن نبين ترتيب الآيات هل هو توقيفي أو اصطلاحي؛ لأن ذلك في نظرنا أمر مهم يقتضي المقام ذكره وبخاصة أننا نتحدث عن بناء الآيات.

---

(1) في المعجزة الكبرى ص 159: صقف ـ بالصاد ـ والصواب ما أثبتناه ـ بالسين ـ.
(2) نفسه ص 159 ـ 160.

أولاً: معنى الآية لغةً واصطلاحاً:

أما الآية فلها في اللغة ثلاثة معان، أحدها: جماعة الحروف، فقال أبو عمرو الشيباني: تقول العرب: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم.

ثانيها: الآية العجب، تقول العرب: فلان آية في العلم والجمال، قال الشاعر:

آية في الجمال ليس له في الـ حسن شبْهٌ وماله من نظير

فكأنّ كل آية عجب في نظمها والمعاني المودعة فيها.

ثالثها: العلامة، تقول العرب: خربت دار فلان وما بقي فيها آية، أي علامة، فكأن كلّ أية في القرآن علامة ودلالة على نبوّة محمد ـ ﷺ ـ.

وأما في الاصطلاح، فقال الجعبري[1]: حدُّ الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة، وأصلها العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾[2]؛ لأنها علامة للفضل والصدق، أو الجماعة لأنها جماعة كلمة[3].

فقوله: ولو تقديراً فيه نظر؛ لأن الآية لا بدّ أن تكون ظاهرة معلومة بالتوقيف الثابت.

وقال غيره: الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها، ليس بينها شبْهُ لما سواها.

وقال بعضهم: الصحيح أنها تُعْلَمُ بتوقيف من الشارع، لا مجال للقياس فيه، كمعرفة السورة، فالآية طائفة من حروف من القرآن، عُلم بالتوقيف انقطاعها معنى عن الكلام الذي بعدها في أوائل القرآن، وعن الكلام الذي

---

(1) هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل أبو العباس، المشهور بالجعبريّ، من مؤلفاته: «الشاطبية» و«الرائية» توفي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة هـ (أنظر بغية الوعاة 1/ 420).

(2) البقرة 248.

(3) البرهان في علوم القرآن 1/ 266 ـ 267.

قبلها في آخر القرآن، وعن الكلام الذي قبلها والذي بعدها في غيرهما، غير مشتمل على مثل ذلك[1].

نستخلص مما سبق: أن الآية طائفة من القرآن مستقلة عمّا قبلها، وما بعدها، بينها وما قبلها وما بعدها رابط متين، وتناسق منطقي، بُنيت بناء محكماً، عُلم ترتيبها بالتوقيف.

وقد ذكر صاحب «التحرير والتنوير»، أن تسمية هذه الأجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن، واستدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3]، ثم قال: «وإنما سميت آية لأنها دليل على أنها موحىً بها من عند الله إلى النبي - ﷺ -»[4].

ثانياً: ترتيب الآيات:

قال ابن الزبير: «إن ترتيب الآيات في سُوَرِها وقع بتوقيفه - ﷺ - وأمْرِه من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[5].

وقال الزمخشري - فيما نقل عنه الزركشي -: «الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه»[6].

وقال الزركشي: «أما ترتيب الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها، فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها».

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 266 ـ 267.

(2) آل عمران 7.

(3) هود 1.

(4) التحرير والتنوير 1/ 74.

(5) البرهان في ترتيب سور القرآن ص 182.

(6) البرهان في علوم القرآن 1/ 267.

قال مكي[1] وغيره: ترتيب الآيات في السور، هو من النبي - ﷺ - ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا»[2].

وقال الألوسي: «فاعلم أن ترتيب آيه وسوره بتوقيف من النبي، أما ترتيب الآي فكونه توقيفياً مما لا شك فيه، حتى نقل جمع منهم الزركشي، وأبو جعفر بن الزبير الإجماع عليه من غير خلاف بين المسلمين، والنصوص متضافرة على ذلك، وما يدل بظاهره من الآثار على أنه اجتهادي معارض ساقط عن درجة الاعتبار»[3].

وقال السيوطي - فيما نقله عن القاضي أبي بكر بن العربي -: «وقال أيضاً، الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته، بعد نزوله، هو هذا الذي بين الدّفتين الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى - ورتّبه عليه رسوله من آي السُّوَر، لم يقدم من ذلك موخَّر ولا أخّر منه مقدَّم، وإن الأمة ضبطت على النبي - ﷺ - ترتيب آي كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها»[4].

وقال الأجهوري: «وأما ترتيب الآي فتوقيفي إجماعاً»[5].

يتبين لنا من العرض السابق أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي من غير خلاف بين المسلمين، لذلك بُنيت الآيات في سورها بناءً محكماً، وذلك ما ستبينه

---

(1) لعله مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار، أبو محمد القيسي، النحوي المقرئ، وكان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية - كثير التأليف، توفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (أنظر بغية الوعاة 2/ 298).

(2) البرهان في علوم القرآن 1/ 256. والمستدرك على الصحيحين 2/ 221.

(3) روح المعاني 1/ 26.

(4) الإتقان 1/ 175.

(5) تفسير أوائل سورة حم والكتاب المبين، للشيخ علي بن زين العابدين الأجهوري، مخطوط، محفوظ بمؤسسة علال الفاسي تحت رقم (ع 730) ص 4.

الدراسة اللاحقة، التي سأتحدث فيها عن التصريف في بناء الآيات، مقسماً ذلك إلى أربعة مباحث، الأول سيتناول: الدقة في بناء الآيات واختيار الكلمات المناسبة لمعانيها، وأما المبحث الثاني، فسيتناول دراسة العلاقة بين المفردات في الآية، وأما المبحث الثالث، فسيتناول تصريف الكلمة الواحدة في المعاني المختلفة، وأما المبحث الرابع فسأخصصه لدراسة بناء الكلمات المناسبة للمعنى المقصود.

المبحث الأول
الدقة في بناء الآيات واختيار الكلمات المناسبة لمعانيها

إنَّ الذي يقرأ القرآن بتدبّر وإمعان، يدرك أنّ ألفاظه تتصرف وفق بناء دقيق مع معانيه يصل حدّ الإعجاز، إذ تتصرف تصرفاً بديعاً في ذكر المقاصد المشتملة عليها الآيات في السورة، تُنبئ على حِكَمٍ وأسرارٍ بليغة؛ وأعني بذلك أنّ اللفظة القرآنية تتصرف في مكانها المناسب لها دون غيرها.

وقد بيّن السر الدقيق في بناء الألفاظ المناسبة لمعانيها ابن عطية إذ قال: «إذا ترتبت اللفظة من القرآن عُلم بإحاطته أيُّ لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيَّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبَشَرُ يعمُّهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أنّ بشراً لم يكن قط محيطاً.

فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة وكتاب الله لو نُزِعَتْ منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[1].

واتساقُ الحروف واتساقُ الآيات، واتساقُ السُّوَر كله عن رسول الله ـ ﷺ ـ فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه، أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل، ومما يدل عليه وجود حروف العطف المفيدة الاتصال[2].

ومن ثَمَّ فإنّ الدراسة في هذا المبحث ستنقسم إلى قسمين، الأول اختيار الكلمات في الآية والمناسبة بين معانيها، والثاني: بناء الآيات في المكي والمدني.

---

(1) المحرر الوجيز 1/ 52.

(2) التحرير والتنوير 1/ 79 ـ 80.

أولاً: اختيار الكلمات في الآية والمناسبة بين معانيها:

أشار غير واحد من علماء البلاغة وإعجاز القرآن إلى البناء الدقيق بين الآيات، فالجاحظ قد نبه إلى دقة التعبير القرآني واختيار ألفاظه فقال: «وقد يستخفّ الناسُ ألفاظاً ويستعملونها وغيرُها أحقّ بذلك منها، ألا ترى أن الله - تبارك وتعالى - لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدْقِع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلاّ في موضع الانتقام، والعامّة وأكثرُ الخاصّة لا يَفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقُل: الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً»[1].

وجعل الجرجاني هذه الدقة من مزايا إعجاز القرآن فقال: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائصُ صادفوها في سياق لفظه، وبدائعُ راعتهم في مبادئ آيِه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومَسَاق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبُرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعُشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانُها ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أنّ غيرها أصلح، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً»[2].

ونبه إلى أنّ التفاضل بين الكلمتين المفردتين لابد من النظر فيه إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حُرُوفُ هذه أخفَّ وامتزاجها أحسنَ[3].

(1) البيان والتبيين 1/ 20.

(2) دلائل الإعجاز ص 39.

(3) دلائل الإعجاز ص 44.

وهو يقصد بذلك إظهار صورة الكلمة القرآنية وبنائها الدقيق، الذي لا يوجد في كلام البشر؛ لأنه كلام رب العالمين.

وضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ثم قال: «فتجلّى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأنْ لَمْ يعرض لها الحُسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تَنَاتَجَ ما بينها، وحصل من مجموعها»[2].

ثم فصّل معاني كلمات هذه الآية كلمةً كلمةً، خلص منها إلى نتيجة لا مجال للشك فيها، وهي أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ، وأنّ الفضيلة وخلافَهَا، في ملائمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها[3].

وقد بيّن الخطابي أنه لا توجد ألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أغرب، من ألفاظ القرآن الكريم، فقال: «اعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّناً أصحّ المعاني، من توحيدٍ له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه...»[4].

(1) هود 44.

(2) دلائل الإعجاز ص 45.

(3) نفسه، ص 45 ـ 46.

(4) بيان إعجاز القرآن ص 27 ـ 28.

واستطرد منبهاً إلى الفروق الدقيقة بين المفردات والمترادفات قائلاً: «إنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب؛ كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة...»[1].

ثم أورد أمثلة على انتقاء اللفظة القرآنية، نذكر منها قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[2].

ثم عقب عليها فقال: «فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفَرْس دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يُعَبَّر عنه إلا بالأكل؛ على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع»[3].

وذكر الباقلاني جملة من خصائص النظم القرآني في بناء ألفاظه ومعانيه، فأورد قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[4].

ثم قال: «هل تعرفُ شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنىً، ولطيف هذه الحكاية، وتلاؤم هذا الكلام، وتشاكل هذا النظام؟ فكيف يهتدي إلى وضع هذه المعاني بشريّ، وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنْسيّ؟»[5].

---

(1) نفسه ص 29.

(2) يوسف 17.

(3) بيان إعجاز القرآن ص 41.

(4) غافر 7.

(5) إعجاز القرآن ص 211.

ثم قرر أنّ نظم القرآن لا يتفاوت في شيء ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى والفضل الأسنى»[1].

«وأنه عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها»[2].

فالقرآن الكريم يتأنق في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأنّ هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها وأنّ كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً، ولما بين الكلمات من فروق، ولما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر فقال تعالى:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[3].

فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ، ولكنه يرى التدقيق فيه، ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه، ولما كانت كلمة (راعنا) لها معنى في العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول - ﷺ - بها فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

(1) نفسه ص 213.
(2) نفسه ص 60 - 61.
(3) الحجرات 14.
(4) البقرة 104.

فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ، يؤدي به المعنى[1].

قال الأستاذ أبو زيد: «يبدو أن الكلمة القرآنية تختار بدقة متناهية، وتوضع في موضعها في الآية بإحكام تام يجمع لها بين مناسبة السياق القريب، ومناسبة السياق البعيد»[2].

ويقول محمد عبد الله دراز: «وتقرأ القطعة من القرآن الكريم فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام، والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدّ خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبراً ووقفت على معناه محدوداً، هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنىً جديد، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدّة كلها صحيح أو محتمل للصحة»[3].

وقد أشار الرافعي إلى أن القرآن الكريم انفرد عن كلام العرب بروح التركيب، وخرج بذلك مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوُت أو تبايُن، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ، والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحوها مما يدور عليه.

ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة، على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس؛ وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازاً[4].

---

(1) من بلاغة القرآن ص 57 ـ 58.

(2) التناسب البياني في القرآن ص 176.

(3) النبأ العظيم، ص 117.

(4) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 245.

ثم استطرد قائلاً: «وإنك لتحارُ إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللغة كلها أدلّ على غرضك، وأجمع لما في نفسك، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز.

وما عسى أن تقول في كلام ترى للفظ من الألفاظ فيه معنى، ثم ترى كأن لهذا المعنى في التركيب معنى آخر، هو الذي يفيض على النفس ويتصل بها، فكأنه كلام مداخلٌ وكأنّ اللغة فيه لغتان. . .

أيُّ معنى أعجب من أن تتجاذبَكَ معاني الوضع في ألفاظ القرآن فترى اللفظ قاراً في موضعه؛ لأنه الأليق في النظم، ثم لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية»[1].

ويرى صاحب «سورة الرحمن» أنّ الكلمة في القرآن الكريم تأتي خفيفة على السمع، رقيقة في الكلام، أنيقة في التركيب، لا يصيبها في التأليف القرآني ما يصيبُها في التأليف البشري، فكل حرف يُصيبُ موقعه في الكلمة، ويقعُ موضعه في اللفظ، ويكون من الذوق بمكان، ولا عجب في ذلك فهو وضْعُ الحكيم الخبير، وتنزيل من الرحمن الرحيم[2].

نستنتج مما سبق أن ألفاظ القرآن الكريم تُخْتار بعناية فائقة، وتُبنى بناء محكماً دقيقاً، وأن كل لفظ يؤدي معانيه في الآية التي هو منها أبلغ أداء، وغيره لا يحل محله، ولا يؤدي معانيه، وذلك ما سنراه فيما نعرضه من أمثلة، تبين دقة القرآن في تصريف ألفاظه ومعانيه.

إنّ ألفاظ القرآن الكريم تتصرف لتؤدي معانيها في دقة وإحكام، فهي تختلف من مقصد لآخر، فإذا كان القصد الوعيد والإنذار، كان اللفظ جزلاً، نحو قوله تعالى:

---

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 246 ـ 247.

(2) سورة الرحمن ص 31.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

وإذا كان القصد الوعد والبشارة مثلاً كان اللفظ رقيقاً، نحو قوله تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

فيلاحظ من هاتين الآيتين التفاوت بين المقامين، فكل واحد منهما اقتضى تعبيراً يلائم المعنى الذي جاء من أجله، وهكذا تتصرف كثير من ألفاظ القرآن الكريم، فيؤتى باللفظ الأدل على المعنى المقصود والأنسب.

وعلى الرغم مما بين الآيتين من تفاوت في التعبير لاختلاف المقاصد، فإن الآيتين في غاية البناء القوي، والتلاحم المتين، إذ إنّه لما بيّن في الآية الأولى الوعيد والإنذار الشديد لمن لم يؤمن بالقرآن الكريم، ناسبه أن يبشر المؤمنين، وذلك كما قال الألوسي ـ: «جرياً على السنة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب، والوعد بالوعيد، والتناسب بينهما باعتبار أنه بيان لحال الفريقين المتباينين، وكشف عن الوصفين المتقابلين»[3].

وهكذا فالقرآن دقيق في التمييز بين معاني الكلمات، فيُصَرِّف كل كلمة في مكانها الخاص بها دون غيرها، ونلاحظ ذلك في الفرق بين كلمتي: (يعلمون)، و(يشعرون) فلكل منهما دلالة خاصة في موضعها من الآية الواردة فيها، قال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(1) البقرة 24.
(2) نفسها 25.
(3) روح المعاني 1/ 200.
(4) البقرة 12 ـ 13.

وقد أوضح ابن الزبير الفرق الدقيق بين هذين اللفظين إذ قال: «فالشعور راجع إلى معنى الإحساس، مأخوذ من الشّعار، وهو ما يلي الجسد ويباشره، فيدركُ ويُحسُّ به من غير افتقار إلى فكر وتدبير، فيشترك في مثل هذا الإدراك العاقل، وغير العاقل، وأما العلم فلا يكون إلا عن فكر ونظر يُحصّله، وقد تكون مقدماته حسيّة وغير حسيّة، على قول المحققين من أرباب النظر، فهو ما يخصّ العقلاء، ولما كان الإيمان وهو التصديق لا يحصل إلا عن نظر وفكر، يحصل العلم بالمصدّق به، ولا يكون النظر والفكر إلا من عاقل يعرف الصواب من الخطأ، وقد نفى المنافقون ذلك عن المؤمنين بنسبتهم إياهم إلى السفه، وهو خفّة الحلم وعدم التثبّت في الأمور، فردّ الله ذلك عليهم، ونفى عنهم العلم، فنفى عنهم ما نفوه عن غيرهم، وَوُصِفوا بما نسبوه لغيرهم.

ولما كان الفساد في الأرض وَرَوْمُ مخادعة من لا ينخدع مستحيلاً لا يخفى فساده على أحد، ويُوصل إلى ذلك بأول إدراك، ناسبه أيضاً نفي الشعور، ولم يكن ليناسبه نفي العلم، فجاء كلٌّ على ما يناسب ويلائم»[1].

وقال أبو السعود مفصلاً الفرق بين اللفظتين في الآية الأولى: «للإيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة، لكن لا حس لهم حتى يدركوه».

وقال في الآية الثانية: «وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون، لما أنه أكثر طباقاً لذكر السَّفَه الذي هو فنٌّ من فنون الجهل، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل، منوط بالتمييز بين الحق والباطل، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسداً فأمر بديهي يقف عليه من له شعور، ولذلك فصلت الآية الكريمة بلا يشعرون»[2].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 33 ـ 34.

(2) إرشاد العقل السليم 1/ 44 ـ 46.

نستخلص مما سبق أن بناء الآيات في السورة الواحدة من أهم وأدق الخصائص التي تميز بها القرآن الكريم في بيان مقاصده المختلفة التي يتصرف إليها بطرائق شتى وأساليب مختلفة، إذ يتنوع هذا البناء بحيث يجعل من السورة الواحدة ترابطاً قوياً في آياتها ودلالاتها المعنوية واللفظية؛ لأن القرآن الكريم يهتم اهتماماً كبيراً ببناء ألفاظه المعبرة عن معانيه الدقيقة، إذ يُصّرف اللفظ المناسب في موقعه الذي يؤدي معانيه أبلغ أداء، وهذا الاهتمام لا يقتصر على المفردات وحدها، بل يتعداها إلى مقاصدها المتنوعة، فيصرِّفها تصريفاً يناسب المقام والمناسبة لتأخذ العبارة منفذها إلى النفس، ولتحقق المعاني مقاصدها المرادة منها بدقة متناهية، وذلك ما سنراه في الأمثلة الآتية، التي سنقتصر فيها على ذكر بعض الآيات، على سبيل المثال لا الحصر؛ لأن القرآن الكريم كله في غاية الدقة، التي ترجع إلى الدقة في بناء الآيات وارتباط معانيها مع مفرداتها.

وسنحاول قدر المستطاع أن نبين في هذه الدراسة دقة القرآن في بناء الآيات، واختيار الكلمات المناسبة لمعانيها، وذلك من خلال تحليل بعض الآيات، لنتبين منها ذلك التصريف العجيب، والبناء الدقيق، قال تعالى:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(1).

فقد اختيرت كلمة ﴿ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ دون غيرها، مما هو في معناها لتناسب جوّ العذاب الذي يناله الكفار، ولتصوره أبلغ تصوير.

ومثلها كلمة (يصطرخون) في قوله تعالى:

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾(2).

---

(1) البقرة 96.

(2) فاطر 37.

بُنيت هذه الكلمة في موقعها المناسب لها في الآية، دالة على شدة العذاب الذي يناله الكفار، بدليل قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾[1].

ذكر شوقي ضيف أن كلمة (يصطرخون) أبلغ من (يصرخون) للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخاً عنيفاً منكراً خارجاً عن حد الاعتدال، وهذا التصوير لهذه الحالة لا يكون لو لم يُزَدْ حرف الطاء في الكلمة[2].

ومما جاء دالاً على عذاب الكفار وجزائهم قوله تعالى:

﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[3].

فآثر لفظ (فاعتلوه) على غيره من الألفاظ التي في معناه؛ ليؤدي هذا اللفظ معناه الدقيق، الدال على شدة الجزاء وسوء المصير.

وجاءت كلمة (أهل) في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾[4].

في محلها المناسب لها، دون كلمة (أصحاب)؛ لأنها أولى بهذا المكان، وذلك لما تدل عليه من الاستقرار الدائم، والقرب من النّار؛ لأن أهل الرجل أقرب إليه من أصحابه.

وقد اختيرت كلمة (الرفث) في قوله تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ

(1) فاطر 36.

(2) سورة الرحمن ص 50.

(3) الدخان 47 ـ 49.

(4) سورة ص 64.

بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾[1].

دون سائر الألفاظ، لتؤدي معناها أبلغ أداء.

وهي كناية عن الجماع، فكنى بها عن ذلك، ولم يذكر في محلها اللفظ المقصود منها، وذلك بقصد الستر والإخفاء.

وحقّق القول في هذه المسألة الراغب فقال: «الرّفثْ: كلام متضمّن ما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، وجُعل كناية عن الجماع، تنبيهاً على جواز دُعائهن إلى ذلك، ومكالمتهنّ فيه، وعُدِّي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء، وقوله:

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ ﴾[2].

يحتمل أن يكون نهياً عن الحديث في ذلك، إذ هو من دواعيه والأوّل أصحّ»[3].

وفي الآية أيضاً: كنى عن الجماع باللباس، فصور تلك العلاقة القوية بين الزوجين باللباس الساتر للإنسان، فذلك الزواج يجب أن يستر كلا الزوجين، ويمنعهما من الفواحش، قال الراغب: «وجُعِلَ اللّباسُ لكلّ ما يُغطى من الإنسان عن قبيح، فجُعل الزّوج لزوجه لباساً من حيث إنه يمنعها ويصدُها عن تعاطي قبيح»[4].

وفي موضع آخر آثر كلمة (حرث) دون غيرها في قوله تعالى:

﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[5].

---

(1) البقرة: 187.

(2) البقرة 197.

(3) المفردات في غريب القرآن ص 199 (مادة رفث).

(4) نفسه، ص 447. مادة: لبس.

(5) البقرة 223.

فكنى عن الجماع بالحرث، وقد جاءت هذه الكناية في سياق بيان أحكام الحيض والنهي عن قرب النساء في المحيض، قال ابن عطية: «تشبيه لأنهنّ مزارع الذرية، فلفظة الحرث تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاص، إذ هو المزرع»[1].

وقال الزمخشري: «شبهت بالمحارث تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ تمثيل: أي فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة... وهذه من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها، ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم»[2].

ورأي ابن عطية هو الذي نراه ونميل إليه، والتعبير بلفظ الحرث لزيادة البيان وتنويعه، وهو أبلغ مما لو عبر بلفظ الجماع، أو غيره مما يدل على ذلك.

وأما قوله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

فنجد أن اللفظين (سيطوَّقون) و(ميراث) بُنيا في مكانهما من الآية بناءً دقيقاً، يصوران معانيهما الدقيقة أبلغ تصوير، فالأُولى الأبلغ في محلها في تصوير الجزاء الذي سيناله هؤلاء، دون سائر الألفاظ الدالة على هذا المعنى.

وأما الثانية فعبرت بـ (ميراث) بدلاً من (ملك) دلالة على أن هذا المال الذي في أيدي مالكية الآن، ويبخلون به، ليس ملكاً حقيقياً لهم؛ لأنه سيصبح ميراثاً وملكاً لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(1) المحرر الوجيز 1/ 299.

(2) الكشاف 1/ 362.

(3) آل عمران 180.

قال أبو حيان: «فيه قولان، أحدهما: أنه - تعالى - له ملك جميع ما يقع من إرث في السموات والأرض، وأنه هو المالك له حقيقة، فكل ما يحصل لمخلوقاته مما ينسب إليهم ملكه، هو مالكه حقيقية، وإذا كان هو مالكه فما لكم تبخلون بشيء أنتم ممتَّعون به، لا مالكوه حقيقة، كما قال تعالى:

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(1).

والقول الثاني: أنّه أخبر بفناء العالم، وأن جميع ما يخلفونه فهو وارثه، وهو خطاب على ما يفهم البشر، دل على فناء الجميع، وأنه لا يبقى مالك إلا الله، وإن كان ملكه على كل شيء لم يزل»(2).

وقد بُني اللفظ (ليبطئنّ) في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾(3).

في موضعه من الآية مصوراً حال الذين يريدون التخلف عن الجهاد، أبلغ تصوير.

يرى سيد قطب أن هذه الكلمة مختارة في هذه الآية، بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شداً وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها، وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة.

وكذلك يشي تركيب الجملة: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بأن هؤلاء المبطّئين - وهم معدودون من المسلمين: ﴿مِنكُمْ﴾، يزاولون عملية التبطئة كاملة ويصرّون عليها إصراراً، ويجتهدون فيها اجتهاداً، وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في

---

(1) الحديد 7.

(2) البحر المحيط 3/ 134.

(3) النساء 72.

الجملة! مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة، وشدة أثرها في الصف المسلم؛ وشدة ما يلقاه منها[1].

ومثله اختيار لفظ (اثّاقلتم) في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

إذ يصور حال الذين يريدون التخلُّف عن الجهاد في سبيل الله، كأنّهم مشدودون إلى الأرض، وذلك ليناسب الحالة التي عليها المخاطبون فبُني في الآية بناءً دقيقاً محكماً.

ونجد أن كلمة (كبرت) في قوله تعالى:

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[3].

مناسبة لفظاعة ما قالوا من أنّ الله اتخذ ولداً فقال تعالى:

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[4].

رداً على هذا الادعاء الذي لا حجة لهم عليه.

وقد وردت كلمة (هامدة) في سياق قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[5].

ووردت كلمة (خاشعة) في سياق قوله تعالى:

---

(1) في ظلال القرآن 2/ 705.

(2) التوبة 38.

(3) الكهف 5.

(4) نفسها 4.

(5) الحج 5.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

وهكذا فقد وردت كل كلمة في سياقها المناسب لتدل على معناها دلالةً بينةً، وسرُّ هذا التصريف قد بيُّنه صاحب «التصوير الفني في القرآن» بقوله: «وعند التأمل السريع في هذين السياقين، يتبين وجه التناسق في (هامدة) و(خاشعة) أن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج؛ فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامدة» ثم تهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج، وأنّ الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود؛ يتسق معه تصوير الأرض بأنها «خاشعة» فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت»[2].

وقد آثر كلمة (مسكوب) في قوله تعالى:

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾[3].

على كلمة (غزير)؛ لأن ذلك ـ كما قيل ـ: «أدق في بيان غزارته، فهو ماء لا يقتصد في استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاده، بل ربما أوحت تلك الكلمة بمعنى الإسراف في هذا الاستخدام»[4].

وقد اختيرت كلمة (أعجاز) في قوله تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[5].

بدقة لحكمة جليلة بيَّنها صاحب «تأملات في سورة الحاقة» فقال: «فلو تأملنا مشتقات المادة الأصلية لهذه اللفظة لتبين أنها تدور في مجموعها حول العجز بمعنى الضعف وبمعنى العجز نقيض الحزم. . .

---

(1) فصلت 39.

(2) التصوير الفني في القرآن الكريم ص 97.

(3) الواقعة 27 ـ 31.

(4) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ص 29.

(5) الحاقة 7.

ولا شك أن اختيار الآية الكريمة لفظة الأعجاز بالذات له مغزاه البعيد في تعميق حقيقة الذل والهوان اللذين كانت فيهما عاد، وبما أن القول في الآية الكريمة (أعجاز نخل) بمعنى جذوع نخل، أو أصول نخل، فإن اختيار لفظة أعجاز قادر على الإفهام بأن هذه الأصول خاصة بنوع من النخل طال العهد بموته الطبيعي وسقوطه.

فليست تلك الأصول أجذاعاً لنخل حَيّ مورقٍ أساساً، شُذِّب[1]، وهُذِّب كي ينتفع بتلك الأصول القوية لقرب عهدها بالحياة.

إنّ شيئاً من ذلك لا يراد، إنما المراد أن النخل مات؛ لانقطاع أسبابه بالحياة، وبسبب الفترة الطويلة على موته لم يبق منه سوى أعجازه، وهذه الأعجاز لاختلاف الليل والنهار وتقلب الأجواء، لم تعد واحدة منها قائمة على أصولها»[2].

ومن تصريف القول الدال على البناء الدقيق بين المفردات في الآية، اختيار كلمة (جاء) الدالة على المعنى القريب في قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾[3].

بدلاً من كلمة (أتى) صنوها. وذلك لما بين الكلمتين من فرق دقيق في المعنى يناسب السياق الذي جاء فيه، ويحقق المقاصد المرادة منها.

وقد نبه إلى هذه الدقائق صاحب «تأملات في سورة الحاقة» إذ قال: «إن جملة (جاء) لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب، سواء أكان مكانياً أم زمانياً، أم نفسياً، وإنّ جملة (أتى) لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على البعد، سواء أكان مكانياً أم زمانياً، أم نفسياً»[4].

وقد ترد هاتان الكلمتان منفردتين ـ كما في الآية السابقة ـ وقد تقترنان معاً في سياق واحد، كما في قوله تعالى:

---

(1) شذّب العود: ألقي ما عليه من الأغصان حتى يَبْدُوَ، شبه بالشذب، وهو ما يُلقَى من النخلة من الكرانيف وغير ذلك (اللسان 1/ 446، مادة: شذب).

(2) تأملات في سورة الحاقة ص 44 ـ 45.

(3) الحاقة 9.

(4) تأملات في سورة الحاقة ص 49.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

فالتعبير بأتى يدل على بُعد العهد بالأذى، من قبل أن يرسل الله إليهم موسى - عليه السلام - والتعبير بقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فيه دلالة على قرب الأذى واستمراره، وأنه مختلف عن الأذى الأول، ويعنون بذلك وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدّة من الإخافة لهم[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[3].

فعبر بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ دلالة على بعد هذه الأمثال عن الصدق؛ لأنها لا تتفق مع هذا الدين، ومكانة الرسول - ﷺ - العظيمة، لذلك قابله باللفظ الدال على القرب، وهو قوله تعالى: ﴿جِئْنَٰكَ﴾ دلالة على اتصال الوحي القريب الذي لا ينفك عنه لحظة، المتضمن للحق والصدق، ويلاحظ في هذا التصريف ترتيباً زمنياً، إذ إنهم يأتون بالأمثال والقرآن يجيء بالحق والصدق، مدحضاً شبهاتهم وأكاذيبهم.

وقال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[4].

فاختيار كلمة (أتت) موافقة في مكانها؛ لأن أول شيء رآه قوم مريم. عليها السلام - هو الإتيان بعيسى. عليه السلام - حين جاءت حاملة إيّاه بين يديها، فالإتيان سابق في الزمان، لذلك اقتضى الأمر التعبير بهذا اللفظ أولاً، ثم حكى القرآن قولهم

---

(1) الأعراف 128 - 129.

(2) البحر المحيط 4/ 368.

(3) الفرقان 33.

(4) مريم 27.

الذي هو مرتب على رؤيتهم لما جاءت به مريم إذ قالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ دلالة على أن المجيء قريب عهد بهم؛ لأن قولهم كان قريباً من رؤيتهم، وأنه لم يحصل قبل ذلك فاعتبروه منكراً.

وقد صرف القرآن الكريم أسماء يوم القيامة، فجاءت مناسبة لبنائها في الآية التي هي منها، ولها دلالة قوية ترجع إلى مقاصد السور والآيات، فمن ذلك لفظ (الطامّة) و(الصّاخّة) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[2].

وسرُّ بناء كل لفظ من هذين اللفظين في موضعه قد بينه السيوطي بقوله: «إن اسمَ الطامّة أرهب وأنبأ بأهوال القيامة؛ لأنها من قولهم: طمّ السيلُ، إذا علا وغلب، وأما الصاخّة فالصيحة الشديدة، من قولهم صخّ بأذنيه مثل أصاخ، فاستُعير على أسماء القيامة مجازاً؛ لأن الناس يُصيخون لها، فلما كانت الطامّة أبلغ في الإشارة إلى أهوالها خَصّ بها أبلغَ السورتين في التخويف والإنذار.

وعلى ذلك بُنيت سورة «النازعات» ألا ترى قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾[3] ووصف الطامّة الكبرى، وما أتْبع به بَعْدُ، وابتداء السورة وختامها قَبْلها تخويف وترهيب، فناسبها أشدّ العبارتين موقعاً، وأرهبها، وأما سورة عبس فلم تُبْن على ذلك الغرض، وإنما بُنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وذلك مشهور، ثم ورد قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ عقب التذكير بقوله: (كلاً إنها تذكرة) والتذكير للاعتبار...

فسورة النازعات على الجملة أشدُّ في التخويف والترهيب فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة»[4].

---

(1) النازعات 34.

(2) عبس 33.

(3) النازعات 6 ـ 7.

(4) معترك الأقران في إعجاز القرآن 3/ 120 ـ 121.

ونظر سيد قطب إلى أن (الصاخّة) لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقه للهواء شقاً حتى يصل إلى الأذن صاخّاً مُلحّاً، و(الطّامّة) لفظة ذات دويّ وطنين، تخيل إليك بجرسها المدوّي أنها تطُمُّ وتغُمُّ، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه[1].

نستنتج مما سبق أن هناك اختلافاً بين التوجيهين، فالسيوطي نظر إلى بناء كلٍّ من هذين اللفظين وموقعه الدقيق من الآية التي هو فيها. وسيد قطب نظر إليهما من الناحية الفنية.

ويبدو أن ما ذهب إليه السيوطي هو المتفق مع غرضنا، المراد منه توضيح البناء الدقيق للمفردات في الآية، وبناء الآية في السورة بناءً دقيقاً محكماً، يحقق مقاصد القرآن في أعلى درجات البلاغة والفصاحة.

نستخلص من العرض السابق أن القرآن الكريم يُصرِّف ألفاظه تصريفاً عجيباً، لتدل على معانيه بدقة متناهية، ويبنيها بناءً محكماً، ولا غرو في ذلك فهو تنزيل العزيز الحكيم، كما يصرِّف اللفظ المناسب في موقعه من الآية؛ ليؤدي دلالاته بأبلغ أسلوب، فيأتي باللفظ المعبِّر والمصوِّر لمعانيه تصويراً دقيقاً، وهو يراعي في تصريفه الفروق الدقيقة بين المفردات؛ لأن لكل منها دلالاته التي يؤديها أبلغ أداء، مراعياً في ذلك روح السورة ومناسبتها ومقاصدها، فلكلٍّ مقصد ألفاظه التي تحقق مراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك المقصد في جلاء ووضوح، فلا تعقيد في ألفاظه، ولا تنافر بينها، بل تماسك متين، وحجة وبرهان.

وقد ذكر الباقلاني: أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا[2].

---

(1) التصوير الفني ص 77 ـ 78.

(2) إعجاز القرآن ص 61 ـ 62.

ثانياً: بناء الآيات في المكي والمدني:

تكلمنا في الفقرة السابقة عن دقة القرآن في بناء الآيات واختيار الكلمات المناسبة لمعانيها، وقد بينا في هذه الدراسة أن القرآن الكريم يصرِّف الألفاظ الدالة على معانيها وذلك ببنائها بناءً دقيقاً محكماً، مراعياً المناسبات ومقاصد السُّوَر والآيات.

وسنحاول في هذه الفقرة أن نبيِّن قدر المستطاع بناء الآيات في المكي والمدني.

يختلف بناء الآيات في المكي والمدني تبعاً لمقاصدهما، ومع ذلك فكل منهما في أعلى درجات البيان، ويؤكد ذلك الباقلاني، فيقول: «وكذلك فقد تأمّلنا ما يتصرَّف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدّ واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة»[1].

فالمكي يتميز بقصر الآيات؛ لأنه يخاطب أهل الفصاحة، فناسبهم الإيجار؛ ولأن القصر يناسب الزجر، والتخويف والتبشير، ويتميّز أيضاً بقوة الأسلوب وشدّته؛ لأنه يخاطب قساة القلوب المشركين. ويتميز بناء المدني بطول الآيات، ورخاوة الأسلوب؛ لأنه يتضمن في الغالب أحكاماً شرعية، وليس هناك قاعدة مُطَّردة تحكم طول الآيات وقصرها في المكي والمدني على السواء.

فتنُّوع الآيات من الطول إلى القصر حسب مقاصد السُّوَر والآيات، قال محمد بن عاشور: «وآيات القرآن متفاوتة في مقادير كلماتها فبعضها أطول من بعض، وتفاوُتُ الآيات في الطول تابع لما يقتضيه مقام البلاغة من مواقع كلمات الفواصل على حسب ما قبلها من الكلام»[2].

---

(1) إعجاز القرآن ص 62.

(2) التحرير والتنوير 1/ 74.

ومن الجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام أن محمد الطاهر بن عاشور جعل أطول آية قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ في سورة الفتح[1]. وقوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ في سورة البقرة[2] ودونهما قوله: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[3]. في سورة النساء[4].

فما قاله محمد بن عاشور في هذه المسألة فيه نظر، إذ إن آية سورة الفتح التي اعتبرها أطول آية، هناك ما هو أطول منها في هذه السورة نفسها، وهو قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[5].

وخلاصة القول في هذه المسألة إنّ أطول آية هي آية المداينة، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[6] ويليها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾[7] ثم قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ ﴾[8] ثم قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾[9] ثم قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

(1) آية 25 ـ 26.
(2) آية 102.
(3) آية 23.
(4) التحرير والتنوير 1/ 74.
(5) آية 29.
(6) البقرة 282.
(7) النساء 12.
(8) البقرة 102.
(9) نفسها 187.

حَكِيمًا ﴾[1] ثم قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[2]. ثم قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].

وأما أقصر آية فقوله تعالى: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ في سورة الرحمن[4].

يقول صاحب «المعجزة الكبرى»: هناك آيات تطول وآيات تقصر، مع أن الإيجاز والإطناب يكون في طول الآيات وقصرها، ففي أثناء الآية الطويلة تقرأ قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[5].

وهي كلمات ذات معانٍ غزيرة، فيها حكمة شرع الله وغايته، وتكليفاته، وأنها تتجه إلى اليسر ولا تتجه إلى العسر، وأكثر الآيات الطول تكون في الأحكام التكليفية التي تحتاج إلى التوضيح، ولا يكتفى فيها بالإجمال بدل التفصيل، كآية المحرمات، في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ ﴾ ومثل ذلك آية المداينة، وهي أطول آية في القرآن، وقريب منها في الطول آية المحرمات، ومثلهما آيات المواريث، ومن الآيات الطُّوَل المبينة للأحكام التكليفية آيات الصوم، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾[6].

وترى أن الآيات الأخيرة فيها، بيان جزء من أحكام الصوم، ولا تُعَدُّ قصيرة، بل طويلة، ومن الآيات الطويلة بعض آيات القصص، وليس المراد

---

(1) النساء 11.

(2) البقرة 61.

(3) نفسها 259.

(4) آية 64.

(5) البقرة 185.

(6) نفسها 185.

بالطويل أن تكون الألفاظ أكثر من المعاني، بل المراد ألاّ يتجاوز حد الإطناب البليغ المستحسن، فالمعاني مع الألفاظ متكافئة[1].

ومن هنا فإن الدراسة ستتناول بناء الآيات في المكي والمدني وما يتميز به بناء الآيات في كل منهما.

1. بناء المكي:

القرآن المكي - كما قلنا - آياته قصيرة، تبيِّن الأركان الأساسية للعقيدة الإسلامية الصحيحة، داعية إلى توحيد الله وعبادته، مُدلِّلةً على ذلك بدلائل الأنفس والآفاق، وداعية إلى الإيمان بالرسل والملائكة والكتب السابقة، وبالبعث والحساب والجزاء، وأثبتت ذلك كله بأدلة كونية وبراهين عقلية، وتفنيد منطق المشركين وتسفيه أحلامهم وعبادتهم الأصنام، وتنزيه المولى - سبحانه وتعالى - عن الصاحبة والولد - تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً - وتقصُّ علينا قصص السابقين بصور شتَّى وأساليب مختلفة، فذلك هو الطابع الغالب في بناء الآيات المكية، ونكتفي في هذا المقام بعرض بعض النماذج من السُّوَر المكية، تبين طريقة بناء الآيات ومقاصد تصريفها.

فمن ذلك سورة الأنعام المكية التي تضمنت المقاصد الكبرى التي جاءت في تضاعيفها، وصُرِّفت في عبارات مختلفة وأساليب متعددة، والتي يمكن حصرها في ثلاثة مقاصد أساسية، هي التوحيد وعبادة الله الواحد القهار، والوحي والرسالة، والبعث والجزاء.

قال الشاطبي: «فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنَزل من القرآن بمكة في عامة الأمر، وما ظهر ببادي الأمر خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، وذكر الجنة والنّار، ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك»[2].

---

(1) المعجزة الكبرى ص 333 - 334.

(2) الموافقات 3/ 416.

وقد يصرّف هذه المعاني مجتمعة في سياق واحد كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(1).

ففي هذه الآيات ذكَرَ التوحيد، والبعث والجزاء، والرسالة والوحي، مدلّلاً عليها بدلائل من الأنفس والآفاق، وفيها أيضاً، التذكير بقصص الأولين وهلاكهم، منوِّعاً الأساليب والروابط، فمرة يكون الرابط بثُمَّ التي تفيد الترتيب مع التراخي، ومرة يكون الرابط الضمير «هو» وأحياناً يعطف بالواو، وأحياناً أخرى يكون الرابط (الفاء) التي تفيد الترتيب مع التعقيب، وكما نوَّع الروابط نوَّع كذلك الأسلوب من الإخبار إلى الاستفهام. يقول صاحب «الفاصلة القرآنية»:

«وفي أسلوب هذه السورة ما يلفت النظر، فقد عرضت ما عرضت من قضايا في أسلوبين، لا تكاد تجدهما بتلك الكثرة في غيرها من السُّوَر، فالأول: فهي تورد

(1) الأنعام 1 ـ 12.

الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرّده بالمُلك والتصرُّف، والقدرة والقهر، في صورة الأمر المسلَّم به الذي لا يقبل الإنكار أو الجدل، وتضع لذلك ضمير الغائب، وتجري عليه أفعال وآثار قدرته البارزة للعيان، التي لا يماري قلبٌ سليمٌ في أنه مصدرها ومفيضُها وصاحب الشأن فيها.

أما الثاني: فهو أسلوب التلقين، تلقينُ الحجة، والأمر، يقذفُها في وجه الخصم حتى تأخذَ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، وتحيط به في جميع جوانبه، فلا يستطيع التفلتَ منها، ولا يجد بُدّاً من الاستسلام لها»[1].

وقد صرَّف هذه المعاني متفرقةً في هذه السورة، فمن تصريف القول في قضية الألوهية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقرن التوحيد بالرسالة والوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

ومن تصريف القول في قضية الألوهية في هذه السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4].

(1) الفاصلة القرآنية ص 94 ـ 95.

(2) الأنعام 14.

(3) نفسها 19.

(4) نفسها 56.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

ومما تصرَّف في قضية الرسالة والوحي، قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[4].

ومما تصرَّف في قضية البعث والجزاء قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[7].

ويتصرف القول في المكي منوِّعاً القصص، بطرائق شتَّى وأساليب متعددة، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف المكية: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[8].

---

(1) الأنعام 162 ـ 163.

(2) نفسها 50.

(3) نفسها 106.

(4) نفسها 124.

(5) نفسها 32.

(6) نفسها 73.

(7) نفسها 164.

(8) الأعراف 59 ـ 62.

وقد صرَّف القول في قضايا العقيدة مجتمعة في سياق واحد في سورة يونس المكية فقال تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾(1).

ففي هذه الآيات إثبات الوحي والرسالة، وإثبات الربوبية والأمر بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده، وإثبات البعث والجزاء، مدلّلاً على ذلك بدلائل الآفاق في بناء عجيب، وتناسق قوي.

ويتصرف القول في المكي منزِّهاً المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بصيغ التنزيه المتعددة، التي سيأتي بيان تصريفها في محلِّه ـ إن شاء الله تعالى ـ نورد منها قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(3).

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(4).

---

(1) يونس 1 ـ 4.

(2) الأعراف 54.

(3) المؤمنون 14.

(4) الفرقان 1.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2]. ويبدو أن التنزيه مُطّرد في المكي باستثناء صيغة التنزيه ـ سبحانه ـ فقد ورد منها في المدني، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[3].

ومما يميز بناء المكي عن المدني، وجود لفظ كَلاَّ، الذي يفيد الرَّدع والزَّجر، وإبطالَ قول القائل[4]. ولم يرد في النصف الأول وإنما ورد في النصف الثاني، وهو في قصار السُّوَر أكثر، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾[5]. قال أبو السعود: «رَدْعٌ له عن التفوُّه بتلك العظيمة وتنبيهٌ على خطئه»[6].

ومنه قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾[8].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾[9].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[10].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[11].

---

(1) الأعراف 190.
(2) يونس 18.
(3) البقرة 116.
(4) المفردات في غريب القرآن 441. مادة: كلا.
(5) مريم 79.
(6) إرشاد العقل السليم 5/ 279.
(7) مريم 82.
(8) المؤمنون 100.
(9) الشعراء 15.
(10) نفسها 62.
(11) سبأ 27.

هذا ما ورد في غير قصار السُّوَر، وأما ما ورد في قصار السُّوَر فيبدأ من سورة المعارج وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[1].

ومما يميزه أيضاً فواتح السُّوَر، التي تبدأ بالحروف المقطعة، عدا سورتي البقرة وآل عمران، وقد مضى الحديث عنها في الفصل الثاني من هذا الباب.

وكذلك تصريف قصة آدم وإبليس في المكي، إلا سورة البقرة المدنية فقد صُرِّف القول فيها بذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وقال تعالى في سورة الأعراف المكية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[3].

ويرد الخطاب بلفظ (يا بني آدم) في المكي بصورة مُطَّردة، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6].

---

(1) آية 15.
(2) البقرة 34.
(3) الأعراف 11.
(4) نفسها 26 ـ 27.
(5) نفسها 31.
(6) نفسها 35.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

ويَرِدُ الخطاب في المكي بلفظ (يأيّها الناس) عدا سورة البقرة والنساء، والحج والحجرات فقد صُرِّف القول فيها بهذا اللفظ، ولنذكر بعض الآيات من المكي وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

ويتميز المكي بشدّة الأسلوب، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[5].

ويختلف بناء الآيات في المكي تبعاً لطول السُّوَر وقصرها، ففي السُّور الطُّوَل، قد تتعدد المقاصد في السورة الواحدة، بينما السُّوَر القصار كلها في موضوع واحد، كما في سورة الإخلاص، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[6].

فموضوعها التوحيد، قال الغزالي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ليس فيه إلاّ التّوحيدُ والتقديس»[7] وقال أيضاً: «وسُورةُ الإخلاص تشتمل على واحد من الثلاثة، وهو معرفة الله وتوحيدُه وتقديسه عن مُشاركٍ في الجنس والنّوع، وهو المراد بنفي الأصل

(1) يس 60.
(2) الأعراف 158.
(3) يونس 23.
(4) نفسها 57.
(5) المعارج 15.
(6) الآيات 1 ـ 4.
(7) جواهر القرآن ص 46.

والفرع والكُفُوِ، ووصفه بالصمد يُشْعِرْ بأنه الصمد الذي لا مَقْصَدَ في الوجود للحوائج سواه.

نَعَمْ ليس فيها حديثُ الآخرة والصّراط المستقيم، وقد ذكرنا أنّ أصُولَ مهمات القرآن معرفةُ اللهَ - تعالى - ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم، فلذلك تعدل ثُلُثَ القرآن، أي ثُلُثَ الأصول من القرآن»[1].

وإنّ بناء النظم يكاد يكون على نسق واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾[2].

ومما يلاحظ أن القصة في قصار السور ترد بإيجاز بليغ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾[3].

نستخلص مما سبق أن بناء المكي يختلف عن المدني في بيان بعض مقاصده، فيصرِّفها بأساليب متعددة تناسب حال المخاطبين ومناسبات النزول، ومقاصد الآيات والسُّوَر، مراعياً الإيجاز البليغ في عرضها، كما يلاحظ أن السُّوَر الطّوَل منه تتنوَّع موضوعاتها، وأن السُّوَر القصار تكون في موضوع واحد في كثير من الأحيان.

2. بناء المدني:

يتميز المدني بطول الآيات؛ لأن الغالب في مقاصده بيان الأحكام التفصيلية للتكليفات الشرعية؛ لأن الأمر خاص بالدولة الإسلامية وكيانها، فبيَّن في هذه السُّوَر الأحكام الفقهية، والمعاملات والفروض، والعلاقات الاجتماعية والدولية،

---

(1) جواهر القرآن ص 47.
(2) الليل 1 - 4.
(3) الفجر 6 - 14.

فناسب ذلك الإيضاح والبسط والإسهاب، وذلك في أعلى درجات البلاغة، ولا فرق بينه وبين المكي في ذلك ـ كما بيَّنا فيما سبق ـ.

ومن ثم نكتفي بعرض نماذج من السُّوَر المدنية، تبين ذلك البناء البديع في بيان الأحكام التفصيلية، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

بُنيت هذه الآية على التفصيل؛ لأن الأمر متعلق ببيان حكم شرعي، فبينت جميع جوانبه المتعلقة به.

فجاءت عقب بيان فرض الصيام، مفصولة غير موصولة لتبين أن هذا الفرض وقته شهر رمضان، وأنّ هذا الشهر هو الذي أنزل الله فيه القرآن، هداية للناس من الضلال.

قال أبو السعود: «حالان من القرآن، أي أنزل حال كونه هدايةً للناس بما فيه من الإعجاز وغيره، وآيات واضحة، مرشدة إلى الحق، فارقة بينه وبين الباطل، بما فيه من الحكم والأحكام»[2].

ثم أمر من حضر هذا الشهر بصيامه، مبيحاً للمريض والمسافر الإفطار فيه، على أن يقضي الأيام التي أفطرها في هذا الشهر، ثم بينت الآيات أن الله ـ تعالى ـ يريد بعباده التيسير ولا يريد بهم المشقة. رأفةً منه وسعةً ورحمة[3] ليُعَظِّموه لهدايتهم إلى ذلك.

---

(1) البقرة185.

(2) إرشاد العقل السليم 1/ 200.

(3) نفسه.

ولـمّـا تعلق الأمر بالدعـاء وكيفيته قصـرت الآيـة عـن سـابقتها إذ قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

ولـمّـا اقتضى الأمر بيـان الفـروض الشـرعية طـالت الآيـة مفصلـةً ذلـك أبلـغ تفصيل، ومبنيـةً بنـاءً دقيقـاً محكمـاً، فقـال تعـالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ إلـى قولـه تعـالى: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾[2].

ولـمّـا رغَّـب فـي الطاعـة وحـذَّر مـن العصيـان، أوجـز القـول، كمـا فـي قولـه تعـالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[3].

ولـمّـا بيّن المحرمـات مـن النسـاء فصَّـل القـول أتم تفصيـل وأوفـاه فقـال تعـالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[4].

---

(1) البقرة 186.
(2) النساء 11 ـ 12.
(3) نفسها 13 ـ 14.
(4) نفسها 23.

يتبيَّن لنا مما سبق أن الآيات تطول عندما يحتاج الأمر إلى التفصيل والتوضيح، لتبيِّن جميع مقاصده، وتوفيها حقها من البيان، وتقصر عندما لا يحتاج إلى ذلك، تبعاً للمقاصد التي تبيِّنها الآيات.

ويتصرَّف الخطاب في المدنيّ بلفظ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بصورة مطَّردة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[3].

ويتصرَّف القول في المدني بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام والدخول فيه، وإقامة البراهين على فساد حجتهم وبعدهم عن الحق والصواب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5].

---

(1) البقرة 104.

(2) نفسها 153.

(3) نفسها 172.

(4) نفسها 89.

(5) نفسها 101.

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

وقد يردُ القولُ مجادلاً أهل الكتاب بالحجة والبرهان، مدحضاً شبهاتهم ومبيناً دسائسهم في سياق تفصيليّ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5].

ويتصرَّف القول في المدني مدحضاً شبهاتهم حول المسيح وأمه الطاهرة - عليهما السلام - فيقول: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا

---

(1) البقرة 105.

(2) نفسها 109.

(3) نفسها 111.

(4) نفسها 135 - 140.

(5) آل عمران 64 - 65.

قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[3] .

ويرد القول في المدني مشتملاً على الإذن بالجهاد وبيان أحكامه، وجزاء الشهادة، فيقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] .

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] .

---

(1) النساء 156 ـ 158 .

(2) نفسها 171 ـ 172 .

(3) المائدة 17 .

(4) البقرة 190 ـ 193 .

(5) التوبة 5 .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1].

وقال تعالى مبيناً جزاء الشهادة في سبيل الله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3].

ويتصرف القول مبيِّناً المنافقين ودسائسهم فيقول تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾[6].

يتضح لنا مما سبق أن الآيات تطول في المدني إذا اقتضى الأمر التفصيل والتوضيح، وتوجز إذا لم يقتض الأمر ذلك، تبعاً للمقاصد التي تبينها، إذ يصرِّفها على أوجه مختلفة وطرائق شتى؛ ليحقق مقاصده السامية، في أعلى درجات البلاغة والبيان، وذلك راجع إلى العلاقة بين المفردات في الآية، وهو ما ستبينه الدراسة اللاحقة.

---

(1) الصف 4.

(2) البقرة 154.

(3) النساء 74.

(4) البقرة 16.

(5) النساء 61 ـ 63.

(6) نفسها 88.

المبحث الثاني
العلاقة بين المفردات في الآية

تحدثنا في المبحث السابق عن الدقة في بناء الآيات واختيار الكلمات المناسبة لمعانيها. وقد رأينا كيف تُبنى الآيات بناءً دقيقاً محكماً، بقصد تحقيق مقاصدها السامية، فَيُصرِّفها بأساليب متعددة وطرائق شتى، تبعاً للعلاقة القوية بين المفردات في الآية، لذا سأتحدث في هذا المبحث عن العلاقة القوية بين المفردات في الآية، قدر المستطاع، مفصلاً إياها ومدلِّلاً عليها بأمثلة من الآيات القرآنية، تبيِّن تلاحم الآيات في تصريف بيانها وعظيم مكانها، الذي لا يرى غير الحرف في الكلمة، والكلمة في الجملة، والجملة في الآية، والآية في السورة أليق منه في أداء معانيه، إذ إن هناك بناءً قوياً في تصريف الآيات، وذلك - فيما أعتقد - راجع إلى بناء الحروف في الكلمة، والكلمة في الجملة القرآنية، وبناء الجملة في الآية، وهو ما جعل في الآية تلاحماً وترابطاً، بما قبلها وما بعدها من الآيات.

يرى الرافعي: أن الكلام يتركب بالطبع من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجُمَل هي من الكلم، وأنه له بذلك مزية في توازن حروفه، وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه؛ لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية ويرى أيضاً: أن سر الإعجاز هو في النظم، وأن جهات النظم ثلاث، في الحروف والكلمات والجمل[1].

ولـمّا كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها في الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يُسَوِّغ الحكم، في كلمة

---

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 209 - 211.

زائدة، أو حرف مضطرب، أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء، بل نزّلت كلماته منازلها، على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما يشبه أن يكون من هذا النحو، بحيث لو نُزِعَتْ كلمةٌ منه أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها، لم يتهيّأ ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة، وهو سر من إعجازه قد أحسّ به العرب.

فلا بدّ في مثل نظم القرآن من إحضار معاني الجمل، وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تندُّ[1] لفظة، ولا تتخلف كلمة، ثم استعمال أمسّها رحماً بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناءً، وأكثرها غناءً، وأصفاها رونقاً وماءً، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل، ثم إحكامه على أن لا مراجعة فيه ولا تسامح، وعلى العصمة من السهو والخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة، حتى يجيء ما هو كأنه صيغ جملة واحدة في نفس واحد.

ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيِّئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفةً مع أصوات الحروف، مساويةً لها في النظم الموسيقى، وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف، والحركة.

تلك طريقة في النظم انفرد بها القرآن، وليس من بليغ يعرف هذا الباب؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

---

(1) ومعنى ذلك أنه ليس هناك لفظة نافرة أو شاردة (راجع اللسان 3/ 419 مادة: ندد).

(2) فصلت 42 وأنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 224 ـ 228.

ومن ثَمَّ فإن هذه الدراسة ستتناول بناء الحروف والكلمات والجمل في الآية القرآنية.

أولاً: بناء الحروف في الآية:

يتصرف كل حرف في الآية في موضعه ليؤدي دلالته التي لا يؤديها غيره في مكانه، فتعطف المفردات بعضها على بعض رعياً للملاءمة والمناسبة في تقديم بعضها على بعض، تبعاً لأسرارها المعنوية ودقائقها الخفية.

إن هذه الدقة التي نجدها في بناء الحروف في مواضعها من الآية، هي بدورها تؤدي معانيها الدقيقة، لتحقق مقاصد الآيات والسُّوَر، التي تسود القرآن كله، وهذا لا يحتاج إلا إلى إمعان النظر والتدبر في آي كتاب الله - تعالى - ولا غرو في ذلك؛ لأن القرآن الكريم محكم كل الإحكام، إذ قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

وبناء الحروف في الآية قد يكون بالزيادة والحذف، وقد يكون بإبدال حرف مكان حرف، والآيات في هذا الغرض لا تحصى، إذ إن كل القرآن على هذا البناء الدقيق والتلاحم المتين في آياته، لذا أكتفي بذكر بعض الأمثلة تبين بناء الحروف في الآية، ثم الآية في السورة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

وفي هذه السورة كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

---

(1) هود 1.
(2) البقرة 120.
(3) نفسها 145.

وفي سورة الرعد، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[1].

ففي الآية الأولى عبّر بالذي، وفي الثانية بـ (ما) وزيدَ قبلها (من) بدل الذي، وفي الثالثة بـ (ما) بدون (من) فما وجه تصريف هذه الحروف في هذه الآيات؟

بُنيت هذه الحروف في مواضعها، رعياً للمناسبة، فجاء ذلك على أتم وجه وأكمله، إذ إن كل واحد في هذه الآيات الأخص في مكانه، الذي لا يؤدي معناه غيره، لذلك جاء التصريف على هذا النحو العَجيب، والتفنن البديع.

أورد ابن الزبير هذه الآيات الثلاث في كتابه «ملاك التأويل» وقدم لها بسؤال عما اختلفت فيه هذه الآي مع اتفاقها في مطالعها، ومعناها، ثم أجاب عن ذلك: أن الوارد في سورة الرعد لم يتقدم له من مرتكبات أهل الكتاب في كفرهم، وعنادهم مثل ما تقدم قبل الآية الأولى من سورة البقرة. فلما لم يتقدم بسط ذكرهم وأوجز الكلام واكتفى بالإيماء ناسبه إيجاز التحذير من حالهم، فجيء بـ (ما) وهي أوجز من (الذي) لفظاً ما لم يقترن بها ما يقتضي التوسعة في معناها.

وقيل: ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ وذلك أوجز من قوله في آية البقرة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ لفظاً ومعنى، فورد هذا كُلُّه موجزاً ليناسب ما قبله.

ولمّا تقدم قبل الآية الأولى في سورة البقرة عدة آيات في بسط أحوالهم وقبيح مرتكباتهم كان أقرب ذلك إلى الآية المقصود توجيه الوارد فيها.

فبعد هذا الإطناب في وصفهم قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهذا مناسب لما قبله من الإطناب لفظاً، كما أن آية الرعد مناسبة لما قبلها، لإيجاز لفظ «ما» فإنها على حرفين، وأما (الذي) فعلى خمسة أحرف، ثم إن معنى «نصير» أوسع، من حيث إن «فعيلاً» من

---

(1) آية 37.

أبنية المبالغة فيعطي كثرة «وفاعل» ليس كذلك، ثم إن لفظ «واق» أوجز فقد تبيّن فرقان ما بينهما، وناسب الإسهابُ الإسهابَ، والإيجازُ الإيجازَ.

وأما الآية الثانية: فوردت المتكررة مُراعًى فيها ذلك، فجيء فيها بـ (مِنْ) التي للغاية أو لابتدائها، والمقصود أوفى وأمعن، وجيء بـ (ما) عوضاً عن (الذي)؛ لأنها هنا بسياقها بعد (مِنْ) كيفما قدرتها، من موصولية، أو موصوفية تعطي الاستيفاء وتقتضيه، فروعِيَ معناها، وروعِيَ فيها تقدُّم لفظها، وقوله - سبحانه - ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يتضمن أشدّ مما يتضمن نفي الوليّ والواقي والنصير، ألا ترى قوله - سبحانه -: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

فقد انتفى هنا الوليّ والنصير مع زيادة الوصف بالظلم، وليس نفي الظلم حاصلاً من انتفاء الولاية والنصرة حُصُولَهُ بالذكر والتنصيص، فهذه الآية أبلغ من الآيتين فناسب ذلك زيادة الإطناب فيما قبلها ولشدة موقعها.

فقد وضح افتراق المقاصد في إيراد هذه الآي على الأنحاء الثلاثة[2].

وعلل الكرماني سبب ذلك: أن العلم في الآية الأولى علم بالكمال ليس وراءه علم؛ لأن معناه بعد الذي جاءك من العلم بالله وصفاته، وبأن الهدى هدى الله ومعناه: بأن دين الله، الإسلام وأن القرآن كلام الله فكان لفظ (الذي) تُعرِّفُه صلته فلا ينكر قط، ويتقدم أسماء الإشارة نحو قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾[4] فيكتنف الذي بيانان: الإشارة والصلة، ويلزمه الألف واللام، ويُثَنَّى ويجمع وليس لـ (ما) شيء من ذلك؛ لأنه

(1) الشورى 8.
(2) ملاك التأويل 1/ 85 - 88.
(3) الملك 20.
(4) الملك 21.

يتنكّر مرة ويتعرف أخرى ولا يقع وصفاً لأسماء الإشارة ولا يدخله الألف واللام، ولا يُثَنَّى ولا يجمع.

وخص الثاني بـ (ما) لأن المعنى: من بعد ما جاءك من العلم، بأن قِبْلة الله هي الكعبة وذلك قليل من كثير من العلم، وزيد معه (مِنْ) التي لابتداء الغاية؛ لأن تقديره. من الوقت الذي جاءك العلم فيه بالقِبْلة؛ لأن القِبْلة الأولى نُسِخَتْ بهذه الآية، وليس الأول مؤقتاً بوقت، وفي سورة الرعد فعبر بلفظ (ما) ولم يزد مِنْ؛ لأن العلم ها هنا هو الحكم العربي، أي القرآن وكان بعضها من الأول، ولم يزد فيه (مِنْ)؛ لأنه غير مؤقت[1].

يتبين لنا مما سبق أن هناك اختلافاً بين التوجيهين فابن الزبير نظر إلى ما فيها من الإطناب والإيجار؛ لتكون كل آية مناسبة لما قبلها، ونظر فيها من حيث أبنية المبالغة التي تعطي في كل آية معنى أبلغ من الآخر.

وأما الكرماني فقد نظر إليها من حيث المعاني التي تحققها هذه الحروف، وليس هناك أي تعارض بينهما، بل كل منهما يكمل الآخر؛ لأن بناء الحروف والكلمات في الآية يرجع إلى المناسبة وتحقيق المقاصد في الآية على أكمل وجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

بزيادة (مِنْ) في هذه السورة، وفي سورة يونس، قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

(بسورة مثله) لأن مِنْ تدل على التبعيض، ولما كانت هذه السورة - يعني سورة البقرة - سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة حَسُنَ دخول (مِنْ) فيها ليُعلم أن التحدي واقع

---

(1) البرهان في متشابه القرآن ص 129 - 130.

(2) البقرة 23.

(3) يونس 38.

على جميع سُوَر القرآن من أوله إلى آخره، وغيرها من السُّوَر لـو دخلها (مـن) لكـان التحدي واقعاً على بعض السُّور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل[1].

قال ابن الزبير: «فـالمراد في سـورة يونـس نفـي كـلام ممـاثل للقـرآن، وإقامـة الحجة عليهم بعجزهم عن ذلك، والمراد في البقرة نفي شـخص يماثلـه - ﷺ - فـي أن يسمع منه ما يماثل سورة واحدة مـن مثل القـرآن فـي فصاحتـه وعجائبـه، فـاختلف المقصدان في السورتين مع الائتلاف في تعجيزهم عن هـذا وهـذا، فلمـا اختلفـا لـم يكن بُدٌّ من (مِنْ) في الأولى لإحراز معناهـا، ولـم تـأت فـي يونـس لحصـول المعنـى المقصود فيها دون (مِنْ)»[2].

وقـال تعـالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

وقـال فـي سـورة الأعـراف: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[4].

تأمل البناء الدقيق في كلا الآيتين، بحيث عبَّر في الآية الأولى بالواو (وكُـلا)، وفي الآية الثانيـة بالفـاء (فكُـلا) فكـل واحـد منـهما الأخـصّ فـي موقعـه، والأدل فـي مكانـه، إذ إن لكـل واحـد منـهما وجهـةً دقيقـةً بيّنـها الكرمـاني بقولـه: ﴿ٱسْكُنْ﴾ فـي الآيتين ليس بأمر من السكون الذي هو ضد الحركة، وإنما الذي في البقرة من السـكون الذي معناه الإقامة، فلم يصح إلا بالواو؛ لأن المعنى: اجمعا بين الإقامة فيها والأكـل منها، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة؛ لأن الفـاء للتعقيب والترتيب.

(1) البرهان في متشابه القرآن ص 116 ـ 118.
(2) ملاك التأويل 1/ 38 ـ 39.
(3) البقرة 35.
(4) آية 19.

والذي في الأعراف من السكنى التي معناها اتخاذ الموضع سكناً؛ لأن الله - تعالى - أخرج إبليس من الجنة بقوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾[1].

وخاطب آدم فقال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي اتخذاها لأنفسكما مسكناً ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ فكانت الفاء أولى؛ لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً يُمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبه»[2].

وذهب ابن الزبير إلى أن مورد الآيتين مختلف في الموضعين، أما الوارد في البقرة فقصد به مجرد الإخبار والإعلام لرسول الله ﷺ بما جرى من قصة آدم - صلوات الله وسلامه عليه - وابتداء خلقه، وأمر الملائكة بالسجود له، ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زماني، أو تحديد غاية فناسبه الواو وليس الفاء.

وأما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله - جل وتعالى - على آدم وذُرِّيَتِه فناسب هذا المقصد العطف بالفاء المقتضية للترتيب، والواو لا تقتضي ذلك، وإنما بابها الجمع حيث لا يرد ترتيب، ولما اختلف القصدان اختلفت العبارة عنهما، فورد كلّ على ما يناسب[3].

يتضح لنا من التوجيهين السابقين أن هناك اختلافاً قليلاً بينهما، فالكرماني نظر إلى أن مقصود الآية الأولى الإقامة، لذلك سبقها الواو، فلم تصح بغير ذلك، وعلل بأن المراد بذلك الجمع بين الإقامة والأكل، ونظر إلى آية الأعراف بأن المقصود منها اتخاذ الموضع مسكناً، فكانت الفاء أولى.

ووافقه ابن الزبير في أن مورد الآيتين مختلف في الموضعين، وخالفه في المقصود من ذلك، إذ يرى أن الوارد في سورة البقرة مقصود به مجرد الإخبار والإعلام لرسول الله - ﷺ - وأن الوارد في سورة الأعراف مقصود به تعداد النعم،

(1) الأعراف 18.
(2) البرهان في متشابه القرآن ص 119.
(3) ملاك التأويل 1/ 42 - 43.

وليس هناك تعارضاً بين التوجيهين بل كل منهما يكمل الآخر، ويبين أن بناء هذه الحروف في مواضعها يحقق مقاصد الآيات التي بُنيت فيها هذه الحروف بدقة متناهية، ويبين أيضاً أن الاختلاف في بناء هذه المفردات ينفي صفة التكرار عن هذه الآيات، ويظهر الفرق الدقيق بين معانيها، تلك بلاغة القرآن في تصريف مقاصده وبناء آياته.

وقد يُبنى حرف في آية ولا يُبنى فيما يشابهها، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]. وفي سورة الأعراف: ﴿ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2]. فقد ورد الواو في الآية الأولى، ولم يرد في الثانية فما وجه ذلك؟

إن ذلك راجع إلى سياق الآية في السورة، وإلى ما تبينه من مقاصد مرادة من ذلك التصريف.

يرى الكرماني أن ورود الواو في سورة البقرة، لشدة الاتصال في هذه السورة؛ لاتفاق اللفظين، واختلفا في الأعراف، فكان اللائق به حذف الواو؛ ليكون استئنافاً للكلام[3].

وذهب ابن الزبير إلى أن مجيء الواو في البقرة لما تقدم قبل هذه الآية من لدن قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[4]. إنما هي آلاء ونعم، عدّدت عليهم على التفصيل شيئاً بعد شيء، فناسب ذلك عطف قضية الزيادة بالواو، وليجري على ما تقدم من تعداد الآلاء وضروب الإنعام بالعفو عن الزلاّت، والامتنان بضروب الإحسان بهذا القصد في إحراز التعداد، ورد ﴿ سَنَزِيدُ ﴾ هنا

(1) آية 58.

(2) آية 161.

(3) البرهان في متشابه القرآن ص 124.

(4) البقرة 40.

بالواو، ولم يكن ليحصل لو لم ترد الواو هنا، وأما آية الأعراف فلم يرد قبلها ما ورد في سورة البقرة[1].

وقد بيّن الزمخشري الفرق الدقيق بين ترك الواو في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[2].

ووجود الواو في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[3].

فقال: «وقيل أبواب جهنّم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[4]. فلذلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها[5].

ومن ثم فإن اللفظ الذي يراه النحاة زائداً في القرآن يرد في موضعه، مصوراً لمعناه أدق تصوير، وقد أشار إلى ذلك الرافعي إذ قال: «ثم الكلماتُ التي يُظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة، فإن فيه من ذلك أحرفاً: كقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[6]. وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[7].

فإن النحاة يقولون إن «ما» في الآية الأولى، و«أن» في الثانية زائدتان، أي في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم ويقيس عليه، مع أن في هذه

---

(1) ملاك التأويل 1/ 63.

(2) الزمر 71.

(3) نفسها 73.

(4) سورة ص 50.

(5) الكشاف 3/ 410.

(6) آل عمران 159.

(7) يوسف 96.

الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من جنسه وروعته، فإن المراد بالآية الأولى، تصويرُ لين النبي - ﷺ - لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في «ما» وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخّمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تُشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق.

والمراد بالثانية تصويرُ الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسفَ وأبيه - عليهما السلام -، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما وتصف الطربَ لمقدمه واستقراره، غُنَةُ هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهي «أن» في قوله، «أن جاء».

وعلى هذا يجري كل ما ظن أنه في القرآن مزيد، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها، إنما هو نقص يجلُّ القرآن عنه... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأيٌ يسنح في البلاغة. من جهة نظمه، أو دلالته، أو وجه اختياره[1].

وقد ذكر الشيخ الشعراوي أن كلام الله - سبحانه وتعالى - في غاية الدقة بحيث يعبر عن الشيء تعبيراً كاملاً، فلا تجد حرفاً زائداً بلا معنى، ولا كلمة مترادفة، إلى آخر ما يقال عن القرآن الكريم، ولكن المسلم حين يدقق في معاني القرآن الكريم يجد أن كل حرف في القرآن الكريم قد تم وضعه بحكمة بالغة، وأنه لا شيء اسمه مترادفات، وإنما لكل لفظ معنى يؤديه، ولا يؤديه اللفظ الآخر[2].

يتضح لنا مما سبق أن كل حرف في الآية يبنى في موضعه الأخص به، الأقوى دلالة على المعنى المراد، وأن اختلاف الحروف في الآيات مرجعه إلى اختلاف المقاصد، واختلاف السياق، فيوضع كل لفظ في الموضع الذي يؤدي معناه فيه أداءً تاماً، في تناسق قوي، وترابط متين.

---

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 231 - 232.

(2) معجزة القرآن للشعراوي 1/ 45 - 47.

ثانياً: بناء الكلمات في الآية

رأينا فيما سبق أن الحرف في الآية يُبنى في موضعه، ليؤدي معناه الذي لا يؤديه غيره عنه، كذلك الكلمة في الآية مبنية بإحكام وإتقان، بحيث تؤدي معناها في موضعها الذي لا تؤديه أي كلمة أخرى بدلاً منها، ولنا في ذلك بعض الأمثلة التي تبين ذلك البناء القوي والترابط المتين.

وبناء الكلمات في الآية أنواع، فقد تتصرف بإبدال كلمة بأخرى، وقد تكون الكلمة معرفة في آية ونكرة في أخرى، وقد تكون جمعاً في آية ومفردة في آية أخرى، وقد تتقدم كلمة على أخرى، وهو ما ستجلِّيه هذه الدراسة.

1. إبدال كلمة بأخرى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[2].

الآيتان متشابهتان في ألفاظهما ومعانيهما، بيد أن هناك فروقاً أخرى في تصريفهما يهمّنا منها إبدال كلمة (يذبّحون) في سورة البقرة بكلمة (يقتّلون) في سورة الأعراف، والسر في ذلك الوفاء بالمقصود، قال عنه ابن الزبير: «إنّ الذبح منبئ عن القتل وصفته، وأما اسم القتل فلا يُفهم غير إعدام الحياة، بتناول من غير المقتول في الغالب، فعبر أولاً بما يوفي المقصود من الإخبار بالقتل وصفته مع إحراز الإيجاز، إذ لو ذُكر القتل وأُتبع بالصفة لما كان إيجاز، فعدل إلى ما يحصل عنه

---

(1) البقرة 49.

(2) آية 141.

المقصود، فقيل يذبّحون وعبّر في سورة الأعراف بالقتل؛ لأنه أوجز من لفظ يذبّحون لأجل التضعيف، إذ لفظ يذبّحون أثقل لتضعيفه، وقد حصلت صفة القتل في سورة البقرة، فأحرز الإيجاز في الكل، وجاء على ما يجب ويناسب[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[3].

هاتان الآيتان متشابهتان في لفظيهما، بيد أن هناك فرقاً في التعبير، إذ جاء في سورة البقرة بلفظ (الانفجار) وفي سورة الأعراف تصرَّف بلفظ (الانبجاس) فلكلٍ من اللفظين سرٌّ في تصريفه في موضعه من الآية الوارد فيها، مع أن معناهما واحد.

وقد بين الفرق بينهما ابن الزبير فقال: «إن الفعلين، وإن اجتمعا في المعنى فليسا على حد سواء، بل الانبجاس ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له، قال الغزنوي[4]: الانبجاس أول الانفجار، وقال ابن عطية: انبجست: انفجرت، لكنه أخف من الانفجار، فالواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى ـ عليه السلام ـ السُّقْيا، والوارد في البقرة طلب موسى من ربه، فطلبهم ابتداء فأشبه الابتداء، وطلبُ موسى ـ عليه السلام ـ غاية لطلبهم؛ لأنه واقع بعده، ومرتّب عليه، فأشبه

(1) ملاك التأويل 1/ 55.
(2) البقرة 60.
(3) آية 160.
(4) هو: علي بن إبراهيم بن إسماعيل، أبو علي الغزنوي، الملقب بتاج الشريعة، صاحب فنون، إمام في التفسير والفقه والعربية، والأصول والجدل، له تفسير القرآن الكريم، توفي سنة إحدى أو اثنتين أو سنة خمس وثمانين وخمسمائة (طبقات المفسرين للداودي 1/ 221).

الابتداء الابتداء، والغايةُ الغايةَ، فقيل جواباً لطلبهم: فانبجست، وقيل إجابة لطلبه: فانفجرت، وتناسب ذلك وجاء على ما يجب»[1].

2. **بناء الألفاظ بالتعريف والتنكير:**

يرد اللفظ في الآية بالتعريف والتنكير؛ ليؤدي كل منهما في موضعه معاني جليلة لا يؤديها الآخر.

قال السيوطي: «اعلم أن لكل منهما مقاماً لا يليق بالآخر»[2].

ثم ذكر أسباب التنكير، معدداً إياها، نذكر منها: الأول: إرادة الوحدة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾[3].

الثاني إرادة النوع، نحو: ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ﴾[4]. الثالث: التعظيم، بمعنى أنه أعظم من أن يعيّن ويعرف، ومثّلَ لذلك بأمثلة، نذكر منها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[5].

وقد أوضح السيوطي الحكمة في تنكير (أحد) وتعريف (الصمد) إذ قال: «إنّه نكّر للتعظيم، والإشارة إلى أن مدلوله - وهو الذات المقدسة - غير ممكن تعريفها والإحاطة بها، وأنه لا يجوز إدخال (ال) كغير وكل وبعض، وهو فاسد، فقد قرئ: قل هو الله الواحد الصمد. حكى هذه القراءة أبو حاتم[6] في كتاب «الزينة» عن

---

(1) ملاك التأويل 1/ 67 - 68.

(2) معترك الأقران في إعجاز القرآن 3/ 472.

(3) القصص 20.

(4) سورة ص 49.

(5) الإخلاص 1 - 2 وانظر المصدر السابق نفسه.

(6) وأبو حاتم هو: سهل بن محمد بن عثمان أبو حاتم السّجستاني - النحوي - المقري البصري، من كبار العلماء باللغة والشعر، له نيف وثلاثون كتاباً، منها كتاب «الزينة» و«الأضداد» واختلف في وفاته فقيل: سنة 255هـ، وقيل: 250 - 248، انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 4/ 257 - 258 والأعلام للزركلي 3/ 210 وكشف الظنون 2/ 1423 ومعجم المؤلفين 4/ 285.

جعفر بن محمد، وأن هو مبتدأ والله خبر وكلاهما معرفة، فاقتضى الحَصْر، فَعُرِّف الجزءان في: الله الصمد، لإفادة الحصر ليطابق الجملة الأولى، واستغنى عن تعريف أحد لإفادة الحصر دونه، فأتى على أصله من التنكير، على أنه خبر ثانٍ، وإن جعل الاسم الكريم مبتدأ و«أحد» خبر ففيه من ضمير الشأن ما فيه من التفخيم والتعظيم، فتأتي بالجملة الثانية على نحو الأولى، بتعريف الجزأين للحصر تفخيماً وتعظيماً»[1].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[2].

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3]. وفيها أيضاً قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[4]. وفيها كذلك قوله تعالى: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[5]. وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[6].

ففي الآية الأولى جاء اللفظ مُعَرَّفاً بأل وهو قوله﴿ الْحَقِّ ﴾ وجاء مُنَكَّراً في بقية المواضع؛ ليلائم كل منها مقصده في الآية التي جاء فيها. قال الكرماني مبيناً سبب ذلك: «لأن ما في البقرة إشارة إلى الحق الذي أذن الله أن تقتل النفس به، فكان

---

(1) معترك الأقران 3/ 476.

(2) البقرة 61.

(3) آية 21.

(4) آية 112.

(5) آية 181.

(6) آية 155.

الأولى بالذكر؛ لأنه من الله ـ تعالى ـ وفي آل عمران والنساء نكرة، أي بغير حق في معتقدهم ودينهم، فكان هذا بالتنكير أَوْلى»[1].

وقد آثر التنكير في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[2]. لتدل كلمة «حياة» النكرة على معانيها البليغة التي لا يؤديها اللفظ معرَّفاً بدلاً منها، ولتدل على مطلق حياة يستفيدها الناس جميعاً من حكم القصاص.

وقد تعرض أكثر البلاغيين لتحليل القيمة الفنية لإيجاز القصر في هذه الآية، وذلك عن طريق الموازنة بينها وبين العبارة المأثورة عن العرب: «القتل أنفى للقتل».

ومن ذلك ما ذكره الرماني حين قال: «وقد استحسن الناسُ من الإيجاز قولهم: «القتل أنفى للقتل» وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك يظهر من أربعة أوجه: أنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة، أما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل ما في قولهم: «القتل أنفى للقتل» وزيادة معانٍ حسنة، منها إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها: إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به، وأما الإيجاز في العبارة، فإن الذي هو نظير «القتل أنفى للقتل» قوله: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ والأول أربعة عشر حرفاً، والثاني عشرة أحرف، وأما بُعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن في قولهم: «القتل أنفى للقتل» تكريراً أبلغ منه، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرَك بالحس وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن»[3].

---

(1) البرهان في متشابه القرآن ص 126.
(2) البقرة 179.
(3) النكت في إعجاز القرآن ص 77 ـ 78.

وقال صاحب «كتاب الطراز»: «فانظر إلى هذه اللفظة الجميلة كم يندرج تحتها من المعاني التي لا يمكن حصرُها، ولا ينتهي أحدٌ إلى ضبطها، فأين هذه عمّا أُثِرَ عن العرب من قولهم: «القتل أنفى للقتل» وقد تميزت الآية عنه بوجوه ثلاثة، أما أولاً: فلأن قوله:

لفظتان، وما نُقل عنهم فيه أربعُ كلمات، وأما ثانياً - فالتكريرُ فيما قالوه، وليس في الآية تكريرٌ، وأما ثالثاً - فلأنه ليس كلُّ قتل نافياً للقتل، وإنما يكون نافياً إذا كان على جهة القصاص، وكم في القرآن من هذا القبيل»[1].

وقد أوصل بعض البلاغيين الموازنة بين الآية الكريمة، وبين العبارة المأثورة عن العرب إلى أكثر من عشرين وجهاً، وعدُّوها من وجوه إعجازه، ومن بين هذه الوجوه ما ذكره الرماني، وابن الأثير، وصاحب «كتاب الطراز» وغيرهم، لذلك لا أريد تكرار ما قالوه[2].

يتبين لنا مما سبق أن التعريف والتنكير في اللفظ القرآني، يتصرف وفق المقاصد والدلالات التي يؤديها ذلك اللفظ بالتعريف أو التنكير؛ لأنه الأليق في موضعه، وغيره لا يحل محلّه، لذلك جاءت ألفاظ القرآن متناسقة مع معانيه تناسقاً عجيباً، ومبنية بناءً محكماً.

3.بناء الألفاظ بالإفراد والتثنية والجمع:

تُبنى الألفاظ في الآية بالإفراد والتثنية والجمع، تبعاً لسياقها ومقاصدها، إذ يرد اللفظ في الآية مفرداً كان أو مثنى أو جمعاً في موضعه الأخص به، محققاً تناسقاً قوياً، وتلاحماً متيناً في الآية، وسنحاول في هذه الفقرة أن نذكر بعض الأمثلة، التي تبين ذلك البناء البديع، والتصريف العجيب لهذه الألفاظ في الآيات الكريمة.

---

(1) كتاب الطراز 2/ 127 - 128 وانظر المثل السائر 2/ 352.

(2) انظر المراجع السابقة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[2].

فالآيتان متشابهتان في دلالاتهما اللفظية والمعنوية، بيد أن هناك فرقاً في تصريف لفظ ﴿ مَّعْدُودَةً ﴾ إذ أُفرد في السورة الأولى، فقال: ﴿ مَّعْدُودَةً ﴾ وجُمع في الثانية فقال: ﴿ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ والسرّ في تصريف اللفظ في الآيتين قد نبه إليه ابن الزبير بقوله: «إن المجموع بالألف والتاء منحصر في أربعة أضرب، ثلاثة متفَق عليها، والرابع مختلَف فيه» وأرجع سر ذلك إلى ما وقع في آية البقرة من الإيجاز، وما في الأخرى من الإطناب، فناسب الإفراد الإيجاز، وناسب الجمع الإسهاب»[3].

وقد يرد اللفظ الواحد جمعاً في سورة، مثنى في سورة ثانية، ومفرداً في سورة ثالثة، تبعاً للمقاصد والسياق الوارد فيه اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾[4]. وقال في سورة المعارج: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾[5]. وقال في سورة المزمل: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[6]، فما وجه التصريف في الأولى بالتثنية وفي الثانية بالجمع، وفي الثالثة بالإفراد؟

---

(1) البقرة 80.
(2) آل عمران 24.
(3) ملاك التأويل 1/ 81 ـ 83.
(4) الرحمن 17.
(5) آية 40.
(6) آية 9.

ولنترك الإجابة للسيوطي، إذ يقول: «فحيث أُفْردا فاعتباراً للجهة وحيث ثُنّيا فاعتباراً لمشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وحيث جُمِعَا فاعتباراً لتعدد المطالع في كل فصل من فصول السنة.

وأما اختصاص كلّ موضع بما وقع فيه، ففي سورة الرحمن ورد بالتثنية؛ لأن سياق السورة سياق المزدوجين، فإنه ـ سبحانه ـ ذكر أولاً نَوْعَي الإيجاد وهما الخلق والتعليم، ثم ذكر سراجي العالم: الشمس والقمر، ثم نَوْعَي النبات، ما كان على ساق وما لا ساق له، وهما النّجم والشّجر، ثم نَوْعَي السماء والأرض، ثم نَوْعَي العدل والظلم، ثم نَوْعَي الخارج من الأرض وهما الحبوب والرياحين، ثم نَوْعَي المكلّفين وهما الإنس والجان، ثم نَوْعَي البحر العذب والملح، فلهذا حَسُن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة»[1].

وذكر صاحب «سورة الرحمن» أن المراد مطلع كل يوم ومغربه، ولذلك جاءت الصيغة بالجمع، وقيل: المراد بهما في الآية مشرقا الشمس صيفاً وشتاءً ومغرباهما، وكأن المراد بالتثنية مطلعها في أطول يوم من السنة وفي أقصر يوم، وكذلك المغربان، ويتناول الطرفان كل ما بينهما.

وقيل: المشرقان: مشرق الفجر ومشرق الشفق، والمغربان: مغرب الشمس ومغرب الشفق، وقيل: بل المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس.

وقيل: المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما، ولعل هذا القول أولى الأقوال بالترجيح؛ لاتصاله بالآية السابقة في السورة، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[2]؛ ولأن دلالة التثنية حينئذ واضحة، والمراد رب مشرقي الشمس والقمر ومغربيهما وما بينهما من الموجودات قاطبة، فهو رب الوجود كله القائم عليه وعلى نظامه، وما يجري فيه من الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر وغروبهما[3].

---

(1) معترك الأقران 3/ 482.

(2) الرحمن 5.

(3) سورة الرحمن ص67 ـ 68.

ويرى الأستاذ أبو زيد أن ذلك يرجع إلى وجه لطيف من أوجه التناسب، وصلته بروح السورة وموضوعه[1].

وينبغي أن نذكر في هذا المقام، ما ذكره عن أوجه اختصاص آية المزَّمِّل والمعارج، اللتين لم يبينهما السيوطي. حين اكتفى ببيان وجه اختصاص ما وقع في سورة الرحمن. ولم يلتزم ببيان أوجه اختصاص المواضع الأُخَر، مع أنه ذكر أن يفصل أوجه اختصاص هذه المواضع.

فالأستاذ أبو زيد يقول: «أما ورود لفظي المشرق والمغرب بصيغة الإفراد في سورة المزَّمِّل، فلأن هذه الصيغة هي التي تناسب السياق، وبيان ذلك أن الله ـ تعالى ـ أمر رسوله ـ ﷺ ـ في مطلع السورة بقيام الليل، ثم أخبر أن له في النهار سَبْحاً طويلاً، فلما تقدم ذكر الليل والنهار، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهرا الليل والنهار، فكان الإفراد في هذا السياق أنسب من التثنية والجمع.

وأما مجيئها بصيغتي الجمع في سورة المعارج؛ فلأنهما وردا في سياق بيان سعة ربوبية الله ـ تعالى ـ وإحاطة قدرته، «وذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي إحدى آياته ـ سبحانه ـ العظيمة ونقله ـ تعالى ـ لها، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب مظهر من مظاهر القدرة المطلقة وسعة الربوبية»[2].

وقد جاء بعض الكلمات جمعاً، ولم يورد منها صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة «اللُّب» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4].

---

(1) التناسب البياني في القرآن ص 181.
(2) التناسب البياني في القرآن ص 181 ـ 182.
(3) البقرة 179.
(4) نفسها 197.

وقـال تعـالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] ونحوها.

وإنما أورد في مكانها «القلـب» فجاء مفرداً في بعض الأحيان كما في قوله تعـالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وقـال تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ﴾[3].

وعلل سر ذلك التصريف الرافعي فقال: «وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلمّا لم يكن ثَمَّ فَصْلٌ بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها، نصباً أو رفعاً أو جراً؛ فأسقطها من نظمه بتة، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة»[4].

قال السيوطي[5]: «من ذلك السماء والأرض: حيث وقع في القرآن ذكر الأرض فإنها مفردة ولم تجمَعْ بخلاف السموات، لثقل جمعها وهو أرضون، ولهذا لما أُريد ذكر جميع الأرض، قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[6].

وأما السماء فذُكرت تارةً بصيغة الجمع، وتارة بصيغة الإفراد لنُكتة تليق بذلك المحلّ... والحاصل أنه حيث أريد العدد أُتي بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة؛

---

(1) إبراهيم 52.
(2) البقرة 97.
(3) البقرة 204.
(4) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 232.
(5) معترك الأقران 3/ 480.
(6) الطلاق 12.

نحو: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1]. أي جميع سكانها على كثرتهم وحيث أريد الجهة أُتي بصيغة الإفراد، نحو: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾[2].

نستخلص مما سبق أن اللفظ يتصرف بالإفراد أو بالتثنية أو بالجمع؛ ليؤدي معناه في الآية التي هو فيها بدقة وإحكام، تبعاً للسياق ولمقاصد السُّوَر والآيات.

4. بناء الألفاظ بالتقديم والتأخير:

تُبنى الألفاظ في الآية بالتقديم والتأخير، تبعاً لمقاصدها، وأسبابها، إذ لا يتقدم لفظ أو يتأخر في آية من الآيات؛ إلا لموجِب يقتضيه، ولداعٍ من المعنى يطلبه ويستدعيه، وذلك ما ستبينه هذه الدراسة، معتمداً فيها على ذكر بعض الأمثلة، التي تبين ذلك التصريف العجيب، والبناء الدقيق.

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[4].

تنوَّع البيان في هاتين الآيتين بتقديم الشفاعة في الآية الأولى وتأخير العدل، وتقديم العدل في الآية الثانية وتأخير الشفاعة؛ لأسرار ذكرها الكرماني، إذ قال: «إنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله، وأخرها في الآية الأخرى؛ لأن التقدير في الآيتين معاً: لا تقبل منها شفاعة، فتنفعها تلك الشفاعة؛ لأن النفع بعد القبول، وقدم العدل في الآية الأخرى؛ ليكون لفظ القبول مقدماً فيها»[5].

---

(1) الصف 1.
(2) الذاريات 22.
(3) البقرة 48.
(4) نفسها 123.
(5) البرهان في متشابه القرآن ص 121.

وقال أبو حيان: «جاءت هذه الجمل هنا مقدماً فيها الشفاعة، وجاءت الفدية مقدمة على الشفاعة في جملة أخرى؛ ليدل ذلك على اختلاف الأمرين، وبدئ هنا بالشفاعة؛ لأن ذلك أليق بعلوّ النفس، وجاء هنا بلفظ القبول وهناك بلفظ النفع، إشارة إلى انتفاء أصل الشيء وانتفاء ما يترتب عليه، وبدئ هنا بالقبول لأنه أصل للشيء المترتب عليه، فأعطى المتقدم ذكر المتقدم وجوداً، وأخَّر هناك النفع إعطاءً للمتأخر ذكر المتأخر وجوداً»[1].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2].

وفي سورة غافر قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3].

تصرَّف البيان في هاتين الآيتين بتقديم قوله تعالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ في سورة الأنعام، وتأخيره في سورة غافر؛ لأسرار معنوية اقتضاها تقديم الأول وتأخير الثاني، ذكرها من اعتنوا بالمتشابهات، قال الكرماني: «قدم في سورة الأنعام؛ لأن فيما قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات، فدفع قول قائله بقوله: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ثم قال: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وفي المؤمن قبله ذكر الخلق، وهو قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4]. فجرى الكلام على إثبات خلق النّاس لا على نفي الشريك: فقدّم في كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات»[5].

---

(1) البحر المحيط 1/ 350.

(2) الأنعام 102.

(3) آية 62.

(4) غافر 57.

(5) البرهان في متشابه القرآن ص 176.

وقال ابن الزبير: «كان الملائم نفي ما جعلوه وما أدّعوه من الشركاء والصاحبة والولد، فتقدم ما الأمر عليه من وحدانيته ـ سبحانه ـ وتَعَاليه عن الشركاء والولد، وعرّف العباد بعدُ بأن كل ما سواه ـ سبحانه ـ خلقُه وملكُه فقدم الأهمّ في الوضع.

وأما آية غافر، فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم ولم يتقدم هنا ما تقدم في آية الأنعام، أتبع بالتنبيه على أنه ـ سبحانه ـ خالق كل شيء، فكان تقديم هذا التعريف هنا أنسب وأهمّ، ثم أعقب بالتعريف بوحدانيته ـ تعالى ـ فجاء كل على ما يجب ويناسب، ولم تكن واحدة من الآيتين لتناسب ما تقدّم الأخرى»[1].

وذلك فيما يتعلق بالتقديم والتأخير في الآيات المتشابهة، وأما فيما يتعلق بتقديم بعض الألفاظ على بعض في السورة الواحدة، فأورد له مثالاً من سورة الغاشية، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2].

فمناسبة تقديم الإبل على السماء أنسب؛ لأن الإبل أقرب إلى الإنسان إذ يتعامل معها مباشرة، ويعتمد عليها في حياته، وله معرفة بها أكثر من معرفة السماء، لذلك ـ والله أعلم ـ تقدم ذكرها، وهو من باب الترقي من السهل إلى الصعب.

قال صاحب «الطراز»: «فأما تقديم الإبل، فإنما كان ذلك من أجل أن الخطاب للعرب من أهل البلاغة، فمن أجل ذلك كان الاستجلاءُ على حسب ما يألفونه وذلك أن العربَ أكثرُ تعويلهم في معظم تصرفاتهم على المواشي في المطاعم والملابس والمشارب والمراكب، وأعمُّها نفعاً هي الإبل؛ لأن أكثر المنافع هذه لا تصلح إلا فيها على العموم، مع ما اختصّت به من الخَلْقِ العظيم، والإحكام العجيب، فمن أجل ذلك صدّرها بالنظر فيها لذلك، ثم إنه أردفها بذكر النظر في خلق السموات،

---

(1) ملاك التأويل 1/ 341 ـ 342.

(2) الآيات 17 ـ 20.

ووجه الملائمة بينهما، هو أن قوام هذه الأنعام ومادة المواشي، إنما هو بالرعي وأكْل الخَلَى، وكان ذلك لا يكون إلا بنزول المطر من السماء، مع ما اختصّت به من التأليف الباهر، والامتداد العظيم، والسّعة الكلية، فمن أجل ذلك عقّب بها ذكر الإبل، ثم أردف ذلك بذكر النظر في الجبال وما تضمنَتْه من العجائب العظيمة من أجل أنهم إذا قعدوا في البراري وبطون الأودية لا يأمنون التخَطُّف لهذه الأنعام والنفوس والأموال، فأشار إليها لما فيها من التحفُّظ على أموالهم ونفوسهم، بارتفاعها وكونها شوامخ لا يوصل إليها لعُلوِّها وارتفاعها، فعقّب بها ذكر السماء. . . فأشار الله إلى هذه العجائب الأربعة لمّا كانت من أعظم الآيات الباهرة»[1].

نستخلص من العرض السابق أن الألفاظ القرآنية تتصرف وفق بناء محكم، بالتقديم تارة وبالتأخير أخرى، إذ إنه لا يتقدم أو يتأخر إلا لموجب يقتضيه المقام، أو لمناسبة يكون اللفظ فيها أنسب من غيره، وكذلك لاختلاف المقاصد، فيكون اللفظ الأليق في مكانه والأدل على معناه؛ ليؤدي أسراره المعنوية التي يقتضيها السياق في دقة وإحكام.

5-بناء الجملة القرآنية:

تتصرف الجملة القرآنية على نمط واحد في القوة والإبداع، والبناء والترابط، مثلها مثل بناء الحروف والألفاظ، فالجملة ترد في مكانها لتؤدي معانيها بدقة وإحكام.

وقد أشار صاحب «من بلاغة القرآن» إلى أن خير ما توصف به الجملة القرآنية، إحكامها وتفصيلها، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2].

---

(1) كتاب الطراز 3/ 311 - 312.

(2) هود 1.

ثم قال: «فهي بناء دقيق قد أحكمت لبناته ونسقت أدق تنسيق لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ أو أن تزيد فيها شيئاً» وأشار أيضاً إلى أن من أراد معارضة جملة في القرآن، لابدّ أن يرجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه المعاني، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، وهي بحر ضخم، ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهراً فيه المهم والأهم[1].

ثمّ مثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

ثم قال: «تجد إسماعيل معطوفاً على إبراهيم، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر، يوحي بأن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم»[3].

وقال أيضاً: «تمضي الجملة القرآنية، وقد كونت من كلمات قد اختيرت، ثم نُسِّقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم ـ ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب وإحكام في تلاؤم»[4].

ومن ثم نستطيع القول: إن الجمل القرآنية تبنى بناءً متماسكاً، وفق ترتيب دقيق، ونظام بديع، أودعه إياها الحكيم الخبير، ولنورد مثالاً لذلك قوله تعالى:

---

(1) من بلاغة القرآن ص 105.
(2) البقرة 127.
(3) من بلاغة القرآن ص 105.
(4) من بلاغة القرآن ص 106.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1] .

نوعت هذه الآية ذكر مقاصدها التي حُبِّبت إلى الإنسان، فرُتبت بناءً على هذا الحبّ ترتيباً دقيقاً، ملائماً ومناسباً لرغباته الحقيقية. وقد أشار صاحب «الطراز» إلى عجائب هذه الآية ولطافة معناها في تقديم بعضها على بعض، فلما كانت الآية مسوقة من أجل تزيين المشتهيات في أفئدة بني آدم واستيلائها عليها قُدّم ما هو الأدخل في ذلك، فصدّرها بذكر النساء تنبيهاً على أن لا مشتهىً يغلب على العقول مثلهن؛ لما يغلب من توقان النفوس إليهن...

ثمّ عقّبه بذكر البنين، لما كانوا مما يلي النساء في الرقة والرحمة والشفقة والحُنُوّ، مع المشاكلة في الخِلْقة والصورة، ثم أردف ذلك بالأموال الذهبية والفضية، لما يحصل فيها من اللّذة والسرور والاطمئنان وانشراح الصدور بها والاستطالة والقوّة، كما يحصل بالأبناء، لكن الأولاد أدخلُ فرحاً وأشدّ محبة، وأكثر بهم رحمة ورأفة، وقوله: ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾ مبالغة في وصفها.

ثم عقّب ذلك بذكر الخيل لما يحصلُ بها من الجمال والهيئة الحسنة والقوّة والاستطالة على الأعداء بالقهر، وأردفها بذكر الأنعام، لما يحصل بها من المنافع، وهي دون منافع الخيل، وأتبعها بذكر الحرث، وختم هذه المنافع بذكره؛ لأن كل واحد من هذه الأشياء على مرتبة في السبق على قدر حالها[2] .

وذكر أبو حيان: أنه أتى بذكر الشهوات أولاً مجموعة على سبيل الإجمال، ثم أخذ في تفسيرها شهوة شهوة وبدأ في تفصيلها بالأهم فالأهم، بدأ بالنساء، وثنّى

(1) آل عمران 14.

(2) كتاب الطراز 3/ 313 ـ 314.

بالبنين؛ لأنهم من ثمرات النساء وفروع عنهنّ، وقُدِّموا على الأموال؛ لأن حب الإنسان ولده أكثر من حبه ماله، وحيث ذكر الامتنان والإنعام أو الاستعانة والغلبة قُدِّمت الأموال على الأولاد، وثُلِّث بالأموال لما في المال من الفتنة، ولأنه يحصل به غالب الشهوات[1].

يتبين لنا مما سبق أن الجملة القرآنية في الآية، مبنية بناءً دقيقاً محكماً، مرتبطة بما قبلها وما بعدها، برابط قوي، لتؤدي معانيها في الآية خير أداء، وفق نظام دقيق، وتصرُّف عجيب، وترتيب محكم، مترابط الحروف والكلمات، والجمل؛ لتكون الآية مرتبطة مع أخواتها في تلاحم متين، وبناء محكم، فلا ضعف في تأليفها، ولا تعقيد في نظمها، ولكن حسن تنسيق وبيان، تسلم معه الآية إلى التي تليها في اتساق والتئام.

6.بناء الأفعال في الآية:

تُبنى الأفعال في الآية بناءً دقيقاً، إذ يوضع الفعل الأنسب في موقعه من الآية، مصوّراً لمعناه أبلغ تصوير، ونعني بذلك التنويع العجيب. الذي يتصرف إليه البيان القرآني، حين يُصَرِّف الأفعال في مواضعها، فيأتي بالماضي ثم ينتقل إلى المضارع، وقد يكون العكس، وقد يتصرف من المضارع إلى الأمر، إلى غير ذلك مما تتصرف إليه الأفعال في الآيات الكريمة، وسنحاول في هذه الدراسة أن نذكر بعض الأمثلة، التي تبيِّن البناء الدقيق، والتصريف العجيب.

فمن ذلك تصريف الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[2].

---

(1) البحر المحيط 2/ 413 ـ 414.

(2) هود 54.

يرى ابن الأثير، أنه ليس الانتقال فيـه مـن صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقط، بل لأمر وراء ذلك، وإنما يقصد إليه تعظيماً لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيماً لأمره، وبالضّدّ من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر، ولم يقل وأشهدكم ليكون موازياً له وبمعناه[1].

وقد علل ذلك الزمخشري بقوله: «لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول؛ لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة»[2].

وقد يتصرف من الفعل الماضي إلى فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[3].

والسر في ذلك قد بيَّنه ابن الأثير، إذ قال: «فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية»[4].

وقد يتصرف من الماضي إلى المضارع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[5].

قال صاحب «الطراز»: «فوسّط قوله: ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين فعلين ماضيين، وهما قوله: ﴿ أَرْسَلَ ﴾ و﴿ فَسُقْنَٰهُ ﴾ والسر

(1) المثل السائر 2/ 183 ـ 184.
(2) الكشاف 2/ 184.
(3) الأعراف 29.
(4) المثل السائر 2/ 184.
(5) فاطر 9.

في مثل هذا، هو أن الفعل المستقبل يوضّح الحال، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ الإنسان يشاهدُها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عُطِف؛ لأنه لا يُعطي هذا المعنى، ولا يدلّ عليه، فإذا قال: فتثير، على جهة الاستقبال بعد ما مضى قوله: أرسل، فإنما يكون دالا على حكاية الحال التي تقع فيها إثارة الريح للسحاب، واستحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة»[1].

وقد يتصرف من المضارع إلى الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[2].

والسر في هذا التصريف قد بينه صاحب «كتاب الطراز» إذ قال: «لأن إيثار الماضي والعدول إليه دال على مبالغة في الثبوت والاستقرار»[3].

وقال غيره: «فإنه إنما قال ﴿ فَفَزِعَ ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله ﴿ يُنفَخُ ﴾ وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدلُ على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به»[4].

يتضح لنا مما سبق أن كل فعل يتصرف في موقعه الأخص به، من تلك الآية الوارد فيها، مُحَقِّقاً مقاصد الآية أبلغ تحقيق.

ثالثاً: بناء الآيات على الفصل والوصل:

أشار غير واحد من علماء البلاغة إلى الفصل والوصل وقيمته البلاغية، فقد جعله الجرجاني، أخفى وأغمض علم من علوم البلاغة، وأدقها وأصعبها، إذ قال:

---

(1) الطراز 2/ 138 وانظر المثل السائر 2/ 185.

(2) النمل 87.

(3) الطراز 2/ 139.

(4) المثل السائر 2/ 190.

«واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خَفِيٌّ غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدقُّ وأصعبُ»[1].

وقال الخطيب القزويني: «الوصلُ عطفُ بعض الجُمَلِ على بعض، والفصل تركه وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقضيه البلاغةُ فنٌّ منها عظيم الخطر، صَعْبُ المسلك، دقيق المأخذ، لا يعرفه على وجهه ولا يحيط على كُنهه إلا من أوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً، ورُزق في إدراك أسراره ذوقاً صحيحاً، ولهذا قَصَرَ بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل والوصل، وما قَصَرها عليه لأن الأمر كذلك، وإنّما حاول بذلك التنبيه على مزيد غمُوضِه، وأن أحداً لا يكمُل فيه إلا كمل في سائر فنونها؛ فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان»[2].

وقال ابن النقيب المصري: «وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف والتصدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، وهو من أعظم أركان البلاغة حتى قال بعضهم حد البلاغة معرفة الفصل والوصل... واعلم أن فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلا هذا القدر، وهو الواو، وهو المراد بالذكر هاهنا»[3].

والذي يهمّنا في هذا المقام أن نبيِّن كيف يُصَرِّف القرآن آياته بالفصل والوصل، وذلك بعرض بعض الأمثلة التي تبين التصريف العجيب، والتفنن البديع، في بناء الآيات على هذا وذاك، إذ تأتي الآيات مفصولةً وموصولةً؛ لتُحَقّقَ كلٌّ مقاصدها في أعلى درجات البلاغة والبيان.

---

(1) دلائل الإعجاز ص 131.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة 1/ 246.

(3) مقدمة تفسير ابن النقيب المصري ص 257.

1. **بناء الآيات على الفصل:**

الفصل: ترك العطف لموجب يقتضيه السياق، ويحقق المعنى أدق تحقيق؛ لأنه الأبلغ في محلّه، الأدق في تحقيق مقاصده، إذ تتصرف الجملة القرآنية، مفصولة غير موصولة؛ لتحقق البناء الدقيق مع ما قبلها، فتعطي معانيَ دقيقةً، لا تعطيها لو كانت موصولةً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

قال الجرجاني: «قوله: ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ بيانٌ، وتوكيد، وتحقيق لقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: «هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية، لتُثْبتة، وليس يُثْبت الخبرَ غيرُ الخبرِ، ولا شيء يتميّز به عنه فيحتاج إلى ضامّ يضمُّه إليه، وعاطف يعطفُه عليه»[2].

ويرى صاحب «الإيضاح في علوم البلاغة»: «أنه نزّل الثانية من الأولى منزلة التأكيد اللفظيّ من متبوعه في اتحاد المعنى، فإن ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ معناه أنه في الهداية بالغٌ درجةً لا يُدْرَك كُنهُها، حتى كأنّه هداية محضة، وهذا معنى قوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾؛ لأن معناه: الكتاب الكامل، والمراد بكماله، كمال في الهداية؛ لأن الكتب السماوية بحسبها تتفاوتُ في درجات الكمال»[3].

وقيل: «إن الجملة الثانية ترفع ما قد يتوهم في الجملة الأولى، من تجوُّز أو سهوٍ أو نسيان، فتعريف جزأي الجملة الأولى، والمجيء باسم الإشارة للبعيد، مُؤْذِنٍ بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ أسمى درجات الكمال.

ولـمّا كان ذلك قد يوهم أن ثَمَّة مبالغةً في هذا الوصف نفى هذا الوهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ أي في بلوغه تلك الغاية من الكمال، تأكيداً لما فهم من

---

(1) البقرة: 1، 2.
(2) دلائل الإعجاز ص 227.
(3) الإيضاح 1/ 251.

الجملة الأولى، وأتبعه كذلك بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيداً ثانياً؛ لأن معنى بلوغ القرآن للكمال إنما هو كماله في الهداية والإرشاد»[1].

يتبين لنا مما سبق أن الجمل القرآنية تأتي مفصولةً؛ لتحقق معاني بليغة، ترجع إلى العلاقة القوية في بناء الآية أو الجملة مع ما قبلها، وأن الفصل في مثل هذه الآية أنسب من الوصل.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

فما وجه الفصل بين قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؟

إن هذه الجمل اتصلت بذات نفسها بالتي قبلها، وقد استغنت عن الرابط، وذلك للتأكيد والبيان الذي يحقق المقاصد المرادة.

وقد أوضح الجرجاني وجه الفصل بين هذه الجمل فقال: «قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ تأكيد ثانٍ أبلغ من الأوّل؛ لأن من كان حالُه إذا أُنْذِر مثل حاله إذا لم يُنْذر، كان في غاية الجهل، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة»[3].

ووافقه الخطيب القزويني، إذ قال: «فإن معنى قوله ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معنى ما قبله، وكذا ما بعده، تأكيد ثان؛ لأن عدم التفاوت بين الإنذار وعدمه، لا يصحّ إلا في حق من ليس له قلبٌ يخلص إليه حقٌّ، وسمع تدرك به حجّة، وبصر تثبت به عبرة»[4].

---

(1) من بلاغة القرآن ص 177.

(2) البقرة 6 ـ 7.

(3) دلائل الإعجاز ص 228.

(4) الإيضاح 1/ 252.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

ترك العطف بين الآية الأولى والثانية، للبيان والتأكيد، فقوله: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ﴾ تأكيد لما قبله وبيان له.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

ترك العطف بين الآية الأولى والثانية، وذلك للعلاقة المعنوية التي تربط بينهما، فجاءت الثانية بياناً وتأكيداً للأولى.

قال ابن النقيب: «فقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ كلام مستأنف وهو إخبار من ـ الله تعالى ـ فلو أتى بالواو العاطفة، لكان إخباراً عن اليهودية بأنهم وصفوا أنفسهم بأنهم مفسدون فيختل المعنى ويتناقض الكلام»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[4].

يرى الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحلّ

---

(1) البقرة 8 ـ 9.

(2) نفسها 11 ـ 12.

(3) مقدمة ابن النقيب ص 259.

(4) البقرة 14 ـ 15.

بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله[1].

وقال السيد الشريف الجرجاني: «وإنما كان في غاية الجزالة والفخامة لدلالته على أنهم بالغوا في استهزائهم مبالغة تامة، ظهر بها شناعة ما ارتكبوا وتعاظم على الأسماع على وجه يحرك السامع أن يقول: هؤلاء الّذين هذا شأنهم ما مصير أمرهم وعقبى حالهم، وكيف معاملة الله ـ تعالى ـ والمؤمنين إيّاهم؟».

ثم ذكر أن لتصدير الاستئناف بذكر الله ـ تعالى ـ وحده لفائدتين: «الأولى: التنبيه على أن الاستهزاء بالمنافقين هو الاستهزاء الأبلغ، الذي لا اعتداد معه باستهزائهم، وذلك لصدوره عمن يضمحل علمهم وقدرتهم في جنب علمه وقدرته.

والثانية: للدلالة على أنه ـ تعالى ـ يكفي مؤنة عباده المؤمنين وينتقم لهم ولا يحوجهم إلى معارضة المنافقين تعظيماً لشأنهم، وفي هاتين الفائدتين زيادة تأييد لجزالة الاستئناف وفخامته»[2].

وعلل الخطيب القزويني سبب عدم عطف قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ على قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ لأنه لو عطف عليه لكان من مقول المنافقين، وليس منه[3].

وقال ابن المنير: «لو عطف لأشعر بأن الغرض كل الغرض اجتماع مضمون الجملتين وإعراض عن هذا المعنى الذي ينفرد به الاستئناف»[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5].

---

(1) الكشاف 1/ 187 ـ 188.

(2) الكشاف 1/ 187.

(3) الإيضاح 1/ 247.

(4) الكشاف 1/ 187.

(5) لقمان 7.

ذكر الجرجاني أنه لم يأت معطوفاً؛ لأن المقصود من التشبيه بمن في أُذنيه وقرٌ هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع، إلا أنّ الثاني أبلغ وآكد في الذي أريد.

وذلك أن المعنى في التشبيهين جيمعاً أن ينفى أن يكون لتلاوة ما تلي عليه من الآيات فائدةٌ معه، ويكون لها تأثير فيه، وأن يُجْعَل حاله إذا تُليت عليه كحاله، إذا لم تُتلى، ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقر أبلغ وآكد في جعله كذلك، من حيثُ كان من لا يصح منه السمع وإن أراد ذلك[1].

وقد يأتي الفصل بقصد الإثبات والتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[2].

عند الجرجاني هذه الآية من اللّطيف في ذلك، مبيِّناً أن قوله: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ مشابك لقوله تعالى: ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا ﴾ ومُدَاخلٌ في ضمنه في ثلاثة أوجه: وجهان هو فيهما شبيه بالتأكيد، ووجهٌ هو فيه شبيه بالصفة، فأحد وجهي كونه شبيهاً بالتأكيد، هو أنه إذا كان ملكاً لم يكن بشراً، وإذا كان كذلك كان إثبات كونه ملكاً تحقيقاً لا محالة، وتأكيداً لنفي أن يكون بشراً.

والوجه الثاني أن الجاري في العرف والعادة أنه إذا قيل: ما هذا بشراً، وما هذا بآدمي، والحالُ حالُ تعظيم وتعجّب، مما يشاهد في الإنسان، من حسن خَلْق أو خُلُق أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال: إنه ملك، وأنه يُكْنَى به عن ذلك[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[4].

(1) دلائل الإعجاز ص 228 ـ 229، وانظر مقدمة تفسير ابن النقيب ص 257.
(2) يوسف 31.
(3) دلائل الإعجاز ص 230.
(4) يس 69.

فقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ إثبات وتأكيد لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وفي ذلك من البناء الدقيق والترابط المتين ما لا يخفى.

وقد يأتي الفصل شارحاً وموضحاً للجملة الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1].

فالقول الثاني جاء شارحاً ومبيِّناً للقول الأول. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[2].

فالإمداد الثاني جاء شارحاً ومفصلاً للأوّل، وذلك ما ينفي التكرار بين هذه الآيات.

قال الزمخشري: «بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها ثم فصَّلها، مستشهداً بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سِنَةِ غفلتهم عنها حين قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضّل عليكم بهذه النعمة فهو قادر على الثواب والعقاب فاتقوه»[3].

واتبعه أبو السعود إذ قال: «من أنواع النَّعْماء وأصناف الآلاء أجملها أولاً، ثم فصَّلها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير، فإن التفصيل بعد الإجمال والتفسير إثر الإبهام أدخل في ذلك»[4].

وذكر الخطيب القزويني أن ذلك مسوقٌ للتنبيه على نعم الله ـ تعالى ـ عند المخاطبين، وهو أوفى بتأدية مما قبله؛ لدلالته عليها بالتفصيل، من غير إحالة على

(1) المؤمنون 81 ـ 82.
(2) الشعراء 132 ـ 134.
(3) الكشاف 3/ 122.
(4) إرشاد العقل السليم 6/ 257.

علمهم مع كونهم معاندين، والإمداد بما ذُكِرَ من الأنعام وغيرها بعض الإمداد بما يعلمون، ويحتمل الاستئناف[1].

وقد يأتي الفصل واقعاً في موضع جواب لسؤال صريح في الجملة الأولى، أو يفهم من الكلام.

قال الجرجاني: «وأعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ «قال» مفصولاً غير معطوف، هذا هو التقدير فيه ـ والله أعلم ـ ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[2].

ثم قال: «جاء على ما يقع في أنفُس المخلوقين من السُّؤال، فلما كان في العُرْف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم «دخل قوم على فلان، فقالوا كذا» أن يقولوا: «فما قال هو؟» ويقول المجيب: «قال كذا» أُخْرِجَ الكلامُ ذلك المخرج؛ لأنّ الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسُلِكَ باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه»[3].

وذكر الخطيب القزويني أن تنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يُصار إليه إلا لجهات لطيفة؛ إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العطف أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السّلْك[4].

وسماه محمد بن عاشور بالمحاورات، في مواضع عديدة من تفسيره نورد منها قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[5].

(1) الإيضاح 1/ 252.

(2) الذاريات 24 ـ 25.

(3) دلائل الإعجاز ص 240.

(4) الإيضاح 1/ 255 ـ 256.

(5) البقرة 30.

وجّه هذه الآية، بأن هذا جواب الملائكة عن قول الله لهم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فالتقدير قالوا على وزن قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾[1].

وفصل الجواب، ولم يعطف بالفاء، أو الواو، جرياً على طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات، وهذه طريقة عربية.

وعلل حذف العاطف، لكراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإن المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التنزيل، وربّما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضي مخالفة الاستعمال، وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل.

وقد يعطف بالفاء أو الواو، وذلك إذا لم يكن المقصود حكاية التحاور بل قصد الإخبار عن أقوال جرت، أو كانت الأقوال المحكية مما جرى في أوقات مختلفة، أو أمكنة متفرقة، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[2].

ومن ذلك ما جاء في قصة فرعون، وفي ردّ موسى ـ عليه السلام ـ حين قال: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

(1) البقرة 34.

(2) غافر 25 ـ 26 وانظر التحرير والتنوير 1/ 401.

﴿ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[1].

قال الجرجاني: «جاء ذلك كله - والله أعلم - على تقدير السؤال والجواب، كالذي جرت به العادة فيما بين المخلوقين، فلمّا كان السامع منّا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وقع في نفسه أن يقول: فما قال موسى له؟ أتى قوله: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مأتى الجواب مبتدأ مفصولاً غير معطوف...»[2].

2.بناء الآيات على الوصل:

الوصل: عطف بعض الجمل على بعض، لتكون بناءً متماسكاً قوياً، وتحقق مقاصد الآية الكريمة على أكمل وجه. وسنحاول في هذه الفقرة، أن نذكر بعض الأمثلة التي تبيِّن البناء الدقيق، والعلاقة القوية، بين الجمل القرآنية، حين يقتضي المقام عطف بعضها على بعض، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

قال السيد الشريف الجرجاني: «فالجملتان المشتملتان عليهما المتحدثان في المخبر عنه متوسطتان بين كمالي الاتصال والانقطاع، فلذلك أدخل العاطف بينهما»[4].

وذكر محمد بن عاشور أن وجه العطف بالواو دون الفصل أن بين الجملتين توسطاً بين كمالي الاتصال والانقطاع؛ لأنك إن نظرت إلى اختلاف مفهومهما وزمن حصولهما فإن مفهوم إحداهما وهو الهدى حاصل في الدنيا، ومفهوم الأخرى وهو الفلاح حاصل في الآخرة كانتا منقطعتين، وإن نظرت إلى تسبب مفهوم إحداهما عن

---

(1) الشعراء 23 - 31.
(2) دلائل الإعجاز ص 241.
(3) البقرة 5.
(4) الكشاف 1/ 145.

مفهوم الأخرى، وكون كل منهما مقصوداً بالوصف كانتا متصلتين، فكان التعارض بين كمالي الاتصال والانقطاع منزلاً إياهما منزلة المتوسطتين[1].

نخلص إلى أن عطف الجملة الثانية على الأولى هو الأبلغ الذي يحقق المقاصد، وينفي صفة التكرير عن هذه الجمل الكريمة، إذ ليس الأمر كما يراه الزمخشري وغيره، حين قال: «وفي تكرير أولئك تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح».

ثم نراه فيما بعد يرد على نفسه إذ يقول: «قد اختلف الخبران ههنا، فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى من العطف بمعزل»[2].

فإذا كان الخبران مختلفين فأين التكرير الذي يراه الزمخشري وغيره؟ ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره أبو حيان حين قال: «ولما اختلف الخبران كما ذكرنا أتى بحرف العطف في المبتدأ، ولو كان الخبر الثاني في معنى الأول لم يدخل العاطف؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[4].

يرى أبو السعود أن قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معطوف على الجملة السابقة لكن لا على أن المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مُشاكل يصح عطفه

(1) التحرير والتنوير 1/ 246.
(2) الكشاف 1/ 145.
(3) البحر المحيط 1/ 169.
(4) البقرة 25.

عليه بل على أنه عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف ثوابهم على قصة الكافرين به، وكيفيّة عقابهم جرياً على السُّنَّة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد[1].

وقد تعطف الجمل بعضها على بعض انتقالاً في الاستدلال على أن الله واحد، وبطلان الشرك، وذلك ما بينه الشيخ محمد بن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

إذ قال: «عطفت قصة خلق أول البشر على قصة خلق السموات والأرض انتقالاً بهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم وتخلصهم من ذكر خلق السموات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها، ليُجمع بين تعدد الأدلة وبين مختلف حوادث تكوين العوالم وأصلها؛ ليعلم المسلمون ما عَلِمَه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يُباهون به العربَ»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4].

قال أبو السعود: «شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجمالي، تحقيقاً لمضمونه وتفسيراً لإبهامه، وهو عطف على قال، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مر من المقاولة المحكية، إنما جرت بعد خلقه ـ عليه السلام ـ بمحضر منه، وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله ـ عليه السلام ـ»[5].

---

(1) إرشاد العقل السليم 1/ 68.

(2) البقرة 30.

(3) التحرير والتنوير 1/ 395.

(4) البقرة 31.

(5) إرشاد العقل السليم 1/ 83.

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1].

وقد بين سر عطف الجمل في هذه الآيات وتنوعه، ابن النقيب فقال: «عطف أولاً بالواو؛ لأن الإطعام والإسقاء ليس فيهما ترتيب، واجب مع أن تأخير الإسقاء أولى، ولذلك أخره في الذكر، وعطف ثانياً بالفاء إذ لا مهلة بين المرض والشفاء، وعطف بثم لما بين الإماتة والإحياء من المهلة، ومع ذلك نسب الموت إلى الله لما في ذلك من إظهار القدرة والقهر، ونسب المرض إلى نفسه؛ لأن الأدب أن لا ينسب إلى الله ـ تعالى ـ»[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[3].

عطفت هذه الجمل في الآيات الكريمة بدقة عجيبة، إذ تنوعت هذه الأدوات؛ لتعطي كل واحدة منها في موضعها معاني لا يعطيها غيرها من أدوات العطف الأخرى، فكل واحدة أدقُّ في موضعها وأنسبُ في مَحلِّها، لتحقق المقاصد الجليلة للآيات الكريمة.

وقد بين سرّ ذلك صاحب «من بلاغة القرآن» إذ قال: «وعطف قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بالفاء، تنبيهاً على أن التقدير مرتب على الخلق وعلى عدم التراخي بينهما، وعطف السبيل بثم، لما بين الخلق والهداية من التراخي والمهلة الكثيرة، ثم عطف الإماتة بثم، إشارة إلى التراخي بينهما بأزمنة طويلة، ثم عطف الإقبار بالفاء،

---

(1) الشعراء 78 ـ 82.

(2) مقدمة تفسير ابن النقيب ص 260.

(3) عبس 17 ـ 22.

إذ لا مهلة هناك، ثم عطف الإنشار بثم، لما يكون هناك من التراخي باللّبث في الأرض أزمنة متطاولة»[1].

يتبين لنا من الآيات السابقة دقة البناء في وصل الجمل القرآنية بعضها ببعض، بحروف العطف المختلفة، فكل حرف من حروف العطف له دلالته الخاصة به.

وقد تعطف الجمل في الآية لجهة جامعة بين المعطوف والمعطوف عليه كما في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[2].

ويجمع القرآن بالواو بين المعاني المتناسبة، في الآية، وذلك للعلاقة القوية بين هذه المعاني، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

نستخلص من العرض السابق أن الجمل القرآنية، تأتي مفصولة وموصولة، لتكون كل منها أدق في موضعها، وأبلغ في تحقيق مقاصدها، وبذلك تتحقق العلاقة القوية بين المفردات والمعاني في الآية، مع ما قبلها وما بعدها، وتحقق أيضاً الترابط المتين، والبناء المتماسك.

---

(1) من بلاغة القرآن ص 179.
(2) سبأ 2.
(3) الأنعام 162.

المبحث الثالث
تصريف الكلمة الواحدة في المعاني المختلفة

تتصرف الألفاظ القرآنية بطرائق شتى وأساليب مختلفة؛ لتحقيق مقاصدها في دقة وإحكام، ونعني بذلك في هذا المقام، تصريف الكلمة الواحدة في المعاني المختلفة.

وقد تصدى لبيان هذا النوع من البيان القرآني الّذين صنفوا في الوجوه والنظائر، بيد أنهم لم يحددوا هذا المصطلح تحديداً دقيقاً، إلا عالماً واحداً منهم هو يحيى بن سلام، الذي حاول أن يضبط موضوع كتابه بأكثر دقة، إذ سماه «التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه».

وهم يعنون بذلك إيراد الوجوه التي يتصرف إليها اللفظ الواحد في القرآن الكريم، ومن هنا فإنه يجدر بنا أن نستعرض معاني هاتين الكلمتين، وهما الوجوه والنظائر. فالوجوه ـ على ما ذكر صاحب اللسان ـ: «وجه الكلام: السبيل الذي تقصده به.. وصرف الشيء عن وجهه أي سننه».

وفي حديث أبي الدرداء: «لا تَفْقَهُ حتى ترى للقرآن وُجُوهاً» أي ترى له معاني يحتملها فتهاب الإقدام عليه.

ووُجُوه البلد: أشرافه؛ ويقال: هذا وجه الرأي، أي هو الرأي نَفْسُه»[1] وقال صاحب «معجم مقاييس اللغة»: «الواو والجيم والهاء: أصلٌ واحد يدلُّ على مقابلة لشيء، والوجه مستقبل لكل شيء»[2].

---

(1) لسان العرب 3/ 556 مادة (وجه).

(2) معجم مقاييس اللغة 6/ 88 مادة (وجه).

هذه المقابلة في رأينا، مقابلة في أصل مادة الكلمة، وأما معانيها فمختلفة حسب مواقعها.

وأما النظائر، فقال فيها ابن منظور: «والنظير: المِثْلُ، وقيل: المثل في كل شيء، وفلان نظيرك أي مثلك؛ لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواءً، الجوهري: ونظير الشيء مثله.

وحكى أبو عبيد: النظر والنظير بمعنى مثل النّدّ والنديد، والجمع النظائر في الكلام والأشياء كلها، وفي حديث ابن مسعود: لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله - ﷺ - يقوم بها عشرين سورة من المفصّل، سميت نظائر لاشتباه بعضها ببعض في الطول، والنظائر جمع نظيرة، وهو المثلُ والشبه في الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال»[1].

وجاء في «مجمل اللغة»: «والنظير: المِثْلُ، وهو الذي إذا نُظِرَ إليه وإلى نظيره كانا سواء»[2]. ونجد هذه المعاني واردة أيضاً في «معجم مقاييس اللغة»[3].

وقال صاحب «تاج العروس»: «النظير، كأمير، والمناظر: المثلُ والشبيه في كل شيء، يقال فلان نظيرك أي مثلك؛ لأنه إذا نظر إليهما الناظِرُ رآهما سواءً، والنظائر: الأفاضل والأماثِلُ، لاشتباه بعضهم ببعض في الأخلاق، والأفعال، والأقوال»[4].

(1) لسان العرب 5/ 219 مادة (نظر).

(2) مجمل اللغة 4/ 873، مادة (نظر).

(3) معجم مقاييس اللغة 5/ 444 مادة (نظر).

(4) تاج العروس 14/ 149 مادة (نظر).

وقد صنف فيه قديماً، مقاتل بن سليمان، وجمع فيه من المتأخرين ابن الزاغوني[1] وأبو الفرج بن الجوزي[2]، والدامغاني[3] الواعظ، وأبو الحسين بن فارس[4]، وسمي كتابه «الإفراد»[5].

فالوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان؛ كلفظ «الأمة»[6] والنظائر كالألفاظ المتواطئة.

وقيل: النظائر في اللفظ، والوجوه في المعاني، وضُعّف؛ لأنه لو أريد هذا لكان الجمعُ في الألفاظ المشتركة، وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد في مواضع كثيرة؛ فيجعلون الوجوه نوعاً لأقسام، والنظائر نوعاً لآخر، كالأمثال.

---

(1) ابن الزّاغوني هو: أبو الحسن علي بن عبيد الله بن نصر بن السريّ بن الزاغوني، الحنبلي، من كتبه «الإقناع» و«الواضح» توفي سنة 527هـ (انظر كشف الظنون 2/ 200 والأعلام للزركلي 5/ 124). وشذرات الذهب 4/ 80 ـ 81).

(2) وأبو الفرج بن الجوزي هو: عبد الرحمن بن عليّ بن محمد الجوزي، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، منها «شذور العقود في تاريخ العهود» و«فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» توفي سنة 597هـ (وفيات الأعيان 3/ 140 والأعلام للزركلي 4/ 89).

(3) والدامغاني هو: أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، توفي سنة 478هـ. من تصانيفه «الزوائد والنظائر وفوائد البصائر في القرآن» ويسمى أيضاً الوجوه والنظائر في مجلد، و«شوق العروس وأنس النفوس» (انظر كشف الظنون 2/ 200 وهدية العارفين 2/ 74، 1/ 310). وشذرات الذهب 3/ 362).

(4) وابن فارس هو: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، أبو الحسين من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه «مقاييس اللغة» و«جامع التأويل» توفي سنة 395هـ (الأعلام للزركلي 1/ 184). وجاء في هدية العارفين 1/ 69 أن له كتاباً في الوجوه والنظائر.

(5) ذكر ذلك أيضاً السيوطي في الإتقان 2/ 121، وزاد: أبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصريّ وآخرون، وقد خلط بين كنية ابن فارس، ومحمد بن عبد الصمد المصري، وتابعه في هذا الخلط: طاش كبرى زادة في مفتاح السعادة 2/ 377.

(6) ذكر السيوطي في الإتقان 2/ 121: أنه أفرد في هذا الفن كتاباً سماه «معترك الأقران في مشترك القرآن» وقال صاحب «مفتاح السعادة» و«كتاب معترك الأقران في مشترك القرآن» للسيوطي كاف في هذا الفن (مفتاح السعادة 2/ 377).

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقلّ؛ ولا يوجد ذلك في كلام بشر.

وذكر مقاتل في صدر كتابه حديثاً مرفوعاً: «لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة»[1].

قال السيوطي: «أخرج هذا الحديث ابن مسعود وغيره عن أبي الدرداء موقوفاً ولفظه: «لا يفقه الرجل كُلَّ الفقه» وقد فسّره بعضهم بأنّ المراد أن يُرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة فيحمله عليها إذا كانت غير متضادّة ولا يقتصر به على معنى واحد.

وأشار آخرون إلى أنّ المراد به استعمال الإشارات الباطنة، وعدم الاقتصار على التفسير الظاهر.

وقد أخرجه ابن عساكر في تاريخه من طريق حمّاد بن زيد، عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الدرداء، قال: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً»[2].

وقال حاجي خليفة في «كشف الظنون»: «علم الوجوه والنظائر: وهو من فروع التفسير، ومعناه: أن تكون الكلمة الواحدة ذُكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بها في كل مكان معنى غير الآخر، فلفظ كل كلمة ذُكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، هو النظائر وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الأخرى هو الوجوه.

فإذاً النظائر اسم الألفاظ والوجوه اسم المعاني، وقد صنف فيه جماعة منهم الشيخ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، فإنه جمع أجود ما جمعوه في مختصر سماه «نزهة الأعين»[3] في علم الوجوه والنظائر، ورتبه

---

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 102 ـ 103.

(2) الإتقان 2/ 121 ـ 122 وانظر مفتاح السعادة 2/ 377. والحديث أورده أيضاً ابن سعد في الطبقات الكبرى 2/ 357.

(3) كتابه الذي بين أيدينا اسمه «منتخب قرّة العيون النّواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم».

على الحروف، قال: وقد نسب كتاب فيه إلى عكرمة عن ابن عباس، وكتاب آخر إلى علي بن أبي طالب عن ابن عباس، وألف فيه مقاتل بن سليمان، وأبو الفضل العباس بن الفضل الأنصاري، وروى مطروح بن محمد بن شاكر عن عبدالله بن هارون الحجازي عن أبيه كتاباً منه، وألف فيه أبو بكر محمد بن الحسن النقاش، الموصلي المتوفى سنة 351هـ وأبو عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، وأبو علي بن البناء «هو الحسن بن البناء المقري الحنبلي، المتوفى سنة 471». وأبو الحسن علي بن عبيد الله بن الزاغوني، البغدادي الحنبلي المتوفى سنة 527[1].

يستفاد من العرض السابق أن الوجوه هو تصريف الكلمة المفردة في المعاني المختلفة، وتختص بالكلمة الواحدة ذات الأصل الاشتقاقي الواحد والدلالات المتعددة.

والنظائر هو التصريف بمعنى التشابه والتماثل، وذلك في صور الألفاظ لا في دلالاتها ومعانيها، إذ الألفاظ القرآنية تختلف معانيها حسب مواقعها ومناسباتها.

والنظائر تكون في الكلمة الواحدة وفي غيرها، وهي أوسع وأعم من الوجوه، فهي تشمل ما يسمى بالوجوه وما يسمى بالمتشابه أو التكرار.

والجدير بالتنبيه إليه في هذه الدراسة، أن هؤلاء العلماء الّذين ألفوا في الوجوه والنظائر، لم يفرقوا بين الوجوه والنظائر تفريقاً دقيقاً، ولم يستعملوا هذا المصطلح في موضعه الصحيح بدقة، إذ الأولى أن يستعملوا مصطلح التصريف، وهو ما سنتحدث عنه في هذا المبحث، لنبين أن ما تكلموا عنه باسم الوجوه والنظائر، أو النظائر أحياناً، هو تصريف للقول، على سبيل المثال؛ لأن المقام لا يسع لاستقصائها جميعاً.

نجد أن الكلمة المفردة ذات الأصل الاشتقاقي الواحد تتصرف في القرآن الكريم إلى معانٍ مختلفة، حسب ورودها في الآيات، وحسب موقعها ومناسباتها، لتؤدي

(1) كشف الظنون 2/ 200.

معانيها وتحقق أغراضها في دقة وإحكام، وذلك في أعلى درجات البلاغة والبيان، التي لا تصل إليها بلاغة بشر مهما كان؛ لأنها: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

قال صاحب «سرّ الإعجاز في تنوّع الصيغ»: «فحق أن تتنوع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن الكريم؛ لأن كل صيغة جاءت لمعنى لا تؤديه صيغة أخرى، ولسياق لا يناسبه ولا يلتحم به صيغة غيرها، ولو كانت من صيغ الأصل اللغوي نفسه»[2].

أولاً: الدلالات التصريفية لكلمة: الهدى:

ومن تلك الصور البيانية ذات التصرف العجيب، والتفنن الدقيق، والدلالات الكثيرة، تصريف كلمة «الهدى» ذات الأصل الاشتقاقي الواحد. إلى المعاني الآتية:

1ـ الإرشاد:

فالهُدى ـ بضمّ الهاء وفَتْح الدّال ـ الرّشاد والدّلالةُ يذكّر ويُؤنّث، هداهُ هُدىً، وهَدْيا وهِداية وهِدْية ـ بكسرهما ـ أرشده فاهتدى وتهدّى، وهداه الله الطّريق وللطّريق وإلى الطّريق، ورجل هَدُوٌّ كعدوّ: هاد، وهو لا يهدي الطريق ولا يهتدي قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[3]. والمعنى أرشدنا، وقيل: أي قدمنا إليه، وقيل: ثَبِّتْنا عليه، وقيل: وفّقنا؛ وقيل: ارزقنا، وكلّها أقوال متقاربة، والهدى ضد الضلال وهو الرشاد[4].

قال ابن عطية: «والهداية في اللغة الإرشاد، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تؤملت رجعت إلى الإرشاد»[5].

---

(1) فصلت 42.

(2) سرّ الإعجاز في تنّوع الصّيغ المشتقة من أصل لغويّ واحد في القرآن ص 35.

(3) الفاتحة 6.

(4) بصائر ذوي التمييز 5/ 312 ولسان العرب 15/ 354ـ 355 مادة (هدى).

(5) المحرر الوجيز 1/ 73.

إن ابن عطية بتفسيره هذا لكلمة (الهدى) في اللغة قد تنبه لهذا النوع من البيان القرآني، ونعني بذلك قوله: «لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد». وهو يعني بذلك تنويع الكلمة الواحدة في سياقاتها المختلفة.

وقال يحيى بن سلام: «هُدىً يعني رشاداً، وذلك قوله في القصص: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]. قال قتادة: أن يرشدني.

وفي طه: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾[2]. يعني مرشداً للطريق، وقال قتادة: يهدونه الطريق، وفي ص: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[3]. يعني أرشدنا، وفي فاتحة الكتاب ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يعني أرشدنا ونحوه كثير»[4].

وقال عبد الملك بن محمد الثعالبي: «أي ثبِّتنا»[5] وكذا قال ابن الجوزي[6].

وهكذا فإن هذه الكلمة ذات الأصل الاشتقاقي الواحد، تصرفت لتؤدي دلالات متقاربة في صيغ وأساليب مختلفة، فآية الفاتحة، جاءت بفعل الأمر (اهدنا) والمراد الدعاء «رغبة لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا صيغة الأمر كلها، فإذا كانت من الأعلى فهي أمر»[7].

وأما آية سورة (طه) فعبرت بالاسم هُدىً، وفي سورة (ص) عبر بفعل الأمر، المراد منه الدعاء، والفرق بين هذه السورة وما جاء في سورة الفاتحة، أن هذه الأخيرة جاءت بدون عطف، وسورة (ص) جاءت مسبوقة بواو العطف.

---

(1) الآية 22.
(2) آية 10.
(3) آية 22.
(4) التصاريف ص 100.
(5) الأشباه والنظائر ص 272.
(6) قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر ص 244.
(7) المحرر الوجيز 1/ 73.

تلك هي بلاغة القرآن في تصريف بيانه، وتنوُّع أساليبه، التي تبعده عما يدَّعيه الطاعنون من وجود تكرار في القرآن الكريم، فالمتأمل البصير في أساليب القرآن يدرك السر الدقيق في تصريف بيانه، وحكمته العالية في ذلك.

ومن ثم نستطيع القول: إن كل كلمة من هذه الكلمات جاءت تابعة لسياقها الواردة فيه، ومحققة لمعناها في السياق.

2.البيان:

استعمل القرآن الكريم كلمة (الهدى) بمعنى البيان، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[6].

---

(1) البقرة 5.

(2) الأعراف 100.

(3) طه 128.

(4) لقمان 5.

(5) السجدة 26.

(6) فصلت 17.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[3].

إن هذه الآيات وإن دلت على البيان، فإن ذلك لا يعني تكرارها، وإنما يعني التنويع البديع، وذلك ما نلحظه من وجود اختلاف دقيق بينها، يرجع إلى السياق الواردة فيه كلمة (الهدى) ويرجع أيضاً إلى التنويع في أسلوب عرض هذه الآيات، ذلك أن آية (البقرة) أشارت إلى المؤمنين بالغيب، والمؤمنين بما أنزل على محمد ـ ﷺ ـ وعلى من قبله من الرسل، وقد جاءت هذه الكلمة اسماً (هُدىً) والمعنى ـ على ما ذكر ابن سلام ـ «على بيانٍ من ربهم»[4].

وأما كلمة الهدى في سورة الأعراف فجاءت في سياق الاستفهام التقريري الذي يبين حال من سبقهم، وعبر عنها بالفعل المضارع، ومعنى يَهْدِ: يبيِّن ـ على ما ذكره أبو حيَّان عن ابن عباس ومجاهد، وابن زيد[5].

وأما في سورة طه فجاءت في سياق الاستفهام كذلك، فهو كما قال أبو السعود: «كذلك مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، والهمزة للإنكار التوبيخي، واستعمل الهداية باللام، إما لتنزيلها منزلة اللام، فلا حاجة إلى المفعول، أو لأنها بمعنى التبيين، والمفعول محذوف، وأيّاً ما كان، فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها، وضمير (لهم) للمشركين المعاصرين لرسول الله ـ ﷺ ـ والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم، أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى»[6].

---

(1) الإنسان 3.

(2) الأعلى 3.

(3) البلد 10.

(4) التصاريف ص 96.

(5) البحر المحيط 4/ 451.

(6) إرشاد العقل السليم 6/ 48 ـ 49.

ذلك أن هاتين الآيتين وإن تقاربتا في معانيهما، فإن أسلوبهما مختلف في معظمه، واختلاف الأسلوب ينتج عنه اختلاف المعاني.

وأما في سورة (لقمان) فقد جاءت موافقة في معناها وأسلوبها لآية (البقرة)، ذلك أن ما يفرق بينهما هو السوابق واللواحق، فعندما تقرأ الآية في سياقها متصلاً، بمعنى أن ما أشارت إليه سورة (البقرة) مختلف عما أشارت إليه سورة (لقمان)، إذ قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1]. وقال في سورة لقمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2]. إذاً يتبين من ذلك أن معانيهما مختلفة في شيء منها، ولا تكرار فيهما.

وأما في سورة (السجدة) فجاءت موافقة لآية سورة (طه)، بيد أن آية السجدة انفردت عنها بالختم بالاستفهام الإنكاري، الذي ينكر على المخاطبين عدم سماعهم للآيات، سماع تَدَبُّر واتِّعاظ[3].

وقد جاءت في سياق بيان جزاء المعرضين عن آيات الله، وبيان إتيان الكتاب لموسى عليه السلام وجعله هُدىً لبني إسرائيل، وجعل منهم أئمةً يهدون بقيتهم بما في تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق، وبيان أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يفصل بين الأنبياء وأممهم، أو بين المؤمنين والمشركين[4].

لذلك ناسبه أن يأتي بهذه الكلمة في هذا السياق الإنكاري، لعدم رؤيتهم لما حلّ بالأمم السابقة، ليلفت انتباههم إلى ذلك، ليتعظوا بهم ويتدبروا.

---

(1) البقرة 3 ـ 4.

(2) لقمان 4.

(3) إرشاد العقل السليم 7/ 87.

(4) نفسه.

وأما في سورة طه فجاءت في سياق بيان جزاء المعرضين عن ذكر الله والدعوة لعبادته، وتعديد الجزاء وذكر مسبباته، وبيان شدّة عذاب الآخرة، لذلك ناسبه أن يُصَرِّف هذه الكلمة في هذا الموضع مبيّنةً لمعناها ومكملة لمقصودها في الآية.

وأما في سورة فصلت فجاءت في سياق لفت أنظار المشركين إلى ما حلّ بالأمم السابقة ممثلاً لهم بقوم عاد وثمود، لاستكبارهم في الأرض وجحودهم بآيات الله، واختيارهم الضلالة على الهدى، فناسب ذلك أن يذكّرهم أنه لم يرسل عليهم العذاب إلا بعد أن بين لهم طريق الهدى[1]. فذلك - والله أعلم - هو سبب تصريف هذه الكلمة في هذا الموضع.

ونود أن نضيف أن هذه الآية مختلفة تمام الاختلاف مع الآيات الأخرى في أسلوبها ومعانيها الأخرى؛ لأن هذه الكلمة عندما وردت في هذا السياق فهي خاصة بقوم مُعَيَّنين، ومكملة لمعناها في الآية.

وأما في سورة (الإنسان) فجاءت في سياق بيان خلق الإنسان والقدرة الإلهية في ذلك، مذكّراً بنعمتين عظيمتين، هما نعمتا السمع والبصر، قال أبو السعود: «ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية، فهو كالمسبب عن الابتداء، فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾[2].

إن هذه الكلمة واضحة من سياقها أنها مختلفة عن غيرها في نظمها مع الآية، وفيما تحققه من معان أخرى غير البيان.

وأما في سورة الأعلى فجاءت مختلفة كذلك عن غيرها في نظمها ومعناها.

وأما في سورة البلد فجاءت في سياق تعداد نعم الله على الإنسان. والمعنى بيّنا له طريق الخير والشر[3].

---

(1) نفسه 6/ 48 - 49.

(2) إرشاد العقل السليم 9/ 70 - 71.

(3) إرشاد العقل السليم 9/ 161.

قال صاحب اللسان: «هديته الطريق بمعنى عرّفته، ويقال: هديته إلى الطريق وللطريق على معنى أرشدته إليها، ويقال: هديت له الطريق: على معنى بيّنت له الطريق، وعليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾»[1].

يتضح لنا مما سبق أن كلمة (الهدى) جاءت في هذه الآيات دالة على البيان، إذ عرضت بأساليب متنوعة غاية في البيان، لا تكرار فيها، وذلك لما انفردت به كل آية عن غيرها.

3.دين الإسلام:

استعمل القرآن الكريم كلمة (الهدى) بمعنى دين الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[5].

جاءت كلمة (الهدى) في هذه الآيات الكريمة، بمعنى دين الإسلام، وهو الدين الحق، وهو الصراط المستقيم، الذي يجب أن يتّبعه النّاس جميعاً، ويهتدوا بهداه، والذي يدل على ذلك ما جاء قبل الآية الأولى، وهو قوله - عزّ وجلّ - ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[6].

---

(1) لسان العرب 15/ 355 مادة (هدى).

(2) البقرة 120.

(3) آل عمران 73.

(4) الأنعام 71.

(5) الحج 67.

(6) البقرة 120.

قال ابن عطية: «الملّة: الطريقة، وقد اختصت اللفظة بالشرائع والدِّين»[1].

ولعل أحداً يرى أن الآيات الثلاث الأولى مكررة، فالأمر خلاف ذلك، فهذه الآيات وإن اتفقت في بعض مفرداتها، فقد اختلفت في مواضع هذه المفردات بالتقديم، أو التأخير أحياناً، وأسبابها وما أعقبت به هذه الآيات أحياناً أخرى.

ومن ثم نستطيع القول: إن هذه الآيات لا تكرار فيها، بل هي بلاغة القرآن في تصريف بيانه، وتنوُّع أساليبه، ذلك أن هذه الكلمة تابعة لسياقها الواردة فيه، ومكملة لمعنى الآية التي هي منها.

4.الإيمان والثبات عليه:

تتصرف كلمة (الهدى) في القرآن الكريم فتأتي بمعنى الإيمان والثبات عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾[5]. وذلك كثير في القرآن الكريم.

إن هذه الآيات الكريمة، وإن اتفقت في المعنى الدالة عليه، وهو الإيمان والثبات عليه، فإنها مختلفة في نظم هذه الأساليب، الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنها، ويصفها بالتنويع البديع، الراجع إلى السياق وإلى أسباب النزول وسوابق الآيات، ولواحقها، وهو ما نلحظه في هذه الآيات، عند قراءتنا لها قراءة فهم

(1) المحرر الوجيز 1/ 204.
(2) الكهف 13.
(3) مريم 76.
(4) سبأ 32.
(5) الزخرف 49.

وتدبُّر، ذلك أن هذه الكلمة الدالة على الإيمان في سورة الكهف جاءت في سياق ذكر قصة أصحاب الكهف، وبيان أنها حق مصدق، لذلك ناسبه أن يبين أنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم ثباتاً على إيمانهم، وعبر عنه بضمير العظمة الدال على المولى - عزَّ وجلَّ -.

وأما في سورة (مريم) فجاءت في سياق بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين، وبيان عاقبة الأمم المهلَكَة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة، وبيان مآل الفريقين[1] لذلك ناسبه أن يبين أن الله - تعالى - يزيد الّذين آمنوا إيماناً ويثبِّتهم عليه، وقد أظهر اسم الجلالة ولم يضمره كما في الآية السابقة.

وأما في سورة (سبأ) فجاءت في سياق تَبَرُّؤ المستكبرين من الضعفاء وتنصُّلِهم عن صدِّهم عن الإيمان وإلقاء التبعية عليهم بعد أن تبيَّن لهم.

وأما في سورة (الزخرف) فجاءت في سياق بيان مناداة فرعون وقوله لموسى، عليه السلام، ووصفه بالساحر، وأن يدعو لهم ربه أن يكشف عنهم العذاب، لذلك ناسبه أن يذكر قولهم: إننا مؤمنون.

5ـ الدّاعي:

استعمل القرآن الكريم كلمة (الهدى) بمعنى الداعي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[2]. يعني داعياً يدعوهم إلى الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[3].

---

(1) إرشاد العقل السليم 5/ 277.

(2) الرعد 7.

(3) الإسراء 9.

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

إن المتأمل في كلمة (الهدى) الدالة على الداعي في هذه الآيات داخل سياقها يجدها تتصرف كل مرة تابعة لسياقها ومحققة لمقصودها.

إن الذي نلحظه في هذه الآيات أن أسلوبها مختلف في نظمه، وهو ما ترتب عليه اختلاف في معانيها، باستثناء آيتي الأنبياء والسجدة اللتين اتفقتا في نظم بعض هذه الأساليب، غير أن ما يفرق بينهما أمران: الأول: التعبير في الأولى بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾.

عائداً على إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾[4]. وفي الآية الثانية بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ يعني من بني إسرائيل قادةً في الخير، يُؤتَمُّ بهم، ويُهتدى بهديهم[5] في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[6].

والأمر الثاني، وهو ما انفردت به الآية الثانية عن الأولى، وذلك الختم بقوله تعالى: ﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

---

(1) الأنبياء 73.

(2) السجدة 24.

(3) الشورى 52.

(4) الأنبياء 72.

(5) مختصر تفسير الطبري 2/ 270.

(6) السجدة 23، 24.

6.المعرفة:

وردت كلمة (الهدى) في القرآن الكريم دالة على المعرفة كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[4].

جاءت كلمة (الهدى) في هذه الآيات دالة على المعرفة، والمقصود منها جميعاً معرفة الله ـ تعالى ـ وتوحيده، وشكره على نعمه، ذلك أن آيتيْ النحل الأولى والثانية جاءتا في سياق تعداد نعمه ـ تعالى ـ على عباده في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[5]. وذلك لأجل معرفته ـ تعالى ـ وعبادته وشكره.

---

(1) النحل 15 ـ 16.

(2) الأنبياء 31،

(3) النمل 41.

(4) الزخرف 10.

(5) النحل 10 ـ 14.

وكذلك في الآية الثانية وهو قوله: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ مذكراً إياهم بنعمة استدلالهم بالنجم، قال البيضاوي: «وبالنجم هؤلاء خصوصاً يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم»[1].

وأما في سورة الأنبياء فجاءت دالةً أيضاً على معرفة الله - تعالى - وتوحيده، متفقةً مع الآية الأولى في سورة النحل، في نظم بعض الأساليب والمعاني غير أنهما تختلفان في أمور منها:

اختلاف السياق الذي أوضحناه في سورة النحل، وأما في سورة الأنبياء فجاءت في سياق الإنكار على الكافرين وتوجيه نظرهم إلى دلائل القدرة الإلهية في فتق السماء عن الأرض، وخلق كل شيء حيّ من الماء، في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2].

ومنها التعبير في الأولى بـ ﴿ أَلۡقَىٰ ﴾ وفي الثانية بقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا ﴾ ومنها التعبير بالخطاب في قوله: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ والتعبير عنهم بضمير الغائب في الآية الثانية: ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ ﴾ وفي الأولى عطف: (أنهراً وسبلاً) بينما في الثانية: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا ﴾.

ومنها أن الختم في الأولى بقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ موافق للمخاطبين، وفي الثانية بقولهم: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ موافق هو أيضاً لضمير الغائب في هذه الآية.

وهكذا فإن من ينظر إلى هذه الفروق يتبين له قدرة القرآن الكريم الفائقة على تنويع بيانه، ليحقق بذلك مقاصده حسب مقتضيات الأحوال، ذلك أن لكلّ حرف في الكلمة وكل كلمة في الآية مدلول خاصّ، يجعله متميزاً في سياقه، ومحققاً معانيه في دقة وإحكام.

---

(1) تفسيره 2/ 397.

(2) الأنبياء 30.

وأما كلمة الهدى في سورة النحل فجاءت دالة على معرفة ملكة سبأ لعرشها ويدل ذلك تغيير هيئته وشكله.

وقيل دالة على الإيمان بالله ورسوله، إذْ رأت تقدم عرشها وقد خلَّفته مغلقةً عليه الأبواب، موكلةً عليه الحراس[1].

وقد رجح أبو السعود القول الأول، إذ قال: «إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق بالمقام، وقيل: إلى الإيمان بالله - تعالى - ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة في مدة قليلة، وقد خلفته مغلقةً عليه الأبواب، موكلةً عليه الحُرَّاس والحُجَّاب، ويأباه - يعني هذا الرأي الأخير - تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير، فإن ذلك مما لا دخل فيه للتنكير[2].

إن الذي نراه هو التوفيق بين الرأيين، وهو أنها دالة على معرفتها لعرشها، لتصل منه إلى معرفة الله ورسوله؛ لأنها لما رأت ذلك اعترفت بربها، وبظلمها لنفسها في عبادتها للشمس، وآمنت بسليمان، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3].

وقد جاءت في سورة الزخرف في سياق بيان دلائل القدرة الإلهية دالةً كذلك على معرفة الله تعالى وتوحيده.

7.النبوة وقيام الحجة:

استعمل القرآن الكريم كلمة (الهدى) بمعنى النُّبُوَّة وقيام الحجة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[4].

---

(1) تفسير البيضاوي 3/ 28.

(2) إرشاد العقل السليم 6/ 287 - 288.

(3) النمل 44.

(4) البقرة 159.

قال يحيى بن سلام: «يعني أمر محمد أنه رسول الله، وقامت عليهم الحجة بالنبيّ والقرآن»[1].

وقال أبو حيان: «الآية نزلت في أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر النبي - ﷺ - وذكر ابن عباس أن معاذاً سأل اليهود عما في التوراة من ذكر النبي - ﷺ - فكتموه إياه، فأنزل الله هذه الآية، والكاتمون هم أحبار اليهود وعلماء النصارى، وعليه أكثر المفسرين...

و﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ هي الحجج الدالة على نُبُوَّته - ﷺ - و﴿ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ الأمر باتّباعه، أو البينات والهدى واحد، والجمع بينهما توكيد، وهو ما أبان عن نُبُوَّته وهدى إلى غير اتباعه»[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[3].

8. الكتب والرسل:

استعمل القرآن الكريم كلمة (الهدى) بمعنى الكتب والرسل، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[5].

9. القرآن الكريم:

استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة دالةً عليه كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[6].

---

(1) التصاريف ص 99.
(2) البحر المحيط 1/ 633.
(3) محمد 34.
(4) البقرة 38.
(5) طه 123.
(6) آل عمران 138.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[4].

وقد فسر أبو السعود الهدى في سورة الإسراء بالوحي، وفي سورة الكهف بالقرآن العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له[5]، ذلك أن هاتين الآيتين وإن اتفقتا في بعض المفردات فقد اختلفتا في بعضها الآخر وهو ما خُتِمَ به كل منها.

10.تعني التوراة:

جاءت كلمة (الهدى) بمعنى التوراة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[7].

---

(1) يوسف 111.

(2) الإسراء 94.

(3) الكهف 55.

(4) النجم 23.

(5) إرشاد العقل السليم 5/ 195، 229.

(6) الإسراء 2.

(7) السجدة 23.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1].

إن هذه الآيات الدالة على التوراة لا تكرار فيها، حتى إن أقربهما تشابهاً في نظم الأساليب، وهما الأولى والثانية، نجد أن هناك ما يميز إحداهما عن الأخرى من حيث التقديم والتأخير فيهما، وما انفردت به كلٌّ منهما عن الأخرى.

ومن ثم نستطيع القول: إن لكل آية خصوصيتها الأسلوبية والمعنوية في سياقها، وما تؤديه من دلالات معنوية من خلال أساليبها التي انفردت بها عن غيرها.

11.تعني التوفيق:

ذكر يحيى ابن سلام أن القرآن الكريم استعمل كلمة (الهدى) بمعنى التوفيق، وذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2]. إلى الاسترجاع والصبر، يعني هم الموفّقون.

وفي التغابن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]. يعني يوفّق قلبه إلى الاسترجاع عن المصيبة فسلّم ورضي وعرف أنها من الله[4].

12.تعني الحجة:

تتصرف كلمة (الهدى) بمعنى الحجة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5]. قال ابن سلام: «المشركون لا يهديهم إلى الحجة، ولا يهديهم من الضلالة إلى دينه»[6].

---

(1) غافر 53.

(2) البقرة 157.

(3) التغابن 11.

(4) التصاريف ص 101.

(5) البقرة 258.

(6) التصاريف ص 151.

وقال ابن عطية: «والمعنى لا يرشدهم في حججهم على ظلمهم؛ لأنه لا هدى في الظلم، فظاهره العموم ومعناه الخصوص»[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

13. تعني التوحيد:

وردت كلمة الهدى في القرآن الكريم بمعنى التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[7]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[8].

---

(1) المحرر الوجيز 1/ 347.
(2) التوبة 19.
(3) الصف 7.
(4) الجمعة 5.
(5) التوبة 33.
(6) القصص 57.
(7) الفتح 28.
(8) الصف 9.

14. **تعني السُّنَّة:**

تتصرف كلمة الهدى بمعنى السنَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[2].

15. **تعني التوبة:**

جاءت كلمة (الهدى) في القرآن الكريم بمعنى التوبة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[3]. وهو تفسير مجاهد وقتادة - على ما ذكره ابن سلام -[4].

16. **تعني الإصلاح:**

جاءت هذه الكلمة دالة على الإصلاح في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[5].

17. **تعني الإلهام:**

وردت هذه الكلمة مراداً بها الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[6].

قال ابن عطية فيما نقله عن المفسرين: «معناه: ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها، وهذا أيضاً بين فيه معنى الإرشاد»[7].

---

(1) الأنعام 90.

(2) الزخرف 22.

(3) الأعراف 156.

(4) التصاريف ص 103.

(5) يوسف 52.

(6) طه 50.

(7) المحرر الوجيز 1/ 73.

ثانياً: الدلالات التصريفية لكلمة: الكفر:

نجد هذه الكلمة ذات الأصل الاشتقاقي الواحد، تتصرف في القرآن الكريم بطرائق مختلفة؛ لتؤدي كل مرّة معنى غير الآخر، وذلك راجع إلى موضعها من الآية الواردة فيها، والأساليب المنتظمة معها، وغير ذلك مما أشرنا إليه في الدلالات التصريفية لكلمة (الهدى).

قال الراغب: «الكُفْرُ في اللُّغة سَتْرُ الشيء، ووصف الليل بالكافر لِسَتره الأشخاص.

وأعظم الكُفْر جُحُودُ الوحدانيّة أو الشريعة أو النُّبوّة، والكفران في جُحُود النّعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفر فيهما جميعاً»[(1)].

وقد وردت كلمة الكفر في القرآن الكريم في مواضع متعددة، مؤدية دلالات مختلفة حسب سياقها ومناسباتها، وهو ما ستجليه هذه الدراسة التي ستبين تلك الدلالات قدر المستطاع. ومن ذلك أنها تعني الكفر بتوحيد الله - تعالى - كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[(2)].

ومما يدل على أنها تعني الكفر بتوحيد الله - تعالى - ما جاء قبلها من مدح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[(3)]. وما جاء بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ دلالة على كفرهم وعدم توحيدهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ ﴾[(4)].

---

(1) المفردات في غريب القرآن ص 433 - 434. مادة: كفر.

(2) البقرة 6.

(3) البقرة 4 - 5.

(4) الحج 25.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[1].

وقد ترد بمعنى الجحود، وهو أنواع، فيكون جحوداً للرسول، وقد يكون جحوداً للقرآن، فالجحود للرسول ودعوته، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]. قال ابن سلام: «يعني جحوداً به، وهم يعرفونه»[3].

وقال أبو السعود: «والمراد بما عرفوا النبي ـ ﷺ ـ كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به، فالمعنى: ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه، وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب، فلما جاءهم النبي الذي عرفوه كفروا به»[4].

وهكذا فإن هذه الكلمة ذات الدلالات المتعددة، جاءت في هذه الآية مبينة حال الكفرة وجحودهم لمحمد ـ ﷺ ـ ورسالته، الذي ذُكر في كتبهم، ومع ذلك جحدوا نُبُوَّته، واختصاصه برسالة الإسلام، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾[5].

قال ابن سلام: «يعني يعرفون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنّ نعته عندهم في التوراة»[6].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[7].

---

(1) محمد 1.

(2) البقرة 89.

(3) التصاريف ص 104.

(4) إرشاد العقل السليم 1/ 128.

(5) الأنعام 20.

(6) التصاريف ص 104.

(7) البقرة 146.

قال أبو السعود: «أي: يعرفونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم، ولا يشتبه عليهم، كما لا يشتبه أبناءهم، وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهن بسبب كونهم أحب إليهم»[1].

ونجدها في آية أخرى دالة على جحود القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[2].

وقد تتصرف مظهرة جحود الكافرين لواجب من الواجبات التي أوجبها الله على عباده، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وكفر هنا تعني جحود أهل الكتاب لفرض الحج، الذي أوجبه الله على عباده بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾.

ولعل مما يُجَلِّي هذا المعنى ما ذكره أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية، إذ قال: «ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق أو برزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، على وجه يفيد أنه حق واجب لله ـ سبحانه ـ في ذمم النّاس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته، وسلك بهم مسلك التعميم، ثم التخصيص والإبهام، ثم التبيين والإجمال، ثم التفصيل؛ لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير، وعبر عن تركه بالكفر الذي لا قبيح وراءه، وجعل جزاءه استغناءه ـ تعالى ـ المؤذن بشدة المقت وعظم السخط، لا عن تاركه فقط، فإنه قد ضرب صفحاً إسقاطاً له عن درجة الاعتبار واستهجاناً بذكره،

(1) إرشاد العقل السليم 1/ 176.
(2) البقرة 91.
(3) آل عمران 97.

بل عن جميع العالمين، فمن فعل وترك ليدل على نهاية شدة الغضب، هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء ـ رضي الله عنهم ـ : ومن كفر: أي جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب، وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود فإنهم قالوا الحج إلى مكة غير واجب»[1].

وقد تتصرف بمعنى كفر النعمة، أي جحودها، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[4].

قابل في هذه الآيات بين الشكر والكفر، ليُرَغِّب في الأول، ويُنَفِّرَ من الثاني وهما ضدان، فالشكر اعتراف بالنعمة لمنعمها، والكفر جحود لها.

قال الراغب: «الشّكر تَصَوُّرُ النّعمة وإظهارها... ويضاده الكفر، وهو نسيان النعمة وسَتْرُها»[5].

وقد ترد بمعنى التبرُّؤ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ

(1) إرشاد العقل السليم 2/ 62.

(2) البقرة 152.

(3) إبراهيم 7.

(4) النمل 40.

(5) المفردات ص 265. مادة: شكر.

ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ ﴾[3].

تلك أهم المعاني التصريفية لكلمة: الكفر في القرآن الكريم، الدالة على معانيها من خلال سياقها الواردة فيه، ذلك أن السياق هو الذي أكسبها هذه الدلالات المتنوعة.

ثالثاً: الدلالات التصريفية لكلمة: الشكر:

قال الراغب: «الشكر: تصوّر النعمة وإظهارها... ويضاده الكفر وهو نسيان النّعمة وستْرها... والشكر ثلاثة أضرب، شكر القلب، وهو تصوّر النعمة، شكر اللّسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النّعمة بقدر استحقاقه»[4].

نجد أن كلمة الشكر ذات الأصل الاشتقاقي الواحد تتصرف إلى معانٍ مختلفة حسب سياقها الواردة فيه، ومن هذه المعاني: التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[5]. يعني الموَحِّدين، كما قال مقاتل[6].

---

(1) إبراهيم 22.

(2) العنكبوت 25.

(3) الممتحنة 4.

(4) المفردات في غريب القرآن ص 265. شكر.

(5) آل عمران 145.

(6) الأشباه والنظائر ص 136.

وقولــه تعــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1]. ونحوهما كثير.

ومنها: شكر النعمة، كما في قولـه: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[2].

قال أبو السعود: «ما أنعمت به عليكم من النعم، ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ بجحدها وعصيان ما أمرتكم به»[3].

والنعمة التي أمر الله عباده بشكرها أولاً: التوجه إلى القبلة في الصلاة، إذ قال تعـالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[4].

والنعمة الثانية الشاملة لكل النعم، التي تتحقق بها النعم جميعاً، إرسال محمد ـ ﷺ ـ وكونه من جنس قومه، إذ قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ ثم أخذ يعدد نعمه على عباده فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[5].

تلك النعمة العظيمة الشاملة لخيرَيْ الدنيا والآخرة، التي أمر الله عباده بشكرها. قال أبو السعود: «فإن إرسال الرسول لا سيما المجانس لهم، نعمة لا يكافئها نعمة قط»[6].

ومن معانيها أيضاً، أن الشكر من العباد قليل، كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[7].

---

(1) الأنعام 53.
(2) البقرة 151.
(3) إرشاد العقل السليم 1/ 179.
(4) البقرة 149، 150.
(5) نفسها 151.
(6) إرشاد العقل السليم ص 178.
(7) سبأ 13.

قال الراغب[1] : «فيه تنبيه أنّ توفية شكر الله صعب، ولذلك لم يُثْنِ بالشكر من أوليائه إلاّ على اثنين، قال في إبراهيم - عليه السلام - ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]. وقوله في نوح: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[3].

نكتفي بهذا القدر من بيان الدلالات التصريفية للكلمة الواحدة في المعاني المختلفة، وقد اتضح لنا منه، أن الكلمة الواحدة تتصرف في القرآن الكريم إلى معانٍ مختلفة، يرجع الأمر فيها إلى السياق المنتظمة فيه تلك الكلمة، وأسباب نزولها، وسوابق الآيات ولواحقها.

إن هذا التنوُّع يدل على الاستعمالات الدلالية للكلمة الواحدة في القرآن الكريم وتصريفاتها المختلفة، وهو ما لا نجده إلا في القرآن الكريم، ذلك أن الذي يرجع إلى معاجم اللغة للبحث عن كلمة (ما) لا يجد هذا التنوُّع الدلالي، مثل تنوُّع كلم القرآن الكريم، وإن تنوَّعت فهي تعني تفسيراً لكلمة قرآنية من خلال سياقها الواردة فيه.

إن هذا التنوُّع هو الذي جعل القرآن الكريم معجزاً في ألفاظه ومعانيه، كما أن هذا التنوُّع يختص به القرآن الكريم دون غيره، الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنه، ويطبعه بطابع التصريف، الذي هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وسرٌّ من أسرار بلاغته.

---

(1) المفردات في غريب القرآن ص 265. مادة: شكر.
(2) النحل 121.
(3) الإسراء 3.

المبحث الرابع
بناء الكلمات المناسبة للمعنى المقصود في الآية

نعني ببناء الكلمات المناسبة للمعنى المقصود، ما تختم به الآيات من تعقيبات وفواصل، تناسب معنى الآية، وتكمل المعنى المقصود فيها.

وسنحاول في هذا المبحث أن نبيِّن قدر المستطاع تلك العلاقة القوية التي تربط بين الآيات، وتعقيباتها، وفواصلها، والتي تتحقق من خلالها المقاصد المرادة، بدقة متناهية، ترجع إلى الدقة في ارتباط المعاني وتلاؤمها مع مقاصد السُّوَر والآيات، وذلك بعرض بعض الأمثلة التي تبين التصريف العجيب، والبناء الدقيق، والتفَنُّن البديع، بين الآيات، وهذه الدلالات، التي تكوّن العلاقة القوية، والترابط المتين، بين الآيات بعضها مع بعض، ومن ثم بين الآيات في السورة الواحدة.

أولاً: التعقيبات القرآنية:

هي تلك النكت البلاغية، التي تختم بها الآيات، متفقةً مع السياق، تزيد المعنى جلاءً ووضوحاً.

قال الأستاذ أبو زيد: «تمثل التعقيبات التي ترد في خواتم الآيات أو في أعقاب القصَص القرآني، سمةً بارزةً من سمات الأسلوب القرآني، ووجهاً فائقاً من أوجه بلاغته، وذلك لأنها تجمع بين وظائف معنوية، لكونها تزيد معاني الآيات بياناً وإيضاحاً، ووظائف جمالية، لكونها تمهد للتناسب الإيقاعي في رؤوس الآيات وفي فواصلها.

والمراد بالتعقيب على الآيات، ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها، تُذَيَّل به الآية زيادةً في البيان، ومحافظةً على وحدة الإيقاع»[1].

(1) التناسب البياني في القرآن ص 91.

والتعقيب عنده نوعان: نوع يقع به التعقيب على الآيات وهو الكثير، ونوع يقع به التعقيب على القصص، وهو قليل، والنوع الأول قسمان: قسم يتكرر فيه تعقيب واحد بَعْد كُلِّ آية أو مجموعة من الآيات ويؤدي معنىً واحداً، كما في سورتَيْ الرحمن والمرسلات، ففي الأولى تكرر: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفي الثانية: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

وقسم يتنوَّع فيه التعقيب من آية إلى أخرى، ويؤدي معاني متنوعةً، وهو موجود في معظم سور القرآن. والنوع الثاني كذلك قسمان: قسم يتكرر فيه التعقيب الواحد بعد مجموعة من قصص الأنبياء التي ترد في سورة واحدة.

وهذا الضرب من التعقيب حدده في سورة الشعراء، وسورة الصافات، وسورة القمر، وقسم يتنوَّع فيه التعقيب، وتتنوَّع مواقعه التي يقع فيها، ومعانيه التي يؤدّيها[1].

وفيما يلي بعض الأمثلة للتعقيبات القرآنية، التي تبين تلك النكت البلاغية، والتناسب المعنوي، بين كلّ تعقيب وما أعقب به، إذ إن كل تعقيب يناسب ما أعقب به، وإنّ غيره لا يحلّ محلّه، ولا يؤدي معناه، فهو الأنسب في موقعه، والأدق في أداء معانيه، فذلك من بلاغة القرآن وحكمة إعجازه، وتنُّوع تصريفه، وذلك ما سنراه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

قال أبو حيان: «وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم؛ لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء، والتصرُّف في العالم العُلْويّ والسُّفْليّ، وغير ذلك من الإماتة والإحياء، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام، المحيط بجميع الأشياء»[3].

---

(1) التناسب البياني في القرآن ص 98.

(2) البقرة 29.

(3) البحر المحيط 1/ 283.

وقال الألوسي: «تذييل مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض وما فيها على هذا النمط العجيب، والأسلوب القريب»[1].

يتبيَّن من الآية الكريمة، ومن هذين التوجيهين، أن التعقيب يأتي مناسباً لما أعقب به في الآية، ومكملاً لمقصودها، الذي هو بيان دلائل القدرة الإلهية.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

فأعقب بصفتي العليم الحكيم؛ لأن «العليم» كما قيل: من صفات المبالغة التامة في العلم، والمبالغة التامة لا تتحقق إلا عند الإحاطة بكل المعلومات، وما ذاك إلا هو ـ سبحانه وتعالى ـ فلا جرم ليس العليم المطلق إلا هو، فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على سبيل الحصر، والحكيم يستعمل على وجهين أحدهما: بمعنى العليم، فيكون ذلك من صفات الذات[3].

ولـمّا نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله ـ تعالى ـ على أكمل أوصافه من المبالغة فيه، ثم أردف الوصف بالعلم الوصف بالحكمة؛ لأنه سبق قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4]. فلما صدر من هذا المجعول خليفةً ما صدر من فضيلة العلم تَبَيَّن له وجه الحكمة في قوله وجعله خليفةً.

وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة؛ لأنه المتصل به، فناسب ذكره متصلاً به؛ ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة[5]؛ فالتعقيب بالصفتين الجليلتين، جاء مكملاً لمقصود الآية، ومناسباً لمعناها.

---

(1) روح المعاني 1/ 217.
(2) البقرة 32.
(3) تفسير الرازي 2/ 228.
(4) البقرة 30.
(5) البحر المحيط 1/ 297 ـ 298.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فأعقب بصفتي السميع العليم، وقد ختم هذه الآية بهاتين الصفتين؛ لأنه تقدَّم ما يتعلق بهما، فالذي يتعلق بالسمعِ الحلفُ؛ لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلمِ هو إرادة البرّ والتقوى والإصلاح، إذ هو شيء محلُّه القلب، فهو من المعلومات، فجاءت هاتان الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول، وجاءتا على ترتيب ما سبق من تقديم السمع على العلم[2].

وقال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3].

وقد بيّن سرّ تعقيب هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أبو حيان فقال: «جاءت هاتان الصفتان تدلاّن على توسعة الله على عباده، حيث لم يؤاخذهم باللَّغوِ في الأيمان، وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران والحلم، عن من أوعده - تعالى - بالمؤاخذة، وإطماع في سعة رحمته؛ لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران والصفح مطموع في ما وصف به نفسه، فهذا الوعيد الذي ذكره - تعالى - مقيداً بالمشيئة، كسائر وعيده - تعالى -»[4].

وممن اعتنى بأسرار التعقيبات القرآنية، ابن الزبير الغرناطي، في كتابه «ملاك التأويل» إذ أورد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[5].

---

(1) البقرة 224.
(2) البحر المحيط 2/ 189 - 190.
(3) البقرة 225.
(4) البحر المحيط 2/ 191.
(5) البقرة 234.

وبعدها في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ثم تساءل عن وجه تعقيب الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والآية الثانية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وأجاب عنه بقوله: «إنّ تعقيب الأولى مناسب لما قبله من تأمينهنّ على أنفسهنّ فيما يلزمن في مدة العدة المذكورة من إحداد وما يتعلق به، وفيما يفعلن بعده، فإن أضْمَرْنَ أو كَتَمْنَ ما لا يجوز فعلْـم الله - سبحانه - محيط بذلك، وهو الخبير به، ولما وقع في الآية بعد قوله: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ وقام فيه احتمال أن يخرجن غير طائعات فيستعجلن أو يتعدّين ناسبه ذكر قدرته - سبحانه - عليهن بالمعاقبة بما شاء، أو العفو عن مرتكبهن، فهو العزيز الذي لا مغالب له، والذي لا يفوته هارب، ولا يغيب عنه شيء»[2].

وقال أبو حيان: «ختم الآية بهاتين الصفتين، فقوله: ﴿ عَزِيزٌ ﴾ إظهار للغلبة والقهر لمن منع من إنفاذ الوصية بالتمتيع المذكور، أو أخرجهنّ وهنّ لا يخترن الخروج، ومشعر بالوعيد على ذلك، وقوله: ﴿ حَكِيمٌ ﴾ إظهار أن ما شرع من ذلك فهو جارٍ على الحكمة والإتقان ووضع الأشياء مواضعها»[3].

وفي موضع آخر أورد ابن الزبير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

(1) آية: 240.
(2) ملاك التأويل: 1/ 130.
(3) البحر المحيط 2/ 255.
(4) النساء 48.

عَظِيمًا ﴾[1]. وقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2].

ثـم تسـاءل عـن وجـه اختـلاف تعقيـب الأولـى بقولـه: ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وتعقيب الثالثة بقوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

ثم أجاب عن ذلك بقوله: إنه لما وقع قبل الآية الأولى ذكْرُ أهل الكتـاب، ذكَر اعتداءهم وتحريفهم من لَدُنْ قوله تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾[3].

ثم قال بعـد هـذا: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[4]. وهـذا إفصاح بكذبهم وافترائهم، ثم أتبع مـا ذكـر بقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[5].

ناسب ما تقدم من أوصاف الشرك، الافتراء الذي هو أخصّ صفات مـن كـذّب من أهل الكتاب.

ولـمّـا لم يتقـدم مثـل ذلـك فـي الآيـة الأخرى، إنمـا تقـدم قبلـهـا قولـه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾[6]. وقبلها مـا يخـص مُنـافقي أيـام نبيّنـا ـ ﷺ ـ من لَدُنْ قوله ـ سبحانه ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[7].

---

(1) نفسها 114.

(2) نفسها 116.

(3) النساء 44.

(4) آية 46.

(5) آية 48.

(6) آية 115.

(7) آية 105.

فلم يقع في هذه الآية ذِكْرُ تحريف ولا افتراء إنما ذُكر منافقو أيّامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لنفاقهم وما صدر منهم من غير الكذب والافتراء فناسب ذلك ما بنى عليه من قوله سبحانه ـ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ كما ناسب قوله في الأولى: ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ما تقدمه وبنى عليه، وجاء كل على ما يجب، ولو أعقبت الأولى بما أعقبت به الثانية، والثالثة بما أعقبت به الأولى لما ناسب[1].

وأشار صاحب «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» إلى ختم الأولى بقوله تعالى: ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ والثانية بقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ إلى أنه لا تكرار فيه، وإن اشتركا في الضلال؛ لأن الأول نزل في اليهود، والثاني في كفار لا كتاب لهم، وخصّ ما نزل في اليهود بالافتراء؛ لأنهم حرفّوا وكتموا ما في كتابهم وذلك افتراء، بخلافه في الكفار الذين لا كتاب لهم[2].

وقد أوضح أبو حيان أن كل آية ختمت بما يناسبها، فالأولى كانت في أهل الكتاب، وهم مُطَّلعون من كتبهم على ما لا يشكّون في صحته من أمر الرسول ـ ﷺ ـ ووجوب اتِّباع شريعته ونسخها لجميع الشرائع، ومع ذلك قد أشركوا بالله مع أن عندهم ما يدل على توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان بما نزل، فصار ذلك افتراءً واختلافاً، مبالغاً في العظم والجرأة على الله.

وأما الآية الثالثة فهي في أناس مشركين ليسوا بأهل كتب ولا علوم، ومع ذلك فقد جاءهم بالهدى من الله، وبان لهم طريق الرشد، فأشركوا بالله فضلوا بذلك ضلالاً يستبعد وقوعه، أو يبعد عن الصواب. لذلك ناسب في هذه الآية ذكر الضلال، لتقدُّم الهدى قبله[3].

وفي موضع ثالث، أورد قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ

(1) ملاك التأويل 1/ 207 ـ 209.

(2) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص 85.

(3) البحر المحيط 3/ 367.

أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾[1].

ثم بيَّن أن وجه اختلاف ما أعقبت به هذه الآي الثلاث من أوصافه العَليَّة ـ سبحانه وتعالى ـ مناسب لمقصود ما قبله من الآية الكريمة، ففي الأولى لما قال سبحانه ـ في الزوجين عند عدم انقيادهما لحسن المعاشرة: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاً مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ناسب هذا ذكر ما يقتضي من فاته عموم وجوه الإحسان، وأنه لا نفاد لما عنده مما به قوَامُ عيشتهم، وكمال حال كل واحد منهم من الرزق، والسكن والتأنيس، وأنه ـ سبحانه ـ المنفرد بعِلْم وجه الحكمة في تألُّفهم وتفرقُّهم، فقال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ أي كثير العطاء جمّ الإحسان، عليم بخفيّات مصالح العباد، وهو أوضح شيء في المناسبة، ثم أتبع بما يلائم ذلك ويزيده وضوحاً، من إخباره ـ تعالى ـ من أن السموات والأرض وما فيهما ملكه ـ تعالى ـ.

ثم أتبع ـ سبحانه ـ بما يرجع إلى عموم إحسانه إلى من تقدم من المخاطبين بكُتُبه المنزلة رحمةً لعباده، وإحساناً كما أحسن إلى المواجهين بهذا الكتاب والمُهَيْمن من عليّ هذا الخطاب، والله ـ سبحانه ـ بذلك محسن إليهم؛ لأن تقواهم إيَّاه ـ تعالى ـ مثمرة لهم السلامة من عذابه، والنجاة من أليم عقابه، وأنه ليس به إلى تقواهم من حاجة، ولا تعود إليه ـ سبحانه ـ من ذلك منفعة، إذ هو الغني عنهم وعن عبادتهم، فختام الآيات بهذا أنسب من أنسب شيء وأبينه[2].

وفي إعادة قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريف للبيان، ففي كل مرة له دلالة خاصة ذكرها ابن عطية بقوله الأول: «تنبيه على موضع

---

(1) النساء 130 ـ 132.

(2) ملاك التأويل 1/ 218 ـ 220.

الرجاء لهذين المفترقين، والثاني: تنبيه على استغنائه على العباد، والثالث: مقدمة للوعيد»[1].

وقال الزمخشري: «تقرير لما هو موجب تقواه ليتقوه فيطيعوه ولا يعصوه؛ لأن الخشية والتقوى أصل الخير كله»[2].

وقال الراغب ـ فيما نقله أبو حيان ـ: «الأوّل للتسلية عما فات، والثاني: أن وصيته لرحمته لا لحاجة، وأنهم إن كفروه لا يضروه شيئاً، والثالث: دلالته على كونه غنياً. وقال أبو عبد الله الرازي: الأول تقرير كونه واسع الجود، والثاني: للتنزيه عن طاعة المطيعين، والثالث: لقدرته على الإغناء والإيجاد والغرض منه تقرير كونه قادراً على مدلولات كثيرة، فيحسن أن يذكر ذلك الدليل على كل واحد من مدلولاته، وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة؛ لأنه عند إعادة ذكر الدليل يحضر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، وكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلّ، فظهر أن هذا التكرار في غاية الكمال»[3].

إن ذلك من التصريف لا من التكرار؛ لأنها وردت كل مرة دليلاً على ما استدل بها ـ سبحانه وتعالى ـ على قدرته العظيمة، وكلها في غاية الدقة والإحكام.

يتبين مما سبق أن التعقيبات القرآنية، ترد، متتمةً للمعنى، وتبين الغرض المقصود للآية، وهي تتنوَّع بتنوُّع مقاصد الآيات، فقد تكون خاتمةً ومبينةً لدلائل القدرة الإلهية، كما في الآيات السابقة، وقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ

(1) المحرر الوجيز 2/ 121 ـ 122.
(2) الكشاف 1/ 570.
(3) البحر المحيط 3/ 383.

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

علل الزمخشري سبب تعقيب الآية الأولى بقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ والثانية بقوله: ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ فقال: «فإن قلت: لم قيل: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ مع ذكر النجوم و ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلت: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعةً وتدبيراً، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له»[2].

وتعقبه أحمد بن المنير، قائلاً: «لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة، وما هذا الجواب إلاّ صناعي، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة كره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ، لما في ذلك من التكرار فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسيناً للنظم واتساقاً في البلاغة، ويحتمل وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجةً عن أنفس النُّظَّار ومنافيةً لها، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة، وتقلباتهم في أطوار مختلفة، وأحوال متغايرة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك، فَجَهْلُ الإنسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ومقادير سيرها وتقلُّبها، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم،

---

(1) الأنعام 97 ـ 99.

(2) الكشاف 2/ 39.

نفي من أبشع القبيلين جهلاً وهم الّذين لا يتبصَّرون في أنفسهم، ونفـي الأدنـى أبشـع من نفي الأعلى درجة، فخص به أسوأ الفريقين حالاً»[1].

وقد بين سر تعقيب الآية الأولـى بقولـه تعـالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ والثانية بقوله: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ والثالثة بقولـه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الخطيب الإسكافي، الذي علـل سبب تعقيب الأولى لما جاء بعد آيات نبهت على معرفة الله تعالى، وهي من قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ إلى قولـه تعـالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[2]. فكان جميع ذلك دالاً على العلم بالله وبوحدانيتـه وهـو أشرف معلـوم، ولا لفْظ مـن ألفـاظ: ويعقلـون، ويفقـهون، ويشـعرون، إلاّ ولفظة يعلمون أعلى منه، ولذلك صحّت في الخبر عن الله - تعالى - ولم يصح فيه غيرها من الألفاظ التي ذكرت، فلما كان المعلوم أشرف المعلومات عبّر عن الآيـات التـي نصبت للدلالة عليه باللفظ الأشرف.

وأما مـا استعمل فيـه يفقـهون فـهو بعـد قولـه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فأخبر عن ابتدائه الإنسـان وإنشـائه إيـاه، نبـه لمـا أراه من تَنَقُّله من حال إلى حال، من عدم إلى وجود، ومن مكان إلى مكان، مـن صلـب إلـى رحم، ومن بطن أُمٍّ إلى وجه الأرض، ومن وجـه الأرض إلـى بطنـها، فنطقـت تلـك الأحوال الحادثة لمن يفهمها ويفطن لها ويسـتدل بشـاهدها علـى مغيبـها أنّ بعـد المـوت بعثاً وحشراً وثواباً وعقاباً، وهذا مما يفطن له فيفقهون أولى به.

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بعدما عدّد نعمـه علـى خلقه وما وسعه من رزقه من الحَـبّ المُعَدّ للأقـوات ومـن ضـروب الأشـجار وصنـوف

(1) نفسه.

(2) الأنعام 95 - 97.

الثمار، وكان هذا مستدعياً للإيمان به، المشتمل على شكر نعمته، والقيام بما فرض من طاعته وأوجب من عبادته، كانت الآيات في ذلك معرضة لمن آمن بالله، فلذلك قال في الأخير: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

نفهم من التوجيهات السابقة أن التعقيبات ترد مناسبةً لآياتها ومكملةً لمعانيها، ومحققةً لمقاصدها.

ويوضح ذلك ابن الزبير في توجيهه للتعقيب الأول، الذي يرى أن مناسبة ذلك التعبير عن المتذكّر به بالعمل الذي موادّه ومحصلاته الخبر القاطع، مع النظر السديد، فقيل في ختام هذه الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تنبيه على معرفة الله تعالى والعلم به، وبوحدانيته، وهو أشرف معلوم، فأُعقب بأشرف ما يوصف به المعتبرون، وهو قول حسن والتناسب فيه واضح.

وتوجيه ابن الزبير للتعقيبين الأول والثاني موافق للخطيب الإسكافي، وأما توجيهه للتعقيب الثالث فجاء مخالفاً للخطيب الإسكافي، إذ ذكر أن هذا كان مذكّراً بالبعث الأُخراويّ والنشأة الثانية، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وإنما يحصُل العلم بذلك وبسائر أمور الآخرة من قِبَلِ الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والإيمان بهم، وبما جاءوا به فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدّقون بالبعث، وأنه ـ تعالى ـ كما بدأهم يعودون، فقد وضحت مناسبة هذه إلى الثلاث لما أعقبت به ـ والله سبحانه أعلم ـ[3].

---

(1) درة التنزيل وغرة التأويل ص 126.

(2) آية 57.

(3) ملاك التأويل 1/ 336 ـ 338.

وقد يرد التعقيب مكملاً لمعنى الآية، ودالاً على مقصودها بتذكير المشركين بما في تعاقب الليل والنهار من نعم جليلة، وفوائد عظيمة حتى يعودوا إلى رشدهم، ويؤمنوا بخالقهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

فما وجه تعقيب الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وتعقيب الثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

إن كلا التعقيبين جاء موافقاً لمعناه ومكملاً لمقصوده، فالليل يناسبه السمع، والنهار يناسبه الإبصار، لذلك جاء كل تعقيب في مكانه الأخص به والأدّل على معناه.

وقد بين سر ذلك ابن الزبير فقال: «إن قوله في الآية الأولى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مناسب للمدرك ليلاً من ضَرْبَيْ ما يعتبر به من المسموعات والمبصرات، إذ الليل حائل دون المبصرات، وإنما تدرك فيها المسموعات؛ لأن ظلمة الليل غير مانعة من إدراكها، فجيء بما يناسب، وجيء مع ذكر النهار بما يناسب أيضاً، فقيل: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن المبصرات تدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً، فجيء مع كل بما يناسب ـ والله أعلم ـ»[2].

وتبعه ابن جماعة فقال: «لأن عموم المسموعات في النهار لسبب كثرة الحركات والكلام والمخاطبات، والمعاش أكثر من الليل فناسب ذكر السمع، وقوله تعالى في الثانية: ﴿تُبْصِرُونَ﴾؛ لأن ظلام الليل يغشي الأبصار كلها فناسب ختمها بذكر البصر»[3].

(1) القصص 71 ـ 72.

(2) ملاك التأويل 2/ 762.

(3) كشف المعاني ص 287.

وقد ترد التعقيبات خواتم لآيات تُذكّر بنعم الله ـ تعالى ـ على عباده، كما في قوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1].

نجد في هذه الآيات الكريمة أربع تعقيبات، فالأولى أعقبت بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والثانية بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ والثالثة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ والرابعة بقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ فما وجه تعقيب كل آية بما أعقبت به؟

إن كل تعقيب جاء مناسباً لما أعقب به، وهو أدل على معنى الآية التي أعقب بها، ومكملاً لمقصودها، فإنبات الزرع والزيتون والنخل، والأعناب، وصنوف الثمرات يناسبه التفكير في القدرة العظيمة التي خلقت هذه الأشياء، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمر الله ـ تعالى ـ يناسبه التعقُّل والثبات والإقرار بأنه الخالق العظيم.

وما نشره الله من الثمرات المختلفة الألوان والأنواع ناسبه التذكير بتلك النعم العظيمة.

وأما تسخير البحر وما فيه من النعم الكثيرة، والسفن التي تمخر عباب البحر، فناسب شكر تلك النعم الكثيرة؛ ليصل الإنسان من خلال ذلك إلى الإيمان بالله وحده وعبادته، وشكر نعمه العظيمة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

---

(1) النحل 11 ـ 14.

وقد بين ابن الزبير أن إنبات الزرع والزيتون والأعناب ومختلف الثمرات بالماء المُنزل من السماء مع كونه واحداً والمُنْبَت به مختلف الأنواع والطعوم والمنافع أمر يوصل إلى تعرفه وارتباطه باستعمال الفكر في ذلك وإنْ لم يطل بشرط السلامة من الغفلة، فيحصل بمجرد الفكر على عظيم المعتبر.

وأما تسخير الليل والنهار إلى ما ذكر معهما فلا يُكْتَفَى من معرفة ذلك والحصول على الاعتبار به بمجرد الفكر، فإن العلم بتسخير هذه مما يغمض ويخفى إلاّ على ذوي البصائر والفِطَر السليمة، والعقول الراجحة، فكم يقنع التفكير هنا بل وصف المعتبر بهذا بما هو فوق الفكر.

وأما الآية الثالثة، فبدأهُ الفكر السالم وقَصْدُ التذكُّر كافٍ في حصول الاعتبار بذلك، فإذا تأملت هذه التعقيبات، ألفيت ذلك كله وارداً على أجَلّ مناسبة، وعلمت أن كل آية من هذه الآيات الثلاث لا يناسبها إلاّ ما أعقبت به[1].

وأما الآية الرابعة فهي مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم، فلذلك ناسب التعقيب بالشكر[2].

يتبين من ذلك أن كل تعقيب ورد في محله المناسب له من الآية الوارد فيها، وفقاً لما يعطيه كلٌّ منها من دلالات تتفق مع سياق الآية، ويزيد المعنى جلاءً ووضوحاً.

وقد ترد التعقيبات خواتم لآيات تُوَجِّه عبادَ الله إلى جميل صنعه وبديع خلقه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى

(1) ملاك التأويل 2/ 595 ـ 596.

(2) نفسه ص 597 ـ 598.

﴿ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وقد ترد التعقيبات خواتم لآيات تحث الناس على التفكر، والتدبر في أمور أنفسهم، والكون من حولهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

فهذه أربع آيات ختمت الأولى بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ والثانية: ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ والثالثة بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ والرابعة بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ بعد جملة واحدة وهي قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ فما وجه تعقيب كل آية بما أعقبت به؟

إن كل تعقيب جاء مناسباً لما أعقب به وهو دال على معناه دلالة بينة؛ لأن الآية الأولى لما انطوت من حكمته ـ سبحانه ـ في سبب التناسل والتكاثر على ما أبداه ـ تعالى ـ في خلق الأزواج منها ليحصل السكن وعدم التنافر، ثم غرس ـ سبحانه ـ المودة والرحمة في قلب كل واحد من الزوجين ليتم الالتئام، ويحصل التعاون على ما به قوام العيش، إلى ما جعل في قلوبهما من حب الولد، وهيّأ له عند وجوده من الرفق إلى ما يتعلق بهذا ويرجع إليه مما لا يحصل على عجائبه، ولا يُحاطُ ببعض الحكمة فيه إلاّ بمداومة الفكر وطول الاعتبار، ناسب هذا إعقاب الآية بوصف التفكُّر.

---

(1) الحج 63 ـ 65.

(2) الروم 21 ـ 24.

ولـمّـا كـان خلـق السـموات والأرض واختـلاف الألسـنة والألـوان مـع عظيـم الأمر في ذلك، بادٍ منه الشهادة بأن وراء ذلك موجـداً متنزهـاً عـن شبه هـذه الأجـرام ومتعالياً عن تغير مختلف الألسنة والألوان.

ولم تكن شهادة هذه بحيث تَخْفَى حتى يحتاج فيها إلى طول التفكر في البـادي لمتّصِف بالعقل، وإن اتسع النظر في عجائب ما انطوت الأجرام السـماوية، وانتشـرت وجوه الاعتبـار اتسـاعاً تنحسـر العقـول دونـه وتكـلُّ الأذهـان عـن دَرْكِ أدنـاه، ولـهذا تفصل ذكر الاعتبار بالسموات والأرض، فأُشـير أولاً إلـى خلـق أجرامـها وصورهـا، وأُشير ثانياً إلى خلق ما فيها.

فلمّا كان هذا الضرب من الاعتبار يحصل بأوّله، المقصـود لكـل أحـد، أعقـب بقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ فوضـح تناسـب هـذا الختـام ولاح التلاحم والالتئام.

ولـمّـا كان أمر الليل والنهار منصوصاً على رحمة الخلائق بهما في عدة آيـات، وتحصّل من مجموعهما الاعتبار بـهما وبمـا فيـهما، ومستند ذلـك المحرّك للاعتبـار بـه السماع، والأخبار الواردة، أعقب بقوله تعالى: ﴿ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾.

وأما إراءتـه ـ سبحانه ـ البرق خوفاً وطمعاً، وإنـزال المـاء مـن السـماء وإحيـاء الأرض بعد موتها، فلا تحصل ثمرة الاعتبار به إلاّ لمن أطال الاعتبار، وأمعـن النظـر، وبالغ في ذلك، ولـمّـا كان حصول الثمرة المطلوبة هنا يتوقف على ذكر، ولا يحصـل العلم بذلك إلاّ بعد تعقُّله مع وضوحه، أعقب بقوله: ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[1].

نكتفي بهذا القدر من الأمثلـة المتعلقـة بالتعقيبـات القرآنيـة، مستنتجين أن تلـك التعقيبات تتصرف بطرائق مختلفة، وأساليب شتى، وكلها في غاية الدقة والإحكام، وأن هذه التعقيبات تأتي مناسبةً لما أعقبت به، ومكمِّلةً لمقصود الآية التي أعقبت بـهـا،

---

(1) ملاك التأويل 2/ 782 ـ 783.

وبذلك تؤدي معانيها على أكمل وجه وأتمّه، وهي تتنوع بتنوُّع مقاصد الآيات، ومع ذلك يكون كل تعقيب هو الأخص في مكانه والأدل على معناه، وأن غيره لا يحل محله ولا يؤدي معناه، ولا عجب في ذلك؛ لأنه تنزيل الحكيم الخبير.

ثانياً: بناء الفواصل القرآنية وعلاقتها بالمعنى:

«الفاصلة في اللغة هي الشيء الذي يفصل بين أمرين، وتطلق على الخرزة بين خرزتين، والفصل القضاء بين الحق والباطل، والتفصيل هو التبيين والتوضيح، وكتاب فصلناه، أي بَيّنّاه ووضحناه.

واستعملت الفاصلة في القراءات القرآنية كمصطلح دال على الكلمة التي تأتي في آخر الجملة»[1].

قال أبو عمرو الداني: «الفاصلة: كلمة آخر الجملة، وفرق بين الفواصل ورؤوس الآية، فالفاصلة هي الكلام المنفصل مما بعده، سواء كان رأس آية أو نهاية كلام، وتسمى بالاستراحة في مجال الخطاب، حيث يتوقف الكلام»[2].

إن الذي جعلنا نعقد مطلباً خاصاً ببناء الفواصل القرآنية أمران مهمان أولهما: ما وقع فيه بعض المهتمين بعلوم القرآن وبلاغته من وصف الفواصل القرآنية بالتكرار، وثانيهما: العلاقة القوية التي تربط الفاصلة بالآية التي هي منها ـ وبخاصة أننا بصدد الحديث عن بناء الآيات الكريمة ـ؛ لأن الفاصلة القرآنية من مكونات الآية:

الأمر الأول: وصف الفواصل القرآنية بالتكرار ونفيه:

أما الأمر الأول فنُمثِّلُ له بما ذهب إليه صاحب «خصائص التعبير القرآني» عند حديثه عن الفاصلة القرآنية، وقد مثَّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ

(1) مقدمة في الدراسات القرآنية ص 179.

(2) البرهان في علوم القرآن 1/ 53 ـ 54 والمصدر السابق.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

مبيّناً ما تحدثه الفاصلة من أسرار جمالية في التعبير، إذ قال: «هذه ثلاث آيات اتَّحدتْ فواصلها فجاءت كلمةً واحدةً ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ومع هذا التكرار في الفاصلة لم تحس في التعبير إلاّ جمالاً وجدة، خرج معها التكرار مخرج الجودة والحُسْنِ»[2].

نتفق معه ـ فيما فيها من جمال تعبيري رائع وجودة وحُسْن ـ ونخالفه فيما ذهب إليه من تكرار الفاصلة في هذه الآيات، رادين عليه بقوله: «نعم الفاصلة متحدة لفظاً ومعنىً في المواضع الثلاثة ولكن ما قبل الفاصلة مختلفة من موضع إلى آخر»[3].

إن هذا اعتراف صريح منه بعدم وجود تكرار؛ لأن الفاصلة كما هو معلوم ترد موافقة لموضعها الواردة فيه، ومكملة لمعناها.

هذا ملحظ، وأما الملحظ الثاني، فهو ما لاحظه من فروق إعرابية بينها، إذ قال «ففي الآية الأولى جاءت ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بدلاً أو صفة لاسم الجلالة، وهي على كلا الاحتمالين مرفوعة المصدر.

وفي الموضع الثاني جاءت مجرورة عليها أيضاً، وكذلك في الموضع الثالث»[4].

وأما الملحظ الثالث فهو من حيث تعلقها مع ما جاءت بدلاً منه أو صفة له، ففيه سِرٌّ آسر، وهو ما أوضحه بقوله: «والمتأمل يجد بين المواضع الثلاثة تسلسلاً مرتباً ترتيب المسبب على السبب، فالتبارك مستوجب للحمد ومن تحقق له هذان الغرضان

(1) غافر 64 ـ 66.

(2) خصائص التعبير القرآني 1/ 309.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

وشعر بعظمة الله وفضائله وحمده عليها وجب أن يسلم له ويخضع لإرادته، وهذا التغاير في المعنى هو موطن السر في خفة روح التكرار فيه، وخلابة أثره لفظاً ومعنىً»[1].

حقاً إن التغاير في المعنى ـ كما لاحظه ـ يعد فرقاً جوهرياً ينفي صفة التكرار عنها، ذلك أن التغاير في المعنى يعني مخالفة الكلام بعضه لبعض[2].

وأما الملحظ الرابع، فهو ما لاحظه من وصف التكرار بالعيب، وهو يتابع حديثه عن الفاصلة، إذ قال: «وهذه الجدة في المواضع الثلاثة، وقفت أمام كثير من الأهواء الزائفة التي تتخذ من صور التكرار في القرآن وجوهاً للطعن فيه، ونحن نعلم أن التكرار غير المفصول بين مواضعه بفاصل طويل يعد عيباً من عيوب القافية.

وقد سماه العروضيون: الإيطاء، لكن هذا العيب لا مفهوم له هنا على رغم ما هو وجيه هناك؛ لأن التصرف في الشكل إذا تطلبه المعنى كان بعيداً عن كل نقد[3].

إن هذا الأمر يجب أن لا نصف به القرآن الكريم، ونصفه بالتصريف الذي ذكره الله في كتابه في غير ما موضع.

والأغرب من ذلك أنه يقول: «وقد جاء هذا التكرار في الفاصلة في سورة البقرة في ثلاث آيات متتابعة، هي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[4].

(1) نفسه.
(2) انظر المعجم الوسيط 2/ 696 غير.
(3) خصائص التعبير القرآني 1/ 309.
(4) البقرة 101 ـ 103.

ثم نجده عند تحليل موقع هذه الفاصلة يبين ما بينها من فروق تنفي صفة التكرار عنها.

وقد لاحظ أن ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ في الآية الأولى واقعة في حيّز النص من حيث الظاهر وإلاّ فالمقام مقام إثبات إذ هم يعلمون.

وإنما شبّه حالهم لكونهم قد صدر منهم فعل لا يصدر إلاّ ممن لا يَعْلَم وهو نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، بحال من يعلم وفي الواقع هم عالمون، فنزل علمهم حيث لم ينتفعوا به منزلة الجهل.

وأن الآية الثانية قد طالت بحيث لا يظهر مع طولها تكرار الفاصلة مع ما قبلها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن لفظ «العلم» قد تكرر فيها مرات، ولكن يتردد بين الممدوح والمذموم كتعليم السِّحر، ثم ذكر لفظ «العلم» قبل الفاصلة ليمهد للحكم عليهم.

وكون الفاصلة هنا ـ كذلك ـ مسلك اقتضته البلاغة، ودعا إليه المعنى توبيخاً لهم وإظهاراً لحقارة ما تَعَلَّموه من فَنِّ السِّحر والأباطيل.

وجاءت الفاصلة في الآية الثالثة مماثلة للثانية تماماً؛ لأن الآية الثالثة تأكيد لما جاء في عجز الثانية، لذلك اتحدتا في الفاصلة.

وهذا أمر اقتضاه المعنى في المواضع الثلاثة، وهذا شرط حسنها والحرص على الإتيان بها متماثلة[1].

نحمد لهذا الباحث تحليله القَيِّم الذي يوضح الفروق الدقيقة بين معاني هذه الآيات، مع هذه الفاصلة، ونخالفه فيما ذهب إليه من تكرار فيها، ذلك أن الفاصلة ترد موافقة للآية التي هي منها وتكمل معانيها، وهو ما سنراه في الأمر الثاني، وهو علاقة الفواصل القرآنية ببناء الآيات.

---

(1) خصائص التعبير القرآني 1/ 310 ـ 311.

الأمر الثاني: بناء الفواصل القرآنية وعلاقتها بالمعنى:

إن الفاصلة القرآنية تُبنى بناءً قوياً مع الآية التي هي منها بحيث تأتي موافقة لآيتها ومكملة لمعانيها، وذلك أن الفواصل تؤدي دوراً مهماً في الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم إلى جانب دورها المهم في تأكيد المعاني وإيضاحها[1].

ومما يؤكد أن الفاصلة لها علاقة بالمعنى، ما ذكره الزركشي، من أن الفاصلة تأتي للمحافظة على حسن النظم والتئامه، مستشهداً في ذلك بما ذكره الزمخشري في «كشافه القديم» إذ قال: «إنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلاّ مع بقاء المعاني على سَدادها، على النهج الذي يقتضيه حسنُ النظم والتئامه، كما لا يحسن تخيّر الألفاظ المونِقة في السمع، السّلسة على اللسان، إلاّ مع مجيئها منقادةً للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تُهمَل المعاني، ويُهْتَمَّ بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مُؤَدَّاه على بال، فليس من البلاغة في فتيل أو نقير»[2]

والجدير بالذكر أن الرماني عدّ الفواصل من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، مميزاً بينها وبين الأسجاع، إذ عقد لها في رسالته «النكت في إعجاز القرآن» باباً خاصاً، وعرفها بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب».

ثم استطرد قائلا: «وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذ كان الغرض الذي هو الحكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو

---

(1) نفسه ص 312.

(2) البرهان في علوم القرآن 1/ 72. والفتيل ما كان في شق النواة، وبه سميت فتيلة، والنقير: النُّكْتة في ظهر النّواة، قال أبو منصور: وهذه الأشياء تضرب كلّها أمثالاً للشيء التافه الحقير القليل "اللسان 11/ 514 مادة: فتل" وانظر تفسير غريب القرآن ص 129.

بلاغة، وإن كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكْنَةٌ؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة»[1].

ثم قال أيضاً: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني، التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل عليها، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلاّ الأصوات المتشاكلة، كما ليس في سجع الحمامة إلاّ الأصوات المتشاكلة»[2].

والفواصل عند الرماني على وجهين: أحدهما على الحروف المتجانسة، كما في قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[3].

وكقوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾[4]. والوجه الثاني على الحروف المتقاربة كالميم من النون في مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[5]. وكالدال مع الباء، نحو قوله تعالى: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ ثم قال: ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[6].

وإنما حَسُنَ في الفواصل الحروف المتقاربة؛ لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة.

وفائدة الفواصل عنده: دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل، وإبداؤها في الآي بالنظائر[7].

---

(1) النكت في إعجاز القرآن ص97.

(2) نفسه، ص98.

(3) طه 1 ـ 5.

(4) الطور 1 ـ 4.

(5) الفاتحة 3 ـ 4.

(6) ق 1 ـ 2.

(7) النكت في إعجاز القرآن ص 98 ـ 99.

وتحدث الباقلاني عن الفواصل في فصلٍ قَيِّم تحت عنوان «في نفي السجع من القرآن» فقال: «ذهب أصحابُنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موقع من كتبه.

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان والفصاحة»[1].

واستطرد قائلاً: «وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاقُ الكل على أن موسى أفضل من هارون ـ عليه السلام ـ ولمكان السجع قيل في موضع: ﴿ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[2]. ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾[3]. قالوا: وهذا يفارق أمر الشعر؛ لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلاّ مقصوداً إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي يسمى شعراً وذلك القدر ما يتفق وجوده من المُفحم، كما يتفق وجوده من الشاعر، وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير، لا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه.

ويبنون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد، قال ابن دريد: سجعت الحمامةُ معناها: ردَّدَتْ صوتها»[4].

ثم رد على القائلين بالسجع في القرآن بقوله: «وهذا الذي يزعمون غير صحيح، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز.

---

(1) إعجاز القرآن ص 83.

(2) طه 70.

(3) الأعراف 122.

(4) إعجاز القرآن ص 83، وجمهرة اللغة 1/ 474 مادة: سجع.

ولو جاز أن يقولوا هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولـوا شعر معجـز، وكيـف والسجع مما كان يألفه الكهّان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكـون حجـةً مـن نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوّات، وليس كذلك الشعر»[1].

واستدل على نفي السجع بما رُوي أن النبي - ﷺ - قال للذين جاءوه وكلّموه في شأن الجنين: كيف نَدِيَ من لا أكل ولا شرب، ولا صاح ولا استهل، أليس دَمُه قد يُطلُّ؟ فقال: «أسجاعة كسجاعة الجاهليـة» وفـي بعضـها: «أسَجْعاً كسجع الكـهّان» فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالته[2].

ثم عقب قائلاً: «والذي يقدّرونه أنه سجع فـهو وهـم؛ لأنـه قـد يكـون الكـلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً؛ لأن ما يكون به الكـلام سـجعاً يختص ببعـض الوجـوه دون بعـض؛ لأن السجع مـن الكـلام يتبـع المعنـى فيـه اللفـظ الـذي يـؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيـه تابعاً للمعنى.

وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التـي تـؤدي المعنـى المقصـود فيـه، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفـظ، ومتـى ارتبـط المعنـى بالسـجع، كـانت إفـادةُ السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السـجع، كـان مستجلياً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى»[3].

ويرى ابن أبي الإصبع: أن الفواصل من مخترعات قدامة، وسـماه مـن بعـده: التمكين، وهو أن يمهّد الناثر لسجعة فقرته، والشاعر لقافية بيته، تمهيداً تأتي به القافية متمكّنة في مكانها مستقرّة في قرارها، مطمئنّةً فـي موضوعـها، غيـر نـافرة ولا قلقـة، متعلّقاً معناها بمعنى البيت كلّه تعلّقاً تاماً، بحيث لو طُرحـت مـن البيـت لاختـلّ معناه

(1) إعجاز القرآن ص 84.

(2) نفسه، والحديث أخرجه النسائي في سننه 8/ 44 - 46 بلفظ: «سَجْعٌ كسـجع الجاهليـة» وفـي روايـة: «أسجع كسجع الأعراب» وفي رواية ثالثة: «أسجعٌ كسجع الجاهلية وكَهَانَتِها».

(3) إعجاز القرآن ص 84.

واضطرب مفهومُهُ، ولا يكون تمكُّنها بحيث يتقدّم لفظها بعينه في أول صدر البيت، أو في أثناء الصدر، أو معنى يدل عليها، ولا أن تفيد معنى زائداً على معنى البيت.

فإن الأول: تصدير، والثاني: توشيح، والثالث: إيغال، ولا يسمى شيء من ذلك تمكيناً، وكل مقاطع آي الكتاب العزيز، لا تخلو من أن تكون أحد هذه الأقسام الأربعة، ولهذا تسمى مقاطعه: فواصل لا سجعاً ولا قوافي لاختصاص القوافي بالشعر، والسجع بالمنافرة عن معنى الكلام[1].

وعرفها السيوطي بقوله: «الفاصلة كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع»[2].

ونقل عمّن لم يذكر اسمه أن الفاصلة، تقع عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة: التي يُباينُ بها سائر الكلام، وتسمّى فواصل؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصلٌ بينها وبين ما بعدها، وأخذ من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[3].

ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأن الله ـ تعالى ـ لمّا سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منه، وخاصة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه، يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر؛ لأنها صفة لكتاب الله ـ تعالى ـ فلا تتعدّاه، وهل يجوز استعمال السجع في القرآن؟ خلاف الجمهور على المنع؛ لأن أصله من سجع الطير، فشُرف القرآن أن يُستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره في الكلام الحادث في وصفه بذلك، ولأن القرآن من صفاته ـ تعالى ـ فلا يجوز وصفه بصيغة لم يرد الإذن بها[4].

(1) بديع القرآن ص 89.
(2) الإتقان 3/ 290.
(3) فصلت 3.
(4) نفسه ص 292 ومعترك الأقران 1/ 25.

ونقل أيضاً: رد الخفاجي على الرماني قوله: «إن السجع عيب والفواصل بلاغة غلط، فإن أراد بالسجع ما يتبع المعنى، وهو غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن أراد به ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصودٌ متكلّف فذلك عيب، والفواصل مثله.

قال: وأظن الّذي دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبتُهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاّحق بغيره من الكلام المرويّ عن الكهنة وغيرهم.

وهذا غرض في التسمية قريب، والحقيقة ما قلناه، قال: والتحرير أن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفواصل»[1].

واستدلوا على تَمكُّن الفاصلة في مكانها، حتى لتوحي الآيات بها قبل نطقها بما روي عن زيد بن ثابت، أنه قال: أمْلَى عليّ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال معاذ بن جبل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2].

فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له معاذ: مِمَّ ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها خُتمت!».

وحكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[3].

«فاعلموا أن الله غفور رحيم» ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، ومرّ بهما رجل فقال: كيف تقرأ هذه الآية؟ فقال الرجل: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال هكذا ينبغي، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه[4].

---

(1) الإتقان 3/ 294 ومعترك الأقران 1/ 25 ـ 26.

(2) المؤمنون 12 ـ 14.

(3) البقرة 209.

(4) الإتقان 3/ 303 ومن بلاغة القرآن ص 76 والفاصلة القرآنية ص 2.

وهذا ما أشار إليه صاحب «الفاصلة القرآنية» حين قال: «للفاصلة علاقة وثيقة بما قبلها من النص القرآني، وقد يشير سياق الآية إلى فاصلتها إشارة لفظية جليلة، وقد يظهر ذلك بعد بحث وتأمل»[1].

وقد أشار أيضاً إلى أن من الباحثين من ينظر إلى الفاصلة - أو السجع في الكلام - على أنه مناسبة لفظية مرغوبة، ومطلوبة في اللغة العربية، فهي تريح القارئ من البهر وترشده إلى تلوين الصورة، وإجادة الوقف، وتزيد من روعة التلاوة، بما تخلع عليها من إيقاع مجيب، وتمد القراء بألوان من التنغيم المؤثر والتطريب الأخاذ.

وهذا إن صدق في سجع الكُتَّاب، فلا يصدق على الفاصلة في القرآن فعلينا ألا ننظر إلى بلاغة الفاصلة في القرآن هذه النظرة المحدودة، التي لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ فإن هذه الصورة اللفظية الحسية - مع جمالها - لا يصح أن تصرفنا ولا تحجب عن ذهننا ما استرر فيها من بدائع الأسرار، ودقائق الأغراض.

وينظر إلى الفاصلة من حيث مزيتها الهامة التي ترتبط بما قبلها من الكلام، بحيث تنحدر على الأسماع انحداراً، وكأنّ ما سبقها لم يكن إلاّ تمهيداً لها، بحيث لو حذفت لاختل المعنى في الآية، ولو سكت عنها القارئ لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقاً مع الطبع، والذوق السليم[2].

ولا شك أن فواصل القرآن كلها من البليغ الذي تكون فيه الألفاظ تابعة للمعاني، وأنه بلا ريب في القرآن مقاطع تتحد فيها الحروف، ومقاطع أيضاً لا تتحد فيها الحروف، ولكن تتقارب.

والتقارب في المقاطع تقارباً بيناً يجعل نسق القول واحداً، ولو لم تتحد المقاطع، وهناك أمر آخر وهو اتحاد النغم والموسيقى في كل المقاطع، فهي كلها مؤتلفة

---

(1) نفسه ص 39.

(2) الفاصلة القرآنية ص 1.

في حروفها وألفاظها وجملها ومقاطعها، حتى كونت صورة بيانية تجعل كلام الله العزيز فوق كل منال[1].

وهكذا تتصرف الفواصل القرآنية في السور بطرائق مختلفة، كما تتصرف أيضاً في السورة الواحدة، ونعني بذلك التصريف، تنويع الفواصل المتفقة مع معانيها، وهو السمة البارزة في القرآن الكريم.

وسنعرض لتصريف بعض الفواصل في آيات القرآن الكريم، مبيِّنين علاقة الفواصل بما قبلها، وارتباطها بالمعنى المراد في الآية الكريمة.

وقد أشار صاحب «المعجزة الكبرى» إلى أن تصريف القول في القرآن كان من جماله الذي يعلو على كل البشر، بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحياناً إن ارتضينا مذهب السجع، أو الفواصل المتقاربة حروفها في المقاطع أحياناً، أو إطلاق الألفاظ في القرآن، من غير مقاطع، مع ملاحظة أن ذلك كله في أعلى درجات البلاغة التي لا يصل إليها أحد من البشر[2].

وتبعه في ذلك صاحب «الفاصلة القرآنية» مبيناً أن ذلك لحكمة سامية وسر لطيف، وهو التصريف في القول، مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[3].

وهذا التنوُّع يختلف بالقياس إلى الفواصل بين الطول والتوسط والقصر، وقد أشار إلى شيء من ذلك سيد قطب إذ قال: «وقصارى ما يقال فيه: إن الفواصل تقصر غالباً في السُّوَر القصار، وإنها تتوسط أو تطول في السُّوَر القصيرة ويقلُّ غالباً في السُّوَر الطويلة وتغلب قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو على جميع القوافي في سُوَر القرآن، وذلك مع تعدد الأساليب الموسيقية ولو تشابهت القوافي في السُّوَر المختلفة.

(1) المعجزة الكبرى ص 293.
(2) الفاصلة القرآنية ص 299.
(3) الإسراء 89 وانظر الفاصلة القرآنية ص 15.

وأما تنوُّع هذا النظام في السورة الواحدة، فقد لاحظنا في مرات كثيرة أن الفاصلة والقافية، لا تتغيران لمجرد التنويع»[1].

وقد يكون الكلام في القرآن خالياً من المقاطع في بعض الآيات، ولا ينزل في نغمه وموسيقاه عن سَمْته ومستواه الأعلى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[2].

ومن ذلك كثير من آيات الأحكام، مثل آية المواريث: إذ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[3].

تضمنت هاتان الآيتان مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة، ولا فواصل متحدة في آخرها بحروفها، إنما هو كلام الله المنثور من غير إرسال، بل النغم متآخٍ، والمعاني متلاقية، والألفاظ متجانسة، ومتلائمة مع بيان للأحكام ميّسرٍ سهلٍ، فلم ينزل ذكر الأرقام، بمرتبة الكلام، عن حد التلاؤم والتآخي[4].

والفواصل إما أن تكون طويلة كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[5]، أو متوسطة كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[6].

---

(1) التصوير الفني في القرآن ص 89.

(2) الفتح 29.

(3) النساء 11، 12.

(4) المعجزة الكبرى ص 295 ـ 296. والفاصلة القرآنية ص 6.

(5) الأنفال 43 ـ 44.

(6) القمر 1 ـ 2.

أو قصيرة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ وقد حصر البلاغيون علاقة الفاصلة بما قبلها في أربعة أشياء، وهي: التمكين، والتصدير، والتوشيح، والإيغال، ومثّلوا لكل منها بأمثلة من القرآن الكريم، فالأول بقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[1].

وذكروا أنه لما تَقَدَّم في الآية ذكر العبادة، وتلاه ذكر التصرّف في الأموال، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب؛ لأن الحلم: العقلُ الذي يصح به تكليف العبادات ويحض عليها، والرُّشد: حسن التصرف في الأموال.

وكذلك قوله: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2]. فإن ذكر الرسالة مهّد لذكر البلاغ والبيان فيه[3].

وعَدُّوا من بديع هذا النوع، اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدَّث عنه واحد، لنكتة لطيفة، كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[4] ثم قال في سورة النحل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

قال ابن المنير - فيما نقله عن السيوطي -: «كأنّه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت آخذها وأنا معطيها، فحصل لك عند أخذها وصفان: كونُك ظلوماً، وكونك كفّاراً، يعني لعدم وفائك بشكرها ولي عند إعطائها وصفان وهما: إني غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي، فلا أقابل تقصيرَك إلاّ بالتوقير، ولا أجازي جفاك إلاّ بالوفاء».

---

(1) هود 87.
(2) يس 16 - 17.
(3) بديع القرآن ص 89 - 90. والإتقان 3/ 303.
(4) آية 34.
(5) آية 18.

ونقل عن غيره: «إنما خصّ سورة إبراهيم بوصف المنعَم عليه، وسورة النحل بوصف المنعِم؛ لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان، وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثباتٌ لألوهيته»[1].

وعكس هذا اتفاق الفاصلتين والمحدّث عنه مختلف، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وأما التصدير فمثلوا له بقوله تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[3].

فجاء آخر الفاصلة موافقاً لآخر كلمة في صدر الآية، وقد تكون آخر الفاصلة موافقة لكلمة في الآية كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[4].

وقد تكون آخر الفاصلة موافقة لبعض كلمات الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[5].

وأما التوشيح فمثلوا له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[6].

---

(1) الإتقان 3/ 306.
(2) النور 58 ـ 59 وانظر الإتقان 3/ 307.
(3) النساء 166.
(4) آل عمران 8.
(5) الأنعام 10، وانظر الإتقان 3/ 309 ـ 310.
(6) آل عمران 33.

قال ابن أبي الإصبع: «فإن معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة، إذ المذكورون صنف من بعض أنواع العالمين وكقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾[1].

فإن من كان حافظاً لهذه السورة متفطناً إلى أنّ مقاطع آيها النون المردَفة، وسمع في صدر الآية انسلاخَ النهار من اللّيل، عَلم أن الفاصلة تكون مظلمين؛ لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم، أي دخل في الظلمات ما دامت تلك الحال ـ والله أعلم ـ»[2].

وقد مثلوا للإيغال بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾[3].

وقد اعتبر ابن أبي الإصبع أن الفاصلة: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ أتي بها لتفيد معنىً زائداً على معنى الكلام[4] والأمر خلاف ذلك؛ لأن هذه الفاصلة جاءت مكمّلة لمقصود الآية.

ثم نجده فيما بعد يوضح معنى مجيء الفاصلة على هذا النحو، فيقول: «ليعلم أن التولّي كان بجميع الجوانب: بحيث صار ما كان مستقبلاً مستدبراً، فاحتجب المخاطَب عن المخاطب، إذ صار من ورائه فخفيت عن عينه الإشارة، كما صحّت أذناه عن العبارة فحصلت المبالغة الكليّة في عدم الإسماع بتّة، وهذا تمثيل مثلت به حال هؤلاء القوم أتى مدمجاً في الإيغال»[5].

يتبين لنا مما سبق أن الفاصلة القرآنية تأتي مكملة لمقصود الآية وموضحة لمعناها، وذلك مما تتفق فيه مع التعقيبات القرآنية التي مضى الحديث عنها، وتختلف الفواصل

---

(1) يس 37.
(2) بديع القرآن ص 90 ـ 91 والإتقان 3/ 310.
(3) النمل 80.
(4) بديع القرآن ص 91.
(5) نفسه ص 92.

عن التعقيبات من حيث تنوُّع حروفها وتَعَدُّد إيقاعاتها، لتكوّن بذلك إيقاعاً موسيقياً منسجماً مع الآيات، فتكون إما متماثلة وإما متقاربة، كما ذكرنا ذلك عن الرماني.

وأكثر ما ترد الفواصل متماثلة في السُّوَر المكِّيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1].

وهو في قصار السُّوَر أكثر، كما أوضح ذلك صاحب «المعجزة الكبرى» إذ قال: «إن نظم السُّوَر القصار كله يكاد يكون على نسق واحد، مؤتلف النغم، متآخي الألفاظ، متلائم في نظمه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾[2].

وإنك لترى النغم متحداً، والفواصل متحدة، والتلاؤم بين ألفاظها منهاجه واحد، وكأنها لقصرها لا تتغير فيها الأنغام ولا مقاطع الكلام»[3].

وقد تكون الفواصل متقاربة كما في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4].

وهكذا جاءت الفاصلة في هذه السورة متقاربة، فبنيت على حرفي النون والميم، وهما حرفان متقاربان في المخرج اللفظي.

وقد تتنوَّع حروف الفواصل في السورة الواحدة فتكون متماثلة كما في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5]. ثم جاءت

(1) النجم 1 ـ 4.
(2) الشمس 1.
(3) المعجزة الكبرى ص 328.
(4) الدخان 1 ـ 6.
(5) البقرة 1 ـ 6.

الفاصلة متقاربة مع ما قبلها وما بعدها في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

ثم انتقلت إلى التماثل من قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

ثم جاء حرف الفاصلة مخالفاً للفاصلتين السابقتين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3]. ثم انتقلت إلى التماثل على حرف النون إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4].

ثم انتقلت إلى التقارب، وهكذا فسورة البقرة جمعت بين التماثل في بعض الأحيان والتقارب في أحيان أخرى.

وقد تتغير بعض الفواصل في السورة الواحدة، كما في سورة مريم، إذ جاءت الفاصلة متماثلة على حرف الألف مع الياء من فاتحة السورة إلى الآية 33، ثم جاءت متقاربة على حرف النون والميم من الآية 34 ـ 40، ثم انتقلت إلى التماثل على حرف الألف مع الياء من الآية 41 إلى الآية 74، ثم انتقلت إلى الألف مع الدال من الآية 75 ـ 80، ثم الألف مع الزاي الآية 81 ثم الألف مع الدال الآية 82، ثم الألف مع الزاي الآية 83، ثم الألف مع الدال 84 إلى الآية 97.

وقد تَردُ فواصل بعض السُّوَر على حرف واحد، فمن ذلك سورة الكهف والفتح والإنسان والأعلى، والشمس والليل، فإن فواصلها كلها جاءت على حرف الألف.

ومن ذلك أيضاً سورة القمَر والقَدْر، والكوثر، التي جاءت فواصلها كلها على حرف الراء.

---

(1) نفسها 7.

(2) نفسها 8 ـ 19.

(3) البقرة 20.

(4) نفسها 28.

وقد تتصرف الفواصل القرآنية، محدثةً إيقاعاً صوتياً، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحًا ۝ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحًا ۝ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحًا﴾[3].

يتضح لنا مما سبق أن الفواصل القرآنية، تتنوع تنوعاً عجيباً، إذ تأتي في مواضعها من الآيات، لتكمل مقاصدها، وتزيد معانيها وضوحاً، محدثة إيقاعاً موسيقياً ينسجم مع الآيات، وتختلف الفواصل باختلاف مقاصد السُّوَر والآيات، فتكون شديدةً في السُّوَر المكيَّة، ورخوةً في السُّور المدنيَّة، المتضمنة للأحكام التشريعية، وهي أطول في السُّوَر المدنيَّة وأقصر في السُّوَر المكيَّة، وبالأخص قصار السُّوَر منها.

وقد أشار صاحب «لغة القرآن في جزء عمّ» إلى أن القرآن الكريم لجأ في بيانه الأعلى إلى هذه الوسيلة البلاغية وأكثر منها بخاصة في السُّوَر المكية ولا تكاد تجد سورة مكيَّة تخلو منه، إذ كان الوحي المكّي يخاطب العاطفة والشعور[4].

(1) التكوير 15 ـ 18.
(2) الضحى 9 ـ 10.
(3) العاديات 1 ـ 3.
(4) انظر لغة القرآن في جزء عمّ ص 365.

الباب الثاني

تصريف القول في آيات العقيدة

أكثر القرآن الكريم من تصريف القول في آيات العقيدة[1]؛ لمواجهة الشرك، والوثنية التي كانت سائدة في المجتمع العربي، وغيره من المجتمعات الأخرى.

لذلك نوع الله ـ سبحانه وتعالى ـ تصريف آيات العقيدة على وجوه وأوردها بطرائق كثيرة؛ لبيان الحجج الدامغة، والدلالات القاطعة على وحدانيته ـ سبحانه وتعالى ـ لأن هذا التصريف يهدف إلى تحقيق الإيمان ومعرفة جلال الله وعظمته وقدرته الباهرة، وحكمته البالغة، وتفرُّده بالوحدانية، وصفات الألوهية، ويهدف كذلك إلى تحقيق الإيمان بالنبوة والرسالة، وبالبعث والجزاء، وغيرها من آيات العقيدة التي صرَّف القرآن بيانها.

والقرآن الكريم من أجل تحقيق العقيدة الإسلامية الصحيحة أكثر من تصريف هذه الآيات بأسلوب بديع، منوِّعاً بيانها، في السُّوَر المكية بصفة خاصة، لمواجهة الإنكار الشديد لأصول العقيدة الإسلامية، ولمواجهة الوثنية المترسخة في المجتمع العربي وغيره.

ولذلك فإن التصريف البياني لآيات العقيدة يعتبر خاصية من خصائص الأسلوب القرآني؛ لإثبات حقيقة العقيدة الإسلامية وترسيخها في نفوس أتباعه، مثبتاً بذلك كمال الألوهية لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتفرُّده بالوحدانية، وإثبات الوحي والنبوة، وإثبات البعث والجزاء.

وكان لمظاهر تصريف القول في القرآن الكريم أثر كبير في تقرير أصول العقيدة وترسيخها في النفوس، لذلك نراه ينوِّع بيانه لتحقيق هذه الأصول بطرائق شتى وأساليب مختلفة.

---

(1) معنى العقيدة لغة: يقال عقد الحبل عَقْداً من باب ضرب فانعقد، والعقدةُ ما يُمْسكُهُ ويُوثقُهُ ومنه قيل: عقدتُ البيع ونحوه وعقدت اليمينَ وعقّدتُها بالتّشْديد تَوْكيدٌ... وعقدة النكاح وغَيره إحكامُهُ وإبرَامُهُ.
واعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل العقيدةُ ما يدين الإنسان به.
عرفاً، قضية معينة أو قضايا متعددة يؤمن بها الإنسان ويصدق بها يعقد عليها قلبه، ويجعلها مثله الأعلى ويرتبط بها ارتباطاً قوياً لا تحله أزمة مادية، ولا اضطهاد بشري (المصباح المنير ص 218 عقد، وانظر رسالة ابن أبي زيد القيرواني ص 17).

وقد جرى أسلوب القرآن الكريم في تقرير هذه الأصول على المنهج الاستدلالي، الذي يجمع بين النظر العلمي والعقلي، فربط بين هذه القضايا ربطاً قوياً، دلالة على أهميتها، وأنها مكملة بعضها لبعض؛ لأن الإيمان لا يتم إلا بهذه الأصول مجتمعة. إذ نراه في كثير من الآيات يقرن التوحيد بالنبوة والرسالة، وأحياناً يقرنه بالبعث والجزاء.

وهو في تصريفه لهذه الآيات يرشدنا إلى طريق الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، في تناسق بديع وترابط قوي، تتحكم فيه المناسبات، ومقاصد السُّوَر والآيات.

ومن الجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام، أن بعض العلماء، أخطأ في اختيار المصطلح المناسب، الدال على ورود هذه الآيات بتلك الكثرة، إذ يستعملون مصطلح التكرار؛ لتوجيه هذه الآيات، نورد منها ما ذكره محمد رشيد رضا حين قال: «لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله - عزَّ وجلَّ - في ألوهيته بعبادته وحده»[1]. وقال أيضاً: «وأما تكرار توحيد الربوبية، وهو انفراده - تعالى - بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع، فليس لإقناع المعطلين والمشركين بربوبيته - تعالى - فقط، بل أكثره لإقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة...»[2].

وقال كذلك: «بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولاً غير مملول، طهر الله عقول العرب، وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية...»[3].

والذي نراه ونختاره هو التصريف العجيب، والتفنن البديع، الذي يرجع إلى أمور منها: أسباب النزول، وسوابق الآيات ولواحقها، وبداياتها وخواتمها، وارتباط الآيات بعضها ببعض، وانتظام المعاني فيها، وكذلك مقاصد الآيات والسُّوَر، وذلك

---

(1) الوحي المحمدي ص 170.

(2) نفسه.

(3) نفسه ص 173.

ما سأبينه في هذه الدراسة، المقتصرة على الآيات التي تضمنت إثبات التوحيد الخالص لله رب العالمين، وإثبات النُّبُوَّة والرسالة، والبعث والجزاء، فهي كافية لبيان تصريف القرآن الكريم لآيات العقيدة.

ومن ثم سأقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول بيانها كالتالي:

الفصل الأول: تصريف القول في إثبات التوحيد وإبطال الشرك واعتقادات المشركين.

الفصل الثاني: تصريف القول في إثبات البعث والجزاء ومشاهد القيامة والحساب.

الفصل الثالث: تصريف القول في إثبات النُّبوة والرسالة.

الفصل الأول
تصريف القول في إثبات التوحيد وإبطال الشرك واعتقادات المشركين

التوحيد مصطلحه وغايته:

قبل الحديث عن تصريف القول في إثبات التوحيد وإبطال الشرك أبين بعض الأمور المهمة في هذا الشأن، وأولها تعريف التوحيد: وهو علم يبحث فيه عن وجود الله، وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم.

وأصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له، وسمي هذا العلم بالتوحيد تسميةً له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلقه الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد[1].

قال الأزهري: «والتوحيد: الإيمانُ بالله وحْدهُ لا شريك له، والله الواحدُ الأحد ذو الوحدانية والتّوحُّد»[2]. إذ المراد بتوحيد الله ـ تعالى ـ: الشهادة بأنه إله واحد.

وأما أهل السنّة ففسروا التوحيد بنفي التشبيه والتعطيل، ونقل صاحب «عقيدة التوحيد في فتح الباري شرح صحيح البخاري» قول أبي القاسم التميمي في كتابه «الحجة»: التوحيد مصدر وحَّد يوحّد، ومعنى وحدت الله: اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته، لا نظير له ولا شبيه، وقيل معنى وحّدته: عَلمتُه واحداً، وقيل: سلبتُ عنه الكيفية والكمية، فهو واحد في ذاته لا انقسام له، وفي صفاته لا شبيه له في إلهيته وملكه وتدبيره لا شريك له، ولا رب سواه، ولا خالق غيره[3].

---

(1) رسالة التوحيد ص 5.

(2) تهذيب اللغة 5/ 193 مادة وحد.

(3) عقيدة التوحيد في فتح الباري شرح صحيح البخاري ص 113 ـ 114.

والتوحيد شرعاً: هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالاً، فلا تقبل ذاتُه الانقسام بوجه، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا يدخل أفعاله الاشتراك(1).

فالغاية من علم التوحيد، كما قال الإمام محمد عبده في «رسالة التوحيد»: «القيام بفرضٍ مُجْمَعٍ عليه، وهو معرفة الله ـ تعالى ـ بصفاته الواجب ثبوتها له، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين، الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل، لا استرسالاً مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلاً لليقين»(2).

فالتوحيد هو علم الأصول، على ما فصل ذلك الإمام الرازي في كتابه «عجائب القرآن» تحت عنوان: في أسرار كلمة «لا إله إلاّ الله» إذ قال: «قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(3).

أعلم أن الله ـ تعالى ـ قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار، والسبب فيه: أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع، والأصل يجب تقديمه على الفرع، فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته، وهذه الدقيقة معتبرة في آيات كثيرة»(4).

---

(1) فتح المجيد بكفاية المريد مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 1817 د ص 4، وإتحاف المريد بجوهرة التوحيد، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2218/ 4د في مجموع من 130 ـ 295 ص 131.

(2) ص 13.

(3) محمد 19.

(4) عجائب القرآن ص 7.

وهو أشرف العلوم، كما بيّن ذلك الإمام الغزالي، حين قال: «والعلمُ الأعلى الأشرفُ علْمُ معرفة الله ـ تعالى ـ فإن سائر العلوم تراد له ومن أجله، وهو لا يراد لغيره»[1]. ذلك أن أعظم الأوامر وأهمها توحيد الله ـ سبحانه ـ وترك الإشراك به ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا هو أهم الأمور، وهو أصل دين الإسلام، وهو دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة، دون كل ما سواه، وهو الموصوف بصفات الكمال المنزَّه عن صفات النقص والعيب، واحد في ربوبيته، واحد في ألوهيته، واحد في أسمائه وصفاته، ـ جلَّ وعلا ـ[2].

وقد جاء القرآن الكريم بالعقيدة في الله بيضاء نقية، نَزَّه فيها المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عن جميع النقائص، ونص على استحالة الولد، وكل ما يشعر بمشابهة الخالق بالمخلوق، ووصف الله بالكمال المطلق، ونصَّ على وحدانيته في ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته، بمعنى أنه أحد في تدبير خلقه وأحد في استحقاقه العبادة دون غيره[3].

فلهذين الاعتبارين ـ أعني الأصل والشرف ـ أكثر القرآن الكريم من تصريف آيات التوحيد، ذلك أنه يُصَرِّف هذه الآيات على وجوه ويوردها بطرائق كثيرة، لبيان وجوه الحجج والدلالات القاطعة على وحدانية الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

إن هذا التصريف يستهدف تحقيق الإيمان ومعرفة جلال الله وعظمته، وقدرته الباهرة، وحكمته البالغة، وتفرُّده بالوحدانية، وصفات الألوهية، وهو ما ستكشف عنه الدراسة اللاحقة.

---

(1) جواهر القرآن ص 27.

(2) مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، العدد التاسع والثلاثون، 1414هـ، بحث للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بعنوان «حقيقة التوحيد والشرك» ص 11 ـ 13 وانظر العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم ص 18 ـ 19.

(3) مناهل العرفان 2/ 343.

المبحث الأول
تصريف القول في إثبات التوحيد

نوَّع القرآن الكريم أدلة إثبات التوحيد، إذ أوردها بطرائق مختلفة وأساليب شتى، مُوَزَّعة على سُوَر القرآن الكريم وآياته، حسب مقتضيات الأحوال وأسباب النزول، والسياق الواردة فيه تلك الدلائل، بيد أن طرائق عرضها وأساليب تقريرها تختلف من موضع إلى آخر، فتكون في كل موضع جديدة في أدلتها، جديدة في أساليبها، منسجمة في مواضعها تمام الانسجام.

إن هذه الأدلة المتعددة جاء بها القرآن الكريم؛ لأجل إثبات التوحيد الخالص لله رب العالمين، وإفراده بالعبادة، وإظهار بديع صنعه، وإبطال الشرك والوثنية التي كانت سائدة قبل نزول القرآن الكريم.

إن التنوُّع في المعاني والأساليب وطرائق القرآن في تصريفها لم يقف عنده المهتمون بالتفسير وعلوم القرآن الكريم وبلاغته، وقد اكتفوا بتفسير هذه المعاني في مواضعها، فلم يشيروا إلى تصريفها في المواضع المختلفة، إلا ما أشار إليه الأستاذ أبو زيد في كتابه «التناسب البياني في القرآن» إذ قال: «إن القرآن صرَّف القول في تقرير هذه الحقيقة على أوجه وأساليب شتى، وذلك لأنها كانت محل إنكار شديد؛ ولأنها ذات تأثير كبير في تهذيب النفوس، وفي الإقبال على الخير وتجنب الشر»[1].

ذلك أن ورود هذه الأدلة وأساليبها المختلفة هو تصريف للقول في القرآن الكريم، وهو ما ستكشف عنه هذه الدراسة - إن شاء الله تعالى - التي سأعتمد فيها على المفسرين والمهتمين بعلوم القرآن وبلاغته، كلما اقتضى الأمر ذلك، للإفادة من توجيههم للآيات موضوع الدراسة.

---

(1) ص 81.

وقد استدل القرآن الكريم على وحدانية الله - تعالى - بما كان معروفاً عند العرب، وذلك ما أشار إليه الشاطبي إذ قال: «واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن شيم؛ فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه. فمن علومها علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وتعرف منازل سير النّيرين وما يتعلق بهذا المعنى، وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة»[1].

وقد أشار إلى تنوُّع هذه الدلائل صاحب كتاب «اليهود في القرآن» إذ قال: «وحدانية الله هي الهدف الأول، والأسمى الذي جاء لأجله الإسلام، فمن يدرس القرآن دراسة شاملة يلفت نظره تنوُّع الدلائل على وحدانية الله، ونقدها لمختلف المعتقدات البشرية التي خالطها الإشراك والتي للخيال والأوهام نصيب كبير فيها»[2].

ذلك أن «دلائل القرآن على وجود الله عن طريق الآيات الكونية في الآفاق دلائل برهانية بدهية سهلة تدرك بدون تشتت الفكر في جدل عقلي، وقد أكثر القرآن من ذكر هذه الدلائل والبراهين التي تصل بالإنسان العاقل المستنير إلى نتيجة حتمية كالنتائج الرياضية»[3].

إن الذي يقرأ القرآن الكريم ويتدبر معانيه يَجِدْهُ يُصَرِّف القول في إثبات التوحيد بأدلة متعددة، إذ يوردها بطرائق شتى تختلف في كل مرة عما في غيرها من المواضع التي يرد فيها إثبات التوحيد؛ باختلاف السُّوَر والمواضع الواردة فيها تلك الأدلة.

---

(1) الموافقات 2/ 71.

(2) اليهود في القرآن ص 264.

(3) أضواء الشريعة، الرياض، العدد السابع 1396هـ بحث بعنوان «آيات الله في الأنفس والآفاق» بقلم عبد الباسط بلبول ص 400.

وحيث إن المقام لا يسع لاستقراء الآيات الدالة على التوحيد كلها، لـذا سنكتفي بذكر بعض الأمثلة الدالة على التوحيد، التي تبين طرائق القـرآن فـي تصريفـها والحكمـة من تنوُّعها. وقد ارتأينا أن نقسم هذا المبحث إلى مطالب يأتي بيانها في محله.

أولاً: تنـوع أدلـة انفـراد المولـى ـ عـزَّ وجـلَّ ـ بالألوهيـة والخلـق والاخـتراع والتدبير:

أورد القرآن الكريم آيات كثيرة تدل دلالة واضحة على انفـراد المولـى ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحدانية، وانفراده أيضاً بالربوبية، والخلق والاختراع والتدبير. فمن ذلـك ما نجده من أدلة متنوعة في سورة الأنعام ـ المكية ـ تختلف عمـا فـي غيرهـا، وحتـى مـا ورد فـي هـذه السُّوَرة مـن أدلـة علـى كثرتـها فإنـه يختلـف فـي كـل مـرة فـي المعـاني والأساليب.

وقد ذكر البقاعي سبب احتفال هذه السُّوَرة بأدلـة التوحيـد وتنوعـها، إذ قـال: «وهي كلها في حجاج المشركين وغيرهم مـن المبتدعـة والقدريـة وأهـل الملـل الزائغـة، وعليها مبنى أصـول الديـن لاشـتمالها علـى التوحيـد والعـدل والنُّبُوَّة والمعـاد وإبطـال مذاهب الملحدين، وإنزالها على الصورة المذكـورة[1] يـدل علـى أن أصـول الديـن فـي غاية الجلالة، وأن تعلّمه واجب على الفور لنزولها جملة بخلاف الأحكام فإنها تفرق بحسب المصالح، ولنزولها ليلاً دليـلٌ علـى غايـة البركـة؛ لأنـه محـل الأنـس بنزولـه ـ تعالى ـ إلى سماء الدنيا، وعلى أن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا البصراء الأيقاظ من سِنَة الغفلات أولو الألباب أهل الخلوات والأرواح الغالبة على الأبدان»[2].

---

(1) يعني نزولها جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح، وفي رواية إن نزولـها كـان ليلاً، وإن الأرض كانت ترتج لنزولها (نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّوَر 7/ 2. وقـال البغـوي: «نزلـت بمكـة جملـة ليـلاً معـها سبعون ألـف ملك، قـد سدُّوا مـا بـين الخـافقين لـهم زجـل بالتسـبيح والتحميـد والتمجيـد» (تفسيره 3/ 125) وذكـره الثعـالبي عـن ابـن عبـاس (تفسـيره 1/ 503 ـ 504)، وأخرجه البيهقي في السنن الصغير 1/ 343).

(2) نظم الدرر 7/ 2.

وقد سبقه إلى ذلك الرازي نقلاً عن الأصوليين إذ قال: «هذه السُّورة اختصت بنوعين من الفضيلة أحدهما: أنها نزلت دفعة.

والثاني: أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنُّبُوَّة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرفعة»[1].

ومن هذه الأدلة التي تنوعت في هذه السُّوَرة قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[2].

عرض في هذه الآيات الكريمة أدلة متنوعة من الآفاق والأنفس، دالة على وجود الخالق وقدرته - تعالى - على الخلق والإبداع، فمن هذه الدلائل: خلق السموات، والأرض، وهو إخبار عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، وخصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع.

كما أن في هذا الدليل تنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسام هو الحقيق بالحمد والعبادة دون ما سواه[3].

وقد ذكر صاحب «الفُتُوحات الإلهية» أن الله - تعالى - قدم السموات على الأرض لشرفها؛ لأنها متعبد الملائكة، ولم يقع فيها معصية، ولتقدم وجودها، ذلك أن السموات على هذه الهيئة متقدمة على الأرض الكائنة على هذه الهيئة الموجودة»[4].

(1) تفسيره 12/ 149، وانظر الفُتُوحات الإلهية 2/ 2 - 3.
(2) الآيات 1 - 3.
(3) تفسير القاسمي 6/ 2234.
(4) الفُتُوحات الإلهية 2/ 3.

وتبعه القاسمي إذ قال: «وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها»[1].

وقد بين الرازي نكتة جمع السموات دون الأرض فقال: «إن السماء جارية مجرى الفعل والأرض مجرى القابل، فلو كانت السماء واحدة لتشابه الأثر، وذلك يخل بمصالح هذا العالم، أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية فحصل بسببها الفصول الأربعة، وسائر الأحوال المختلفة، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم، أما الأرض فهي قابلة للأثر والقابل الواحد كاف في القبول»[2].

وأما الدليل الثاني في الآيات السابقة فهو: جعل الظلمات والنور، وقد فرق الرازي بين الخلق والجعل، إذ قال: «إن الخلق فيه معنى التقدير وفي الجعل معنى التضمين، والتصيير كإنشاء شيء من شيء، وتصيير شيء شيئاً»[3].

وقد ذكر قولين في المراد بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ الأول: أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحِسِّ البصر. والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما، وأيضاً هذان الأمران إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض، فإنه لا يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان.

وأما الثاني فهو ما نقله عن بعض السلف، أنه عني بهما الكفر والإيمان، وقد رجح القول الأول لحملهما على الحقيقة دون المجاز.

ونقل عن الواحدي أن الأوْلى حمل اللفظ فيهما معاً، واعترض عليه؛ لأن حمل اللفظ على مجازه، واللفظ الواحد بالاعتبار الواحد لا يمكن حمله على حقيقته ومجازه معاً[4].

---

(1) تفسيره 6/ 2237.

(2) تفسيره 12/ 157.

(3) نفسه ص 159.

(4) نفسه.

وجمع الظلمات وأفرد النور، تنبيهاً على أن طرق الشر والهلاك كثيرة تدور على الهوى، وقد تقرر بهذا ما افتتح به السُّوَرة؛ لأن من تفرد باختراع الأشياء كان هو المختص بجميع المحامد، ومن اختص بجميع المحامد لم يكن إله سواه، ولم يكن له شريك، لا ثاني اثنين، ولا ثالث ثلاثة، ولا غير ذلك.

وما أحسن ختمها بعد الإشارة إلى هذه المقاصد المبعدة، لأن يكفر به أو يعدل به شيء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1].

أي ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من أدلة وحدانيته التي لا خفاء بها عن أحد، جرّد نفسه من الهوى وعالج أدواءه بأنفع دواء، لإحاطته بجميع صفات الكمال.

وزاد الأمر تقبيحاً عليهم بإبدال ما كان الأصل في الكلام من الضمير بقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون غيره ممن لا يقدر على شيء معادلاً له مع معرفتهم له بأنه الذي أبدع الأشياء كفراً لنعمته وبُعْداً من رحمته[2].

وقد نبه البقاعي إلى نكتة بلاغية في تقديم (الظلمة) إذ قال: «وتقديم الظلمة مناسب لسياق العادلين والتعبير بثم للتنبيه على ما كان ينبغي لكل راء لهذا الخلق من الإبعاد عن الكفر لبعده عن الصواب، فقد لاح أن مقصد السُّوَرة الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب الذي تبين أن الهدى من توحيد الله والاجتماع إليه»[3].

وقد بين نكتة التعبير بثم صاحب «الفُتُوحات الإلهية» فقال: «ثم هذه ليست للترتيب الزماني وإنما هي للتراخي بين الرتبتين والمراد استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات»[4].

---

(1) الأنعام 1.
(2) نظم الدرّر 7/ 4 ـ 5.
(3) نفسه ص 5.
(4) الفُتُوحات الإلهية 2/ 3.

ثم عقب هذين الدليلين بالتعجيب من جعلهم لله شريكاً وعبادتهم غير الخالق.

وأما الدليل الثالث فهو بيان أصل خلق الإنسان من طين، ثم حدد أجلاً لموته وأجلاً لبعثه فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ وقد ذكر القاسمي: «أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظرين من دليل الآفاق، الذي في الآية السابقة، والشكر عليه أوجب»[1].

وذكر الرازي أن هذا يحتمل أن يكون المراد منه ذكر دليل آخر من دلائل إثبات الصانع - تعالى - ويحتمل أن يكون المراد منه ذكر الدليل على صحة المعاد وصحة الحشر[2].

وكيفما كان المراد منه ذكر دليل آخر من دلائل إثبات الصانع، أو المراد منه ذكر الدليل على صحة المعاد والحشر، فإن ذلك يدل على قدرة الله - تعالى - وإثبات توحيده، وتخصيصه بالعبادة وحده.

ثم ختم هذا الدليل بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ تعجيباً من تشكيكهم في قدرته - تعالى - مع وضوح الدلائل الدالة على ذلك.

ثم عرض دليلاً آخر من الآفاق مقروناً بصفة العلم، إذ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[3].

ثم عرض أدلة أخرى في موضع آخر من هذه السُّوَرة يختلف عما في غيره في المعاني والأساليب.

وسبب تصريفها على ما ذُكر، أنه لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد والنُّبُوَّة أردفه بذكر الدلائل على كمال قدرته وعلمه وحكمته، تنبيهاً على المقصود الأعظم، وهو معرفة الله - تعالى - بصفاته وأفعاله، وأنه المبدع للأشياء، ومن كان كذلك كان

(1) محاسن التأويل 6/ 2241.

(2) تفسيره 12/ 161.

(3) آية 2.

هو المستحق للعبادة؛ لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها[1] . فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

عرضت هذه الآيات الكريمة أدلة متعددة دالة على قدرة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ على الخلق والإبداع، ذلك أن التأمل فيها والتعرف على منافعها يوصل إلى الإيمان به ـ سبحانه وتعالى ـ وإفراده بالعبادة وحده، فمن هذه الأدلة أنه قادر على خلق الحَبّ والنوى، وإخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميّت من الحيّ. وقد ذكر الرازي في معنى ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ قولين، الأول: بمعنى خالق الحبّ والنوى، وهو مروي عن ابن عباس ـ وقول الضحاك ومقاتل.

والثاني: وهو قول الأكثرين: إن الفلق هو الشق[3] .

وقد أوضح البقاعي سر تصريف القول في هذا الدليل فقال: «أي فاطره وشاقّه عن الزرع والنبات، وعبر بذلك لأن الشيء قبل وجوده كان معدوماً، والعقل يتوهم ويتخيل من العدم ظلمة، فإذا خرج من العدم المحض والفناء الصرف فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم، و(النوى) أي وهو ما يكون داخل الثمار المأكولة كالثمر ولا يكون مقصوداً لذاته بفلقها عن الأشجار، وفي ذلك حِكَمٌ وأسرار تَدِق عن الأفكار، وتدل على كمال الواحد المختار[4] .

وقد ختم هذا الدليل بتعقيب مناسب، دال على بديع صنع الله وكمال قدرته. فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[5] . وفيه أيضاً تعجب من انصراف المشركين عن عبادة الله ـ تعالى ـ.

---

(1) تفسير الرازي 13/ 94 والفُتُوحات الإلهية 2/ 66 وتفسير القاسمي 6/ 2420 وتفسير المراغي 7/ 196.
(2) الايات 95 ـ 99.
(3) تفسيره 13/ 94 ـ 95 وانظر تفسير البغوي 3/ 170.
(4) نظم الدّرر 7/ 197.
(5) آية 95.

وأما الدليل الثاني الدال على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، فهو متمثل في فلق الصبح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، يسيران بنظام دقيق عجيب، لا يستطيع تدبيره إلا العزيز العليم، ليعرفوا بها الأيام والشهور، وذلك ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[1].

هذا الدليل مأخوذ من الأحوال الفلكية؛ وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر؛ ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب، وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية[2].

وقد أشار البقاعي إلى سر التعبير بقوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ ما ملخصه: وهذا الفلق من أعظم الدلائل على قدرته - سبحانه - وفيه دلالتان؛ لأن الإصباح يشمل الفجر الكاذب والصادق، والأول أقوى دلالة؛ لأن مركز الشمس إذا وصل إلى دائرة نصف الليل فالموضع الذي تكون تلك الدائرة أفقاً له تطلع الشمس من مشرقه . . . فكان الأول أدل على القدرة؛ لأنه بتخليق الله ابتداءً تنبيهاً على أن الأنوار ليس لها وجود إلا بإبداعه والظلمات ليس لها ثبات إلا بتقديره[3].

ذلك أن المفردة القرآنية توضع في مكانها الذي تكون فيه أقوى دلالة على المعنى المراد، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في فصل بناء الآيات.

وأما الدليل الثالث، فهو خلق النجوم المنبثة في السماء الدالة على عظيم قدرة الخالق وإتقان صنعه لها، مبيناً الغاية من خلقها، وهو الاهتداء بها في ظلمات البر

---

(1) آية 96.
(2) تفسير الرازي 99 - 100.
(3) نظم الدّرر 7/ 200.

والبحر، لتحقيق منافع الناس، إذ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال الرازي: «فنبه على سبيل الإجمال على أن في وجود كل واحد منها حكمة عالية ومنفعة شريفة. . . ثم إنه - تعالى - كما ذكر الاستدلال بأحوال هذه النجوم قال: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

المراد أن هذه النجوم كما يمكن أن يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر، فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم، وكمال قدرته وعلمه»[2].

وأما الدليل الرابع الدال على وجود الخالق وكمال قدرته وعلمه فهو الاستدلال بأحوال الإنسان، متمثلاً في ابتداء خلقه، هو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[3].

وقد ختم هذا الدليل بما يناسبه فقال تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

وقد بين سر الختم بذلك صاحب «الفُتُوحات الإلهية» فقال: «أي غوامض الدقائق باستعمال الفكرة وتدقيق النظر، فإن لطائف صنعه - تعالى - لأطوار تخليق بني آدم مما يحار في فهمه الألباب وهذا هو السر في إيثار (يفقهون) هنا على (يعلمون) كما ورد في شأن النجوم؛ لأن ذاك أمر ظاهر»[4].

---

(1) آية 97.

(2) تفسيره 13/ 107.

(3) آية 98.

(4) الفُتُوحات الإلهية 2/ 68.

والحق أن هذا تحليل قيم يوضح الدقائق الخفية لهذا التعقيب المناسب لما أعقب به، وهو عندي أولى من توجيه الرازي، الذي يرى أن المراد من هذا التفصيل أنه بين هذه الدلائل على وجه الفصل للبعض عن البعض، ألا ترى أنه ـ تعالى ـ تمسك أولاً بتكوين النبات والشجر من الحب والنوى، ثم ذكر بعده التمسك بالدلائل الفلكية من ثلاثة وجوه، ثم ذكر بعده التمسك بأحوال تكوين الإنسان، فقد ميز ـ تعالى ـ بعض هذه الدلائل عن بعض، وفصل بعضها عن بعض لقوم يفقهون[1]. ذلك أن الأول رتب معاني التعقيب على ما أعقب به وهو أخص، والثاني رتب معاني هذا التعقيب على كل الدلائل التي سبقته وهو أعم منه.

وهو ما ذهب إليه أيضاً البقاعي إذ قال: «ولما كان إنشاء الناس من نفس واحدة وتصريفهم على تلك الوجوه المخالفة جداً ألطف وأدق صنعةً، فكان ذلك محتاجاً إلى تدبر واستعمال فطنة، وتدقيق نظر، قال ﴿ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾ أي لهم أهلية الفقه والفطنة»[2].

وأما الدليل الخامس الدال على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ وعلمه وحكمته ووجوه إحسانه إلى خلقه، فهو إنزال الماء من السماء وإخراج نبات كل شيء، وإخراج الخضر منه، وإخراج الحب المتراكب منه، لا سيما النخيل، والجنات من الأعناب، والزيتون والرمان، متشابهاً وغير متشابه الصفات والخصائص والطعوم والألوان فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[3]. ثم أمر بالنظر والتدبر في هذه

---

(1) تفسيره 13/ 109 ـ 110.

(2) نظم الدرر 7/ 208.

(3) آية 99.

النعم العظيمة ليصلوا بذلك إلى توحيده تعالى وإفراده بالعبادة فقال تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾.

وقد بين الرازي سرّ الاستدلال بهذه النعم العظيمة، فقال: «وأعلم أن هذه الدلائل كما أنها دلائل فهي أيضاً نعم بالغة وإحسانات كاملة، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه، وكان إنعاماً وإحساناً من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيماً»[1].

وتبعه البقاعي فقال: «ولما ذكر وجوه الإبداع التفريعي من هذين الكونين وأسباب البقاء له لما ينشأ عن الفصول وغيرها أتبعه بسببه القريب، وهو الماء الذي جعل من كل شيء حي، فقال مفصلاً ما أجمله في الحَبّ والنوى، سائقاً له مساق الإحسان لما قبله من الدلائل، فإن الدليل إذا كان على وجه الإحسان ومركز الإنعام كان تأثيره في القلب عظيماً، فينبغي للمشتغل بدعوة الحق أن يسلك هذا المسلك، ليكون للقلوب أملك»[2].

وقد ختم هذه الدلائل بما يناسبها فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ والمعنى أن في هذه الدلائل المتنوعة والنعم الكثيرة لبراهين ساطعة لقوم يصدقون بوحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته.

ثم إنه بعدما فصل هذه الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، استعظم أن يجعل هؤلاء المشركين الجنّ شركاء له ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الخالق المنفرد بخلقهم، ونسبوا له ما لا يجوز في حقه من البنين والبنات جهلاً منهم بالله ـ تعالى ـ وبعظمته فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3].

---

(1) تفسيره 13/ 111.
(2) نظم الدّرر 7/ 208.
(3) آية 100.

ثم نزَّه نفسه عما ينسبه إليه المشركون ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ فقال عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

ذكر الرازي سرّ التقديم في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ نقلاً عن سيبويه فقال: «إنهم يقدمون الأهم الذي هم بشأنه أعنى[1]، فالفائدة في هذا التقديم استعظام أن يتخذوا لله شريكاً، سواء كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً، أو غير ذلك، فهذا هو السبب في تقديم اسم الله على الشركاء»[2].

ثم انتقل البيان القرآني إلى ذكر دليل آخر من الآفاق والأنفس، جاء مناسباً في سياقه؛ لأنهم نسبوا لله ما لا يجوز في حقه، مبيناً أن الله خالق السموات والأرض دون مثال سابق، نافياً أن يكون لله ولد، أو صاحبة، ومثبتاً له الخلق والعلم المطلقين فقال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3].

ثم انتقل إلى إثبات التوحيد المحض والعبادة الخالصة لله رب العالمين، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[4].

ذكر الرازي أن في هذه الآية توحيداً محضاً، مبيناً سر إيراده في هذا الموضع فقال: «اعلم أنه تعالى ـ بين في هذه السُّورَة بالدلائل الكثيرة افتقار الخلق إلى خالق وموجد، ومُحْدِث، ومُبْدِع، ومُدَبِّر، ولم يذكر دليلاً مفصَّلاً على نفي الشركاء، والأضداد والأنداد، ثم إنه أتبع الدلائل الدالة على وجود الصانع بأن نقل قول من

(1) الذي في كتاب سيبويه 1/ 34: «كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعني».
(2) تفسيره 13/ 120.
(3) آية 101.
(4) آية 102.

أثبت لله شريكاً، فهذا القدر يكون أوجب الجزم بالتشريك من الجن، ثم أبطله، ثم إنه ـ تعالى ـ بعد ذلك أتى بالتوحيد المحض حيث قال: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[1].

وهكذا يكشف التصريف القرآني قدرة الله على الخلق والإبداع، ويوصل إلى التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له.

ثم انتقل إلى ذكر أدلة أخرى متنوعة تختلف عما في غيرها، إذ جاءت عقب ذكر ما نسبه المشركون لله مما لا ينبغي أن ينسب إليه افتراء عليه ـ سبحانه وتعالى ـ ظلماً وعدواناً، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[2]. ثم إنه ـ تعالى ـ لما عدد افتراءاتهم وجهالتهم أتبعها بذكر الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالوحدانية، وفيها أيضاً تذكير لهم بنعمه الجليلة التي أنعم بها عليهم، ومع وضوحها وكثرة منافعها فقد كفروا به ـ تعالى ـ:

إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3].

والجدير بالتنبيه إليه في هذه المقام أن هذه الآية وإن تشابهت في شيء من دلالاتها مع آيات الدليل الخامس ـ الذي سبق ذكره ـ لا يعني ذلك أنها مكررة في هذه المعاني؛ لأن السياق الذي وردت فيه هذه الآيات مختلف، وكذلك سوابق الآيات ولواحقها مختلفة أيضاً.

---

(1) تفسيره 13/ 126.
(2) الآيات 136 ـ 138.
(3) آية 141.

ومن ثم سأكتفي بذكر أهم ملحظ ينفي صفة التكرار عنها بعد السياق الواردة فيه، وهو أن آيات الدليل الخامس أعقبت بالأمر بالنظر والتدبر في هذه النعم فقال تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

وأما آيات هذا الدليل فقد أعقبت بالأمر بالأكل من الثمر معطوفاً عليه الأمر بدفع زكاته يوم حصاده، والنهي عن الإسراف فقال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾.

وقد عرضت سورة يونس المكية هي الأخرى أدلة متنوعة تدل على قدرة الخالق وبديع صنعه، فمنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

ففي هذه الآية استدل على تفرده - تعالى - بالخلق والإبداع بخلقه السموات والأرض في ستة أيام، واستوائه على العرش، وتدبيره للأمر، ولا يشفع عنده أحد إلاّ بإذنه.

ثم إنه وصل إلى النتيجة المقصودة من تصريف هذه الدلائل، وهي توحيد الربوبية وإفراده بالعبادة وحده، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ ﴾.

وقد أوردها على سبيل العظة والاعتبار بها، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن خلق السموات والأرض في ستّة أيام ورد في ست آيات غير هذه الآية، وهي مشابهة لها في بعض المعاني والأساليب، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ

(1) آية 99.

(2) يونس 3.

عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[6].

إن هذه الآيات المتشابهة في خلق السموات والأرض في ستّة أيام، لا تكرار بينها، وإنما هو التنويع العجيب والتفنن الدقيق، الذي ميز القرآن الكريم عن غيره، والذي يرجع إلى أمور منها: أسباب نزول هذه الآيات التي يضيق المقام لذكرها.

---

(1) الأعراف 54.

(2) هود 7.

(3) الفرقان 59.

(4) السجدة 4.

(5) ق 38.

(6) الحديد 4.

ومنها السياق الواردة فيه هذه الآيات، ذلك أن كل آية تابعة لسياقها ومكملة لمقصودها في السُّوَرة، ومنها أيضاً اختلاف سوابق الآيات ولواحقها؛ لأن ما يسبق الآية وما يلحق بها يكمل معانيها ويجعلها متميزة عن غيرها.

ولنأخذ أقرب هذه الآيات تشابهاً مع آية سورة يونس وهي آية الأعراف، لنفصل الفرق بينهما من حيث السياق، ومن حيث الدلالات المختلفة في هاتين الآيتين، ذلك أن آية الأعراف جاءت إثر تقرير أمر المعاد. قال الرازي: «فلما بالغ الله - تعالى - في تقرير أمر المعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد، وكمال القدرة، والعلم، لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد، ومقررة أيضاً لإثبات المعاد»[1].

وأما آية يونس فجاءت في سياق إنكار المولى - سبحانه وتعالى - على الناس عجبهم من الوحي، لذلك ناسبه أن يثبت أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي يفعل ما يشاء، وهو العليم الخبير.

ثم إن هاتين الآيتين اختلفتا في الجزء الثاني منهما من حيث المعاني والأساليب، ففي سورة الأعراف، بين أنه - تعالى -: يورد الليل على النهار حتى يذهب نضرته ونوره، يطلبه سريعاً[2].

وبين أنه خلق الشمس والقمر والنجوم، كلها تحت قهره وتسخيره ثم ختمها ببيان أن له الخلق والأمر، منزهاً نفسه بصيغة التنزيه - تبارك -.

وأما سورة يونس فبيّن فيها أنه يدبر الأمر، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، مشيراً إلى توحيده، آمراً بعبادته، والاتعاظ والاعتبار بالدلائل الدالة على وجوده وكمال قدرته.

---

(1) تفسيره 14/ 102.

(2) مختصر تفسير الطبري 1/ 380.

فهذه المعاني التي اختصت بها الآيتان، تنفي صفة التكرار عنهما وعن غيرهما من الآيات.

ثم انتقل في سورة يونس إلى إيراد أدلة أخرى تختلف في معانيها عمّا سبقها، وقد جاءت إثر إثبات البعث والجزاء، إذ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[1].

فقد ذكر في هذه الآيات أنواعاً من آياته الكونية الدالة على وجوده - تعالى - وكمال قدرته.

أولها: جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، وسوَّى القمر منازل لغاية حكيمة، وهي معرفة السنين والحساب، مبيناً أنه لم يخلق الشمس والقمر عبثاً، وإنما خلقهما بالحق، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ ثم ختم هذا الدليل بختام مناسب يكمل مقصود الآية فقال تعالى: ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ومعنى ذلك أنه يبين الحجج والأدلة، لقوم يتدبرون وحدانية الله فيؤمنون به ويخُصُّونه بالعبادة، ولا يشركون معه غيره.

قال البقاعي: «ولما كان النظر في هذه الآيات من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى كثير من الاتصاف بقابلية العلم من ختم الآية بقوله: ﴿ يُفَصِّلُ ﴾ في قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحفص عن عاصم بالياء التحتية، وبالالتفات إلى أسلوب العظمة تعظيماً للبيان في قراءة الباقين - بالنون - ﴿ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي يبين الدلائل الباهرة واحدة في إثر واحدة متفاصلة بياناً شافياً، ولما كان البيان لمن لا علم له كالعدم قال ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ أي لهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لهم هذا الوصف على سبيل التجدد والاستمرار»[2].

---

(1) الآيتان 5 - 6.

(2) نظم الدرّر 9/ 75 - 76.

وقد ذكر في هذه الآية بعض نعمه على المكلفين، وهو مما يستدل به على وجوده ووحدانيته وقدرته، وعلمه وحكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام[1].

ثم انتقل إلى ذكر الدليل الثاني، وهو اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما لحكمة عظيمة فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[2]. ثم أعقبه ببيان الدليل الثالث، وهو ما خلقه الله في السموات والأرض من عجائب المخلوقات التي خلقها على غاية من الإحكام والإتقان؛ لينبه العباد على أنه خالق كل شيء، ويقيم الحجة على المشركين في عبادتهم لغيره - تعالى - فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[3].

وقد جاء التعقيب مناسباً لما أعقب به، ذلك لأن من يعرف هذه الأدلة ويشاهدها صباح مساء ينبغي عليه أن يخاف وعيد الله ويخشاه، فيتقي الله - تعالى - بأن يقرّ له بالوحدانية، ويخصه بالعبادة. وهكذا فإن في هذه الأدلة بياناً بديعاً وأسلوباً عجيباً.

وصرَّف القول في إثبات التوحيد بعد أن صرَّف القول في إثبات النُّبُوَّة، مبيناً أن عادة المشركين المكابرة والتكذيب بالآيات، فكثيراً ما جاءتهم الآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى -، وكمال قدرته وبالغ حكمته، ثم هم يمكرون ولا يزيدون إلا عناداً وضلالاً، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[4].

---

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن 4/ 23.

(2) يونس 6.

(3) نفسها.

(4) نفسها 22.

تضمّنت هذه الآية أدلة تبين قدرة الله ـ تعالى ـ وتحمل ضمنها الامتنان على عباده بهذه النعم.

وقد بينت أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا غيره هو الذي يُسيِّرِ عباده في الْبَرّ والبحر بتسخير الوسائل التي تحقق لهم ذلك بقدرته.

وبينت جريان الفلك في البحر بالريح الطيبة، وفَرَحِ الراكبين في تلك الفلك بهذه الريح، ثم سخر لهم ريحاً شديدة وجاءهم الموج من كل مكان وأيقنوا أن الهلاك أحاط بهم.

وبينت حالهم في هذه الشدة، فلا مناص لهم من ذلك إلا دعاء الله ـ تعالى ـ أن ينجيهم من هذه الشدة قائلين: لئن أنجيتنا من هذه الشدة لنكونن من الشاكرين لنعمتك بإخلاص العبادة لك وحدك.

ثم أعقب هذه الأدلة وهذه النعم ببيان أنهم أخلفوا الوعد وبغوا في الأرض بالكفر والعمل بالمعاصي، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[1].

يتبين لنا من ذلك أن التوحيد الخالص، وشكر النعمة، وإفراد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالعبادة هو المنجي من عذاب الله ـ تعالى ـ.

ويورد في موضع آخر أنواعاً أخرى من الحجج والدلائل، أقامها ـ سبحانه وتعالى ـ دليلاً على توحيده وبطلان الإشراك به، تختلف عن غيرها في المعاني والأساليب. إذ قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ

(1) يونس 23.

أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

وقد جاءت هذه الدلائل إثر إثبات البعث والجزاء؛ ليقيم الحجة الدامغة والبراهين الساطعة على تفرده بالخلق والإبداع، ومن هذه الحجج والدلائل التي لا يستطيعون إنكارها: أن الله هو الذي يرزق عباده من السماء والأرض، هذا هو الدليل الأول، وأما الدليل الثاني فهو أن الله هو الذي يملك السمع والبصر.

إن في هذه النعم دلائل واضحة على كمال قدرته، وتمنناً على عباده بجلائل نعمه.

وأما الدليل الثالث: فهو إخراج الحيّ من الميت وإخراج الميت من الحي، وأما الرابع فهو تدبير الأمر.

وقد ختمت هذه الطائفة من الدلائل بقوله تعالى: ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾. ذلك أن هذه الدلائل واضحة يشاهدونها ويستفيدون من نعمها، يناسبها التخويف من عقاب الله على الكفر، وعبادة من لا يرزق ولا يملك الضر والنفع.

وحَريٌّ بنا في هذا المقام أن نبين أن هذه الآية يشابهها في سورة سبأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2]. وهو تنويع للبيان القرآني لا تكرار فيه، وذلك ما نلحظه من فروق دقيقة تفرق بين هاتين الآيتين.

---

(1) نفسها 31 ـ 36.

(2) سبأ 24.

أولهما: أن آية يونس جاءت في سياق إثبات البعث والجزاء، وأما آية سبأ فجاءت في سياق إثبات التوحيد، وإبطال الشرك بعد أن ذكر طرفاً من قصص سبأ.

وأما الملحظ الثاني فهو إفراد السماء في يونس وجمعها في سورة سبأ، وللسهيلي في بيان الفرق بين الموضعين كلام لطيف يشير إلى أن المخاطبين بآية يونس كانوا مقرين بنزول الرزق من هذه السماء، وهو الرزق المحسوس كالغيث، ونحوه، وقد قال - تعالى - في آخر الآية: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ فلما انتظم هذا الكلام بما قبله لم يصلح في النظم إلا ذكر السماء مفرده؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الرزق المعقول والرحمة بالعباد كالوحي الذي به حياة الأرواح والأجساد، بل ينكرون ذلك، فوردت السماء فيها لفظ الإفراد، بخلاف الآية الأخرى، فإنه لم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من الرزق، ولكنه قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فأمر نبيه - ﷺ - بهذا القول، الذي هو تصديق لنزول الرزق والخير، الذي هو الحكمة والعلم، وهو أفضل الرزق من فوق سبع سموات، وأما الرزق من الأرض فيصلح ذكره في الآيتين جميعاً، إذ لا ينكر رزق الأرض وما ينزل من الغيث، من هذه السماء بَرّ ولا فاجر، بل يعترف به المؤمن والكافر(1).

يتبين لنا من هذا التوجيه القيم، الذي ينم عن ذوق رفيع وفهم عميق للبيان القرآني، أن هذا البيان جاء موافقاً في كل مرة لحال المخاطبين به، وما دام الأمر كذلك، فلا تكرار في هاتين الآيتين، وإنما هو التنويع العجيب، الذي يرجع إلى أحوال المخاطبين، وتحقيق المقاصد في دقة وإحكام، مع روعة الانسجام، والتفنن البديع الذي لا نظير له في غيره من الكلام.

وأما الملحظ الثالث فهو ما اختلفت فيه الآيتان من زيادة في البيان عن غير ما تشابهتا فيه، إذ إن البيان في الجزء الثاني من سورة يونس جاء مبيناً أن الله يملك

---

(1) نتائج الفكر في النحو ص 161 - 162.

السمع والبصر، وأنه يخرج الحيّ من الميت، ويخرج الميت من الحيّ، وهو الذي يدبر الأمر، ثم بيّن أن هؤلاء المشركين سيجيبون بأنفسهم أن الله هو الذي يملك ذلك. وقد اختلفت عن نظيرتها أيضاً في التعقيب.

وأما البيان في الجزء الثاني من سورة سبأ، فقد تضمن الأمر الموجه للرسول ـ ﷺ ـ أن يجيب أن الله هو الذي يرزق عباده من السموات والأرض مستعملاً معهم أسلوب الإنصاف في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. وهو ما أشار إليه مختصر تفسير الطبري، إذ قال: «هذا نهاية الإنصاف مع الخصم كأنه يقول أحد الفريقين منّا أو منكم في ضلال بيّن، وفيه تعريض بضلال المشركين بوجه أبلغ من التصريح، كما يقول العرب: أخزى الله الكاذب مني ومنك، يريد أن صاحبه هو الكاذب»[2].

ثم إنه ـ تعالى ـ لما ذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وبديع صنعه أتبع ذلك بتوحيد الربوبية في قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[3]. مبيناً أنه الإله الحق الذي يفعل هذه الأفعال بقدرته ـ تعالى ـ وأن خلاف ذلك فهو ضلال.

ثم إنه أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ تعجباً من الانصراف عن التوحيد واتباع الضلال مع وضوح دلائله وظهور نعمه.

ولذلك وجب قضاء الله وحكمه على الّذين كفروا به وخرجوا عن طاعته؛ لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله ـ تعالى ـ ولا بما يجب الإيمان به، مثل النُّبُوَّة والرسالة والبعث والجزاء، وذلك ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

---

(1) سبأ 24.

(2) مختصر تفسير الطبري 2/ 302 هامش 1.

(3) يونس 32.

(4) نفسها 33.

ثم انتقل إلى إقامة دليل من نوع آخر على توحيد الله، ونفي الشريك يحمل في ضمنه تحدي المشركين وتعجيزهم، متمثلاً في سؤالهم: هل من الأوثان والأصنام من يقدر على بدء الخلق ثم إعادته؟ وإذا كانوا لا يستطيعون ولن يستطيعوا ذلك، فإن الله - سبحانه وتعالى - هو وحده الذي يبدأ الخلق ثم يعيده يوم البعث والجزاء. إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[1]. ثم ختمها بالتعجب من انصرافهم عن توحيده مع وضوح عجز الأصنام والأوثان، فقال تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

ثم انتقل إلى إقامة حجة أخرى على المشركين واضحة البرهان، ولعل فيها تدلّياً من الصعب إلى السهل، بمعنى أن الأصنام والأوثان إذا كانت لا تقدر على خلق الشيء وإعادته، فلعلها تقدر على ما هو أسهل من ذلك وهو الإرشاد إلى الطريق المستقيم، وما دامت لا تقدر على ذلك فالله هو القادر على الهداية إلى الطريق المستقيم، وهو الأحق في اتباع ما يدعو إليه من التوحيد ونفي الشرك والوثنية، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2].

ثم جاء التعقيب مناسباً لما أعقب به في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بمعنى أنه إذا اتضح لكم عجز هذه الأصنام، وفي المقابل وضوح دلائل توحيده - سبحانه وتعالى - فكيف تسوون بينها وبين الخالق العظيم الذي يجب الإخلاص له في العبادة وحده.

---

(1) يونس 34.

(2) نفسها 35.

ثم أتبع هذه الأدلة ببيان حقيقة المشركين، وهو الحكم عليهم باتباع الظنّ، وهو ما لا حقيقة له ولا صحة، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[1].

ثم إنه لمّا بيّن حقيقة المشركين وفساد عقيدتهم ناسبه التعقيب بصفة العلم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

ونجد في موضع آخر من سورة يونس دلائل أخرى جديدة في معانيها وأساليبها تبين قدرة الله ـ تعالى ـ وبديع صنعه. وهي أدلة من الآفاق والأنفس، تبين أن الآفاق كلها والأنفس جميعاً ملك لله ـ تعالى ـ لا لغيره، فقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2].

ثم أعقب هذه الأدلة ببيان حقيقة المشركين في عبادتهم الأصنام من دون الله، مع وضوح دلائل انفراده بملك كل شيء، مبيناً أنهم يتبعون شكّاً لا حقيقة فيه، إذ يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

ثم انتقل إلى ذكر دليل من الآفاق، استدلالاً على وحدانيته، وتمنناً على عباده بنعمه العظيمة، المتمثلة في جعل الليل للراحة والنهار لطلب المعاش والمصالح فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[3].

وقد ختم هذا الدليل بما يناسبه، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

---

(1) يونس 36.

(2) نفسها 66.

(3) آية 67.

ثم انتقل إلى ذكر شُبُهات المشركين ودعاويهم الباطلة على التوحيد، وهو ادعاؤهم أن لله ولداً - منزهاً نفسه عن ذلك، فقال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾[1].

ثم أتبع ذلك بإبطال هذه الدعاوي بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة المحسوسة، نافياً أن يكون لهم حجة على ذلك، منكراً عليهم هذه الدعوة الباطلة التي لا تستند إلى برهان فقال تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

والذي نريد أن نقف عنده أن قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ في هذه السُّورة مشابه لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ في سورة غافر[3].

إن هاتين الآيتين وإن اتفقتا في بعض معانيهما، فإنهما مختلفتان في بعضهما الآخر والذي نلحظه في اختلاف السياق، حيث إن الأولى جاءت في سياق إثبات التوحيد وبيان حقيقة المشركين، وأما الثانية فإنها جاءت في سياق إثبات البعث والجزاء، وتأكيدهما، وبيان أن أكثر الناس لا يصدقون بهذا اليوم، والأمر بعبادة الله - تعالى - ووعيد المستكبرين عن عبادة الله - تعالى -.

والملحظ الثاني، اختلافهما في التعقيب، إذ الأولى أعقبت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ والثانية بقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[4].

---

(1) آية 68.
(2) آية 68.
(3) آية 61.
(4) غافر 61.

إن ذلك هو التنويع العجيب والتفنن الدقيق الذي لا نظير له في بيانه.

يتبين لنا من العرض السابق أن القرآن الكريم صَرَّف القول في الآيات الدالة على التوحيد تصريفاً بديعاً، يكشف عن إعجاز القرآن الكريم وروعة بيانه.

إذ أوردها مستدلاً بها على وجود الله وإثبات وحدانيته، وبالغ حكمته، وعظيم سلطانه في تدبير ملكه وتَفَرُّده بالخلق والإبداع. وهو في تصريفه لهذه الأدلة يرشدنا إلى طريق معرفة وجود الله ـ تعالى ـ وذلك بأن نتأمل في هذا الكون العجيب، وفيما اشتمل عليه من بدائع المصنوعات والمخلوقات، وأن نمعن النظر فيما أوجده في الأنفس والآفاق من الآيات البينات الدالة على وجوده ـ تعالى ـ ووحدانيته.

وقد أشار محمد صادق عرجون إلى أن القرآن الكريم الذي أُنزل على النبي الأمي، هو الذي يوجه العقل الإنساني بكل ما منحه الله من قوة وجبروت إلى النظر في ملكوت الله؛ ليكشف حقائق الكون ويرفع الحجب عن أسراره ويفسر آياته في الأنفس، وحتى الآفاق، وكلما عظم شأن الكون عظم في نظر المؤمن جلال المكوّن الخلاّق العظيم وانفتحت مغاليق الإيمان الراسخ أمام العقلاء المتدبرين[1].

لقد تفنن القرآن الكريم وأبدع في تصريفه لهذه الآيات وغيرها، فهو ينتقل من معنى إلى آخر، عن طريق أساليبه المتنوعة التي تجعل كل آية تابعة لسياقها ومحققة لمقصودها في السُّوَرة.

إن الذي يعمّق نظره في تلك الآيات المتشابهة يجد أنها جزء لا ينفصل عن الآيات التي تندرج فيما سمّاه القرآن بالتصريف، لا تكرار فيها ولا بينها، وأن وصفها بالتكرار هو استعمال خاطئ لا ينبغي أن يوصف به كتاب الله ـ تعالى ـ.

---

(1) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 285.

ثانياً: إثبات التوحيد والامتنان على عباده بنعمه الجليلة:

أثبت القرآن الكريم التوحيد، وقرنه بالامتنان على عباده بنعمه العظيمة، التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وهذه النعم أنواع، منها نعمة التصوير وحسن الخلقة، ومنها المنافع والأرزاق، وتسخير ما من شأنه أن يحقق نفعاً أو يدفع ضرراً عن عباده في عناية فائقة، لا مثيل لها، وهذا ما سيبينه تصريف القول في الآيات التي نذكرها على سبيل المثال لا الحصر.

1. التصوير وحسن الخلقة:

نجد القرآن الكريم يستدل على إثبات توحيد الله بعرض الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، على كمال قدرته وبديع صنعه، مقرونة بالامتنان على عباده بحسن التصوير، والرزق من الطيبات، مبيناً أن الذي قَدَّر ذلك هو الله رب العالمين، كما في قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]. ويمكن إجمال هذه الدلائل والنعم في الآتي:

أ ـ جعل الأرض قراراً، أي تستقرون عليها وتسكنون فيها[2]. هذا هو معنى القرار، كما فسّره الطبري وغيره، من أئمة التفسير، وليس معناه عدم الحركة كما فهم البعض، فإن الله بيّن لنا أنه جعل الأرض مستقراً لنا ومسكناً، وهذه نعمة جليلة ينبغي أن نشكر الله عليها، ويؤيد هذا قول ابن عباس: جعلها منزلاً في حياتكم وبعد موتكم[3].

ب ـ جعل السماء بناءً متماسكاً.

---

(1) غافر 64.

(2) مختصر تفسير الطبري 2/ 405 ـ 406.

(3) نفسه هامش 1.

ج ـ صوّر عباده في أحسن صورة.

د ـ رزق عباده من الطيبات، ضماناً لحياتهم.

وهكذا فإن في هذه الآية الكريمة، دلائل عظيمة، ونعماً جليلة، توجب على المكلفين توحيد خالقها ومبدعها، وإفراده بالعبادة وحده، وشكره عليها.

وقد بين في موضع آخر، أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ذلك أن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم حقيق بالتوحيد والعبادة، لا إله غيره ولا معبود سواه.

ومن ثم نستطيع القول: إن في الآيتين السابقتين دلائل قاطعة على استحقاق الله ـ سبحانه وتعالى ـ للربوبية والوحدانية، وهذه الدلائل هي تصوير الإنسان في أحسن صورة وأقومها، تلك الدلائل التي أتقن صنعها، جعلته حقاً أحسن الخالقين ـ سبحانه وتعالى ـ.

كما أنه ـ تعالى ـ ذكّر بنعمة الأرض التي جعلها مستقرة ليعيش عليها الإنسان، وبنعمة السماء التي جعلها بفضله وبقدرته بناءً متماسكاً، وذكّر كذلك بنعمة خلق الإنسان وتصويره في أحسن صورة وأقومها، ورزقه من الطيبات. كل ذلك لا يتم إلا من إله عظيم.

2.المنافع والأرزاق:

نجد القرآن الكريم في تصريف بيانه يدلُّ على توحيد الله ـ تعالى ـ وكمال قدرته، وبالغ حكمته، بدلائل الأنفس والآفاق، وتحمل في ضمنها الامتنان على عباده بالمنافع الكثيرة والأرزاق المختلفة التي سخرها لعباده، فمن ذلك ما نجده من تنويع بديع في سورة النحل، التي عرضت أدلة متنوعة دالة على قدرة الله ـ تعالى ـ على الخلق والإبداع، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ

لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ولما كان مقصود سورة النحل الدلالة على أن الله ـ تعالى ـ تام القدرة والعلم، منزه عن شوائب النقص، صرف القول في ذلك تصريفا عجيبا، إذ عرض فيها دلائل كثيرة دالة على قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وبديع صنعه، وجميل إنعامه، ويمكن إجمال هذه الدلائل التي هي نعم من الله على عباده في الآتي:

1 ـ خلق السموات والأرض بالحق.

2 ـ خلق الإنسان من نطفة وتنقله في أطوار من الخلق العجيب حتى يكون خصيما مبينا يجادل ربه.

(1) النحل 3 ـ 18.

وقد علل البقاعي سِرَّ تصريف هذا الدليل عقب الدليل السابق فقال: «ولما كان خلق السموات والأرض غيباً لتقدمه، وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة، مع كونه أدل على ذلك من حيث إنه أشرف من كل ما يعبده من دون الله، ولن يكون الرب أدنى من العبد أصلاً، قال معللاً: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾[1].

أي هذا النوع الذي خلقه أدل ما يكون على الوحدانية والفعل بالاختيار؛ لأنه أشرف ما في العالم السفلي من الأجسام لمشاركته للحيوان الذي هو أشرف من غيره، بالقوى الشريفة من الحواس الظاهرة والباطنة»[2].

3 ـ خلق الأنعام وتسخيرها لمنافع الإنسان.

4 ـ إنزال الماء من السماء بعناية فائقة؛ لشرب الناس، وسائر الأحياء، وإنبات الزروع المختلفة؛ لمنافع العباد.

وقد أوضح البقاعي سرّ تعداد هذه النعم فقال: «ولما صار التوحيد بذلك كالشمس، وكان كل ما في الكون مع أنه دال على الوحدانية نعمة على الإنسان يجب عليه شكرها، شرع يعدد ذلك تنبيهاً له على وجوب الشكر بالتبرُّؤ من الكفر»[3]. وقد ختم الأدلة السابقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]. فجاء مناسباً لما بينه من دلائل واضحة ونعم جليلة، تبرز أثر رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده، وعلمه وحكمته، وبديع صنعه وجمال خلقه؛ لأن التفكير يوصل إلى معرفة الله ـ تعالى ـ وتوحيده، وعبادته وشكره، إن أحسن الإنسان استعماله.

---

(1) نفسها 4.

(2) نظم الدّرر 11/ 106 ـ 107.

(3) نظم الدرر 11/ 107 ـ 108.

(4) النحل 11.

«ولما كان ذلك مما يحس، وكان شغل الحواس بمنفعته لقربه وسهولة ملابسته ربما شغل عن الفكر في المراد به، فكان التفطن لدلالته يحتاج إلى فضل تأمل ودقة نظر»[1].

5 - تسخير الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم؛ لتحقيق منافع العباد، دلالة على بديع صنع الله وعنايته بعباده.

وقد ختم هذا الدليل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

فجاء مناسباً لموقعه، ومعنى ذلك أن هذه الأدلة دلالات واضحة لمن يحكّمون عقولهم.

6 - كل ما خلقه الله في الأرض من الدواب والأشجار والثمار مختلفة الأشكال والألوان، وهيأه لمنافع الناس. وقد ختمها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[3].

7 - تسخير البحر للناس وتذليله وتيسيره، معدداً منافعه وذلك لغاية حكيمة وفضلاً ونعمة، وتمكينه من الاستفادة والتصرف في هذه الخيرات، ومن ثم تقود إلى شكر الله - تعالى - على نعمة العظيمة وخيراته الجليلة، بتوحيده وعبادته، ثم ختمها بقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4].

8 - إلقاء الرواسي في الأرض وهي الجبال؛ لحكمة عظيمة وذلك ألاّ تميد الأرض بالناس.

9 - إجراء الأنهار في الأرض، وجعل فيها طرقاً؛ لحكمة عظيمة وهي الاهتداء بها إلى الأماكن التي يقصدها الناس، فضلاً من الله ونعمة، ثم ختمه بقوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[5].

---

(1) نظم الدرر ص 119.

(2) النحل 12.

(3) نفسها 13.

(4) نفسها 14، فكان الختم مناسباً؛ لأن هذه النعم العظيمة تتطلب من العباد شكرها والاعتراف لمنعمها بالوحدانية وتخصيصه بالعبادة.

(5) النحل 15.

10 ـ جعل النجوم علامات يهتدي بها الإنسان ليلاً. ثم إنه ختم هذه الدلائل بالتعجب والإنكار من الّذين لا يفرقون بين الله الخالق العظيم واهب النعم الكثيرة، وبين الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع. ثم إنه لم يكتف بذلك بل ذكّر بأن نعمه على عباده لا تحصى ولا تعد.

وهكذا يكشف التصريف القرآني بديع صنع الله وعنايته بخلقه، ثم ينتقل في موضع آخر من هذه السُّوَرة إلى عرض دلائل عظيمة، ونعم كثيرة تختلف عمّا عرض في هذه السُّوَرة من دلائل الوحدانية فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[1]. إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ تضمنت هذه الآيات الكريمة دلائل كثيرة، ونعماً جليلة، دالة على وجود الله ـ تعالى ـ وبديع صنعه فمن ذلك: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها، وخلق الأنعام وما فيها من عبرة في إخراج الحليب من بين فرث ودم لبناً خالصاً لا يغصّ به شاربه فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[2].

ثم انتقل إلى ذكر دليل من نوع آخر، متمثّل في ثمرات النخيل والأعناب وفي ذلك عبرة وموعظة فقال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

ثم أعقبه بذكر دليل آخر، وهو إلهام النحل أن تتخذ من الجبال ومن الشجر بيوتاً تأوي إليها، وأمرها بالأكل من كل الثمرات لفائدة الناس ومنافعهم، بما يخرج من بطون النحل من عسل مختلف الألوان، وهو شفاء للناس فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى

(1) النحل 65 ـ 69.
(2) نفسها آية 66.
(3) نفسها 67.

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[1].

إن في هذا الدليل وفي غيره عناية فائقة بالإنسان، وتسهيل كل ما من شأنه أن يقدم نفعاً له، وما أعظم هذه الأدلة والنعم، ذلك أن الواحد من هذه الدلائل والتفكر في هذا الخلق البديع، يوصل إلى معرفة الخلاق، وبالتالي يوصل إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين، وقد ناسبه أن يختم هذه الطائفة من الأدلة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ثم انتقل إلى إثبات الحياة والموت، وأحوال الإنسان ومراحل حياته، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[2].

ثم انتقل إلى ضرب مثل للمشركين في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[3].

ثم انتقل إلى بيان تناسل الناس عن طريق أزواج من نوعهم، وجعل لهم من الأزواج بنين وحفدة ورزقهم من الطيبات، متعجباً ومنكراً عليهم إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله - تعالى - فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[4].

---

(1) النحل 68 - 69.
(2) نفسها 70.
(3) آية 71.
(4) آية 72.

ثم انتقل إلى بيان أن المشركين يعبدون ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1].

وذكر في موضع آخر إمداد الناس بأدوات العلم والمعرفة تمنناً عليهم وليشكروا الله على ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2].

ثم انتقل إلى ذكر دليل آخر، دال على كمال قدرته، موجّه إلى المشركين على سبيل الإنكار، وهو تسخير الطير في جو السماء، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

ثم انتقل إلى ذكر دلائل ونعم أخرى جديدة، وهي نعمة البيوت التي يتخذها الناس سكناً لهم، ونعمة الأثاث والمتاع، ونعمة الألبسة الواقية من الحرّ والبرد، ونعمة الجبال فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[4].

ونجد البيان القرآني في سورة الروم يعرض دلائل مختلفة دالة على وجود الله - تعالى - ووحدانيته، وتحمل في ضمنها الامتنان على عباده بنعمه الجليلة، فمن ذلك إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وإحياء الأرض بعد موتها، استدلالاً بقدرته على هذه بقدرته على البعث والجزاء، إذ قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ

(1) آية 73.

(2) آية 78.

(3) النحل 79.

(4) نفسها 80، 81.

ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(1).

ومنها: خلق الإنسان من تراب، تذكيراً بأصل الخلق، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(2). ومنها خلق الأزواج من أنفس أزواجهنّ، مقرونة ببيان العلّة، وذلك ليسكنوا إليهن، وجعل بينهم مودّة ورحمة، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(3).

ومنها خلق السموات والأرض وإبداعهما على غير مثال سبقه، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(4).

ومنها اختلاف ألسنة الناس وألوانهم إذ قال تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾(5).

ومنها جعل الليل للنوم والنهار لابتغاء الرزق من فضل الله ـ تعالى ـ إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾(6).

ومنها البرق الذي يثير في نفوس الناس الخوف والطمع، وإنزال الماء من السماء الذي يحيي به الأرض بعد موتها، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(7).

---

(1) الروم 19.
(2) نفسها 19.
(3) نفسها 21.
(4) نفسها 21.
(5) نفسها.
(6) الروم 22.
(7) نفسها 23.

ونجد في هذه السُّورة أيضاً أدلة أخرى دالة على وجود الخالق العظيم، وقد جاءت هذه الأدلة تعجيزاً وتبكيتاً للمشركين لعبادتهم غير الله - تعالى - مُذكِّرةً إيّاهم بنعمة الخلق والرزق، مذكّرةً بالبعث والجزاء، منزّهة نفسه عن الشرك، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

ثم ينقلنا البيان القرآني إلى أدلة من نوع آخر فيها تمنن على عباده بنعمه الجلية، فمن ذلك إرسال الرياح المبشرة بالغيث والرحمة؛ لحكمة بالغة، وهي إحياء الناس وتحقيق مصالحهم، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾[2]. ومنها تسيير الفلك في البحر بأمره - تعالى - إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[3].

إن في هذا وذاك حكمةً عظيمةً، وهو ابتغاء الرزق من فضله - تعالى -: مصداق قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[4]. وذلك ليشكروا الله - سبحانه وتعالى - على إنعامه وإحسانه بأن يخلصوا له العبادة وحده، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[5].

ونجد البيان القرآني في سورة البقرة، يذكّر العباد بأن الله هو الذي خلق لهم جميع ما في الأرض وسخّره لهم فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[6].

---

(1) الروم 40.
(2) نفسها 46.
(3) نفسها.
(4) نفسها.
(5) نفسها.
(6) البقرة 29.

يتبين لنا من العرض السابق أن القرآن الكريم صرّف الأدلة الدالة على وجوده ـ تعالى ـ وبديع صنعه، وجليل إنعامه وفضله، في مواضع مختلفة من القرآن الكريم يصعب استقصاؤها. وقد نوّعها تنويعاً بديعاً يختلف في كل مرة عما في غيره، لا تكرار فيها، مذكّراً عباده بتلك النعم الجليلة، وتسخيرها لمنافعهم.

إن هذا التنويع يكشف عن عظمة الخالق وبديع صنعه وعلمه وحكمته، واستحقاقه للعبادة وحده. ويكشف أيضاً عن إعجاز القرآن الكريم، وسره البياني.

3.الحث على التأمل والنظر في ملكوت الله:

أمر المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بالنظر في السموات والأرض وفي الأنفس، والتأمل فيها، دعوةً إلى التوحيد؛ لأن من خلال ما ذكره الله ـ تعالى ـ في هذه الآيات من مخلوقات عجيبة، يسلّم الإنسان بأن لهذا الكون إلهاً واحداً، أتقن صنعه، وبيده مقاليده، كما أنه في تصريف هذه الآيات يخبرنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بأن الحجج والدلائل على هذه الأرض وما أتقنه من صنع في السماء وفي سائر المخلوقات لخير دليل لمن آمن وتدبر في هذه المخلوقات، وأن في ذلك لأعظم حجة على قوة الخالق العظيم وقدرته.

«لقد بث الخالق دلائل وجوده في كل شيء من الكون، فكما تأمل العقلاء في هذا الكون الكبير، المتدفق حكمة وإبداعاً، تجدد لهم في كل تأمل جديد، برهان جديد، يشير إلى الخالق العظيم»[1].

«إن القرآن الكريم لم يذكر هذه الظواهر الكونية على أنها مقصودة لذاتها، ولكن على أنها مرتبطة بقدرة مدبرة، وقوة مُسَيِّرة لهذا الكون، فهي دعوة عملية للإيمان بالله من منطلق أن كل ما نشاهده في هذا الكون خاضع للنظام الدقيق، وللعناية الفائقة، ولرحمة الرحمن بعباده.

---

(1) العقيدة الإسلامية وأسسها ص 104.

وإذا انتقل الإنسان بحسه من الكون إلى المخلوقات الأخرى وإلى الإنسان نفسه فسيدرك أن هذه العناية الإلهية تلحظ الإنسان في كل وقت وآن»[1].

وقد اقتضت حكمة تصحيح عقيدة المشركين، الرجوع بهم إلى الأدلة التي تثبت وجود الله وتفرده بالربوبيّة؛ لتكون هذه العقيدة الصحيحة هي الأساس لتصحح توحيد الإلهية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ. أي إفراد الله وحده بالعبادة، وإثبات أن أيّة عبادة لغيره، ـ عزَّ وجلَّ ـ شرك به، وكفر بحقّ إفراده بالعبادة، الذي يستلزم التشكّك في تفرُّده بالربوبيّة وخصائصها في الخلق، والرزق، والحياة، والموت، والنفع والضر»[2].

والقرآن الكريم حين يصرف الدلائل الدالة على وجود الخالق وتفرده بالوحدانية، ليدعو الناس جميعاً للإيمان به وحده ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقد أرشد القرآن الكريم عن طريق تصريف الآيات إلى النظر في الكون وما فيه من دلائل واضحة وبراهين ساطعة، دالة على وجود الله وتَفَرُّده بالوحدانية.

وقد قسم هذا النظر إلى نظر عام إلى الكون كله، ثم إلى أجزاء تفصيلية من هذا الكون البديع، وبخاصة توجيه النظر لظاهرة الحياة وما فيها من إبداع وإتقان وخلق عجيب.

ثم توجيه النظر إلى الإنسان وأطوار خلقه، وتوجيه النظر إلى النبات والثمر، وإبداع الصنعة الربّانية في ذلك، وتوجيه النظر للماء والمطر والريح، وإتقان التقدير والضبط.

ثم يلفت النظر وتوجيهه للسير في الأرض بحثاً ودراسةً وتأمّلاً؛ لمعرفة كيف بدأ الله الخلق، وتوجيه النظر للسماء وما فيها من سعة عظيمة، وأجرام كبرى لا حصر لها في علم المخلوقات.

---

(1) تفسير الآيات الكونية ص 55.

(2) براهين وأدلة إيمانية ص 20.

ويبرز من ذلك التركيز على الشمس والقمر والنجوم، لارتباطها بسكّان الأرض، ومصالح الناس فيها.

وهكذا يتّبع القرآن توجيه نظر الناس لكثير من جزئيات هذا الكون؛ ليضع الإنسان أمامها موضع الباحث الدارس المنقّب عن الصفات والخصائص الظاهرة والباطنة التي هي آثار صفات الخالق المتقن المنظم. المدبّر الحكيم - جلّ وعلا - اللطيف الذي ينفذ علمه وقدرته إلى دقائق بواطن الأشياء، فيُتْقنها ويُحْكم نظامها ويرعاها، البديع الذي يخلق خلقه على غير مثال سبق، المهيمن على كل شيء، المدبّر الذي تدبّر الأمر كله بعلمه وحكمته، القدير الذي يفعل ما يشاء[1].

إن المتأمل في آيات القرآن الكونية يلحظ تَنَوُّع أسلوبها، فأحياناً تلفت النظر إلى آثار قدرة الله، وأحياناً تعدد نعم الله على الإنسان في هذا الكون البديع، ومرة أخرى تهدد الجاحد بسلب هذه النعم، وكأن هذه الآيات نداءٌ جهيرٌ للناس أن افتحوا عيونكم، أيقظوا أفئدتكم، وتأملوا في خلق الله لكم، وفي تركيب أجسامكم، فإذا لم تتفكروا فقد عطّلتم مواهبكم وألغيتم عقولكم، ولم تدركوا قيمة هذه النعم، ولذلك تستحقون غضب الله وعقوبته[2].

وقد نوَّع القرآن أدلة إثبات التوحيد، وعرضها بطرائق مختلفة فمن ذلك ما نجده من حَضٍّ على النظر في قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾[3]. ففي هذه الآية الكريمة يلفت القرآن نظر الناس إلى الاعتبار والتدبر في هذه المخلوقات التي أبدع الله صنعها وسخّرها لمنافع خلقه؛ لأنها براهين ساطعة وحجج واضحة على كمال قدرته وتفرده بالوحدانية.

---

(1) براهين وأدلة إيمانية ص 20 - 21.

(2) تفسير الآيات الكونية ص 31.

(3) الأنعام 99.

قرر صاحب «الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم» أن النظر بمعنى التدبر والتأمل والاعتبار أكثر ورود في القرآن.

وبين أن الأمر بالتدبّر والتأمّل قد يكون في آيات الله المبثوثة في الكون من مشاهد الطبيعة، وآيات الخلق والقدرة ما عظم منها وما دقّ إثارة لمعاني الجمال والجلال والانفعال بالآيات في النفس البشرية؛ لأن الله خلق للجمال حاسة وملكة في النفس تنجذب للجميل فطرة، وصمم الحواس على نحو تدرك به مظاهر الحسن وروح الجمال في الجميل.

وقد فرق بين الجمال الذي يراه العقاد في التلاؤم وحسن التنسيق أو حرية الحركة، وبين الجمال الذي له روح تهش إليه النفس، ويميل إليها القلب على نحو ما فصل فلاسفة المسلمين كالغزالي، وكابن الأثير ثم توظيف هذا الانفعال بالجمال والجلال، والإبداع والتلاؤم المعجز مع ترقية الحس والملكات النفسية توصلاً إلى المؤثر المبدع الخالق ذي الجلال والإكرام، وهذا يعد عند كثير من العلماء من دلائل توحيد الله حثاً على تأمّل حكمته وإبداعه في خلقها[1].

وقد تتبع هذا الباحث دلالة النظر في مواضع متعددة في القرآن الكريم، ومع ما نحمده له من تحليل قيم لهذه الدلالة، فإننا نلحظ عليه خلطاً بين وصف هذه الدلالة بالتكرار ونفيه عنها، وذلك في - رأينا - راجع إلى عدم اهتدائه إلى المصطلح الصحيح، إذ نراه يقول في دلالة النظر الواردة في قصة موسى وفرعون: «والآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة المصورة من الأخذ والنبذ في اليمّ دلالة الاقتدار الظاهر ثم هوانهم عليه - تعالى - ثم اللازمة التي تكررت في مقامات متشابهة وكانت بمعنى خاص وعاقبة خاصة وقوم معينين بعيداً عن التكرار، وانظر الفارق في

---

(1) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص 18، 19.

الوصف بين إجرام قوم لوط، وظلم فرعون وطغيانه، تجد الدقة الملائمة لنوع الكفر وأسلوب الجرم»[1].

إن ما يؤخذ عليه هنا هو قوله: بالتكرار، على الرغم ممّا بيّنه من أمور تفترق فيها هذه الآيات، تنفي صفة التكرار عنها، وهو مصيب في بيانها، وبخاصة أن دلالة النظر تعني النظر والتدبر في تصريف الآيات وهو ما أوضحه بقوله: «جاء الخطاب في الفعل: انظر خاص بالنبي - ﷺ - تعجيباً له - عليه السلام - وإثارة لتأمله من أفعال المشركين المريبة، وأقوالهم العجيبة، ثم تعجيب أكبر من إعجاز القرآن وتصريفه البيان الباهر، والآيات المنزلة القاهرة الإعجاز»[2]. وفي قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3]. مبيناً سبب مجيء الفعل نبيِّن بدلاً من نصرّف في هذه الآية، واصفاً الفعل: (انظر) بالتكرار، إذ قال: «إذ هو الملائم لإيضاح الحجة، ولأنها مفخمة ملزمة تأخذ بالخناق والأنفاس أبداً، كرر الفعل: انظر تعجيباً من تبيين الآيات أولاً، ثم تعجيباً من إعراضهم المهزوم مع الاستفهام (أنّى) مبالغة في التعجيب، مع عدم الموانع، والتعجيب الأول من بيان الحجة لا من حال الّذين يدعون الربوبية كما قال أبو السعود، وإن كان الأسلوب يشير إليه، ثم لبيان التفاوت بين الأمرين»[4].

والذي نعجب منه في هذا الصدد هو وصفه الفعل: انظر بالتكرار، وقد استشهد بكلام أبي السعود، الذي مفاده التنويع، وبخاصة أنه يتحدث عن مصطلح التصريف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، غير أنه لم ينتبه إليه ولم يستعمله في موضعه.

(1) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ص 28 - 29.
(2) نفسه، ص 29.
(3) المائدة 75.
(4) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص31

كما أن هناك ما يوضح هذا التصريف أيضاً في كلامه، إذ قال: «والواقع أن فكرة الاعتبار وإثارة التأمل أصلية أساسية في الأسلوب القرآني، أداءً ومنهجاً، ولذا جاءت على مناهج عديدة من القول، وغلبت في مواد قرآنية»[1]. فقوله: «على مناهج عديدة من القول» هو التصريف وليس التكرار.

وقد حضّ القرآن الكريم على النظرة الشاملة إلى الكون كلّه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[2]. ففي هذه الآية الكريمة دعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض والنظر فيما خلق الله في هذا الكون، وإلى كل ما فيه من أجزاء تدلّ على حكمة الصانع وعلمه، وهيمنته وتدبيره، وعنايته ورحمته[3].

ويأمر رسوله - ﷺ - ليلفت نظر المكذبين الكافرين، في هذا الكون العجيب، للتعرف على ما فيه من أدلة واضحة تدل على خالقه، وذلك لتوحيده وعبادته وحده فقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

ونجد البيان القرآني يعرض أدلة أكثر تفصيلاً حاضّاً على النظر فيها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]. ففي هاتين الآيتين أمر بالنظر المتتبع لمعرفة كيف بدأ

---

(1) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ص 32.

(2) الأعراف 185.

(3) براهين وأدلة إيمانية ص 23.

(4) يونس 101.

(5) العنكبوت 19 ـ 20.

الله خلق الإنسان، حسب مراحله المتنوعة إلى أن صار كهلاً، ثم يعيده بعد فنائه، كما خلقه أول مرة، وهو أمر سهل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ استدلالاً بقدرته على الخلق بقدرته على البعث والجزاء.

إن النظر المطلوب هو نظر اعتبار وتأمّل في قدرة الله ـ تعالى ـ للوصول منها إلى توحيده، وعبادته وحده.

وفي موضع آخر يحضّ على النظر المستمر المتجدد في الأدلة الدالة على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ وبديع صنعه، متمثلة في بناء السماء وتزيينها بالنجوم، وبسط الأرض، وأنّه جعل فيها جبالاً ثوابت، وأنبت في هذه الأرض كل نوع من أنواع النبات، إذ قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[1]. وذلك للاستدلال بها على قدرته العظيمة ووحدانيته؛ لما فيها من التنبيه والتذكير على بديع صنع الله ـ تعالى ـ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[2].

ويبين أن في الأرض أدلة وعبراً وعظات لأهل اليقين، وأن في الإنسان أيضاً خلقاً عجيباً، وأدلة واضحة، تدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ لمن نظر إلى هذه الدلائل بتفكّر، فقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3].

إن الذي يمعن النظر في آيات الأنفس والآفاق التي صرَّف القرآن الكريم بيانها، يتضح له أن كل شيء في هذا الكون قد خُلق بقدر معلوم، ودقة متناهية،

(1) ق 6 ـ 7.
(2) نفسها 8.
(3) الذاريات 20 ـ 21.

وحكمة مدبرة، وذلك ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[2].

وينوع دعوته إلى النظر في أدلة تفصيلية من الآفاق والأنفس فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[3]. ففي هذه الآيات الكريمة دعوة إلى النظر والتأمل في الأدلة التفصيلية المتمثلة في الخلق والإبداع، الدالة على بديع صنع الله ـ تعالى ـ، وبالغ حكمته.

ثم ينقلنا إلى نوع آخر من توجيه النظر والتفكر في ملكوت الله ـ تعالى ـ يتمثّل في مراحل خلق الإنسان وتكوينه، فيقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[6]. ثم تفصيل أكثر فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾[7].

وقد قرر صاحب كتاب «القرآن كائن حيّ» أن النطفة تأتي في أكثر من عشرة مواضع كل مرة تأتي بمشهد تفصيلي مختلف فهي ﴿نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾[8]. أي أخلاط من صفات وخصائص متنوعة وذلك ما يعرف الآن بالجينات الوراثية.

(1) القمر 49.

(2) الملك 3.

(3) الغاشية 17 ـ 20.

(4) النور 45.

(5) فاطر 11.

(6) المؤمنون 12.

(7) القيامة 37.

(8) الإنسان 2.

ثم يأتينا القرآن بتفصيل أكثر بأن النطفة المنوية هي التي تحدد جنس المولود، إذا كان ذكراً أو أنثى، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾[1]. ثم تفصيل ثالث، وهو أن هذه النطفة مقدرة بتركيبها هذا من الخالق وليست شيئاً عشوائياً من تدبير المصادفة فيقول تعالى: ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾[2].

ثم ينقلنا إلى مشهد مكاني فيقول تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾[3]. تلك النطفة مستقرها الرحم.

ثم ينقلنا إلى مشهد زماني، فيضع هذه النطفة في سياقها التاريخي ويربطها ببدئها الأول السحيق من التراب فيقول تعالى: ﴿ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ﴾[4].

ثم يعطينا تفاصيل أكثر فقال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجًا ﴾[5].

ثم يعطينا مشهداً آخر تفصيلياً عن تسلسل النطفة في سياقها في مراحل خلق الجنين فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ ﴾[6].

ثم ينقلنا إلى مشهد غيبي، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٍ ﴾[7].

---

(1) النجم 45 ـ 46.
(2) عبس 19.
(3) المؤمنون 13.
(4) الحج 5.
(5) فاطر 11.
(6) المؤمنون 14.
(7) يس 77.

وهكذا تتكرر كلمة النطفة فلا تتكرر أبداً، وإنما تحمل في كل مرة مشهداً جديداً، بحيث يتكامل معناها في الذهن كما يتكامل كائن حيّ من بذرة تنمو شيئاً فشيئاً إلى نبات كامل[1].

يتبين لنا من العرض السابق أن القرآن الكريم يحض على النظر في الكون والتأمل فيه، وقد يكون النظر عامّاً كُلّيّاً، وقد يكون توجيه النظر إلى أجزاء تفصيلية في هذا الكون العجيب؛ لاكتشاف آيات الله الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه.

ومن ثم الوصول منها إلى توحيده وعبادته وحده، وشكره على نعمه العظيمة التي سخرها لعباده، ومكّنهم من منافعها.

ومن ثم نستطيع القول: إن في هذه الآيات تصريفاً للقول البليغ، والتفنن العجيب، الذي يكشف عن روعة القرآن الكريم وإعجازه.

---

(1) القرآن كائن حيّ ص 6 ـ 9.

المبحث الثاني
تصريف القول في الصفات الإلهية

صرَّف القرآن الكريم الصفات الإلهية تصريفاً عجيباً، ومعنى ذلك أنها تنوَّعت تنوُّعاً كثيراً، إذ وردت بطرائق شتَّى، وفواصل مختلفة كلها في أعلى درجات البلاغة والفصاحة.

وقد تبيَّن لنا بعد الاستقراء الكامل للصفات الإلهية الواردة في الكتاب العزيز أنها كثيرة، ولا يسع المجال لدراستها كاملة، لذا ارتأينا أن نقتصر على بعض الصفات كأمثلة لنتبيَّن منها تصريف القرآن الكريم للصفات الإلهية، وفيما يلي بعض الأمثلة:

أولاً: صفة ربّ العالمين:

بلغ ذكر هذه الصفة في القرآن الكريم ثمانياً وثلاثين مرة، موزعة على سُوَره وآياته، وقد جاءت في كل مرة تابعةً لسياقها، ومحققةً لمقاصدها بدءاً بسورة الفاتحة، وختاماً بسورة المطففين.

وقد أفتتح بها الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وتعقيب جملة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ في سورة الفاتحة بالوصف برب العالمين هو في غاية الحسن والإعجاز[1].

وقد بيّن ابن الزبير سرّ تقدُّمها، فقال: «أما أمُّ القرآن فمن أول السُّوَر، ومطلع القرآن العظيم، وبالترتيب الثابت بافتتاحها بحمده - تعالى - بيّنٌ»[2].

«وأما قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو يدل على أن ذلك الإله واحد، وأن كل العالمين ملكه، وليس في العالم إله سواه، ولا معبود غيره»[3].

---

(1) شرح الصغرى، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 603 د ص 3.

(2) ملاك التأويل 1/ 13.

(3) التفسير الكبير 1/ 272.

«والربّ هو السيد، والمالك، والمنعم، والمربّي، والمصلح والله - تعالى - هو الربّ بهذه الاعتبارات كلها»[1].

وقال الإمام الغزالي: «إشارة إلى الأفعال كلّها وإضافتها إليه أوجزُ لفظ وأتمُّهُ إحاطة بأصناف الأفعال لفظُ ربّ العالمين.

وأفضلُ النِّسْبةِ من الفعل إليه نسبة الرُّبوبية، فإن ذلك أتم وأكمل في التعظيم من قولك أعْلَى العالمين وخالق العالمين»[2].

وأما الآية الثانية فحكت عن إبراهيم، عليه السلام قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وأما الآية الثالثة فقد جاءت حكاية عن هابيل أحد ابني آدم - عليه السلام - وهو قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

وأما الآية الرابعة فجاء تصريفها حمداً لله على نصر الرسل وإهلاك الكافرين، إذ قال تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

«والمراد بالّذين ظلموا المشركون، فإنّ الشرك أعظم الظلم؛ لأنه اعتداء على حقّ الله - تعالى - على عباده في أن يعترفوا له بالربّوبية وحده، وأن الشرك يستتبع مظالم عدّة»[6].

وأما الآية الخامسة فأمر النبي - ﷺ - أن يقول ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[7].

---

(1) بدائع الفوائد 4/ 113.
(2) جواهر القرآن ص 40.
(3) البقرة 131.
(4) المائدة 28.
(5) الأنعام 45.
(6) التحرير والتنوير 7/ 231.
(7) الأنعام 162.

وأما الآية السادسة، فتنوَّع القول فيها بذكر دلائل من الآفاق دالة على وحدانية الله ـ سبحانه وتعالى ـ تلك هي دلائل القدرة المتعلقة بانفراده بإيجاد السموات والأرض، وبين أن له التصرف التام في الكائنات، ثم ختم الآية بتعظيم وتمجيد الخالق المبدع ربّ العالمين جميعاً فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

وأما الآية السابقة فَتَصرَّف القول فيها بذكر ردِّ نوح ـ عليه السلام ـ على قومه، فقال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2].

حين قال لهم أنا لست كما تدَّعون، وإنما أنا رسول مرسل من ربّ العالمين، فذلك سبب تصريف هذه الصفة وذكرها في هذا المقام، إذ جاءت مناسبة لموقعها، مبينة وموضحة لقدرة الله، وكمال وحدانيته.

وأما الآية الثامنة فجاءت على لسان هود ـ عليه السلام ـ فقد كذبه قومه مثل قوم نوح ـ عليه السلام ـ فجاء الرد مناسباً للمقام، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3].

وأما الآية التاسعة فجاءت على لسان موسى ـ عليه السلام ـ حين قال لفرعون: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4].

وأما الآية العاشرة، فتصرَّف القول فيها على لسان السحرة، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[5].

---

(1) الأعراف 54.

(2) نفسها 61.

(3) نفسها 67.

(4) نفسها 104.

(5) نفسها 120 ـ 121.

وأما الآية الحادية عشرة، فتصرَّف القول فيها ختاماً لأعمال الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

«وإنما وقع الختم على هذا الكلام؛ لأن اشتغالهم بتسبيح الله ـ تعالى ـ وتمجيده من أعظم نعم الله ـ تعالى ـ عليهم، والاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة فلهذا السبب وقع الختم على هذه الكلمة»[2].

وقد تساءل ابن الزبير بقوله: «ما وجه كون الوارد من حمده في الخواتم والانتهاءات لم يطّرد فيه ما اطّرد في افتتاح هذه السُّوَر من اختلاف التوابع. بل جرى على أسلوب واحد؟»[3].

ثم أجاب عن ذلك بقوله: «إن الخواتم والانتهاءات في السُّوَر والآيات لما كانت غير مقصود بها ما قُصد في المواضع المتقدمة، وإنما هي مشروعة للمؤمنين عند خواتم أعمالهم، وانقضاء أمورهم، وقع الاكتفاء فيها بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إذ في طيّ ذلك اعتراف المؤمن، وعِلْمُهُ بانفراد مُوجده ـ جلّ جلاله ـ بالخلق والأمر، ومِلْك الدّاريْن، وأهليّته ـ سبحانه ـ لكل ما تضمنت الأوصاف كلها في السُّوَر المذكورة، وليس موضع توبيخ ولا تقريع، فناسب الاكتفاء بما ذُكر ـ والله أعلم ـ»[4].

وأما الآية الثانية عشرة فتصرَّف القول فيها ببيان أن القرآن غير مفترىً وأنه من عند الله، وقد جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا

(1) يونس 10.
(2) تفسير الرازي 17/ 49.
(3) ملاك التأويل 1/ 9.
(4) نفسه ص 18.

ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

فذُكرت صفة ربّ العالمين مناسبة للمقام؛ لأن ربّ العالمين هو منزل الكتاب على رسوله محمد - ﷺ - فذلك من التصريف البديع والحكمة البليغة، ونكتفي بهذا القدر من بيان هذه الصفة؛ لأن ما أوردته من أمثلة كافٍ لبيان تنوُّع هذه الصفة وليس فيها تكرار، ومنها نستنتج ما يلي:

1 - أن صفة ربّ العالمين وردت في سُوَر وآيات كثيرة، فجاءت مُوَزَّعة على كتاب الله - تعالى - مناسبة لمقام ورودها، وقد تنوَّع الاستدلال بها، وذلك في أعلى درجات البلاغة.

2 - أن هذه الصفة جاءت ختاماً لتلك الآيات التي وردت فيها.

3 - أن هذه الصفة جاءت مبينة للقدرة الإلهية وكمال الربوبية.

4 - أن ذلك هو التنويع، وليس فيها تكرار لا مع نفسها ولا مع نظائرها، حيث ورد كلٌّ منها مناسباً لموقعه ومناسبته، وللاستدلال على ذلك نقول: إن هذه الآيات افتتح بها الكتاب العزيز، وجاءت في معرض إظهار الربّوبية، وفي معرض الخوف من الله، وذلك يعني التوحيد والإيمان المطلق لله ربّ العالمين، كما في قصة قابيل وهابيل ابني آدم - عليه السلام - وقد جاءت ختاماً على نصر الله الرسل وإهلاك الكافرين، وقد يكون المراد بذلك أمر الرسول - ﷺ - أن يعلن إخلاص التوحيد والعبادة لله ربّ العالمين، وفي ذلك ما يلزم المؤمنين التأسّي به، وقد جاءت مقرونة بذكر دلائل الوحدانية والقدرة الإلهية، وتعظيم الخالق المبدع وتمجيده، فذلك من تَفَنُّن القرآن وحكمة تصريفه.

---

(1) يونس 37.

ثانياً: صفة الرحمن:

تبين لنا من الاستقراء الكامل لهذه الصفة الجليلة أنها وردت في القرآن الكريم تسع مرات، ووزنها الصرفي: فعلان.

قال الزمخشري: الرحمن فعلان من رحم، كغضبان وسكران، من غضب وسكر، وكذلك الرحيم، فعيل منه كمريض وسقيم من مرض وسقم، وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا[1].

وقال الراغب: «والرحمن والرحيم نحو ندْمان ونديم، ولا يطلق الرحمن إلاّ على الله - تعالى - من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلاّ له، إذ هو الذي وَسِعَ كلّ شيء رحمة، والرحيم يُستعْمَلُ في غيره، وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقال في صفة النبي - ﷺ - ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

وقيل: إن الله - تعالى - هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعُمُّ المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختصّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4]. تنبيهاً على أنها في الدنيا عامّة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين[5].

---

(1) الكشاف 1/ 14. وانظر تقييد على سورة الفاتحة، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي تحت رقم ع 194 ص 36.

(2) هذه الآية جاءت خاتمة لآيات كثيرة.

(3) التوبة 128.

(4) الأعراف 156.

(5) المفردات في غريب القرآن ص 191 - 192 رحم.

وقال ابن عطية: «والرحمن صفة مبالغة من الرحمة، ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان، وهي صفة تختص بالله ولا تطلق على البشر، وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل؛ لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيماً يقال لمن كثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة»[1].

والرحمن المنعم بجلائل النعم، والرحيم: المنعم بدقائقها كذلك، وقدم الأول لدلالته على الذات، ثم الثاني لاختصاصه به[2].

وقد جاءت هذه الصفة مقترنة بصفة الرحيم في أربّع آيات، هي على التوالي، الفاتحة، والبقرة، وفصلت، والحشر، فالآية الأولى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3].

وقد جاءت في معرض ذكر الصفات الإلهية الجليلة للدلالة على القدرة الإلهية وكمال الربّوبية.

«فيدل على أنه الإله الواحد، الذي لا إله سواه، موصوف بكمال الرحمة والكرم والفضل والإحسان»[4].

وأما الآية الثانية فقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5]. إذ تصرَّف القول فيها بذكر صفة الرحمن مقرونة بصفة الرحيم.

قال الأستاذ أبو زيد: «ذكر هاتين الصفتين في ختام هذه الآية التي تضمنت تقرير قاعدة التوحيد، تنبيهاً على استحقاق العبادة له ـ سبحانه ـ وإطماعاً بها في سعة

---

(1) المحرر الوجيز 1/ 63.

(2) كتاب هدية المريد بجوهرة التوحيد مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 601 د ص 3 وفتح المجيد بكفاية المريد، مخطوط بنفس الخزانة تحت رقم 1817 د ص 2.

(3) الفاتحة 3.

(4) تفسير الرازي 1/ 272.

(5) البقرة 163.

رحمته، ومن التناسب في هذا التعقيب أن هذه الآية جاءت عقب آية مختومة باللعنة والعذاب لمن مات غيرَ موحِّد له ـ تعالى ـ فختمت هذه بالرحمة على التقابل، وغالب القرآن أنه إذا ذكرت آية عذاب ذكرت آية رحمة، وإذا ذكرت آية رحمة ذكرت آية عذاب»[1].

وذكر الرازي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما خص هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين؛ لأن ذكر الإلهية الفردانية يفيد القهر والعُلُوّ، فعقبها بذكر هذه المبالغة في الرحمة ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلهية وعزة الفردانية، وإشعاراً بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلاّ للرحمة والإحسان[2].

وأما الآية الثالثة فقوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3].

فتصرَّف القول في هذه الآية ببيان أن القرآن الكريم هو تنزيل من صاحب الصفات العظيمة﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

«وإنما خصّ هذين الاسمين: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم، ولا شك أن القرآن نعمة باقية إلى يوم القيامة»[4].

وأما الآية الرابعة فقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[5].

أخبرت الآية الكريمة بانفراد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالألوهية، واتصافه بصفات العظمة والكمال؛ لأجل إقامة التوحيد الخالص، إذ ذكّرت بصفات العظمة والجلال، والقدرة والكمال، وبيّنت عظمة الإله المعبود بحق، وقد ختم هذه الآية بصفة

---

(1) التناسب البياني في القرآن ص 118.
(2) تفسير الرازي 4/ 196.
(3) فصلت 1 ـ 2.
(4) صفوة التفاسير 3/ 115.
(5) الحشر 22.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تنويعاً للبيان القرآني البديع، وهو بخلاف ما رآه الألوسي من أن الصفة كررت لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد[1].

وأما الآية الخامسة، فهو قوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[2]. وردت صفة الرحمن في هذه الآية مقرونة بصفة الربوبية، تنويعاً للبيان، وإقامة للحجة والبرهان.

وقد وردت هذه الصفة مقرونة بذكر دلائل من الآفاق دالة على كمال القدرة الإلهية، فجاءت مناسبة لمقامها تأكيداً وبياناً لعظمة الخالق المبدع. الذي بيده مقاليد الأمور كلها، في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾[3].

وقد وردت هذه الصفة تمنناً على عباده بنعمه الكثيرة الظاهرة التي لا تحصى ولا تعد، وفي مقدمتها نعمة تعليم القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾[4].

وقد وردت هذه الصفة مبينة للعظمة والقدرة الإلهية فالأمر كله بيد الله، فذلك من بديع صنعه، وبالغ حكمته، فقال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ۝٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾[5].

يتبين لنا من العرض السابق لصفة الرّحمن، أن هذه الصفة الجليلة، جاءت مقرونة بصفة الرحيم في أربّع آيات ملتزمةً ترتيباً واحداً، وذلك في مقام ذكر صفات الألوهية، وكمال الربّوبية، وفي ذكر قاعدة التوحيد، تنبيهاً على استحقاق المولى

(1) روح المعاني 28/ 62.
(2) الأنبياء 112.
(3) الفرقان 59.
(4) الرّحمن 1 ـ 2.
(5) النبأ 37 ـ 38.

ـ سبحانه وتعالى ـ للعبادة، وفي ذكر الكتاب العزيز، الذي هو ركن من أركان العقيدة الإسلامية، ذلك أن صفة الرّحمن تسبق صفة الرحيم في كل مرّة، وهو من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

وقد جاءت هاتان الصفتان ختاماً للآيات التي وردتا فيها، إن هذه الصفة تنوَّعت للدلالة على القدرة الإلهية وكمال الربّوبية، فكلها جاءت بعد تقرير التوحيد، وبيان أصول العقيدة بفروعها المختلفة من إيمان بالله إلى إيمان بالقرآن الكريم الذي هو أصل من أصول العقيدة.

وقد وردت في كل مرة مناسبةً لموقعها، ولم يكن فيها تكرار، مقرونةً في بعض المواضع بذكر دلائل من الآفاق، بياناً لكمال القدرة الإلهية وتأكيداً لعظمة الخالق المبدع، الذي بيده مقاليد أمور عباده. فذلك من باب التنويع العجيب والحكمة البالغة، والتفنُّن الدقيق.

ثالثاً: صفة الرّحيم:

رأينا ـ فيما سبق ـ أن صفة الرّحيم جاءت مقترنةً مع صفة الرّحمن في أربع آيات، في كل من سورة الفاتحة، والبقرة، وفُصِّلت، والحشر، لذا نرى أنه لا داعي لعرض هذه الآيات؛ لأن في عرضها مرة أخرى تكراراً، لا فائدة منه، ونظراً لأن تصريف هذه الصفة في سور القرآن وآياته كثير، فإنه يصعب استقصاؤها؛ لذا أقتصرُ على سورة البقرة فهي كافية لنتبين منها تصريف هذه الصفة، ومقاصد القرآن من تصريفها، وإيرادها بطرائق كثيرة، وصور شتى. ويمكن أن نصنف الآيات التي تنوَّعت فيها هذه الصفة الجليلة حسب صيغة التعبير المقترنة معها، وهنا يلاحظ أنها جاءت مقترنة مع صفة التواب في أربع آيات، ومع صفة الرؤوف في آية واحدة، وفي صفة الغفور في ست آيات فذلك مجموع تصريفها في سورة البقرة، وفيما يلي تفصيل القول في تلك الآيات:

أ ـ اقتران صفة الرّحيم بصفة التوّاب:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

4 ـ وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4].

تناول الأستاذ أبو زيد في كتابه «التناسب البياني في القرآن» التعقيبات بصفات الله ـ تعالى ـ في سورة البقرة، وتناول من بينها التعقيب بصفتي (التواب الرّحيم) فقال: «والتواب من أسمائه ـ تعالى ـ وهو الكثير القبول لتوبة العبد أو الكثير الإعانة عليها، ووجه التناسب في التعقيب بهذين الوصفين على الآيات عموماً، أن لفظ التوبة سبق وروده في صدرها، فذكر صفة «التواب» في التعقيب من باب رد العجز على الصدر، وفي ذلك تناسب لفظي ومعنوي.

وتأخرت الرحمة في ذلك كله لعمومها؛ لأن من الرحمة التوبة، ولكونها فاصلة، و«التواب» لا يناسب أن يكون فاصلة هنا، اعتباراً لما تقدم الآيات وما جاء بعدها، وفي التعقيب بهاتين الصفتين عموماً ترغيب في التوبة ـ وجاء «التواب» على

(1) البقرة 37.

(2) نفسها 54.

(3) نفسها 128.

(4) نفسها 160.

وزن فعّال و«الرّحيـم» على وزن فعيـل، وهمـا من أمثلـة المبالغـة، وفـي ذلـك تقويـة للتوكيد وإطماع للعبد في الرجوع إلى الله، وترغيب في عفوه وإحسانه»[1].

ومـن ثـم نستطيع القـول: إن هـاتين الصفتين اقترنتـا معـاً للتناسـب المعنـوي واللفظي، وكُلاً منهما جاءت في محلّها ومناسبةً لموقعها.

ب. اقتران صفة الرحيم بصفة الرؤوف:

وقد اقترنت صفتي الرؤوف والرّحيـم، فـي قولـه تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ إلـى قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

ج. اقتران صفة الرّحيم بصفة الغفور:

1. قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].
2. وقـال تعـالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].
3. وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].
4. وقـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6].

---

(1) التناسب البياني في القرآن ص 117.
(2) البقرة 143.
(3) نفسها 173.
(4) نفسها 182.
(5) نفسها 192.
(6) نفسها 199.

5 ـ وقــال تعــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1].

6 ـ وقــال تعــالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2].

وردت آيات هذه المجموعة، مقترنةً فيها صفة الرّحيم بصفة الغفور، وخُتمت بهما الآيات التي وردت فيها وذلك لما بينها من التناسب.

«ووجه التناسب في تعقيب الآية الأولى بهذين الوصفين أنه ـ تعالى ـ لما ذكر أشياء محرمة، اقتضى المنع منها، ثم ذكر إباحتها للمضطر، في تلك الحال المقيدة له، أتبع ذلك الإخبار عن نفسه ـ تعالى ـ بأنه (غفور رحيم) للعصاة إذا تابوا، رحيم بهم، أو لأن المخاطب إذا اضطر فأكل ما يزيد على قدر الحاجة فهو ـ تعالى ـ: غفور له ذلك، رحيم بأن أباح له قدر الحاجة»[3].

أما الآية الثانية فختمت بالوصفين الجليلين ﴿ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ وهو كما قال أبو حيان: «غفور» لما كان من الخائف، وقيل للمصلح، رحيم حيث رخص، وقيل: غفور للموصي فيما حدث به نفسه من الجنف والخطأ والإثم إذا رجع إلى الحق، رحيم للمصلح»[4].

و«أما الآية الثالثة فإن سياق الكلام اقتضى التعقيب بالوصفين الجليلين، وقد وردا معلقين بالانتهاء عن الكفر أو مقاتلة المؤمنين، فعلى الأولى يكون المراد: إن انتهوا عن الكفر ودخلوا في الإسلام. فإن الله يغفر لهم ما قد سلف، وعلى الثاني

---

(1) البقرة 218.

(2) نفسها 226.

(3) البحر المحيط 1/ 665. والتناسب البياني في القرآن ص 111 ـ 112.

(4) البحر المحيط 2/ 28.

يكون المراد إن انتهوا عن مقاتلكم فإن الله غفور رحيم بكم، حيث أسقط عنكم تكليف قتالهم»[1].

وأما الآية الرابعة فإن التعقيب فيها بالوصفين الجليلين «وقع موقع التعليل الوارد في صدرها، وهاتان الصفتان للمبالغة، والتناسب في هذا التعقيب تناسب لفظي ومعنوي، لتقدم لفظ الاستغفار في صدر الآية، وهذا اللون من التناسب هو المصطلح على تسميته عند علماء البديع «برد العجز على الصدر، أو بالتصدير»[2].

وأما الآية الخامسة فإنها ختمت بهذين الوصفين «لأنه ـ تعالى ـ لما ذكر أنهم طامعون في رحمته أخبر أنه ـ سبحانه ـ مُتَّصف بالرحمة، وزاد وصفاً آخر، وهو أنه ـ تعالى ـ مُتَّصف بالغفران، فكأنه قيل: الله ـ تعالى ـ عندما ظنوا وطمعوا فيه من ثوابه، فالرحمة متحققة؛ لأنها من صفاته ـ تعالى ـ والله غفور لما وقع منهم قبل الإيمان، وما قد يقع منهم بعده من المخالفة، وهو ـ سبحانه ـ رحيم، كفيل بأن يحقق لهم ما يرجون»[3].

وأما الآية السادسة فختمت بهذين الوصفين «إشعاراً بإسقاط الإثم بعد الكفارة وهو قول علي وابن عباس وابن المسيب، وعلى القول الآخر يكون بإسقاط الكفارة»[4].

وقد استنتج الأستاذ أبو زيد: أن التعقيب بالوصفين الجليلين: «الغفور الرّحيم» يَطَّرِد وروده في مقام العفو والتخفيف وتقوية الرجاء في رحمة الله[5].

نستنتج من العرض السابق للصفة الجليلة: «الرّحيم» ما يلي:

---

(1) التناسب البياني في القرآن ص 112.

(2) نفسه.

(3) البحر المحيط 2/ 161، والتناسب البياني ص 112.

(4) البحر المحيط 2/ 194.

(5) التناسب البياني ص 112.

1 ـ أن هذه الصفة تنوَّعت مع عدّة صفات جليلة، فمرة مع الرّحمن، إذ تصرفت لبيان العظمة والقدرة الإلهية، وكمال الربّوبية، فجاءت بعد تقرير التوحيد وبيان أصول العقيدة، وذلك ـ كما بينا ـ في صفة الرّحمن.

واقترنت بالصفة الجليلة (التوّاب) للتناسب المعنوي واللفظي، وهي واردة في مقام التوبة والرجوع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ واقترنت كذلك بالصفة الجليلة الرؤوف لتقاربهما في المعنى، وتقدمت عليها للمبالغة في الرحمة.

واقترنت أيضاً مع صفة «الغفور» وهي أكثر وروداً في القرآن واقتراناً بها، وذلك للتناسب المعنوي واللفظيّ، ولاطِّراد ورودهما في مقام العفو والتخفيف وتقوية الرجاء في رحمة الله، وتأتي غالباً بعد أحكام شرعية.

2 ـ أن هذه الصفة جاءت خاتمة لآيات كثيرة لمناسبة الفواصل وتأكيداً للبيان.

3 ـ أن هذه الصفة وردت في كل مرّة مناسبة لمقامها، فتفننت تفنناً بديعاً، فلا تكرار بينها.

رابعاً: صفة الحيّ:

تبين لنا من الاستقراء الكامل لصفة الحيّ أنها وردت في خمس سُوَر من كتاب الله ـ تعالى ـ فاقترنت مع صفة القَيُّوم في ثلاث سُوَر وافترقت في سورتين، فاختصت بها صفة الحيّ دون القيوم، وفيما يلي هذه الآيات مرتبة حسب ترتيبها في المصحف الشريف.

1 ـ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(1).

2 ـ وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(2).

---

(1) البقرة 255.

(2) آل عمران 1 ـ 2.

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[1].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[2].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وردت هاتان الصفتان في الآيات الثلاث الأُوَل فجاءت منسقةً بدون أدوات عطف، ومنظومةً على سبيل التقابل، فقابل بين الحيّ، القيوم في كل منها، وليس فيها تكرار، وإنما هو تصريف للبيان، حيث جاء كلٌّ منها في موضعه وحسب مناسبته، فالآية الأولى ختمت بهذين الوصفين بعد تقرير التوحيد الخالص لله ربّ العالمين وهما صفتان خاصتان بالمولى ـ سبحانه وتعالى ـ قال الرازي في «تفسيره» بعد أن أورد هذه الآيات: «فإن قيل: الحي معناه الدرّاك الفعَّال، أو الذي لا يمتنع أن يعلم ويقدر، وهذا القدر ليس فيه مدح عظيم فما السبب في أن ذكره الله ـ تعالى ـ في معرض المدح العظيم؟ فالجواب أن التمدح لم يحصل لمجرد كونه حَيّاً، بل بمجموع كونه حَيّاً قَيُّوماً، وذلك لأن القيوم هو القائم بإصلاح حال كل ما سواه، وذلك لا يتم إلاّ بالعلم التام، والقدرة التامة، والحي هو الدرَّاك الفعَّال، فقوله: ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ يعني كونه دَرّاكاً فعّالاً، وقوله: ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ يعني كونه درّاكاً لجميع الممكنات، فعالاً لجميع المحدثات والممكنات، فحصل المدح من هذا الوجه»[4].

ومما يؤيد اختيارنا بأنه تصريف وليس تكراراً ـ كما قلنا ـ أكثر من مرة لاختلاف الأسباب، ما ذكره ابن عطية عند تفسيره لآية آل عمران: «والآية هنالك إخبار لجميع

---

(1) طه 111.
(2) الفرقان 58.
(3) غافر 65.
(4) تفسيره 1/ 140 ـ 141.

الناس، وكررت هنا إخباراً لحجج هؤلاء النصارى، وللرد عليهم، أن هذه الصفات لا يمكنهم ادعاؤها لعيسى ـ عليه السلام ـ لأنهم يقولون إنه صُلِب، ذلك موت في معتقدهم لا محالة، إذ من البين أنه ليس بقيُّوم»[1].

وأما الآية الثانية فالمعنى على ما ذكر الرازي: أنه سبحانه لما بين أن الكفار متظاهرون على إيذائه، فأمره بأن لا يطلب منهم أجراً، أعلم أنه ـ سبحانه ـ لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه، وصف نفسه بأمور أولها: بأنه حيّ لا يموت، وثانيها: أنه عالم بجميع المعلومات، وثالثها: أنه قادر على كل الممكنات[2].

وأما الآية الرابعة فتصرَّف القول فيها بذكر صفة الحيّ دون القيُّوم؛ لأن المقام يكفي فيه هذه الصفة؛ لأنه ليس مقام مدح عظيم، وإنما هو أمر للنبي ـ ﷺ ـ بالتوكل عليه، لتبليغ رسالته، وكذلك للتناسب الذي بين الحياة والموت، لذلك ناسب ذكر هذه الصفة دون صفة القيوم.

وأما الآية الخامسة فتصرَّف القول فيها كذلك بذكر صفة الحيّ دون الصفة الجليلة الأخرى وذلك: «لما سددت الآيات صفات الله ـ تعالى ـ التي تُبيِّن فساد حال الأصنام، كان من أبينها أن الأصنام موات جماد، وأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ الحي القيوم، وصدور الأمور من لدنه وإيجاد الأشياء وتدبير الأمر دليل قاطع على أنه حي لا إله إلاّ هو»[3] فهو الحي: «المنفرد بالحياة الحقيقية، إذ لا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله ـ عزَّ وجلَّ ـ»[4].

وهذا يفيد الحصر، وأن لا حيّ إلاّ هو، فوجب، أن يحمل ذلك على الحي الذي يمتنع أن يموت امتناعاً ذاتياً وحينئذ لا حي إلاّ هو، فكأنه أجرى الشيء الذي يجوز زواله مجرى المعدوم...

---

(1) المحرر الوجيز 1/ 396.
(2) تفسيره 24/ 103.
(3) المحرر الوجيز 4/ 567.
(4) روح المعاني 24/ 83.

ولـمّـا نبّه على هاتين الصفتين من صفات الجـلال نبّـه علـى الصفـة الثالثـة وهـي الوحدانية بقوله : ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1] .

نستخلص من العرض السابق ما يلي :

1 ـ أن صفة الحيّ اقترنت مع صفة القيوم فـي ثـلاث سـور فـانتظمت معـها علـى سبيل التقابل ، وذلك من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه .

2 ـ أن اجتماعهما معاً ، جاء على سبيل المدح العظيم للمولى ـ سبحانه وتعالى ـ .

3 ـ أن هذه الصفة الجليلة والصفة التي اقترنت معـها حيثمـا وردتـا ، فـهما دالتـان علـى التوحيـد ، وتقريـر أصـول الإيمـان ، مـن تـأكيد التوحيـد وتقريـر النبـي ـ ﷺ ـ علــى رسالته وأمره بالتوكُّل عليه .

4 ـ أن هذه الصفة حيثما وردت فهي في محلها ومناسبة لموقعها ، وليس فيـها ولا بينـها تكرار ، وذلك من تفنن الاستدلال وبيان الحجج .

خامساً: صفة العليّ:

تبين لنا من الاستقراء الكامل لـهذه الصفـة الجليلـة أنـها وردت فـي ثمـاني سُـوَر موزَّعة في كتاب الله ـ تعالى ـ بدايـةً بسـورة البقـرة ، ونهايـةً بسـورة الشـورى ، ويمكـن تصنيفها حسب اقترانها بصفات جليلة أخرى ، وهي على التوالي ، مع العظيـم وذلـك في سـورتين ، البقـرة ، والشـورى ، ومـع الكبير في خمـس سـور ، النسـاء ، والحـج ، ولقمان ، وسبأ ، وغافر ، ومع الحكيم فـي سـورة واحـدة وهـي الشـورى ، وفيمـا يلـي مناقشة هذه الصفة حسب التصنيف الذي أشرنا إليه .

أ ـ صفتا العليّ العظيم :

1 ـ قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إلى قوله تعــــالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2] .

---

(1) تفسير الرازي 27/ 85.
(2) البقرة 255 .

2 ـ وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

تنوعت هاتان الصفتان فبينتا القدرة والعظمة الإلهية؛ لأجل تقرير قاعدة التوحيد بأسلوب بديع وحكمة بالغة، وحجة واضحة، وبراهين ساطعة، على طريقة القرآن في تصريف بيانه بذكر الدلائل الدالة على عظيم القدرة الإلهية، وكمال الوحدانية، فكلاهما سُبقتا، بذكر دلائل من الآفاق، إذ بينت أن كل ما في السموات والأرض ملكه وعبيده، وبيده مقاليد أمورهم، ذلك هو صاحب الصفات الجليلة، المستحق للتوحيد والعبادة الخالصة.

ب ـ صفتا العليّ الكبير:

1 ـ قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[2].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[3].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[4].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[5].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[6].

---

(1) الشورى 4.
(2) النساء 34.
(3) الحج 62.
(4) لقمان 30.
(5) سبأ 23.
(6) غافر 12.

وردت صفة العلي في هذه الآيات مقترنة بالصفة الجليلة الكبير، ففي الآية الأولى جاءتا خاتمةً لكيفية تأديب النساء العاصيات لأزواجهن.

قال ابن عطية: «وهذا نهيٌ عن ظلمهن بغير واجب، بعد تقدير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن، وحسن معه الاتصاف بالعلو والكبير، أي قدره فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد»[1]. فذلك سبب تصريف هذه الصفة واقترانها بالصفة الجليلة الأخرى، وقد تناسبتا في تصريفهما معنىً ووزناً، فكلاهما دال على القدرة والعظمة الإلهية.

وأما الآية الثانية والثالثة فهما من المتشابه لفظاً، إذ إن دلالتهما واحدة غير أن آية الحج أكدت بالضمير هو، دون آية سورة لقمان، وقد تساءل عن هذا السبب ابن الزبير الغرناطي، فقال: «للسائل أن يسأل عن التأكيد بزيادة «هو» في سورة الحج، وسقوطه من سورة لقمان، ووجه ذلك - والله أعلم - أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم، والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم... ولمّا لم يقع في سورة لقمان مثل هذا لم يرد فيها التأكيد بـ(هو) وذلك أبين شيء وأنسبه»[2].

وذكر بدر الدين بن جماعة: أن آية الحج تقدمها جمل عدة مؤكدات باللام والنون والهاء والواو، فناسب توكيد هذه الجملة كأخواتها تبعاً لهن، ولم يتقدم في لقمان مثل ذلك، ولذلك جاء في الحج بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3]. وفي لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[4].

---

(1) المحرر الوجيز 2/ 48.

(2) ملاك التأويل 2/ 724 - 725.

(3) آية 64.

(4) آية 26. وانظر كشف المعاني ص 265.

وقال الرازي: «فيه وجهان: أحدهما: المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق، أي هو الموجود الواجب لذاته، الذي يمتنع عليه التغيير والزوال، فلا جرم أتى بالوعد والوعيد، ثانيهما: أن ما يفعل من عبادته هو الحق، وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل. . . ومعنى العلي القاهر المقتدر الذي يغلب، فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغباً بذلك في عبادته زجراً عن عبادة غيره، وأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه، وذلك أيضاً يفيد كمال القدرة»[1].

وأما الآية الرابعة فتصرَّف القول فيها ببيان تلك الصفة الجليلة وتأكيد عظمة المولى - سبحانه وتعالى - إذ جاءت في سياق تبكيت المشركين وإلزامهم الحجة وذلك عن طريق الأمر الموجه للنبي - ﷺ - بدعوتهم الأصنام التي زعموا أنها آلهة من دون الله - تعالى - وبعد أن بين أنها ليس لها شركة مع الله، ولا تشفع ولا تنفع، ختم ذلك بالصفتين الجليلتين لبيان العظمة الإلهية، وكمال الربّوبية المتصفة بصفات العظمة والجلال.

وأما الآية الخامسة فبعد أن بيَّن حال المشركين حين يُدْعَوْن للتوحيد، تَصَرَّف القول ببيان أن الحكم لله صاحب الصفات العظيمة، تأكيداً لإقرار التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده.

ج - صفتا العليّ الحكيم:

وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

---

(1) تفسيره 23/ 61.

(2) الشورى 46.

فوجه تصريف الصفة الجليلة العليّ واقترانها مع الصفة الجليلة الحكيم في هذه الآية للتناسب والحكمة الإلهية؛ لأن الله - تعالى - لما بيَّن كيفية الوحي وأقسامه ناسبه أن يقرن هاتين الصفتين معاً، فالوحي إلى الرسل بكيفيات وطرق مختلفة تقتضيها الحكمة الإلهية البالغة.

وقد جاء هذا التناسب في المعنى وفي الوزن الصرفي، ولما بيَّن الله - تعالى - كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء - عليهم السلام - أعقبه بذكر هاتين الصفتين العليتين[1].

نستخلص من العرض السابق، أن صفة العليّ: وردت مع ثلاث صفات جليلة هي العظيم والكبير والحكيم، وذلك للتناسب والحكمة الإلهية، وأن في تصريف هذه الصفة واقترانها بالصفات الأخرى دلالة على التوحيد، وتأكيداً على القدرة الإلهية، وأن تصريف هذه الصفة وإيرادها بطرائق مختلفة واقترانها بصفات أخرى هو من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه فلا تكرار فيها ولا بينها.

سادساً: صفة القدير:

وردت هذه الصفة الجليلة في سبع سُوَر، فاقترنت مرة بالصفة الجليلة العفو، وأربع مرات بصفة العلم، ومرة بصفة الربّوبية، ومرة بصفتي الغفور الرّحيم، وفيما يلي تصنيفها حسب اقترانها بتلك الصفات.

أ - صفتا عَفُوٌّ قدير:

وهو قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[2].

ختمت هذه الآية بالصفتين الجليلتين (عفواً قديراً)، وذلك للتناسب، فلما ذكر الله - تعالى - العفو قبلهما ناسب أن يقرن صفة القدير بصفة العفو. «وعداً خفيّاً

---

(1) انظر تفسير الرازي 27/ 191.

(2) النساء 149.

تقتضيه البلاغة، ورغب في العفو، إذ ذكر أنها صفته مع القدرة على الانتقام، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معانٍ كثيرة لمن تأمّلها»[1].

ذكر الألوسي أن إيراد العفو في معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة العفو مع القدرة، ولو كان إبداء الخير وإخفاؤه أيضاً مقصوداً بالشرط لم يحسن الاقتصار في الجزاء على كون الله ـ تعالى ـ عفواً قديراً، أي يُكثِر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على المؤاخذة، ونقل عن الحسن أنه يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام[2].

ب ـ اقتران صفة القدير مع العليم

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[3].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[4].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[5].

4 ـ وقال تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[6].

---

(1) المحرر الوجيز 2/ 130.
(2) انظر روح المعاني 6/ 4.
(3) النحل 70.
(4) الروم 54.
(5) فاطر 44.
(6) الشورى 50.

وردت الصفة الجليلة القدير في هذه الآيات الأربع فاقترنت بالصفة الجليلة العليم، إذ إن الآية الأولى لما ذكر الله ـ تعالى ـ فيها قدرته على الخلق، ثم قدرته على إماتة الخلق، ثم قدرته أيضاً بتعجيل أجل عباده أو ردّهم إلى أرذل العمر، اقتضى ذلك أن يختم هذه الآية بهاتين الصفتين، دلالة على القدرة. وتقدمت صفة العليم على القدير؛ لأنه ذكر قبلها انتفاء العلم فناسب ذلك تقدمها.

وأما الآية الثانية فإنه لـمّا بين مراحل خلق الإنسان وتكوينه، ناسبه أن يختم ذلك بالوصفين الجليلين دلالة على القدرة والعظمة الإلهية، وهو من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

وأما الآية الثالثة فإنه لـمّا بين قدرته ودلائله الباهرة، وبراهينه الساطعة ناسبه أن يختم هذه الآية بهذين الوصفين، دلالة على كمال القدرة.

وأما الآية الرابعة فإنه لـمّا بين ـ تعالى ـ ملكه للسموات والأرض وأنه يخلق ما يشاء وهو المتصرف في خلقه كيف شاء، ناسبه أن يختم ذلك بهذين الوصفين دلالة على العلم والقدرة المطلقة.

ج ـ اقتران صفة القدرة بصفة الربوبية:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[1].

لـمّا ذكر المولى ـ سبحانه ـ دلائل التوحيد، المتمثلة في الخلق، ناسبه أن يختم ذلك بالوصف الجليل (قديراً)، مقترناً بصفة الربوبية، تأكيداً على كمال القدرة الإلهية؛ لأنه الخالق المبدع.

---

(1) الفرقان 54.

د ـ اقتران الصفة الجليلة القدير مع صفتي الغفور الرّحيم :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1] . فلمّا ذكر العداوة والمودة، ناسبه أن يقرن صفة القدير بصفتي الغفور الرّحيم، فذلك للتناسب المعنوي والصرفي.

نخلص من العرض السابق إلى ما يلي :

1 ـ أن صفة القدير وردت مع الصفات التي اقترنت بها في مقام الوعد، وفي مقام بيان قدرة الله ـ تعالى ـ في الخلق والإبداع.

2 ـ أن هذه الصفة وردت مع الصفات التي اقترنت بها للتناسب المعنوي والحكمة الإلهية البالغة.

3 ـ أنَّ تلك الآيات التي تصرفت فيها صفة القدير مقرونة بصفة جليلة أخرى ـ كما رأينا ـ وأما صفة القدير على كل شيء، فقد وردت في القرآن الكريم كثيراً ويصعب استقصاؤها، وقد ذكر ما تصرَّف منها في سورة البقرة، الأستاذ أبو زيد في كتابه «التناسب البياني في القرآن» بعنوان : التعقيب بصفة القدرة المطلقة، وخلص منها إلى النتائج الآتية : «أن التعقيب بصفة القدرة المطلقة يأتي غالباً في ختام الآيات التي تضمنت الترهيب والترغيب، أو الوعد والوعيد.

أما وجه التناسب بين الترهيب والترغيب، وبين التذكير بقدرة الله المطلقة فيتجلى في إثارة الانتباه إلى أن ذلك الترهيب والترغيب صادر عمن يقدر على إنفاذه»[2] .

سابعاً: تصريف القرآن لصفة الواحد:

وفيما يلي الآيات الواردة فيها :

---

(1) الممتحنة 7 .

(2) التناسب البياني ص 107 .

1 ـ قال تعالى: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[4].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[5].

6 ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[6].

تبيّن من الاستقراء الكامل لهذه الصفة العظيمة التي على وزن فاعل، أنها وردت في ست سُوَر، واقترنت معها صفة القهّار التي على وزن فعّال، فدلالتها المعنوية واحدة، وهي إقرار الوحدانية لله ـ سبحانه وتعالى ـ ونفيها عن غيره.

فالآية الأولى جاءت مبينةً التوحيد على لسان نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ موضحةً فساد الشرك باتخاذ أرباب كثيرة لا تضر ولا تنفع، متعجبةً من التقليد داعيةً إلى التوحيد الخالص، وعبادة الله الواحد القهار، بأسلوب بديع وحجة قاطعة.

---

(1) يوسف 39.

(2) الرعد 16.

(3) إبراهيم 48.

(4) ص 65.

(5) الزمر 4.

(6) غافر 16.

وأما الآية الثانية فتصرَّف البيان فيها بالاحتجاج على المشركين على اتخاذهم مع الله شركاء على سبيل التهكُّم، إذ أمر نبيه ـ ﷺ ـ بأن يبلغ أن الله خالق الكائنات، وهو الواحد القهار.

قال ابن عطية: «ثم أمر محمداً ـ عليه السلام ـ بالإفصاح بصفات الله تعالى ـ في أنه ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ من حيث لا موجود إلاّ به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات لا إله إلاّ هو، العلي العظيم»(1). فذلك تصريف بديع، وبيان عجيب، دالّ على قدرة الله، وعظيم سلطانه واستحقاقه للألوهية وكمال الربوبية.

وأما الآية الثالثة، فإن: «التعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة؛ لأنهم إذا كانوا واقفين عند ملك عظيم، قهار لا يشاركه غيره، كانوا على خطر، إذ لا مقاوم له، ولا مغيث سواه، وفي ذلك أيضاً تحقيق إثبات العذاب الموعود»(2).

وأما الآية الرابعة فتصرَّف القول فيها بحصر مهمة الرسول ـ ﷺ ـ في الإنذار وفي إثبات الوحدانية لله الواحد القهار، وإبطال تعدد الآلهة.

قال الرازي: «فكذلك بدأ هـهنا بتقرير التوحيد، فقال: ﴿ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ وفي هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه مُنَزَّهاً عن الشريك والنظير»(3).

وأما الآية الخامسة فتصرَّف القول فيها ببطلان اتخاذ الولد، وتنزيه المولى ـ عزّ وجلّ ـ عن ذلك، وإعلان التوحيد.

ذكر الرازي أن المراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه مُنَزَّهاً عن الولد، وبيانه من وجوه، الأول: أنه لو اتخذ ولداً لما رضي إلاّ بأكمل الأولاد، وهو الابن فكيف نسبتم إليه البنت، الثاني: أنه ـ سبحانه ـ واحد حقيقي، والواحد

---

(1) المحرر الوجيز 3/ 306 ـ 307.

(2) روح المعاني 13/ 255.

(3) تفسيره 26/ 224.

الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مُركَّباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه، وجزؤه غيره[1].

وأما الآية السادسة فتصرَّف القول فيها بذكر الحشر وقدرة الله وعلمه المطلق، لذلك ختمت بالوصفين الجليلين دلالةً على كمال الوحدانية.

ثامناً: تصريف القرآن للصفة الجليلة: العزيز:

تبيَّن من استقرائنا لهذه الصفة في الربّع الأول من القرآن الكريم، أنها ترد على ثلاثة أنواع، تأتي مقترنة مع الحكيم، وهو الكثير المطّرد في القرآن، إذ بلغت في هذا الربّع خمس عشرة مرة، ونوع ورد مقترناً بصفة الانتقام، وذلك في آيتين، ونوع ورد مقترناً بالصفة الجليلة العليم، وذلك في آية واحدة، وفيما يلي: ذكر بعض الآيات على سبيل المثال لا الحصر:

أما النوع الأول، فآياته، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]. والعزيز: الغالب، أو المنيع الذي لا يرام، قاله المفضل بن سلمة، أو الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان، أو الذي لا مثل له، قاله ابن عباس، أو المنتقم قاله الكلبي، أو القوي. وهاتان الصفتان مناسبتان لما قبلهما؛ لأن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم لا تصدر إلاّ عمَّن اتصف بالعزة، وهي الغلبة، أو القوّة، أو عدم النظير، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم.

---

(1) انظر تفسيره ص 242.

(2) البقرة 129.

(3) نفسها 209.

. . . وتقدمت صفة العزيز على الحكيم؛ لأنها من صفات الذات، والحكيم من صفات الأفعال؛ ولكون الحكيم فاصلة كالفواصل قبلها[1].

وأما النوع الثاني، فهو اقتران هذه الصفة بصفة الانتقام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[3].

وهذا وعيد شديد، إذ بيَّن فيه في الآية الأولى جزاء الّذين يكفرون بآيات الله، وهاتان الصفتان متناسبتان غاية التناسب؛ لأن العذاب الشديد لأجل الانتقام من الّذين يكفرون بآيات الله: «وعزيز معناه غالب، وقد ذل له كل شيء، والنقمة والانتقام معاقبة المذنب بمبالغة في ذلك»[4].

وأما الآية الثانية فلما نهى عن قتل الصيد حال الإحرام، وبيَّن حكم ذلك، ناسبه أن يقرن هذه الصفة بصفة الانتقام؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ لذلك جاء اقترانهما للتناسب المعنوي.

وأما اقترانها بالصفة الجليلة العليم، ففي قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[5].

ذكر الرازي أن الله ـ تعالى ـ «ذكر في هذه الآية ثلاثة أنواع من الدلائل الفلكية على التوحيد فأولها ظهور الصباح، وثانيها سكون الليل الذي جعل الله فيه راحة الإنسان، فتلك حكمة بالغة ونعمة عظيمة، وثالثها: تقدير الشمس والقمر بنظام

(1) البحر المحيط 1/ 564.

(2) آل عمران 4.

(3) المائدة 95.

(4) المحرر الوجيز 1/ 399.

(5) الأنعام 96.

دقيق، ثم إنه ـ تعالى ـ ختم الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ والعزيز إشارة إلى كمال قدرته، والعليم إشارة إلى كمال علمه»[1]. فوجه اقترانهما معاً للتناسب.

«وقال ابن كثير: «وكثير ما إذا ذكر الله ـ تعالى ـ خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ـ كما ذكر في هذه الآية ـ»[2].

تاسعاً: صفة العلم:

تنوعت صفة العلم في القرآن كثيراً، بحيث يصعب استقصاؤها، لذا ارتأيت أن أذكر منها ما ورد في سورة البقرة، مصنّفاً إيّاها على النحو التالي:

أ ـ العليم بكل شيء:

1 ـ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[5].

وردت تعقيباً على ثلاث آيات: الأولى تضمنت ذكر بديع صنع الله في خلق السموات السبع وتسويتها، وفي خلق ما في الأرض جميعاً للناس، وختمت بصفة العلم، إشارة إلى أن صانع ذلك ومبدعه متصف بالعلم المطلق.

---

(1) تفسير الرازي 13/ 104 ـ 105.
(2) تفسيره 2/ 194 وانظر محاسن التأويل 3/ 2430.
(3) البقرة 29.
(4) آية 231.
(5) آية 282.

وأما الآيتان الثانية والثالثة فقد تضمنتا حدوداً شرعية تتعلق بأحكام الطلاق وحقوق الزوجة، وأحكام الدَّين وكتابته، وواجبات كاتبه والشهود.

وفي التعقيب على الآية التي تضمنت أحكام الطلاق وحقوق الزوجة، بتأكيد صفة العلم المطلق تنبيه على أنه ـ تعالى ـ يعلم النوايا فيما يفعله الأزواج من المضارّة والاعتداء وأنه يجازي على ذلك.

وفي التعقيب على آية الدَّين وأحكامه بهذه الصفة إشارة إلى أنه ـ تعالى ـ يحيط علماً بمن امتثل أمره في تلك الحدود، ومن لم يمتثل، وفي ذلك إشعار بالجزاء[1].

«تذييل مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض، وما فيها على هذا النمط العجيب والأسلوب الغريب... وفي (عليم) من المبالغة ما ليس في عالم، وليس ذلك راجعاً إلى نفس الصفة؛ لأن علمه ـ تعالى ـ واحد لا تكثر فيه، لكن لمّا تعلق بالكلي والجزئي الموجود والمعدوم والمتناهي وغير المتناهي ـ وصف نفسه ـ سبحانه ـ بما دل على المبالغة ـ والشيء هنا عامٌّ باقٍ على عمومه لا تخصيص فيه بوجه خلافاً لمن ضلّ عن سواء السبيل»[2].

ب ـ العليم الحكيم:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

قال الرازي: «العليم من صفات المبالغة التامة في العلم، والمبالغة التامة لا تتحقق إلاّ عند الإحاطة بكل المعلومات، وما ذاك إلاّ هو ـ سبحانه وتعالى ـ فلا جرم ليس العليم المطلق إلاّ هو، فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على سبيل الحصر.

---

(1) التناسب البياني ص 103 ـ 104.
(2) روح المعاني 1/ 217.
(3) البقرة 32.

والحكيم يستعمل على وجهين أحدهما: بمعنى العليم، فيكون ذلك من صفات الذات»[1].

وقال الألوسي: «تذييل يؤكد مضمون الجملة السابقة، ولمّا نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله ـ تعالى ـ على أكمل أوصافه وأردفوه بالوصف بالحكمة لمّا تبين لهم ما تبيّن، وأصل الحكمة المنع، ومنه حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها عن الاعوجاج، وتقال للعلم؛ لأنه يمنع عن ارتكاب الباطل، ولإتقان الفعل لمنعه عن طريق الفساد والاعتراض، وهو المراد ههنا لئلا يلزم التكرار. . .

وقدم ـ سبحانه ـ الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم من ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ و﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ ولأن الحكمة لا تبعد عن العلم، وليكون آخر مقالتهم مخالفاً لما يتوهم من أولها»[2].

ج ـ واسع عليم:

وردت على هذا النحو أربع مرات في سورة البقرة وذلك في:

1 ـ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

3 ـ وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

---

(1) تفسير الرازي 2/ 228.
(2) روح المعاني 1/ 227.
(3) آية 115.
(4) آية 247.
(5) آية 261.

4 ـ وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

أما الآية الأولى فقد ختمت بالوصفين الجليلين إذ وصف الله نفسه بصفة الواسع، فقيل: ذلك لسعة مغفرته، وقيل: واسع العطاء، وقيل: واسع القدرة، وقيل: وصف ـ تعالى ـ نفسه بذلك الوصف إشارة إلى أنه يوسع على عباده في الحكم، دينه يسْرٌ، وأردف بصفة (العليم) إشارة إلى أنه ـ تعالى ـ عليم بمصالح العباد، أو بنيات القلوب، وإن اختلفت ظواهر الأعمال في قلبه أو غيرها[2].

وأما الآية الثانية فقد ختمت بهذين الوصفين للمناسبة، «وفي اختيار ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ في الإخبار عنه ـ تعالى ـ هنا من حسن المناسبة لبسطة الجسم وكثرة العلم ما تهش له الخواطر، لاسيّما على ما يتبادر من بسطة الجسم، وقدّم الوصف الأول مع أن ما يناسبه ظاهراً مؤخر؛ لأن له مناسبة، معنى لأول الإخبار إذ الاصطفاء من سعة الفضل أيضاً؛ ولأن عليم أوفق بالفواصل، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة»[3].

وأما الآية الثالثة «فقد تضمنت تصوير الجزاء الواسع على الإنفاق في سبيل الله، فكان التعقيب بالوصفين الجليلين «واسع عليم» إشارة إلى أنه واسع بالعطاء عليم بالنية، وقيل: واسع بالقدرة على المجازاة، عليم بمقادير النفقات وما يترتب عليها من الجزاء»[4].

(1) آية 268.
(2) البحر المحيط 1/ 531.
(3) روح المعاني 2/ 167.
(4) البحر المحيط 2/ 138، والتناسب البياني ص 117.

عاشراً: الصفة الجليلة: الغفور:

وردت الصفة الجليلة الغفور في القرآن الكريم كثيراً بحيث يعصب استقصاؤها ولذلك نورد تنوُّعها في سورة البقرة، وقد تبين لنا أنها تأتي ختاماً لأحكام شرعية، وتقترن مع الصفتين الجليلتين الرحمة والحلم، وهو الكثير المطَّرد في القرآن الكريم، كما في آيات سورة البقرة وهو قوله تعالى:

1 - ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

2 - وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

3 - وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

4 - وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

5 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

6 - وقال تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[6].

---

(1) آية 173.

(2) آية 182.

(3) آية 192.

(4) آية 199.

(5) آية 218.

(6) آية 225.

7 ـ وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(1).

8 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(2).

وأما اقترانها بالصفات الأُخَر في القرآن الكريم فهو محدود، إذ اقترنت مع الصفة الجليلة العفو في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾(4).

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾(5).

وقد اقترنت مع الشكور في قوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(6).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(7).

---

(1) آية 226.

(2) آية 235.

(3) النساء 43.

(4) نفسها 99.

(5) الحج 60.

(6) فاطر 30.

(7) نفسها 34.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1].

وقد اقترنت مع العزيز في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾[5].

وقد اقترنت مع الودود في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾[6] ذلك مجموع اقتران الصفة الجليلة الغفور بالصفات الجليلة الأُخَر في القرآن الكريم.

لذلك نكتفي بهذا القدر من بيان تصريف الصفات الإلهية في القرآن الكريم مستخلصاً منها:

أن الصفات العظيمة تتنوع كثيراً في القرآن الكريم يصعب استقصاؤها في الغالب، وهي دالة على كمال الألوهية، وعظمة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ داعية إلى

---

(1) الشورى 23.
(2) فاطر 28.
(3) ص 66.
(4) الزمر 5.
(5) غافر 42.
(6) البروج 14.

التوحيد الخالص، وعبادة الله - سبحانه وتعالى - وقد جاء تصريفها مناسباً لمقام ورودها مناسبة دقيقة، ولا يمكن لأي صفة أن تحل محل صفة أخرى وتؤدي معانيها بدلاً منها، وذلك للحكمة البالغة والتصريف البديع، الّذي أعجز البلغاء وأنار طريق المهتدين إلى معرفة الخالق العظيم.

المبحث الثالث
تصريف القول في إبطال الشرك واعتقادات المشركين

صرَّف القرآن الكريم القول في إبطال الشرك بالله ـ تعالى ـ واعتقادات المشركين بأدلة متعددة، واتّبع طرائق مختلفة وذلك لإثبات التوحيد لله ـ تعالى ـ وتنزيهه ـ عزَّ وجلَّ ـ عن تلك الاعتقادات الباطلة.

وقد نوَّع القرآن الكريم القول في ذلك تنويعاً بديعاً، فمرة عن طريق النهي عن الشرك بالله ـ تعالى ـ ومرة عن طريق نفي المماثلة الحقيقية بين الخالق والمخلوق، وتارة عن طريق جدال المشركين وأهل الكتاب، وتارة أخرى عن طريق النهي عن اتخاذ الآلهة، ونفي تعددها واتخاذها من دون الله، وتارة ثالثة عن طريق النهي عن اتخاذ الأنداد من دون الله، ونفي الأولاد، وتنزيه المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذلك. إن هذا التنويع هو ما ستكشف عنه هذه الدراسة:

أولاً: النهي عن الشرك بالله ـ تعالى ـ:

الشرك بالله أنواع، فقد يكون باتخاذ الآلهة من دون الله وتعددها، وقد يكون باتخاذ الأنداد من دون الله، وادّعاء البنين والبنات لله رب العالمين ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

جاء في معاجم اللغة: الشِّرْكُ والشِّرْكةُ ـ بكسرهما وضم الثاني ـ: بمعنىً وقد اشتركا وتشاركا، وشارك أحدهما الآخر، والشِّرْكُ ـ بالكسر ـ وكَأمير: المشارك، ج أشراكٌ وشركاءُ، وهي شريكة، وأشرك بالله: كفر، فهو مشركٌ ومشركِيٌّ، والاسم: الشرك فيهما[1].

---

(1) القاموس المحيط 3/ 308. وترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة 2/ 704 (مادة شرك، والكليات لأبي البقاء 3/ 70 فصل: الشين.

وقد ورد النهي عن الشرك بالله - تعالى - صراحة في كثير من الآيات الكريمة، تبعاً لمواضعها وأسباب نزولها، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[7].

---

(1) النساء 36.

(2) الأنعام 14.

(3) نفسها 57.

(4) نفسها 151.

(5) نفسها 163 - 164.

(6) الأعراف 3.

(7) نفسها 32.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[8].

---

(1) يونس 105.
(2) يوسف 38.
(3) الرعد 36.
(4) الإسراء 111.
(5) الكهف 110.
(6) الحج 26.
(7) نفسها 31.
(8) لقمان 13.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[2].

ومن ثم نستطيع القول: إن النهي عن الشرك بالله ـ تعالى ـ في هذه الآيات الكريمة، ورد صريحاً لا تكرار فيها، ذلك أن كل آية تابعة لسياقها، وأسباب نزولها.

ثانياً: نفي المماثلة الحقيقية بين الخالق والمخلوق:

نجد القرآن الكريم في إثباته للتوحيد، وإبطال الشرك ينفي المماثلة الحقيقية بين الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ والمخلوق، فيقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3].

وقد جاءت هذه الآية عقب تعداد الدلائل الكثيرة والنعم الجليلة الدالة على قدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيته، توبيخاً للمشركين على عبادتهم للأصنام والأوثان، وبياناً لما هم فيه من الضلال والعناد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق إثبات التوحيد لله رب العالمين، لذلك ناسبه أن ينفي مماثلة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأي شيء، وقرنها بالصفتين الجليلتين (السميع البصير) تأكيداً لكمال القدرة الإلهية، وتَفَرُّدِه ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحدانية.

ثالثاً: جدال القرآن الكريم للمشركين وأهل الكتاب:

يعتبر الجدل القرآني مظهراً من مظاهر تصريف القول في القرآن الكريم وبخاصة في قضايا العقيدة، التي يهمّنا منها في هذه الدراسة قضية التوحيد، ذلك أن

---

(1) غافر 66.

(2) الجن 18.

(3) النحل 17.

(4) الشورى 11.

القرآن الكريم جادل المشركين وأهل الكتاب في عقيدتهم الفاسدة ؛ لإبطالها بالدليل القاطع والبرهان الساطع ، ومن ثم إقرار عقيدة التوحيد الصحيحة التي لا فساد فيها ، وهو الإقرار لله - سبحانه وتعالى - بالوحدانية وتخصيصه بالعبادة ، وشكره على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى .

وقد أنكر القرآن الكريم على المشركين عبادتهم للأصنام ، وفكرة تعدد الآلهة ، وأنكر عليهم أيضاً أن يكون هناك صلة بين الله - سبحانه وتعالى - الخالق الحقيقي المخصوص بالعبادة ، وبين هذه الأصنام التي يتقربون بها إلى الله - كما يزعمون - .

والذي حكاه القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[1] .

وقد كانت هذه القضية الأولى التي يواجهها الإسلام ، ولقد قطع القرآن - في مكة - شوطاً كبيراً في محاربة هذا الضلال ، لافتاً الأنظار إلى الحقيقة ممثلاً وواعظاً ، مجادلاً ومحاوراً ، منذراً ومبشراً مناقشاً وهادياً[2] .

ومن ذلك ما نجده من بيان رائع ، في سورة (ص) يذكر اعتراض المشركين إذ يقول تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾[3] .

«والملة الآخرة هي ملة عيسى - عليه السلام - التي هي آخر الملل ؛ لأن النصارى يدّعونها وهم مُثَلِّثَة غير مُوَحِّدة ، أو ملّة قريش وما كانت عليه من عبادة الأصنام»[4] .

---

(1) الزمر 3 .

(2) خصائص التعبير القرآني 1/ 430 .

(3) سورة ص 5 - 8 .

(4) الكشاف 3/ 361 .

ففي هذه الآيات الكريمة يذكر القرآن الكريم شبهات المشركين حول حقيقة التوحيد، وتَعَجُّبِهم من كون محمد ـ ﷺ ـ الذي أنزل عليه القرآن الكريم جعل الإله واحداً، وهو عندهم أمر عُجَاب[1].

ويصور القرآن الكريم حالهم بعد التعجب، فيصور انطلاق الأشراف من المشركين وطلبهم الإصرار بالبقاء على دينهم الذي يعترف بتعدد الآلهة. مؤكدين أن ما يقوله محمد ـ ﷺ ـ ويدعو إليه شيء يريد به الشرف عليهم ناكرين أنهم لم يسمعوا بهذا الدين الذي يدعوهم إليه محمد ـ ﷺ ـ في دين الآباء والأجداد. واصفين ذلك بالاختلاق، متعجبين من نزول القرآن الكريم، على محمد ـ ﷺ ـ من بينهم وليس بأشرفهم.

قال الزمخشري: «والمعنى إنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله»[2].

ثم جاء دور القرآن الكريم فأبطل شبهات المنكرين، إن قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[3].

ففي هذه الآيات الكريمة يبطل القرآن الكريم دعاوي المنكرين، إذ يبين أن تشكيكهم هذا في نزول القرآن وليس تشكيكاً في صدق محمد ـ ﷺ ـ الذي يعرفون صدقه بينهم، مبيناً أن هذا الشك سينتهي إذا ذاقوا عذاب الله ـ تعالى ـ.

ثم يمضي في توبيخهم وإبطال دعاويهم فيقول: أهم يملكون خزائن رحمة ربك، العزيز الوهاب، وإذا كانوا لا يملكون ذلك، فلا يحق لهم الاعتراض على نبوة

---

(1) العُجَابُ أبلغ من العجيب، وهو الذي بلغ الغاية في العجب، يقال شيء عجيبٌ وأمر عُجابٌ، (مختصر تفسير الطبري 2/ 355 هامش 1).

(2) الكشاف 3/ 361.

(3) سورة ص 8 ـ 14.

محمد، وما جاء به، ومن بينها التوحيد الخالص لله رب العالمين، أم لهؤلاء ملك السموات والأرض، وما بينهما، فليصعدوا في أبواب السماء، وطرقها للإشراف على الملك، وتَفَقُّده وتَعَهُّده[1].

وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾[2]. تعجيز وتَحَدٍّ لإبطال تلك الدعاوى الفاسدة، وترسيخ العقيدة الصحيحة، عقيدة الإيمان بإله واحد، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم بين حقيقة هؤلاء المشركين، وما هم إلاّ جند من أحزاب إبليس وأتباعه مهزومون.

ويكمل الرد بِسَوْق أمثلة تبيّن أن تكذيب الرسل سنة مطّردة في الأمم الماضيه، وضرب لذلك مثلاً بقوم نوح وعاد وفرعون وثمود، وقوم لوط وأصحاب الأيكة؛ ليعتبروا بما أصابهم من العذاب جزاء تكذيبهم رسل الله وما جاء وهم به من التوحيد، والشرائع.

ثم نجد البيان القرآني يبطل عقيدة الأصنام ويُقرُّ عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[3].

قال صاحب «خصائص التعبير القرآني»: «أي وربي لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية في إبطال عقيدة الأصنام لكان القرآن قد أبطلها من أساسها، بحيث لم تقم

---

(1) مختصر تفسير الطبري 2/ 356.

(2) سورة ص 10.

(3) الأحقاف 4 ـ 5.

لها حُجّة بعد، عند عابديها ولا عند غيرهم من الناس، ولمَا وسع المخالفين لو أنصفوا إلاّ التسليم والإذعان، عرض واضح ودليل قاطع»[1].

إن في هذه الآيات تحدّياً وتعجيزاً لهؤلاء المشركين الّذين جحدوا وحدانية الله وانصرفوا لعبادة الأصنام والأوثان، وبخاصة في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ليظهر بذلك عجزهم وإبطال عبادتهم لهذه الأصنام.

فإذا كانوا عاجزين عن ذلك فلا يستحقون العبادة وإنما يستحقها من بيده ملكوت كل شيء، وهو الواحد القهار.

ثم يمضي فيطالبهم بالدليل على صحة دعواهم، تعجيزاً لهم فيقول: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ إذ طلب منهم في هذه الآية أن يأتوا بكتاب من قبل القرآن بتحقيق ما يدَّعون لآلهتهم، وفي هذا أمر تعجيز؛ لأنه ليس هناك كتاب سماوي في الكتب المنزلة يدل على الإشراك بالله[2].

فإذا لم تستطيعوا الإتيان بالدليل الأول، فأتوا بالدليل الثاني، ولعله أسهل منه، وفيه تَدَلٌ من الصعب إلى السهل، إذ قال تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

وقد طالبهم في هذه الآية أن يأتوا ببقية من علم يُوصل إلى صحة ما يقولون، إن كانوا صادقين في دعواهم[4]. وبهذا البيان الرائع، أبطل دعاويهم الزائفة، وأقام التوحيد الخالص.

ونجد البيان القرآني يجادل أهل الكتاب بالحجة والبرهان؛ ليقيم التوحيد الخالص، ويبطل الشرك والوثنية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا

---

(1) خصائص التعبير القرآني 1/ 433.
(2) مختصر تفسير الطبري 2/ 478 بتصرف.
(3) الأحقاف 4.
(4) مختصر تفسير الطبري 2/ 478.

إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

يجادل القرآن الكريم في هذه الآيات أهل الكتاب باللّين والإقناع، وإقامة الحجة؛ لإثبات التوحيد لله رب العالمين، وإبطال الشرك والوثنية، فبدأ الخطاب بالأمر المُوَجَّه للرسول - ﷺ - لدعوة أهل الكتاب - والمراد به اليهود والنصارى - إلى توحيد الله - تعالى - وعبادته وحده، وعدم الإشراك به - عزَّ وجلَّ - وألاّ يُعَظِّم بعضهم بعضاً بالسجود، كما يسجد لله.

ثم بين الطريقة التي يجب أن يسلكها المؤمنون في حالة تولي هؤلاء عن الإيمان، وذلك بأن يقولوا اشهدوا علينا بأننا مسلمون، خاضعون لله وحده.

ثم انتقل بهم إلى دليل يبطل دعاويهم الباطلة، وهو جدالهم في إبراهيم - عليه السلام - ودعوتهم أنه كان على دينهم، فأدحض هذه الدعوة من أساسها بأن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلاّ بعد وفاة إبراهيم - عليه السلام - بحين فكيف يكون على دينهم؟

ثم نعى عليهم مخاصمتهم وجدالهم فيما لم يكن لهم به علم، مثبتاً صفة العلم المطلق لله - تعالى - في الأمور كلها.

(1) آل عمران 64 - 68.

ثم انتقل البيان إلى تكذيبهم في دعواهم أن إبراهيم كان على دينهم، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]. ففي هذه الآية الكريمة أظهر كذبهم بأن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وأثبت أنه كان حنيفاً مسلماً، متبعاً أمر الله ـ تعالى ـ وطاعته، ولم يكن من الّذين يعبدون الأصنام والأوثان.

ثم انتقل إلى بيان أن أولى الناس باتِّباعه هم الّذين سلكوا طريقه فوحَّدوا الله ـ تعالى ـ وخَصُّوه بالعبادة وحده.

يتضح لنا من العرض السابق أن القرآن الكريم يجادل المشركين وأهل الكتاب بالحجة والبرهان؛ ليقيم التوحيد لله ربِّ العالمين، ويبطل الشرك والوثنية، بأسلوب بديع.

رابعاً: النهي عن اتخاذ الآلهة من دون الله:

ورد النهي عن اتخاذ الآلهة في آيات كثيرة من كتاب الله ـ تعالى ـ يمكن استقراؤها ومناقشتها في الآيات التالية، لنتبين منها تصريف القرآن الكريم لهذه الآيات.

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾[2].

2 ـ قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

3 ـ قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾[4].

---

(1) آل عمران 67.

(2) المائدة 116.

(3) الحجر 96.

(4) الإسراء 22.

4 ـ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴾[1].

5 ـ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[2].

6 ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴾[3].

7 ـ وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴾[4].

8 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[5].

9 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾[6].

10 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[7].

اتفقت هذه الآيات في مضامينها، وهو النهي عن اتخاذ الآلهة من دون الله ـ تعالى ـ وصولاً للإيمان بالله الواحد الأحد، الذي لا شريك له في ألوهيته وهو وحده الخالق العظيم المتصف بصفات العظمة والجلال، واختلفت في بعض أساليبها، وكذلك في أسباب نزولها وفي سوابقها وخواتمها، وهو ما يؤيد اختيارنا لمصطلح التصريف، وينفي إطلاق صفة التكرار على القرآن الكريم، ونتبين ذلك من خلال استعراضنا لهذه الآيات ومناقشتها.

(1) الإسراء 39.
(2) المؤمنون 117.
(3) الفرقان 68.
(4) الشعراء 213.
(5) القصص 88.
(6) ق 26.
(7) الذاريات 51.

ذلك أن الآية الأولى تقرر في تصريف بيانها عقيدة التوحيد وتنفي ما قالته النصارى في عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه الطاهرة، التي ورد ذكرها في القرآن غير ما مرة، تشريفاً لها، وبياناً لمكانتها العالية عند الله.

وقد ذكر الرازي في هذه الآية أقوالاً أسوق منها قوله: «وعلى هذا القول فهذا الكلام إنما يذكره لعيسى يوم القيامة، ومنهم من قال: إنه ـ تعالى ـ: قال هذا الكلام لعيسى ـ عليه السلام ـ حين رفعه إليه وتعلق بظاهر قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ وإذ تستعمل للماضي، والقول الأول أصحّ؛ لأن الله ـ تعالى ـ عقب هذه القصة بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[1]. والمراد يوم القيامة»[2].

«واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال ـ وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام ـ على قولين: أحدهما ـ أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادّعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ من التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع، الثاني ـ قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيّروا بعده، وادّعوا عليه ما لم يقله»[3].

هكذا جاء جواب عيسى عليه السلام ـ مُنَزِّهاً المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عمّا ادَّعاه النصارى، مفوِّضاً أمره إليه، وهو العليم الحكيم.

وقال القرطبي: «وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين، أحدهما: تنزيهاً له عمّا أضيف إليه، الثاني ـ خضوعاً لعزَّته، وخوفاً من سطوته»[4].

وأما الآية الثانية فبينت صفة المستهزئين، تسليةً للرسول ـ ﷺ ـ وهذه الصفة المنهيّ عنها، المعَبَّر عنها بالفعل المضارع للدلالة على تجدد فعلهم واستمراره، قال

---

(1) المائدة 119.

(2) تفسيره 12/ 142.

(3) تفسير القرطبي 6/ 375.

(4) نفسه.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ ثم ختم الآية بالوعيد للذين يستهزئون بالرسول - ﷺ - ويجعلون مع الله إلهاً آخر، فسوف يكون عذابهم شديداً، وعند ذلك لا تنفعهم الآلهة التي يجعلونها مع الله، قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

وأما الآية الثالثة فبدأت بالنهي عن الشرك بالله، وبذلك أثبتت وحدانية الله - تعالى - وهو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا إله غيره، ولا معبود سواه.

قال الألوسي[1]: «الخطاب للرسول - ﷺ - والمراد به أُمّته على حد: إياك أعني فاسمعي يا جارة[2]، أو لكل أحد مما يصلح للخطاب على حد: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾[3].

والذي نراه أن الخطاب للناس كافةً؛ لأن الرسول محمد - ﷺ - أُرسل للناس كافةً؛ ولأن النهي متجدد ومستمر يدل عليه التعبير بالفعل المضارع.

ثم بينت الآية في تصريف بيانها جزاء من يشرك بالله معه غيره، فقال تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولاً﴾ وهذا الجزاء يكون مصاحباً لصاحبه ومتعلقاً به، متجدداً ومستمراً متى كان على هذه الحالة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولاً﴾ إذ إنها بدأت بالنهي عن الشرك على سبيل التهديد والوعيد، وهي معطوفة على جمل النهي المتقدمة.

---

(1) روح المعاني 15/ 52.

(2) هذا مثل، يضرب في التعريض بالشيء يبديه الرجل، وهو يريد غيره (انظر المستقصى في أمثال العرب 1/ 450).

(3) الأنعام 27.

«والخطاب للنبيّ ـ عليه السلام ـ والمراد كل من سمع الآية من البشر»[1]. وقال الألوسي: «الخطاب نظير الخطاب السابق كُرِّر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاه، وأنه رأس كل حكمة وملاكها»[2].

أرى كذلك أن الخطاب هو نظير الخطاب السابق ـ كما قال الألوسي ـ ولكنه ليس فيه تكرار، وإنما هو تصريف للبيان؛ لاختلاف سوابق الآيات ولواحقها.

وذكر الرازي لهذه الآية فوائد دقيقة، فقال: «من هذه الآية أنه ـ تعالى ـ بدأ في هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وختمها بعين المعنى، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكْر، يجب أن يكون ذكر التوحيد، وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد تنبيهاً على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه، فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة»[3].

فهذا ـ كما قلت ـ هو تصريف للبيان، وهو من دقائق القرآن وتفنن أساليبه، وبالغ حكمته.

وأما الآية الخامسة فجاءت معطوفةً على تنزيه المولى ـ سبحانه وتعالى ـ ناعيةً على الّذين يجعلون مع الله إلهاً آخر بدون برهان، مع أن البرهان والدليل على وحدة الألوهية واضح تدل عليه مخلوقاته العجيبة، والكون الفسيح.

وأما الآية السادسة فذكرت في تصريف بيانها صفات المؤمنين، فبدأت بتبرئتهم من الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، ثم عددت بقية صفاتهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[4].

---

(1) المحرر الوجيز 3/ 458.

(2) روح المعاني 15/ 77.

(3) تفسيره 20/ 216.

(4) الفرقان 68.

هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمن، وهو قسم التخلي عن المفاسد التي كانت ملازمةً لقومهم من المشركين، فَتَنَزَّه عباد الرحمن عنها بسبب إيمانهم، وذكر هنا تَنَزُّهَهُم عن الشرك، وقتل النفس والزنا، وهذه القبائح الثلاث، كانت غالبةً على المشركين.

وقد جُمع التخلّي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد، ولم يكرر اسم الموصول كما كرّر في ذكر خصال تخلّيهم، للإشارة إلى أنهم لما أقلعوا عن الشرك ولم يَدْعوا مع الله إلهاً آخر فقد أقلعوا عن أشد القبائح لصوقاً بالشرك، وذلك قتل النفس والزنى، فَجُعِل ذلك شبيه خصلة واحدة، وجُعل في صلة موصول واحد، وقد يكون تكرير (لا) مُجْزِئاً عن إعادة اسم الموصول وكافياً في الدلالة على أن كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب، ويؤيده ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك خيفة أن يَطْعَم معك، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، فأنزل الله - تعالى - تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[1].

أرى أن ترك إعادة اسم الموصول مع بقية الصفات من براعة القرآن وتفنن أساليبه وأن ما جاء في إعادة «لا» مع كل صفة ليس تكراراً، وإنما هو تصريف للبيان، يدل عليه اختلاف الصفات بعدها، وأن ذلك من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

---

(1) الفرقان 68 وانظر التحرير والتنوير 19/ 73 - 74 والحديث أخرجه البخاري في صحيحه 3/ 1352 باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ عن عمرو بن شُرَحْبِيلَ، عن عبدالله، قال: سألت النبي - ﷺ - أي الذّنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تَجْعَلَ لله نداً وهو خَلَقك» قُلْتُ: إن ذلك لَعَظِيمٌ، قلت ثم أيٌّ؟ قال: «وأن تقتل ولدك تخاف أن يَطْعَمَ معك» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تُزاني حلَيلة جاركَ».

وأما الآية السابعة فبدأت في تصريف بيانها بالنهي عن الشرك، واتخاذ الآلهة، والاعتراف بتعددها إشراك بالله - تعالى - الواحد في ذاته وفي صفاته، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[1]. والنهي في هذه الآية جاء معطوفاً بالفاء للاهتمام وطلب الإقلاع والابتعاد الفوري عن ذلك، والمقصود به المشركون، وإن كان الخطاب موجهاً للرسول - ﷺ -؛ لأنه رسول رب العالمين، للناس أجمعين، فعن طريقة يتلقون الأوامر والنواهي الإلهية، والذي يدل على أن الخطاب للرسول - ﷺ - ما جاء بعد ذلك من أمره بإنذار عشيرته الأقربين، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2]. وقد بين الرازي نكتة توجيه الخطاب للرسول - ﷺ - في الآية السابقة فقال: «ثم إنه - تعالى - لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول - ﷺ - وذلك في الحقيقة خطاب لغيره؛ لأن ذلك من شأن الحكيم، إذ أراد أن يكون خطاب الغير أن يوجّه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع؛ ولأنه - تعالى - أراد أن يتبعه ما يليق بذلك، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة»[3].

وقال الألوسي: «خوطب به النبي - ﷺ - مع استحالة صدور المنهيّ عنه - عليه الصلاة والسلام - تهييجاً وحثاً لازدياد الإخلاص، فهو كناية عن: أخْلِصْ في التوحيد حتى لا ترى معه - عزَّ وجلَّ - سواه»[4].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[5].

وذلك من التصريف لا من التكرار؛ إذ نهت عن الشرك بالله، وأمرت بالتوحيد الخالص، فجاء النهي مقروناً بإثبات الألوهية، وإثبات صفات الكمال

(1) الشعراء 213.
(2) نفسها 214.
(3) تفسيره 24/ 172.
(4) روح المعاني 19/ 134.
(5) القصص 88.

والعظمة لله الواحد القهار، ثم قرنت ذلك بإثبات البعث والجزاء، فهذه جميعاً من أسس العقيدة التي تدعو إلى التوحيد والعبادة الخالصة له وحده، والخطاب للرسول - ﷺ - والمراد به أمته، - كما بينا - في نظير هذه الآية في سورة الشعراء.

«وهذا وإن كان واجباً على الكل إلاّ أنه - تعالى - خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم، فإن قيل الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتة فما فائدة هذا النهي؟ قلنا لعل الخطاب معه، ولكن المراد غيره، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله، ولا تتخذ غيره وكيلاً»(1).

ومما جاء في النهي عن الشرك بالله وإثبات الوحدانية لله - تعالى - قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾(2).

فحذف الاسم المقصود وأقيم الاسم الموصول مقامه، لدلالة الآيات السابقة عليه، إذ المقصود بهم الكفار، وهذا كما قال محمد الطاهر بن عاشور: «من بديع النظم»(3) القرآني وحكمة تصريفه.

وفي سورة الذاريات جاء الأمر بالنهي عن الإشراك بالله واضحاً وصريحاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(4).

قال ابن عطية: «نهي عن عبادة الأصنام والشياطين وكل مدعو من دون الله»(5).

وقال الألوسي: «وهو نهي عن الإشراك صريح على نحو: وحدوه ولا تشركوا، ومن الأذكار المأثورة: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له»(6).

---

(1) تفسير الرازي 25/ 23.

(2) ق 26.

(3) التحرير والتنوير 26/ 312.

(4) آية 51.

(5) المحرر الوجيز 5/ 182.

(6) روح المعاني 27/ 18.

وعقب هذه الآية وسابقتها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1]. وهو من تصريف البيان لا من التكرار ـ كما رآه بعض المفسرين؛ لأن الأولى جاءت عقب الأمر بالتوحيد، والثانية عقب النهي عن الشرك، وهما ضدان وذلك من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه، وتفنُّن أساليبه.

قال ابن عطية: «وفائدة تكرار قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الإبلاغ وهز النفس، وتحكيم التحذير، وإعادة الألفاظ بعينها من هذه المعاني بليغة قرينة شدة الصوت»[2].

وقال الألوسي: «وكرر لاتصال الأول بالأمر واتصال هذا بالنهي، والغرض من كل ذلك الحث على التوحيد والمبالغة في النصيحة»[3].

يتضح لنا من العرض السابق ما يلي:

1 ـ أن القرآن يُصَرِّف آيات النهي عن اتخاذ الآلهة؛ لأجل الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ألوهيته ووحدانيته ـ تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ـ وبذلك فهي تقرر عقيدة التوحيد الخالص، وتنفي تعدد الآلهة، فلا إله غير الله ولا رب سواه.

2 ـ أن هذه الآيات تنزّه المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذلك.

3 ـ أن هذه الآيات اقترنت في تصريف بيانها أحياناً بالوعيد تسليةً للرسول ـ ﷺ ـ.

4 ـ أن هذه الآيات تصرِّف القول فيها بخطاب الرسول ـ ﷺ ـ والمقصود أمته؛ لأنه رسول الله إلى الناس كافةً، فعن طريقه يتلَقَّوْن الأوامر والنواهي، والخطاب كذلك لأجل التعظيم.

5 ـ أن هذه الآيات بيّنت في تصريف بيانها جزاء من يشرك بالله معه غيره.

---

(1) نعني بذلك قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات 50).

(2) المحرر الوجيز 5/ 182.

(3) روح المعاني 27/ 18.

خامساً: تصريف القول في نفي تعدد الآلهة واتخاذها من دون الله:

صرَّف القرآن القول في نفي تعدد الآلهة واتخاذها من دون الله - تعالى - بأساليب مختلفة، وذلك لإثبات التوحيد الخالص لله - عزَّ وجلَّ - وإبطال الشرك والوثنية كما في الآيات الآتية:

1 - قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾[1].

2 - وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2].

3 - وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[3].

4 - وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾[4].

5 - وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾[5].

6 - وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[6].

---

(1) مريم 81.
(2) الأنبياء 21 - 24.
(3) الفرقان 3.
(4) يس 74.
(5) الزمر 43.
(6) الشورى 6.

7 ـ وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

8 ـ وقال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

9 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[3].

اتفقت هذه الآيات في دلالاتها، وهي نفي الآلهة واتخاذها من دون الله، ففي ذلك إشراك به ـ سبحانه وتعالى ـ فهو وحده الإله المعبود بحق، المستحق للألوهية وكمال الربوبية. فجاءت متفقةً في أساليبها أحياناً، فتصرفت تصرفاً عجيباً وتفنّنت في ذلك تفنناً دقيقاً؛ لأجل إثبات الوحدانية لله رب العالمين. ذلك أن هذا الاتفاق في بداياتها لا يجعلها مكررةً، بل متنوعةً؛ لاختلاف سوابقها وخواتمها، وكذلك لاختلاف أسباب نزولها، الذي اقتضى تصريفها في كل مرة.

فالآية الأولى جاءت معطوفةً على جملة سابقة، أي على دعاوي المشركين وشبهاتهم الباطلة، فبينت فساد اعتقادهم، إذ عبرت عنهم بالضمير ولم تذكرهم صراحةً؛ لأن السياق يدل عليهم.

«وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه، مختلف لم يأمر الله به»[4].

وتضمنت الآية الثانية في تصريف بيانها، إثبات التوحيد الخالص، ونفي تعدد الآلهة، وذلك بذكر الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على عظمة الله ـ سبحانه

(1) الشورى 9.

(2) الجاثية 10.

(3) الأحقاف 28.

(4) التحرير والتنوير 16/ 163.

وتعالى ـ وقدرته الباهرة في تسيير الكون، وقد اقترن التوحيد بذكر البعث والجزاء أحياناً، واقترن بذكر الوحي والنُّبُوَّة أحياناً أخرى؛ لأجل إثبات أصول الإيمان؛ إذ تعجبت الآية من حال المشركين وأنكرت تصرفاتهم، باتخاذ آلهة غير قادرة على إحياء الموتى، ذلك أن من صفات الإله الحق القدرة على الإحياء والإماتة، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾.

قال الرازي: «وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد، ونفي تعدد الأضداد والأنداد»[1].

وقال ابن عطية: «هذه (أم) التي هي بمنزلة ألف الاستفهام، وهي ها هنا تقرير وتوقيف، ومذهب سيبويه أنها بمنزلة بل من ألف الاستفهام كأن في القول إضراباً عن الأول»[2].

ثم ذكر البرهان على وحدانيته، ونزّه نفسه عما ادَّعاه المنكرون، فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

«قال أهل النحو: إلاّ ههنا بمعنى غير، أي لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شيء غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء؛ لأنا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا، وهذا يوجب بطريق المفهوم، أي أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد، وذلك باطل؛ لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان، فالفساد لازم، ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرناه»[3].

(1) تفسيره 22/ 149.

(2) المحرر الوجيز 3/ 78.

(3) تفسير الرازي 22/ 150.

وقال الألوسي: «إبطال لتعدد الإله، وضمير (فيهما) للسماء والأرض، والمراد بهما العالم كله عُلْويّه وسُفْليّه، والمراد بالكون فيهما التمكن البالغ من التصرُّف والتدبير لا التمكُّن والاستقرار فيهما»[1].

وقال ابن رشد: «أما نفي الألوهية عمّن سواه، فإن طريق الشرع في ذلك الطريق التي نص عليها الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز، وذلك في ثلاث آيات أحدها قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2].

ثم أعاد التعجب والإنكار من حال المشركين، الّذين اتخذوا من دون الله آلهةً مطالباً إيّاهم بالحجة والبرهان، قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾.

قال الرماني: «وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج، وهو الأصل الذي عليه الاعتماد في صحة التوحيد؛ لأنه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتمانع بوجودهما دون أفعالهما»[3]. وقيل: إنه اجتمع في هذه الآية الكريمة الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلَّمة، ودقة التصوير؛ لما يعقب التنازع من الفساد الرهيب فهو برهان خطابيّ لا تجد مثله في أي كتاب من كتب الحكمة النظرية[4].

«ثم قررهم ـ تعالى ـ ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكره وبيان فساده، وفي هذا التقرير زيادة على الأول هي قوله تعالى: ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ فكأنه قررهم هنا على قصد الكفر بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم دعاهم إلى الحجة والإتيان بالبرهان»[5].

---

(1) روح المعاني 17/ 23.

(2) الكشفُ عن مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة ص 65.

(3) النكت في إعجاز القرآن ص 109.

(4) من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم 1/ 119 وخصائص التعبير القرآني 1/ 437.

(5) المحرر الوجيز 4/ 78.

وقال الزمخشري: «كرر استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم»[1].

أرى أن ذلك ليس تكراراً، وإنما هو تصريف للقول؛ لاختلاف السوابق واللواحق فالأولى متعلقة بالقدرة على الإحياء والإماتة، والثانية جاء بعدها مطالبة بذكر الحجة والبرهان على سبيل التبكيت، وكذلك ما جاء بعدها من زيادة ذكرها ابن عطية بقوله: «وفي هذا التقرير زيادة على الأول، وهو قوله: ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾[2]. ثم قرن ذلك بالوحي والنُّبُوَّة.

وأما الآية الثالثة فقد أعاب الله فيها على المشركين عبادتهم الأوثان والأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من الله شيئاً، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[3].

«اعلم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لمّا وصف نفسه بصفات الجلال والقدرة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الأوثان وبين نقصانها»[4].

«والمراد حكاية أباطيلهم في أمر التوحيد والنُّبُوَّة، وإظهار بطلانها بعد أن بين ـ سبحانه ـ حقيقة الحق في مطلع السُّورة الكريمة، أي آلهة لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء وهم مخلوقون لله ـ تعالى ـ»[5].

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾[6]. وهي من تصريف البيان لا من التكرار، ومما يؤيد هذا الرأي أن الآية السابقة أضمر فيها اسم الجلالة، ويدل عليه الكلام السابق، فعبر عنه بالضمير، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ وأما هذه الآية فجاء اسم الجلالة ظاهراً،

---

(1) الكشاف 2/ 568.
(2) المصدر السابق لابن عطية نفسه.
(3) الفرقان 3.
(4) تفسير الرازي 24/ 48.
(5) روح المعاني 18/ 233.
(6) يس 74.

فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً ﴾ وذلك بعد أن ذكر نعمه على عباده، في الآية السابقة من هذه السُّوَرة، إذ تعجب من عباده بعد أن منحهم نعمه العظيمة يقبلون على آلهة لا تضر ولا تنفع، وفيه توبيخ للمشركين وتعنيف على عبادتهم غير الله، من الأصنام والأوثان، وفي هذا التصريف إبطال عبادة الآلهة التي اتخذها المشركون، وإثبات التوحيد الخالص لله رب العالمين، الخالق الرازق الذي ينصر عباده المخلصين.

وفي سورة الزمر عبر عن اتخاذ الآلهة وتعددها بالشفعاء فقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾[1]. وهذه الآية تتفق في بدايتها مع آية الأنبياء، فكلاهما بدأت بـ (أم) التي سبق الحديث عنها في آية سورة الأنبياء، وما يجعلهما غير مكررين اختلافهما، فيما جاء بعدهما من إضمار اسم الجلالة في آية الأنبياء وإظهاره في هذه، واستبدال لفظة آلهة في الأنبياء (شفعاء) في آية سورة الزمر، وهو من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه، وتفنن أساليبه.

وفي سورة الشورى، عبر عن ذلك بالأولياء فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[3].

فالآية جاءت معطوفةً على ما سبق ذكره من الآيات السابقة لها، التي هي دلائل من الآفاق، لينبه المشركين إلى ما هم عليه من خطأ فاحش، وذنب عظيم، وهو الإشراك بالله، وأن الأولياء لا تنفع ولا تضر.

ثم أنكر عليهم اتخاذهم أولياء في الآية التي بعدها، بأسلوب يخالف أسلوب الآية الأولى، فالأولى جاءت معطوفةً ـ كما قلنا ـ وهذه بدأت بالاستفهام الإنكاري، والأولى جاء بعدها ذكر الوحي والنُّبُوَّة، وهذه جاء بعدها ذكر البعث والجزاء؛ لأنها

(1) آية 43.
(2) آية 6.
(3) آية 9.

جميعاً من أصول الإيمان، فدائماً القرآن يذكّر بهذه الأصول ويقرنها معاً لأهميتها، ولكونها لا تصح واحدة منها بدون الأخرى، وقرنها كذلك ببيان صفة من صفاته العظيمة، وهي صفة القدرة.

وأما آية سورة الجاثية، فتصريف بيانها جاء مبيّناً وموضّحاً لموقف المشركين المكذبين بآيات الله المنزلة على محمد ـ ﷺ ـ هُدىً للناس، على سبيل الترهيب، وبعد أن ذكرت دلائل من الآفاق؛ لإقامة الحجة والبرهان، بيّنت جزاء هؤلاء المكذبين الجاحدين وهو جهنم، ولن تغني عنهم الأولياء التي عبدوها من دون الله شيئاً فقال تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وأما آية سورة الأحقاف فبينت أيضاً فساد الآلهة المتخذة من دون الله، «والمقصود بهذا التوبيخ تخطئة الأمم الّذين اتخذوا الأصنام للنصر والدفع، وذلك مستعمل تعريضاً بالسامعين المماثلين لهم في عبادة آلهة من دون الله، استتماماً للموعظة والتوبيخ بطريق التنظير، وقياس التمثيل، ولذلك عقب بقوله: ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ لأن التوبيخ آل إلى معنى نفي النصر»[2].

نستخلص من تصريف القرآن لآيات نفي تعدد الآلهة واتخاذها من دون الله ما يلي:

1 ـ أن القرآن الكريم يُصَرِّف هذه الآيات لإثبات التوحيد لله رب العالمين، وإبطال الشرك فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المستحق وحده للألوهية وكمال الربوبية، وفي ذلك أيضاً دحض لشبهات المشركين وبيان لفساد اعتقادهم، إذ أعاب الله عليهم عبادتهم الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لهم من الله شيئاً،

---

(1) آية 10.

(2) التحرير والتنوير 26/ 55.

وفي ذلك أيضاً توبيخ لهم، وتعنيف على عبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان، وكذلك أبطلت عبادتهم غير الله.

2 ـ أن بعض هذه الآيات اقترنت في تصريف بيانها بذكر الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على عظمة الله، وقدرته الباهرة، وحكمته البالغة.

3 ـ أن بعض هذه الآيات اقترنت في تصريف بيانها بذكر البعث والجزاء، وذكر الوحي والنُّبُوَّة؛ لأجل إثبات أصول الإيمان؛ لأنهما من مرتكزاته الأساسية.

4 ـ أن هذه الآيات تذكر في تصريف بيانها أحياناً اسم الجلالة صريحاً وأحياناً أخرى يأتي مضمراً يدل عليه الكلام السابق.

5 ـ أن القرآن يُصَرِّف الآيات التي تنفي تعدد الآلهة واتخاذها من دون الله فيستبدل بها الشفعاء، وأحياناً الأولياء؛ لأن فيها جميعاً إشراكاً بالله ـ تعالى ـ إذ ليس له مثيل ولا نظير، ولاشبيه، ولايغني عنه وَلِيٌّ ولا شفيع ولا نصير فهو الواحد القهار، خالق الكون ومُسَيِّره بحكمته العظيمة وإرادته القوية.

سادساً: تصريف القول في النهي عن اتخاذ الأنداد من دون الله:

صرَّف القرآن القول في النهي عن اتخاذ الأنداد من دون الله ـ تعالى ـ لإثبات التوحيد والعبادة لله وحده فقال تعالى:

1 ـ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(1).

2 ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾(2).

3 ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾(3).

---

(1) البقرة 22.

(2) البقرة 165.

(3) إبراهيم 30.

4 ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾[1].

5 ـ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[2].

6 ـ ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

اتفقت هذه الآيات في مضمونها العام، إذ نهت عن اتخاذ الأنداد؛ لأن ذلك إشراك بالله ـ تعالى ـ وكفر به، واختلفت في بعض أساليبها، الأمر الذي يجعلها غير مكررة، وقد أوردها بأوجه متعددة من البيان كلها بليغة في غاية الدقة والإحكام، تختلف باختلاف أسباب نزولها واختلاف سوابقها وخواتمها.

فالآية الأولى نهت عن اتخاذ الأنداد لتكون عقيدة التوحيد خالصةً لله وحده، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ وهذا النهي متجدد ومستمر يدل عليه التعبير بالفعل المضارع: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ ﴾.

«والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقيةً واضحةً، قد لا تكون آلهةً تُعبَد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون، فقد تكون الأنداد في صور أخرى خفية، قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة»[4].

(1) سبأ 33.

(2) الزمر 8.

(3) فصلت 9.

(4) في ظلال القرآن 1/ 48.

من سلفكم المخلوقين منكم، تطلبون منهم ما لا يطلب إلاّ منه، وهو كل ما تعجزون عنه، ولا يصل نسبكم إليه، لا تفعلوا ذلك فإنهم في الخلق والعبودية مثلكم.

والأنداد ـ جمع ند ـ بكسر النون ـ وفُسِّر بالشريك، وهو في اللغة المضارع والكفء، يقال فلان ندُّ فلان، ومن أنداد فلان، أي يضارعه ويماثله، ولو في بعض الشؤون، والأنداد الّذين اتُّخِذوا في جانب الله، هم الّذين خضع الناس لهم وصمدوا إليهم في بعض الحاجات، لمعنى يعتقده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الأنداد أولاً وبالذات، وهم مشركو العرب، وأهل الكتاب، فالعرب كانت تسمي ذلك الخضوع والصمود عبادةً، إذ لم يكن عندهم وَحْيٌ ينهاهم عن عبادة غير الله، فيتحامون[1] هذا اللفظ «العبادة» ويستبدلون به لفظ التعظيم أو التوسل.

وأما أهل الكتاب الّذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداداً وأرباباً فكانوا يؤولون فلا يسمُّون هذا الاتخاذ عبادة، ولا أولئك المعَظَّمين آلهة أو أنداداً أو أرباباً، وفرق بين الاتخاذ بالفعل والتسمية بالقول، والجميع مُتَّفِقُون على أنه لا خالق إلا الله، ولا رازق إلاّ الله، وإنما كانوا يُسمُّون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلاً واستشفاعاً[2].

ومن بديع نظم هذه الآية وحكمة تصريفها أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بعدما نهى عن اتخاذ الأنداد نهياً مؤبداً؛ لتكون عقيدة التوحيد خالصةً لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، ذكّر عباده المشركين بأنهم يعلمون علماً كاملاً أنه الخالق الرازق، الذي بيده مقاليد الأمور كلها، ومع ذلك يشركون معه غيره، وهو علم متجدد ومستمر يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) تحاماه: تجنبه (المعجم الوسيط 1/ 207 مادة حمى).

(2) تفسير المنار 1/ 188 ـ 189.

وأما الآية الثانية فقد أخبرت عن حال بعض النـاس والمقصـود بـهم المشـركون، فقـال تعـالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[1]. فهذا تصريف للقول وليس بتكرار، يدل على ذلك الاختلاف في بعض أساليبها.

فالأولى جاءت ناهيةً عن ذلك، وهذه مخبرة عن حال بعض النـاس، معطوفة على ذكر دلائل الوحدانية، على سبيل التعجب من حال المشركين.

«عطف علـى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. إلـخ... ؛ لأن تلـك الجملة تضمنـت أن قومـاً يعقلـون اسـتدلوا بخلـق السـموات والأرض ومـا عطـف عليه على أن الله واحد فوحَّدوه، فناسب أن يعطف عليه شـأن الّذيـن لـم يـهتدوا لذلك، فاتخذوا لأنفسهم شركاء مع قيام تلك الدلائل الواضحـة، فـهؤلاء الّذيـن اتخذوا مـن دون اللـه هـم المتحَـدَّث عنـهم آنفـاً بقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[3].

وأما الآيـة الثالثـة فلـم تذكـر الّذيـن جعلـوا للـه أنـداداً صراحـةً، فعبَّرت عنـهم بالضمير الراجع إلى أهل الشرك فقال تعـالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ثـم بينـت سـبب ذلك فقال تعالى: ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

ثم ختم الآيـة بـالوعيد فقـال تعـالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ حتى ينتهوا عما هم فيه من الكفر والضلال.

وأما الآية الرابعة فقد حكت حال المستضعفين والمستكبرين مـن بعضـهم ولـوم بعضهم على بعض فـي كفرهـم وإشـراكهم باللـه ـ تعـالى ـ فـي أسـلوب بليـغ، وتَفَنُّنٍ دقيق، ونَظْمٍ بديع؛ لتكون عقيدة التوحيد خالصةً لله وحده، لا شريك له، ولا نِدّ له ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

---

(1) البقرة 165.

(2) نفسها 164.

(3) نفسها 161 وانظر التحرير والتنوير 2/ 89.

ونظير آية سورة إبراهيم قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ غير أنه يلاحظ أن بينهما فرقاً في الخطاب، فالأولى تخاطب الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهذه تخاطب المفرد.

وأما الآية السادسة فبدأت بأمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يقول للكافرين على سبيل التوبيخ والتعجب، إن الذي تكفرون به وتعبدون معه غير، هو الله الذي خلقكم وخلق الناس جميعاً، فبدأت بفعل الأمر، ثم الاستفهام، ثم بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

قال الرازي: «اعلم أنه ـ تعالى ـ لما أمر محمداً ـ ﷺ ـ في الآية الأولى أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1]. أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه ـ تعالى ـ وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية وذلك بأن بيّن كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة، فَمَنْ هذه صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟»[2].

«ومجيء فعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بصيغة المضارع لإفادة أن تجدد كفرهم يوماً فيوماً مع سطوع الأدلة التي تقتضي الإقلاع عنه أمر أحق بالتوبيخ»[3].

يتبين لنا من العرض السابق ما يلي:

1 ـ أن هذه الآيات اتفقت في دلالاتها اللفظية من حيث النهي عن اتخاذ الأنداد والتشنيع بأهلها؛ لتخلص عقيدة التوحيد من الشرك والوثنية، واختلفت في بعض أساليبها، الأمر الذي يجعلها غير مكررة، ولا ينبغي أن توصف بذلك.

2 ـ أن هذه الآيات تقرن أحياناً النّهي عن اتخاذ الأنداد بالوعيد الشديد لشناعة هذا الأمر، وفيه أيضاً بيان لجزاء المشركين وزجر لهم عن هذه القبائح ليعودوا إلى رشدهم، ويؤمنوا بالله الواحد القهار.

---

(1) فصلت 6.

(2) تفسيره 27/ 102.

(3) التحرير والتنوير 24/ 242.

3 ـ أن هذه الآيات لم تعيّن الّذين جعلوا لله أنداداً صراحة، وإنما عبرت عنهم بالضمير الراجع إلى أهل الشرك.

سابعاً: تصريف القول في نفي الأولاد وتنزيه المولى. سبحانه وتعالى.

نَوَّع القرآن الكريم القول في نفي الأولاد، وتنزيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن ذلك، ومن ثَمَّ فإن الحديث عن هذه الفقرة سيكون مقسماً إلى فقرتين، ففي الأولى سيكون عن تصريف القول في نفي الأولاد، وفي الثانية عن تَنُّوع صيغ تنزيه المولى ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم.

1 ـ تصريف القول في نفي الأولاد:

ادعاء الأولاد لله ـ تعالى ـ شرك به ـ سبحانه ـ ولذلك صَرَّف القرآن الكريم هذه الآيات، تصريفاً بديعاً، وتفنَّن في ذلك تَفَنُّناً دقيقاً، ذاكراً افتراءات أهل الكتاب والمشركين، رادّاً عليها بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، منزِّهاً نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذلك ومثبتاً له الوحدانية، وكمال صفات الربوبية.

إن هذا التصريف يهدف إلى إثبات التوحيد الخالص لله وحده، وتنقية العقيدة وتصحيحها من الاعتقاد الفاسد، الذي لا يستند إلى دليل، وقد اقترن حكاية هذه الدعاوي الباطلة بتنزيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بصورة مُطَّردة عمّا ادَّعاه، هؤلاء؛ لأنه افتراء على الله وهو إثم عظيم وذنب لا يغفره الله، قال تعالى: **﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾**[1].

والاستقراء الكامل لهذه الآيات بلغ تسع عشرة آية، نكتفي بذكر بعضها؛ لبيان تصريفها ونفي التكرار عنها.

---

(1) النساء 48.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[7]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[8]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ

---

(1) البقرة 116.
(2) النساء 171.
(3) الأنعام 100 ـ 101.
(4) يونس 68.
(5) الإسراء 40.
(6) نفسها 111.
(7) الكهف 4.
(8) مريم 35.

عَبْدًا ﴾[1]. وقـــال تعـــالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[2].

وفيما يلي مناقشة هذه الآيات تبعاً لترتيبها السابق الذي اتبعت فيه ترتيب المصحف الشريف.

فالآية الأولى من سورة البقرة جاءت لأجل إثبات التوحيد، ونفي الشرك، ردّاً على اليهود والنصارى والمشركين في دعواهم الباطلة التي ذكرها المفسرون في توجيههم لهذه الآية. فقال أبو حيان: «نزلت في اليهود إذ قالوا عُزَيْزٌ ابن الله، أو في النصارى، إذ قالوا: المسيح ابن الله، أو في المشركين إذ قالوا الملائكة بنات الله أو في النصارى والمشركين، أقوال أربعة، والأخير ذكره الزجاج»[3].

وأما آية النساء فجاء إثبات التوحيد فيها ونفي أن يكون لله ولدٌ في سياق نهي أهل الكتاب عن الغُلُوّ في الدين، والنهي عن القول على الله إلاّ بالحق، وحصر المسيح في الرسالة، والأمر بالإيمان بالله ورسوله، والنهي عن القول بالثلاثة، وتهديد أهل الكتاب بذلك.

وأما آية الأنعام فجاءت في سياق عرض دلائل الخلق والإبداع، والتمنن على عباده بنعمه الجليلة.

وأما آية يونس فجاءت في سياق الاستدلال بدليل من الآفاق على عظيم القدرة وكمال الوحدانية، تنبيهاً على القدرة الكاملة، والحجة القاطعة والبرهان الساطع، وإبطالاً للدعوة الباطلة وإقامة التوحيد محلها.

---

(1) نفسها 88 ـ 93.

(2) الأنبياء 26.

(3) البحر المحيط 1/ 362. ومعاني القرآن للزجاج 1/ 198.

وأما آية الإسراء الأولى فقد دحضت شبهةً أخرى ودعوةً كاذبةً وخرافةً واهيةً، على وجه التوبيخ للعرب الّذين قالوا: إن الملائكة بنات الله إذ وصفت قولهم بالشناعة والادِّعاء الكاذب.

وقد أشار ابن عطية إلى أن الخطاب في هذه الآية، للعرب التي كانت تقول الملائكة بنات الله، فقررهم الله على هذه الحجة، أي أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل ولله الإناث؟[1].

وأما آية الإسراء الثانية فقد جاءت ردّاً على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزير وعيسى والملائكة ذرية الله - سبحانه وتعالى - عن أقوالهم، ورادة على العرب في قولهم لولا أولياء الله لذل[2].

وذلك يقتضي نفي الولد والشريك والولد والنصير، وإثبات التوحيد لله وحده، وتعظيم الله - سبحانه وتعالى - وذكره بصفات العظمة والكمال، فقال تعالى: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

قال ابن عطية: «أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، ثم أكّدها بالمصدر تحقيقاً لها وإبلاغاً في معناها»[3].

وأما آية الكهف فقد بينت أن من مهمة الرسول - ﷺ - ووظيفته إنذار الّذين ينسبون إلى الله الولد، وعبر عنه بالمضارع دلالةً على أن الإنذار متجدد ومستمر منه - ﷺ - طيلة حياته وبعد مماته موجود ذلك في كتاب الله - تعالى -.

وقد بين الله - تعالى - أن هذه الدعوى بدون علم ولا تستند إلى دليل، فقال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[4].

---

(1) المحرر الوجيز 3/ 458.
(2) نفسه 3/ 492 - 493.
(3) نفسه ص 493.
(4) الكهف 4، 5.

وقد وصفت الآية قولهم هذا أبلغ وصف حين وصفته بالكذب، وقد أضمرت الآية المخاطبين المقصودين ولم تصرح بهم، لتعدد قائله، على ما قاله القرطبي: «وهم اليهود، قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وقريش قالت: الملائكة بنات الله، فالإنذار في أول السُّورَة عام، وهنا خاص فيمن قال لله ولد»[1].

وأما آية مريم الأولى، فقد نفت أن يكون لله ولد، وَنَزَّهت المولى ـ سبحانه ـ عن ذلك؛ لأجل إثبات التوحيد الخالص، رداً على النصارى الّذين ادَّعوا أن المسيح ابن الله.

وأما آية مريم الثانية فنوع بيانها على طريقة القرآن في إيراد الشبهة والرد عليها؛ لأجل إثبات التوحيد، ونفي الولد لله الواحد القهار. ثم أخذ في إبطال الشبهة فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[2].

«رداً لمقالتهم الباطلة، وتهويلاً لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»[3].

وقد بين عظم شناعتهم هذه فقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[4].

ثم عاد البيان إلى ذكر دعواهم الباطلة فقال تعالى: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[5].

ورد عليهم مبطلاً مقالتهم هذه، مستدلاً على قدرته بدلائل الأنفس والآفاق فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[6].

---

(1) تفسيره 10/ 353.
(2) مريم 89.
(3) روح المعاني 16/ 139.
(4) مريم 90.
(5) نفسها 91.
(6) نفسها 92، 93.

فذلك تصريف بليغ وتَفَنُّنٍ عجيب، في إثبات الوحدانية ونفي اتخاذ الله ولداً، بإيراد الشبهة ودحضها بأدلة قاطعة وحجة ساطعة لا يملك الإنسان أمامها إلا التسليم بها والخضوع لها، بأسلوب غاية في البراعة ونهاية في الفصاحة.

إن من بديع نظم هذه الآيات استبدال اسم الجلالة بصفة من صفاته العَلِيَّة، وهو (الرحمن) وقد أعيد ذكره ثلاث مرات تنويعاً للبيان، لا تكرار فيه.

ونظير هذه الآية، آية الأنبياء، وهو من التنويع وليس فيها تكرار؛ لأن كُلاً منهما تابعة لسياقها ولأسباب نزولها.

وقد ذكر صاحب «الكشاف» أن آية الأنبياء، مقررة لما سبقها من آي التوحيد، نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، نزّه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية تنافي الولادة، إلاّ أنهم ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ مقربّون عند الله، على سائر العباد لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم[1].

يتبيّن لنا من العرض السابق ما يلي:

1 ـ أن هذه الآيات تَنَوَّعت تنوُّعاً بديعاً، وتفنَّنت في ذلك تفنُّناً دقيقاً، ذلك أنها ردّت على اليهود والنصارى والمشركين في دعواهم الباطلة لأجل إثبات التوحيد لله وحده، وتنقية العقيدة، وتصحيحها من الاعتقاد الفاسد الذي لا يستند إلى دليل.

2 ـ أن هذه الآيات اقترنت في حكاية هذه الدعاوي الباطلة بتنزيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بصورة مُطَّردة، عما ادَّعاه هؤلاء؛ لأنه افتراء على الله وإثم عظيم.

3 ـ اقترن بعضها بدلائل من الأنفس والآفاق، على سبيل الاحتجاج وذكر البراهين الساطعة، والدلائل القاطعة.

4 ـ أن تصريف هذه الآيات يأتي أحياناً بإيراد الشبهة ودحضها بأدلة قاطعة وحجج ساطعة.

5 ـ أن هذه الآيات ليست مكررة في نفسها ولا مع غيرها.

---

(1) الكشاف 2/ 569.

2 ـ تنوُّع صيغ تنزيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في القرآن الكريم :

ذكر القرآن الكريم، صيغاً لتنزيه المولى ـ سبحانه وتعالى ـ وتبرئته مما ينسبه إليه اليهود والنصارى والمشركون، مما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وهذه الصيغ هي : ـ تبارك وتعالى، وسبحانه ـ وخص الله بها ذاته، دون أن يشركه فيها غيره، إذ لا تطلق إلاّ على تنزيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ومن ثم فإنه يتعين علينا أن نبين كيف يُصَرِّف القرآن الكريم هذه الصيغ.

أ ـ صيغة التنزيه ـ تبارك ـ

فاللفظ الأوّل: لفظ ـ تبارك ـ فعلٌ على صورة الماضي لا غيره، يدل على كثرة البركة ودوامها من غير انقطاع.

وذلك ما أشار إليه بعض المفسرين، فهذا الزمخشري يقول: «البركة كثرة الخير وزيادته، ومنها ـ تبارك الله ـ وفيه معنيان: تزايد خيره وتكاثر، أو تزايد عن كل شيء»[1].

وقد أظهر الاستقراء الكامل لهذه الصيغة أنها وردت تسع مرات، موزعةً على القرآن الكريم، وقد حاولنا تصنيفها حسب بداياتها وخواتمها، **فالنوع الأول: جاء فواتح لآيات**، وذلك في ست آيات، يأتي بيانها على الترتيب. وقد وردت مبينةً اختصاص النبي ـ ﷺ ـ بالقرآن والرسالة كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2].

وقد بيّن أبو حيان سرّ افتتاح سورة الفرقان بهذه الصيغة فقال: «ناسب أن يفتتح هذه السُّوَرة بأنه مُنَزَّه في صفاته عن النقائص كثير الخير، ومن خيره أنه نزّل الفرقان على رسوله منذراً لهم، فكان في ذلك إطماع في خيره وتحذير من عقابه،

---

(1) الكشاف 3/ 80.

(2) الفرقان 1.

و ـ تبارك ـ تفاعل مطاوع، بارك وهو فعل لا يتصرف، ولم يستعمل في غيره ـ تعالى ـ فلا يجيء منه مضارع، ولا اسم فاعل، ولا مصدر»[1].

وقال غيره: «ـ تبارك ـ هذه كلمةُ لا تستعمل إلاّ لله بلفظ الماضي، وذُكرت في هذه السُّوَرة في ثلاثة مواضع تعظيماً لله ـ تعالى ـ وخصّت مواضعها بذكرها لعظم ما بعدها.

الأول: ذكر الفرقان، وهو القرآن المشتملُ على معاني جميع كتب الله.

والثاني: ذكر النبي ـ ﷺ ـ ومخاطبة الله له فيه

والثالث: ذكر البروج، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، ولولاها لما وُجد في الأرض حيوان ولا نباتٌ»[2].

وقد وردت في الآية الثانية منبهة على مشيئة الله ـ تعالى ـ من الجعل والتغيير، كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾[3].

قال أبو حيان: «ودخلت «إن» على المشيئة تنبيهاً أنه لا ينال ذلك إلاّ برحمته، وأنه معلق على محض مشيئته ليس لأحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة»[4].

وقال ابن عطية: «الآية رجوع بأمور محمد ـ ﷺ ـ إلى الله ـ تعالى ـ أي هذه جهتك لا هؤلاء الضالون في أمرك»[5].

---

(1) البحر المحيط 6/ 440.

(2) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص 293.

(3) الفرقان 10.

(4) البحر المحيط 6/ 444.

(5) المحرر الوجيز 4/ 201.

وقد جاءت في الآية الثالثة مبيّنة قدرة الله في إبداع الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[1].

قال ابن عطية: «لما جعلت قريش سؤالها عن الله ـ تعالى ـ وعن اسمه الذي هو الرحمن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرّحة بصفاته التي تعرّف به وتوجب الإقرار بربوبيته»[2].

وقد وردت في الآية الرابعة مقررةً ملكه للسموات والأرض وما بينهما إذ قال تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3].

وقد جاءت في الآية الخامسة مسندة إلى اسم الربوبية، إذ قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[4].

وجاءت في الآية السادسة مقررةً ملكه المطلق وقدرته على كل شيء، إذ قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5].

وأما النوع الثاني: فهي التي جاءت خواتم لآيات، إذ وردت الأولى مقررة أن الخلق والأمر لله وحده، وذلك بعد ذكر دلائل من الآفاق تدل دلالة قاطعة على وحدانية الله ـ تعالى ـ، وكمال قدرته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6].

---

(1) الفرقان 61.

(2) نفسه ص 217.

(3) الزخرف 85.

(4) الرحمن 78.

(5) الملك 1.

(6) الأعراف 54.

قال ابن عطية: «وتبارك معناه عَظُمَ ـ وتعالى ـ وكثرت بركاته، ولا يوصف بها إلاّ الله تعالى ـ و(تبارك) لا يتصرف في كلام العرب ـ لا يقال فيه: يتبارك وهذا منصوص عليه لأهل اللسان.

قال القاضي أبو محمد: وعلّة ذلك أن: (تبارك) لمّا لم يوصف بها غير الله ـ تعالى ـ لم تقتض مستقبلاً إذ الله قد تبارك في الأزل»[1].

وقال أبو السعود: «أي: ـ تعالى ـ بالوحدانية في الألوهية وتَعَظَّم بالتفرُّد في الربوبية. وتحقيق الآية الكريمة ـ والله ـ تعالى ـ أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبيَّن لهم أن المستحق للربوبية واحد هو الله ـ تعالى ـ لأنه الذي له الخلق والأمر فإنه ـ تعالى ـ خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثم زَيَّنها بالشمس والقمر والنجوم»[2].

وقد وردت الثانية مؤكدة قدرة الله على الإنشاء والخلق الحسن، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[3]. وقد وردت الثالثة: مقررة الوحدانية وكمال الربوبية، إذ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

تلك هي صيغة التنزيه ـ تبارك ـ نستخلص منها:

1 ـ أن هذه الصيغة منها ما جاء فواتح لآيات، ومنها ما جاء خواتم لها.

2 ـ أن هذه الصيغة جاءت مقررةً الوحدانية، وكمال صفات الألوهية.

---

(1) المحرر الوجيز 2/ 409.

(2) إرشاد العقل السليم 3/ 233.

(3) المؤمنون 14.

(4) غافر 64.

3 ـ أن الصيغة التي جاءت فواتح لآيات ذكر بعدها ما يدل على قدرة الله على الخلق والإنشاء، والملك، وأن التي جاءت خواتم ذكر قبلها ما يدل على ذلك، تلك هي بلاغة القرآن في تصريف بيانه.

ب ـ صيغة التنزيه ـ تعالى ـ:

يُظْهِر الاستقراء الكامل للَفْظ التنزيه ـ تعالى ـ أنه ورد في أربع عشرة آية، يمكن تصنيفها على النحو التالي: آيات ورد فيها لفظ ـ تعالى ـ منفرداً بمعنى أنه لم يقترن به لفظ ـ سبحانه ـ وهذا أيضاً نوعان: نوع جاء فواتح لآيات، ونوع جاء خواتم لها، وذلك لنفي الآلهة معه ـ تعالى ـ والنعي على من جعل له شركاء، واضطرد معه ورود قوله: ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يتعالى بها عن الشرك وتقرير خلقه للسموات والأرض بالحق وغيرهما، وتقرير علمه ـ تعالى ـ بالغائب والشاهد.

فالنوع الأول، الذي جاء فواتح لآيات، كما في قوله تعالى:

1 ـ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[1].

2 ـ وقوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[2].

3 ـ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾[3].

وأما النوع الثاني: فهو الذي جاء خواتم لآيات، كما في قوله تعالى:

1 ـ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5].

---

(1) طه 114.
(2) المؤمنون 116.
(3) الجن 3.
(4) الأعراف 190.
(5) النحل 3.

3 ـ وقال تعالى : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

4 ـ وقال تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] .

وقد ورد لفظ ـ تعالى ـ معطوفاً على لفظ التنزيه ـ سبحانه ـ ومرّة معطوفاً على هذا اللفظ ، مظهراً لفظ الجلالة ، ومن حكمة القرآن في تصريف بيانه أن هذا التصريف بهذه الكيفية يأتي مطّرداً ، لا يتغيّر ، وآيات هذا النوع :

1 ـ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5] .

4 ـ وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[6] .

5 ـ وقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[7] .

---

(1) المؤمنون 92 .

(2) النمل 63 .

(3) الأنعام 100 .

(4) يونس 18 .

(5) النحل 1 .

(6) الإسراء 42 ـ 43 .

(7) القصص 68 .

6 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

7 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

ج ـ صيغة التنزيه ـ سبحانه ـ

وردت صيغة التنزيه ـ سبحانه ـ كثيراً في القرآن الكريم، مُنَزِّهةً المولى عما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، فمنها على سبيل المثال لا الحصر، إذ المقام لا يتسع لاستقرائها كاملة.

وهكذا فإن هذا اللفظ يرد مسبوقاً بإثبات الوحدانية لله ـ تعالى ـ ونفي الولد، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3].

قال ابن عطية: «معناه تنزيهاً له وتعظيماً عن أن يكون له ولد كما تزعمون أنتم أيها النصارى في أمر عيسى... وقوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إخبار يستغرق عبودية عيسى وغير ذلك من الأمور»[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5]. وأكثر تصريفه يأتي مسبوقاً بنفي الولد، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[6].

---

(1) الروم 40.
(2) الزمر 67.
(3) النساء 171.
(4) المحرر الوجيز 2/ 140.
(5) التوبة 31.
(6) البقرة 116.

قال ابن عطية: «ـ سبحانه ـ مصدر معناه تنزيهاً له وتبرئةً مما قالوا»[1].

وقال أبو حيان: «أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله ـ تعالى ـ قبل أن يضرب عن مقالتهم ويستدل على بطلان دعواهم ـ وكان ذكر التنزيه أسبق؛ لأن فيه ردعاً لمدَّعي ذلك، وإنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس»[2].

وقد يرد مسبوقاً بنفي الولد ونفي الآلهة الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[4].

وقد يرد مسبوقاً بتخذيل من يدَّعي لآلهته القدرة على الفعل والخلق كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[6].

وقد يرد لنفي البنات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[7].

---

(1) نفسه 1/ 201.

(2) البحر المحيط 1/ 532.

(3) الإسراء 42، 43.

(4) المؤمنون 91.

(5) الأنعام 100.

(6) الروم 40.

(7) النحل 57.

قال صاحب الطراز: «(سبحانه) كلمةُ تنزيه أوردها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة في التنزيه عما نسبوه إليه من اتخاذ البنات، ومبالغة في الإنكار عليهم في هذه المقالة، فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة، أعني قوله (سبحانه) من حسن الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض، وما تضمنته من الفوائد الشريفة والأسرار الخفية، من الإنكار والردّ والتهكّم وإظهار التعجب من حالهم، وغير ذلك من اللطائف - فسبحان الله - لقد أنشأت هذه الآية للعارفين استطرافاً وعجباً، وحرّكت في قلوبهم أشواقاً وطرباً، لما اشتملت عليه من عجائب الفصاحة التي لا ينطق بها لسان، ومن غرائب البلاغة ما لا يطلع على فجّها إنسان»[1].

وقد يتصرف إعلاناً للتوبة. كما حكى القرآن عن موسى - عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وعن يونس إذ قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

وعن عيسى إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾[4].

وقد ورد تعليماً وتأديباً، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾[5].

ومن بديع التصريف القرآني أنه كما أتبع لفظ - تعالى - بقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتبع لفظ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

---

(1) الطراز 2/ 170.
(2) الأعراف 143.
(3) الأنبياء 87.
(4) المائدة 116.
(5) الفرقان 18.

وقد يتصرف هذا اللفظ فواتح لآيات، كما في قوله تعالى:

1 - ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[1].

2 - وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[2].

3 - وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

4 - وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4].

5 - وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[5].

6 - وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[6].

7 - وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[7].

تلك هي صفات التنزيه التي صرَّف القرآن ذكرها، منزِّهةً المولى عما ينسبه إليه الظالمون، مما لا يليق بذاته العلية، وصفات الربّوبية، فخص بها ذاته دون أن يشاركه فيها أحد من خلقه، مقترنةً بدلائل الخلق والإبداع الدالة على قدرة الله وكماله منزِّهةً المولى عن النقائص ومثبتةً له صفات العظمة والكمال.

---

(1) الإسراء 1.

(2) الروم 17.

(3) يس 36.

(4) نفسها 83.

(5) الصافات 159.

(6) نفسها 180.

(7) الزخرف 82.

المبحث الرابع
تصريف القول في أساليب إثبات التوحيد

شغلت آيات التوحيد حيزاً كبيراً من القرآن الكريم؛ لأجل إثبات الوحدانية لله ربّ العالمين، إذ وردت بأساليب مختلفة وطرائق متنوعة، غاية في الروعة والبيان، تنبئ عن عظمة منزل هذا الكتاب وإعجاز القرآن الكريم، فهو يورد الأسلوب المناسب في المكان المناسب. وينتقل من نوع إلى آخر انتقالاً عجيباً، لا مثيل له في بيانه وروعة انسجامه وليس له طريقة معينة في إيراد أساليبه، وتحقيق مقاصده.

إن هذه الانتقالات الأسلوبية المبينة لمعاني التوحيد وغيره تكشف عن تناسق قوي وترابط متين بين الآيات المختلفة المعاني، وتكشف كذلك عن روعة القرآن الكريم، وسِرِّه البياني الّذي ليس له نظير.

«يختلف الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، في التعبير عن حقيقة التوحيد، والدعوة إليها، عن مناهج المتكلمين والفلاسفة، ومن تابع طريقهم من المفسرين»[1].

إن هذه الدراسة تبين الطريقة التي عبر بها القرآن الكريم بعدد من الأساليب عن حقيقة التوحيد ودعوته إلى ترسيخها في النفوس، وبيان صحيحها من فاسدها.

وقد عرض القرآن الكريم دلائله وبراهينه في أسلوب أدبي رائع، يستهوي نفس العربيّ فينفتح فؤاده، وهو لا يدري لسماع ما يُعرض عليه مأخوذاً بعذوبته وجماله.

ولم يتوجه القرآن الكريم بالدليل إلى العقل وحده لكنه خاطب جميع القوى المدركة والمؤثرة في النفس الإنسانية، وتَدَرَّج في الدليل من مرحلة إلى أخرى، مستخدماً الإثارة الوجدانية تارةً، وتحريك العاطفة تارةً أخرى، وهز مشاعر الرجاء والخوف، ووجّه النظر إلى المُحَس المشاهَد، وقاس عليه البعيد الغائب، وقطع السبيل

---

(1) بلاغة العطف في القرآن الكريم ص 197.

على المجادل، وسد جميع الثغرات أمام الناظر، حتى لا يجد غضاضةً في التسليم، ولا مرارةً في القبول، ولا محيصاً من الإذعان[1].

وقد أشار صاحب «المنار» إلى أن مسائل العقيدة قد فُصِّلت أبلغ تفصيل بأساليب القرآن العالية، بين الإقناع والتأثير، كبيان صفات الله في سياق بيان أفعاله، وسننه في الخلق والتكوين، والتقدير والتدبير، وآياته في الأنفس والآفاق، وطبائع الاجتماع وملكات الأخلاق، وتأثير العقائد في الأعمال، وما يترتب عليها في الدارين من الجزاء، وناهيك بإيراد الحقيقة بأسلوب المناظرة والجدال، أو ورودها جواباً بعد سؤال، أو تجليها في ورود الوقائع وضروب الأمثال، وهذا الأسلوب أعلى الأساليب، وأكملها جميعاً بين إقناع العقل والتأثير في القلوب[2].

وقد أشار إلى هذا النوع من التصريف القرآني صاحب «مباحث في التفسير الموضوعي» إذ قال: «جاءت أدلة الخلق والإبداع من خلال آيات القرآن الكريم على أوجه مختلفة، للدلالة على توحيد الله - سبحانه وتعالى - وتَفَرُّده بالإيجاد، وتناولت مجالات الخلق المختلفة من أمور في الكون، وفي الحياة والإنسان، والنبات والظواهر الجوية، تارةً بالإجمال، وتارةً بالتفصيل، وبأساليب متنوعة، من استفهام إلى حصر عن طريق النفي والإثبات، وإلى إثارة تساؤلات وإلى لفت نظر في الكون المحيط لمعرفة البدء والنهاية والمصير.

ولعل الحكمة في تَنَوُّع هذه الأساليب في العرض أن يجد المرء في جميع أحواله النفسية والفكرية ما يلفت النظر للتدبّر في آيات الخالق ووحدانيته[3].

ومن هنا فإن الحديث في هذا المبحث سيكون عن تنوُّع الأساليب الدالة على التوحيد وكمال الألوهية، ونفي الشرك والوثنية، المتمثلة في عدد من أساليب القول المختلفة، التي سيرد بيانها في مواضعها على سبيل المثال لا الحصر.

---

(1) خصائص التعبير القرآني 2/ 452 - 453.

(2) تفسير المنار 8/ 271.

(3) مباحث في التفسير الموضوعي ص 121.

أولاً: الاستدلال بآيات الأنفس والآفاق:

نَوَّعَ القرآن الكريم الأساليب الدالة على التوحيد تنويعاً عجيباً، وتفنّن في ذلك تفنّناً دقيقاً عن طريق الاستدلال بآيات الأنفس والآفاق، وهو أسلوب اختص به القرآن الكريم في إثبات الألوهية وتَفَرُّد المولى - عزَّ وجلَّ - بالوحدانية، ونفي الشرك والوثنية، وإثبات البعث والجزاء، والنُّبُوَّة والرسالة، وغيرها من القضايا المرتبطة بالإيمان.

والّذي يهمنا في هذا المبحث، هو الآيات التي تنوعت بقصد إثبات التوحيد، وأما ما يتعلق بإثبات البعث والجزاء، والنُّبُوَّة والرسالة، فسيكون الحديث عنها في محله - إن شاء الله تعالى - فالآيات الكونية تتصرف كثيراً في القرآن الكريم - وبخاصة في السُّوَر المكية - مما قد يوهم بعض من لم يمعن النظر فيها أنها مكررة، والحال أن الأمر بخلاف ذلك.

فهذا صاحب «تفسير الآيات الكونية» يقول «لقد تكررت الآيات الكونية في القرآن الكريم، وهي في مجموعها تصل إلى 750 آية، وهذا العدد الكثير يتضمن عناية القرآن بهذا الكون، ومشاهده، وما فيه من سماء وأرض وليل ونهار، وشمس وقمر...»[1].

إن هذا الباحث وغيره ممن وصفوا هذه الآيات بالتكرار لم يهتدوا إلى المصطلح الصحيح، وهو مصطلح تصريف القول في القرآن الكريم، الّذي نص عليه القرآن الكريم في غير ما آية[2].

إن المتأمل في هذه الآيات وتصريفها يدرك أن ذلك هو التنويع والتفنن الّذي يكشف أسرار القرآن الكريم، ودقائقه البيانية.

---

(1) تفسير الآيات الكونية ص 53.

(2) ذكرنا هذه الآيات في المقدمة والتمهيد لهذا الكتاب.

إن الاستدلال بدلائل الأنفس والآفاق جاء بها القرآن الكريم بقصد إيراد الحجج الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على وجود الله - عزَّ وجلَّ - وإثبات وحدانيته.

ولذلك فإن التصريف البياني لآيات الأنفس والآفاق يعتبر خاصيةً من خصائص الأسلوب القرآني، جاء بها القرآن للاستدلال على وجود الله - تعالى - بالدلائل الباهرة على كمال قدرته، وبديع صنعه، وتَفَرُّدِه بالوحدانية، فكثر بذلك تصريف هذه الدلائل بأساليب متنوِّعة وطرائق مختلفة.

وذلك ما أكّده محمد صادق عرجون، إذ قال: «إن هذا اللون من أساليب القرآن مبثوث في آيات الله الكونية التي سيقت في مواضعها من سُوَرِ القرآن؛ لبيان عظمة الوجود الإلهي، وعظمة هذا الكون بما يدل على تَفَرُّدِه - تعالى - بقدرة الإبداع والخلق، ويدل على وحدانيته وربوبيته، وقد بلغ بعض الناظرين في تفسير القرآن بهذه الآيات الكونية التي نزلت لتدعيم العقيدة إلى أكثر من خمسمائة آية»[1].

وهكذا فإنه من خلال حديثنا عن آيات الأنفس والآفاق التي أكثر القرآن الكريم من تصريفها، يتعين علينا أن نبين المقصود بها.

إن هذه التسمية مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2].

وقد فَصَّل القول في ذلك محمد صادق عرجون فقال: «والمراد بآيات الآفاق الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عالم العناصر، وآيات المواليد، وقد أكثر ذكرها في القرآن.

(1) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 17.

(2) فصلت 53.

والمراد بآيات الأنفس ما فيها من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة» ونقل عن الرازي قوله: «والعجائب التي أودعها الله هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو ـ تعالى ـ يطلع عباده على تلك العجائب زماناً فزماناً وحالاً بعد حال»[1].

وقد بين مقاصد القرآن من تصريف هذه الآيات بقوله: «وإنما يقصد القرآن من ذكر آيات الله في الكون وأسرار الوجود إلى إيقاظ العقول لتنهض بواجبها في كشف الحقائق الكونية لتقل أولاً وقبل كل شيء إلى معرفة الخالق العظيم، وإلى معرفة عظمة ملكه، وسعة سلطانه، وصدق أنبيائه ورسله، وتتحرر من التعبد للمخلوقين لتفرد الخالق بالتقديس»[2].

وقد نَوَّع القرآن الكريم دلائل الأنفس والآفاق؛ لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، التي يصل من خلالها كل ذي عقل إلى الإيمان بوحدانية الله ـ تعالى ـ فالكون كله شاهد بعظمة الله ـ تعالى ـ.

ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نأتي على بعض الأمثلة؛ لنتبين منها سر القرآن الكريم في تصريف هذه الدلائل ـ أعني بذلك آيات الأنفس والآفاق ـ التي تنوَّعت في القرآن تَنَوُّعاً عجيباً؛ إذ وردت بطرائق مختلفة وأساليب متنوعة، حاثة الإنسان على التأمّل والتفكر في خلق الله، تارةً بدعوته للتجوُّل في هذا الكون العجيب، المحكم الخلق والإبداع، بما اشتمل عليه من آيات ودلائل دالة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليصل بذلك إلى معرفة الخالق وتوحيده، وتارةً بدعوته للتأمُّل والتفكُّر في خلقه على هذه الصورة القويمة؛ ليصل أيضاً من خلال ذلك التفكير والتأمل إلى معرفة خالقه ـ عزَّ وجلَّ ـ ليعبده حق العبادة، ولا يشرك معه غيره، وتارةً ثالثةً بتذكيره بنعمه الجليلة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، والتي خلقها وسخرها لمنافع عباده ومصالحهم، وذلك ليشكروه عليها بالتوحيد، ويَخُصُّوه بالعبادة وحده؛ لأنه وحده المنعم والمتفضّل على عباده بتلك النعم.

---

(1) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 327.
(2) نفسه ص 333.

ومن أجل ذلك خاطب البيان القرآني، كل حاسة في الإنسان، وكل جارحة في كيانه البشري؛ ليتجه بعقله إلى ربّه، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله، الدالة على عظمة الله - عزَّ وجلَّ - ولذلك جاءت الآياتُ تخاطب العينَ لترى، والأذُن لتسمع، والوجدان ليتأثر، والعقل ليتدبّر، وحشدت الكون كلّه، سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وجباله وبحاره، ونباته وثماره، وعرضته أمام الأنظار هكذا مكشوفاً محسوساً ملموساً، تكاد كلُّ ذرة فيه تشهد لله بالوحدانية[1].

والقرآن الكريم في تصريفه لآيات الأنفس والآفاق قد يجمع بينها، وقد يفرد، وذلك حسب ما يقتضيه المقام من أدلة تتعلق بتوحيد الله، والدلائل المنصوبة على وجود الخالق المدبر الحكيم؛ إذ يصرفها على ثلاثة أنواع من الأساليب، فالنوع الأول الأسلوب التقريري، والنوع الثاني أسلوب التلقين والإنكار والتوبيخ، الّذي يأتي بالسؤال والجواب، يسأل عنه ثم يجيب، ويوجه السؤال ثم يرد عليه.

والنوع الثالث، هو الجمع بين التقرير والتلقين، وذلك ما ستبينه الدراسة اللاحقة.

أما الأسلوب الأول، وهو الأسلوب التقريري، فكما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وجه الخطاب في هاتين الآيتين للناس عامة[3]؛ لأنهم جميعاً مطالبون بتوحيد الله - تعالى - وعبادته وحده، معدداً نعمه على عباده ودلائل صنعه، التي توجب

---

(1) إيجاز البيان للصابوني ص 67.

(2) البقرة 21 - 22.

(3) قال صاحب «بدائع الفوائد»: «هذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم» (بدائع الفوائد 4/ 413).

على العباد توحيده وعبادته وحده لا شريك لـه. فأمرهم بعبادة ربّهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته»[1].

وقد أشار الرازي إلى ما تضمنه الأسلوب التقريري في هاتين الآيتين من أنواع الدلائل الدالة على توحيد الله ـ وبديع صنعه، متمثلاً في اثنين من الأنفس، وثلاثة من الآفاق، فبدأ أولاً بقوله: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ وثانياً: بالآباء والأمهات، وهو قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ وثالثاً: بكون الأرض فراشاً، ورابعاً: بكون السماء بناءً، وخامساً: بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض، وهو قوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾. ولهذا الترتيب أسباب، الأول: أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم، فكل ما كان أظهر دلالةً كان أقوى إفادةً، وكان أولى بالذكر.

فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان، ثم ثنَّاه بآبائه وأمهاته، ثم ثلَّث بالأرض؛ لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء، والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء، وخروج الثمرات بسببه؛ لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض، والأثر متأخر عن المؤثر، فلهذا السبب أخّر الله ذكره عن الأرض والسماء[2].

إن في هذا الأسلوب ـ كما قال صاحب «بدائع الفوائد»: «استدلالاً في غاية الظهور، ونهاية البيان، على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه، وإرادته وحياته، وحكمته وأفعاله، وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيده، أنه وحده الربّ الخالق الفاطر، وتوحيد الإلَهية

(1) نفسه.

(2) التفسير الكبير 2/ 111 ـ 112.

المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الّذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلاّ له»[1].

ونظير الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

إن هذه الآيات وإن اتفقت مع الآيتين السابقتين في أسلوبها التقريري، الّذي يلفت نظر العباد إلى بديع صنع الله ـ تعالى ـ وإتقانه المحكم، لا يعني ذلك أنها مكررة ـ كما أشار إلى ذلك صاحب «بدائع الفوائد» عند حديثه عن الآيتين السابقتين، إذ قال: «فذكر ـ تعالى ـ دليلاً آخر متضمناً للاستدلال بحكمته في مخلوقاته، فالأول متضمن لأصل الخلق والإيجاد ويسمى دليل الاختراع والإنشاء، والثاني متضمن للحكم المشهودة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو ـ تعالى ـ كثيراً ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن»[3].

غير أننا نتوقف فيما ذهب إليه من وجود تكرار في هذه الآيات ونظائرها وإن اتفقت في أسلوبها وبعض معانيها، ذلك أن لكل آية ظلالها الإيحائية الخاصة بها، التي جعلتها أكثر من غيرها ملاءمة لموقعها في السياق، وبالتالي فهي تنفرد عن غيرها فيما تتضمنه من بيان لا يوجد في نظائرها.

---

(1) بدائع الفوائد 4/ 112 ـ 113.

(2) إبراهيم 32 ـ 34.

(3) بدائع الفوائد 4/ 114.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

نبه المولى - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات عن طريق الأسلوب التقريري إلى ما في آياته الكونية من إتقان محكم، وعناية عظيمة، ونعم جليلة أنعم بها - تعالى - على عباده، وسخرها لمصالحهم ومنافعهم.

ففي آيات سورة إبراهيم لفت أنظار عباده إلى خلق السموات والأرض وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات، وجعلها رزقاً لعباده، وتسخير الفلك في البحر بأمره - تعالى - وتسخير الأنهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، مبيّناً أن نعمه لا تعد ولا تحصى.

وفي سورة الرعد لفت أنظارهم إلى مدّ الأرض، وجعل فيها الجبال الثوابت، والأنهار، وجعل من كل الثمرات صنفين اثنين، وجعل الليل بظلمته يعقبه النهار بضيائه.

إن هذه الآيات تكشف عن تصريف بيانها عن الإتقان البديع الدال على المتقن العليم الحكيم، وتكشف عن عنايته بخلقه، ذلك أن الذي يتأمّل في هذه الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه تهديه إلى توحيد الخالق العظيم، وعبادته، وشكره، وطاعته في كل ما أمر به ونهى عنه.

وقد بين الرازي سرّ الاستدلال بهذه الدلائل فقال: «وقد نبه الله - تعالى - على دلائل الأرض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها البلغاء، ويعجز عنها الفصحاء» ثم قال: «إنه - تعالى - ذكر أمر السموات والأرض في كتابه في مواضع، ولا شكّ أن إكثار ذكر الله - تعالى - من ذكر السموات والأرض يدل على عظم شأنهما وعلى أن له - سبحانه

---

(1) الرعد 3.

وتعالى - فيهما أسراراً عظيمةً، وحِكَماً بالغةً، لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم»[1].

«وذلك أن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه وعلى كونه - تعالى - واحداً من وجه آخر»[2].

يرى محمد صادق عرجون: أن القرآن يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها؛ لقربها من مشاهد الحس، إذ الحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بوساطتها في أول خطوة نحو الحقائق الكونية.

وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيهاً لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عوالم الأرض إلى آفاق السماء؛ لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجلّ وأعظم مما أودع في الأرض[3].

ومن ثم نستطيع القول: إن في تصريف هذه الآيات عن طريق الأسلوب التقريري، دلائل واضحة وبراهين ساطعة دالة على وجود الله ووحدانيته، بما أودعه الله - تعالى - من آثار آياته الكبرى في هذا الكون، وما فيه من بيان لعظمة وآثار صنعه؛ لأن في هذه المخلوقات أجل الدلائل في آيات الله الكونية التي مكّن الله الإنسان من الاطلاع عليها ومشاهدة آثارها.

كما أن في بيان تلك الدلائل وتنويعها تفنُّناً وبلاغة وإبداعاً[4] وصولاً للإيمان بالله - تعالى - وتثبيتاً للعقيدة الصحيحة.

---

(1) التفسير الكبير 2/ 116.

(2) عجائب القرآن ص 10.

(3) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 278 - 279.

(4) بين الله تعالى مكانة هذا الإبداع فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر 57).

وأما النوع الثاني من آيات الأنفس والآفاق، فهي التي اتبع فيها أسلوب التلقين والإنكار والتوبيخ، الّذي يأتي بالسؤال والجواب، وهذا النوع أيضاً كثير جداً في القرآن، وللقرآن الكريم طرائق في تصريف هذا النوع من البيان؛ فأحياناً يقدم السؤال ويقرر رسوله على وحدانيته، وأنه الخالق لهذا الكون ما فيه وما عليه، وسنكتفي منه بإيراد بعض الأمثلة.

ورد هذا النوع من الاستدلال بطريق السؤال والجواب، يقدم السؤال ثم يجيب عليه، مبيناً قدرة الله ـ تعالى ـ في الخلق والتكوين إذ إن في هذا البيان دلائل واضحة على قدرته وكمال ألوهيته؛ لأنه خالق السموات والأرض من غير مثال سابق، وهو المالك لهما، ولكل من فيهما، وهو الخالق وحده يرزق من يشاء بغير حساب كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. ففي هذه الآية الكريمة أمر موجه للرسول ـ ﷺ ـ أن يوجه السؤال للمشركين على سبيل الإنكار والتوبيخ، عن ملكية من في السموات والأرض، ثم الأمر بالجواب المتضمن للتوحيد في كلمة واحدة وهي: الله لا غيره المالك لذلك، معدداً صفاته.

وفي ذلك من الإنكار والتوبيخ مالا يخفى؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله ـ تعالى ـ مع وضوح الدلائل الدالة على قدرته وبديع صنعه.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]. ففي هذه الآية الكريمة، إنكار وتوبيخ للمشركين عن طريق الأمر

---

(1) الأنعام 12.

(2) الأنعام 14.

والسؤال، ثم تلقين للجواب على لسان الرسول - ﷺ - المبيِّن للتوحيد، والصفات العظيمة لله ربّ العالمين، ثم تلاه الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يقدم السؤال للمشركين عن طريق الأمر الموجه للرسول - ﷺ - ثم يلقنهم الجواب عن طريقه أيضاً، توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم أن يعبدوا معه غيره مع وضوح الدلائل الدالة على وحدانيته، - تعالى -.

وأحياناً يقدم السؤال ثم يقرر المنكرين لوحدانيته أن يجيبوا عنه معترفين بأنه الخالق وحده، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2].

وقد ذكر المراغي سر تقديم السؤال للمشركين وتفويض الجواب إليهم فقال: «جاءت بطريق السؤال للتوبيخ وإلزام الخصم، فإن الكلام إذا كان ظاهراً جليّاً، ثم ذُكر على سبيل الاستفهام وفوّض الجواب إلى المسؤول، يكون أوقع في النفس، وأبلغ في الدلالة على الغرض»[3].

وقال أيضاً صاحب «فتح البيان في مقاصد القرآن»: «ثم لمّا بيّن الله - سبحانه - فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس، والموت والحياة، والابتداء والإعادة، والإرشاد والهدى، وبنى - سبحانه - الحجج على

---

(1) يونس 34 - 35.

(2) نفسها 31.

(3) تفسيره 4/ 102.

الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقيقة التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك. وهذه أسئلة ثمانية جواب الخمسة الأولى منهم وجواب الاثنين بعدها منه ـ ﷺ ـ بتعليم الله إيّاه لعدم قدرتهم عليه، وجواب الأخير لم يذكر لشهرته والعلم به»[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[2]. ففي هذه الآيات الكريمة ثلاثة أسئلة وردت عن طريق الأمر الموجه للرسول ـ ﷺ ـ توبيخاً للمشركين وإلزامهم الحجة على وحدانيته، وكمال قدرته، وجوابها جميعاً الاعتراف بأن الله هو الخالق والمالك لكل شيء، ومع ذلك يُصرُّون على إنكار وحدانيته وعبادة غيره ـ تعالى ـ ممّا لا ينفع ولا يضر.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5].

---

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن 4/ 260.
(2) المؤمنون 84 ـ 89.
(3) العنكبوت 61.
(4) العنكبوت 63.
(5) الزخرف 9.

وهكذا فقد واجه القرآن الكريم في تصريف بيانه المنكرين للتوحيد بما لا يستطيعون إنكاره؛ لوضوح دلائله، ولذلك استخدم معهم أسلوباً تستيقظ به فطرتهم على التوحيد، مما يظهر عجزهم ويجعل العناد والمكابرة أمراً لا يستند إلى دليل.

وأحياناً أخرى يقدم السؤال مذكّراً بقدرته العظيمة في الخلق والإبداع، وذلك من باب التنويع والتفنن في إيراد الحجج والدلائل الدالة على وجود الله ـ تعالى ـ ووحدانيته، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

إن في هذه الآية الكريمة حضّاً على النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء في هذا الكون العجيب؛ للوصول إلى معرفة الله ـ تعالى ـ وتوحيده، وفيها أيضاً توبيخ وإنكار على المشركين لعدم إيمانهم مع وضوح دلائل توحيده وكمال قدرته.

قال صاحب «براهين وأدلة إيمانية»: «إنكار عليهم في تركهم لهذا النظر المطلوب، وهو التفكير في الظواهر؛ لاستنباط دلالاتها، والانتقال من الآيات والعلامات التي فيها، إلى ما تدلّ عليه دلالةً حتميةً لا يرفضها عاقل حصيف منصف يعرف الحق بالنظر والتأمل.

وإذا كانوا قد نظروا ففي هذا الاستفهام إنكار عليهم إذ لم ينتقلوا بأفكارهم من آيات الظواهر، إلى ما تدلّ عليه حتماً من صفات بارئها ومتقنها، وواضع كل شيء فيها بعناية بالغة، وأنه واحد أحد في رُبوبيته لا شريك له، وواحد أحد في إلهيته فلا شريك له»[2].

---

(1) الأعراف 185.

(2) براهين وأدلة إيمانية ص 22 ـ 23.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾[2].

ففي هذه الآيات الكريمة تذكير بقدرة الله ـ تعالى ـ على الخلق والإبداع، وتحمل في ضمنها توبيخ المشركين والإنكار عليهم في عبادتهم غير الله ـ تعالى ـ الواحد الأحد، الخالق، المبدع، العزيز الحكيم.

ومن ثم نستطيع القول إن في تصريف هذا البيان تبكيتاً وتقريراً وتوبيخاً للذين لا يؤمنون بوحدانية الله ـ تعالى ـ الدالة على وجوده مخلوقاته التي يرونها في أنفسهم وفي الكون من حولهم، وينتفعون بها في حياتهم في كل حين، ذلكم هو الجحود لنعم الله ـ تعالى ـ التي استحقوا بشأنها التبكيت والتوبيخ.

وأما النوع الثالث من آيات الأنفس والآفاق فهو الجمع بين الأسلوب التقريري وأسلوب التلقين والإنكار والتوبيخ كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[3].

---

(1) الطور 35 ـ 36.

(2) الواقعة 58 ـ 59.

(3) النمل 60 ـ 64.

اجتمع في هذه الآيات الكريمة أسلوب التلقين والإنكار والتوبيخ مع الأسلوب التقريري، وذلك في صورة أسئلة من الأنفس والآفاق لا يستطيع المشركون إنكارها.

وذلك ما أشار إليه صاحب «في ظلال القرآن» إذ قال: «في هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس لا يملكون إنكار وجودها، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر الحكيم»[1].

وهكذا فقد وردت هذه الأسئلة متتابعةً، يأتي بأسلوب التلقين والإنكار على المشركين، وفيه توبيخ لهم، ثم يقرنه بالأسلوب التقريري الّذي يبين قدرة الله ـ تعالى ـ، على هذه المخلوقات، وبديع صنعه.

وقد نوَّع هذه الأدلة تنويعاً بديعاً، تنبئ عن عظمة الله ـ تعالى ـ وتُقَرِّر وحدانيته، وتكشف عن إعجاز القرآن الكريم وسره البياني.

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

بدأت الآية الكريمة بالأسلوب التقريري الّذي يبين دلائل القدرة وكمال الوحدانية، وتحمل في ضمنها الامتنان على عباده بنعمة الرزق في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾.

ثم قرنها بأسلوب التلقين والإنكار والتوبيخ، منزّهاً نفسه في قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

قال سيد قطب: «فهو سؤال للنفي في صورة التقريع غير محتاج إلى جواب»[3].

---

(1) في ظلال القرآن 5/ 2654.

(2) الروم 40.

(3) نفسه ص 2772 ـ 2773.

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾[1].

بدأت الآيات الكريمة بأسلوب التلقين والإنكار والتوبيخ ثم قرنه بالأسلوب التقريري، الّذي يبين الدلائل الدالة على وجود الخالق العظيم، وبديع صنعه.

يتبين لنا من العرض السابق أن القرآن الكريم يُصَرِّف آيات الأنفس والآفاق بطرائق شتى وأساليب مختلفة، مُنَوِّعاً تلك الدلائل تنويعاً عجيباً، ينبئ عن بلاغة القرآن العالية، وحكمته البالغة، وأسلوبه البديع، وذلك بقصد إثبات الوحدانية لله ربّ العالمين.

وهو حين يُصَرِّفها بهذه الكثرة يقصد منها إيقاظ العقول؛ لتنهض بواجبها نحو خالقها، ويناقش المشركين وغيرهم؛ لإفحامهم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، بطريق التنويع العجيب والتناسق البديع.

إن تلك الدلائل شاهدة بعظمة الله ووحدانيته، وناطقة بعظمته في خلق هذا الكون العجيب، وتدعو الناس إلى النظر في خلق الله والتأمل في هذا الكون البديع، المحكم الخلق والإبداع.

والقرآن الكريم في تصريفه لتلك الدلائل يدعو إلى معرفة الخالق وتوحيده وعبادته حق العبادة، وألاّ يشركوا به غيره.

كما أنه في تصريف تلك الدلائل يعرض نعم الله على عباده التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، مذكّراً بها، وأنّه يقرن هذه الدلائل ببيان الوحدانية وإثبات الألوهية لله ربّ العالمين.

---

(1) ق 6-11.

إن هذا التنويع البياني سنراه أيضاً في الدراسة اللاحقة التي سنتكلم فيها عن أنواع أخرى من الأساليب التي تنوّعت في آيات التوحيد، وإبطال الشرك واعتقادات المشركين، وذلك على سبيل المثال لا الحصر؛ لأن المقام لا يتسع لاستقرائها جميعاً.

كما سنكتفي أيضاً بإيراد بعض الأمثلة عن كل نوع من أنواع الأساليب محل الدراسة.

ثانياً: الأسلوب الإخباري:

ورد الأسلوب الإخباري المؤكد لوحدانية الله - تعالى - في كثير من الآيات الدالة على إثبات التوحيد لله ربّ العالمين، يصعب استقصاؤها، ولذلك نكتفي بذكر أمثلة منها، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1]. ففي هذه الآية الكريمة أكد المولى - عزَّ وجلَّ - قدرته على الخلق والإبداع من خلال ما ذكره من دلائل واضحة وبراهين ساطعة.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾[2]. فهذا الأسلوب تناول الإخبار بأدلة أخرى غير التي سبق ذكرها، دالة على قدرته تعالى وبديع صنعه.

وجاء الإخبار مؤكداً الربّوبية لله ربّ العالمين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[3]. ونظائرها كثيرة.

---

(1) الأنعام 95.
(2) نفسها 141.
(3) الأعراف 54.

وجاء الإخبار مبيناً قدرته ـ تعالى ـ على الخلق والإبداع بأدلة متنوعة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[1].

وقد ورد الإخبار مبيناً دلائل القدرة الإلهية، الدالة على وحدانيته، ومذكّراً بنعمه الجليلة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

ففي هذه الآيات والتي سبقتها أخبار متوالية مؤكدة لبديع صنع الله ـ تعالى ـ ومذكرة بنعمه الجليلة.

ثالثاً: أسلوب القَسَم:

أقسم القرآن الكريم على إثبات التوحيد لله ربّ العالمين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾[4].

بدأت هذه الآيات الكريمة في تصريف بيانها بالقَسَم في قوله ﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ ﴾ ثم بعدما

---

(1) يونس 5، 6.
(2) النحل 10 ـ 18.
(3) الروم 20 ـ 24.
(4) الصافات 1 ـ 4.

عطف عليها من الآيات ما عطف جاء التوحيد صريحاً جواباً للقسم مؤكداً بإنّ، حتى لا يكون هناك شك في وحدانيته - تعالى -، وهو من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

قال الرازي: «والوجه الثاني في الجواب أنه - تعالى - لمّا أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ ذكر عقيبة ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً، وهو قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴾[1]. وذلك لأنه - تعالى - بين في قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2]. أن انتظام أحوال السّموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فهنا لمّا قال: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ أردفه بقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴾ كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً، فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد»[3].

رابعاً: أسلوب الوصف:

استعمل القرآن الكريم أسلوب الوصف المثبت لتوحيد الله - تعالى - وبيان صفاته العظيمة، وسنكتفي منه بذكر ثلاث آيات متشابهة وهو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[5].

---

(1) الصافات 5.

(2) الأنبياء 22.

(3) تفسيره 26/ 118.

(4) الأنعام 102.

(5) الزمر 6.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1]. اتفقت هذه الآيات في مضامينها، وهو وصف المولى - سبحانه وتعالى - بالربوبية، فكلها بدأت باسم الإشارة متبوعاً بلفظ الجلالة، معقباً بمطلق الملكية والربوبية، وهو من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

غير أنها اختلفت في بعض الأساليب المعبر بها، دلالة على التصريف ونفياً للتكرار، وفيما يلي أُفَصِّل القول في هذه الآيات؛ لنتبين منها ذلك التصريف البديع والحكمة العظيمة التي أرادها الله من تصريف هذه الآيات.

فالآية الأولى - كما قلنا - بدأت باسم الإشارة: ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ لأجل التنبيه والتأكيد على وجود الصانع الحكيم، ذلكم الخالق العظيم.

ثم أتبع ذلك بلفظ الجلالة معقباً بمطلق الربوبية دون عطف، وفي ذلك من قوة الدلالة وبلاغة التعبير ما لا يخفى، ذلك أن التعبير بلفظ ﴿ رَبِّ ﴾ مضافاً إليهم بعد لفظ الجلالة من الصفات المسلم بها عند المخاطبين بالقرآن.

ثم أعلن أنه المنفرد بالألوهية بقوله تعالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ثم عقب ذلك بصفة من صفاته العظيمة، وهي صفة الخلق والتكوين فقال تعالى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فبهذا بين أنه خالق كل شيء، لذلك استحق العبادة، إذ جاء الأمر بها بقوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

أما الآية الثانية، فبدأت بما بدأت به الآية الأولى، ثم بيّنت أن الله ربّ العالمين، له الملك، وذلك مطلق الملكية، ثم أخبر بانفراده بالألوهية المقتضية الوحدانية، ثم ختم الآية بالاستفهام الإنكاري، تعجباً من انصرافهم عن عبادة الله وتوحيده، فقال تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

---

(1) غافر 62.

وأما الآية الثالثة فبدأت كذلك بما بدأت به نظائرها، ثم أعقبها بصفة الخلق التي جاءت في الآية الأولى بعد الإخبار بانفراده بالألوهية، وهذا الفارق البيّن ينفي التكرار عن هذه الآيات، وقد ختم الآية بالاستفهام الإنكاري مثلما ختم به الآية الثانية، غير أن هناك فرقاً في اللفظ بين ﴿ تُصۡرَفُونَ ﴾ و﴿ تُؤۡفَكُونَ ﴾ وأما الدلالة فواحدة.

وقد أشار الأستاذ أبو زيد إلى أن آية الأنعام قدم فيها الوصف بالوحدانية لما تقدم قبلها من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ ﴾[1]. وقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾[2]. فلمّا تقدم هذا في السياق كان نفي ما جعلوه وادَّعوه من الشركاء والصاحبة والولد أنسب، فقدم قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ لأن السياق كان في تقرير وحدانية الله ـ تعالى ـ وتنزيهه عن الشركاء والولد.

وأما آية غافر فقد تقدم في سياقها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾[3]. ثم قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾[4]. فلمّا تقدم ذكر الخلق الأعظم، ولم يتقدم مثل ما تقدم في آية الأنعام، أعقب ذلك بالتنبيه على أنه ـ سبحانه ـ خالق كل شيء، فكان تقديم هذا الوصف هنا أنسب للسياق والمقام، فجاء ترتيب الوصفين في كل من الآيتين على ما يقتضيه انتظام الكلام[5].

---

(1) الأنعام 100.

(2) نفسها 101.

(3) آية 57.

(4) آية 61.

(5) التناسب البياني في القرآن ص 202.

خامساً: أسلوب الأمر:

جاءت الأمر بالتوحيد في آيات كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

تضمنت سورة الإخلاص من أولها إلى آخرها، الأمر بتوحيد الله ـ تعالى ـ ولذلك قيل: إنها «تعدل ثلث القرآن» لما فيها من التوحيد[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[3].

تضمنت سورة الكافرون هي الأخرى، الأمر بالتوحيد والتبرؤ من الشرك، وقد ذكر ابن القيم أن الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ بخلاف، قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لبعد ما فيها من معنى الشرط تنبيهاً من الله على عصمة نَبِيِّه أن يكون له معبود سواه، وأن يَتَنَقَّل في المعبودات تنقّل الكافرين، ذلك أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة، وباسم الفاعل أخرى، فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة، وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع

---

(1) الإخلاص 1 ـ 4.

(2) صحيح البخاري 4/ 1616 وموطأ الإمام مالك 1/ 208 والمحرر الوجيز 5/ 537 وجواهر القرآن ص 47، وتفسير أوائل سورة الدخان، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي، تحت رقم ع 145 ص 8 ومجلة كلية الدعوة الإسلامية طرابلس العدد الثالث عشر 1996 إفرنجي، تقييد على سورة الإخلاص لمحمد عبد الرحمن بن زكري، تقديم وتحقيق عبد الله محمد النقراط ص 245.

(3) الكافرون 1 ـ 6.

منّي وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفاً، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لمّا عبدتم غيره، فلستم من عابديه، وقد اشتملت هذه السُّوَرة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السُّوَرة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها، أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً[1].

سادساً: أسلوب النهي:

استعمل القرآن الكريم أسلوب النهي لإقامة التوحيد، وإبطال الشرك والوثنية، وذلك في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، حسب المقام ومقتضيات الأحوال، نورد منه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[2].

جاء هذا النهي عقب الأمر الموجه للناس عامة بعبادته، وبيان دلائل خلقه، وبديع صنعه؛ لأنه لمّا ذكر تلك الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، على كمال قدرته واستحقاقه للتوحيد والعبادة وحده، أعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ الأنداد، والأشباه والنظراء، وختم الآية بما يناسبها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ لأنهم يعلمون يقيناً أن هذه الدلائل التي عددها هي من بديع صنع الله ـ تعالى ـ لا من الأنداد التي لا تضر ولا تنفع. وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾[3].

---

(1) بدائع الفوائد 1/ 124 ـ 125.

(2) البقرة 22.

(3) النساء 36.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾[3].

وقد جاء النهي في بعض هذه الآيات موجهاً للرسول ـ ﷺ ـ والمقصود أمته؛ لأنهم عن طريقه يتلقون التعاليم؛ وليكون ذلك آكد في النهي عن الشرك، والتصديق بالله ـ تعالى ـ الواحد الأحد، الّذي لا إله غيره، ولا معبود سواه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[4]. ففي هذه الآية الكريمة إعلان للتوحيد الخالص، والأمر بالإخلاص لله في العبادة، والنهي عن الشرك.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[6]. فأسلوب النهي في هذه الآيات، وإن كان موجهاً للرسول ـ ﷺ ـ فالمقصود به المشركون أيضاً؛ لأن ذلك مستحيل في حقه ـ ﷺ ـ وهو رسول الهدى، الّذي يبين التوحيد، وغيره من تعاليم الإسلام.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[7]. فالنهي في هذه الآية موجّهٌ للمشركين، وهو نهي عن عبادة الأصنام والأوثان، وكل مدعو من دون الله، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[8].

---

(1) الأنعام 14.

(2) الإسراء 22.

(3) نفسها 39.

(4) الكهف 110.

(5) الشعراء 213.

(6) القصص 87 ـ 88.

(7) الذاريات 51.

(8) الجنّ 18.

جاء هذا النهي عقب الوحي إلى الرسول - ﷺ - الّذي يبين أن المساجد لله - تعالى - لذلك جاء النهي عن دعوة غير الله - تعالى - والمقصود إفراد الله - تعالى - بالتوحيد، والإخلاص له في العبادة وحده.

سابعاً: أسلوب الحصر:

أثبت التصريف القرآني توحيد الله - تعالى - عن طريق أسلوب الحصر كما في الآيات الآتية:

1 - قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾[1].

2 - قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[2].

3 - وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[3].

4 - وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[4].

5 - وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[5].

6 - وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[6].

ففي هذه الآيات الكريمة جاء ذكر التوحيد صريحاً، مقترناً بذكر الوحي والنُّبوَّة؛ لأنه أصل من أصول العقيدة، ولا يكتمل إلا بهما معاً.

ففي الآية الأولى أثبت البيان القرآني، أن عيسى رسول الله، وليس ابن الله - كما يزعم أهل الكتاب - وأمرهم بالإيمان بالله ورسوله ونهاهم عن القول بالثلاثة،

---

(1) النساء 171.

(2) الأنعام 19.

(3) إبراهيم 52.

(4) الكهف 110.

(5) الأنبياء 108.

(6) فصلت 6.

وحصرت الآية الألوهية في إله واحد، فعبرت بإنما التي تفيد الحصر، ونَزَّهتْه عن الولد، وبينت أن كل من في السموات والأرض مُلْكٌ له وحده.

وأما الآية الثانية فأمرت بالتبرُّؤ من شهادة اليهود الّذين جعلوا مع الله آلهة أخرى، وإعلان التوحيد الخالص لله ربّ العالمين، والتبرُّؤ كذلك من إشراكهم.

وقد حصرت الآية الألوهية في إله واحد، فعبرت بإنما التي تفيد الحصر، ثم عطف عليها تبرُّؤ الرسول ـ ﷺ ـ، من إشراكهم، فذلك من بلاغة تصريف القرآن وتفنُّن أساليبه فالآية ليست مكررة في نفسها ولا مع غيرها.

وأما الآية الثالثة فتنوَّع البيان فيها بإعلان التوحيد الخالص، وحصرت الألوهية في إله واحد، وهو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وذلك بإنما التي تفيد الحصر، وقد اختلفوا في المشار إليه بهذه الآية فقال الرازي: «أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة، ثم اختلفوا فقيل: إن قوله: هذا، إشارة إلى كل القرآن، وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السُّوَرة، وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[(1)].

وأما الآية الرابعة، فقد اقترن فيها التوحيد بالوحي، وفيها إثبات لبشرية الرسول ـ ﷺ ـ وإثبات الوحي الّذي فيه إثبات الوحدانية، والنهي عن الشرك، فذلك من باب التفنن البديع، والتصريف العجيب.

قال الرازي: «إن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر، وهو قوله: ﴿ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[(2)].

وأما الآية الخامسة، فتنوَّع القول فيها بإعلان التوحيد، الّذي هو المقصود الأول من إرسال الرسل، وأنه الأساس الّذي يبنى عليه الإسلام.

---

(1) إبراهيم 42 ـ 51 وانظر التفسير الكبير 19/ 153.

(2) نفسه ص 178.

وقد تنوع البيان القرآني في غير ما مرّة بأمر النبي محمد ـ ﷺ ـ أن يُبلِّغ أن الله ـ تعالى ـ أوحى إليه أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الّذي لم يلد، ولم يولد.

وأما الآية السادسة فتنوَّع البيان فيها بإثبات النُّبُوَّة، وإثبات التوحيد، وذلك لأن من وظائف النُّبُوَّة إثبات التوحيد الخالص، والدعوة إلى عبادة الله ـ تعالى ـ والعمل بشرائع الله.

يتبين لنا من هذه الآيات، أن القرآن الكريم يُصَرِّف الآيات بأسلوب الحَصْر، الدال على التوحيد الخالص لله ربّ العالمين.

وقد جاءت هذه الآيات مقترنة بذكر الوحي والنُّبُوَّة، بصورة مُطَّردة؛ لأنه أصل من أصول العقيدة، ولا يكتمل الإيمان إلا بهما معاً؛ ولأن من وظيفة الوحي والنُّبُوَّة إثبات التوحيد الخالص، والدعوة إلى عبادة الله والعمل بأوامره.

وقد حصرت هذه الآيات الألوهية في إله واحد، فعبرت بإنما التي تفيد الحَصْر.

وقد نوّع القول في بعضها بأمر النبي ـ ﷺ ـ بالتبرّؤ من الشرك، ذلك أن التوحيد هو المقصود الأول من إرسال الرسل، وأنه الأساس الّذي يبنى عليه الإسلام.

إن هذه الآيات ليست مكررة في نفسها ولا مع غيرها ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ لاختلاف أسباب نزولها؛ ولاختلاف سوابقها ولواحقها.

فالآية الأولى بدأت بتوجيه الخطاب لأهل الكتاب؛ لأنهم المخاطبون بالنهي عن الغُلُوّ في الدين، وعن قول غير الحق، وحصرت عيسى ـ عليه السلام ـ، في الرسالة لا يتجاوزها، وختمت ببيان ملكية الله المطلقة لكل من في السموات والأرض.

وأما الآية الثانية فقد بدأت بأمر النبي ﷺ بأن يقول: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ ثم أمرته بأن يجيب: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[1]. وختمت بالتَبَرُّؤ من الشرك، فذلك من تصريف البيان وإقامة الحجة والبرهان.

(1) الأنعام 19.

وأما الآية الثالثة فبدأت باسم الإشارة ﴿ هَـٰذَا ﴾ وختمت بأن ذلك لأجل أن يتذكّر أولو الألباب. وأما الآية الرابعة فبدأت بالأمر وختمت بالتوحيد.

وأما الآية الخامسة فبدأت بأمر النبي - ﷺ - بأن يُبَلِّغ بأن الله واحد، وختمت بالاستفهام الّذي مفاده الوعيد الشديد.

وأما الآية السادسة، فبدأت بأمر النبي - ﷺ - بأن يُبَلِّغ أنه بشر وأن الله واحد وختمت بالتوحيد، ذلك من بلاغة القرآن وتفنن أساليبه.

ثامناً: أسلوب الإضراب:

استعمل القرآن الكريم أسلوب الإضراب، وذلك بقصد الإضراب على أقوال الّذين يدعون ما لا يليق بجلال الله وعظمته، مثبتاً التوحيد لله - عزّ وجلّ - والملك والإبداع كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

ذكر الخروبي أن في قوله تعالى: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إضراباً منه - تعالى - على قولهم ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ وأثبت أن له ما في السموات والأرض ملكاً له، ومن جملته ما ادَّعيتم أنه له ولد[2].

تاسعاً: أسلوب التهديد والوعيد:

استعمل القرآن الكريم التهديد والوعيد؛ ليقيم التوحيد الخالص لله ربّ العالمين، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[3].

---

(1) البقرة 116 - 117.

(2) رياض الأزهار وكنز الأسرار، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 22362 ص 213.

(3) إبراهيم 30.

إن في هذه الآية الكريمة تهديداً ووعيداً شديداً، للكافرين وذلك لأنهم جعلوا لله نظراء يعبدونهم من دونه ـ تعالى ـ فاستحقوا بذلك التهديد والوعيد؛ جزاء أعمالهم.

وهكذا فإن السر في هذا التصريف إظهار التهديد والزجر بأسلوب مقنع، يصوّر مصير هؤلاء الضّالّين عن الحقّ، المتّبعين ما لا يضرّ ولا ينفع، حتى ينتهوا عن الكفر والضلال.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1]. توعّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية الّذين يجعلون شريكاً لله ـ تعالى ـ في عبادته، وعيداً شديداً، بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2]. في هاتين الآيتين تهديد ووعيد للكافرين لاستكبارهم وابتعادهم عن التوحيد، والتعبير بضمير العظمة ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ للدلالة على تحقّق هذا الجزاء للكافرين، الّذين لا يؤمنون بالله ـ تعالى ـ ويستكبرون عن عبادته.

عاشراً: أسلوب الالتفات:

ورد إثبات التوحيد عن طريق الالتفات في آيات كثيرة يصعب استقصاؤها، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[3]. فقد بدأ الخطاب ببيان قدرة الله بتسيير خلقه في البر والبحر، ثم

(1) الحجر 96.
(2) الصافات 34 ـ 35.
(3) يونس 22.

تصرَّف إلى الغيبة، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ والسر في هذا التصريف هو بيان قدرة الله - تعالى - وحكمته البالغة في خلقه، وتسخير الكون لهم.

قال ابن الأثير: «فإنه إنما صرَّف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنّه ذكر لغيرهم حالهم، ليُعجّبهم منها، كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو تصرَّف الكلام بخلاف ذلك لذهبت تلك الفائدة التي انتجها خطاب الغيبة».

وعد من هذا القبيل أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾[1].

ثم قال: «الأصل في ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ تقطعتم عطفاً على الأول إلا أنه صرَّف الكلام من الخطاب إلى الغيبة، على طريقة الالتفات، كأنّه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبّح عندهم ما فعلوه»[2].

ثم تعقَّبه صاحب كتاب «الإكسير في علم التفسير» بقوله: «هذا وإن كان محتملاً إلا أن ظاهر الكلام وسياقه خلافه، وهو أنه - تعالى - خاطب المؤمنين بأن الأمة واحدة، وأنه الربّ المستحق بأن يتقى ويعبد، ثم أخبر المؤمنين عن الكافرين بأنهم تقطعوا أمرهم بينهم، وأنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وعدلوا بالعبادة والتقوى عن مستحقها ووضعوها في غير حقها، وفعلوا من التقوى خلاف ما يقتضيه اتحاد الأمة»[3]. والسر في بلاغة هذا التصريف أنه في الآية الأولى تتحدث عن عقيدة التوحيد التي يأمرنا الله بالاعتصام بها، والالتفاف حولها.

وأما الآية الثانية فهي إخبار عن هؤلاء الّذين انحرفوا عن تلك العقيدة ومزقوا دينهم، وعلى ذلك فإن هذا التصريف فيه إيحاء بأن هؤلاء بصنيعهم هذا قد ابتعدوا عن رحمة الله، ولم يعدوا أهلاً لخطابه - جل شأنه -.

---

(1) الأنبياء 92 - 93.

(2) المثل السائر 2/ 181 - 182.

(3) الإكسير في علم التفسير ص 143.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[1].

تضمنت هذه الآيات الكريمة في تصريف بيانها، إقامة الحجة والبرهان على توحيد الله ـ تعالى ـ الواحد الأحد، وبذلك تنوعت الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة، إذ بدأت الآيات بالنهي عن اتخاذ الآلهة، وحصرت الإله المتصف بالوحدانية في الإله الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لا يتعدد.

ومما يؤكد صفة الوحدانية، ونفي تعدد الألوهية ما ورد من تصريف بديع، وبيان عجيب، حين الانتقال في الأسلوب من الغيبة إلى التكلم، وفي ذلك من البراعة ما لا يخفى، ذلك أن في هذا الانتقال ترهيباً للذين يدّعون تعدد الألوهية ولا يؤمنون بالإله الواحد، وهو ما أوضحه صاحب الكشاف إذ قال: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب»[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾[3].

أوضح ابن الأثير فائدة التصريف في هاتين الآيتين فقال: «وإنما قيل ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ ﴾ وهو خطاب للحاضر بعد قوله: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ وهو خطاب للغائب، لفائدة حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم، بالجرأة على الله ـ تعالى ـ والتعرُّض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه، منكراً عليهم، وموبّخاً لهم»[4].

---

(1) النحل 51 ـ 54.

(2) الكشاف 2/ 413.

(3) مريم 88 ـ 89.

(4) المثل السائر 2/ 175.

الحادي عشر: أسلوب التقابل:

يعتبر التقابل في القرآن الكريم من أبرز سماته البيانية، وذلك ما أكده الأستاذ أبو زيد، إذ قال: «إنّ التقابل من أبرز أساليب نظم المعاني وأوضح مظاهر التناسب في القرآن، وهو من طرق البيان التي تجد فيها المعاني معرضاً للوضوح والجمال، التي تجد فيها النفوس لذة وسروراً»[1].

والقرآن الكريم يتصرف فيه التقابل بطرائق شتى وأساليب متنوعة بقصد الموازنة بين ما يأمر به وينهى عنه، حتى يتبين الفرق الواضح بين أوامر الله ونواهيه، ومقاصده من تلك الأوامر والنواهي.

ومن ثم نستطيع القول: إن التقابل يتصرف موازناً بين التوحيد والشرك بقصد إثبات الأول ونفي الثاني وإبطاله، وبين الإيمان والكفر بقصد تحقيق الإيمان والتشويق فيه، وطلب الابتعاد عن الكفر والتنفير عنه.

وقد يقابل بين السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنور والظلمات، استدلالاً على وجود الله، وكمال ألوهيته واستحقاقه للتوحيد والعبادة وحده.

ومن هنا سأقتصر في هذا المطلب على بعض الأمثلة؛ لأن المجال لا يتّسع لاستقرائها كاملة، إذ سيكون الحديث عن بعض صور التقابل الأخرى في موضعه من هذا البحث - إن شاء الله تعالى - لنتبين منها ذلك التصريف العجيب، والتناسق البديع، والمقاصد السامية، المرادة من ذلك التصريف، فمن التقابل ما يتنوع بقصد إثبات التوحيد، ونفي الشرك وإبطاله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[2].

(1) التناسب البياني في القرآن ص 129.

(2) البقرة 163.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[1].

نجد في هاتين الآيتين الكريمتين، تقابلاً بين إثبات التوحيد لله ربّ العالمين، وبين نفيه عن غيره، ممن يدعونه إلهاً، والإثبات والنفي ضدان، وهو كما قال أبو السعود في توجيهه للآية الأولى: «خطاب عام لكافة الناس، أي المستحق منكم للعبادة ﴿ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي فرد في الإلهية لا صحة لتسمية غيره إلهاً أصلاً، فهو مقرر للوحدانية ومزيح لما عسى يتوهم أن في الوجود إلهاً لكن لا يستحق العبادة»[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[3]. قال صاحب «الطراز»: «فقابل الأمر بالنهي، وهما ضدّان»[4].

والسر في ذلك، هو الأمر بالتوحيد، والتذلل بالطاعة والخضوع لله ربّ العالمين، وفي الجانب الثاني: نهى عن الشرك وإبطاله، ذلك مقصد القرآن من تصريف هذه الآية، وهو إثبات التوحيد والأمر بعبادة الله، والنهي عن الشرك الّذي هو ضد التوحيد.

ومن التقابل ما يتصرف بقصد إثبات التوحيد بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[5].

---

(1) البقرة 255.

(2) إرشاد العقل السليم 1/ 183.

(3) النساء 36.

(4) الطراز 2/ 379.

(5) البقرة 164.

وقولـه تعـالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[1]. ففي الآية الأولى قابل بين خلق السموات والأرض، وقابل بين اختلاف الليل والنهار، وفي الآية الثانية، قابل بين السموات والأرض وبين الظلمـات والنـور، وكلها دلائل محسوسة، استدل بها على وحدانيته، وكمال قدرته.

تلك هي بلاغـة القـرآن وحكمـة تصريفـه في إيراد الحجـج الواضحـة والـبراهين السـاطعة، لمن استعمل عقلـه وتـأمّل في هـذا الكـون العجيـب، الّـذي يـدل دلالـة واضحـة، علـى القـدرة الإلهيـة العظيمـة التـي كـانت مـن وراء خلقـه وتكوينـه، قــال تعـالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[2].

وقــال تعــالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[4]. وقال تعـالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[6].

ففـي الآيـة الأولـى قـابل الصبـح بـالليل، والشـمس بـالقمر، وفي الثانيـة قابل ضياء الشمس بنور القمر، وفي الثالثة قابل الشمس بالقمر، وفي الرابعة قـابل

(1) الأنعام 1.
(2) نفسها 96.
(3) يونس 5.
(4) لقمان 29.
(5) فصلت 37.
(6) نوح 16.

الليل بالنهار، والشمس بالقمر، وفي الخامسة قابل نور القمر بنور الشمس وضيائها.

وهذا النوع كثير في القرآن الكريم، والقصد من تنويعه، إثبات التوحيد والاستدلال على كمال القدرة الإلهية بالدلائل الواضحة والحجج الساطعة.

وقد يتنوع التقابل بقصد تثبيت المؤمنين على الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فبعدما بين مكايد الكافرين ونيّتهم اتجاه المسلمين، حتى يردوهم عن دينهم، قابل بين الّذين يرتدون عن دينهم وبين الّذين آمنوا، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وذلك لأجل تثبيت المؤمنين على إيمانهم، وبيان عاقبة المرتدين.

قال أبو السعود: «تحذير من الارتداد، ومن يفعل ذلك بإضلالهم وإغوائهم، وفيه ترغيب في الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد»[2].

وقد يكون التقابل بين الإيمان والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

---

(1) البقرة 217 ـ 218.

(2) إرشاد العقل السليم 1/ 217.

(3) البقرة 256 ـ 257.

تنوَّع التقابل في هذه الآيات بقصد تحقيق هدف واحد، وهو الإيمان ونفي وإبطال ضده، وهو الكفر.

وقد جاءت هذه المقابلات كما قيل: «إثر بيان تفرُّده - سبحانه وتعالى - بالشؤون الجليلة الموجبة للإيمان به وحده، إيذاناً بأن من حق العاقل أن لا يخرج إلى التكليف والإلزام بل يختار الدّين الحق من غير تردّد وتلعثم»[1].

ومن هنا فقد قابل الرشد بالغيّ، فالرشد - على ما ذكروا - الإيمان الموصل إلى السعادة الأبدية، والغيّ: الكفر المؤدي إلى الشقاوة السرمدية[2]. وهما ضدان وقيل: الغيّ: مصدر من غوي يغوى إذا ضلّ في معتقد، ولا يقال الّذي في الضلال على الإطلاق[3].

وقابل الكفر بالطاغوت الّذي هو: «الشيطان أو الأصنام أو بكل ما عبد من دون الله - تعالى - أوصد عن عبادته - تعالى -»[4]. بالإيمان بالله: «وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به - عزَّ وجلَّ - الموجبة للإيمان والتوحيد»[5].

ثم بين الغاية الكبرى من وراء هاتين المقابلتين، وهو التمسك بالإيمان به - سبحانه وتعالى - دون غيره، ولأهمية ذلك ختمها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد بين سر الختم بذلك ابن عطية فقال: «ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات ﴿سَمِيعٌ﴾ من أجل النطق، و﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل المعتقد»[6].

---

(1) إرشاد العقل السليم 1/ 249.

(2) نفسه.

(3) المحرر الوجيز 1/ 344.

(4) إرشاد العقل السليم 1/ 250.

(5) نفسه.

(6) المحرر الوجيز 1/ 344.

وقال أبو السعود: «والجملة اعتراض تذييلي حامل على الإيمان، رادع عن الكفر والنفاق بما يفيد من الوعد والوعيد»[1].

ثم قابل في الآيتين الثانية والثالثة بين ولاية الله للذين آمنوا وما أعظمها من ولاية!! ورتب عليها المقابلة الثالثة، وهي إخراجهم من الضلال إلى الهدى، والمراد: الإيمان، وبين ولاية الطاغوت، للذين كفروا، وما أذلها من ولاية!! لأنها تقود أهلها إلى النار، التي قال عنها ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ورتب عليها المقابلة الثالثة، وهي إخراجهم من الهدى إلى الضلال، والمراد: الكفر ـ والعياذ بالله ـ.

ومن ثم فإن السر في إيراد التقابل وتصريفه في هذه الآيات هو تثبيت الإيمان في نفوس أصحابه، وتحذيرهم من الكفر، وبيان عاقبته، تلك بلاغة القرآن في تصريف بيانه، وتحقيق مقاصده.

الثاني عشر: أسلوب المحاورات والمقاولات:

استعمل القرآن الكريم أسلوب المحاورات والمقاولات، لإثبات التوحيد ـ لله تعالى ـ، ونفي الشرك به، وإبطال اعتقادات المشركين الفاسدة، فمن ذلك ما نجده من محاورات ومقاولات بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه في قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴾[2].

---

(1) إرشاد العقل السليم 1/ 250.

(2) الأعراف 59 ـ 64.

ويتمثل هذا الأسلوب في دعوة نوح - عليه السلام - قومه إلى توحيد الله وعبادته، مبيناً لهم أنه ليس لهم معبود سواه، مبيناً سبب دعوته إليهم، وهو خوفه عليهم من عذاب الله، فقال عزّ وجلّ: ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم انتقل البيان إلى ذكر رد الأشراف والرؤساء من قومه، إذ رموه بالضلال المبين، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

ثم عاد إلى بيان رد نوح على قومه، إذ نفى عن نفسه ما ظنّوه به من الضلال، مبيناً لهم أنه مرسل من ربّ العالمين قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقد بين أيضاً مهمته المتمثلة في إبلاغ رسالة ربّه، وأنه ناصح لهم أمين على ذلك، وهو يعلم عن طريق الوحي ما لا يعلمون فقال عزّ وجلّ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وقد ساق القرآن الكريم هذا الأسلوب على لسان إبراهيم - عليه السلام - في محاورته لأبيه وقومه لإثبات التوحيد وإبطال عبادتهم للأوثان، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[1].

ذكر القرآن الكريم في هذه الآيات محاورة إبراهيم - عليه السلام - لأبيه وقومه في حقيقة هذه التماثيل، فقال: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[2].

---

(1) الأنبياء 51 ـ 70.

(2) آية 52.

ثم ذكر ردهم على إبراهيم ـ عليه السلام ـ، مبينين سبب عبادتهم للأوثان، وهو ردٌّ واه، معتمد على التقليد للآباء، فقال: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾[1].

ثم جاء رد إبراهيم ـ عليه السلام ـ مبيناً لهم أنهم وآباءهم في ضلال مبين، بعيدين عن الحق، فقال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

ثم ذكر حيرتهم في أمر إبراهيم، أجاءهم بالحق أم هو هازل لاعب؟ فقال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴾[3].

ثم انتقل إلى بيان ردّ إبراهيم، المستند على الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، مبيناً لهم أنه جاءهم من عند ربّهم الّذي خلق السموات والأرض، مبيناً كذلك أنه شاهد على أن الله هو الخالق دون ما سواه فقال تعالى: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾[4].

واستمر البيان يذكر موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من تلك الأصنام وعابديها، فأقسم مؤكداً على أذى الأصنام وتكسيرها بعد أن يخرجوا عنها؛ ليبين لهم عجزها، وأنها لا تصلح للعبادة؛ لأنها لا تستطيع أن تحمي نفسها.

وقد جعلها قطعاً مكسورة إلاّ كبيرهم؛ ليعتبروا ويعلموا أنها عاجزة لا تستطيع دفع الشّر، لا عن نفسها ولا عن عابديها، فقال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾[5].

---

(1) آية 53.

(2) آية 54.

(3) آية 55.

(4) آية 56.

(5) الآيتان 57 ـ 58.

ثم انتقل إلى حكاية سؤال خصوم إبراهيم وتهديدهم لمن كسّر الأصنام ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

واستمر في حكاية أقوالهم وتحاورهم بعضهم مع بعض في شأن الأصنام وتحطيمها فقال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[2].

ثم إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أفحم خصومه بالحجة الدالة على عجز آلهتهم عياناً. وذلك باستدراجهم إلى الاعتراف بعجز هذه الأصنام وهو مقصوده من تحطيمها وترك أكبرها؛ لأنها فاقدة القدرة على النطق، كما أنها فاقدة القدرة على أي شيء إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[3].

ثم إنتقل إلى ذكر اعترافهم بعجز هذه الأصنام، ولومهم على أنفسهم إذ قال: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾[4].

ثم ذكر البيان سخرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ من خصومه وأصنامهم وفي ذلك توبيخ لهم، وإنكار لعبادتهم لها؛ لأنها لا تضر ولا تنفع فقال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5].

---

(1) الأنبياء 59.
(2) الآيات 60 ـ 62.
(3) آية 63.
(4) الآيتان 64، 65.
(5) آية 67.

ثم انتقل إلى ذكر حكايتهم ، اتفاقهم على حرق إبراهيم ـ عليه السلام ـ نصراً لآلهتهم بعد أن أظهر إبراهيم عجزها بالحجة والبرهان، ومع ذلك فقد أصروا على عنادهم وكفرهم، إذ قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[1].

ثم انتقل البيان إلى ذكر الأوامر العليا، النافذة المستحقة للعبادة، وصدورها من العلي القدير، بأن تكون النار برداً وسلاماً على إبراهيم فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[2].

مبيناً أنهم أرادوا به كيداً، ولكن نجّاه الله منهم، وجعلهم الهالكين، فتلك محاورة بين الإيمان والشرك، تدحض الافتراءات والادعاءات الفاسدة بالدليل والبرهان.

وينقلنا القرآن الكريم إلى محاورة أخرى بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأبيه وقومه، لإثبات التوحيد وإبطال عبادة الأصنام، تختلف عن المحاورة الأولى التي ساقها القرآن الكريم عنهم، في بعض المعاني والأساليب، وقد ذكر البيان القرآني في هذه المحاورة طريقة إبراهيم في استدراج قومه في حواره معهم إلى الاعتراف بعجز آلهتهم التي لا تملك صفات القدرة والنّفع والضرّ، واعترافهم أيضاً بأنهم مقلدون، وهي حجة ضعيفة لا سند لها.

فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

---

(1) آية 68.
(2) الآيتان 69 ـ 70.
(3) الشعراء 69 ـ 77.

وينقلنا البيان القرآني إلى نوع آخر من محاورات إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهي محاورته لأبيه، التي بيّن له فيها أنه خاطئ في عبادته للأصنام والأوثان، مستدلاً على عدم استحقاقها للعبادة بأمور ثلاثة:

ـ أنها لا تسمع، وأنها لا تبصر، وأنها لا تدفع الضر عن عابديها، فهذه الأمور الثلاثة، بينةٌ في إظهار عجزها، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾[1].

ثم انتقل متلطفاً مع أبيه، إلى بيان دليل آخر، وهو أن الله آتاه من العلم ما لم يؤته، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[2].

ثم نهى أباه عن عبادة الشيطان؛ لأنه كان عاصياً للرحمن فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾[3].

ثم بين لأبيه سبب دعوته له، وذلك خوفه على أبيه من عذاب الله، فيكون ولياً للشيطان من دون الله، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[4]. ثم بين لنا رد أبيه الّذي ليس له حجة، يثبت بها صحة عبادته للأصنام والأوثان، مهدداً إبراهيم ومقابلاً التلطف بالقسوة والهجران، فقال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾[5].

---

(1) مريم 42.

(2) آية 43.

(3) آية 44.

(4) مريم 45.

(5) آية 46.

وقد أبان الحوار عن حلم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتلطُّفه مع أبيه، فهو لم يقابله بما قابله به، بل أعطاه الأمان، ووعده بأن يستغفر له ربّه؛ لأن ربّه لطيف به، ويستجيب دعاءه.

معلناً توحيده وابتعاده عنهم وعن أصنامهم، فقال تعالى ـ: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[1].

ذكر صاحب «التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم» أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سلك هذا المسلك مع خصمه في هذه الآيات خاصة أنه والده، وأحب الناس إليه وأحرص الخلق على هدايته، فقد تدرج معه في الدعوة من مرحلة إلى أخرى مع غاية التلطف ومراعاة الأدب، وحق الأبوة[2].

نكتفي بهذا القدر من بيان تنوُّع الأساليب الدالة على التوحيد وإبطال الشرك.

ويتضح لنا منها أن القرآن الكريم ينوّع هذه الأساليب بصور شتى وطرائق مختلفة؛ لتحقيق مقاصده العالية، في تناسق بديع، وتفنن عجيب، لا مثيل له في روعته وبيانه، ذلك أنه يأتي بالأسلوب المناسب في المكان المناسب؛ ليؤدي دلالاته التي لا يؤديها غيره في محله.

إن هذا التصريف يحقق التوحيد الخالص لله ربّ العالمين، ويبطل الشرك واعتقادات المشركين، وفيه أيضاً تمنٌّ على عباده ـ تعالى ـ بنعمه الجليلة التي لا تعد ولا تحصى، والتي أنعم بها عليهم وسخرها لمنافعهم ومصالحهم.

ومن ثم نستطيع القول: إن التنويع في الأساليب، والّذي يقابله التنويع في المعاني يكشف عن إعجاز القرآن الكريم، وسره البياني الرفيع.

---

(1) الآيتان 47 ـ 48.

(2) انظر التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم ص 104.

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

تصريف القول في آيات العقيدة

بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم

دلالة التصريف القرآني أولى من دلالة ولفظ التكرار

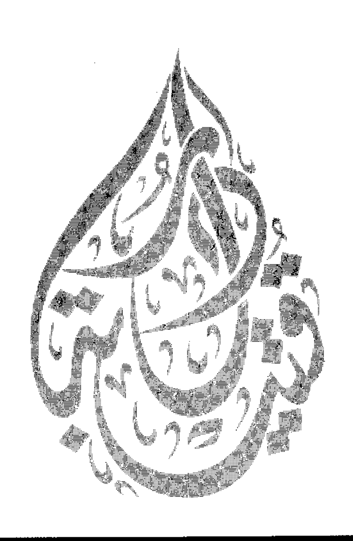
الجزء الثاني

الدكتور عبد الله محمد النقراط




بلاغة تصريف القول
في القرآن الكريم

الطبعة الأولى
1423 هـ - 2002 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

الفصل الثاني
تصريف القول في إثبات البعث والجزاء ومشاهد القيامة والحساب

المبحث الأوَّل
البعث والجزاء مصطلحه وأهميَّته

أوَّلاً: البعث والجزاء مصطلحه وأهميَّته:

يجدر بنا في البداية أن نبيِّن ما المقصود بالبعث الَّذي نحن بصدده فنقول: إنَّ كلمة البعث وردت في القرآن الكريم على ثمانية معان ـ كما ذكر ذلك الفيروز أباديّ ـ في كتابه «بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز».

والَّذي يهمُّنا من هذه المعاني، المعنى السابع، الَّذي يعني الإخراج من القبور، واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[1].

وأصل البعث: إثارة الشّيء، وتوجيهه، يقال بَعَثْتُهُ فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلّقَ به.

فالبعث ضربان: بشريٌّ، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة، وإلهيٌّ، وذلك ضربان: أحدُهُما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس، وذلك يختصُّ به الباري ـ تعالى ـ ولم يُقْدرُ عليه أحداً.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خصّ بذلك بعض أوليائه كعيسى ـ عليه السلام ـ وأمثاله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾[2]. يعني: الحشر[3].

وقال الزمخشريُّ: «ويومُ البعث: يوم يبعثُنا اللّه ـ تعالى ـ من القبور»[4].

---

(1) الحج 7، وانظر بصائر ذوي التميز 2/214.

(2) الروم 56.

(3) المفردات في غريب القرآن ص 52 ـ 53 (مادَّة بعث) والكلّيّات 1/ 423 فصل: الباء

(4) أساس البلاغة 1/ 53 (مادَّة بعث).

وقال ابن منظور: «بَعَثَهُ يَبْعَثُه بعثاً: أرسله وحده، وبعث به: أرسله مع غيره، والبعث أيضاً: الإحياء من اللّه للموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾[1]. أي أحييناكم، وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث، وبعثَ اللّه الخلق، يبعَثُهم بَعْثاً: نَشَرَهُم، من ذلك، وفتح عين الفعل (بعَث ـ يبعث في البعث كلّه لغة، ومن أسمائه ـ عزَّ وجلَّ ـ الباعثُ: هو الَّذي يبعثُ الخلق، أي يحييهم بعد الموت يوم القيامة[2].

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ المراد بالبعث: هو نشر الخلائق من القبور يوم القيامة للحساب؛ لينال كلٌّ واحد منهم جزاءه المناسب لعمله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3].

إذ «المراد بالبعث المعاد الجسمانيُّ، وإحياء العباد في يوم المعاد، والنشور مرادف للبعث في المعنى، يقال: نشرَ الميتُ نشوراً، إذا عاش بعد الموت، وأنشرَهُ اللّه: أحياه، فإذا شاء الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ إعادة العباد وإحياءَهم؛ أمر إسرافيل، فنفخ في الصور، فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لربِّ العالمين»[4]؛ وذلك للحساب والجزاء.

وقد أكثر القرآن الكريم من تصريف آيات البعث والجزاء لأهميته؛ فهو ركن من الأركان الأساسيَّة للعقيدة الإسلاميَّة الصحيحة، فلا يكتمل الإيمان إلاَّ به، إذ هو الركن الثاني من أركان الدين على ما بيَّنه بعض العلماء حين قال: «الإيمان باليوم الآخر، وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال هو الركن الثاني للدِّين، الَّذي بعث اللّه به الرسل ـ عليهم السلام ـ وبه يكمل الإيمان باللّه ـ تعالى ـ ويكون باعثاً على العمل الصالح، وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان»[5].

---

(1) البقرة 56.
(2) لسان العرب 2/ 116 ـ 117 (مادَّة بعث).
(3) البقرة 281.
(4) اليوم الآخر القيامة الكبرى ص 51، وانظر: رسالة ابن أبي زيد القيروانيِّ ص 160.
(5) الوحي المحمَّديّ ص 175.

والقرآن الكريم حين يُكثر من تصريف هذه الآيات يقصد من ذلك إقناع المشركين المنكرين لهذا الركن الأساسيّ من أركان العقيدة الإسلاميَّة، بالحجَّة والبرهان الدامغ؛ مثبتاً ذلك اليوم وتحقُّقه، ومبيِّناً جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، تارةً بذكر الأدلَّة الواضحة والبراهين الساطعة، وتارةً أخرى بتصوير مشاهد النعيم ومشاهد العذاب؛ لتقريب ذلك اليوم إلى الأذهان، بأسلوب بديع وحكمة بالغة.

قال الأستاذ أبو زيد: «قضيَّة البعث بعد الموت كانت موضع إنكار شديد، من قِبَل كفَّار العرب وغيرهم من الدَّهريِّين، ولذلك كانت العناية بتقريرها وإثباتها في القرآن الكريم كبيرة، وقد سلك القرآن لهذه الغاية طرقاً شتَّى، أهمُّها الاستدلال بدلائل الحكمة الإلهيَّة، والعناية الربّانيَّة الَّتي تتجلَّى في الكون والكائنات.

ومن ثمَّ شغلت هذه القضيَّة وما يتَّصل بها من الوعد والوعيد، والحساب والجزاء، ومشاهد النعيم والعذاب، وأدلَّة الحكمة والعناية والقدرة الإلهيَّة أجزاءً كبيرةً من القرآن.

وهناك سور خصَّصها القرآن من أوَّلها إلى آخرها لهذه القضيَّة وإثباتها، وهناك سور أخرى شغلت الحيِّز الأكبر منها، هذا إلى جانب الآيات الأخرى المثبوتة في جلِّ سور القرآن»[1].

وأمَّا أهل الكتاب وغيرهم من الملل، الَّتي كان لها كتب وتشريع دينيٌّ ومدنيٌّ، ثمَّ فُقِدَت كتبهم، واستحوذت عليهم الوثنيَّة، فكلُّهم يؤمنون بحياة بعد الموت، وجزاء يختلفون في صفتهما؛ لا أصلهما، ولكنَّ إيمانهم هذا قد شابَهُ الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجلِّ فائدته في إصلاح الناس، فقد أعاد دين النبيِّين الجزاء إلى أصله المعقول، وهو ما كرَّم اللّه ـ تعالى ـ به الإنسان، من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله اللَّذين هما من كسبه وسعيه، لا من إيمان غيره وعمله[2].

---

(1) التناسب البيانيّ في القرآن ص 79.

(2) الوحي المحمَّديّ ص 175 ـ 176.

وعلَّل محمَّد قطب سبب احتفال السور المكيَّة بمشاهد القيامة، والحديث عن البعث والحساب، لضرورة تقرير العقيدة الإسلاميَّة وترسيخها في نفوس المؤمنين حتَّى تستقيم حياتهم في الأرض؛ لأنَّها ـ كما علم الله ـ لا تستقيم بغير هذه العقيدة مستقرَّةً راسخةً عميقةً، ولإنكار العرب للبعث؛ فقد جادلهم أحياناً، وواجههم أحياناً أخرى بأسلوب آخر أفعل في التأثير، هو تصويرهم هم أنفسهم في نار جهنَّم يشتوون فيها، أو بين يدي الله يوم البعث يسألهم فيجيبون والخزي يلفُّهم ويشملهم: إنَّهم كانوا كافرين، وكانوا خاطئين! أو يضرب عنهم صفحاً، ويمضي يستعرض مشاهد القيامة غير ملتفت إليهم، وإن كان المقصود في النهاية هو التأثير عليهم وإقناعهم[1].

ومن الجدير بالتنبيه عليه في هذا المقام أنَّ بعض المهتَّمين بأمور العقيدة، يرى أنَّ كثرة ورود الآيات الدالَّة على البعث والجزاء، وبيان جزاء المؤمنين والكافرين، وأسماء ذلك اليوم ـ إذ هو التكرار ـ المراد به التذكير، كما قال محمَّد رشيد رضا: «فإذا علمت ما كان من إنكار مشركي العرب للبعث والجزاء، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل بهذه العقيدة، وعلمت أنَّها مكملة للإيمان بالله ـ تعالى ـ وأنَّ تذكُّرها هو الَّذي يقوِّي الوازع النفسيَّ الَّذي يصدُّ الإنسان عن الباطل والشرِّ، والظلم والبغي، ويرغّبه في التزام الحقّ والخير وعمل البرّ، علمت أنَّ إصلاحها ما فعل فعله العاجل في شعب كبير إلاّ بتكرار التذكير بها في القرآن بالأساليب العجيبة الَّتي فيها حسن البيان، وتقريب البعيد في الأذهان، تارةً بالحجَّة والبرهان، وتارةً بضرب الأمثال، وقد تكرَّر في آيات بيِّنات لعلَّها تبلغ المئات، ومن إعجازه أنَّها لا تُمَلُّ ولا تُسأم، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها، وإن تقارب جنسها ونوعها، وترادفت سورها، فتأمَّل ذلك في سور المفصَّل، ترَ تكرار الكلام على البعث والجزاء فيها بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الأسلوب والنظم والفواصل»[2].

---

(1) دراسات قرآنيَّة ص 69.

(2) الوحي المحمَّديّ ص 178.

أختلف مـع محمَّـد رشيد رضـا فيمـا ذهـب إليـه من وجـود تكـرار فـي القـرآن الكريم، ذلك أنَّ المتأمِّل البصير في هذه الآيات لا يجـد وجهاً للتكـرار؛ لما بينـها مـن فروق واضحة تُميِّز كلَّ آية عن الأخرى، منها السياق الواردة فيـه الآيـة، ومنـها أيضـاً اختلاف الأسلوب والنظم والفواصل، وهو ما أشار إليه محمَّد رشيد رضا فـي كلامـه السابق، وهي الَّتي تجعل لكلِّ آية ظلالها وإيحاءاتها الخاصَّة الَّتـي تميِّزهـا عـن غيرهـا، وتجعلها أكثر ملاءمة لموقعها من الآية الواردة فيها.

ونقل صاحب (عقيدة التوحيد)، قول الحافظ ابن كثير: إنَّ نفـخ الصُّـور تكـرَّر ذكره في القرآن؛ في الأنعام والمؤمنين، والنمل، والزمر، وغيرها[1].

والَّذي نراه أنَّ هؤلاء العلماء قد اضطربوا فـي اختيـار المصطلـح المناسـب لكـثرة ورود هذه الآيات وتصريفها في القـرآن الكريـم، وهـو مـا يـراه أيضـاً محمَّـد قطـب[2] فيقول: «ومشاهد القيامة كذلك من أكثر الموضوعات تكراراً في القرآن، وفـي السـور المكِّيَّة بصفة خاصَّة»[3].

وفي موضع آخـر نـراه ينـاقض كلامـه السـابق، إذ ينفـي التكـرار، ويستبدل بـه مصطلح «التنويع» الَّذي هو أحد معاني التصريف في القرآن الكريم، فيقول: «إنَّـه لا يوجد مشهدان اثنان من مشاهد القيامة في القـرآن كلِّـه مكرَّريـن بمعنـى التكـرار، إنَّمـا تجري عليها قاعدة التشابه دون التماثل، وقاعدة التنويع»[4].

وقد أورد أنموذجين من مشاهد القيامـة يتبـدّى فيـهما ذلـك التنويـع، وهـو قولـه تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[5].

---

(1) عقيدة التوحيد ص 559.

(2) أعني التكرار.

(3) دراسات قرآنيَّة ص 260.

(4) المصدر نفسه.

(5) الواقعة 1 ـ 56.

وقولــه تعــالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ إلــى قولــه تعــالى: ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾[1]، ثـمَّ خلص إلـى أنَّ التنويـع لا التكـرار هـو الظـاهرة الحقيقية في القرآن، وأنَّهُ لمن إعجـاز هـذا الكتـاب أن يعـرض الموضوعـات الَّتي يكـرِّر ذكرهـا للتذكير والتربية والتوجيه بهذا القـدر المعجز من التنويـع، حيـث لا تتكـرَّر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن كلِّه على كثرة المواضع الَّتي يرد فيها كلُّ موضوع.

وإنَّ في ذلك لحكمة بالغة بالنسبة لكتاب نزل؛ لكي يقرأ على الـدوام، ولكـي تكون تلاوته الدائمة جزءاً من العبادة الَّتي يتقرَّب بها العباد إلى اللّه، وإنَّ التنويـع ذاته جمال، فوق أنَّه يذهب عن النفس الملال[2].

وقـال صـاحب «التفسير الحديث»: «إنَّ الإشـارة إلــى تبـدُّل مشـاهد الكـون ونواميسه يوم القيامة، قد تكرَّرت في القرآن كثيراً، وأكثر هذا التبدُّل في المشاهد الَّتـي تملأ عظمتها وروعتها نفوس الناس على مختلف طبقاتهم هيبةً ورهبةً»[3].

ثمَّ نجده يشير إلى أحد مدلولات التصريـف دون أن يصـرِّح بـه، فيقـول: «وقـد تنوَّعت أساليب هذا التبدُّل وعباراته، فالأرض والجبال هنـا ترجـف، والجبـال تصبـح كثيباً مهيلاً»[4].

ثمَّ يعود في موضع آخر إلـى القـول بـالتكرار، فيقـول: «فـالإنذار بيـوم القيامـة وأهوالها قد تكرَّر كثيراً، بـل هـو أكثر موضـوع تكـرَّر بأسـاليب متنوِّعـة فـي القـرآن، وكان من أشدِّ دعائم الدعوة الإنذار والتبشير، فمـن الطبيعيِّ أن يتكـرَّر السـؤال علـى الأعمِّ الأغلب»[5].

---

(1) الحاقة 13 ـ 37.
(2) دراسات قرآنيَّة ص 260 ـ 261.
(3) التفسير الحديث 1/ 79.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه 2/ 192.

إنَّ الَّذي يمكن لنا استخلاصه هو أنَّ هذه الآيات لا تكرار فيها، وإنَّما هو التصريف البديع، والتنويع العجيب، والبيان العالي، وهو ما ستجلِّيه هذه الدراسة، وممَّا يدلُّ على هذا الاختيار الَّذي ارتضيناه ما ذكره أبو يحيى زكريَّا الأنصاريُّ حين نفى التكرار عن قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[1]. إذ قال: «ذكرَ هنا مرَّتين[2]، وليس بتكرار؛ لأنَّ الأولى هي النفخةُ الَّتي يموت بها الخلق، والثانية هي النفخة الَّتي يحيا بها الخَلْقُ»[3].

وقال سيِّد قطب: «والعجيب حقّاً أنَّ تعدُّد هذه المشاهد، وأساسها واحد ـ لم ينشئ نوعاً من التكرار، فكلُّ مشهد يختلف عن سابقه في كلِّيَّاته أو جزئيَّاته، وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق الملايين من الناس»[4].

ثمَّ قال في موضع آخر: «وهكذا قد تتَّحد المشاهد العامَّة، ولكنَّها تختلف في جزئيَّاتها بما يحقِّق الجدَّة، وينفي التكرار في صور القرآن»[5].

ثانياً: عناية القرآن الكريم بالبعث والجزاء:

وجَّه القرآن الكريم عنايةً بالغةً إلى البعث والجزاء، وبخاصة في السور المكِّيَّة منه، باعتباره ركناً أساسيّاً من أركان العقيدة الإسلاميَّة، إذ يقرنه بالتوحيد أحياناً، ويقرنه أحياناً أخرى بالنبوَّة والرسالة، لذلك وصف اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّذين يؤمنون بهذا اليوم بالفلاح، وذلك في بداية سورة البقرة، وقرن الإيمان باللّه ـ تعالى ـ والإيمان بكلِّ ما يجبُ الإيمان به، بالإيمان بالبعث والجزاء، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ

(1) يس 29.
(2) يعني بذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس 52).
(3) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص 349.
(4) مشاهد القيامة في القرآن ص 10.
(5) المصدر نفسه ص 124.

ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وقد ختم اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أوصاف المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

فأوجب الإيمان بالآخرة وأكَّده بتقديم الجارِّ والمجرور، أي إنّ الآخرة وحدها هي الجديرة بالإيمان، وإنّه لا إيمان إلاّ باليقين الَّذي لا مجال للريب فيه.

ولذلك وصف اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ الَّذين لا يؤمنون بلقاء اللّه ـ تعالى ـ بأنَّهم الخاسرون: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[2].

وقد عُنيَ القرآن الكريم أيّما عناية بأهميَّة الإيمان باليوم الآخر، يذكره كلَّما ذُكِرَت صفات المؤمن المثاليِّ، ويقرن الإيمان به بالإيمان باللّه، حتَّى لا يُذكَر الإيمان باليوم الآخر منفرداً دونه، فيقول: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3]. ويقول: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[4]. وأوعد القرآن شديد الوعيد من كفر باليوم الآخر، وقرنه كذلك بمن كفر

---

(1) البقرة 1 ـ 5.

(2) الأنعام 31، وانظر المعجزة الكبرى ص 415.

(3) البقرة 62.

(4) السورة نفسها 177.

باللّه، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1].

وسرُّ العناية باليوم الآخر، أنَّ الإيمان به يعدُّ الدعامة الأولى في بناء الدين كلِّه، وإذا انهار هذا الأساس انهار الدين، فلم يعد له من بقاء، فعقيدة المرء في الحساب وأنَّه مجزيٌّ بعمله، على الخير والشرِّ، هي الَّتي تدفعه إلى التفكير السليم، كي يصل إلى العقيدة الصحيحة الَّتي يؤمن بها، وإلى العمل الصالح واجتناب مساوئ الأمور، كي يُجزَى على الخير بالحسنى، ويتّقي أليم العذاب[2].

«وقد عُنِيَ القرآن الكريم بإثبات حقيقة البعث، وبيان الحال في الحياة الآخرة، وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث، ولا يدركون إلاّ الحياة الدنيا، وإنَّ عقيدة البعث لبُّ الإيمان وغاية من غايات الرسائل الإلهيَّة، ولذلك نجد القرآن يحتفي ببيان حقيقة البعث، وتنبيه القول عليه، وما من موضع في القرآن الكريم إلاّ ذُكِرَ فيه البعث، وقيام الدليل بقياس قدرة اللّه ـ تعالى ـ على الإعادة على قدرته على الابتداء، وأنَّ البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثاً لا جدوى فيها»[3]. كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[4].

---

(1) النساء 136.

(2) من بلاغة القرآن ص 289 ـ 290.

(3) المعجزة الكبرى ص 416.

(4) المؤمنون 115.

المبحث الثاني
إثبات البعث والجزاء وتحقُّقهما

أكثر القرآن الكريم من تصريف الآيات الدالَّة على البعث والجزاء وتحقُّقهما في سور وآيات كثيرة، إذ تنوَّعت تنوُّعاً كبيراً، وفُصِّلتَ تفصيلاً واضحاً؛ لإثبات ذلك اليوم وتحقُّقه، وفي دراستنا لهذا النوع من التصريف البيانيِّ، سنأتي بأمثلة ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تبيِّن ذلك التصريف البديع والحكمة الإلهيَّة البالغة.

تنوُّع مشاهد القيامة الدالَّة على البعث والجزاء:

أثبت التصريف القرآنيُّ ذلك اليوم وتحقُّقه عن طريق مشاهد القيامة المتعدَّدة، موزَّعةً على سوره ولا سيَّما المكِّيَّة ـ كما قلنا فيما سبق ـ إذ نجد القرآن الكريم في إثباته لهذه القضيَّة يقيس البعث على الخلق الأول، وتارةَ يقيس إخراج الموتى على إخراج النبات وإحياء الأرض، وإنزال الماء من السماء إلى غير ذلك ممَّا صرَّف القرآن بيانه بقصد تقريب البعيد إلى أذهان المنكرين للبعث والجزاء، وغيرهم ممَّن يطلبون معرفة ذلك اليوم، وجعل الصعب سهلاً ميسوراً، إذ إنَّ تلك الأشياء الَّتي قاس عليها المولى ـ سبحانه وتعالى ـ معلومة عندهم غير مجهولة.

فإذا كانوا مقرِّين بها، ويعرفونها جيداً، فعليهم أيضاً الإيمان بذلك اليوم الَّذي مثَّله اللّه لهم بأمثلة حقيقيَّة مشاهدة لا تخفى على أحد، فهي حاصلة بقدرة القويِّ المتين.

ومن ثمَّ فلا يُستغرب وقوع ما ذكره اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه عن ذلك اليوم وغيره ممَّا صرَّف القرآن ذكره في كتابه العزيز، وسيتَّضح لنا ذلك جليّاً من مشاهد القيامة الدالَّة على البعث والجزاء، والتي سنقتصر فيها على بعض الأمثلة؛ لأنَّ المقام لا يتّسِعُ لاستقصائها جميعاً، لذلك ارتأينا أن تكون هذه الدراسة مقسَّمة إلى قسمين،

ففي القسم الأوَّل: نتكلَّم عن تنوُّع المعاني الدالَّة على البعث والجزاء في المثال الواحد، وفي القسم الثاني: عن تنوُّع الأساليب في المثال نفسه، ولتكن البداية بسورة الأنعام.

المثال الأوّل: تنوُّع المعاني والأساليب الدّالّة على البعث والجزاء في سورة الأنعام

تنوَّعت المعاني والأساليب الدالَّة على البعث والجزاء في سورة الأنعام بما لا يدع مجالاً للشكِّ في إثباتهما وتحقُّقهما، مُصوِّرةً إياهما في بعض المشاهد كأنَّه أمر حاضر الآن، ذلك أنَّ أساليب القرآن الكريم كلَّها تتآزر في تصوير المعاني البيانيَّة الرائعة في الآية، ومن ثمَّ تحقيق مقاصد القرآن من تنويعها في أتمِّ نسق وانسجام، ويتجلَّى ذلك في هذه المعاني المتنوِّعة الَّتي ستجلِّيها هذه الدراسة، والَّتي سنتكلَّم فيها عن المعاني، ثمَّ الأساليب.

أوّلاً: تنوُّع المعاني الدالَّة على البعث والجزاء في سورة الأنعام:

عرضت سورة الأنعام إشارة وخمسة مشاهد من مشاهد يوم القيامة، يحمل كلٌّ منها جديداً لا يوجد في غيره من المشاهد الأخرى، فالإشارة جاءت في سياق إثبات النُّبوَّة، ولفت النظر إلى عاقبة المكذِّبين تأكيداً للبعث وتحقُّقه؛ إذ قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾(1).

وأمَّا المشهد الأوَّل فقد جاء في سياق نفي الشرك والوثنيَّة وإثبات التوحيد للّه ربّ العالمين، موجِّهاً الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ أن يعلن خوفه من عصيان ربّه لئلاّ يعرّض نفسه لعذاب يوم عظيم الهول والشدَّة، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾(2).

---

(1) الأنعام 12.

(2) السورة نفسها 15 ـ 16.

وقد فسَّر ابن عطيَّة اليوم العظيم: بيوم القيامة[1]، وهو كما قيل: «فهذا العذاب من الهول والشدَّة بحيث يعدُّ مجرَّدُ صَرْفه رحمةً وفوزاً مبيناً»[2].

وأمَّا المشهد الثاني فجاء في سياق أمر الرسول - ﷺ - بالتبرُّؤ من الشرك، وعرض بعض دلائل النبوَّة وصدق الرسالة، فناسبه أن يبيِّن أنَّه - تعالى - يجمع الناس جميعاً يوم الحساب، متبوعاً بتقديم السؤال للمشركين عن شركائهم الَّذين يدّعون أنَّهم أرباب مع اللّه - تعالى - فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3].

ثمَّ انتقل إلى بيان ردِّ المشركين الكاذب على السؤال الَّذي يُوجَّه إليهم يوم القيامة على سبيل التوبيخ والاحتجاج، فأقسموا باللّه كذباً ما كانوا مشركين، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4].

ثمَّ لفت نظر الرسول - ﷺ - إلى كذب هؤلاء المشركين على أنفسهم يوم القيامة، وقد ذهبت عنهم أصنامهم وآلهتهم الَّتي عبدوها من دون اللّه إذ قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[5].

قال أبو حيَّان: «الخطاب للرسول - ﷺ - والنظر قلبيّ، وكيف منصوب بـ (كذبوا)، والجملة في موضع نصب بـ (انظر)؛ لأنَّ انظر معلَّقة وكذبوا ماض، وهو في أمر لم يقع، لكنَّه حكاية عن يوم القيامة ولا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل تحقيقاً لوقوعه ولا بدّ»[6].

---

(1) المحرَّر الوجيز 2/ 273.
(2) مشاهد القيامة ص 151.
(3) الأنعام 22.
(4) السورة نفسها 23.
(5) السورة نفسها 24.
(6) البحر المحيط 4/ 100.

ويستمرُّ السياق مبيِّناً حال هؤلاء المشركين من سماع القرآن، وما جعله اللّه على قلوبهم من أغطية وفي آذانهم من ثقلٍ وصَممٍ عن فهم ما يُتلى من القرآن الكريم، وإن يروا كلَّ حُجَّة وعلامة تدلُّ على صدق نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ لا يصدّقوا بها.

وهكذا فقد ربط في هذا المشهد بين إثبات البعث والجزاء وبين إثبات النبوَّة وصدق الرسالة، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

قال أبو حيَّان: «والمعنى يخاصمونك في الاحتجاج، وبلغ تكذيبهم في الآيات إلى المجادلة، وهذا إشارة إلى القرآن، وجعلهم إيَّاه من أساطير الأوَّلين قدحٌ في أنَّه كلام اللّه وظاهر المجادلة أنَّه في المسموع الَّذي هم يستمعون إلى الرسول بسببه، وهو القرآن، والمعنى أنَّهم في الاحتجاج انتهى أمرهم إلى المجادلة والافتراء دون دليل»[2].

وأمَّا المشهد الثالث فبيَّن حال المشركين يوم البعث والجزاء حين يقفون على النار؛ إذ يتمنَّون العودة إلى دار الدنيا؛ ليتوبوا عن التكذيب بآيات اللّه، ويكونوا من المصدِّقين باللّه ورسله، ويبيِّن كذلك أنَّهم في هذا الموقف يظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من أعمالهم السيِّئة، وحالهم لا يتغيَّر وحتَّى لو رُدُّوا إلى الدنيا؛ لرجعوا إلى الكفر والجحود، والعمل بما يسخط اللّه ـ تعالى ـ حاكياً تكذيبهم وإنكارهم ليوم البعث والجزاء، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ

(1) الأنعام 25 ـ 26.

(2) البحر المحيط 4/ 102.

وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[1].

ذكر أبو حيَّان أنَّه أبرز هذا المعنى في صورة المضيِّ وإن لم يقع بعد، إجراءً للمحقَّق المنتظر مجرى الواقع الماضي، والظاهر أنَّ الرؤية هنا بصريَّة، وجوَّزوا أن تكون من رؤية القلب، والمعنى: ولو صرفت فكرك الصحيح إلى تدبُّر حالهم؛ لازددت يقيناً أنَّهم يكونون يوم القيامة على أسوأ حال. فيجتمع للمخاطب في هذه الحالة الخبر الصدق الصريح والنظر الصحيح، وهما مدركان من مدارك العلم اليقين[2].

وأمَّا المشهد الرابع فقد بيَّن حال المشركين حين يُعرَضون على المولى - عزَّ وجلَّ - للحساب، موجِّهاً الخطاب إليهم، إذ يقرُّون في هذا اليوم بالبعث الَّذي كانوا ينكرونه عن طريق الحوار الَّذي يصوِّر حالهم أمام العدالة الإلهيَّة أدقَّ تصوير، متبوعاً ببيان الجزاء الَّذي أعدَّه اللّه لهم بسبب كفرهم وعنادهم، مبيِّناً أنَّ الساعة تأتي فجأة، مصوِّراً تحسُّرهم وتفريطهم على ما ضيَّعوا في الحياة الدنيا من صالح الأعمال، وقد جاؤوا إلى هذا اليوم وهم يحملون آثامهم وذنوبهم على ظهورهم، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[3].

وأمَّا المشهد الخامس فقد ورد في سياق بيان أنَّ الجنَّة أعدَّها اللّه لأوليائه في الآخرة جزاء طاعتهم له - عزَّ وجلَّ - واتّباعهم رضوانه، فقال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4].

---

(1) الأنعام 27 - 29.
(2) البحر المحيط 4/ 105.
(3) الأنعام 30، 31.
(4) السورة نفسها 127.

وقد عقَّب ذلك بعرض مشهد الحشر الَّذي يجمع الله فيه الجنّ والإنس جميعاً في صعيد واحد، المتبوعين والأتباع، موجِّهاً الخطاب إلى الجنِّ، إذ يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾[1].

ثمَّ انتقل السياق إلى حكاية أقوال الإنس، الَّتي مفادها انتفاع بعضهم ببعض في الدنيا، معترفين بالأجل الَّذي حدَّده الله ـ تعالى ـ لبعثهم؛ إذ يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾[2].

ثمَّ ينتقل إلى حكاية أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ببيان جزاء هؤلاء؛ وهو النار مقيمين فيها أبداً فيقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[3].

ثمَّ ينتقل السياق، فيوجِّه السؤال للجنّ والإنس على سبيل التقريع والتبكيت، فيقول تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[4].

ثمَّ يعود، فيبيِّن إقرارهم على أنفسهم بأنَّه قد أتتهم رسالات ربّهم، متذرّعين بأنَّ الحياة قد غرَّتهم، شاهدين على أنفسهم بالكفر، فيقول: ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾[5].

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ المعاني الدالَّة على البعث والجزاء قد تنوَّعت في سورة الأنعام تنوُّعاً عجيباً يحمل في كلٍّ منها جديداً، لا تكرار فيه، وذلك راجع في رأينا إلى تنوُّع الأساليب الَّتي سنتحدَّث عنها في المطلب الآتي.

---

(1) السورة نفسها 128.

(2) السورة نفسها 128.

(3) الأنعام 128 ـ 129.

(4) السورة نفسها 130.

(5) السورة نفسها 130.

ثانياً: تنوعُ أساليب البعث والجزاء في سورة الأنعام:

رأينا ـ فيما سبق ـ تنوَّع المعاني الدالَّة على البعث والجزاء في سورة الأنعام، الَّتي لا شكَّ أنَّها راجعة إلى تنوَّع الأساليب، ذلك أنَّ الأسلوب القرآنيَّ يتَّجه إلى ألوان عديدة؛ ليقرّب الفكرة إلى الأذهان، فيعرضها بأساليب مختلفة غاية في البيان، ويأتي بالأسلوب المقنع المؤثِّر المؤدِّي للفكرة أبلغ أداء؛ الَّذي لا يمكن معه إلاَّ التسليم والاقتناع، فمن ذلك ما نلاحظه من تنويع بيانيٍّ رائع فيما نسوقه من أمثلة تبيِّن الطرق الَّتي سلكها القرآن الكريم في تحقيق مقاصده المتنوِّعة، فهو يستعمل أساليب الاستفهام المتعدِّدة حسبما يقتضيه المقام، فقد يكون المراد به الإنكار، أو التعجُّب، أو التهكُّم، أو التقرير، إلى غير ذلك من الصور الَّتي يأتي لتحقيقها.

وقد يستعمل الأمر أو النهي، وقد يجمع بين هذا وذاك إلى غير ذلك من الأساليب الَّتي لا يسع المقام استقصاءها، والَّتي ستكشف عنها هذه الدراسة ـ إن شاء اللّه تعالى ـ والمتمثِّلة في تتبُّع أساليب السورة محلِّ الدراسة.

إنَّ أسلوب الإشارة الدالَّ على إثبات البعث يسير في اتِّجاه تأكيد على عظمة اللّه ـ تعالى ـ وقدرته الَّتي لا تقف عند حدّ، الأمر الَّذي يجعل من موضوع الاستبعاد، والتفكير بالاستحالة شيئاً لا معنى له، ذلك أنَّ لهذه الإشارة أسلوبها الَّذي يميزها عن غيرها من المشاهد الأخرى، فبدأت بالأمر الموجَّه للرسول ـ ﷺ ـ فالاستفهام المراد به التبكيت، وهو لم يحاول أن يناقش تفكير المنكرين للبعث على أساس الاستبعاد بصورة مباشرة، بل حاول أن يثير أمامهم علامات الاستفهام فيما يحيط بهم من السماء والأرض وما فيها: لمن كلُّ هذا؟ ومن الَّذي خلقه؟ ومن الَّذي بيده ملكوت كلِّ شيء؟ ليوجِّههم إلى عظمة القدرة في ذلك كلِّه؛ ليقودهم بعد ذلك إلى الاعتراف باللّه الَّذي خلق كلَّ هذا، وبيده كلُّ هذا؛ ليعترفوا بقناعة واعية، بأنَّ القادر على خلق الكون كلِّه لا يصعب عليه أن يبعث الحياة من جديد[1].

---

(1) انظر الحوار في القرآن 91 ـ 92.

والَّذي يحسن أن أشير إليه أنَّ المعاني هي الَّتي تحدِّد نوع الأساليب في كلّ النصوص العالية، ذلك أنَّ مجيء العبارة بطريق الاستفهام أحياناً، أو بطريق الإخبار أحياناً أخرى، فيه تأكيد لمعنى القضيَّة الَّتي يسوقها القرآن الكريم في المواضع المختلفة، إمَّا بإنكارها والتعجُّب من منكريها، وإمَّا لتقريرها في النفوس، وترسيخها في الأذهان، بالدليل المقنع الَّذي لا يجادل فيه إلاَّ معاند أو مكابر، وما كان ذلك ليكون إلاّ بتصريف الآيات في فنون القول المختلفة، ذلك أنَّ التكذيب بأصول العقيدة هو صفة الجاحدين الَّذين لا يؤمنون بالحق، ولا يهتدون بهديه؛ لأنَّ ذلك دأبهم دائماً.

ومن ثمَّ عاد الأمر للرسول - ﷺ - مرَّة أخرى؛ ليتولَّى الإجابة على السؤال تقريراً لهم وتنبيهاً.

ولعلَّ ممَّا يجلِّي هذا التصريف ما ذكره المراغيُّ حين قال: «ذكر هذه الأصول بأسلوب آخر: أسلوب السؤال والجواب، بهرهم فيه بالحجَّة، ودلَّهم على واضح المحجَّة، تفنّناً في الحجاج في المواضع المهمَّة. فإنَّ الأدلَّة إذا تضافرت على مطلوب واحد؛ كان لها في النفس قبولٌ أيّما قبول، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوَّعت دفعت عن السامع السأم، وجعلته ينشَط لسماع ما يُلقَى إليه، فهو إذا لم يعقل الدليل الأوَّل، أو عَمِيَ عليه أسلوبه، رأى في الدليل الثاني ما ينير له طريق المطلوب، أو رأى في الأسلوب الثاني ما يكفيه مؤونة البحث في الدليل الأوَّل، فهو في غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت، أو يلجأ إلى غائب»[1].

ثمَّ تلا ذلك القسم المؤكِّد للوعيد، فنفى الشكّ عن يوم البعث والجزاء.

وحريٌّ بناء في هذا المقام أن نشير إلى أنَّ هذه الآية موضوع الدراسة لا تكرار بينها وبين شبيهتها في سورة النساء، وهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[2].

---

(1) تفسيره المراغي 3/ 85.

(2) النساء 87.

كما ذهب إلى ذلك صاحب «تفسير المنار» في توجيهه لآية سورة الأنعام؛ إذ قال: «فقفّى ـ سبحانه ـ على ذلك بتلقينه في هذه الآيات أسلوباً آخر من إقامة الحجج على قومه، وهو أسلوب السؤال والجواب، في موضع فصل الخطاب، وإن كان تكراراً لمعنى سبق[1]، أو اشتمل على التكرار، وحكمة ذلك أنَّ التنويع في الاحتجاج والتفنُّن في أساليبه من ضروريّات الدعوة إلى الدين وإلى غير الدين من المقاصد البشريَّة أيضاً؛ لأنَّ التزام دليل واحد على المطلوب الَّذي لابدَّ من تكرار ذكره، أو إيراد أدلة عديدة بأسلوب واحد قد يفضي إلى سآمة الداعي من التكرار على رغبته في الدعوة وتفانيه في نشرها وإثباتها[2].

إنَّ الَّذي نراه ونميل إليه أنَّه لا تكرار في هذه الآية ونظيرتها في سورة النساء، بل التنويع الدقيق، والتفنُّن البديع، وهو ما أشار إليه بقوله: «وحكمة ذلك التنويع في الاحتجاج والتفنُّن في أساليبه» ذلك أنَّ التنويع هو أحد مقاصد التصريف ـ على ما بيّناه في تمهيدنا لهذا الكتاب ـ وكذلك التفنُّن هو مقصد من مقاصد التنويع، جاء في المعجم الوسيط: «تفنَّنَ الشيءُ: تنوَّعَتْ فنونُه»[3].

فإذا كان الأمر كذلك فلا وجه للتكرار، والدليل على ذلك أيضاً اختلاف انتظام الأساليب في الآيتين، وكذلك اختلاف ختمهما.

وأما أسلوب المشهد الأول فهو الأمر الموجه للرسول ـ ﷺ ـ فالإخبار المؤكد خوفه ـ ﷺ ـ من عصيان ربّه، وخوفه أيضاً من عذاب يوم القيامة، فأسلوب الشرط، فالإشارة إلى الفوز المبين.

وبالنظر في هذا الأسلوب نجده جاء على نسق مخالف لأسلوب الإشارة الدال على البعث والجزاء، ولذلك حقق مقاصد تختلف عما في غيره من المشاهد الأخرى.

---

(1) وهو يعني بذلك آية سورة النساء الَّتي ذكرناها.
(2) تفسير المنار 7/ 323 ـ 324.
(3) المعجم الوسيط 2/ 729 مادَّة: (فنّ).

ومن ثم نستطيع القول: إنه لا تكرار في هـذه المشاهد المتنوعة، لا في المعاني ولا في الأساليب.

وأما المشهد الثاني فقد بدأ بالأسلوب الإخباري، فالاستفهام الَّذي يفيد التوبيخ والتقريع.

قال صاحب «في ظلال القرآن»: «هذه الجولة أو هذه الموجة، عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم، المكذبين بالبعث والآخرة، ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنّتهم وعنادهم، ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم - كما سبق في سياق السورة - إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الَّذي يكذّبون به، وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها، تواجههم بهذا الجزاء، وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة، تواجههم به وهم محشورون جميعاً، مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب، وسؤال التشهير والتعجيب»[1].

ثم انتقل إلى النفي فالاستثناء فالقَسمَ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[2].

ثم انتقل إلى الأمر الموجه للرسول - ﷺ - الَّذي يلفت نظره إلى كذب المشركين، ثم انتقل إلى الإخبار في الآية التي تليها، فالاستعارة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[3].

«وذلك أنهم كانوا عند تلاوة القرآن قد حجبوا قلوبهم عن تفهّمه، وصُرِفوا بأسماعهم عن تدّبره، فجاز أن يقال على المجاز والاستعارة؛ إن الَّذي تلا ذلك عليهم جعلهم كذلك»[4].

ثم تلاه أسلوب الإخبار الَّذي يذكر شبهات المشركين حول القرآن الكريم.

---

(1) في ظلال القرآن 2/ 1060.

(2) الأنعام 23.

(3) السورة نفسها 25.

(4) معجم البلاغة العربيّة 2/ 591 باب العين.

وأما المشهد الثالث فقد بدأ بأسلوب الشرط المراد منه التهويل والتعجب من فظاعة حال الموقوفين على النار[1].

وقد قيل: إن هذا الشرط قد حذف جوابه، تقديره، ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً[2] فالتمني بالرجوع إلى الدنيا.

ثم انتقل في الآية الموالية إلى الإضراب عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، الَّذي ليس عن عزيمة صادقة ناشئة عن رغبة في الإيمان وشوق إلى تحصيله، والاتصاف به، بل لأنه ظهر لهم في موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه في الدنيا فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا، والمراد بها النار التي وقفوا عليها إذ هي التي سيق الكلام لتهويل أمرها والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها وبإخفائها تكذيبهم بها، فإن التكذيب بالشيء كفر به[3].

ثم عاد إلى أسلوب الشرط مرة ثانية، فالأسلوب الإخباري المؤكد لكذبهم، فأسلوب المحاورة، فالنفي الَّذي يفيد إنكارهم للبعث، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[4].

وأما أسلوب المشهد الرابع، فهو قريب من أسلوب المشهد الثالث وبخاصة في الآية الأولى منه، التي بدأت هي كذلك بأسلوب الشرط المراد به التهويل والتعجيب من حال الموقوفين على ربّهم، فالاستفهام المراد به التوبيخ والتقريع، فأسلوب المحاورة الَّذي يؤكد اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيقته وإيذاناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعاً في نفعه[5] فالأمر الموجه للكافرين ليذوقوا العذاب بسبب كفرهم.

---

(1) انظر إرشاد العقل السليم 3/ 123.

(2) الكشاف 2/ 12.

(3) انظر تفسير البيضاوي 2/ 12، وإرشاد العقل السليم 3/ 123.

(4) الأنعام 27 ـ 29.

(5) إرشاد العقل السليم 3/ 124.

والجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام أنه لا تكرار بين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ وذلك لاختلاف المعاني، واختلاف سوابق الآيات ولواحقها، فالأولى أن الوقوف على النار وأما الثانية فإن الوقوف على ربّهم للحساب، وهناك ملحظٌ آخر ينفي التكرار عنهما، وهو أن الآية الأولى بدأت بالشرط، فالتمني، وأما الثانية فبدأت بالشرط فالاستفهام، ولا شك أن هناك فرقاً بين التمني والاستفهام، ذلك أن التمني هو: طلب حصول شيء محبوب، بشرط أن يكون مستحيلاً، أو ممكناً لا يتوقع حصوله[1].

وأما الاستفهام فمعناه طلب الفهم، أي طلب حصول صورة الشيء المستفهم عنه في ذهن المستفهم[2].

وقد انتقل الأسلوب في الآية الموالية إلى الإخبار الَّذي يؤكد خسران المكذبين بلقاء اللّه ـ تعالى ـ فأسلوب الشرط، فأسلوب المحاورة الَّذي يحكي تحسر الكافرين على تفريطهم في شأن الساعة والاستعداد لها، فالإخبار الَّذي يؤكد حملهم لأوزارهم يوم القيام، فالتذييل المقرر لما قبله وتكملة له[3].

وأما أسلوب المشهد الخامس فقد بدأ بالالتفات لتهويل الأمر[4] فالنداء الموجه لمعشر الجنّ للتوبيخ والتقريع، فأسلوب المحاورة الَّذي يحكي انتفاع بعضهم ببعض، فالاعتراف ببلوغ الأجل، فالاستئناف المبني على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كأنه قيل: فماذا قال اللّه تعالى حينئذ، فقيل: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾[5]. أي منزلكم، فالاستئناف المراد به التهكم بهم[6]. فالتعقيب المناسب لما أعقب به.

---

(1) معجم البلاغة العربيّة 2/ 857 باب الميم.

(2) نفسه ص 664 باب الفاء.

(3) انظر إرشاد العقل السليم 3/ 125.

(4) نفسه ص 148.

(5) الأنعام 128.

(6) نفسه ص 185.

ثم انتقل في الآية الموالية إلى أسلوب التمثيل، ذلك أن المثل مقرون بالحجة[1]، ثم انتقل في الآية الثالثة إلى أسلوب النداء الموجه للجن والإنس المراد منه توبيخهم وتقريعهم، فالاستفهام التوبيخي ـ على ما ذكره الزمخشري ـ[2]. فالاستئناف الَّذي يحكي إقرارهم على أنفسهم بأن حجة اللّه لازمة لهم، وأنهم محجوجون بها[3]. فالإخبار المؤكد لكفرهم والاستسلام لعذاب ربّهم.

يتضح لنا من العرض السابق أن الأسلوب في هذه السورة موضوع الدراسة قد تنوّع حسب المشاهد الدالة على البعث والجزاء، فهو ينتقل من أسلوب إلى آخر، محققاً بذلك مقاصده المتنوعة كذلك، إذ يأتي بالأسلوب المناسب في المحل المناسب، وبذلك جاءت أساليبه بديعة أظهرت إعجاز القرآن وبلاغته التي لا تساميها بلاغة بشر، مهما أوتي من الفصاحة والبلاغة.

وقد أشار بعض المهتمين ببلاغة القرآن الكريم إلى أن أسلوب القرآن لا ينحصر في أسلوب معين، بل يتسع ليشمل عديداً من الأساليب، وطرق الأداء أو أجناس القول من قصص متعدد الصياغات والمناسبات والحلقات، ومحاورات ومقاولات، أو وعظ مسترسل أو ذكر آيات متواليات عن الكون وآياته، أو القيامة وما فيها، كما كثرت الأساليب الجزئية كألوان البيان والبديع، ومذاهب القول[4].

إن ذلك هو التنويع الَّذي انفرد به القرآن الكريم عن غيره في روعة بيانه وتحقيق مقاصده.

---

(1) معجم البلاغة العربيّة 2/ 832 باب الميم.

(2) الكشاف 2/ 50.

(3) نفسه ص 51 وإرشاد العقل السليم 3/ 186.

(4) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص 132 ـ 133.

المثال الثاني: تنوع المعاني والأساليب الدالة على البعث والجزاء في سورة يونس:

أولاً: تنوع المعاني الدالة على البعث والجزاء في سورة يونس:

اشتملت سورة يونس على خمسة مشاهد من مشاهد يوم القيامة، فالمشهد الأول جاء في سياق عرض دلائل القدرة الإلهية والأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وإفراده بالربّوبية.

وقد تضمن هذا المشهد قياس البعث على الخلق الأول، لذلك اقتضى البيان القرآني أن ينبه إلى يوم البعث والجزاء، وهو وعد من اللّه حق، مبيناً أنه هو الّذي ينشئ الخلق، ثم يعيده بعد فنائه وبلائه، للحساب، مبيناً أيضاً جزاء الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم جزاء الّذين كفروا، وذلك على سبيل التقابل؛ ليرغّب في الإيمان والعمل الصالح، ويحذّر من الكفر وعواقبه، إذ يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[1].

وأما المشهد الثاني فجاء في سياق بيان تكذيب الّذين لا يرجون لقاء اللّه ورضاهم بالحياة الدنيا عن الآخرة، وسكنوا إلى زينتها وزخارفها، مبيناً جزاءهم، وقد قرن في هذا المشهد الإيمان بالعمل الصالح، وهو أسلوب مُطّرد في القرآن الكريم، مبيناً أن الموصوفين بهذه الصفات يرشدهم ربّهم بسبب إيمانهم إلى الجزاء الحسن، وهو جنات النعيم، واصفاً حالهم في هذه المنزلة العظيمة، إذ يدعون فيها ـ سبحانك اللّهم ـ أي منزّهين المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن السوء، إذ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

---

(1) يونس 4.

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وأما المشهد الثالث فجاء في سياق دعوة الله - سبحانه وتعالى - عباده إلى دار السلام، وهي الجنة التي أعدّها الله لعباده المؤمنين، الممتثلين أوامره والمجتنبين نواهيه، لذلك ناسبه أن يقابل في المشهد بين عباده المؤمنين الّذين لا يرهَق وجوههم غبار ولا هوان، مبيناً جزاءهم، وهو الجنة ماكثون فيها أبداً، إذ قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

ثم قابله بالّذين عملوا السيئات في الدنيا، مصوّراً جزاءهم أبلغ تصوير، وهو الذل والهوان، مشبّهاً وجوههم في ذلك اليوم بقطع الليل المظلم، وقد اقتضت العدالة الإلهية، جعل جزاء السيئة بمثلها من عقاب الله - تعالى - إذ قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3].

والذي ينبغي أن أنبه إليه في هذا المقام أن هذه الآية يناظرها في المعنى قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾[5].

---

(1) يونس 9، 10.

(2) نفسها 26.

(3) نفسها 27.

(4) القيامة 24 - 25.

(5) عبس 40 - 42.

وذلك ما أشار إليه سيد قطب، إذ قال: «هذا المشهد قد سبق في (عبس) وفي (القيامة) ولكنه يعرض هنا بزيادة تكسبه الجدّة وتطبعه بطابع التنوّع، فوجوه ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كأنما أغشيت قطعاً من الليل المظلم، وهكذا يستحيل الليل جسماً محسوساً، يمزّق قطعاً، ثم تغشى الوجوه بهذه القطع، فيكون مشهدها فريداً»[1].

وهكذا فلا نجد في هذه الآيات تكراراً؛ لأن كل واحدة منها تابعة لسياقها ومناسبتها، ذلكم هو التنوع العجيب، والتفنن الدقيق الذي تميز به الأسلوب القرآني في تصريف بيانه.

وأما المشهد الرابع فقد تضمن الإخبار بحشر الخلائق جميعاً يوم الحساب، مبيناً الأوامر التي تصدر من المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ موجهة للمشركين وشركائهم الّذين يعبدونهم من دون الله، وما يحصل فيه من حوار بين المشركين وشركائهم، وتبرُّئهم منهم، مكتفين في ذلك اليوم بشهادة الله ـ تعالى ـ على أنهم لم يشعروا بعبادتهم ولم يعلموا بها، وعند ذلك تختبر كلّ نفس ما قدّمت من خير أو شرّ، وهم قد رجعوا إلى الله مولاهم الحق، دون ما كانوا يزعمون أنهم أرباب، ويتضح ضلال من كانوا يعبدون هذه الأصنام، إذ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[2].

(1) مشاهد القيامة ص 145 ـ 146.

(2) يونس 28 ـ 30.

قال سيد قطب: «ومشهد الحشر مع الشركاء كذلك معهود، ولكنه هنا كالجديد، فالنداء يوجه إلى هولاء وهولاء»[1].

وأما المشهد الخامس في هذه السورة فقد جاء في سياق إثبات النبوة والرسالة، وبيان عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذلك ناسبه أن يعقب ذلك بالإخبار عن حشر الخلائق يوم الحساب، مصوراً ذلك الموقف العظيم، كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلاّ ساعة من نهار يتعارفون فيما بينهم، مبيناً خسران الجاحدين ثواب الله وعقابه، إذ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[2].

قال سيد قطب: «ومشهد الحشر الذي يظن المحشورون فيه أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلاّ قليلاً، قد سبق[3] ولكن يزيد عليه هنا أنهم يبدؤون يتعارفون بعد قيامه، وإن هي إلاّ فترة قصيرة ريثما يسمعون الصيحة الثانية»[4].

إن الذي نفهمه من كلامه هذا أنه يبين لنا تصريف القرآن الكريم لهذه المعاني دون أن يذكر المواضع التي وردت فيها تلك المعاني، والتي تبين لنا أنها وردت في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[7]. وقوله تعالى:

---

(1) مشاهد القيامة ص 146.

(2) يونس 45.

(3) أثبت التصريف القرآني الحشر في آيات كثيرة بلغ استقراؤها ستاً وعشرين آية، ومع ذلك فلا تكرار فيها، إذ إن كل واحدة منها تابعة لسياقها وأسباب نزولها، وفي كل منها جديد لم يكن في غيرها. تلكُم هي بلاغة القرآن في تصريف بيانه وتفنن أساليبه.

(4) مشاهد القيامة ص 146.

(5) البقرة 203.

(6) آل عمران 158.

(7) النساء 172.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾[2].
وقوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ ﴾[3].
نكتفي بهذا القدر من الآيات التي أشار إليها سيد قطب دون أن يذكرها.

ويوجه الخطاب في سورة يونس للرسول - ﷺ - تسلية له على تكذيب قومه له، مثبتاً رجوعهم إلى الله يوم القيامة، وهو شهيد على أعمالهم إذ يقول: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴾[4].

ثم يخبر أن لكل أمّة رسولاً يدعو إلى دين الله وطاعته، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالعدل، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[5].

ثم يتحول البيان فيحكي سؤال المشركين عن يوم البعث والجزاء إذ يقول: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[6].

ثم ينتقل الخطاب للرسول - ﷺ - فيأمره أن يعلن أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم الغيب، مبيناً أن لكل أمّة أجلاً فإذا جاء وقت فنائهم لا يمهلون، إذ يقول - عزَّ وجلَّ -: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[7].

---

(1) الأنعام 72.
(2) نفسها 38.
(3) نفسها 128.
(4) يونس 46.
(5) نفسها 47.
(6) نفسها 48.
(7) نفسها 49.

ويوجه الخطاب أيضاً للرسول - ﷺ - أن يطلب من المشركين إخباره إن جاءهم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، وجاءت الساعة ماذا يستعجل من نزول العذاب المجرمون الّذين كفروا بالله ورسوله إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[1].

ثم ينتقل الخطاب إلى بيان ما يقال للظالمين يوم القيامة، إذ يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[2].

ثم ينتقل إلى حكاية أقوال المشركين وتكذيبهم بعذاب اللهَ تعالَى، آمراً نبيه - ﷺ - أن يحلف أن ذلك حقّ لا شك فيه، فيقول - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[3].

ثم انتقل إلى بيان ما أخفوه حين يبصرون عذاب الله قد أحاط بهم، إذ لا مفر من الهروب منه، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[4].

والجدير بالذكر في هذا المقام أن أشير إلى أن المشهد الأول قد وردت له نظائر في القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم استدلّ على إثبات البعث وتحققه، بقياس البعث على الخلق الأول في ثلاث عشرة سورة، موزعة على كتاب الله - تعالى - وهو ما أظهره الاستقراء الكامل لهذا النوع من التصريف القرآني.

ومن ثم سأحاول تصنيفها حسب ترتيبها في المصحف، ذاكراً معانيها.

---

(1) يونس 50، 51.

(2) نفسها 52.

(3) نفسها 53.

(4) نفسها 54.

إن المتأمل في هذه الآيات يجدها قد تنوعت معانيها الدالة على إثبات البعث وتحققه، فمنها تشبيه الإعادة بابتداء الخلق، في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1]. إن هذا النسق البياني قرّبَ فيه البعيد وسهّل على الإفهام دخوله، والله على كل شيء قدير.

وقد عقد في هذه الآية الكريمة مشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته في أبلغ تعبير وأسلم تقرير، وإنّ في هذه الآية وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم، قياس ما في الغيب من المشاهد، وقياس ما بينه الله ـ تعالى ـ وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئي مشاهد، فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله، وأنه المالك لما هو واقع، والقادر على ما لم يقع الآن، وسيقع كما وعد، ووعده لا يتخلف[2].

ومنها قياس الإعادة على بدء الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[4].

ونود أن نضيف أن هاتين الآيتين وإن اتفقتا في قياس الإعادة على الخلق. لا يعني ذلك أنهما مكرّرتان، فقد اختلفتا في أسلوبهما، إذ الأولى إخبار مؤكد عن الإعادة، والثانية أمر للنبي ـ ﷺ ـ أن يقول للمشركين على جهة التوبيخ والتقريع، هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم، ثم يعيده ويحييه، ولما كانوا لا يستطيعون ذلك أمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يجيب: الله يبدؤا الخلق ثم يعيده.

(1) الأعراف 29.
(2) المعجزة الكبرى ص 381.
(3) يونس 4.
(4) نفسها 34.

يرى ابن عطية: أن في الآية الأولى إنباء بالبعث من القبور وهي من الأمور التي جوزها العقل وأثبت وقوعها الشرع، وأن المراد ببدء الخلق النشأة الأولى، والإعادة هي البعث من القبور، ليقع الجزاء على الأعمال، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾[1].

ويرى أبو السعود أن في الآية الثانية احتجاجاً على حقيقة التوحيد وبطلان الإشراك بإظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الألوهيَّه ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق وإعادته به ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما لم يعطف على ما قبله إيذاناً باستقلاله في إثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والإلزام[2].

ومنها قياس البعث على الخلق، حاكياً إنكار المشركين واستبعادهم لذلك اليوم، مذكّراً الإنسان بخلقه الأول وهو لم يكن شيئاً، مقسماً باسمه ـ عزَّ وجلَّ ـ على تحقق الحشر، مبيناً جزاءهم، وذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[3].

يرى أبو السعود: أن قوله: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ من الذكر الذي يراد به التفكر، والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإشعار بأن الإنسانية من دواعي التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنحية بالإقلاع عن القول المذكور وهو السر في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان، والهمزة للإنكار التوبيخي. والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه.

---

(1) المحرر الوجيز 3/ 104 ـ 105 وقال أبو السعود: «﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ وهو استئناف علل به وجوب المرجع إليه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنَّ غاية البدء والإعادة هي جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة» (إرشاد العقل السليم 4/ 119).

(2) نفسه ص 143.

(3) مريم 66 ـ 68.

ـ وإقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافاً إلى ضميره ـ عليه السلام ـ لتحقيق الأمر بالإشعار بعليته وتفخيم شأنه ـ ﷺ ـ ورفع منزلته.

وقوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ فيه إثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكده، كأنه أمر واضح غنيّ عن التصريح به، وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال[1].

ومنها قياس الإعادة على البدء، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[2].

بدأت الآية الكريمة في تصريف بيانها، بذكر علامات يوم البعث والجزاء، مشبّهة إيّاها بطيّ السجل للكتاب؛ لأن طيّ السّجل واضح معلوم، فكذلك يوم القيامة يطوي الله ـ سبحانه وتعالى ـ السماء بقدرته.

ثم شبه الإعادة ببدء الخلق، إذ إن بدء الخلق معلوم لا ينكره أحد، فكذلك الإعادة مثله سهلة ميسورة على الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ويقيس البعث على الخلق ومراحله؛ ليؤكد مقدرة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ على البعث بما هو معروف لدينا، وهو كما قيل: «إن إعادة ما عمل العامل أسهل عليه من بدء العمل»[3].

وذلك كما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ

(1) إرشاد العقل السليم 5/ 274 ـ 275.

(2) الأنبياء 104.

(3) من بلاغة القرآن ص 291.

بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[1].

وقد أشار محمد صادق عرجون إلى أن في هذه الآيات استدلالاً قطعياً لا تعوزه أقيسة المناطقة وتعقيدات المتفلسفين ؛ لأنه قائم على مقدمات صادقة ، تؤمن بها الفطر النقية ، فالذي خلق الإنسان خلقاً بعد خلق ، وصوره طوراً بعد طور ، بدأ خلقه تراباً ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم جنيناً يتحرك في قرار مكين ، ثم أخرجه طفلاً يتنسم أنسام الحياة ، ثم سواه شاباً سوياً ، وربّاه حتى جعله شخصاً قوياً ، يعمّر منه من يعمر حتى يبلغ أرذل العمر ، فيرتد عقله وتصوراته وعواطفه ومشاعره إلى خلُق الطفولة ، ويجهل بعد علم ، ويضعف بعد قوة ، تقول الآية الكريمة ، مخاطبة الإنسان في عموم أفراده : من كانت هذه قدرتُه في نشأتك الأولى وخلقك وأطوار حياتك المشاهدة لك ، لا يعجزه إحياؤك بعد موتك ، وإعادتك بعد فنائك ؛ ليوفيك جزاء عملك ، فهو القادر على كل شيء ، وهو الخلاق العظيم[2].

وذكر ابن الزبير الغرناطي : «أن آية سورة الحج مقصود فيها إقامة البرهان على البعث الأخرويّ ، وبسط الدلالات على كيفيته وإرغام منكريه ، ألا ترى أن هذه الأحوال والانتقالات على ما وضح من التدريج ، لا يكون إلاّ من فاعل قادر حكيم مختار عليم . . . ويزيد هذا المقصود أيضاً بياناً تعقيب آية الحج بقوله : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فهذا إحياء بعد موت ، ثم قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[3].

---

(1) الحج 5 ـ 7.
(2) القرآن الكريم هدايته وإعجازه ص 288.
(3) ملاك التأويل 2/ 715.

وعقب ابن أبي الإصبع المصري على هذه الآيات بقوله: خمس نتائج تُستنتج من عشر مقدمات، وسياقها مفصّلة على الترتيب، قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾؛ لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه ـ سبحانه ـ أخبر بزلزلة السّاعة معظّماً لها، وذلك مقطوع بصحته؛ لأنه خبر أخبره من ثبت صدقُه عمّن ثبتت قدرته، منقول إلينا بالتواتر، فهو حق، ولا يخبر بالحقّ عما سيكون إلاّ الحق، فالله هو الحقّ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه يحيي الموتى؛ لأنه ـ تعالى ـ أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى؛ ليشاهدوا تلك الأهوال التي فعلها الله ـ سبحانه ـ من أجلهم، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى، فهو يحيي الموتى، وأخبر أنه على كلّ شيء قدير؛ لأنه أخبر أنه يعمّ الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم بعذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلاّ من هو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء قدير، وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها؛ لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله: ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ وضرب ـ سبحانه ـ لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء فتهتزّ وتربو وتُنبت من كلّ زوج بهيج.

ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق، ثم أعدمه بالموت، ثم يعيده بالبعث، وأوجد الأرض بعد العدم، فأحياها بالخلق، ثم أماتها بالمحل، ثم أحياها بالخصب، وصدق خبره في ذلك كلّه، بدلالة الواقع الشاهد على المتوقّع الغائب حتى انقلب الخبر عياناً صدق خبرُه في الإتيان بالساعة، ولا تأتي الساعة إلاّ ببعث من في القبور، إذ هي عبارة عن مدّة تقوم فيها الأموات للمجازاة، فالساعة آتية لا ريب فيها، وهو ـ سبحانه ـ يبعث من في القبور[1].

وهو كما قيل: استدلال ممتع، فقد عرض القرآن دلائله وبراهينه في أسلوب أدبي رائع، يستهوي نفس العربيّ، فينفتح فؤاده ـ وهو لا يدري ـ لسماع ما يُعرض عليه،

---

(1) بديع القرآن ص 38 ـ 39، وذكره السيوطي في الإتقان 4/ 52 ـ 53.

مأخوذاً بعذوبته وجماله، ثم يرى نفسه مسوقاً للتأمل فيما يسمع، والتدبر فيما يُلقى إليه، وإن كان مخالفاً لعقيدته، ومفنّداً لرأيه، ومبطلاً لما درج عليه من مذاهب وأهواء.

ولم يتوجه القرآن بالدليل إلى العقل وحده، لكنه خاطب جميع القوى المدركة والمؤثرة في النفس الإنسانية، وتدرج في الدليل من مرحلة إلى أخرى، مستخدماً الإثارة الوجدانيَّة تارة وتحريك العاطفة تارة أخرى، وهز مشاعر الرجاء والخوف، ووجّه النظر إلى المُحَس المشاهَد، وقاس عليه البعيد الغائب، وقطع السبيل على المجادل، وسد جميع الثغرات أمام الناظر، حتى لا يجد غضاضة في التسليم ولا مرارة في القبول، ولا محيصاً من الإذعان[1].

والقرآن الكريم يصوّر ذلك اليوم أبلغ تصوير، ليقرّبه إلى الأذهان، مثبتاً قدرة الله على ذلك، ذلكم بلاغة القرآن العالية، وأسلوبه البديع، وليس ذلك من التكرار الذي يراه بعض المهتمّين بعلوم القرآن وإعجازه إذ يخطئون في اختيار المصطلح المناسب - كما قلنا - في حديثنا السابق.

فهذا صاحب كتاب «القرآن العظيم هدايته وإعجازه»: يقول: وقد تكرر هذا اللون الاستدلالي على البعث في القرآن الكريم بصور مختلفة في الإجمال والتفصيل؛ ليقيم الله الحجة على أهل الإلحاد المعاندين، وليوثق الإيمان في قلوب المؤمنين، وقد جاء في تعبير مجمل رائع في سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

وجاء في سورة المؤمنون وهي في الترتيب عاقبة لسورة الحج: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[3].

---

(1) خصائص التعبير القرآني 1/ 452 - 453.
(2) يس 77.
(3) المؤمنون 12 - 16.

وسورة الحج تتبع هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العلمي ليكون لكل ذي نظر من الأنظار المختلفة في العلوم والمعارف الإنسانية حظه من طرائق الاستدلال القرآني[1].

والذي نراه أن ذلك لا يعد تكراراً، بل هو تصريف للبيان القرآني العجيب؛ لتحقيق المقاصد السامية، المرادة من تصريف هذه الآيات، إذ النظرة الإجمالية للآيات التي برهنت وأقامت الحجة القاطعة على إثبات البعث والجزاء، تبين أن هذه الآيات اتفقت في بعض مضامينها من حيث الاستدلال على وقوع ذلك اليوم، واختلفت في بعض مضامينها الأخرى، وكذلك في بعض مفرداتها ومناسباتها، وكذلك اختلفت في سوابق الآيات ولواحقها، الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنها وعن غيرها من الآيات.

ومن هنا أقرّ أن هناك خطأ في اختيار المصطلح المناسب عند بعض المهتمين بالدراسات القرآنية إذ يخلطون بين التكرار وبين مدلولات التصريف القرآني.

فوقفة متأنية مع الرأي السابق لمحمد صادق عرجون يتبين لنا شيءٌ ـ مما ذكرت ـ وبخاصة قوله: «وقد تكرر هذا اللون الاستدلالي على البعث في القرآن الكريم بصور مختلفة في الإجمال والتفصيل... الخ فكلمة تكرر هذا اللون الاستدلالي لا تتفق وقوله: «بصور مختلفة في الإجمال والتفصيل»، فالصور المختلفة هذه أحد مدلولات التصريف القرآني، إذ إن هناك تنويعاً في البيان، ومقاصد ومناسبات لكل آية من الآيات الكريمة.

ومما يزيد هذا الاختيار بياناً قوله: «وسورة الحج تتبع هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العلمي ليكون لكل ذي نظر من الأنظار المختلفة».

وهذا ـ فيما أعتقد ـ هو التنويع البياني؛ لأن هناك ألواناً من الإستدلال، لا لوناً واحداً، يتكرر حتى نطلق عليه مصطلح التكرار.

---

(1) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 288 ـ 289.

ونجد البيان القرآني، يقيس الإعادة على بدء الخلق بأسلوب مخالف لأسلوب الآيات السابقة، وذلك بطريق الاستفهام لإثبات أمرين مهمّين، لهما علاقة قوية ببعضهما، وهما: إثبات البعث والجزاء، وإثبات التوحيد الخالص لله ربّ العالمين، وذلك ما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

قال الرازي: «اعلمْ أنه ـ تعالى ـ لما عدّد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة؛ لأن نعم الآخرة بالثواب لا تتم إلاّ بالإعادة بعد الابتداء، والإبلاغ إلى حد التكليف، فقد تضمّن الكلام كل هذه النعم، ومعلوم أنها لا تتم إلاّ بالأرزاق

فإن قيل لهم: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم منكرون للإعادة؟ جوابه: كانوا معترفين بالابتداء، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية، فلما كان الكلام مقروناً بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار، وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ»[2].

ونجد البيان أيضاً يستدل على قدرة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ على البعث والجزاء، بأسلوب قريب من أسلوب الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

وذلك عن طريق السؤال ثم الإجابة عليه لإرغام المكذّبين وإفحامهم بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على القدرة الإلهيّة.

---

(1) النمل 64.

(2) تفسيره 24/ 210.

(3) العنكبوت 19 ـ 20.

يرى أبو السعود أن ذلك: «كلام مستأنف مسوق من جهته ـ تعالى ـ للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، وسنوح سبيله، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها»[1].

ونجده كذلك يخبر أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبدأُ الخلق ثم يعيده، إذ يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

بالتأمل في هاتين الآيتين نجد أن أسلوبهما متقاربٌ في نظمه من حيث الإخبار ببدء الخلق وإعادته، ومختلف في بعض الدلالات الأخرى، إذ بدأت الأولى باسم الجلالة، والثانية بالضمير الذي يدل عليه ـ سبحانه وتعالى ـ ثم عطفتا معاً بثم التي تفيد الترتيب مع التراخي، والمعنى أن الإعادة ستتحقّق في أجل يعلمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم بيَّن في الآية الأولى بأن الحساب والجزاء متحقّق وختمها بذلك، وفي الثانية بين أنه أيسر عليه ـ سبحانه وتعالى ـ وختمها بصفتي ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ «والعزة والحكمة، صفتان موافقتان لمعنى الآية، فبهما يعيد وينفذ أمره في عباده كيف شاء»[4].

نصل من المقارنة بين الآيتين إلى أنه ليس فيهما ولا بينهما تكرار، بل هو تصريف للبيان، المقصود منه التنويع وبيان القدرة الإلهية على ذلك بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، وهو ليس كما يراه أبو السعود والألوسي: أن في الآية الثانية: تكريراً لزيادة التقرير لشدة إنكارهم البعث، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[5].

---

(1) إرشاد العقل السليم 7/ 34.

(2) الروم 11.

(3) نفسها 27.

(4) المحرر الوجيز 4/ 335.

(5) إرشاد العقل السليم 7/ 58، وروح المعاني 21/ 36.

لأن التكرير لابد أن يكون متماثلاً في أسلوبه ودلالاته، وهو هنا غير متوفّر، فالجزء الأول من الآية استدل فيه على الإعادة ببدء الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ وفي الجزء الثاني منها بين أن ذلك كما قيل: أسهل على الله من المبدأ، والأسهلية على طريق التمثيل بالنسبة لما يفعله البشر، مما يقدرون عليه، فإن إعادة شيء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده إبتداء، والمراد التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلاّ فكل الممكنات بالنسبة إلى قدرته ـ تعالى ـ عزَّ وجلَّ سواء[1].

وقد استدل على إثبات البعث بقياس البعث على الخلق فقال تعالى: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٍ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾[2].

ونجد البيان القرآني يقيس البعث على الخلق، ذاكراً استغرابهم وتعجبهم من هذه القضية، عن طريق السؤال ثم الجواب عنه، مصوراً قدرة الله على ذلك أبلغ تصوير، فيقول تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[3].

ويستدل على ذلك بقياس الخلق الجديد على الخلق الأول، فيقول تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِى لَبۡسٍ مِّنۡ خَلۡقٍ جَدِيدٍ ﴾[4].

ثم يخبر أنه هو الذي يبدئ ويعيد، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴾[5].

نخلص من العرض السابق إلى أن القرآن الكريم يصرّف الآيات الدالة على البعث والجزاء وتحققهما، بقياس البعث على الخلق، على وجوه وأساليب شتى،

---

(1) روح المعاني 21/ 36.
(2) لقمان 28.
(3) يس 77 ـ 83.
(4) ق 15.
(5) البروج 13.

غاية في البلاغة والفصاحة، مقرّباً البعيد إلى الأذهان ومسهلاً الصعب، مستدلاً عليه بدلائل الخلق والإبداع، وذلك لإرغام المكذبين وإفحامهم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، بقصد تحقيق الإيمان والعمل الصالح، والإقبال على الخير وتجنب الشر.

وقد اختلف نظم هذه المعاني، وذلك مما ينفي صفة التكرار عنها فتنتظم أحياناً عن طريق السؤال والجواب، وأحياناً أخرى عن طريق الإخبار المؤكد، وتارة عن طريق القسم باسمه - عزَّ وجلَّ - ومرّة يطول الاستدلال ويتنوع، ومرّة يقصر، كل ذلك راجع إلى مقاصد الآيات والسور، ذلكم التنويع العجيب والتفنن الدقيق، الذي تميز به القرآن الكريم، وجعله أمراً معجزاً.

ثانياً: تنوع الأساليب الدالة على البعث والجزاء في سورة يونس:

رأينا فيما سبق تنوع المعاني الدالة على البعث والجزاء في سورة يونس، وأن لها دلالات تميزها عما عرض في غيرها من مشاهد القيامة، وذلك في رأينا راجع إلى تنوع الأساليب المحققة لتلك المقاصد، وهو ما سنبينه في هذا المطلب.

إذ يلاحظ أن أسلوب المشهد الأول قد بدأ بالإخبار المؤكد رجوع الخلق جميعاً إلى الله - عزَّ وجلَّ - وذلك في يوم البعث والجزاء، فالخبر المؤكد ابتداء الخلق وإعادته، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[1].

قال الزمخشري: «استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم»[2].

وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[3].

(1) يونس 4.

(2) الكشاف 2/ 225.

(3) يونس 4.

إن هذا التعليل هو الذي قابل فيه بين الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وجزائهم وبين الّذين كفروا وجزائهم، ذلك أن المقابلة بين الشيء وضده تبرز صفات وخصائص كل منهما؛ ليكون الأمر واضحاً؛ وليختار الإنسان العاقل الطريق الصحيح، ويبتعد عن ضده.

وقد جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ للدلالة على مواظبتهم على الكفر، وتغيير النظم الكريم للإيذان بكمال استحقاقهم للعقاب[1].

وقد بدأ المشهد الثاني أيضاً بالأسلوب الإخباري المؤكد أن الّذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربّهم بسبب إيمانهم؛ بيد أن هذا الإخبار مختلف عن سابقه.

وقد أوثر الالتفات في قوله تعالى: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم ﴾ تشريفاً لهم بإضافة الربّ وإشعاراً بعلة الهداية[2].

وأما أسلوب المشهد الثالث، فقد بدأ كذلك بالأسلوب الخبري الذي يختلف عن أسلوب المشهد الأوّل والثاني في نظم معانيه، مدموجاً به الأسلوب الوصفي، فالإشارة الدالة على علو درجة الموصوفين وسمو طبقتهم بما ذكر من النعوت الجميلة، ثم انتقل في الآية التي تليها إلى أسلوب التقابل، إذ قابل جزاء أهل الإيمان وصفاتهم في الآية الأولى بجزاء أهل السيئات وصفاتهم في الآية الثانية، فالتشبيه المبين لحال الكافرين، فالإشارة الدالة على عظيم جزائهم الذي يلقونه، جزاء أعمالهم المخالفة لشرع الله ـ تعالى ـ.

وأما أسلوب المشهد الرابع فقد بدأ بالأسلوب الإخباري المؤكد حشر الخلائق جميعاً، الذي يحمل في ضمنه التوبيخ والتقريع، فالأمر الملزم لانتظار ما يفعل الله بهم، فأسلوب المحاورة الذي يحكي تبرُّؤَ الأتباع من المتبوعين.

---

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 119.

(2) نفسه ص 123.

وقد أشار أبو السعود إلى أن إيثار صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسر، والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة إيذاناً بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة[1].

ثم انتقل الأسلوب في الآية الرابعة إلى الإخبار الذي يؤكد اكتفاء الشركاء بشهادة الله - تعالى - على أنهم لم يشعروا بعبادتهم ولم يعلموا بها.

ثم انتقل في الآية الخامسة إلى الإشارة الدالة على اختبار كل نفس في ذلك المقام، وهو يوم البعث والجزاء، وهذا اعتراض في أثناء الحكاية مقرر لمضمونها[2].

وقد تلاه المدح الذي يفيده قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ قال أبو السعود: «إن العدول إلى الماضي للدلالة على التحقق والتقرير، وإنّ إيثار صيغة الجمع للإيذان بأن ردهم إلى الله يكون على طريقة الاجتماع لا يلائمه التعرض لوصف الحقيقة في قوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فإنه للتعريض بالمردودين حسبما أشير إليه»[3].

وأما أسلوب آيات المشهد الخامس فقد بدأت بالالتفات - على ما ذكره أبو السعود -[4] فالتشبيه الذي يفيد التقليل، فالإخبار المؤكد خسران الّذين كذّبوا بلقاء الله، فنفى اهتدائهم والتعجب منه.

ثم انتقل في الآية الثانية إلى أسلوب الشرط، فالوعيد والتهديد، وقد انتقل في الآية الثالثة إلى الإخبار الذي يفيد أن لكل أمة رسولاً، يبعث إليها بشريعة خاصة، مناسبة لأحوالهم، فالشرط الذي يفيد أن الله - سبحانه وتعالى - يقضي بين كل أمّة ورسولها بالعدل.

---

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 139 - 140.

(2) نفسه ص141.

(3) نفسه.

(4) نفسه ص 150.

وانتقل في الآية الرابعة إلى أسلوب المحاورة، فالاستفهام المراد به الاستبعاد والإستهزاء، إستعجالاً منهم لما وعدوا من العذاب[1] فالشرط المراد به التعجيز، وهو خطاب منهم للنبي - ﷺ - والمؤمنين[2].

وفي الآية الخامسة انتقل إلى أسلوب الأمر الموجه للرسول - ﷺ - أن ينفي عن نفسه القدرة على تقديم الضر والنفع لنفسه، فالاستثناء الذي يستثنى مشيئة الله - تعالى - مما أراد من ذلك شيئاً، فالإخبار المؤكد أن لكل أمة أجلاً، فالشرط الذي يفيد أن الأجل إذا حضر فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وانتقل في الآية السادسة إلى أسلوب الأمر الموجه للرسول - ﷺ - فالاستفهام، فالشرط، فالاستفهام المراد به إنكار الاستعجال.

وانتقل في الآية السابعة إلى الاستفهام المراد به إنكار التأخير، فالشرط المحذوف جوابه[3].

فالاستئناف المقرر لمضمون ما سبق على إرادة القول، أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب، إنكاراً للتأخير وتوبيخاً عليه[4]. فالإخبار لتشديد التوبيخ والتقريع.

ثم انتقل في الآية الثامنة إلى أسلوب العطف، فالأمر المراد به تأكيد التوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب[5]. فالاستفهام التقريري الذي يقرر عدالة الجزاء الإلهي.

ثم نجد أن الآية التاسعة بدأت بالاستفهام على جهة الإنكار والاستهزاء - على ما ذكره الزمخشري[6] - فالأمر مدموجاً به القسم المؤكد للعذاب، وأكد باللام لشدة

---

(1) انظر المرجع السابق ص 151، وتفسير البيضاوي 2/ 234.

(2) نفسه.

(3) انظر إرشاد العقل السليم 4/ 153، وتفسير البيضاوي 2/ 234.

(4) إرشاد العقل السليم 4/ 153.

(5) نفسه.

(6) الكشاف 2/ 241.

إنكاره وقوته، وقد زيد تقريراً وتحقيقاً بقوله ـ عز اسمه ـ: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[1]. أي بفائتين العذاب بالهرب، وهو لاحق بكم لا محالة[2].

وأما الآية العاشرة فقد بدأت بأسلوب الشرط، فالأسلوب الإخباري.

والجدير بالذكر في هذا المقام، أن قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[4].

ليس تكراراً؛ لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم، والثاني مجازاة المشركين على الشرك، أو الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم[5].

المثال الثالث: تنوُّع المعاني والأساليب الدالة على البعث والجزاء في سورة إبراهيم:

أولاً: تنوع المعاني الدالة على البعث والجزاء في سورة إبراهيم:

تنوع إثبات البعث والجزاء في سورة إبراهيم، إذ عُرض في مواضع متفرقة من هذه السورة، فجاء في كل مرة مناسباً لموقعه أتم مناسبة، ومن ثم يمكن تقسيمها إلى أربعة مشاهد بيانها كالتالي:

فالمشهد الأول جاء في سياق حكاية أقوال الكافرين لرسلهم، وبيان وحي الله ـ تعالى ـ إليهم، أنه سيهلك هؤلاء الظالمين، لذلك ناسب أن يصرف القول في بيان مشهد من مشاهد البعث والجزاء، مبّيناً فيه استنصار الرسل بربّها على قومها،

---

(1) يونس 53.
(2) إرشاد العقل السليم 4/ 154.
(3) يونس 47.
(4) نفسها 54.
(5) تفسير البيضاوي 2/ 235.

وإهلاك كل متكبر جبّار، مصوراً جزاءهم أبلغ تصوير، متمثلاً في جهنم التي أعدها الله لكل متكبر جبّار يَرِدُها، ويسقى من القيح والدم الذي يسيل منه.

ومما يزيد ذلك تصويراً لهذا الموقف الرهيب، أن هؤلاء يتجرعون هذا الصديد، ولا يكاد الواحد منهم يبتلعه، فيأتيه الموت من كل موضع ولكنه لا يموت فيستريح؛ لأن من وراء هذا العذاب، عذاباً آخر أشد منه وأمر، إذ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[1].

ثم انتقل السياق إلى تمثيل أعمال الكافرين يوم القيامة بالرماد المتطاير في يوم عاصف، وأنهم لا ينتفعون بها؛ لأنهم لم يتبعوا أوامر الله ولم يجتنبوا نواهيه، إذ قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[2].

ثم انتقل السياق إلى لفت أنظار المكذبين بوحدانية الله - تعالى - وبيوم البعث والجزاء، إلى دلائل القدرة الإلهية، إذ ساق دلائل من الآفاق، متبوعة ببيان قدرته على إفناء المخاطبين، وإنشاء خلق سواهم، إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[3].

ثم يمضي السياق فيعرض مشهداً آخر من مشاهد البعث والجزاء، ذلك هو مشهد الكفار جميعاً، أمام العدالة الإلهية في ذلك اليوم، ذاكراً محاورة بعضهم لبعض، مبيناً أنهم ثلاث فرق، فرقة الضعفاء، وهم الّذين اتبعوا الّذين استكبروا عن

---

(1) إبراهيم 15 - 17.

(2) نفسها 18.

(3) نفسها 19 - 20.

إتباع الحق، إذ يسندون أعمالهم كلها للأتباع، موجهين السؤال إليهم، عما إذا كانوا يدفعون عنهم من عذاب الله من شيء، إذ قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾[1].

ثم نجد الفرقة الثانية وهم المستكبرون: يتنصلون منهم؛ لأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا العذاب عن أنفسهم، وقد استوى عندهم الجزع والصبر؛ لأنه لا نجاة من العذاب، إذ قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[2].

ثم ينتقل السياق فيحكي لنا ردّ الفريق الثالث، ألا وهو الشيطان، وذلك يوم البعث والجزاء، إذ يعترف في ذلك اليوم لأتباعه بأن الله وعدهم وعد الحقّ، وأنه هو وعدهم فأخلفهم، ثم يتنصل منهم ويلقي التبعة عليهم، إذ يقول لهم لوموا أنفسكم على إتباعكم لي ولا أستطيع أن أنجيّكم من عذاب الله ولا أنتم تستطيعون ذلك، إذ يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3].

قال أبو حيان: «مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه لما ذكر محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة، ذكر محاورة؛ الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبس بالإضلال، والشيطان هنا إبليس وهو رأس الشياطين»[4].

---

(1) إبراهيم 21.

(2) نفسها 21.

(3) نفسها 22.

(4) البحر المحيط 5/ 408.

وقال سيد قطب: «وإن هذا لهو الإبداع في تصوير الموقف، الذي يتخلى فيه التابع عن المتبوع، ويتنكر المتبوع للتابع، حيث لا يجدي أحداً منهم أن يتخلى أو يستمسك ولكنها طبيعة كل فريق، تبرز عارية أمام الهول العظيم»[1].

ثم انتقل السياق إلى بيان جزاء الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعده الله لهم من الأجر العظيم والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[2].

ثم عرض مشهداً ثالثاً من مشاهد البعث والجزاء، يختلف في معانيه وأساليبه عما عرض قبله؛ إذ ورد في سياق دعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذكره ليوم الحساب، لذلك ناسبه في هذا المشهد أن يوجه الخطاب لنبيه محمد ـ ﷺ ـ مذكراً له أن الله ليس بغافل عما يعمل هؤلاء الظالمون، إنما يؤخر عقابهم ليوم البعث والجزاء، مبيّناً حالهم في ذلك اليوم، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[3].

ثم ينتقل السياق إلى خطاب الرسول ـ ﷺ ـ مبيناً مهمته، وهي إنذار الناس بذلك اليوم فيقول تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾[4].

ثم ينتقل إلى بيان أن الكافرين يوم القيامة يطلبون من الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يمهلهم إلى وقت من الزمان قريب للإيمان به ـ تعالى ـ وتصديق الرسل إذ يقول ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾[5].

---

(1) مشاهد القيامة ص 195.

(2) إبراهيم 23.

(3) نفسها 42 ـ 43.

(4) نفسها 44.

(5) نفسها 44.

ثـم ينتقـل إلـى تقريـع هـؤلاء الكـافرين وتوبيخـهم علـى تكذيبـهم بيـوم البعـث والجـزاء، وعلـى عـدم اعتبـارهم واتعاظـهم بـأحوال الأمـم السـابقة الّذيـن ظلمـوا أنفسهم، وتبين لهم كيف فعل الله بـهم، إذ قـرّب لـهم ذلـك عـن طريـق التمثيـل، إذ يقـول تعـالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[1].

ثم انتقل إلى بيان أن الله ـ تعالى ـ لا يخلـف وعـد رسله، بإهلاك مـن كذّبـهم وجحد رسالتهم، إذ قـال تعـالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[2]. قال أبو حيـان: «إن اللـه عزيـز لا يمتنـع عليـه شـيء، ولا يغلـب، ذو إنتقام من الكفرة لا يعفو عنهم»[3].

ثم انتقل السياق إلى مشهد آخر غير المشاهد السابقة في المعنى والأسلوب، وهو مشهد تغيير الأرض والسموات حين تصبح غير الأرض والسماء التي عـهدوها، وقد ظهروا من قبورهم أحياء لموقف الحساب، أمام الواحد القـهار، إذ يقـول تعـالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[4].

قال صاحب «مشاهد القيامة»: «مشهد التغيير الشامل لكل ما يعهده الناس في الدنيا، فالموقف هنا جديد طارئ على أبصارهم وحواسهم»[5].

---

(1) إبراهيم 44، 46.

(2) نفسها 47.

(3) البحر المحيط 5/ 427.

(4) إبراهيم 48.

(5) مشاهد القيامة ص 196.

ثم ينقلنا هذا المشهد لمشاهدة حالة المجرمين يوم القيامة، وهم مقيّدون بالقيود، قد قُرنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، وثيابهم التي يلبسونها من قطران، وتحرق وجوههم النار، إذ يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1].

ثم انتقل إلى بيان العدالة الإلهية في الجزاء، إذ يقول تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

ثانياً: تنوع الأساليب الدالة على البعث والجزاء في سورة إبراهيم:

بدأ المشهد الأول في الآيتين الأولى والثانية بالأسلوب الخبري، فالأسلوب الوصفي، الذي يبين حال الكفرة يوم البعث والجزاء، فالعودة إلى الأسلوب الخبري المؤكد للعذاب، فأسلوب النفي، الذي ينفي الموت عنهم حقيقة حال العذاب الذي ينتظرهم، فالأسلوب الوصفي الذي يحمل في ضمنه التهديد والوعيد، وهو المبين لنوع العذاب الذي يتلقاه الكفرة.

وانتقل في الآية الثالثة إلى أسلوب التمثيل الذي مثل أعمال الكافرين بالرماد المتطاير، وذلك ما سنبينه في محله ـ إن شاء الله تعالى ـ[3].

ثم انتقل في الآية الرابعة إلى أسلوب الاستفهام التقريري، وهو خطاب للنبي ـ ﷺ ـ والمراد أمته، وقد قيل لكل واحد من الكفرة على التلوين[4]، استدلالاً بقدرته على الإعادة بقدرته على الخلق. ذلك أن التصريف القرآني قد أثبت البعث بقياسه على خلق السموات والأرض في غير ما آية استدلالاً بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ

---

(1) إبراهيم 49، 50.

(2) نفسها 51.

(3) سيأتي لهذه الآية وغيرها مزيد بيان في فصل تصريف الأمثال.

(4) تفسير البيضاوي 2/ 357، وإرشاد العقل السليم 5/ 40.

إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4].

وهكذا فإن في هذه الآيات احتجاجاً على المنكرين للبعث، بعرض دلائل الآفاق التي يشاهدونها والمقرّين بها، وقد انتظمت مع ما قبلها بأسلوب الاستفهام الذي يفيد التبكيت والتوبيخ، وإلزام المكذبين الحجة.

إن الذي يمكن لنا ملاحظته في هذه الآيات وإن اتفقت في دلالاتها المعنوية، الدالة على إثبات البعث وتحققه، فقد اختلفت في بعض أساليبها اللفظية، وما ختمت به هذه الآيات، الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنها.

وأما المشهد الثاني فقد بدأ بالأسلوب الإخباري المؤكد ببروز الناس جميعاً من قبورهم يوم القيامة، لأمر الله ـ تعالى ـ ومحاسبته لخلقه.

قال أبو حيان: « ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ عائد على الخلق المحاسبين، وعبر بلفظ الماضي لصدق المخبر به، فكأنه قد وقع»[5].

وقال أبو السعود: «وإيثار صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ للدلالة على تحقق وقوعه»[6].

---

(1) إبراهيم 19.
(2) الإسراء 99.
(3) يس 81.
(4) الأحقاف 33.
(5) البحر المحيط 5/ 406.
(6) إرشاد العقل السليم 5/ 41.

وقد بين الزركشي سر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، فقال: «ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهدّدة المتوعدّ بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه»[1].

إن الذي يمكن لنا استخلاصه أن هذه الآراء لا تتعارض بل تتآزر في الكشف عن سر هذا التعبير الدال على تحقيق البعث ووقوعه.

وقد عقب ذلك بأسلوب المحاورة بين الأتباع والمتبوعين، الذي يبين ما حصل بينهم في هذا اليوم من عتاب وتوبيخ وتقريع وتبكيت، وتنصُّلِ بعضهم من بعض، وهو الغالب على أسلوب هذا المشهد، فالإخبار المؤكد اعتراف المتبوعين للأتباع بتكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم، فالاستفهام المراد به التوبيخ والعتاب، فالمحاورة التي تحكي جواب المستكبرين عن معاتبة الأتباع لهم.

ثم انتقل في الآية الثانية إلى المحاورة التي تحكي ردّ الشيطان على الأتباع والمتبوعين يوم الحساب، فالإخبار المؤكد اعتراف الشيطان بتحقق البعث والجزاء، ووعدهم هو وعد الباطل فأخلفهم وعده، فالنفي الذي يبين تنصّله من الأتباع والمتبوعين، فالاستثناء الذي يفيد أنه ليس له عليهم سلطان إلاّ الدعاء. فالإخبار بالاستجابة له، فالنهي الذي يفيد التنصل والتبرُّؤ منهم، فالإخبار المؤكد تبرُّؤ الشيطان واستنكار إشراكهم إيّاه من قبل يوم البعث والجزاء، فالإخبار المؤكد عذاب الظالمين.

ثم انتقل في الآية الثالثة إلى الأسلوب الإخباري مقروناً به الأسلوب الوصفي المبين لجزاء الّذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وأما المشهد الثالث فقد ـ ذكرنا عند توضيحنا للمعاني الواردة فيه ـ أنه يختلف في معانيه وأساليبه عما عرض قبله، فقد بدأ هذا المشهد بأسلوب النهي الموجه

---

(1) البرهان في علوم القرآن 3/ 372.

للرسول ـ ﷺ ـ والذي يحمل في ضمنة وعيد الظالمين وتهديدهم، وفيه أيضاً تسلية له ـ ﷺ ـ فالأسلوب التعليلي، الواقع استئنافاً لتعليل ما سبق[1].

وقد انتقل في الآية الثانية إلى الأسلوب الوصفي الذي يبين عذاب الظالمين وحالهم في يوم البعث والجزاء.

وانتقل في الآية الثالثة إلى أسلوب الأمر الموجه للرسول ـ ﷺ ـ المبين لمهمته، والمراد بالناس ـ على ما ذكر أبو السعود ـ الكفار المعبر عنهم بالظالمين، كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب ـ والعدول إليه من الإضمار للإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم، أو الناس جميعاً، فإن الإنذار عام للفريقين[2].

والرأي الأخير هو الذي نميل إليه؛ لما يدل عليه ظاهر النص؛ ولأن الرسول ـ ﷺ ـ مبعوث للناس جميعاً.

وقد عطف عليه أسلوب المحاورة، فأسلوب الأمر من الأدنى إلى الأعلى، فأسلوب الاستفهام المراد منه توبيخ الظالمين وتبكيتهم على ما كانوا عليه في الدنيا من التمتع بها، والتكذيب بيوم البعث والجزاء.

ثم انتقل في الآية الرابعة إلى الأسلوب الإخباري الذي يحمل في ضمنه التقريع والتوبيخ، فالتعجب من حالهم بعد أن بين أحوال السابقين وآثارهم.

ثم عطف الآية الخامسة على سابقتها بالأسلوب الإخباري المؤكد إظهار عجز الظالمين واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند الله ـ تعالى ـ[3]. فالأسلوب الشرطي الذي يؤكد شدة مكر الظالمين ومتانته.

---

(1) انظر إرشاد العقل السليم 5/ 55.

(2) نفسه 5/ 56.

(3) نفسه 5/ 58.

ثم ختم هذا المشهد بالنهي الموجه للرسول ـ ﷺ ـ كما بدأه به، والمراد به: «تثبيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ما كان عليه من الثقة بالله ـ تعالى ـ والتيقن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يوم إتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الأمم السالفة، بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم»[1]. ثم تلاه الأسلوب الإخباري المؤكد وعيد الظالمين وتهديدهم، وهي جملة اعتراضية، جاءت تعقيباً مناسباً لما أعقب به.

وأما أسلوب المشهد الرابع فهو أيضاً مخالف لأساليب المشاهد السابقة في نظمه؛ إذ بدأ بالظرف الزماني، مقروناً به الفعل المضارع الدال على التغيير، فالانتقال إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق البعث والجزاء.

ثم عدل في الآية الثانية إلى المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار[2]. فالأسلوب الوصفي الذي يبين حال المجرمين في ذلك اليوم.

ثم عاد إلى الوصفي أيضاً في الآية الثالثة، ليبين صفات المجرمين في ذلك اليوم.

وانتقل في الآية الرابعة إلى تعليل الجزاء، وهو جزاء عادل موافق للعمل، فالإخبار المؤكد لسرعة الجزاء.

المثال الرابع: تنوع المعاني والأساليب الدالة على البعث والجزاء في سورة القصص

تضمنت سورة القصص أربعة مشاهد أيضاً من مشاهد يوم القيامة، يثبت فيها المولى ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك اليوم وتحققه، وهذه المشاهد جديدة في معانيها، جديدة كذلك في أساليبها، وذلك ما ستجليه هذه الدراسة.

أولاً تنوع المعاني الدالة على البعث والجزاء في سورة القصص:

نجد أن المشهد الأول جاء في سياق بيان استكبار فرعون وجنوده في الأرض عن تصديق موسى ـ عليه السلام ـ والإقرار بالعبودية لله ربّ العالمين، وتكذيبهم بيوم

(1) إرشاد العقل السليم ص 59.

(2) نفسه ص 60.

البعث والجزاء، وبيان إغراقهم في البحر، ولفت انتباه الرسول ـ ﷺ ـ وأمته إلى عاقبة هؤلاء المكذبين، لذلك ناسبه أن يبين حال فرعون وقومه، وكونهم أئمة الكفر والضلال، يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرهم الله ـ عز وجل ـ إذ يقول: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1]. وقد أرجع ذلك سيد قطب إلى جماليات النظم القرآني من خلال التصوير إذ قال: «فهم كانوا في الدنيا أئمة قومهم في الضلال فلقد صورهم هنا ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ وهي إمامة غريبة ودعوة عجيبة، ترسم صورة في الخيال لأغرب الدعوات، حين يقول الإمام لتابعيه، هيّا بنا إلى النار!! فهم عجزة محتاجون إلى النصر، ثم هم لا ينالون هذا النصر من أحَد، وذلك في مقابل مشهد القوة التي يتعالون بها في الدنيا، وقد عرض في السورة قبل عرض هذا المشهد[2]. وهم في هذه الدنيا متبوعون باللعنة ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾[3] وهو تعبير مصور لأشد حالات التقبيح»[4] ذلك أن هذا الحس الجمالي هو ما انفرد به سيد قطب في كثير من مؤلفاته، ولم يسبقه أحد إليه.

ثم ينتقل السياق إلى بيان جزائهم في الدنيا، وهو إلزامهم في هذه الدنيا، خزياً وغضباً من المولى ـ سبحانه وتعالى ـ متبوعاً أيضاً ببيان جزائهم في الآخرة، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾[5].

---

(1) القصص 41.

(2) لعله يقصد بذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (القصص 38، 39).

(3) القصص 42.

(4) مشاهد القيامة في القرآن ص 139 ـ 140.

(5) القصص 42.

وأما المشهد الثاني فجاء تعقيباً على قول كفار مكة، وبيان سنة الله في المكذبين والمقارنة بين الحياة الدنيا ومتاعها، وبين الآخرة ونعيمها المقيم، إذ يخبر - عز وجل - في هذا المشهد عن موقف الحساب، يوم ينادي فيه الّذين أشركوا به - تعالى - فيقول لهم أين الّذين تزعمون أنهم شركاء لي؟ إذ يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1].

ثم ينقلنا إلى محاورة المتبوعين وتنصلهم من التابعين وتبرُّئهم من تبعة إغواء الغاوين، إذ يقول تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾[2].

ثم ينتقل الخطاب للمشركين، إذ يطلب منهم في ذلك اليوم دعوة شركائهم لينصروهم، فلم يستجيبوا لهم، وقد عاينوا العذاب، وودّوا لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين، إذ يقول تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾[3].

ثم يستمر السياق فيعرض مشهد نداء المولى - سبحانه وتعالى - لهؤلاء المشركين في يوم البعث والجزاء، ليقرنه بالإيمان بالرسل وطاعتهم، مبيناً حالهم، إذ يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

وأما المشهد الثالث فجاء في سياق عرض دلائل الوحدانية وكمال الألوهية لله ربّ العالمين، إذ يخبر عن موقف المشركين يوم البعث والجزاء، حين يطلب منهم المولى - عز وجل - أن يخبروه عن شركائهم الّذين يزعمون أنهم شركاء لله - تعالى -

---

(1) القصص 62.

(2) نفسها 63.

(3) نفسها 64.

(4) نفسها 65.

في العبادة، إذ يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1].

ويصور لنا هذا المشهد كأنه حاضر، مطالباً المشركين بالحجة على إشراكهم، وعندها يعلمون أن الحقّ لله ـ تعالى ـ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، فلم ينفعهم ذلك شيئاً. إذ يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[2].

يرى سيد قطب: أن هذا المشهد متفق مع المشهد الثاني في جزء منه، ثم يختلف عنه في سائره، فالنداء هنا هو النداء هناك: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ولكنهم لا يتركون هنا للجواب، إنما يستدعي رسول كل أمة ليشهد عليها، ولا برهان هناك بطبيعة الحال، إنما هو الإحراج والإذلال ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ ولكن بعد فوات الأوان، فما تجمع بينه وبينهم جامعة، وإنه لافتراء يذوب أمام الحق، ويغيب عنهم كأنه لم يكن له وجود[3].

ومن ثم فإن سيد قطب لا يعني باتفاق المشهدين، أن فيهما تكراراً، وإنما هو التنويع الذي عبر عنه بالاختلاف في سائر المشهدين، وهو ما سنشير إليه عند حديثنا عن تنوع أساليب البعث في هذه السورة.

وأما المشهد الرابع فجاء تعقيباً على قصة قارون والذي بين فيه أن الدار الآخرة ونعيمها للذين لا يريدون تكبراً عن الحق ولا فساداً في الأرض، إذ يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

«وهو اتساق في التعبير وفي التصوير، على النسق المعهود في صور القرآن»[5].

---

(1) القصص 74.
(2) نفسها 75.
(3) مشاهد القيامة ص 141.
(4) القصص 83.
(5) مشاهد القيامة ص 142.

ثانياً: تنوع أساليب البعث والجزاء في سورة القصص:

بدأ المشهد الأول بـالفعل الماضي للدلالـة علـى تحقـق ضلالـهم ودعوتـهم إلـى إضلال غيرهم، ثم عطف عليه الظرف الزماني الدال علـى عـدم دفـع العـذاب عنـهم في يوم البعث والجزاء.

ثم عاد إلى التعبير بالماضي في الآية الثانية للدلالة على تحقق طردهم وإبعـادهم من رحمة الله ـ تعالى ـ فالعدول إلى الظرف الزماني للدلالة على أنهم مـن المطرودين المبعدين، أو ممن قبح الله وجوههم[1].

وأمـا المشـهد الثـاني فقـد بـدأ بالأسـلوب الإخبـاري المؤكـد نـداء اللـه ـ سـبحانه وتعالى ـ للمشركين يوم الحساب، موصولاً بأسلوب المحـاورة، فالاستفهام الإنكـاري التوبيخي المبطل لزعمهم.

ثم انتقل في الآيـة الثانيـة إلى أسـلوب المحاورة المبـين لـرد المشـركين واعترافـهم بغواية أتباعـهم، فالأسـلوب الوصفـي مدموجاً بـه التمثيـل، فنفـي الشـياطين لعبـادة المتبوعين لهم، ثم انتظم أسـلوب الآيـة الثالثـة على المحـاورة، كمـا فـي الآيـة الثانيـة. فأسلوب الأمر، إما تهكماً بهم، وإمّا تبكيتاً لـهم[2]. فأسـلوب الخبر المبـين لحيرتـهم، فالنفي المبين لعجزهـم عـن الإجابة والنصرة[3]. فـالخبر المؤكـد رؤيتـهم للعـذاب يـوم البعث والجزاء، وعدم اهتدائهم. ثم عاد في الآية الرابعة إلى أسلوب الآية الأولى في هذا المشهد، وهو الأسلوب الإخباري المؤكد نداء المولى ـ سبحانه وتعالى ـ للمشـركين في يوم البعث والجزاء، على طريقة المحاورة، فالاستفهام المراد به الإنكار والتوبيخ.

وأما أسلوب المشهد الثالث فقد جاء فـي الآيـة الأولـى منه علـى نسـق أسـلوب الآية الأولى والرابعة في المشهد الثـاني، إذ بـدأت بالإخبـار المؤكـد نـداء اللـه ـ تعـالى ـ للمشركين، فالسؤال المراد منه التقريع.

---

(1) انظر الكشاف 3/ 181، وتفسير البيضاوي 3/ 306، وإرشاد العقل السليم 7/ 15.
(2) انظر إرشاد العقل السليم 7/ 22.
(3) انظر تفسير البيضاوي 3/ 311.

قال الزمخشري: «وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء، إيذاناً بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخَلَ في مرضاته من توحيده»[1].

وتبعه البيضاوي فقال: «تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به»[2].

إن الذي نلحظه أنه لا تكرار في هذه الآيات المتشابهة في بعض أساليبها، وذلك لاختلاف المقاصد التي سيقت هذه الأساليب لتحقيقها، فالسؤال في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3]. موجه للمشركين عن إشراكهم به تعالى، وأما السؤال الثاني في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4]. فموجه للمشركين أيضاً عن إجابتهم دعوة الرسل.

وأما السؤال الثالث في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[5]. المتفق مع السؤال الأول، فموجه للمشركين عن إشراكهم به ـ تعالى ـ كذلك. بيد أن الآية الأولى جاءت تعقيباً على قول كفار مكة، وبيان سنة الله في المكذبين ـ كما بينا فيما سبق ـ وأما الآية الثالثة فجاءت في سياق تعداد نعم الله ـ تعالى ـ على عباده، كما أن هناك ملحظاً آخر، وهو أن الآية الأولى جاء ما بعدها مفصولاً غير موصول، وأما الآية الثالثة فقد جاءت موصولة بالواو، ذلك أن السياق واختلاف سوابق الآيات ولواحقها يلعب دوراً في تحقيق مقاصد الآيات، وهو ما يجعل لكل آية ظلالها وإيحاءاتها المناسبة لمقامها.

---

(1) الكشاف 3/ 189.
(2) تفسير البيضاوي 3/ 313.
(3) القصص 62.
(4) نفسها 65.
(5) نفسها 74.

وقد عدل في الآية الثانية من المشهد الثالث إلى الماضي للدلالة على التحقق، والالتفات في قوله تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله[1].

فالإخبار مقرون به الأمر المراد به التعجيز على صحة ما كانوا يدينون به، فالإخبار المؤكد اعترافهم بأن الحق في ذلك اليوم - تعالى - وغاب عنهم ما كانوا يفترون في الدنيا من الباطل[2].

وأما أسلوب المشهد الرابع فقد جاء أيضاً مخالفاً لأساليب المشاهد السابقة، وقد بدأ بالإشارة إلى الدار الآخرة تعظيماً لها، وتفخيماً لشأنها[3].

وجاء بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿ نَجْعَلُهَا ﴾ لتجدد نعيمها واستمراره للموصوفين بتلك الصفات العظيمة، فالإخبار المبين أن العاقبة الحميدة للمتقين.

المثال الخامس: تنوع معاني وأساليب البعث والجزاء في سورة الصافات:

تضمنت سورة الصافات مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة المتعددة الجوانب، المتنوعة الأساليب، المزدحمة بالمناظر الحيّة. والحركات المتتابعة، يلتقي فيها الوصف بالحوار، فتسير على نسق الحكاية فترة، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى[4].

ومن ثم نستطيع القول: إن لهذه السورة معانيها وأساليبها المختلفة عن غيرها من مشاهد البعث والجزاء الأخرى، وهو ما ستجليه هذه الدراسة - إن شاء الله تعالى - لكي نستلهم بعض ما تفيض به من قيم وأسرار بيانية، تميزها عن غيرها من السور، ذلك أن القرآن الكريم يسلك طرقاً شتى، ويأتي بمعان متنوعة، لتحقيق مقاصده السامية.

---

(1) إرشاد العقل السليم 7/ 24.

(2) نفسه.

(3) انظر الكشاف 3/ 193. وتفسير البيضاوي 3/ 317 وإرشاد العقل السليم 7/ 27.

(4) مشاهد القيامة ص 155.

أولاً: تنوع معاني البعث والجزاء في سورة الصافات:

إن المتأمل في هذه السورة يجد أن إثبات البعث والجزاء، جاء في سياق إثبات التوحيد الخالص لله ربّ العالمين، عن طريق عرض الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة من الآفاق، وإبطال المولى - عز وجل - لمزاعم الجاهلية الواهية، حول الرسول - ﷺ - ورسالته.

ونتيجة للارتباط القوي بين أركان العقيدة الأساسية، فإنه بعدما أثبت التوحيد له - سبحانه وتعالى - وذكر مزاعم الجاهلية حول الرسول ورسالته، أتبع ذلك بالحديث عن القيامة وأحوالها، إذ نجد هذه الآيات تتحدث عن كفار مكة واتهامهم الرسول - ﷺ - بالسحر والشعوذة، ومقابلتهم له بالسخرية والتهكم، وإنكارهم للبعث، واستبعادهم للحياة مرة ثانية، بعد أن يصبحوا رفاتاً وعظاماً، إذ قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾[1].

والجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام أن القرآن الكريم قد أكثر من تصريف الآيات التي تحكي إنكار المشركين وأهل الكتاب ليوم البعث والجزاء، مثبتة تحقق ذلك اليوم بالدلائل الواضحة والحجج الدامغة، وذلك في ثلاث عشرة سورة، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[3].

---

(1) الصّافات 12 - 17.

(2) الأنعام 29.

(3) الرعد 5.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

تضمّنت الآيات السابقة ومثيلاتها في تصريف بيانها إثبات البعث والجزاء حاكية تعجب المشركين والمنكرين من أهل الكتاب، من أنهم بعد أن يصيروا تراباً يخلقون خلقاً جديداً، ثم يبعثون.

ويؤكد التصريف القرآني في هذه الآيات، إثبات ذلك اليوم بأساليبه المتنوعة، وتفننه العجيب، متحدياً إياهم، راداً عليهم إنكارهم بمنطق العقل والحق، مجادلاً في أمر البعث وإثباته، ببيان قدرة الله - تعالى - في الخلق والإبداع، وهو الذي أنشأ الحياة، وهو الذي يحيي ويميت، واصفاً المنكرين لهذا اليوم بالكفر، منوّعاً أساليب الإخبار؛ ليكون ذلك أوقع في النفوس، وآكَدَ في القلوب.

قال الرازي: «وهو الذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب، فمن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته؛ لأن القادر على الأقوى الأكمل، يكون قادراً على الأقل الأضعف من باب أولى»[3].

---

(1) الإسراء 49 - 52.
(2) سبأ 3.
(3) تفسيره 10/19.

ويضيف الألوسي رأياً آخر يوضح سرّ تنويع تلك الدلائل الدالة على البعث والجزاء فيقول: «ولم يؤكد ـ سبحانه ـ أمر البعث، تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه، والمنكرين له، اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد، وليشيد أركان الدعوة أتم تشييد من خلقه ـ تعالى ـ الإنسان، من سلالة من طين، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر، ليستغرق العجائب، ويستجمع الغرائب، فإن في ذلك أول دليل على حكمته وعظيم قدرته ـ عز وجل ـ على بعثه وإعادته، وأنه ـ جل وعلا ـ لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسياً منسياً، مستقراً في رحم العدم، كأن لم يكن شيئاً»[1].

يتضح لنا أن هذين الرأيين لا تعارض بينهما، بل يكمل أحدهما الآخر لتوضيح سر إيراد تلك الدلائل وتنويعها، غير أننا لا نرى وجهاً لتخصيص تأكيد أمر الموت، أكثر من أمر البعث، الذي ذهب إليه الألوسي، ذلك أن كثرة تصريف القول في إثبات البعث والجزاء، ومشاهد القيامة في مواضع متعددة، وبأساليب شتى، يدل على تأكيده، وهو الأمر الذي جعل بعض من لم يمعن النظر في تلك الآيات يصفها بالتكرار.

ولعل ما ذكره صاحب «المعجزة الكبرى» يؤيد ما ذهبنا إليه إذ يقول: «ولذلك نجد القرآن يحتفى ببيان حقيقة البعث، وتنبيه العقول إليه، وما من موضع في القرآن الكريم إلاّ ذكر فيه البعث، وقيام الدليل عليه»[2].

ومن ثم نستطيع القول: إن هذه الآيات التي سبق ذكرها، وإن اتفقت في بعض مضامينها، وبعض أساليبها، فقد اختلفت في بعضها الآخر، واختلفت كذلك في أسباب نزولها، وسوابقها ولواحقها، وذلك هو التصريف العجيب، والتفنّن البديع، الذي تميز به القرآن الكريم دون غيره، ومما يدل على ذلك ما بينه ابن الزبير الغرناطي من فروق بين الآيات المتشابهة في هذا المعنى، وهي الآية الأولى التي سبق

---

(1) روح المعاني 18/ 17.

(2) المعجزة الكبرى ص 416.

ذكرها[1]. وقوله تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[3]. والتي أوردها ضمن الآيات المتشابهة، وهو يرى أن هذه الآي الثلاث قد اتّحد محصولها من إنكارهم البعث الأُخرويّ، وزعمهم أن لا حياة بعد هذه الحياة الدنيوية، ولم يرد فيها عدول عن هذا من قولهم.

وذلك ـ والله أعلم ـ أن آية الأنعام لم يرد فيما تقدمها زيادة على ما أُخبروا به من حالهم في إنكارهم البعث، ألا ترى أن بناء الآية على ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[4].

فكأن قد قيل لهم: إنكم كنتم تنكرون البعث ووجود هذه الحياة الأُخرويّة، ولم يرد أثناء هذا ما يستدعي زائداً.

أما آية المؤمنون، فترتّب الوارد فيها من قولهم: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ على ما تقدم من دعاء الرُّسُل إيّاهم.

وقد ذكر الإمداد في دنياهم الحامل على عتوّهم، فلما طال الكلام في هذه السورة بما اغْرَوْا به سفهاءهم، ناسب هذا الطول ما زيد من قوله: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي طائفة تموت، وطائفة توجَد، وشأن ما يرد في الكتاب العزيز مما ظاهره التكرُّر زيادة فائدة، أو تتميم معنى، أو لبناء غيره من الكلام عليه، حتى لا يكون تكراراً عند من وُفِّق لاعتباره.

---

(1) الأنعام 29.
(2) المؤمنون 35 ـ 37.
(3) الجاثية 24.
(4) الأنعام 27.

وأما آية الجاثية، فهي المفصحة بمرتكبهم الشنيع من إنكارهم فاعلاً مختاراً حين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ فزادوا إلى إنكارهم البعث الأخروي، إنكارهم توقف الموت على آجال محدودة للخلائق، ووقوعه بإرادة وتقدير من الموجد ـ سبحانه ـ[1].

وأما فيما يراه بعض من لم يمعن النظر من تكرار في الآية نفسها، فأستدل عليه بما ذكره أبو يحيى زكريا الأنصاري في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2]. حين قال: «إن قلت: ما فائدة ذكره، مع أنه مفهوم من قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لأنهم إذا بعثوا من قبورهم، فقد رجعوا إليه بالحياة بعد الموت؟ قلت: ليس مفهوما منه؛ لأن المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء، وهيَ غير البعث الذي هو إحياء بعد الموت»[3].

يتبين لنا مما سبق أنه لا تكرار في هذه الآيات، ذلك أن كل كلمة، بل كل حرف في موضعه، وهو الأقوى دلالة على المعنى المراد.

ثم ينتقل السياق في سورة الصافات إلى النبي ـ ﷺ ـ آمراً إيّاه أن يقول لهؤلاء المكذبين: نعم إنكم مبعوثون أحياء كما كنتم قبل مماتكم، وأنتم صاغرون، مبيناً الكيفية التي يبعثون بها في ذلك اليوم، إذ يقول: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾[4]. «وهكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة، تسمى هنا «زجرة» للدلالة على لون من الشدة فيها والعنف في توجيهها، والاستعلاء في مصدرها»[5].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 311ـ 313.

(2) الأنعام 36.

(3) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص 121.

(4) الآيتان 18، 19.

(5) مشاهد القيامة ص 155.

ثم ينتقل السياق إلى ذكر اعتراف المشركين عندئذ بيوم البعث والجزاء، وعندها يقال لهم هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه المولى - عز وجل - بين خلقه بالعدل، وهو اليوم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، إذ يقول تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[1].

ثم يتوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ بجمع الّذين كفروا بالله في الدنيا وأزواجهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، وتوجيههم إلى النار التي أعدّها الله لهم، ثم يصدر الأمر بحبسهم فيها، لأنهم مسؤولون عن أعمالهم، ثم يتهكم عليهم، بل هم في ذلك اليوم مستسلمون لأمر الله، إذ يقول تعالى: ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[2].

وقد أوضح صاحب «مشاهد القيامة» سرّ الأمر في قوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ انطلاقاً من حسه بجماليات التصوير القرآني، إذ يقول: «وفي الأمر على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح في قوله: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فما أعجبها هداية خير منها الضلال! وإنها لهي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال، وإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم فليهدوا في الآخرة إلى صراط الجحيم، وها قد نفذ الأمر، فهدوا إلى صراط الجحيم وَوُقِفُوا على استعداد للسؤال وعندئذ يوجه إليهم الخطاب بالتقريع في صورة الإستفهام، والسخرية في هيئة السؤال»[3].

---

(1) الصافات 20، 21.

(2) نفسها 22 ـ 26.

(3) مشاهد القيامة ص 156.

ثم يعود السياق إلى الحكاية والقصة، فيعرض علينا مشهد الأتباع والمتبوعين، إذ يجادل بعضهم بعضاً، ويلوم فيه بعضهم بعضاً، ويتنصل فيه الأتباع من المتبوعين، ويتبرَّؤون منهم، معترفين بوجوب عذاب الله عليهم الأتباع والمتبوعين، معترفين كذلك بغوايتهم للمتبوعين، إذ يقول تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾[1].

ثم ينتقل السياق إلى بيان حكم الله ـ تعالى ـ على الأتباع والمتبوعين، وهو اشتراكهم في العذاب، وهكذا يفعل المولى ـ عز وجل ـ بالّذين كفروا به ـ تعالى ـ فيجمع بينهم وبين قرنائهم في النار، إذ يقول تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2].

ثم ينتقل السياق إلى بيان أن سبب هذا العذاب أيضاً هو عدم إيمانهم بالله ـ تعالى ـ واستكبارهم عن كلمة، لا إله إلاّ الله، وتكذيبهم كذلك بالرسول ـ ﷺ ـ ووصفهم له بالجنون، مضرباً على مقالتهم هذه، مبيناً أنه جاء بالقرآن الكريم من عند الله، وصدّق به المرسلين الّذين قبله، مؤكداً عذابهم، وواصفاً إيّاه بالأليم، ذلك هو جزاء ما كانوا يعملون، إذ يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3]. ثم ينتقل السياق إلى نسق الإخبار المصوّر للنعيم الذي يلقاه عباد الله المخلصون، وهو نعيم معنوي ومادّيّ، تستمتع به النفس والحس، فهم أولاً

(1) الصافات 27 ـ 32.

(2) نفسها 33، 34.

(3) نفسها 35 ـ 39.

عباد الله المخلصون، وفي هذا تكريم أي تكريم، وهم عند الله مكرمون، كما هو المفهوم.

ثم إن لهم متاعاً مادياً[1]. وذلك جزاء إخلاصهم لله ربّ العالمين وعملهم بما يرضيه، معدداً الجزاء الذي أعده لهم، وهو رزق معلوم، فواكه، وهم في جنّات النعيم، على سرر يقابل بعضهم بعضاً، يطاف عليهم بكأس بيضاء، من خمر جارية ظاهرة لأعينهم، يلتذّ بها شاربوها، لا أذى فيها ولا مكروه، ولا تُذْهبُ عقولَهم، وعند هؤلاء في الجنة النساء اللواتي قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يمددن أبصارهن إلى غيرهم، كأنهنّ بياض البياض، إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[2].

ثم يعود السياق إلى نسق الحكاية والقصة، مؤكداً لقضية البعث والجزاء، فيذكر قصة المؤمن الذي كان له في الدنيا جليسٌ مكذب، ينكر الآخرة ويكذّب بالبعث والجزاء، وكان في الدنيا يسخر من ذلك المؤمن، ويوبّخه على إيمانه وتصديقه، وبينما ذاك المؤمن ينعم بالجنة ويستمتع بما فيها من الشراب والنعيم مع إخوانه أهل الجنة، إذ تذكّر جليسه في الدنيا وتطلّعت نفسُه ليتفقد حاله ويعرف مصيره، فإذا به في وسط جهنّم، فلما رآه قال له: إن كدت في الدنيا لتهلكني بصدّك إياي عن الإيمان، ولولا أن الله أنعم عليّ بهدايته والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت لكنت من المحضرين معك في عذاب الله، وهكذا فقد أنّب صاحبه بتذكيره بما كان يقول[3].

---

(1) مشاهد القيامة ص 157.

(2) الصافات 40 ـ 50.

(3) مشاهد القيامة ص 158.

وقد ذكر البيان القرآني سرور ذلك المؤمن بكرامة الله - تعالى - له ونجاته من عذابه، وافتخاره بالفوز العظيم، إذ يقول تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾[1].

وقد لحظ صاحب «مشاهد القيامة» أن هذه حكاية مصورة، ترينا عباد الله المخلصين بعدما يسرت لهم كل هذه المتع - ينعمون بسمر هادئ يتذاكرون فيه الماضي والحاضر - وذلك في مقابل التخاصم والتغابن الذي يقع بين المجرمين، وها هوذا أحدهم يستعيد ماضيه، ويقص على إخوانه طرفاً مما وقع له، لقد كان له صاحب يكذب باليوم الآخر؛ وكان يحاوره ويسائله، هكذا كان صاحبه يدهش لتصديقه بالبعث والجزاء، وبينما هو ماض في قصته يخطر له أن يتفقد صاحبه هذا ليعرف مصيره، وهو الذي يتوقع بطبيعة الحال أن يكون قد صار إلى الجحيم، فهو يقف ليتطلع ويوجه نظر إخوانه إلى حيث يتطلع، ثم ينظر فيرى صاحبه حيث توقع، عندئذ يترك إخوانه، ويتوجه إلى صاحبه هذا الذي وجده في وسط الجحيم، يتوجه إليه ليقول: يا هذا لقد كدت توردني موارد الردى بوسوساتك، لولا أن الله قد أنعم عليّ فلم أستمع إليك[2].

ثم يستمر السياق فيعرض مشهد العذاب الذي يقابل مشهد النعيم الذي سبق ذكره، وهذه المقابلة بين المشهدين تجيء في وقتها المناسب، فبعدما عرض مشهد

(1) الصافات 51 - 61.

(2) مشاهد القيامة ص 158.

النعيم، ناسبه أن يعرض مشهد العذاب، للموازنة بين المشهدين، فهذه شجرة الزقّوم، وقد قابل بينها وبين النعيم المقيم والفوز العظيم.

ذلك أن هذه الشجرة جعلها الله ـ عز وجل ـ فتنة للظالمين وابتلاء لهم، مبيناً موقعها، فهي شجرة نابتة في أصل نار جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ مشبهاً قبحها وبشاعتها برؤوس الشياطين، ليرسم لهذه الشجرة صورة بيانية، وذلك ليقربّها بهذا التشبيه إلى أذهان الممتثلين لأوامره ـ تعالى ـ ليبتعدوا عنها.

ثم يؤكد أن هؤلاء المشركين لآكلون من شجرة الزقوم، فمالئون من زقومها بطونهم، وشاربون عليها ماءً ساخناً.

وقد بين أن هؤلاء الظالمين مصيرهم إلى الجحيم، فهم لم يؤمنوا بربّهم؛ لأنهم وجدوا آباءهم ضالين، ثم إنهم يتبعون طريقهم ليقتفوا آثارهم وسننهم إذ يقول تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[1].

ثم انتقل السياق إلى طمأنة النبي ـ ﷺ ـ مبيناً أنه لا غرابة في ضلال هؤلاء المشركين فقد ضلّ قبلهم، أكثر الأولين، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يرسل فيهم رسلاً، تبين لهم طريق الحق، ومع ذلك فقد كذبوا، إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾[2].

ثم لفت السياق نظر الرسول ـ ﷺ ـ إلى عاقبة هؤلاء المكذبين، كيف أهلكهم الله ـ تعالى ـ وجعلهم عبرة وعظة، مستثنياً من ذلك عباد الله المخلصين فقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

(1) الصافات 62 ـ 70.
(2) نفسها 71 ـ 72.
(3) نفسها 73 ـ 74.

تلك صورة بديعة ترسم المعاني صوراً شاخصة، كأن الإنسان يشاهدها الآن، ليقرب بذلك الفكرة إلى الأذهان، ويجعلها أكثر تأثيراً في المخاطبين، وهو أسلوب تميز به القرآن الكريم، وأكثر من تصريفه في مواضع متفرقة منه، وبخاصة في مشاهد القيامة والحساب.

ثانياً: تنوع أساليب البعث والجزاء في سورة الصافات:

إن المتأمل في أساليب إثبات البعث والجزاء في سورة الصافات، يجدها قد تنوعت تنوعاً عجيباً، وذلك ما يؤكد أن لهذه السورة موضوعها وأسلوبها اللّذَيْنِ يميزانها عن غيرها في المعاني والأساليب، فهي تنتقل من أسلوب إلى آخر حسب مقتضيات الأحوال، والمقاصد التي تحقّقها، وهو ما سنراه في هذه الدراسة.

فقد بدأت هذه الآيات بالإضراب «الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم عجب»[1] مقروناً به الفعل الماضي الدال على تحقق تعجب الرسول - ﷺ - من إنكار هؤلاء الكفار للبعث، على الرغم مما يشاهدونه من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: «ويجوز أن يكون العجب قد حصل من النبي - ﷺ - لما رأى إعراضهم وقلة إنصافهم، فيكون الخبر مستعملاً في حقيقته»[2].

ثم عطف عليه المضارع للدلالة على تجدد سخريتهم واستمرارها، إذ قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[3].

ثم انتقل في الآية الثانية إلى أسلوب الشرط المؤكد لعدم اتعاظهم على صحة البعث، لأن هذا دأبهم، ثم تلاه في الآية الثالثة أسلوب شرط ثان يختلف

---

(1) التحرير والتنوير 23/ 95.

(2) نفسه ص 96.

(3) الصافات 12.

عنه في الأسلوب والمعاني ؛ فهذا الشرط يؤكد سخريتهم من المعجزة الدالة على صدق القائل به[1].

وقد عبر بالماضي للدلالة على تحقق رؤيتهم للآيات المعجزة، كانشقاق القمر ونحوه[2] وبالمضارع للدلالة على تجدد سخريتهم من الآيات واستمرارها، أي كلما رأوا آية (علامة) دالة على النبوة سخروا منها.

ثم انتقل في الآية الرابعة إلى أسلوب المحاورة التي تحكي أباطيل المشركين وزعمهم الكاذب فيما يرونه من الآيات الباهرة.

وقد انتقل في الآية الخامسة والسادسة إلى أسلوب الاستفهام المراد منه إنكار البعث واستبعاده.

قال أبو السعود: «وتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة، وكذا تكرير الهمزة في أننا للمبالغة والتشديد في ذلك، وكذا تحلية الجملة «بإن واللام لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم»[3].

وتحول في الآية السابعة إلى الأمر الموجه للرسول ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ جواباً لقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ تبكيتاً لهم على طريقة الأسلوب الحكيم بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهر الاستفهام فجعلوا كالسائلين، أيبعثون؟ فقيل لهم: نعم تقريراً للبعث المستفهم عنه، أي نعم تبعثون، وجيء بـ: (قل) غير معطوف؛ لأنه جارٍ على طريقة الاستعمال في حكاية المحاورات[4].

---

(1) انظر إرشاد العقل السليم 7/ 186، وتفسير البيضاوي 3/ 453.

(2) انظر الكشاف 3/ 337. قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر 1، 2).

(3) إرشاد العقل السليم 7/ 187.

(4) التحرير والتنوير 23/ 99.

وجاءت الآية الثامنة جواب شرط مضمر أو تعليلاً لنهي مقدر، أي إذا كان كذلك فإنما البعثة زجرة، أي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه، إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كأمركُن في الإبداء، ولذلك رتب عليها قوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾[1].

وانتقل في الآية التاسعة إلى حكاية اعتراف المبعوثين بيوم البعث والجزاء، وعبر بصيغة الماضي للدلالة على التحقق والتقرر[2].

وانتقل في الآية العاشرة إلى الإشارة الدالة على يوم البعث والجزاء وتأكيده، وقد قيل: هذا كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع، وقيل: هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض، ويجوز أن يكون هذا كلاماً موجهاً إليهم من جانب الله ـ تعالى ـ جواباً عن قولهم[3].

وانتقل في الآية الحادية عشرة إلى أسلوب الأمر المراد منه حشر الظالمين وأزواجهم ونظرائهم.

ذهب بعض المفسرين إلى أنه خطاب من الله ـ عز وجل ـ للملائكة أو أمر بعضهم لبعض بحشْرِ الظلمة من مقامهم إلى الموقف، وقيل منه إلى الجحيم[4].

وقال محمد بن عاشور: «وظاهر أنه أمر من قبل الله ـ تعالى ـ للملائكة الموكّلين بالناس يوم الحساب»[5].

والحق أن هذا الرأي الأخير هو الذي نميل إليه؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يملك الأمر، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

---

(1) الصافات 19، وانظر تفسير البيضاوي 3/ 454، وإرشاد العقل السليم 7/ 187.
(2) إرشاد العقل السليم 7/ 187.
(3) المصدر السابق وتفسير البيضاوي 3/ 454، والتحرير والتنوير 23/ 100.
(4) الكشاف 3/ 338 وتفسير البيضاوي 3/ 454 وإرشاد العقل السليم 7/ 187 ـ 188.
(5) التحرير والتنوير 23/ 101.

ونجد أن في الآية الثانية عشرة أيضاً، أمراً في قوله: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ ﴾ وهو تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا، متعاضدين متناصرين[1] «وعطف ﴿ فَٱهْدُوهُمْ ﴾ بفاء التعقيب إشارة إلى سرعة الأمر بهم إلى النار عقب ذلك الحشر»[2].

قال صاحب «معجم البلاغة العربيّة»: «ففي هذه الآية استعارة عنادية تمليحيّه، أي المقصود منها التمليح والظرافة، وقد تكون تهكمية، أي المقصود منها التهكم والاستهزاء، بأن يستعمل اللفظ الموضوع لمعنى شريف على ضده أو نقيضه»[3].

وقد جاءت الآية الثالثة عشرة أيضاً أمراً، مراداً به حبس المبعوثين الكافرين، مقروناً به الإخبار المؤكد مسؤوليّتهم عن أعمالهم.

وانتقل في الآية الرابعة عشرة إلى أسلوب الأمر الموجه للمبعوثين في موقف البعث والجزاء، بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم في قوله: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تزعمون في الدنيا[4] وقيل: مراد به التعجيز مع التنبيه على الخطأ الّذي كانوا فيه في الحياة الدنيا[5].

والذي نراه أنه لا تعارض بين هذين التوجيهين، وإنما يكمل أحدهما الآخر.

وقد جاء الإضراب في الآية الخامسة عشرة لإبطال إمكان التناصر بينهم، وهو تأكيد لما دل عليه الاستفهام السابق من التعجيز، وفيه أيضاً بيان لحالهم، فهم منقادون خاضعون لظهور عجزهم، وانسداد باب الحيل عليهم[6].

(1) الكشاف 3/ 338.
(2) التحرير والتنوير 23/ 101.
(3) معجم البلاغة العربيّة 2/ 581 باب العين.
(4) إرشاد العقل السليم 7/ 188، وتفسير البيضاوي 3/ 455.
(5) التحرير والتنوير 23/ 102.
(6) انظر إرشاد العقل السليم 7/ 188، والتحرير والتنوير 23/ 103.

وانتقل في الآية السادسة عشرة إلى الأسلوب الإخباري الذي يبين حال الأتباع والمتبوعين، وقد لحظ محمد بن عاشور، أن التعبير عن إقبالهم بصيغة المضي وهو مما سيقع في القيامة، تنبيهاً على تحقّق وقوعه؛ لأن لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم، وتحذير دهمائهم من الاغترار بتغريرهم، مع أن قرينةَ الاستقبال ظاهرة في السياق[1].

وانتقل في الآية السابعة عشرة إلى أسلوب المحاورة الذي يحكي لوم الأتباع للمتبوعين، واستمر هذا الأسلوب في الآية الثامنة عشرة، وهي الذي يحكي رد المتبوعين على الأتباع، متبوعاً بالإضراب «المبطل لزعم الأتباع أنهم الّذين صدوهم عن طريق الخير، أي بل هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان؛ لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال: بل لم تؤمنوا، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم، أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان»[2].

وانتقل في الآية التاسعة عشرة إلى النفي الذي يفيد تنصّل المتبوعين من الأتباع، ولذلك أكدوا تنصلهم بالإضراب في قوله: ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾[3]. والمعنى مختارين للطغيان مصرين[4].

وانتقل في الآية العشرين إلى الإخبار المؤكد اعترافهم بأنهم جميعاً استحقوا العذاب، وعبر بصيغة الماضي للدلالة على تحقق العذاب ووقوعه.

واستمر الإخبار في الآية الحادية والعشرين مؤكداً اعتراف المتبوعين بغوايتهم للأتباع، وعبر عنه أيضاً بالماضي للدلالة على تحقق غواية المتبوعين لأتباعهم.

وقد جاء الإخبار في الآية الموالية مؤكداً اشتراك المتبوعين والأتباع في العذاب يوم القيامة.

---

(1) التحرير والتنوير 23/ 104.
(2) نفسه 23/ 105.
(3) الصافات 30.
(4) انظر إرشاد العقل السليم 7/ 189، وتفسير البيضاوي 3/ 455.

واستمر الإخبار مدموجاً به التمثيل في الآية الثالثة والعشرين، المبين لجزاء المجرمين.

وقد ذهب صاحب «التحرير والتنوير»[1] إلى أن جملة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2]. تعليل لما اقتضته جملة: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[3]. أي فإن جزاء المجرمين يكون مثل ذلك في مؤاخذة التابع والمتبوع.

والمراد بالمجرمين: المشركون، أي المجرمون مثل جرمهم، وقد بينته جملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4].

واستمر الإخبار في الآيتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين، مبيناً سبب جزائهم، وهو التكبر عن الاعتراف بالوحدانية لله، ومن وصف الرسول - ﷺ - بما هو منزه عنه، وصفاً يرمون به إلى تكذيبه فيما جاء به، فحرف (إنّ) هنا ليس للتأكيد؛ لأن كونهم كذلك مما لا منازع فيه، وإنما هو للاهتمام بالخبر، فلذلك تفيد التعليل والربط، وتغني غناءَ فاء التقريع.

وذكر فعل الكون ليدل على أن ما تضمنه الخبر وصف متمكن منهم، فهو غير منقطع ولا هم حائدون عنه[5].

وانتقل في الآية السادسة والعشرين إلى الإضراب عن مقالتهم السابقة، رداً عليهم وتكذيباً لهم ببيان أن ما جاء به من التوحيد هو الحق الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة[6].

(1) التحرير والتنوير 23/ 106 - 107.
(2) الصافات 34.
(3) نفسها 33.
(4) نفسها 35.
(5) التحرير والتنوير 23/ 107.
(6) إرشاد العقل السليم 7/ 189 وتفسير البيضاوي 3/ 456.

وانتقل في الآية السابعة والعشرين إلى الإخبار المؤكد لجزاء المشركين ونوعه، إذ قال: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾[1]. وفيها أيضاً التفاتٌ لإظهار كمال الغضب عليهم[2].

وانتقل في الآية التاسعة والعشرين إلى نفي الظلم عن المولى - عز وجل - وإثبات العدالة في الجزاء.

ذكر صاحب «التحرير والتنوير» إنّ في هذه الآية دليلاً على أن الكفّار مجازَوْن على أعمالهم السيئة من الأقوال والأعمال كتمجيد آلهتهم والدعاء لها، وتكذيب الرسول - ﷺ - وأذاه وأذى المؤمنين، وقولهم في أصنامهم إنهم شفعاء عند الله، وفي الملائكة: إنهم بنات الله[3].

وقد استثنى في الآية الثامنة والعشرين عباد الله المخلَصين من العذاب الأليم، وهو استثناء منقطع - كما ذكروا -[4].

ثم انتقل إلى الأسلوب الوصفي، الذي وصف جزاء عباد الله المخلصين، وأنواع النعيم الذي يلقونه، جزاء امتثالهم لأوامر الله - تعالى - وذلك من قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[5].

نكتفي بهذا القدر من بيان تنوّع أساليب مشاهد القيامة في سورة الصافات؛ لأن - ما ذكرناه - كافٍ لبيان الطريقة التي سلكها القرآن الكريم لبيان مقاصده المتنوعة بتنوع أسلوبه.

ومن ثم نستطيع القول: إن لهذه السورة خصوصيتها من حيث المعاني والأساليب، التي تنتقل من حين إلى آخر، من فنّ إلى فنّ، عن طريق أساليبها

(1) الصافات 38.
(2) إرشاد العقل السليم 7/ 190.
(3) التحرير والتنوير 23/ 109.
(4) انظر الكشاف 3/ 339 وتفسير البيضاوي 3/ 456 وإرشاد العقل السليم 7/ 190.
(5) الصافات 41 - 49.

المتنوعة، محققة بذلك مقاصدها المختلفة التي انتظمت من خلال تلك الأساليب البديعة، التي هي وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وسرّ من أسرار بلاغته.

المثال السادس: تنوع معاني وأساليب البعث والجزاء في سورة (ق):

عرضت سورة (ق) لقضية البعث والجزاء، التي يكذب بها الكافرون تكذيباً شديداً من الفاتحة إلى الخاتمة، إذ عرضتها بطريقة تختلف عما عرض في غيرها من السور، الأمر الذي يجعل لهذه السو طابعها الخاص من حيث المعاني والأساليب، سواء من حيث استعمال تلك الأساليب، أو من حيث المقاصد التي تناولتها، إلاّ فيما تشابه منها بغيره من الآيات، والتي سنقف عندها، لنتبين سرّ ذلك التشابه، الذي هو التصريف البديع، وليس التكرار كما يراه بعض من تعرض لمثل هذه المعاني والأساليب، وهو ما ستكشف عنه دراستنا لهذه السورة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

أولاً: تنوع معاني البعث والجزاء في سورة ق:

اهتمت سورة (ق) بقضية البعث والجزاء اهتماماً بالغاً، يكاد يكون هو الطابع الغالب عليها، وذلك لمواجهة المكذبين بهذا اليوم، والمستبعدين له، فبدأت بالقسم بحرف من الحروف المقطعة والقرآن المجيد على تعجب الكافرين من مجيء منذر من جنسهم، ولم يأتهم ملك برسالة من عند الله ـ تعالى ـ فقال عز وجل ـ ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[1].

ثم حكى استبعادهم ليوم البعث والجزاء، راداً عليهم ذلك، بعلمه الذي يعلم ما ستصير إليه أجسادهم بعد الموت، وأن لديه كتاباً حافظاً لذلك كله لا يتغير ولا يتبدل، إذ يقول: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾[2].

---

(1) سورة ق 1 ـ 2.

(2) نفسها 3 ـ 4.

ثم انتقل السياق إلى بيان أنهم لم يكتفوا بالتكذيب بيوم البعث والجزاء بل تمادوا في تكذيبهم كذلك بالقرآن الكريم، لما جاءهم من عند الله، ولم يفكروا فيه، دلالة على عنادهم واستكبارهم، وهم في أمر ملتبس لا يعرفون فيه الحق من الباطل فقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[1].

ثم يمضي السياق في السورة فيلفت أنظارهم إلى دلائل القدرة الإلهية على البعث والجزاء، وهي دلائل من الآفاق يشاهدونها، فهم لم يتأمّلوا ولم يفكروا في السماء التي فوقهم، كيف بناها المولى - عز وجل - هذا البناء المحكم، وجعلها سقفاً محفوظاً، زيّنها بالنجوم، ولم يفكّروا في هذه الأرض كيف بسطها وجعل فيها الجبال الثوابت، الراسية في الأرض، وأنبت في هذه الأرض من كل نوع من النبات، لعلها تكون تبصرة وتذكيراً بعظمته - تعالى - وقدرته الباهرة، لكلّ عبد راجع إلى الإيمان بالله - عز وجل - ووحدانيته، والعمل بطاعة الله - تعالى - إذ يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2].

ويمضي السياق في السورة فيعرض دلائل من الآفاق تبين قدرته - تعالى - على البعث والجزاء، وذلك بتمثيل البعث بعد الموت بهذه الدلائل المشاهدة التي يرونها ولا ينكرونها، فكذلك البعث مثلها، ليجعل من ذلك برهاناً قاطعاً لا يشك فيه أحد، إذ يقول - عز وجل -: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[3].

---

(1) سورة ق 5.

(2) نفسها 6 - 8.

(3) نفسها 9 - 11.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن القرآن الكريم، قاس إخراج الموتى على إخراج النبات، وإحياء الأرض، وإنزال الماء من السماء في خمس آيات، نظائر لهذه الآية في المعنى، إذ نراه يستدل حيناً على إثبات البعث والجزاء بقياس إخراج النبات، إذ يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأحياناً بقياس البعث على إحياء الأرض بعد موتها، إذ يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وأحياناً أخرى بقياس إحياء الموتى على خلق السموات والأرض إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[5].

وهكذا فإن هذه الآيات تضمنت في تصريف بيانها إثبات أمر البعث وتحققه عن طريق قياس إخراج الموتى على إخراج النبات، وإحياء الأرض وإنزال الماء من

---

(1) الأعراف 57.
(2) الحج 5 ـ 6.
(3) الروم 48 ـ 50.
(4) فاطر 9.
(5) الزخرف 11.

السماء بأسلوب بديع، وتفنن دقيق، لا يمكن معه إلاّ التسليم والاعتقاد الجازم به لما استدلّ به من دلائل واضحة وبراهين ساطعة، تُبين قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أمر الخلق والبعث، إذ إن هذه الدلائل المعروضة مستقاة من الآفاق، مشاهدة لدى الناس جميعاً، مستفيدين من خيراتها، وفيها ومنها النعم التي أنعم الله بها علينا، ومن هنا فلا يمكن إنكارها.

والقرآن الكريم في بيانه هذا يقربّ أمر البعث إلى نفوس عباده، فيوجه أنظارهم إلى الأرض الميتة، ينزل عليها الماء من السماء، فتنبعث فيها الحياة، وتنبت من كل زوج بهيج.

وإذا كانوا يرون هذه الدلائل في كل حين، فمن المعقول أن يكون لها شديد التأثير في نفوسهم، ليقربّها منهم، وقوة دلالتها على قدرة الله على بعث الحياة في الجماد الميت[1].

ومن ثم نستطيع القول: إن هذه الآيات وإن اتفقت في بعض دلالاتها المعنوية، وفي بعض أساليبها اللفظية، فلا يعني ذلك أنها مكررة، وإنما هو تصريف للبيان القرآني البديع، والحكمة الإلهية البالغة، وهو واضح من أسباب نزولها، ومن سوابقها ولواحقها.

فآيات سورة (ق) تناولت في تصريفها إثبات البعث بقياسه على إنزال المطر من السماء وإنبات النبات، وجعله رزقاً للعباد، وهو تشبيه بليغ، شبه فيه البعث بتلك الدلائل، والنعم العظيمة التي يشاهدها الناس جميعاً.

وأما آيات سورة الأعراف، فتناولت في تصريفها، بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في إرسال الرياح، وسوق السحاب، وإنزال الماء، وإخراج جميع أنواع الثمار، وهذه كلها دلائل مشاهدة معلومة عند الناس جميعاً، ومن هنا مثّل القدرة الإلهية في إخراج الموتى، بإخراج النبات من الأرض الميتة، بإحيائها بالماء.

---

(1) من بلاغة القرآن ص 291 ـ 292.

ونظير هذه الآيات، آيات سورة الروم وفاطر، فأما آيات سورة الروم فتناولت في تصريفها بيان قدرة الله - تعالى - في إرسال الرياح، وإثارة السحاب في السماء في جميع أحواله، وجعله قطعاً ينزل منه المطر، ينزل على من يشاء من عباده، فيستبشرون به لمجيء الخصب، ثم أمر بالنظر في القدرة الإلهية المترتبة على إنزال المطر، الذي يحي الأرض بعد موتها.

وهكذا فبعدما ساق الأدلة الواضحة المشاهدة التي بينها في الآيات، وصل إلى النتيجة المقصودة من التصريف البياني لهذه الآيات، وهو بيان القدرة الإلهية على إحياء الموتى.

وذلك ما أشار إليه أبو السعود، إذ قال: «فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها، قيل: على الحالية بالتأويل، وأيا ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عظم قدرته - تعالى - وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث، وهو القادر على إحيائهم، فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية، والختم بصفة القدرة المطلقة، مقرر لمضمون ما قبله، أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياؤهم، لما أن نسبة قدرته إلى الكل سواء»[1].

وأما آيات سورة فاطر فتناولت في تصريفها إثبات البعث بقياس ما هو مجهول إلى ما هو معلوم، بطريق التشبيه، فشبهت قدرته - تعالى - على تحقيق البعث، بقدرته على إرسال الرياح التي تثير السحاب وسوقه إلى البلد الميت فتحيا به الأرض بعد موتها، فكذلك البعث متحقق بقدرته - تعالى -.

وقد خالفت هذه الآيات نظائرها، بإيراد بعض الأفعال على صيغة الماضي، وسر ذلك ما بينه أبو السعود، إذ قال: «وإيراد الفعلين على صيغة الماضي للدلالة

---

(1) إرشاد العقل السليم 7/ 64 - 65.

على التحقق وإسنادهما إلى نون العظمة المنبئ عن اختصاصهما به ـ تعالى ـ لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبه به، بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربّانية»[1].

وأما آية سورة الحج، فبينت قدرة الله ـ تعالى ـ في إنزال الماء على الأرض الهامدة، فتنبت من كل زوج بهيج؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الحق، وهو الذي يحي الموتى، وهو صاحب القدرة المطلقة.

وأما آيات سورة الزخرف، فبينت أن الله هو الذي نزّل الماء من السّماء لإحياء الأرض الميتة بالنبات، ثم شبه بتلك القدرة العظيمة.

قال أبو السعود: «وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشاء الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس»[2].

ثم انتقل السياق في سورة (ق) إلى بيان أن الأقوام السابقة قد كذّبت الرسل ـ قبل هؤلاء المشركين، الّذين كذّبوا محمداً ـ ﷺ ـ فحقّ عليهم عذاب الله ـ تعالى ونقمته، إذ يقول ـ عز وجل ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[3].

ثم انتقل إلى بيان أن المشركين يشكّكون في قدرة الله ـ تعالى ـ على البعث، مبيناً أنه كما لم يعجزه ابتداء الخلق الأوّل، فكذلك لا يعجزه إعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم، إذ يقول تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4].

---

(1) إرشاد العقل السليم 7/ 145.

(2) نفسه 8/ 41.

(3) سورة ق 12 ـ 14.

(4) نفسها 15.

ثم انتقل إلى بيان دلائل الخلق والإبداع، مبيناً أن الإنسان مكلف به ملكان يكتبان ما يلفظ به من قول، فيقول تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[1].

ثم انتقل إلى بيان شدة الموت بالحق، فيقول: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[2].

ذكر صاحب «مشاهد القيامة»: أن في هذه الآية عرض صورة اليوم الآخر تالية مباشرة لصورة الموت وسكراته، وكأنّما الصورتان حاضرتان[3].

ثم انتقل السياق إلى معنى آخر من معاني البعث والجزاء، وهو النفخ في الصور، وهي النفخة الثانية، ذلك اليوم هو يوم الوعيد الذي وعد الله به الكافرين فيقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾[4].

وقد تنوع هذا المعنى في آيات كثيرة نظائر لهذه الآية، بلغ استقراؤها تسع عشرة آية، موزعة على كتاب الله - تعالى - نكتفي بذكر بعضها، مقرراً أنها في أعلى درجات البلاغة والكمال، فلا تكرار فيها ولا بينها، وإنما هو التنويع العجيب، والتفنن البديع، وهو ليس كما ذكر صاحب كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» حين قال: «تكرر ذكر النفخ في الصور في القرآن، في (الأنعام)، و(المؤمنون)، و(النمل)، و(الزمر) و(ق) وغيرها»[5].

وقد فصلنا ذلك في المبحث الأول، واستدللْنا على ذلك برأي أبي يحيى زكريّا الأنصاري الذي نفى التكرار عن آيتي سورة يس، التي ذُكر فيها النفخ في الصور،

---

(1) سورة ق 16 - 18.

(2) نفسها 19.

(3) مشاهد القيامة ص 90.

(4) سورة ق 20.

(5) فتح الباري بشرح صحيح البخاري 11/ 316.

هذا في السورة الواحدة، فما بالك في السور المختلفة، فهي من باب أولى لا تكرار فيها؛ لاختلاف أسباب نزولها ومقاصدها من خلال السياق الواردة فيه، وفيما يلي نورد بعض الآيات التي ذُكر فيها النفخ في الصور.

1 ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[3].

4 ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[4].

5 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[5].

ثم انتقل السياق إلى عرض مشهد من مشاهد البعث والجزاء، وما يحصل فيه من حوار وتخاصم بين المشركين وأتباعهم، مبيناً العدالة الإلهية في الجزاء فيقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن

---

(1) الأنعام 73.

(2) الكهف 99.

(3) طه 102.

(4) المؤمنون 101.

(5) النمل 87.

كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[1].

ثم قابله بمشهد أهل الإيمان، مبيناً جزاءهم وما وعدهم الله ـ تعالى ـ به، من الخلود في الجنة والنعيم المقيم، فيقول تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[2].

ثم انتقل إلى بيان أنه ـ تعالى ـ أهلك كثيراً من أهل القرون الأولى الّذين كانوا أشدّ بطشاً من مشركي قريش، الّذين كذّبوا محمداً ـ ﷺ ـ تنبيهاً وتحذيراً لهؤلاء لعلهم يتّعظون بمصائر من أهلك من قبلهم، فينتهوا عن تكذيبهم للرسول ـ ﷺ ـ وكفرهم بربّهم، لئلاّ يحلّ بهم مثل ما حلّ بالأمم التي أهلكها الله قبلهم بالعذاب، إذ يقول تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[3].

ثم انتقل إلى عرض دلائل من الآفاق للدلالة على القدرة الإلهية، آمراً نبيه ـ ﷺ ـ بالصبر على ما يقول هؤلاء الكافرون، متبوعاً بالأمر بإقامة الصلاة على ـ ما ذكروا ـ[4]. فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ

---

(1) سورة ق 21 ـ 30.

(2) نفسها 31 ـ 35.

(3) نفسها 36 ـ 37.

(4) انظر إرشاد العقل السليم 8/ 134.

﴿أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[1].

ويستمر آمراً النّبي ـ ﷺ ـ بالاستماع إلى صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها مناد من مكان قريب، ذلك اليوم الذي يسمع فيه الخلائق صيحة البعث من القبور، لموقف الحساب بأمر المولى ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك يوم خروج أهل القبور من قبورهم، مؤكداً أن الإحياء والإماتة بأمره ـ تعالى ـ وأن مرجع جميع الخلائق يوم القيامة إليه ـ سبحانه وتعالى ـ متبوعاً ببيان مقدمات يوم البعث والجزاء، مبيناً أن حشر الخلائق في ذلك اليوم سهل عليه ـ عز وجل ـ وأنه ـ تعالى ـ أعلم بما يقول هؤلاء المشركون يوم القيامة، مقروناً ببيان مهمة الرسول ـ ﷺ ـ وهو التذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله، فيقول ـ تعالى ـ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2].

يتبين لنا من العرض السابق أن سورة (ق) قد اعتنت عناية بالغة بإثبات قضية البعث والجزاء، فعرضتها بطرق شتى وأساليب مختلفة، لا تكرار فيما بين معانيها، ولا مع غيرها من مشاهد القيامة الأخرى الدالة على إثبات البعث والجزاء، ذلك أن لهذه السورة أسلوبها الخاص بها، وهو ما ستبينه الدراسة اللاحقة.

ثانياً: تنوع أساليب البعث والجزاء في سورة ق:

رأينا ـ فيما سبق بيانه ـ أن سورة (ق) تنوع فيها إثبات البعث والجزاء بطرق مختلفة، تختلف عما عرض في غيرها من السور، وذلك بناء على تنوع الأساليب

---

(1) سورة ق 38 ـ 40.

(2) نفسها 41 ـ 45.

المحققة لهذه المقاصد، والتي سنتكلم عنها في هذا المطلب، فنقول: إن سورة (ق) بدأت بحرف من الحروف المقطعة التي سبق الكلام عنها في محله من هذا الكتاب مقروناً به القسم بالقرآن كناية عن التنويه بشأنه؛ لأن القسم - كما قيل -: «لا يكون إلاّ بعظيم عنْدَ المقسم فكان التعظيم من لوازم القسم، وأتبع هذا التنويه الكنائي بتنويه صريح بوصف القرآن بـ ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾»[1].

وانتقل في الآية الثانية إلى الإضراب إبطالاً لزعمهم، وهو «إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم، قد عرفوا وساطته فيهم، وعدالته وأمانته»[2].

كما أن في هذه الآية تحولاً من الإضمار في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى الإظهار في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[3].

قال الزمخشري: «وضع الكافرون موضع المضمر للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم»[4].

وذكر غيره من المفسرين أن هذا العدول حكاية لتعجبهم، وفيه إشارة إلى اختيار الله محمَّداً - ﷺ - للرسالة وإضمار ذكرهم أولاً للإشعار بتعنتهم لما أسند إليهم وإسنادهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه، أو عطف لتعجبهم من البعثة، على أن هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية، ووضع المظهر موضع المضمر إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم، وإما للإيذان بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله - سبحانه - عنه مع معاينتهم لقدرته - تعالى - على ما هو أشق منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة أشنع من الأول وأعرق في كونه كفراً[5].

---

(1) التحرير والتنوير 26/ 176.

(2) الكشاف 4/ 3.

(3) سورة ق، آية 2.

(4) الكشاف 4/ 4.

(5) تفسير البيضاوي 4/ 175، وإرشاد العقل السليم 8/ 125.

إن الذي نلحظه أنه لا تعارض بين ما ذهب إليه الزمخشري، وما ذهب إليه غيره من المفسرين، وإنما يكمل بعضها بعضاً، بيد أن ما ذهب إليه المفسرون اشمل تأويلاً لما تحتمله الآية الكريمة من معان بديعة.

ثم انتقل في الثالثة إلى الاستفهام المراد به الاستبعاد، وهو عدّ الشيء بعيداً وغير متوقع، إذ إن الكفار تعجبوا من فكرة البعث موضحين سبب تعجبهم بقولهم: ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾[1].

ذكر المفسرون أن في هاتين الآيتين إنكاراً لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم رجل منهم قد عرفوا صدقه وأمانته ونصحه، فكان المناسب أن لا يعجبوا، وهذا مع اعترافهم بقدرة الله ـ تعالى ـ[2].

يتبين لنا من ذلك أن السر في بلاغة هذا الاستفهام هو تصوير حيرة الكفار واستبعادهم لأمر البعث، وفيه كذلك رد لاستبعادهم إثبات ذلك اليوم وتحقق وقوعه.

وقد جاءت الآية الرابعة رداً لاستبعادهم البعث، مثبتة لعلم الله ـ عز وجل ـ المحيط بكل شيء وعبر بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾ للدلالة على تحقق علمه وشموله.

وانتقل في الآية الخامسة إلى الإضراب، وهو انتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم بالحق الذي هو النبّوة الثابتة بالمعجزات الباهرة في أوّل وهلة من غير تفكر ولا تدبر[3] ثم تلاه الإخبار المبين لاضطرابهم.

وانتقل في الآية السادسة إلى الاستفهام الإنكاري أو التقريري، فإن كان إنكارياً فإن المراد بالنظر نظر الفكر على نحو قوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4]. ومحل الإنكار هو الحال التي دل عليها: ﴿ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أي ألم يتدبروا

(1) سورة ق 2، 3.

(2) الكشاف 4/ 3 والبحر المحيط 8/ 120 وتفسير البيضاوي 4/ 175.

(3) الكشاف 4/ 4 وإرشاد العقل السليم 8/ 126.

(4) يونس 101.

في شواهد الخليقة، فتكون الآية في معنى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

وإن كان الاستفهام تقريرياً فإن المراد بالنظر المشاهدة، ومحل التقرير هو فعل (ينظرون) أو يكون (كيف) مراد به الحال المشاهدة[2].

وقد تلا هذا الاستفهام، الأسلوب الإخباري المؤكد لقدرة الله - تعالى - مدموجاً به الأسلوب الوصفي من حين لآخر، وذلك من هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[3].

وانتقل في الآية الحادية عشرة إلى الأسلوب التعليلي الذي يوضح علة الإنبات في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾.

وأتبع ذلك بأسلوب التشبيه؛ لتقريب أمر البعث إلى أذهان المنكرين في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ إذ شبه خروج الناس يوم القيامة من قبورهم، بإنزال الماء من السماء وإنبات النبات وإحياء الأرض بعد موتها، فكذلك البعث مثله.

وقد ذكر أبو السعود أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ «جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتها، أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها، وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث، وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس»[4].

---

(1) الروم 7.
(2) التحرير والتنوير 26/ 385.
(3) سورة ق 10.
(4) إرشاد العقل السليم 8/ 127.

ثم انتقل إلى الأسلوب الإخباري من الآية الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة، تأكيداً لحقيقة البعث، وتسلية للرسول ـ ﷺ ـ وفيها وعيد للمكذبين وتهديد لهم.

وانتقل في الآية الخامسة عشرة إلى الاستفهام الإنكاري.

وقد أتبعه بالإضراب الإبطالي لزعمهم الشنيع بإنكارهم البعث «وجيء بالجملة الاسمية من فوله: ﴿ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[1]. للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنه متمكن من نفوسهم لا يفارقهم البتة[2]. وتنكير ﴿ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ «لتفخيم شأنه والإشعار بخروجه عن حدود العادات والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته»[3].

نكتفي بهذا القدر من تتبع أسلوب البعث والجزاء في هذه السورة، وذلك لأن ما سبق بيانه كاف لبيان تنوع هذا الأسلوب، وأنه كذلك يختلف عما عرض في غيره من السور، سواء من حيث التناول، أو من حيث المقاصد التي حققها هذا الأسلوب البديع.

كما أننا نكتفي كذلك بهذا القدر من الأمثلة الدالة على إثبات البعث والجزاء، والتي صرف القرآن الكريم بيانها، تصريفاً عجيباً، لا تكرار فيه، لا من حيث المعاني، ولا من حيث الأساليب.

لقد تفنن القرآن الكريم وأبدع في تصريف هذا النوع وغيره من البيان القرآني، فهو ينتقل من معنى إلى آخر، بحسب مقتضيات الأحوال، عن طريق أساليبه المتنوعة، التي تحقق مقاصده السامية، ذلك أن كل آية تابعة لسياقها وأسباب نزولها.

ومن ثم نستطيع القول: إن القرآن الكريم، لا يسير على طريقة واحدة في نظم أساليبه، فهو ينتقل من أسلوب إلى آخر؛ لأن كل أسلوب يحقق مقاصد معينة لا

---

(1) سورة ق 15.

(2) التحرير والتنوير 26/ 298.

(3) إرشاد العقل السليم 8/ 128.

يحققها غيره من الأساليب، إذ نراه في آية واحدة ينتقل من المحاورة إلى الإخبار، فالنفي، فالاستثناء، فالنهي، ثم يعود إلى الإخبار مرة بعد أخرى، وينتقل أيضاً من الفعل الماضي إلى المضارع وبالعكس، وقد يجمع بينهما في سياق واحد إلى غير ذلك من الأساليب المتنوعة التي يستعملها القرآن الكريم.

إن هذا التنويع في الأساليب هو الذي أحدث التنويع في المعاني، وهذا هو التصريف الذي يعني التنويع والتحويل من نوع إلى آخر.

إن تحويل هذه الأساليب بين الخبر والاستفهام، والأمر والنهي على أنماط مختلفة بقصد عرض الدلائل المؤثرة المقنعة. لتصل منها إلى الإيمان بتلك القضية التي يسوقها القرآن الكريم في مواضع مختلفة، هو التصريف البديع الذي كشف عن إعجازه وسره البياني.

المبحث الثالث
تصريف القول في أسماء يوم البعث والجزاء والعدالة الإلهية في ذلك

تحدثنا في المبحث السابق عن تنوّع المعاني والأساليب الدالّة على البعث والجزاء، وفي هذا المبحث سنتكلّم ـ إن شاء الله تعالى ـ عن تصريف القول في أسماء يوم البعث والجزاء والعدالة الإلهية في ذلك.

ومن ثَمَّ فإن الحديث عن هذا المبحث سيكون في أربعة مطالب، ففي المطلب الأوّل: تصريف القول في أسماء يوم البعث والجزاء، وأما الثاني فعن الأمر بتقوى يوم البعث والجزاء، وأما الثالث فعن حال الناس في يوم البعث والجزاء، وأما الرابع فعن العدالة الإلهية في الجزاء.

المطلب الأول:

تصريف القول في أسماء يوم البعث والجزاء

صرَّف القرآن الكريم أسماء يوم البعث والجزاء بطرائق شتى وأساليب مختلفة، فسماه بأسماء كثيرة، يصعب استقصاؤها، لذلك سنكتفي ببيان تصريف أشهرها، كأمثلة، نتبين منها ذلك التصريف العجيب، والتفنُّن الدقيق، والحكمة البالغة، المرادة من تصريف هذه المعاني.

قال السيوطي: «وقد سمَّاه الله في كتابه بثلاثين اسماً لعظمه، يوم الآزفة، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم التغابن... الخ»[1].

وقال صاحب «من بلاغة القرآن»: «له في القرآن أسماء كثيرة، تطلق عليه في المواضع المختلفة، لتوحي هذه الأسماء في أماكنها بالمعاني التي يستدعيها المقام»[2].

(1) معترك الأقران في إعجاز القرآن 3/ 120.
(2) من بلاغة القرآن ص 289.

وقد بيَّن السر في تصريف هذه الأسماء بهذه الكثرة القرطبيُّ حين قال: «وكل ما عظم شأنه تعدَّدت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا جميع كلام العرب ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر. فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سمّاها الله ـ تعالى ـ في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة»[1].

وقال ابن حجر: «جمعها الغزالي ثم القرطبي فبلغت نحو الثمانين اسماً، فمنها يوم الجمع، ويوم الفزع الأكبر، ويوم التناد، ويوم الوعيد، ويوم الحسرة، ويوم التلاق...

فإذا ضُمَّتْ هذه إلى ما ذكر في الأصل كانت أكثر من ثلاثين اسماً، معظمها ورد في القرآن بلفظه، وسائر الأسماء المشار إليها أخذت بطريق الاشتقاق، بما ورد منصوصاً كيوم الصدر من قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾[2]. ولو تتبَّع مثل هذا من القرآن زاد على ما ذكروا ـ والله أعلم ـ»[3].

ومن ثم فإنني أبين تصريف أشهر هذه الأسماء ـ كما ذكرت ـ.

يوم البعث:

ذكر القرآن الكريم البعث في ست عشرةَ آية، نكتفي بإيراد بعضها.

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[4].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[5].

---

(1) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة 1/ 293 وانظر سورة الرحمن ص 85، واليوم الآخر القيامة الكبرى ص 20.

(2) الزلزلة 6.

(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري 11/ 343.

(4) الأنعام 37.

(5) الأعراف 14.

3 ـ وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[2].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[3].

يستفاد من استقراء هذه الآيات ومثيلاتها، التي ذُكر فيها يوم البعث، إلى أن ذلك هو التصريف القرآني، وليس فيها ولا بينها تكرار، ويدل على ذلك ما بينها من فروق في بعض المفردات والدلالات، التي تتميز بها كل آية عن نظيرتها التي قد تتشابه معها.

ونستدل في هذا الصدد بما أورده ابن الزبير، حول الآيات المتشابهة، والتي ذكرها في هذا المثال، وهي الآية الثانية والثالثة والخامسة، وذلك فيما لاحظه من فروق فيما بينها، إذ ورد في آيتي الحجر وص زيادة الفاء في قوله: ﴿ فَأَنظِرْنِيٓ ﴾ وزيادة قوله: ﴿ رَبِّ ﴾ ولم يَرِدْ ذلك في الأعراف.

وجواب ذلك ـ والله أعلم ـ مناسبة ما تقدم قبل كل واحدة من الآيات الثلاث في الإسهاب والتأكيد والإيجاز، ألا ترى أن مجموع الكلم الواقعة من لدن قوله في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ وهو ابتداء القصة إلى قوله: ﴿ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[4]، بضع وأربعون كلمة، والوارد في الحجر بضع وسبعون كلمة، وفي سورة (ص) بضع وستون كلمة.

فقد وضح ما قصد في الأعراف من إيجاز الإخبار في القصة، وما في السورتين بعدُ من الإطناب، ثم إنه ورد في سورتي الحجر و«ص» والتأكيد بكلّ وأجمع في قوله: ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[5]. ولم يرد ذلك في الأعراف[6].

(1) الحجر 36.

(2) النحل 21.

(3) سورة ص 79.

(4) الأعراف 11 ـ 14.

(5) الحجر 30، وص 73.

(6) ملاك التأويل 1/ 364 ـ 365.

إن الذي يمكن لنا استخلاصه هو أن كل آية تابعة لسياقها وأن هذه المعاني قد انتظمت من خلال فروق يدل عليها السياق في كل منها، تلك بلاغة القرآن في تنويع بيانه وتحقيق مقاصده.

يوم القيامة:

«ويدعي بيوم القيامة مثيراً في النفس هذه الحركة المائجة المضطّربة، التي ينبعث فيها الأموات من أجداثهم كالجراد المبثوث»[1].

وقد ذُكر هذا اليوم سبعين مرة في القرآن الكريم، بطرائق شتّى وأساليب مختلفة، منوّعاً بيانه نكتفي بذكر بعضها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[6].

هكذا تنوع ذكر يوم القيامة في القرآن الكريم، فكل مرّة له دلالة خاصة تختلف عنها في غيرها من الآيات، التي ورد تصريفها فيها.

---

(1) من بلاغة القرآن ص 289.
(2) البقرة 85.
(3) نفسها 113.
(4) نفسها 173.
(5) نفسها 212.
(6) آل عمران 55.

اليوم الآخر:

سُمي يوم البعث، باليوم الآخر في ست وعشرين آية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾[4].

وقد يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة، وذلك في مائة وخمس عشرة آية منها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[7].

---

(1) البقرة 8.

(2) نفسها 62.

(3) نفسها 126.

(4) نفسها 177.

(5) نفسها 4.

(6) نفسها 86.

(7) آية 94.

وقد يسميه بالساعة كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[3].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[4].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[5].

6 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6].

7 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾[7].

8 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[8].

ذكر محمد صادق عرجون: أن دلالة التعبير بكلمة (الساعة) تصوّر ذلك اليوم تصويراً بليغاً، لتقربّه إلى أذهان الناس، حتى يدركوا سر التعبير عن يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال مذهلات للعقول، بكلمة «الساعة» الدالة على تقليل الزمن حتى لكأنّه لحظة تضيق أن يقع فيها شيء، ومَعَ ذلك فقد جعلها الله العلي القدير ظرفاً

---

(1) الأنعام 31.
(2) الحجر 85.
(3) طه 15.
(4) الحج 1.
(5) نفسها 7.
(6) غافر 59.
(7) الشورى 17 ـ 18.
(8) القمر 1.

يحوي بين جنباته هذه الأهوال بأحداثها التي أُجملَتْ إجمالاً في التصوير يغني ذوي الألباب عن كل تفصيل، وهذا لون من إعجاز القرآن في التعبير بالكلمة المفردة المصورة، ذائع في رياضه اليانعة[1].

ومن ثم فإن هذه الآيات اتفقت في معانيها الدالة على وقوع ذلك اليوم وتحقّقه، واختلفت في بعض مفرداتها، كما اختلفت أيضاً في سوابقها ولواحقها، الأمر الذي يضفي عليها صفة التصريف البياني، لا تكرار فيها، حتى الآيات التي تشابهت منها، لا يوجد فيها تكرار، وأعني بذلك آية الحجر وآية طه، وآية الحج الثانية وآية غافر. بيد أنّ الّذين اعتنوا بتوجيه الآيات المتشابهة، اعتبروا التشابه في آية سورة طه وآية سورة غافر، في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾[2]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ﴾[3]. كما ذكر ذلك الكرماني، وتابعه ابن الزبير الغرناطي[4].

والذي نراه أن التشابه ـ كما ذكرت ـ في هذه الآيات الأربع، إذ إنها لا تخرج عن هاتين الآيتين في أسلوبهما، اللّهم إلاّ ما كان بينها من فروق تنفي صفة التكرار عن هذه الآيات.

وهو ما نبه إليه ابن الزبير، فيما رآه من تشابه في الآيتين اللتين سبق التنبيه إليهما، إذ يرى أن آية طه: خطاب للنبي ـ ﷺ ـ يتضمن تأنيسه وتسليته عن حال كفار قريش في توقفهم عن الإيمان، فافتُتحت السورة بأجلّ التأنيس، وهو قوله تعالى: مبشراً لنبيه ـ عليه السلام ـ مُقسماً على ذلك: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[5].

ثم تتابع التعريف بتعظيم الكتاب وذكر مُنزله ـ سبحانه وتعالى ـ بما انفرد به من ملك السموات والأرض، ووصفه بأنه يعلم السّر وأخفى، وانفراده بأسمائه

---

(1) انظر القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 287.
(2) طه 15.
(3) غافر 59.
(4) البرهان في متشابه القرآن ص 325، وملاك التأويل 2/ 675.
(5) طه 2.

الحسنى، ثم عرّف نبيه - عليه السلام - بابتداء أمر موسى - عليه السلام - إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ تعريفاً بعظيم خفاء أمر الساعة، وتغييب كُنهها عن الخلق.

ولما كان هذا الخطاب والتعريف لمن جرى ذكره من تنزّهه - ﷺ - عن الارتياب في أمر الساعة لم يُحتَج إلى نفي الريب، إذ مقام النبوة في الإيمان بها المقام الذي لا يُدانَى. فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب، وإنما عُرِفُوا بحال وصف تابع.

أما آية غافر فأكثر الخطاب المتقدم قبلها من أول السورة، خطاب لقريش، وسائر كفار العرب وهم المجادلون في الساعة، والجاهلون بكيانها.

فذُكّروا بما لا يمكن أحداً من المخلوقين إلاّ الاعتراف بعظيم أمره، والعجز عنه، وهو الخلق الأعظم، ثم أتبع بنفي الريب الذي هو ملتبسهم وصفتهم، وأتبع بتأكيد الإخبار بدخول اللام، ونفْي الريب في ذلك، وذلك أوضح شيء في المناسبة. فكل من الآيتين وارد على أتم مناسبة.

هذا فيما رآه بينهما من فرق في التعبير بقوله: ﴿ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ في سورة طه، وقوله: ﴿ لَّا رَيۡبَ فِيهَا ﴾ في سورة غافر[1].

وأما فيما رآه بينهما من فرق في زيادة اللام في آية غافر، وخلو آية طه منه، فإن آية طه وردت أثناء خطاب رسول الله - ﷺ - بالتأنيس والتسلية، عما يلقاه من مكابرة قريش، وسائر كفار العرب، وتعريفه له بما جرى لموسى - عليه السلام - وظهوره على فرعون، فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر الساعة، إذ هو - عليه السلام - من أمرها على أوضح الجادة.

أما آية غافر فإن قبلها تعنيف الكفار من قريش وغيرها، وعلى ذلك الآيات، فناسب ذلك من حالهم تأكيد الإخبار عن إتيان الساعة بدخول - اللام - وصيرورة

(1) ملاك التأويل 2/ 676 - 677.

الآية بذلك في قوة المقيس عليه، تحقيقاً للأمر، وتأكيداً لما في طيِّ ذلك من وعيدهم بسوء مآلِهِمْ، فورد كل من الآيتين على ما يناسب[1].

يستفاد من كلام ابن الزبير السابق، أن الآيات وإن شابه بعضها بعضاً، فهي تعالج مناسبة من المناسبات اقتضت تصريفها على ذلك النحو المؤدي لمعناه أبلغ أداء، وما ينطبق على هاتين الآيتين ينطبق على غيرهما من الآيات المتشابهة، فذلكم بلاغة القرآن العالية وأسلوبه البديع.

يوم الدين:

وسماه بيوم الدّين، في خمس عشرة آية، منها قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾[4].

يدل هذا التعبير على أن هذا اليوم، هو يوم الجزاء على الأعمال والحساب بها، على - ما ذكر - ابن عطية[5].

وقال غيره، سمي بذلك لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم[6].

هذه الآيات وإن اتفقت في دلالة التعبير بيوم الدّين، فقد اختلفت في أساليبها الأُخر، وفي مضامينها كذلك، ونستدل على ذلك بأقرب الآيات تشابهاً مع آية الحجر وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[7]. وذلك فيما رآه ابن

(1) ملاك التأويل 2/ 677.

(2) الفاتحة 4.

(3) الحجر 35.

(4) الشعراء 82.

(5) المحرر الوجيز 1/ 71.

(6) قرة العيون في الوجوه والنظائر ص 115، والأشباه والنظائر للثعالبي ص 141 وقال ابن قتية و(يوم الدين) يوم القيامة، سمّي بذلك لأنه يوم الجزاء والحساب (تفسير غريب القرآن ص 38).

(7) سورة ص 78.

الزبير بينهما من فروق، أدت إلى اختلاف العبارتين، من ورود اللعنة في سورة الحجر بالألف واللام، وفي «ص» بالإضافة، مع اتحاد المعنى.

وقد أجاب عن ذلك بقوله: «إن آية الحجر، وردت بالألف واللام، وهي الأداة المقتضية للحصر الجنسي حيث لا عَهْدَ، وذلك وارد على ما ينبغي لما قصد من المبالغة، ولا سؤال فيه.

وأما الوارد في سورة «ص» مضافاً لياء المتكلم، فوجه المناسبة اللفظية لقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1].

فجرت العبارتان على منهج واحد، ومسلك متناسب، ولم يكن ليتناسب العكس فيما ورد ـ والله أعلم»[2].

يتضح لنا مما سبق أن كل آية تتصرف دالّة على معناها، مؤدية له أبلغ أداء، ومن هنا فإن كل تصريف للآيات تتحكّم فيه أساليبه ومناسباته.

يوم الفصل:

ورد ذكر هذا اليوم في ست آيات، منها قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4].

تدل هذه الايات في تصريف بيانها دلالة بينة على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يفصل بين عباده في هذا اليوم، ولذلك سماه بهذا الاسم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[5].

---

(1) سورة ص 75.
(2) ملاك التأويل 2/ 587.
(3) الصافات 21.
(4) الدخان 40.
(5) السجدة 25.

ـ وسماه بيوم الخروج في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[4].

وقد سماه يوم عظيم، فقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[5]. وسماه بيوم الآزفة، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾[6]. وسماه يوم الحسرة فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[7].

وقد بين سرّ تصريف هذه الآية والتي سبقتها ابن الزبير، وذلك فيما اختلفت فيه العبارة في الآيتين، خاصة أن المراد من الآيتين التذكير بالقيامة وأهوالها، وذلك أن اليوم المشار إليه يشتمل على مواقف ومواطن مهولة وأحوال مختلفة، وبحسب ذلك تختلف العبارة، والاختلاف لاختلاف المقاصد والمواطن. .

وبحسب ذلك اختلفت الكناية عما أضيف إليه اليوم هنا، فيوم الحسرة عبارة عن الوقت الذي يحصل فيه العلم اليقين بتأبيد خلودهم، واستمرار عذابهم إلى غير نهاية، ويتأكّد لأهل الجنة علمهم بذلك، فلا أشدّ فرحاً من أهل الجنة

---

(1) الروم 25.
(2) سورة ق 11.
(3) نفسها 42.
(4) المعارج 43.
(5) مريم 37.
(6) غافر 18.
(7) مريم 39.

يومئذ، ولا أشد حسرة من أهل النار. . فحُقّ لهم أن يذكّروا تحذيراً وتخويفاً بمثل هذا. . .

وأما آية سورة المؤمن، فخوّفوا بإسراع أمر الساعة وتعجيل وقوعها[1].

وسمّاه يوم الحساب، فقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[6].

وسمّاه يوم التّلاق فقال تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾[7].

وسماه يوم التناد[8] فقال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾[9].

وسماه يوم الجمع فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[10].

---

(1) ملاك التأويل 2/ 661 ـ 663 بتصرف.
(2) إبراهيم 41.
(3) سورة ص 16.
(4) نفسها 26.
(5) نفسها 53.
(6) غافر 27.
(7) نفسها 15.
(8) ويوم التناد يوم القيامة لما فيه من الإنزعاج إلى الحشر، راجع اللسان 3/ 420 ـ مادة ندد)
(9) غافر 32.
(10) الشورى 7.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾[1].

وسماه يوم الخلود فقال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾[2].

ويوم الوعيد فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾[3].

والواقعة فقال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[4].

ويوم التغابن فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾[5].

والحاقّة فقال تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾[6].

والطّامّة الكبرى[7] فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[8].

والصّاخة، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾[9].

تعقّب السيوطي اختصاص سورة النازعات باسم الطامّة، وعبس باسم الصاخة، مع أنهما شيء واحد!

فقال: «إن اسم الطامّة أرهب وأنبأ بأهوال القيامة؛ لأنها من قولهم: طمّ السيلُ، إذا علا وغلب.

وأما الصاخّة فالصيحة الشديدة، من قولهم صخّ بأذنيْه مثل أصاخ، فاستُعير على أسماء القيامة مجازاً؛ لأن الناس يُصيخون لها، فلما كانت الطامّة

---

(1) التغابن 9.

(2) سورة ق 34.

(3) نفسها 20.

(4) الواقعة 1.

(5) التغابن 9.

(6) الحاقة 1 ـ 3.

(7) روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن الطامة: القيامة: عظم الله أمرها وحذر منه وعن أبي جعفر أن العرب إذا عظّمت الشيء وصفته بالطّامّة (إعراب القرآن 5/ 146).

(8) النازعات 34.

(9) عبس 33.

أبلغ في الإشارة إلى أهوالها، خصّ بها أبلغُ السورتين في التخويف والإنذار، وعلى ذلك بُنيت سورة «النازعات» ألا ترى قوله: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾[1].

ووصف الطّامّة الكبرى وما أُتْبع به بَعْدُ وابتداء السورة وختامها قبْلها تخويف وترهيب، فناسبها أشدّ العبارتين موقعاً وأرهبها.

وأما سورة عبس فلم تُبْن على ذلك الغرض، وإنما بُنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى[2].

وسمّاه الغاشية فقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾[3].

وسمّاه القارعة فقال تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[4].

تلك أشهر أسماء يوم البعث والجزاء، اكتفي بها، مشيراً إلى أنها تصرّفت بطرائق شتى وأساليب مختلفة، لا تكرار فيها، بل تنوّع دقيق وبيان عالٍ، يصور كلاً منها في محله أبلغ تصوير، وله دلالات لا يؤدّيها غيرها من الأسماء الأخر، وذلك من بلاغة القرآن وإعجاز تصريفه.

المطلب الثاني:

الأمر بتقوى يوم البعث والجزاء

أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسله وأنزل شرائعه، إلى خلقه، وبين عن طريقهم الخير من الشر، وأمر بإتباع أوامره واجتناب نواهيه، وبين عن طريقهم أيضاً الجزاء المناسب للعمل.

---

(1) النازعات 6، 7.

(2) معترك الأقران في إعجاز القرآن 3/ 120 ـ 121.

(3) الغاشية 1.

(4) القارعة 1، 3.

ولقد أمر ـ عز وجل ـ بتقوى يوم البعث والجزاء في أكثر من آية، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[5].

تضمنت هذه الآيات الأمر بتقوى يوم البعث والجزاء، بأساليب بيانية عالية، مع اختلاف في أساليب الخطاب، فبعضها موجّه للمؤمنين، وبعضها لأهل الكتاب، وبعضها للناس عامّة، ذلكم هو التصريف العجيب، والتناسب الدقيق الذي نبّه إليه ابن الزبير، فيما رآه من تشابه بين الآيتين، الأولى والثانية، وما بينهما من تقديم ذكر الشفاعة في الآية الأولى، وتأخيرها في الآية الثانية.

وذلك أنه لمّا تقدم في الآية الأولى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[6]. والمأمور بالبرّ قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان ويكون في ذلك نجاته، وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الّذين قيل لهم:

---

(1) البقرة 48.
(2) نفسها 123.
(3) نفسها 254.
(4) الحج 1.
(5) لقمان 33.
(6) البقرة 44.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ فهو مظنة عندهم لرجائهم، أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحساني المأمور بالبر، حين قبلوا وامتثلوا ـ أخذاً بظاهر حال الآمرين ـ وإن كانوا يُبطنون خلاف ما يظهرون، وهذا جار على مألوف طمع يهود.

إلاّ أن كل ذلك لا ينفع ما لم يكن إيمانٌ مُخْلص، فلتوهُّم إمكان شفاعة من أمروه بالبر، وطمعهم في ذلك، كان آكد شيء نَفْيُ الشفاعة لهم لإمكان توهُّمها.

ولم يتقدم في الآية الأخرى ما يستدعي هذا، فقدم فيها ذكر الفدية، التي هي أَوْلَى وأحْرَى في كمال التخلص على ما عُهد في الدنيا[1].

والتعبير بـ «يوما» المراد به يوم البعث والجزاء، وتنكيره كما قيل: «للتفخيم والتهويل وتعليق الاتّقاء للمبالغة في التحذير عمّا فيه من الشدائد والأهوال»[2].

المطلب الثالث: حال الناس في يوم البعث والجزاء

أظهر الاستقراء الكامل لهذا النوع من التصريف القرآني، أن آياته بلغت أربعاً وتسعين آية، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾[4].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 51 ـ 53.

(2) إرشاد العقل السليم 1/ 268.

(3) البقرة 165 ـ 167.

(4) النساء 42.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[6].

تضمّنت هذه الآيات الكريمة وغيرها من الآيات الأخر التي لا يتّسع المقام لذكرها، بيان حال الناس يوم البعث والجزاء، فبيّنت حال كلّ فريق، الأشقياء والسعداء، المؤمنين والكافرين، الظالمين، والمجرمين، وغيرهم ممن صرّف القرآن بيان حالهم، مصوّراً له أبلغ تصوير، حتى لا يكون هناك حجة لأحد.

تلك بلاغة القرآن وحكمة تصريفه، وتفنّن أساليبه، وكل ذلك مبنيّ على العدالة الإلهيّة في الجزاء، فكلّ إنسان يحاسب بقدر تقصيره في أوامر الله وإجتناب نواهيه، وذلك ما سنراه في المطلب الآتي.

---

(1) هود 105.

(2) إبراهيم 49 ـ 50.

(3) الحج 2.

(4) الروم 12.

(5) نفسها 55.

(6) السجدة 12.

المطلب الرابع:

العدالة الإلهية في الجزاء

تصريف هذا النوع من البيان القرآني كثير، نورد منه على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[8].

---

(1) البقرة 281.
(2) آل عمران 25.
(3) نفسها 30.
(4) النحل 111.
(5) الإسراء 13.
(6) نفسها 71.
(7) الأنبياء 47.
(8) المؤمنون 102ـ 103.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[4].

تضمّنت هذه الآيات الكريمة في تصريف بيانها، عدالة الجزاء الإلهي فبيّنت أنّ كلّ نفس تحاسب على عملها خيراً أو شراً، وكلّ نفس تنالُ جزاءها، فلا ظلم ولا فرق بين العباد، إلاّ بقدر العمل؛ لأن المجازي على الأعمال هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الذي يفصل بين عباده فيما بينهم.

ومن ثمّ فإن هذه الآيات لا تكرار فيها، وإنما هو التصريف العجيب، والتفنّن الدقيق، الذي أعجز الأنس والجنّ فرادى ومجتمعين، أن يأتوا بمثله، حتى الآيات المتناظرة منها في الأسلوب وفي الدلالات، والتي يأتي بيانها فيما بعد لا يوجد فيها تكرار ـ كما قلت ـ.

ولذا فإنني أكتفي بأنموذج من الآيات المتناظرة، لبيان تصريفها البديع، وهي الآية الأولى والثانية والرابعة، فالآية الأولى بدأت بالأمر بتقوى يوم البعث والجزاء، الذي يتم فيه الرجوع إلى الله، وهو الذي يجازي على الأعمال، ثمّ جاء العطف بثمّ التي تفيد الترتيب مع التراخي، دلالة على أن الجزاء متحقّق لابدّ منه في أجل يعلمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبيِّنة أنَّ كلَّ نفس تحاسب على ما كسبت، فلا ظلم؛ لأن المحاسب على الأعمال العليم الحكيم.

---

(1) السجدة 25.

(2) القلم 35.

(3) المدثر 38.

(4) الزلزلة 7، 8.

وأما الآية الثانية، فبدأت بالاستفهام مسبوقاً بالفاء، الذي يسأل فيه عن حال هؤلاء الناس، يوم يجمعهم الله في يوم البعث والجزاء الذي لا شك فيه، ثم عطفت بالواو، مبيِّنة أنَّ كلَّ نفس تجازى على عملها، بدون ظلم.

وأما الآية الرابعة، فبدأت بأسلوب مخالف للآيتين السابقتين، مخبرة عن حال الناس يوم البعث والجزاء، ثم عطفت بالواو ومتَّفقة مع الآية الأولى في المفردات، بيد أن هناك فرقاً واحداً، إذ الأولى ختمت بقوله: ﴿ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ والرابعة بقوله تعالى: ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

ناهيك عن أسباب نزولها المختلفة التي نزلت لبيان جزاء المؤمنين والكافرين، ولكلٍّ من الفريقين أقسام، لكل منها جزاء عادل، تقتضيه الحكمة الإلهية.

قال الرازي[1]: «ولو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ويجد المسيء عاقبة إساءته، لم يكن ذلك لائقاً بحكمته، وهذا هو المراد من قوله: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[2].

وقال في سورة طه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[3]. وقال في ص: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[4].

«فإنه بعد قيام القيامة يكون الحساب على ما قدم المرء من أعمال الخير، ويحاسب الأشرار على ما قدموا من شر، ولذلك نجد النصوص القرآنية تقرّ الحساب والميزان، وأنّ الناس منتهون من بعد الحساب إمّا إلى الجنة وإمّا إلى السعير»[5].

---

(1) عجائب القرآن ص 14.

(2) النجم 31.

(3) سورة طه، آية 15.

(4) سورة ص، آية 28.

(5) المعجزة الكبرى ص 420.

قال محمد رشيد رضا: «جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء، إلى أصله المعقول، وهو ما كرم الله - تعالى - به الإنسان، من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله، اللذين هما من كسبه وسعيه، لا من إيمان غيره وعمله، وأن الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض يكون بعدل الله - تعالى - بين جميع خلقه، بدون محاباة شعب على شعب، والجزاء على الإيمان والأعمال يكون بمقتضى الفضل، فالحسنة بعشرة أمثالها، وقد يضاعفها الله - تعالى - أضعافاً كثيرة.

إن أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة - أي خاطئة خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره، وأن ليس للإنسان إلاّ سعيه وعمله، فلا يجزى بعمل غيره»[1].

وبيان ذلك الجزاء، وما أعدّه الله لكل فريق، سنتحدّث عنه في المباحث اللاحقة - إن شاء الله - تعالى -.

(1) الوحي المحمدي ص 176 - 177.

المبحث الرابع
أصحاب الجنة وجزاؤهم فيها

رأينا في المباحث السابقة كيف صرّف القرآن الكريم، إثبات البعث والجزاء، وأسماء ذلك اليوم، وحال الناس فيه، وعدالة الجزاء الإلهي، وكيف تنوعت تنوعاً عجيباً، لإثبات مقاصدها بأبلغ أسلوب، وأكمل تصوير.

ولذا فإن الحديث في هذا المبحث سيكون عن أصحاب الجنة وجزائهم فيها، حيث أكثر القرآن من تصريفه بطرائق شتى وأساليب مختلفة، غاية في البيان، مقرّباً ذلك إلى الأذهان مصوراً له أبلغ تصوير، واصفاً الجنة وأهلها بأوصاف كثيرة.

وقد: «فصل القرآن الكريم أحوال أهل الجنة، وما فيها من نعيم مقيم، وأحوال أهل النار، وما فيها من عذاب أليم، وبين ما يجزي الله ـ تعالى ـ به عباده المتقين، وما يعاقب به الّذين استحوذ عليهم الشيطان»[1].

ومن هنا فإن الحديث سيكون مقسّماً إلى قسمين، الأول عن الجنة وتنوُّع أسمائها والثاني: عن أهلها وصفاتهم.

أولاً: الجنَّةُ ودلالاتها التصريفية:[2]

أظهر الاستقراء الكامل لأسماء الجنة، أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سمّاها في كتابه العزيز بعشرة أسماء، بيانها على النحو التالي:

---

(1) المعجزة الكبرى ص 421.

(2) قال الراغب: «وسُمّيت الجنة، إما تشبيهاً بالجنة في الأرض، وإن كان بينهما بون، وإما لستْره نعَمَها عنّا، المشار إليها بقوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (السجدة 17) قال ابن عباس ـ رضي الله عنه: إنما قال جنّات بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً، جنة الفردوْس وعدن وجنّة النّعيم، ودار الخُلد، وجنَّة المأوى، ودار السلام، وعليّين». المفردات في غريب القرآن ص 98 جنّ.

1 ـ جنات النعيم[1] : ورد ذكر هذا الاسم في ست عشرة آية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[8]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾[9].

ورد هذا الاسم في كل مرّة دالّاً على جزاء طائفة من عباده، ففي الآية الأولى، بيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن جنّات النعيم ستكون جزاء لأهل الكتاب لو آمنوا واتّقوا، وفي ذكر هذا الجزاء ترغيبٌ لمن لم يؤمن بالله.

وأما الآية الثانية فبينت أن ذلك جزاء للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

---

(1) النعيم: النعمةُ الكثيرى: نفسه ص 499 نعم.
(2) المائدة 65.
(3) التوبة 21.
(4) يونس 9.
(5) الحج 56.
(6) الشعراء 85.
(7) لقمان 8.
(8) الصافات 42 ـ 43.
(9) الطور 17.

وأما الآية الثالثة، والرابعة، والسادسة فبيَّنت أن جنات النعيم هي جزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذه الآيات وإن اتفقت في معانيها فقد اختلفت في بعض مفرداتها.

وأمَّا الآية الخامسة فبيَّنت أن ذلك كان دعاء لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأما الآية السابعة فبينت أن ذلك جزاء عباد الله المخلصين، وأوردته على سبيل التقابل بين جزاء المؤمنين والكافرين.

وأما الآية الثامنة فبيَّنت أن ذلك جزاء المتقين.

يستفاد من العرض السابق أن ذلك هو التصريف العجيب، والتفنُّن البديع، والحكمة الإلهية البالغة؛ لأجل بيان المقاصد السامية المرادة من تصريف هذه الآيات.

2 ـ دار السّلام[1]: ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2].
وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

3 ـ جنات عدن[4]: ورد هذا الاسم في إحدى عشرة آية، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[5].

---

(1) قال الراغب: «والسلامة الحقيقية ليست إلاّ في الجنة، إذ فيها بقاء بلا فناء وغنىً بلاَ فقْر، وعزٌّ بلا ذُلّ، وصحةٌ بلا سقم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي السلامة» (المفردَات ص 239 سلم). وقال ابن قتيبة: «فالسلام: الله، ودارُه: الجنّة، يجوز أن يكون سماها: سلاماً؛ لأن الصائر إليها يسلَمُ فيها من كل ما يكون في الدنيا من مرض ووَصب وموت وهرم؛ وأشباه ذلك، فهي دارُ السلام» (تفسير غريب القرآن ص 6 ـ 7).

(2) الأنعام 127.

(3) يونس 25.

(4) قال الراغب: «أي استقرار وثبات، وعَدنَ بمكان كذا استقرّ، ومنه المعدنُ المستقرُّ الجواهر» المفردات ص 326 عدن.

(5) التوبة 72.

وقـــال تعـــالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ﴾[1]. وقال تعـالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقـال تعـالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾[3]. وقـــال تعـــالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾[4]. وقال تعـالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[5]. وقـــــال تعـالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾[6].

وقـال تعـالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾[7]. وقـال تعـالى: ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[8]. وقـال تعـــالى: ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[9]. وقـال تعـــالى: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ﴾[10].

---

(1) الرعد 23.
(2) النحل 31.
(3) الكهف 31.
(4) مريم 61.
(5) طه 76.
(6) فاطر 33.
(7) سورة ص 50.
(8) غافر 8.
(9) الصف 12.
(10) البينة 8.

4 ـ دار المتّقين[1] : ويسميها دار المتّقين، كما في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾.

5 ـ ويسمّيها جنّات الفردوس[2]، كما في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4].

6 ـ ويسمّيها جنّة الخلد[5]، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾[6].

7 ـ ويسمّيها جنّات الْمَأْوَى، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[7].

8 ـ ويسميها دار المقامة، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[8].

9 ـ ويسمّيها المقام الأمين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[9].

---

(1) الدارُ المنزل اعتباراً بدورانها، الذي لها بالحائط، . . والدار الدنيا والدار الآخرة، إشارة إلى المقرّين في النشأة الأولى والنشأة الأخرى، (المفردات ص 174 مادة: دار).

(4) النحل 30.

(5) الفردوس: البُستانُ: قال الفرّاء: هو عربيٌّ، والفردوس أيضاً حديقة في الجنة (مختار الصّحاح ص 232، مادة فردس).

(3) الكهف 107.

(4) المؤمنون 11.

(5) الخُلدْ: دوام البقاء (مختار الصحاح ص 101 مادة خلد)، وقال الراغب: »والخلود في الجنة: بقاءُ الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها«. المفردات ص 154 مادة: خلد.

(6) الفرقان 15.

(7) السجدة 19.

(8) فاطر 35.

(9) الدّخان 51 ـ 52.

10 ـ وسمّاها علّيين، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾[1].

نخلص من ذلك إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ صرّف هذا الاسم تصريفاً يتناسب والمقام الذي يناله كل إنسان، بفضل الله وعفوه ورضاه، بأسلوب بديع، ودلالات تؤدّي مقاصدها بدقّةٍ وإحكام، لا تكرار فيها.

ثانياً: تصريف القول في جزاء المؤمنين وصفاتهم:

رأينا فيما سبق أسماء الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، الممتثلين أوامره والمجتنبين نواهيه، ودرجاتها، وهي جزاء حسن وفضل ومنّة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده المؤمنين، الّذين جعلهم درجات، وذلك ما سنراه في هذا النوع من التصريف البياني.

1 ـ تصريف القول في جزاء المؤمنين:

أكثر القرآن الكريم من تصريف الآيات التي تبيِّن جزاء المؤمنين يصعب استقصاؤها، وسنورد منها على سبيل المثال لا الحصر؛ لنتبين منها ذلك التصريف العجيب، والحكمة الإلهيّة البالغة في تصريفها.

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾[2]. إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3].

---

(1) المطففين 18، 19.

(2) البقرة 25.

(3) نفسها 82.

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾[1].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[2].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3].

6 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾[4].

7 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[5].

8 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[6].

9 ـ وقال تعالى: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[7].

يظهر من هذا الاستقراء أنَّ القرآن الكريم صرّف القول في تقرير هذه الحقيقة على وجوه وأساليب شتى، قرن فيها الإيمان بالعمل الصالح بصورة مطّردة، مبيِّناً

---

(1) النساء 57.

(2) نفسها 122.

(3) الأعراف 42.

(4) التوبة 20، 21.

(5) يونس 9.

(6) هود 23.

(7) إبراهيم 23.

جزاء المؤمنين الّذين يعملون الصالحات، وذلك للترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والإقبال على الخير وتجنّب الشرّ.

قال الأستاذ أبو زيد: «إن القرآن ربط بين الإيمان والعمل الصالح ربطاً محكماً، وإنّ العمل الصالح جزء أصيل من حقيقة الإيمان»[1].

نخلص من ذلك إلى أن هذه الآيات لا تكرار فيها؛ لاختلاف بعض أساليبها اللفظية، التي تربط بين هذه الآيات، فالآية الأولى تضمنت وعداً من الله للذين آمنوا بدخول الجنّة بأسلوب مؤكّد، بإنّ.

وأما الآية الثانية فأشير فيها إلى الّذين آمنوا بأنهم أصحاب الجنّة، مقابلاً بين جزاء المؤمنين والكافرين، راداً على بني إسرائيل لقولهم الذي حكاه القرآن: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾[2].

قال ابن عطيَّةَ: «فردّ الله عليهم، وبين الخلود في النّار والجنة بحسب الكفر والإيمان»[3].

وفي الآية وعد من الله للمؤمنين الّذين يعملون الصالحات بدخول الجنة، مقابلاً له بالوعيد للكافرين، قال أبو السعود: «جرت السُّنَّةُ الإلهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى، والتبشير مرة والإنذار أخرى»[4].

وأما الآية الثالثة فالرابط اللفظي فيها الفعل المضارع، الدالُّ على المستقبل، الذي سيتحقّق حتماً بأمر الله العليم الحكيم، وفي التعبير بالسين، تأكيد للوعد،

---

(1) التناسب البياني في القرآن ص 89.

(2) البقرة 80.

(3) المحرر الوجيز 1/ 171.

(4) إرشاد العقل السليم 1/ 122.

كما قيل[1] مقابلاً بين جزاء المؤمنين والكافرين، ترغيباً في الإيمان، وترهيباً من الكفر.

قال أبو السعود نقلاً عن سيبويه: «سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد، وينوب عنها السين، وقد يذكران في الوعد فيفيدان التأكيد»[2].

وأما الآية الرابعة فهي نظير الآية الثالثة، بيد أن بينهما فرقاً في الختام، إذ ختمت الأولى بقوله: ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ والثانية بقوله تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ﴾ وهو دليل واضح على نفي التكرار، وتصريف القول فيهما.

ومن الجدير بالتنبيه إليه أن هاتين الآيتين لم يذكرهما أصحاب المتشابهات، بيد أنّ ابن الزبير الغرناطيّ، جعل خاتمة الآية الثانية مشابهة لخاتمة قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[3]، حين تساءل عن اختلاف التعبير في الآيتين، مع أن المتقدّم في كل من الآيتين إخبار أخرويّ، ثم جاء بالتمييز مختلفاً فقيل في الأولى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ وفي الثانية: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ﴾ فخولف في العبارتين مع وحدة المعنى.

ثم أجاب عن ذلك بقوله: «إن التعبير الثاني مبنيّ على ما يجب ربطه به من قوله: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ فقيل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ﴾ وناب مناب وعد، فكأن قد قيل: ومن أصدق من الله وعداً، وهو ما وعدهم - تعالى - به من النعيم، وعظيم الإحسان، فجاء بلفظ يُوازن المصدَرَيْن قبله وهما، وَعْداً وحقّاً، ويشابههما في الخفّة بسكون عين الكلمة، وعدد حروفها المصدَرَيْن قبلها، وكأنه إنما أوجد تكرار

---

(1) إرشاد العقل السليم 2/ 192.

(2) نفسه ص191.

(3) النساء 86.

المصدر بلفظه، فاستثقل التكرار المتقارب، وعادة العرب في ذلك، **فعدل إلى ما** يجاريه خفّةً ويحرز المعنى؛ ولتجري المصادر الثلاثة مجرىً واحداً، **خفّةً ووزناً؛** إحرازاً للتناسب والتلاؤم، ولمّا لم يتقدم في الآية الأولى ما يستلزم هذا، **وأن قوله** تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إخبار وحديث عن البعث بعد الموت وجمع الخلق لحسابهم ومجازاتهم على الخير والشرّ فهو إخبار وإنباء. فقد وضح ورود كل واحدة من الآيتين على ما يناسب ويلائم ـ والله أعلم[1]».

يستفاد من ذلك أنّ ما قاله ابن الزبير في هاتين الآيتين ينطبق تماماً على الآيتين موضوع الدراسة؛ لأن كل واحدة منهما ختمتا بألفاظ ومعان مختلفة؛ لتؤدي هذه الألفاظ والمعاني في تصريفها دلالات تضاف إلى دلالاتها السابقة التي اتفقت فيها الآيتين، وذلك من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

وأما الآية الخامسة فأشير فيها إلى جزاء المؤمنين الّذين يعملون الصالحات، مقابلاً ببيان جزاء المجرمين والظالمين، مبيِّناً أن دينه يسر لا مشقّةَ فيه.

وأما الآية السادسة، فبيَّنت مراتب فضل المؤمنين فانتظم أسلوبها ببيان هذه المراتب، أحياناً بواو العطف، وأحياناً بدونه كما هو بيّن في الآية.

وأما الآية السابعة، فبيَّنت أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح، سبب للّهداية إلى الجنة.

وأما الآية الثامنة فبيَّنت أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح والخضوع والتواضع، سبب في دخول الجنة.

وأما الآية التاسعة، فبيَّنت أن دخول الجنة بأمر الله وتوفيقه وهدايته.

وقد نبَّه ابن الزبير الغرناطي إلى سرّ تصريف الآيات المتشابهة التي يجمعها التعريف بالجزاء الأخروي للمؤمنين، والإشارة إلى حال الجزاء ووجهه في ثلاث عشرة آية، وذلك:

---

(1) ملاك التأويل 1/ 212 ـ 214.

1 ـ قولــه تعــالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2] .

3 ـ وقــال تعــالى : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[3] .

4 ـ وقال تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[4] .

5 ـ وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[5] .

6 ـ وقــال تعــالى : ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[6] .

7 ـ وقــال تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ

---

(1) النساء 13 .

(2) المائدة 85 .

(3) نفسها 119 .

(4) التوبة 88 ـ 89 .

(5) نفسها 100 .

(6) إبراهيم 23 .

أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[1].

8 ـ وقال تعالى: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

9 ـ وقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾[3].

10 ـ وقال تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4].

11 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[5].

12 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾[6].

13 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[7].

14 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[8].

---

(1) الكهف 30 ـ 31.
(2) الحديد 12.
(3) المجادلة 22.
(4) الصف 12.
(5) التغابن 9.
(6) الطلاق 11.
(7) البروج 11.
(8) البينة 7 ـ 8.

هكذا أورد ابن الزبير هذه الآيات، وعدّها ثلاث عشرة آية فقال: «فهذه ثلاث عشرة آية» وفي الواقع إنَّها أربع عشرة آية، كما هو مبيَّن، وهو يرى أنه قد عرض فيها مما يسأل عنه، مما اتفقت فيه أو اختلفت وانفرد به بعضها دون بعض.

فالأوَّل وهو اتفاق أكثرها في ذكر الخلود وقد كثُر اختلافها فيما سوى ذلك؟.

والجواب عنه، أن وجه اتّفاقِ أكثرها على ما ذكر، أن كل نعيم ينقطع فليس بنعيم في الحقيقة، وكذلك العذاب، وهذا واضح، فلولا الخلود لما كان نعيماً، فلهذا كثر ترْدادُه مع ضروب الجزاء.

والسؤال الثاني: ما وجه اجتماع الرضا والتأبيد في الآية الثانية من المائدة وثانية براءة، وآية البريّة، ولم يجمع بينها في البواقي. ووجه ذلك - والله أعلم - أن هذه الآيات واردة على ما يُذْكر.

وأما آية المائدة فحين ورد التصديق بعيسى - عليه السلام - فوسمهم فيها بالصدق، وهو أسنَى حالات الإيمان، فالصدق حال الأنبياء، والرُسُل وأولى السوابق.

وأما الآية الثانية من سورة براءة ففيها أسبقيَّةُ المهاجرين والأنصار - رضوان الله عليهم - وما عُرف من حالهم وأنهم صفوة المحسنين من هذه الأمة.

فلما كان المشار إليهم في الآيتين هم الأسوة والقُدوة لمن سواهم، ناسب حالهم الإطناب بذكر الرضا والتأبيد، ولم يقع في الآيات البواقي وصف يُلحق أصحابه بهؤلاء وإن شملهم الرضا، والخلود في الجنة، لكن تجديد الذكر والإفصاح بالمقدر المفهوم من سياق الكلام وعمومه له حكم قد بُيّن.

وأما آية البريّة، فإنها على مقتضى الترتيب الثابت، آخر آية ذكر فيها حال المؤمنين في الجزاء الأخرويّ، مُعقّباً به، ذكر جزاء من كان في طرف من حالهم من مُستَوجبي النار على التأبيد، فكانت هذه الآية مظنَّة استيفاءِ للحال، فوردت ورود الآيتين قبلها.

والسؤال الثالث: وهو وجه تخصيص الآيات الأربع: آية المائدة والثانية من سورة براءة، وآية الطلاق، وآية البريّة، بذكر التأبيد مع الخلود، ولم يقع ذلك في البواقي؟.

وذلك لاستدعاء هذه المواضع الأربعة ذكر ذلك، أما آية المائدة وثانية براءة، فلمَا بُنيتَا عليه من الإطناب، ولما حُمل فيهما على جمع التأبيد والرضا حسبما تقدم.

وأما آية الطلاق فوجه ذكر التأبيد فيها ما تكرر في هذه السورة من ذكر غايات أبْينُها قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[1]. فلما أشارت ـ أي السور ـ إلى غايات ونهايات ناسب ذلك التعريف بأن دخول الجنة متأبّدٌ لا انقضاء له، ولم يجمع بينه وبين ذكر الرضا، أي لم يجتمع لمن ذكر هنا ما اجتمع لأولئك الموصوفين في آية المائدة وثانية براءة، ولم يبلغوا مبلغهم.

وأما آية البريّة فإنها كما تقَّدم ختام حال الفريقين، فاقتضت الاستيفاء.

والسؤال الرابع: ما وجه اختصاص آية المجادلة بالرضا فقط، دون التأييد؟

ذلك أن المذكورين في هذه الآية وُصفوا بما يلحقهم بأعلى نمط، والفلاح: الفوز والظفر بما يبغيه الراغب، وحيث يذكر الفوز، فهو مُغْنٍ عن ذكر التأبيد، إلاّ أن يقصد الإطناب.

ولذلك لم يقع ذكر التأبيد في آية النساء، والأولى من براءة، وسورة الحديد والمجادلة، إذ الفلاح الفوز، فذكر الفوز أو الفلاح، مُغنٍ عن ذكر التأبيد، فلم يجمع بينهما.

ولـمّا لم يذكر في آية الطلاق الفوز، ولا ما يرادفه، لم يكن بُدٌّ من ذكر التأبيد[2].

يستفاد من العرض السابق أن هذه الآيات ليست مكرَّرة، وإنما هو تصريف للبيان القرآني، ويظهر ذلك في أمور منها:

---

(1) الطلاق 3.

(2) ملاك التأويل 1/ 193 ـ 199.

الأول: ما أشار إليه ابن الزبير فيما بينها من اتفاق واختلاف، وذلك يعني التنويع في الأساليب والمعاني، فكلٌّ لفظ له دلالته المعنويّة التي يؤديها أبلغ أداء.

والأمر الثاني: راجع إلى ارتباط الأساليب في كلّ آية فتارة تنتظم هذه الأساليب بالعطف، وتارة تأتي مفصولة بدون عطف، وتارة ثالثة بطريق الاستفهام والجواب، ورابعة يربِطُ بينها الفعل المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار، وذلك من أجل تحقيق الإيمان، وبيان جزاء أهله، ودرجاتهم بفضل الله وواسع رحمته.

قال الأستاذ أبو زيد: «إن القرآن لا يسير على أسلوب واحد في نظم هذه المعاني، بل يصرّف القول فيها على أوجه كثيرة وأساليب متنوّعة»[1].

2. تصريف القرآن الكريم لصفات المؤمنين:

وصف القرآن الكريم المؤمنين بأوصاف كثيرة، مادحاً إيّاهم بتلك الصفات العالية، مبيِّناً جزاءهم، ترغيباً في هذه الصفات، وترهيباً من صفات ضدّها، والتي سيأتي بيانها في محله ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ونظراً لكثرة هذه الصفات وكثرة الآيات في أغلبها، فإنَّنا سنقوم باستقراء كامل للصفات التي تكون آياتها قليلة يسهل بيانها، وسنكتفي بتقديم أمثلة للصفات التي تكون آياتها كثيرة يصعب استقصاؤها.

وصفت الآيات الكريمة المؤمنين بالاستقامة، وبيَّنت جزاءهم كما في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

(1) التناسب البياني في القرآن ص 83.

(2) الفاتحة 6 ـ 7.

(3) النحل 76.

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقد ترد مبيِّنة جزاء الصادقين كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ

---

(1) الحج 54.

(2) فصلت 30.

(3) الأحقاف 13، 14.

(4) المائدة 119.

(5) الأحزاب 8.

(6) نفسها 24.

فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[4].

وقد ترد تارة مبيِّنةً جزاء الصابرين، وتارة آمرة بالصبر، وتارة أخرى مادحة إيّاهم، وآيات هذا النوع من التّصريف القرآني كثيرة، نكتفي بإيراد ما ورد منها في النصف الأول من القرآن الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[6].

---

(1) الأحزاب 35.

(2) الزمر 33، 34.

(3) الحجرات 15.

(4) الحشر 8.

(5) البقرة 153.

(6) نفسها 155، 157.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[8].

---

(1) البقرة 249.

(2) آل عمران 142.

(3) نفسها 146.

(4) الأنفال 46.

(5) هود 11.

(6) إبراهيم 5.

(7) النحل 96.

(8) نفسها 110.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[1].

وقد بيَّنت جزاء المقرّبين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[4].

وقد بيَّنت جزاء المخلَصين، في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[8].

---

(1) النحل 126 ـ 127.
(2) الواقعة 10 ـ 12.
(3) نفسها 88 ـ 89.
(4) المطففين 27 ـ 28.
(5) يوسف 24.
(6) الحجر 39 ـ 40.
(7) الصافات 38 ـ 43.
(8) نفسها 73 ـ 74.

وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[3].

هكذا بيَّنت هذه الآيات الكريمة في تصريف بيانها جزاء المخلَصين، الذي انتظم في أغلبها بأسلوب الاستثناء الذي يستثني عباد الله المخلصين من عذاب واقع في كلّ مرّة بقوم من الأقوام، أو بشخص من الأشخاص، وذلك في أعلى درجات البلاغة، لا تكرار فيها، وإنما هو التنويع العجيب، والتفنُّن البديع، المتَّفقُ ومقاصد الآيات والسور، وذلك حتى آية سورة الحجر وآية سورة «ص» المتشابهتين في بعض أساليبهما ومعانيهما حكاية لقصة إبليس ـ لعنه الله ـ لا نجد فيهما تكراراً، بل تصريفاً وبياناً، وهو واضح من اختلاف ما بدأت به كلٌّ منهما، إذ الأولى بدأت بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والثانية بقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ومن ذلك نلاحظ تفاوتاً في عدد الكلمات في كلٍّ منها، إذ إن لكلٍّ منها دلالةً تؤدّيها تختلف عمّا في الآية الأخرى.

وقد يتصرَّف البيان، مبيِّناً جزاء المتقين، مادحاً إيّاهم آمراً بالتقوى في آيات كثيرة نكتفي منها بما ورد في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

---

(1) الصافات 127 ـ 128.

(2) نفسها 158 ـ 160.

(3) سورة ص 82 ـ 83.

(4) البقرة 1 ـ 5.

وقال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[8].

وقد بينت جزاء الخاشعين في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[9].

وقال تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[10].

---

(1) البقرة 66.
(2) نفسها 177.
(3)نفسها 180.
(4)نفسها 189.
(5)نفسها 194.
(6)نفسها 203.
(7)نفسها 212.
(8) نفسها 241.
(9) نفسها 45.
(10) الإسراء 109.

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[4].

ووصفهم بالخشوع والتواضع، وبيّن جزاءهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[7].

وبيّن جزاء الأبرار فقال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾[1].

---

(1) الأنبياء 90.
(2) المؤمنون 1 ـ 2.
(3) الأحزاب 35.
(4) الحديد 16.
(5) هود 23.
(6) الحج 34.
(7) نفسها 54.
(8) آل عمران 198.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[3].

وقد وصفهم بالموقنين، مادحاً إيّاهم بذلك، ومبيِّناً جزاءهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[9].

---

(1) الإنسان 5.

(2) الانفطار 13.

(3) المطففين 18 ـ 28.

(4) البقرة 4 ـ 5.

(5) نفسها 118.

(6) المائدة 50.

(7) الأنعام 75.

(8) النمل 3.

(9) لقمان 4.

وقال تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[3].

قال ابنُ عَطيَّة: «و ﴿ يُوقِنُونَ ﴾: معناه يعلمون علماً متمكِّناً في نفوسهم، واليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شكٌّ بوجه»[4].

ووصفهم بالمهتدين، مبيِّناً جزاءهم، مقابلاً هذه الصفة بضدِّها، بصورة مطَّردة، ترغيباً في الأولى؛ لأنها تقود إلى الجنّة ورضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وترهيباً من الثانية؛ لأنها تقود إلى النار وغضب الله ـ سبحانه وتعالى ـ نورد منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾[8].

(1) الجاثية 4.
(2) نفسها 20.
(3) الذاريات 20.
(4) المحرر الوجيز 1/ 86.
(5) البقرة 156 ـ 157.
(6) الأنعام 125.
(7) الأعراف 178.
(8) الإسراء 97.

وقال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[1].

وقد بيّن جزاء المحسنين في آيات كثيرة يصعب استقصاؤها نكتفي بما ورد في الربع الأول من القرآن الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[7].

---

(1) الكهف 17.

(2) البقرة 195.

(3) نفسها 236.

(4) آل عمران 134.

(5) نفسها 148.

(6) المائدة 85.

(7) نفسها 93.

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

وقد وصف عباده المؤمنين، بالفلاح، في آيات كثيرة نورد منها قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

وقد وصفهم بالفوز، وهو جزاء لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[8].

---

(1) الأنعام 84.

(2) البقرة 5.

(3) آل عمران 104.

(4) الأعراف 8.

(5) آل عمران 185.

(6) التوبة 20.

(7) المؤمنون 111.

(8) النور 52.

وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[1].

وقد صرّف القول في أكثر من آية أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحبُّ هذه الصفات في عباده، وذلك جزاء لهم؛ لأنَّ من أحبه الله فقد رضي عنه، ومن رضي عنه أدخله الجنة، فقال تعالى، مخبراً عن حبه لهذه الصفات معبّراً عنه بالفعل المضارع الدال على التجدّد والاستمرار فهو يحب المحسنين: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2]. ويحب التوّابين ويحب المتطهّرين، فيقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[3].

ويحبّ المتقّين فيقول: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

ويحب الصابرين فيقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[5].

ويحب المتوكّلين فيقول تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[6].

ويحب المقْسطين فيقول تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[7].

ويحب الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[8].

---

(1) الحشر 20.
(2) البقرة 195.
(3) نفسها 222.
(4) آل عمران 76.
(5) نفسها 146.
(6) نفسها 159.
(7) المائدة 42.
(8) الصف 4.

نخلص من العرض السابق إلى أنَّ القرآن الكريم صرّف القول في بيان صفات المؤمنين، وجزائهم على وجوه شتّى وطرق مختلفة، منوّعاً إيّاها تنويعاً عجيباً، غاية في البيان، ومرّغباً في هذه الصفات، ومحذّراً من ضدّها، مقابلاً بينها في كثير من الأحيان، وقد اختلفت في انتظام أساليبها، الأمر الذي يجعل دلالاتها مختلفةً، وذلك راجع إلى مقاصد السور وانتظام المعاني فيها.

كما يلاحَظُ أنَّ بعضها جاء تعقيباً على دلائل القدرة والوحدانية، مدحاً للمؤمنين على إيمانهم، وذمّاً للكافرين على كفرهم، وأن بعضها جاء تعقيباً لأحكام شرعية دلالةً على طلب الامتثال. وفي ضمنه وعيد للمخالفين.

المبحث الخامس
أصحاب النار وجزاؤهم فيها

درسنا في المبحث السابق تصريف القول في بيان صفات المؤمنين وجزائهم، وفي هذا المبحث سندرس تصريف القول في جزاء الكافرين وصفاتهم، وما أعدَّه الله لهم من العذاب الأليم، الذي ينتظرهم، إذ أوردها على وجوه مختلفة وأساليب شتَّى، غاية في البيان، وذلك للتنفير من الكفر وقبائحه، وترغيباً في الإيمان والعمل الصالح.

ومن هنا فإن الحديث في هذا المبحث سيكون مقسَّماً إلى قسمين:

الأول: النار ودلالاتها التصريفية، **والثاني** عن أهلها وصفاتهم، وأحوالهم فيها.

المطلب الأول

النار ودلالاتها التصريفية

أشار إلى تنوُّع أسماء النار في القرآن الكريم (مايكل سيلز) في معرض حديثه عن سورة القارعة، فقال: «نار تعني جهنّم، وهي غير معرَّفة، تدلُّ على التنويع في استخدام الكلمات في القرآن الكريم لتفيد معاني مختلفة أو مستقبلية، وكأننا نعيش في لحظاتها حقيقة، من خلال الوصف القرآني البليغ، الدقيق والمؤثّر»[1].

إنَّ هذه الإشارة من باحث أجنبيّ تدلُّ على وضوح مصطلح التصريف في القرآن الكريم.

وقد أظهر الاستقراء الكامل لأسماء النار التي جعلها الله جزاء للكافرين - أعاذنا الله منها - أنَّها بلغت تسعة أسماء في كتاب الله - تعالى - مفصَّلةً على النحو التالي:

1. النار:

وقد سمى الله تعالى هذا النوع من الجزاء باسم: النار في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، يصعب استقصاؤها، ولذا سأكتفي بذكر أمثلة منها، وذلك قوله

---

(1) Sound and Meaning in Surat at - Qarica, Michael sells p 20.

تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[5].

بيَّنت هذه الآيات في مجملها أنَّ النار جزاء للكافرين والمنافقين، تارة بالتحذير منها، وتارة مبيِّنة أنها جزاء لهؤلاء، وتارة أخرى تقابل بينها وبين جزاء المؤمنين، ترغيباً في الإيمان وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وترهيباً من الكفر، بأسلوب بديع، وتفنُّنٍ دقيق، مؤدِّياً مقاصد القرآن في دقَّة وإحكام، تختلف باختلاف الأسباب، واختلافً سوابق الآيات وخواتمها.

2. الجحيم:

وقد يسميّها بالجحيم - أعاذ الله عباده المؤمنين منها - مبِّيناً أنها جزاء للكافرين والغاوين والفجَّار، محذِّراً عباده المؤمنين منها، وقد أظهر الاستقراء الكامل أنَّها

---

(1) البقرة 24.

(2) نفسها 39.

(3) نفسها 80.

(4) نفسها 81.

(5) نفسها 126.

بلغت ستاً وعشرين آية، نورد منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3].

3. جهنم:

ورد ذكر هذا الاسم سبعاً وسبعين مرة في القرآن الكريم، نورد بعض تصريفاته، على سبيل المثال لا الحصْر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[8].

---

(1) البقرة 119.

(2) المائدة 10.

(3) التوبة 113.

(4) البقرة 206.

(5) آل عمران 12.

(6) نفسها 162.

(7) نفسها 197.

(8) النساء 55.

4. السعير[1]:

ورد هذا الاسم في ثماني عشرة آية من كتاب الله تعالى، مقروناً أحياناً بالعذاب، وأحياناً أخرى بأصحاب السعير، وتارة معرّفاً، وتارة أخرى منكّراً، وهو كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[9].

---

(1) السعير: النار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ قال الفرّاء: في عَنَاءٍ وعذابٍ (مختار الصحاح ص 150، مادة سعر)، وقيل: اسم من أسماء جهنّم (نزهة القلوب ص 262).

(2) الحج 4.

(3) لقمان 21.

(4) سبأ 12.

(5) فاطر 6.

(6) الشورى 7.

(7) القمر 47.

(8) الملك 5.

(9) نفسها 10.

5. لظى[1]:

ورد هذا الاسم في آيتين، الأولى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[2]. والثانية قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[3].

6. سقر[4]:

ورد هذا الاسم في أربع آيات، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾[7].

7. الهاوية[8]:

سمّاها بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[9].

---

(1) اللّظى: اللّهَبُ الخالص، وقد لظيت النّارُ وتلظّتْ. ولظى غير مصروفة اسمٌ لجهنّم (المفردات في غريب القرآن ص 450 مادة: لظى) وفي مختار الصحاح: اللَظى النار، ولظى أيضاً اسم من أسماء النار معرفة لا ينصرف (ص 274 مادة لظى).

(2) المعارج 15.

(3) الليل 14.

(4) سقر: من سَقَرَتْهُ الشمسُ، وقيل: صقرتْهُ أي لوّحَتْهُ وأذابتْهُ، وجُعِلَ سَقَرُ اسمَ عَلَمٍ لجَهنّمَ (المفردات في غريب القرآن ص 235 مادة: سقر، وفي مختار الصحاح: سقر من أسماء النّار (ص 152 مادة: سقر).

(5) القمر 48.

(6) المدثر 26 ـ 27.

(7) نفسها 42.

(8) الهاوية: اسم من أسماء جهنّم، وهي معرفة بغير ألف ولام، وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾. أي مسكنه جهنّم ومُسْتَقَرُّهُ النار (لسان العربّ 15/ 373 مادة: هوا).

(9) القارعة 8 ـ 9.

8. الحُطَمَةُ[1]:

وسمّاها الحطمة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾[2].

9. نار السموم:

وسماها بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾[4].

ذلك تصريف القرآن الكريم لأسماء النار ودرجاتها، التي وردت على وجوه مختلفة وطرائق شتّى، وذلك لتحقيق مقاصد القرآن التي من بينها تحقيق الإيمان الكامل، وإتِّباع أوامر الشريعة الإسلامية، واجتناب نواهيها.

وقد تنوّع التصريف القرآني في بيان هذه الأنواع من الجزاء الإلهي، فتارة يأتي الخطاب للكافرين والمنافقين، وتارة يتصرّف الخطاب مبيِّناً صفاتهم الكثيرة، التي نوَّع القرآن بيانها، والتي سيتُّم الحديث عنها في المطلب الآتي:

المطلب الثاني

أصحاب النار وجزاؤهم فيها

رأينا فيما سبق تنوُّع نار جهنّم، التي أعدّها الله لعباده الكافرين والمنافقين، ومن سار على نهجهم، وجعلها درجات تناسب أعمالهم المخالفة لشرع الله - تعالى - وكما نوَّع في كتابه العزيز مقرّ الجزاء، فقد بيَّن أهله وصفاتهم، وحالهم في هذا المقرّ، وذلك ما سنراه في الدراسة اللاّحقة.

---

(1) الحُطَمةُ: من أسماء النار؛ لأنها تَحْطِمُ ما تَلْقَى (مختار الصحاح ص 84 مادة حطم).

(2) الهمزة 4 - 6.

(3) الطور 27.

(4) الواقعة 41 - 42.

أولاً: الّذين يعملون السيئات وجزاؤهم:

ورد ذكر السيئات في القرآن الكريم ستّاً وخمسين مرّة، وقد أظهر هذا الاستقراء، أنَّ القرآن صرَّف القول في بيان جزاء الّذين يعملون السيئات على وجوه وأساليب شتّى، موازناً بين السيّئات والحسنات في مواضع كثيرة منه، وذلك للترغيب في الحسنات والابتعاد عن السيّئات.

وقد اختلفت أساليب نظم هذه المعاني، فتارة تذكر السيّئات محذّرةً منها، مبيّنةً عواقبها وجزاء مرتكبيها، وأحياناً تذكر السيئات وتقرنُها بذكر الحسنات، موازنةً بينهما، تحذيراً من الأول وتشويقاً في الثاني، مبيّنةً أن الحسنات تذهب السيئات، وذلك فضلاً من الله ومنّة.

ولذلك نورد تصريف بعض هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصْر:

1 ـ قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[3].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[4].

---

(1) البقرة 81.

(2) الرعد 22.

(3) النمل 90.

(4) القصص 54.

5 ـ وقـــال تعـــالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

6 ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2].

7 ـ وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3].

8 ـ وقـــال تعـــالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾[4].

9 ـ وقـــال تعـــالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[5].

10 ـ وقـــال تعـــالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[6].

تضمَّنت هذه الآيات، بيان جزاء الّذين يعملون السيّئات، على أساس العدل التامّ، الذي لا يشوبه ظلم، ومن عدالته أن الجزاء على السيّئة بمثلها وعلى الحسنة بعشر أمثالها، وقد يضاعفها إلى ما شاء الله بفضله وإحسانه، فقال تعالى :

---

(1) القصص 84.

(2) النساء 18.

(3) العنكبوت 4.

(4) فاطر 10.

(5) فصلت 46.

(6) الجاثية 15.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[4].

ويقبل توبة عباده ويعفو عن سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[6].

وبيّنَ أن الإيمان والعمل الصالح يكفّر السيّئات فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[8].

---

(1) الأنعام 160.
(2) يونس 27.
(3) غافر 40.
(4) الشورى 40.
(5) الأعراف 153.
(6) الشورى 25.
(7) العنكبوت 7.
(8) الفتح 5.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

وبيَّنَ كذلك أنَّ التقوى تكفِّر السَّيئات، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[3].

والجدير بالتنبيه إليه أنَّ هذه الآيات لا تكرار فيها، وإنَّما هو التصريف العجيب، والتفنُّنُ الدقيق، الذي يقتضيه المقام، ولنأخذ مثالين من هذه الآيات، والتي هي أقرب الآيات تشابهاً.

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[5].

هاتان الآيتان اتفَّقتا في بعض مضامينهما وأساليبهما، واختلفتا في سوابقهما وخواتمهما، وأسباب نزولهما، الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنهما.

فالآية الأولى بيَّنت جملة من النعوت الجليلة التي استحق بها هؤلاء دخول الجنَّة، فعدَّدت محاسنهم المتمثِّلة في الصبر ابتغاء وجه الله ـ تعالى ـ وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية، ويدفعون بالحسنة السَّيِّئة، وختمت بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ وسبب نزولها على ما ذكر ابن عطيَّة:

(1) التغابن 9.
(2) الأنفال 29.
(3) الطلاق 5.
(4) الرعد 22.
(5) القصص 54.

«أنَّ هـذه الآيـة نزلـت فـي الأنصـار، ثـم هـي عامَّـة بعـد ذلـك فـي كـل مـن اتَّصـف بهذه الصفات»[1].

وأما الآية الثانية فبيَّنت الجزاء المضاعف لأهل الكتاب المؤمنين بالقرآن الكريـم، وذلـك لصبرهم على الإيمـان بـالقرآن وبكتابـهم، وختمـت الآيـة بقولـه: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وسبب نزولـها علـى مـا ذكـر أبـو السعود: «هـم مؤمنـو أهـل الكتاب، وقيل: أربعون من أهل الإنجيل، اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر مـن الحبشة وثمانية من الشام»[2].

وأمَّا المثال الثاني فتمثِّله الآيتان التاسعة والعاشرة اللَّتان اتَّفقتا في بيان أن العمـل الصالح أو السيِّء للإنسان نفسه، ثم اختلفتا في خواتمهما والرابط الذي يربط بين أول الآية وخاتمتها، فالأولى الرابـط فيـها واو العطـف والثانيـة ثـمّ التـي تفيـد الـترتيب مـع التراخي، للدلالة على أنّ الرجـوع إلـى الله فـي يـوم البعـث والجـزاء، أمـر متحقّـق، ليجازي كلَّ إنسان على عمله خيراً أو شراً.

وكما اختلفتا في الرابط، اختلفتا كذلـك فـي الختـام، إذ الأولـى ختمـت بقولـه تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ والثانية بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.

نخلص من العرض السابق للآيات التـي تبيِّـن جـزاء الّذيـن يعملـون السّيئات، إلى ما يلي:

- إنَّ ذلك هو التصريف العجيب، والتنويع البديـع، الـذي لا تكـرار فيـه، بقصـد تحقيـق المقاصد السامية لتلك الآيات، والتـي مـن بينـها الـترغيب فـي الحسنات والتحذير مـن السّيئات، عن طريق الموازنة بينهما، مبيِّنـةً أنّ جزاء الحسنات الجنّة، وجزاء السّيّئات نار جهنّم.

---

(1) المحرر الوجيز 3/ 309.

(2) إرشاد العقل السليم 7/ 18.

- إنَّ ورود ذكر السّيئات قبل الحسنات جاء بصورة مطّردة، إلاّ في أربعة مواضع ذكرت فيها الحسنة قبل السّيئة.

- إنَّ ذكر السّيئات أكثر من ذكر الحسنات في هذه الآيات، دلالة على أن مرتكبيها أكثر، ولذلك حرص القرآن على التحذير منها، وبيّن جزاءها.

- إنَّ تقديم أحدهما على الآخر للاعتناء به؛ ولأنه أمر مهمّ يجب امتثاله إن كان حسناً أو اجتنابه إن كان سيّئاً.

- إنَّ تصريف هذين الضدّين يأتي أحياناً منكّراً، وأحياناً يأتي معرّفاً، ففي حالة التنكير يكون الخطاب عامّاً، وفي حالة التعريف يكون المراد به فئة معيَّنة، تلك بلاغة القرآن الكريم في تصريف بيانه، وتفنّن أساليبه.

ثانياً: صفات المنافقين وما أعدَّه الله لهم من الجزاء:

ورد ذكر المنافقين في أكثر من ستٍّ وثلاثين آية، مبيّناً خداعهم وقبائح أعمالهم، وما أعدَّه الله لهم من الجزاء، منبِّهاً الرسول والمؤمنين إلى دسائسهم.

وقد صرَّف القول في بيان ذلك بطرائق شتّى وأساليب مختلفة، غاية في البيان مؤدِّية مقاصدها أبلغ أداء، وسنورد منها بعض الآيات على سبيل المثال لا الحصر.

1 - قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[2].

---

(1) البقرة 8 - 9.

(2) نفسها 204.

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(1).

4 ـ وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾(2).

5 ـ وقال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ إلى قوله تعالى. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾(3).

6 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾(4).

7 ـ وقال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(5).

8 ـ وقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾(6).

وقد بيّن القرآن الكريم شعورهم نحو المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾(7).

---

(1) آل عمران 176 ـ 177.

(2) النساء 60 ـ 63.

(3) نفسها 138 ـ 140.

(4) نفسها 145.

(5) الفتح 6.

(6) المنافقون 1 إلى آخر السورة.

(7) التوبة 50.

وينهى عن طاعتهم، إذ يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[2].

وبيّن أنهم مجموعون مع الكفار في جهنّم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[3].

وقد أمر بالإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[4].

ونهى عن اتّخاذ المؤمنين المنافقين أولياء فقال تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[5] تلك بلاغة القرآن في بيان جزاء المنافقين وصفاتهم.

ثالثاً: جزاء المعرضين:

بيّن جزاء المعرضين في آيات كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[6].

---

(1) الأحزاب 1.

(2) نفسها 48.

(3) النساء 140.

(4) نفسها 81.

(5) نفسها 88 ـ 89.

(6) البقرة 137.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[4].

تصرَّفت آيات هذا النوع في مجملها مبيِّنةً جزاء المعرضين عن الإيمان واتّباعِ الرسول ـ ﷺ ـ فيما جاء به من عند ربّه، فتنوع هذا التصريف تنوُّعاً عجيباً، مرغِّباً في الإيمان بالله واتّباع شريعة الإسلام، ومحذِّراً من الإعراض وعواقبه المؤدّية إلى عذاب الله وبئس المصير.

وقد انتظم هذا الأسلوب الذي يفيد الإعراض عن الإيمان وعن طاعة الله ورسوله، فعبّر عنه بإنْ الشرطيّة التي تفيد ـ في رأينا ـ طلب الإمتثال، والوعيد الشديد للمخالفين، بصورة مطّردة، وذلك لا يعني أنّ هذه الآيات مكرَّرة، لاختلاف سوابقها ولواحقها، وأسبابِ نزولها، فجاء ذلك مبيِّناً لوجوه من البيان تتعلّق بمقاصد الآيات، ووحدة الهدف في كلٍّ منها.

رابعاً: جزاء الكافرين:

ورد ذكر الكافرين وبيان جزائهم في القرآن الكريم كثيراً، ووصفهم بأوصاف كثيرة، منوِّعاً ذلك تنويعاً كبيراً، ويظهر الاستقراء لهذه الآيات أنَّ القرآن صرّف القول في بيان حقيقة الكفر، وبيان جزائه على وجوه وأساليب شتَّى، وذلك

---

(1) آل عمران 20.

(2) نفسها 32.

(3) نفسها 63.

(4) النساء 80.

للترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر وعواقبه، المؤدِّية إلى سخط الله وسوء المصير.

وقد اشتمل هذا التنويع على ذكر أوصاف الكافرين وبيان جزاء كلٍّ فئة منهم مقابلاً أحياناً بين الإيمان والكفر، وبين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين؛ لأن ذلك أدعى إلى اتّباع الإيمان، والعمل بشريعة الإسلام، التي أمر الله باتّباعها، والعمل بما فيها، وذلك ما سنراه في الدراسة الآتية:

وقد نوَّع القرآن جزاء الكافرين، في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى: يصعب استقصاؤها، ولذا نكتفي بذكر أمثلة منها:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[3].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾[4].

---

(1) البقرة 39.

(2) نفسها 217.

(3) نفسها 257.

(4) آل عمران 10.

5 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

6 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[2].

7 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[3].

8 ـ وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4].

تضمَّنت هذه الآيات بيان جزاء الكافرين، بأساليب متنوِّعة وطرائق شتَّى، وذلك راجع لأوجه من التصريف البياني لهذه الآيات، يتعلَّق بمقاصد الآيات وهدف كلٍّ منها.

فالآية الأولى انتظمت مع ما قبلها بواو العطف، مقدِّمة صفة الكفر معطوفاً عليها صفة أخرى، وهي التكذيب بآيات الله ـ تعالى ـ ثم انتظم معها بيان جزاء الكافرين بدون عطف، فارتبط مع ما قبله بالإشارة إلى الجزاء الدائم الملازم لهم.

قال أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: «وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكفر، والجمع بين الكفر والتكذيب للإيذان بتنوُّع الهدى إلى ما ذكر من النوعين، وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات إليها لإظهار كمال قبح التكذيب بها»[5].

---

(1) آل عمران 116.

(2) النساء 56.

(3) نفسها 150 ـ 151.

(4) نفسها 161.

(5) إرشاد العقل السليم 1/ 93.

نفهم من تفسيره هذا أنه لا تكرار بين الكفر والتكذيب بآيات الله، مع أن التكذيب بآيات الله كفر، وقد بيَّن سرَّ الجمع بينهما، والمراد به على ما ذكر التنويع.

وأما الآية الثانية فانتظمت مع ما قبلها بواو العطف، مقدِّمة الشرط الذي يفيد التحذير من الارتداد عن الدّين، ثم جاء جواب الشرط مبيِّناً أنَّ الارتداد عن الدّين كفر، ثم عطف بالفاء مشيراً إلى أن ذلك يحبط الأعمال الصالحة في الدنيا والآخرة، ثم انتظم بيان الجزاء بواو العطف بخلاف الآية الأولى التي جاء خالياً منها.

وأما الآية الثالثة: فانتظم أسلوبها على التقابل بين الإيمان والكفر، إذ تنوَّع التقابل في هذه الآيات بقصد تحقيق الإيمان وبيان جزاء أهله، ونفى ضدِّه وهو الكفر وبيان جزاء أهله.

ومن هنا فقد قابل بين ولاية الله للذين آمنوا وما أعظمها من ولاية ورتَّب عليها المقابلة الثانية وهي إخراجهم من الضلال إلى الهدى، والمراد الإيمان، وبين ولاية الطاغوت للذين كفروا وما أذلَّها من ولاية؛ لأنها تقود أهلها إلى النار، والتي قال عنها ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ ورتَّب عليها ما يقابل المقابلة الثانية وهي إخراجهم من الهدى إلى الضلال، والمراد الكفر ـ والعياذ بالله ـ.

وهكذا فإن السرَّ في إيراد التقابل وتصريفاته في هذه الآية هو تثبيت الإيمان في نفوس أصحابه وتحذيرهم من الكفر، وبيان عاقبته، تلك بلاغة القرآن في تصريف بيانه، وتحقيق مقاصده.

وأمّا الآية الرابعة والخامسة، فقد اتفقتا في أسلوبهما الذي انتظم مع ما قبله بالتأكيد الذي يفيد أنَّ الّذين كفروا لن تغني عنهم الأموال ولا الأولاد من عذاب الله، فهو متحقِّق وملازم لهم، وقد اختلفتا في الختام، فالأولى ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾.

قال أبو السعود: «فإيثار الجملة الإسمية للدلالة على تحققُّ الأمـر وتقـرُّره، وإلاّ فهو للإيذان بأنَّ حقيقة حالـهم ذلـك، وأنَّ أحوالـهم الظـاهرة بمنزلـة العـدم، فهم حال كونهم في الدنيا وقود النّار بأعيانهم، وفيه الدلالة على كمال ملابستهم بالنار ما لا يخفى»[1].

وأمَّا الآية الثانيـة فختمـت بقولـه تعـالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

وهكـذا فـإنَّ الاختـلاف فـي ختـام هـاتين الآيتـين دليـل علـى عـدم تكريرهمـا، ويعضده أيضاً اختلافهما في أسباب النزول، إذ الأولـى علـى مـا ذكـر ابـن عطيّـة، أنّ المقصود، بهم: الكفار الّذين لا يقرّون ببعث[2].

والثانية، على ما ذكر أبو السعود: عن ابن عبّاس ـ رضي اللـه عنـهما ـ هـم بنـو قريظة والنضير، فإن معاندتهم كانت لأجل المال، وقيل: هم مشركو قريش[3].

وأما الآية السادسة فانتظمت مع ما قبلها بأسلوب التأكيد، مبيّناً جزاء الكـافرين الّذين يكذّبون بآيات الله ـ تعالى ـ بالصيغة التي تفيـد التـهديد والوعيـد، معـددّة أنـواع الجزاء الذي أعدَّه الله لهؤلاء المكذِّبين، وختم ذلك بصفَتَيْ العزّة والحكمة.

وأما الآية السابعة فارتبطت بمـا قبلـها بالإشـارة إلـى أنَّ الّذيـن يفرِّقـون بـين اللـه ورسله، ويؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض هم الكافرون حقّـاً، فـأكّد بـالمصدر «حقّاً» وهذا التأكيد حكم من الله عليهم بهذه الصفات القبيحة، ثم عطف عليها بيان الجزاء، ذاكراً هذه الصفة مرَّة ثانية دلالة على قبحها وطلب الإقلاع عنها، لأنها تؤدّي إلى العذاب المهين، الذي بيَّنه في هذه الآية.

(1) إرشاد العقل السليم 2/ 10.
(2) المحرر الوجيز 1/ 405.
(3) إرشاد العقل السليم 2/ 75.

وأمّا الآية الثامنة فارتبطت بما قبلها بواو العطف، مبيِّنةً مجموعة من المحرَّمات، وهي الرِّبا وأكل أموال الناس بالباطل، ثم بيَّنت جزاء الكافرين، بعدما عدَّدت قبائح أعمالهم التي استحقُّوا عليها عذاب الله.

وقد اتّفقت هذه الآية والتي سبقتها في شيء من أسلوب ختامهما فالأولى ختمت بقوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ فاختلفت عنها بخلوِّها من لفظ «منهم» ووصف العذاب بالمهين؛ لأن الله قد حكم على هؤلاء المخاطبين جميعهم بالكفر، فلم يقل منهم، لأن هذا اللفظ يدل على التبعيض، كما هو في الآية الثانية؛ لأن المقصود بعضهم وليس جميعهم، واختلفت عن سابقتها بتمييز العذاب الأليم.

نخلص من ذلك إلى أن الاختلاف في نظم هذه المعاني وتنويعها هو تصريف للقول في القرآن الكريم الذي انفرد به عن غيره وهو ورود المعاني والأساليب على وجوه كثيرة وطرائق شتَّى؛ لتؤدّي مقاصدها أبلغ أداء.

خامساً: تصريف القول في صفات الكافرين وجزائهم:

يلاحظ أن القرآن الكريم كما صرَّف القول في تقرير جزاء الكافرين، صرَّف القول كذلك في بيان صفاتهم المشتقَّة من أعمالهم القبيحة، مبيِّناً جزاءهم، وهو ما سنراه في الدراسة اللاَّحقة.

وإن كان يشترك معهم في بعض هذه الصفات، وهذا الجزاء المؤمنون المخالفون لأصول الشريعة ومبادئها الخالدة، فقد ذكرتُ هذا النوع من الجزاء، تابعاً لجزاء الكافرين، لأنّها من الكافرين أكثر، وإنَّ القرآن لم يفصل بين المؤمنين والكافرين فيها، فيذكرها بالصفات لا بأهلها في الكثير الغالب.

فمنها ما يتصرّف مبيّناً جزاء المتكبّرين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1].

---

(1) النحل 29.

وقال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2].

هذه الآيات وإن تشابهت في بيانها فقد اختلفت في تصريف بعض مفرداتها وأساليبها.

فالآية الأولى سبقت بالفاء على حين أن الثانية سبقت باللفظ، قيل، والثالثة جاءت خالية من ذلك.

وهناك ملحظ آخر ذكره ابن الزبير الغرناطيّ، وهو زيادة اللام في آية النحل، وسقوطها من الآيتين الآخريْن، ووجه ذلك - والله أعلم - أن آية النحل تقدَّمها ثماني آيات أو نحوها في ذكر هؤلاء المقول لهم... وتلك إطالة في ذكرهم واستيفاء يناسبه التأكيد باللام المشيرة إلى معنى القسم، وأما الآيتان من سورة الزمر وسورة المؤمن، فإن المتقدِّم في الأولى منها قوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾[3] وذلك كلام قد جمع الوجازة أنه لم يذكر من كفرهم ما ذكر في المذكورين قبل آية النحل من ردّهم المنزل بقولهم: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4] وتلك مقالة شنعاء من كفرهم، فناسب إيجاز الواقع. قبل آية الزّمر مع ما أجْمِل فيها من كفرهم، سقوط اللام من قوله: ﴿ فَبِئْسَ ﴾ وأما آية سورة المؤمن، فلم يقع أيضاً قبلها من استيفاء التعريف ما وقع في سورة النحل، ولا نصٌّ من شنيع مرتكبهم على غير هذا التكذيب، فناسب ذلك سقوط اللام، كما في الزُّمر، وورد كلٌّ على ما يجب ويناسب[5].

---

(1) الزمر 72.

(2) غافر 76.

(3) الزمر 71.

(4) النحل 24.

(5) ملاك التأويل 2/ 600 - 601.

ومنها ما يتصرَّف مبيِّناً جزاء الغافلين، على نحو بليغ، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[3].

وقد بينت جزاء الفاسقين، بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[6].

وقد بين جزاء الملحدين في ثلاث آيات، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[7].

---

(1) الأعراف 179.

(2) يونس 7 ـ 8.

(3) نفسها 92.

(4) البقرة 26 ـ 27.

(5) نفسها 99.

(6) آل عمران 82.

(7) الأعراف 180.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2].

وقد بين جزاء الجاحدين وسببه في عشر آيات، نورد منها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5].

وقد بيَّن جزاء المعتدين في آيات كثيرة منها:

1 ـ قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[6].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[7].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[8].

---

(1) الحج 25.
(2) فصلت 40.
(3) الأعراف 51.
(4) هود 59.
(5) العنكبوت 49.
(6) البقرة 178.
(7) المائدة 94.
(8) البقرة 65.

4 ـ وقال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[1].

5 ـ وقال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[2].

اتَّفقت الآيتان الأولى والثانية فيما ختمتا به من الدلالة والأسلوب وكذلك اتّفقَتْ الآيتان الرابعة والخامسة في دلالاتهما وأسلوبهما، مع تقديم وتأخير في كلٍّ منهما، وذلك لا يعني أنَّ في هذه الآيات تكريراً، بقدر ما يعني أنَّه التصريف العجيب، والتنويع البديع، والدّليل على ذلك ما سبق هذه الآيات من دلالات وأساليب تختلف فيها هذه الآيات.

فالآية الأولى جاءت خاتمة لبيان جملة من الأحكام الشرعيَّة المتعلِّقة بالقصاص، وأمَّا الآية الثانية فجاءت خاتمة لبيان بعض أحكام الصيد للمحرم، وأما الآية الثالثة فجاءت خاتمة لبيان جملة من العقوبات التي جعلها الله عقاباً لبني إسرائيل، بسبب عصيانهم.

وأمَّا الآية الرابعة والخامسة فجاءتا خاتمة لبيان بعض العقوبات التي أعدَّها الله لبني إسرائيل، بيد أنّ هناك فرقاً في الآيتين من حيث بناء الآيات وانتظام الأسلوب، فأحياناً بالتقديم في هذه والتأخير في تلك، وأحياناً بالتعريف في هذه والتنكير في الأخرى، كلُّ ذلك راجع إلى مقاصد الآيات، وقد علَّل السبب في ذلك ابن جماعة إذ قال: «إن آية البقرة، نزلت في قدماء اليهود بدليل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

(1) البقرة 61.

(2) آل عمران 112.

كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ والمراد بـ «غير الحقّ» الموجب للقتل عندهم، بل قتلوهم ظلماً وعدواناً، وآيات آل عمران[1] في الموجودين زمن النّبيّ ـ ﷺ ـ»[2]، ذلكم القصد الموجب لتصريف هذه الآيات.

وقد بيّن جزاء المسرفين، في ست عشرة آية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾[8].

وقد صرّف القول في بيان جزاء الظالمين، إذ ورد على وجوه وطرائق شتّى يصعب استقصاؤها، نكتفي بإيراد ما تصرّف منها في سورة البقرة، فهو كاف لبيان حقيقة الظلم، وجزاء الظالمين، ومن ثمّ الإقلاع عنه لمن أراد أن يمتثل أمر ربّه في ذلك.

---

(1) ويعني بذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (الآية 21) والآية التي هي موضوع الدراسة، التي سبق ذكرها.

(2) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص 99.

(3) الأنعام 141.

(4) الأعراف 31.

(5) يونس 12.

(6) طه 127.

(7) الأنبياء 9.

(8) غافر 43.

ويلاحظ أن هذه الصفة جاءت في سياق الآيات التي تبيّن دلائل القدرة الإلهيَّة، وكثيراً من الأحكام الشرعية، وختم بها هذه الآيات بصورة مطَّردة، وفيها من الوعيد والتهديد ما لا يخفى على المتأمِّل البصير ليمتثل الأوامر ويجتنب النواهي، وإلاّ فسيكون من الظالمين لأنفسهم المستحقِّين لعذاب ربّهم، فقال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[9].

---

(1) البقرة 59.

(2) آية 114.

(3) آية 140.

(4) آية 115.

(5) آية 193.

(6) آية 227.

(7) آية 254.

(8) آية 258.

(9) آية 270.

وقد بيّن جزاء المجرمين في آيات كثيرة، نورد منها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

وقد بيّن جزاء الضالّين في آيات كثيرة، نورد منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[8].

---

(1) الأنعام 123.
(2) نفسها 124.
(3) نفسها 147.
(4) الأعراف 40 ـ 41.
(5) آل عمران 90.
(6) النساء 136.
(7) الأنعام 140.
(8) الحجر 56.

وقد بين جزاء المضلّين في آيات كثيرة نورد منها قوله تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

وقد وصفهم بالمُضلّين في آيات كثيرة نورد منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[7].

نخلص من العرض السابق إلى أنَّ القرآن الكريم صرّف القول في بيان جزاء الكافرين، واصفاً إيّاهم بأوصاف كثيرة، وذلك على وجوه وأساليبَ شتَّى، غاية في

---

(1) النساء 88.

(2) نفسها 143.

(3) الأنعام 125.

(4) نفسها 119.

(5) نفسها 144.

(6) الكهف 51.

(7) الحج 8 ـ 9.

البيان، موازناً بينها وبين صفات المؤمنين وجزائهم في كثير من الأحيان، وذلك لتحقيق الإيمان، والعمل بشريعة الإسلام.

وأن هذه الآيات لا تكرير فيها ولا بينها، وإنما هو التصريف العجيب والتنويع البديع، الراجع إلى مقاصد الآيات والسور، ووحدة الهدف في كلٍّ منها، وهو راجع أيضاً إلى اختلاف انتظام الأساليب في الآيات، وانتظام المعاني فيها، وبذلك أدّت كلُّ آية دلالاتها في سياقها بدقَّة وإحكام، تتحكَّم فيه أسباب النزول، واختلاف سوابق الآيات وخواتيمها، فكثيراً ما تتشابه الآيات في بعض المعاني والأساليب، وتختلف في بعضها الآخر، وذلك مما يجعل معاني هذه الآية غير معاني تلك.

تلك بلاغة القرآن في تصريف بيانه، وتفنُّن أساليبه.

المبحث السادس
تصريف القول في مشاهد النعيم والعذاب

اقتضت حكمة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ وعدالته، أن يكون هناك بعث وجزاء، نعيم وعذاب، فللمؤمنين النعيم المقيم، وللكافرين العذاب الأليم، وقد رأينا ذلك بشيء من التفصيل في المباحث السابقة، وفي هذا المبحث سنتكلَّم عن تصريف القرآن الكريم لمشاهد النعيم والعذاب، والتي تعتبر من أبرز الموضوعات التي صرّف القرآن الكريم بيانها على وجوه كثيرة، وطرائق شتَّى، مصوِّراً ذلك أبلغ تصوير على سبيل التقابل بين النعيم والعذاب، أي بيْنَ جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، ترغيباً في الإيمان وامتثال أوامر الشريعة الإسلامية، وتحذيراً عن الكفر وعواقبه.

وقبل أن ندخل في هذه الدراسة، يجدر بنا أن نبيِّن أن سيد قطب، قد تنبَّه لموضوع التصوير في القرآن الكريم وبيَّن بعض الخصائص الأسلوبيَّة التي تختصُّ بها مشاهد القيامة في القرآن الكريم، نلخّصها من كتابه «مشاهد القيامة».

إنَّ هناك سمة واحدة شاملة: إنَّها مشاهد حيَّة، منتزَعة من عالم الأحياء، لا ألوان مجرَّدة، ولا خطوط جامدة، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدميَّة حيَّة، أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة، ثم تفترق السمات بعد ذلك في شتَّى المشاهد، فلا تخلُّ بهذه السمة الأصليَّة الشاملة لجميع المشاهد.

وسمة أخرى كذلك أصليّة في هذه المشاهد جميعاً، إنها حاضرة اليوم تراها العين، وتحسُّها النفس.

تلك سمة تحيي هذه المشاهد في النفس، وتقوّي أثرها في الحسّ، وتتحقّق بوسائل شتَّى.

مرّة يبدو أوّل المشهد في الحياة الدنيا، ونهايته في الحياة الأخرى، دون توقُّف وبلا فواصل، فيخيَّل إليك أنها قريب من قريب، وأن الإنسانية تقطع الرحلة على مشهد منك في استطراد عجيب[1].

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2].

ويستمر السياق إلى صور من النعيم والعذاب، فتحسُّ أنَّك قطعت الرحلة الطويلة، وهي رحلة تبدأ قبل خلق الإنسان يوم أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وتنتهي في الجنة أو في النار.

ومرة يريك الدنيا والأخرى حاضرتين معاً، فهؤلاء جماعة يستعجلون النبي - ﷺ - بالعذاب بينما هم في حوزة جهنّم: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

ومرَّةً يبدأ في قصَّة تقع في الدنيا، ثم يتابع بقيتها فإذا نحن في الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[4].

ومرَّةً يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، ويسوقهما مساقاً واحداً كأنَّما هما حاضران في الزمان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[5].

---

(1) مشاهد القيامة في القرآن ص 43 ـ 44.

(2) الإنسان 1 ـ 22.

(3) العنكبوت 54.

(4) هود 96 ـ 98.

(5) المرسلات 8 ـ 47.

ومرَّة ينتقل من الخبر إلى الإنشاء، أو من الوصف إلى الحوار، فيخيِّل إليك أنَّ المشهد حاضر يوجَّه فيه الخطاب، أو يدور فيه الحوار، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾[1].

ومرَّةً يتحدَّث عن الدنيا كأنَّها ماض كان، والأخرى كأنها الحاضر الآن[2]، قالَ تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[3].

وهكذا تلتقي هذه الألوان من التعبير عند سمة هي استحضار المشهد وإحياؤه، كأنما هو مشهود محسوس، وذلك بلا ريب أعظم تأثيراً في النفوس.

وسمة ثالثة في هذه المشاهد، وفي صور القرآن جميعاً، تلك هي سمة التناسق وهو تناسق يتجلَّى أوَّلاً في جزئيَّات المشهد، فتبدو هذه الجزئيَّات منسَّقةً، بينَها لون من التماثل أو التشابه أو التداعي أو التقابل، ولكنّها من جوّ واحد لا نشوز فيه ولا مفارقات.

ويتجلَّى ثانية في جرس الألفاظ ليدلَّ هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان، وليؤلِّف مع بقيَّة الألفاظ إيقاعاً يناسب جوّ المشهد في جميع الأحيان، فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوّه، وتناسب أحاسيسه، وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام، ويتجلَّى ثالثاً في اتساق المشهد كلِّه بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه، مع السياق الذي يعرض فيه، سواء جاء تعقيباً أو مقدِّمة لبرهان، أو تأكيداً لقضيَّة أو تثبيتاً للإيمان. . .

---

(1) سورة ق 19 ـ 26.

(2) مشاهد القيامة ص 44 ـ 46.

(3) الزمر 71.

ومشاهد القيامة في القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الديني، ذلك الغرض الأول للقرآن، ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني»[1].

ذلكَ ملخص لبعض الخصائص الأسلوبيَّة التي ذكرها سيِّد قطب، وكانت عنايته متجهةً لدراسة ما في تلك المشاهد من ألوان التصوير والتشخيص، أما التصريف البيانيُّ لهذه الآيات فلم يعتن به، إلاّ ما أشار إليه بقوله: «ولكنَّ هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرَضُ في صور شتَّى»[2].

وقد اعتنى الأستاذ أبو زيد ببيان فنّ التقابل والتناسب بين هذه المشاهد، مقرِّراً، أن الغالب في البيان القرآني أنْ ترد آيات الرحمة بإزاء آيات العذاب، ومشاهد النعيم في مقابل مشاهد العذاب، وخطاب الوعيد والترهيب بإزاء خطاب الوعد والترغيب، وذلك للتخويف والتبشير، والتذكير والتحذير، وقلّ في القرآن أن يرد أحد هذين المعنيين منفرداً[3].

والذي يهمّنا في هذه الدراسة أن نبيّن طرائق القرآن في عرض مشاهد النعيم والعذاب، وتنوُّعها.

إذ صرّفها ـ كما قلنا ـ بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة غاية في البيان، قاصداً من ذلك تحقيق الإيمان والعمل الصالح المؤدِّي إلى النعيم، والتحذير من الكفر وعواقبه، المؤدِّي إلى الجحيم ـ أعاذنا الله منه ـ.

وقد عرضها بصور مختلفة، فتارة يطول مشهد النعيم، وتارة أخرى يطول مشهد العذاب، وأحياناً يتعادل المشهدان، وأحياناً أخرى يعرضها بطريق الحوار والتخاصم إلى غير ذلك مما صرّف القرآن بيانه في عرض هذه المشاهد.

---

(1) مشاهد القيامة ص 46 ـ 47.

(2) نفسه ص 43.

(3) التناسب البياني في القرآن ص 155.

أولاً: مشاهد طال فيها عرض صور النعيم:

صرّف القرآن الكريم القول في عرض صور النعيم، مقابلاً إيّاها بصور العذاب، وله في ذلك ـ كما قلنا ـ طرائق مختلفة في عرضها، ولذلك ستكون هذه الأمثلة متعلقة بالمشاهد التي طال فيها عرض صور النعيم، وهو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1]. ففي هذا المشهد صرف بيان الجزاء، الذي طال فيه عرض صور النعيم، مقابلاً بينه وبين العذاب.

إذ قابل في هذا التصريف بين المستجيبين لربّهم وبيّن جزاءهم، وهو الحسنى، والّذين لم يستجيبوا له، وبيّن جزاءهم وهو سوء الحساب، يصلَوْنَ جهنم وبئْسَ الجزاء ثم قابل بين الذي يعلم ما أنزل على الرسول ـ ﷺ ـ من ربّه، الذي هو الحقّ، وبين الأعمى الجاهل بهذا العلم، والمقصود ـ والله أعلم ـ التقابل بين الكافر والمؤمن.

ثم قابل بين الّذين يوفون بعهد الله، وبين الناقضين لعهده، وبين الّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وبين القاطعين لذلك، ثم عدّد صفات الموفين بالعهد، التي نالوا بها حسن الجزاء، ترغيباً فيها، ثم قابلها بصفة واحدة للناقضين للعهد، وبيَّن جزاءهم، تحذيراً منها.

وفي رأينا أنه قد طال مشهد النعيم، لكثرة تعداد الصفات الجليلة التي اتَّصف بها هؤلاء، تنويعاً لبيان الجزاء الحسن وأسبابه، ومع ذلك فالواحدة من هذه الصفات كافية لإدخال صاحبها الجنة، بفضل الله وواسع رحمته.

---

(1) الرعد 18 ـ 25.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[1].

ففي هذا المشهد أيضاً صرّف بيان الجزاء الذي طال فيه عرض صور النعيم، مقابلاً بينه وبين صور العذاب، وهو في ذلك لم يلتزم طريقة العرض السابقة التي قدّم فيها صور النعيم، إذ إنَّ في المثال الأول إخباراً بعقد مقارنة بين المستجيبين له، وبين الّذين لم يستجيبوا له، معدّداً صفاتهم ومبيّناً جزاءهم.

وفي هذا المثال قدّم صور العذاب؛ لأن الأمر متعلّق بعبادة الله، لذلك اقتضى الأمر أن يقابل بين الّذين يعبدون غير الله مبيّناً جزاءهم، آمراً بتقواه، وبين الّذين اجتنبوا ذلك ورجعوا إلى ربّهم، مبيّناً جزاءهم أيضاً.

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(1) الزمر 14 ـ 20.

وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (1).

وأمَّا تقديم صور العذاب في هذا المثال فراجع في رأينا ـ والله أعلم ـ إلى ما تقدَّمه من قسم على تحقق البعث والجزاء، والتأكيد على وقوع العذاب، فلذلك اقتضى التصريف القرآني أن يقدِّم صور العذاب، ويقابلها بصور النعيم.

ومن المشاهد التي طال فيها عرض صور النعيم، بطريق مخالف لطرائق العرض السابقة ما جاء في سورة الواقعة، من إثبات البعث والجزاء، وما يسبق هذا اليوم من أحداث ومقدَّمات فقال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ (2).

ثم قسّم المولى ـ سبحانه وتعالى ـ الناس في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (3).

ثم بيَّن جزاء كلِّ فريق في تصريف بيانيٍّ بديع، وحكمة إلهيَّة بالغة، مقابلاً بين صور النعيم وصور العذاب فقال ـ تعالى ـ مبيِّناً جزاء المقرَّبين: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ

(1) الطور 11 ـ 28.

(2) الواقعة 1 ـ 6.

(3) نفسها 7 ـ 11.

ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[1].

ثم بيّن جزاء أصحاب اليمين فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[2].

ثم بيّن جزاء أصحاب الشمال فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾[3].

وهكذا اقتضت عدالة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ وروعة البيان القرآني، أن قسم مشهد النعيم إلى قسمين، فالأول منه للمقرّبين، وهو مختلف عن الثاني وذلك لعلوّ درجة أصحابه، وهذا من العدل الإلهيّ، إذ قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

وأمّا الجزء الثاني من مشهد النعيم، فهو جزاء أصحاب اليمين وهؤلاء درجتهم تلي درجة المقرّبين فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾.

وأما المشهد الثاني فهو جزاء أصحاب الشمال فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾.

ثم تصرّف البيان القرآني مقسماً الناس اتجاه الإيمان بالبعث والجزاء إلى ثلاثة أقسام، مرتّباً الفريق الأوّل والثاني على النسق الأوّل في بداية السورة إذ بيّن

(1) الواقعة 11 ـ 26.
(2) نفسها 27 ـ 40.
(3) نفسها 41 ـ 57.

جزاء المقرّبين، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[1].

ثم جزاء أصحاب اليمين فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾[2].

ثم جزاء الفريق الثالث، وهم المكذّبون الضالّون فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾[3].

وهكذا فإنَّ هذا المشهد وإن طالت فيه صور النعيم، فهو مختلف عن المشاهد السابقة في نظم هذه المعاني، إذ إنَّ المشاهد السابقة، قابلت في تصريف بيانها بين فريقين، أهل الإيمان والعمل الصالح، وأهل الكفر، وهذه قابلت ـ كما رأينا ـ بين ثلاثة، اثنين معاً في النعيم، والثالث في الجحيم.

ثانياً: مشاهد طال فيها عرض صور العذاب:

وكما رأينا في الدراسة السابقة أنَّ هناك مشاهد طال فيها عرض صور النعيم، فكذلك صرّف القرآن عرض كثير من المشاهد التي طال فيها عرض صور العذاب، نكتفي بذكر أمثلة منها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ

---

(1) الواقعة 88 ـ 89.

(2) نفسها 90 ـ 91

(3) نفسها 92 ـ 95.

وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

ففي هذا المشهد صورتان متقابلتان، الأولى صورة الّذين افتروا على الله كذباً، معدِّداً صفاتهم الذميمة، مبيِّناً جزاءهم وأسبابه، وفي الصورة الثانية الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، مبيِّناً جزاءهم، ومع ذلك لم يكتف بإظهار ما في هاتين الصورتين من بيان عجيب، بل زاد ذلك بياناً رائعاً، عندما ضرب لذلك مثلاً، مقابلاً فيه الأعمى بالبصير، والأصم بالسميع فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وقدَّم صور العذاب؛ لأنَّ ذلك متعلِّق بالافتراء على كتاب الله، لذلك ناسب بيان جزائهم مقابلاً بجزاء المصدِّقين.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

اختلف أسلوب نظم هذه الآيات عمَّا سبقها، فبدأ في كلا الطرفين بالمقابلات، مقابلاً في هذا التصريف بين الصور الكلِّية، وبعض الصور الجزئيّة ففي الصور الكليّة قابل بين جزاء أهل الكفر وجزاء أهل الإيمان، وفي الصور الجزئيّة قابل بين الطعن في القرآن والتصديق به، وبين حمل الأوزار كاملة وزيادة، وبين الحسنات، وذم المصير،

---

(1) هود 18 ـ 23.

(2) هود 24.

(3) النحل 24 ـ 32.

مذكِّراً بجزاء من قبلهم، وبيَّن مدح الجزاء وبيان نوعه، وبين الّذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، وبين الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين، يقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة، جزاء عملكم.

ومن المشاهد التي طال فيها عرض صور العذاب، وقصر فيها عرض صور النعيم قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[1].

تضمَّنت هذه الآيات في تصريف بيانها مشهدين من مشاهد القيامة، الأوَّل مشهد العذاب الذي طال عرضه، والثاني مشهد النعيم الذي قصر عنه، وقد اتفقا في عرض بعض المشاهد الكلِّية، المتمثِّلة في بيان جزاء الفريقين، فالظالمون في الجحيم، والمخلصون في جنَّات النعيم، واختلفت في عرض المشاهد الجزئيَّة.

وهو كما قال سيّد قطب: «نحن أمام المشاهد المطوَّلة، المتعدّدة الجوانب، المتنوِّعة الأساليب، المزدحمة بالمناظر الحيَّة، والحركات المتتابعة، يلتقي فيها الوصف بالحوار، فتسير على نسق الحكاية فترة، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى، ويتخلَّل سير الحوادث والمناظر تعليقات على كلٍّ منها»[2].

ولنبيِّنْ المشاهد الجزئيَّة إجمالاً لا تفصيلاً، بدءاً بمشاهد العذاب التي فيها الشدَّةُ والعنف، واللوم والتوبيخ، والتحسُّر والندم، والتقريع في صور الاستفهام والسخرية، ثم صورت تخاصم الأتباع مع أتباعهم، ثم عددت الآيات أعمالهم وأوصافهم الخبيثة، مقرونة ببيان الجزاء.

وفي مشهد النعيم، بيّن جزاء عباد الله المخلصين، وهي جنات النعيم، تكريماً لهم، منوعاً متاعهم المادي والمعنوي، التي تستمتع به النفس الخيِّرة، التي امتثلت أمر ربّها.

---

(1) الصافات 22 ـ 49.

(2) مشاهد القيامة ص 155.

ومنه قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾[1].

تضمَّنت هذه الآيات الكريمة في تصريف بيانها تقابلاً بين النعيم والعذاب في المعاني الكلِّيَّة، وبعض المعاني الجزئيَّة، ففي المعاني الكلِّية قابل بين أهل النعيم وجزائهم، وبين أهل العذاب وجزائهم.

وفي المعاني الجزئية قابل بين المتّقين وبين الطّاغين، موازناً بينهم وبين الجزاء المعدّ لكلٍّ من الفريقين، إذ الأوّل حسن مئاب، والثاني: شرّ مئاب، ثم قابل بين مقرّ الفريقين، فالفريق الأول في: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[2]. وجزاء الفريق الثاني: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[3]، متبوعاً ذلك بتنويع النعيم والعذاب لكلا الفريقين، وذلك من بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

ومن هذه المشاهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[4].

قابل في هذه الآيات بين جزاء المؤمنين، بإيجاز بلاغيٍّ رائع، مؤدِّياً مقاصده، وبين جزاء الكافرين الذي طال عرضه، مبيِّناً أعمالهم ومعدِّداً صفاتهم.

ومما تصرَّف على هذا النمط، مشهد العذاب للمكذِّبين بيوم البعث، مقابلاً له بمشهد المتَّقين، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

---

(1) سورة ص 49 ـ 64.

(2) نفسها 50.

(3) نفسها 56.

(4) الجاثية 30 ـ 35.

(5) المرسلات 15 ـ 44.

نخلص من العرض السابق إلى أنَّ القرآن الكريم يصرِّف مشاهد العذاب التي طال عرضها مقابلاً إياها بمشاهد النعيم، على أوجه مختلفة وطرائق شتَّى، موازناً بين أعمال أهل النعيم، وأهل العذاب، مكثراً من أوصافهم، ترغيباً في الإيمان والعمل الصالح، وامتثال أوامر الشريعة الإسلامية، المؤدّية إلى حسن الجزاء، وتحذيراً من الكفر وعواقبه، المؤدّي إلى سوء المصير.

وقد ينوِّع تصريفها تنويعاً عجيباً، فمرَّةً تتقدَّم صور النعيم على صور العذاب، ومرة تتأخَّر عنه، ومرَّةً تقترب منها في العرض، ومرَّة ثالثة تقصر عنها كثيراً، وذلك راجع إلى مقصود السورة والقضايا التي تعالجها.

ثالثاً: المشاهد التي تعادل فيها عرض الصورتين:

رأينا ـ فيما سبق ـ كيف تنوَّع عرض صور النعيم والعذاب، فمرَّةً تكون صور النعيم أطول، ومرّة تكون صور العذاب أطول، ومن ثمَّ سنعرض لمشاهد تعادل فيها عرض الصورتين، نكتفي بذكر أمثلة منها، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

ففي هذا التصريف البياني، بيَّن أنَّ الناس قسمان، شقيّ وسعيد، ثم قابل بينهما في الجزاء، إذ الشقيّ في النار، له فيها زفير وشهيق خالداً فيها، والسعيد في الجنة خالداً فيها.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].

---

(1) هود 105 ـ 108.

(2) الحج 50 ـ 51.

إذ قابل بين الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، مبيِّناً جزاءهم، وبين الّذين سعوا في آيات الله معاجزين، مبيِّناً جزاءهم، وقد تعادل المشهدان في عرضهما.

ونجده يقابل أحياناً بين الّذين آمنوا، وبين المجرمين، منوِّعاً جزاء الفريقين كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[1].

وفي مشهد آخر يقابل بين المكذِّبين بيوم البعث، وبين المتّقين، فيقول تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[2].

ويقابل بين جزاء المجرمين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾[3].

(1) الزخرف 68 ـ 80.

(2) الذاريات 10 ـ 19.

(3) القمر 47 ـ 48.

وبين المتّقين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[1].

وقابل بين من طغى في قوله: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[2].

وبين من خاف مقام ربّه فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[3].

وتعادل المشهدان، مقابلاً بين الفجار وجزائهم في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[4].

وبين الأبرار وجزائهم فقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[5].

نخلص من هذا العرض إلى أنّ صور النعيم والعذاب التي تعادلت، لم تكن على نسق واحد، وإنما تنوّعت في بيانها، من القصر إلى الطول، وذلك راجع إلى مقاصد السور.

وقد تصرّفت هذه المقابلات مبيّنة صفات المؤمنين، وما أعدّه الله لهم من الجزاء، مقابلاً ذلك بالكافرين وأوصافهم، وما أعدّه الله لهم من الجزاء السيّء، للترغيب في النعيم والتحذير من العذاب.

---

(1) القمر 54 ـ 55.

(2) النازعات 37 ـ 39.

(3) نفسها 40 ـ 41.

(4) المطففين 7 ـ 17.

(5) نفسها 18 ـ 28.

رابعاً: صور النعيم والعذاب وما يحصل فيها من حوار بين أهل النعيم وأهل العذاب:

إنَّ مما صرَّف القرآن بيانه، صور النعيم والعذاب، وما يحصل فيها من حوار بين أهل النعيم وأهل العذاب، في يوم البعث والجزاء، كما نجد ذلك في المناظرة المتنوَّعة، المتقابلة بين أهل النعيم، وأهل العذاب، في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾[1].

ومن صور الحوار ما وقع بين أهل النعيم وخزنة الجنَّة، وبين أهل النار وخزنتها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾[2].

ومن صور الحوار التي صرَّف القرآن بيانها، ذلك الجدل العنيف، الذي يقوم بين المشركين وآلهتهم، أو بين المتبوعين وأتباعهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ

(1) الأعراف 44 ـ 51.

(2) الزمر 71 ـ 74.

تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[3].

ومما تصرَّف من صور الحوار، ذلك السمر اللطيف بين أهل الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4].

---

(1) البقرة 165 ـ 167.
(2) سبأ 31 ـ 33.
(3) سورة ق 27 ـ 30.
(4) الصافات 50 ـ 60.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة التي تبيِّنُ تصريفَ القول في مشاهد النعيم والعذاب، التي نوَّع القرآن بيانها بطرائق شتَّى، وأساليب مختلفة، غاية في الروعة والبيان، والتي تكشف عن إعجاز القرآن الكريم، وسرِّه البيانيِّ الرفيع، وتنفي صفة التكرار عنه.

(1) الطور 25 ـ 28.

الفصل الثالث
تصريف القول في إثبات النبوَّة والرسالة

تحدّث القرآن الكريم عن النبوَّة والرسالة في مواضع متعدّدة حديثاً مستفيضاً ـ وبخاصَّة في السور المكِّيَّة منه ـ لمواجهة المكذّبين بالنبوَّة والرسالة، من العربّ وغيرهم.

إن الذي جعلنا نفرد فصلاً خاصاً بالنبوة والرسالة هو ما لاحظناه على بعض المهتمِّين بعلوم القرآن الكريم وإعجازه من وصف بعض آيات كتاب الله العزيز بالتكرار؛ لأن هذه الآيات تتنوَّع كثيراً في القرآن الكريم، بقصد عرض دلائل إثبات النبوَّة والرسالة، كلّما اقتضى الأمر عرضها والحديث عنها، ذلك أنَّ هذه الآيات على كثرة تنوُّعها لا تكرار فيها، بل هو تصريف للبيان القرآني، بطرائق مختلفة وأساليب شتَّى، وهو ما ستجلِّيه دراستنا لهذا الفصل، والذي سنتحدَّث فيه عن:

1 ـ مكانة النبوّة والرسالة في القرآن الكريم.

2 ـ تنوّع أدلَّة إثبات النبوّة والرسالة في القرآن الكريم.

3 ـ تصريف القول في آيات الوحي.

المبحث الأول
مكانة النبوَّة والرسالة في القرآن الكريم

إنَّ للنبوَّة والرسالة مكانةً عظيمة في القرآن الكريم، فهي أحد الأركان الأساسيَّة للدين الإسلاميّ الحنيف، والتي لا يصحُّ الإيمان إلاّ بها، والقرآن الكريم حين يكثر من تصريف هذه الآيات يرمي إلى إقناع المشركين ومجادلتهم بالحجة والبرهان القاطع على صحَّة هذا الأصل من أصول العقيدة الإسلاميَّة الذي لا ينكره إلاّ جاحد أو معاند.

ولمكانة هذا الأصل فكثيراً ما يقرنه بالتوحيد الذي هو الركن الأول للدّين الإسلاميّ، وأحياناً أخرى يقرنه بالبعث والجزاء، ذلك أنّ النبوّة والرسالة من مهامِّها التعريف بالله ـ سبحانه ـ وتعالى والأمر بتوحيده توحيداً خالصاً خالياً من الشرك والوثنيّة، وكذلك التعريف بيوم البعث والجزاء، والإيمان به إلى غير ذلك من مهامّ النبوَّة والرسالة التي بيَّنها القرآن الكريم أفضل بيان، ولسموِّ هذه المكانة في القرآن الكريم، فإنَّه نوَّع الحديث عنها في أمور أهمُّها:

أوّلاً: إرسال الرسل سنَّةٌ من سنن الله في خلقه:

بيّن القرآن الكريم أنّ إرسال الرسل سنّة من سنن الله في خلقه، وقد أوجب الإيمان بهم جميعاً دون تفريق بينهم، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].

(1) البقرة 177.

وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[1]. إذ هم الواسطة بين الله وخلقه، لتبليغ أوامره، ولذلكَ فإرسال الأنبياء والرسل سنَّة من سنن الله في خلقه، لتبليغ شرائعه إلى الناس.

ومن هنا فإنَّ محمَّداً - ﷺ - لم يكن بدعاً من الرسل، فهو رسول الله إلى الناس أجمعين، وهو لم يكن أوَّل رسول حتى يُتعجَّبَ من إرساله، فقد أرسل الله - عز وجل - قبله رسلاً كثيرين منهم من ذكره الله - تعالى - في كتابه، ومنهم من لم يذكره، مصداقُ ذلك قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[4].

وقد صرَّف الله الآيات، مبيّناً سنّة الله في إرسال الرسل منّوعاً بيانها حسب مواقعها وأسبابها، وهي كثيرة نكتفي بإيراد بعضها، لنتبين منها أن إرسال الرسل سنّة من سنن الله في خلقه، وأن محمداً - ﷺ - خاتم الأنبياء والمرسلين ورسالته آخر الرسالات.

فالله - سبحانه وتعالى - لم يهمل أمّة إلاّ وقد أرسل إليها رسولاً، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[5].

(1) البقرة 285.
(2) النساء 164.
(3) غافر 78.
(4) الإسراء 15.
(5) يونس 47.

وذلك ما أشار إليه أبو حيّان إذ قال: «لما بيّن حال الرسول - ﷺ - في قومه بيّن حال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم تسلية له، وطمأنةً لقلبه، ودلت الآية على أنَّه تعالى - ما أهمل أمّةً، بل بعث إليها رسولاً»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى - مهمَّةَ هؤلاء الرسل، فقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[3]. فالآية في تصريف بيانها تقرِّر أنَّ إرسال الرسل سنّة من سنن الله في خلقه، وأنّ لهؤلاء الرسل مهامَّ يكلَّفون بها من مولاهم، وهو تبليغ شرع الله إلى أقوامهم على أكمل وجه.

وقال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[5].

قال أبو السعود: «كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق، وتحقيق ما في عهدة الرسل - عليهم السلام - وإظهار أنَّ ما يقترحه عليه الكفرة - عليه السلام - ليس مما يتعلق بالرسالة أصلاً، وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمرٌّ جرت عليه العادة الإلهيَّة»[6].

---

(1) البحر المحيط 5/ 164.

(2) النحل 36.

(3) البقرة 213.

(4) النساء 165.

(5) الأنعام 48.

(6) إرشاد العقل السليم 3/ 135.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1].

إنّ هذه الآيات قد بيَّنت مهمة الرسل، المتمثِّلة في التبشير بكل ما فيه خير وصلاح في الدنيا والآخرة، والإنذار من مخالفة شرع الله ليسعدوا في الدنيا والآخرة.

وقد بيّنتْ كذلك مهمَّة الرسل المتمثّلة في الدعوة إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، والأمر بعبادته ـ سبحانه وتعالى ـ وقد اتَّفقت دعوتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[7].

---

(1) الكهف 56.
(2) الأعراف 59.
(3) نفسها 65.
(4) نفسها 73.
(5) نفسها 85.
(6) هود 25 ـ 26.
(7) الأنبياء 25.

وقد بيَّن المولى - سبحانه وتعالى - أنّ هؤلاء الرسل بشر، أرسلهم الله بلسان قومهم فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2].

وقد بيَّن الجاحظ علّة إرسال الرسل بلسان قومهم في هذه الآية الكريمة فقال: «لأن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهُّم وكلّما كان اللسان أبْيَنَ كان أحمد كما أنَّه كلّما كان القلبُ أشدّ استبانةً كان أحمد»[3].

وقد بيَّن أنّ استهزاء الناس بالرسل هي سيرة الناس مع كلِّ نبيٍّ أو رسول، تسلية لنبيِّه محمد - ﷺ - فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[5].

وقد أيَّدهم - سبحانه وتعالى - بالمعجزات الدالة على نبوَّتهم، وصدق رسالتهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[6].

---

(1) الرعد 38.

(2) إبراهيم 4.

(3) البيان والتبيين 1/ 11.

(4) الحجر 10 - 11.

(5) الزخرف 7.

(6) الروم 47.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

قال أبو السعود: «هو المعجزة الباهرة منها أو هو العصا، والإفراد بالذكر لإظهار شرفها لكونها أبهرها، أو المراد بالآيات ما عداها، أو هما عبارتان عن شيء واحد، أي أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطاناً له على نبوّته واضحاً في نفسه»[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3].

---

(1) هود 96 وهي تسع آيات كما صرّف القرآن الكريم ذكرها فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ الإسراء 101، أولها: العصا التي قال الله تعالى فيها: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الشعراء 45) وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الأعراف 117).

والثانية: أنّه يخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ (الأعراف 108) وقال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (النمل 12).

وأما الثالثة فهي أخذ آل فرعون بالجدْب، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف 130).
وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة 155) وأما الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة، فهي ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف 133). وأما التاسعة فهي ما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف 134 ـ 136). وانظر من أسرار التعبير في القرآن الكريم ص 8.

(2) تفسيره 4/ 238.

(3) الأعراف 73.

وقال في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

تلك هي بعض المعجزات الدالّة على صدق الأنبياء وإثبات رسالتهم، والتي صرّف ذكرها القرآن الكريم، المعجزة الخالدة الدالّة دلالة بيّنة على نبوة محمّد ـ ﷺ ـ الذي أعجز العرب وغيرهم، والإنس والجنّ فرادى ومجتمعين، إثباتاً لصدق الرسول بالحجج حثّاً على اتّباعه فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

---

(1) آل عمران 46 ـ 49.
(2) المائدة 114 ـ 115.
(3) البقرة 23 ـ 24.
(4) يونس 38.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(2).

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾(4).

يتّضح لنا مما سبق أنَّ إرسال الأنبياء والرسل سنَّة من سنن الله في خلقه، أرسلهم الله لحاجة الناس إلى ذلك؛ لأنَّهم الواسطة بين الخلق، والخالق، لإبلاغ شرائع الله إلى الناس الّذين أرسلوا إليهم.

وقد دلَّت الدلائل المعجزة على صدق نبوَّتهم، وأنَّ محمَّداً ـ ﷺ ـ لم يكن أوَّل رسول، وإنَّما كان آخرَهم، ورسالته خاتمة الرسالات، ولذلك أكثر القرآن من تصريف القول في إثبات النبوّة والرسالة، مبيِّناً صدقها، وموجباً الإيمان بها والعمل بمقتضاها، إذ هي الناسخة للشرائع السابقة.

وقد أثبت القرآن الكريم رسالة محمَّد ـ ﷺ ـ مستدلاً عليها بالحجج والبراهين الدّالة على صدقها وثبوتها، إذ نوّعَ البيان ذكر صفاته وأخلاقه العظيمة، وقد أرسله الله من جنس قومه يتكلَّم لغتهم، ويعرفون أمانته وصدقه فيما بينهم، وهو رسول

(1) هود 13 ـ 14.
(2) الإسراء 88.
(3) القصص 49.
(4) الطور 33 ـ 34.

الهدى ودين الحقِّ، أرسله الله - سبحانه وتعالى - إلى الناس كافَّة، وقد شهد له مولاه بصدق هذه الرسالة وبشَّر به الأنبياء قبله، وأيَّده بالمعجزة الخالدة، وبيَّن وظيفته، وأمر بطاعته، وتوعّد من أعرض عن رسالته بالعذاب وسوء المصير.

ثانياً: صفاتُ محمدّ ـ ﷺ ـ وأخلاقُه العظيمة:

بيَّن القرآن الكريم صفات محمد - ﷺ - وأخلاقَه في آيات كثيرة، إذ وصفه بصفات محبّبة إلى النفوس، فيها اللّين وفيها الأخلاق المثاليَّة، والرأفة والرحمة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي صرَّف البيان القرآني ذكرها، وبرّأه مما نسبوه إليه فقال تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

وسبب نزول هذه الآية على ما ذكره ابن عطيَّة: أنَّ قريشاً رمت رسول الله - ﷺ - بالجنون، وهو ستر العقول بمعنى أنَّ كلامه خطأ ككلام المجنون، فنفى الله - تعالى - ذلك عنه وأخبره بأنَّ له الأجر، وأنَّه على الخلق العظيم، تشريفاً له ومدحاً[2].

قال أبو السعود: «والعامل فيها منفيٌّ، كأنَّه قيل أنت بريء من الجنون متلبِّساً بنعمة الله التي هي النبوَّة والرئاسةُ العامَّة، والتعرّض لوصف الربّوبية المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره - ﷺ - لتشريفه - ﷺ - والإيذان بأنّه - تعالى - يتمُّ نعمته عليه ويبلِّغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها، والمراد تنزيهه - ﷺ - في غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية من حصانة العقل ورزانة الرأي»[3]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

---

(1) القلم 1 ـ 4.

(2) المحرر الوجيز 5/ 346.

(3) إرشاد العقل السليم 9/ 11.

(4) التوبة 128.

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

ثالثاً: الرسول محمد ـ ﷺ ـ من جنس قومه:

بيَّن القرآن الكريم أنَّه ـ تعالى ـ أرسل محمَّداً ـ ﷺ ـ من جنس قومه، تمنُّناً على العرب، مبيِّناً أنَّه دعوة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[7].

---

(1) آل عمران 159.

(2) الأنبياء 107.

(3) البقرة 129.

(4) نفسها 151.

(5) آل عمران 164.

(6) التوبة 128.

(7) الجمعة 2.

تضمَّنت هذه الآيات في تصريف بيانها، الامتنان على العرب بأنَّه أرسل إليهم رسولاً منهم يعرفون أمانته وصدقه، وقد اشتهر عندهم بذلك، مبيِّناً أنَّ إرساله استجابة لدعوة سيِّدنا إبراهيم - عليه السلام - مبيِّناً وظيفته.

وممّا يدلّ على تصريف هذه الآيات، ما انفردت به كل آية من مفردات لا توجد في الآية الأخرى، وما بينها أيضاً من تقديم وتأخير يظهر للمُتأمِّل فيها، وقد أشار إلى بعض هذه الفروق الّذين وجَّهوا الآيات المتشابهة، منهم ابن الزبير الغرناطيّ، إذْ أورد الآية الأولى والثالثة والخامسة، وذلك فيما يتعلّق بتقديم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ في الآية الأولى، وأخّر ويزكيهم، وورد في السورتين بعد على العكس. ووجه ذلك أنَّه كانت دعوة إبراهيم - عليه السلام - قبل وجود الضلال في الذرِّيَّة المدعوِّ لها، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقَّع وقوعه، يُمْنَحُونه في التعليم وما يُتلى عليهم من الآيات؛ لأنَّ ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضَّلال، إذ وُفّقوا للانقياد له... فجاء على الترتيب من بناء المسبَّبِ على سببه.

ولمّا كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنّما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وُجد منهم، والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم - عليه السلام - أخّر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلَيْنِ إضلالهم ليكون تلْوَه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علّمهم وأعطاهم وأمتنّ عليهم...

فاختلاف الترتيب هنا إنما هو بحسب اختلاف القصدين، فروعي ما ذكر، فورد كلٌّ على ما يجب ويناسب[1].

وفي موضع آخر عقد مقارنة بين آية سورة آل عمران وسورة الجمعة، وذلك لاختلاف التعبير، إذ قال تعالى في الآية الأولى: ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وفي الثانية:

---

(1) ملاك التأويل 1/ 92 - 93.

﴿ مِّنۡهُمۡ ﴾ وسبب ذلك على ما يرى: أنَّ قولك فلانٌ من أنفس القوم أوقع في القرب والخصوص من قولك، فلان منهم، فإنّ هذا قد يراد للنوعيَّة فلا يتخلَّص لتقريب المنزلة والشرف إلاّ بقرينة، أما من أنفسهم فأخصُّ، فلا يفتقر إلى قرينة، ولذلك ورد حيث قصد التعريف بعظم النعمة به - ﷺ - وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم[1].

نستخلص من العرض السابق أنَّ اللَّهَ صرَّف الآيات الدالّة على إرسال محمَّد - ﷺ - من جنس قومه تمنُّناً عليهم، واستجابة لدعوة إبراهيم - عليه السلام - وهي في أعلى درجات البلاغة والبيان، لا تكرار فيها، حتى وإن اتفقت في بعض المفردات فقد اختلفت في مفردات أخرى بالتقديم أو التأخير، أو اختلاف التعبير، ومناسبات النزول، كل ذلك يبعد عن هذه الآيات وغيرها صفة التكرار.

رابعاً: رسول الهدى ودينه حقّ:

بيَّن القرآن الكريم أنَّ محمَّداً - ﷺ - رسول الهدى، وأن دينه، دين الحقّ كما قالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[4].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 178.

(2) التوبة 33.

(3) الفتح 28.

(4) الصف 9.

وهكذا فإنّ السرَّ في تصريف هذه الآيات، هو إظهار رسالة محمَّد ـ ﷺ ـ وتعظيم أمْرِ رسوله، وأن الذي جاء به دين الحقّ، فالآيات وإن تشابهت في بعض الكلمات فقد اختلفت في بعض المفردات الأخر، الأمر الذي يبعد عنها صفة التكرار، فآية الفتح اختلفت عن الآيتين الأخريين بما أعقبت به، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وأما آيتَا التوبة والصفّ فقد اختلفتا في بعض السوابق واللواحق، إذ قال في التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[1]. وقال في الصفّ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[2].

وقد بيَّن السرَّ في ذلك التصريف الكرماني فقال: «حذف اللام من الآية الأولى؛ لأن مرادهم إطفاء نور الله، وهو المفعول به، والتقدير ذلك الذي قولهم بأفواههم، ومرادهم إطفاء نور الله بأفواههم، والمراد الذي هو المفعول به في الصفّ مضمر تقديره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[3]. ومرادهم افتراء الكذب على الله ليطفئوا نور الله، فاللام لام العلّة»[4].

والمراد بالرسول على ما ذكر أبو حيَّان هو: محمَّد ـ ﷺ ـ والهدى: التوحيد، أو القرآن، أو بيان الفرائض، أقوال ثلاثة، ودين الحق: الإسلام[5].

وقال ابن عطيَّة: «قال جمهور الناس: هو ابتداء وخبر، استوفى فيه تعظيم منزلة النبيّ ـ ﷺ ـ»[6].

---

(1) التوبة 32.
(2) الصف 8.
(3) نفسها 7.
(4) البرهان في متشابه القرآن ص 209 ـ 210.
(5) البحر المحيط 5/ 34.
(6) المحرر الوجيز 5/ 140.

خامساً: رسول الله إلى الناس كافة:

بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنّ محمّداً ـ ﷺ ـ رسول الله إلى الناس كافّة، وهذه خاصيَّة من خصائص رسالته ـ ﷺ ـ فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

قال ابن عطيّة: «هذا أمر من الله عز وجل لنبيِّه بإشهار الدعوة والحضّ على الدخول في الشرع، وذلك أنَّه لما رجا، الأمَّة المتَّبعة للنبيّ الأمّيّ التي كتب لهم رحمته عقَّب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي معه تحصيل تلك المنازل، وهذه الآية خاصَّةً لمحمَّد ـ ﷺ ـ بين الرسل، فإن محمَّداً ـ ﷺ ـ بعث إلى الناس كافة وإلى الجنّ، قال الحسن، وتقتضيه الأحاديث، وكل نبيّ إنَّما بعث إلى فرقة دون العموم، ثم إنَّه لما أعلن بالرسالة من عند الله أردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له، وهي أنّه ملك السموات والأرض بالخلق والإبداع والإحياء، والإماتة لا إله إلاّ هو ولا معبود سواه»[3].

وقال في الآية الثانية: «هذا إعلام من اللَّه ـ تعالى ـ بأنَّه بعث محمداً ـ ﷺ ـ إلى جميع العالم، وال (كافَّة) الجمع الأكمل من الناس.

و﴿ كَآفَّةً ﴾ نصب على الحال، وقدّمها للاهتمام، وهذه إحدى الخصال التي خصَّ بها محمَّداً ـ ﷺ ـ من بين الأنبياء، التي حصرها في قوله «أعطيتُ خمساً لم

---

(1) الأعراف 158.

(2) سبأ 28.

(3) المحرر الوجيز 2/ 464 ـ 465.

يعطهنَّ أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلَّت لي الغنائم، ولم تحلَّ لأحد قبلي»[1].

وحريٌّ بنا في هذا المقام أن نذكر ما وقفنا عليه من تحليل رائع عند صاحب «التعبير الفنّي في القرآن» وهو يحلّل الكلمات الواردة في هذه الآية ونعني بذلك ﴿ كَآفَّةً ﴾، و﴿ بَشِيرًا ﴾ ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ إذ قال: «وقد وضعت الآية في دقة من التعبير، فكافة أفادت الشمول، و ﴿ بَشِيرًا ﴾ أفادت ابتهاج النفس بخروجها من ظلمات الجاهليَّة إلى الإسلام، وبأنَّ لها حياة أخرى، ينعم فيها المسلم بالجنَّة جزاء ما كسب، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أفادت التحذير، فالله يحذّركم نفسه، ويضعكم أمام فطرة نفوسكم، فإن انحرفتم عنها فالمأوى جهنّم وبئس المصير.

إن الدقة في التعبير تسهم في إعطاء المغزى شمولاً عامّاً بوضوح جليّ، وعبارة القرآن تحرص دوماً بحكم دقّتها ـ على تنصيص ما يجب التنصيص عليه، مراعية في ذلك دقّة أداء المعنى وأهميّتّه»[2].

نحمد له هذا التحليل، الذي يبيِّن روعة القرآن الكريم وعظمته في تصريف أساليبه وتحقيق مقاصده.

سادساً: شهادة الله بصدق رسالته:

شهد المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بصدق رسالة محمَّد ـ ﷺ ـ وإثبات نبوَّته، إذ ورد البيان مؤيِّداً رسالته بشهادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي لا يشهد بغير الحقّ، فقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[3].

---

(1) المحرر الوجيز 4/ 420 وأخرج البخاريّ في صحيحه 2/ 916 باب قول النبي ص «نُصرْتُ بالرُّعْب مسيرة شَهْر» عن أبي هريرة، رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «بُعثْتُ بجوامع الكلَم، ونُصرتُ بالرّعب، فبينما أنا نائم أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعَتْ في يَدي». وأخرجه في المصدر السابق ص 960 باب قول النبي ـ ﷺ ـ «أحلّتْ لكم الغنائم» عَن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أحلّتْ ليَ الغنائم».

(2) التعبير الفنّي في القرآن ص 115 ـ 116.

(3) النساء 79.

وقال تعالى: ﴿ لَّكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾[5].

هذه الآيات تبيِّن أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد شهد لرسوله ـ ﷺ ـ بالرسالة، فلا حجَّة للمشركين، وغيرهم من اليهود والنصارى بإنكار رسالته، وفيها أيضاً تسلية لنبيِّه ـ ﷺ ـ عما يلاقيه من أذاهم.

قال أبو السعود في توجيه الآية الأولى: «بيان لجلالة منصبه ـ ﷺ ـ ومكانته عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد، في حقِّه ـ ﷺ ـ بناء على جهلهم بشأنه الجليل وتعريف الناس للاستغراق، والجار إما متعلق برسولاً قدِّم عليه للاختصاص الناظر إلى قيد العموم، أي مرسلاً لكلِّ الناس لا لبعضهم فقط، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي على رسالتك بنصب المعجزات التي من جملتها هذا النص الناطق والوحي الصادق، والالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة، والجملة اعتراض تذييليّ»[6].

وقد أخبر القرآن الكريم أنَّ عيسى ـ عليه السلام ـ قد بشَّر قومه وأخبرهم برسالته ـ ﷺ ـ فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

(1) النساء 166.
(2) الأنعام 19.
(3) الرعد 43.
(4) العنكبوت 52.
(5) المنافقون 1.
(6) إرشاد العقل السليم 2/ 206.

إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

ويناقش: من أنكر رسالته - ﷺ - مبطلاً دعاويهم بالحجَّة والبرهان، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[2]. إذ نسبوا ما يعرفه محمَّد - ﷺ - من قصص وأخبار وأحكام إلى غلام للفكاهة بن المغيرة، اسمه جبر، كان نصرانياً فأسلم، وكانوا إذا سمعوا من النبيِّ - ﷺ - ما مضى وما هو آت، مع أنه أمِّيٌّ لم يقرأ الكتاب، قالوا إنَّما يعلِّمه جبر وهو أعجميٌّ هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجنّ أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها[3].

سابعاً: نفي الكهانة والشعر عنه - ﷺ -:

نفى القرآن الكريم عن الرسول - ﷺ - الكهانة والشعر، فقال - تعالى - مدحضاً دعاويهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا

---

(1) الصف 6.

(2) النحل 103.

(3) انظر التعريف والإعلام ص 173.

(4) الأنبياء 5.

(5) الفرقان 4.

(6) سبأ 43.

لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[1]. وقـــال تعـــالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

وينفي القرآن دعوى أنّه شاعر فيقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[4].

وينفي عن النبي - ﷺ - قول الشعر والكهانة إذ يقول: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[5].

ثامناً: الرسول - ﷺ - بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً:

يخبر البيان القرآنيّ أنّ الرسول - ﷺ - بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم من الغيب شيئاً، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[7].

وقد ذكر تعجُّبهم من إرسال رسول من البشر، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[8].

قال أبو حيّان: «الظاهر أن قوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ إخبار من الله - تعالى - عن السبب الضعيف الذي منعهم من الإيمان، إذ ظهر لهم المعجز، وهو استبعاد أن

---

(1) الصافات 36.

(2) الطور 30.

(3) نفسها 33.

(4) الحاقة 40 - 43.

(5) يس 69.

(6) الأعراف 188.

(7) الإسراء 93.

(8) نفسها 94.

يبعث الله رسولاً إلى الخلق واحداً منهم لم يكن ملكاً، وبعد أن ظهر المعجز فيجب الإقرار والاعتراف برسالته فقولهم لا بدَّ أن يكون من الملائكة تحكُّم فاسد»[1].

تاسعاً: محمدٌ رسول الله وخاتم النبيِّين:

أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّ محمَّداً ـ ﷺ ـ رسول الله وخاتم النبيِّين، فهو مقصور على الرسالة لا يتجاوزها، فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[4].

فاسم محمَّد ـ ﷺ ـ كما قال السهيليّ: «مطابقاً لمعناه، والله سبحانه، سمّاه به قبل أن يسمّي به نفسه، فهذا علم من أعلام نبوَّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو محمود في الدنيا لما هدُي إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة»[5].

قال ابن عطيَّة: موجّهاً الآية الأولى: «هذا استمرار في عتبهم، وإقامة لحجّة الله عليهم، إذ المعنى: أنَّ محمَّداً ـ ﷺ ـ رسول كسائر الرسل، قد بلغ كما بلغوا ولزمكم أيُّها المؤمنون العمل بمضمون الرسالة، وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك؛ لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله»[6].

وهكذا فإن البيان في الآية الأولى بيَّن أن محمَّداً ـ ﷺ ـ مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها، كالرسل قبله، يموت كما يموتون، وفي الآية الثانية نفي بنوّة زيد

(1) البحر المحيط 6/ 79.
(2) آل عمران 144.
(3) الأحزاب 40.
(4) الفتح 29.
(5) التعريف والإعلام ص 334.
(6) المحرر الوجيز 1/ 516.

بن حارثة لرسول الله ـ ﷺ ـ وبيّن أنّه رسول وخاتم النبيّين، وأخبر في الآية الثالثة أنّه رسول الله.

عاشراً: وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ والأمر بطاعته:

بيّن القرآن الكريم وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ وأمر بطاعته، وتوعّد من أعرض عن رسالته، فقد أكثر القرآن الكريم من تصريف الآيات الدالّة على وظيفة الرسول محمّد ـ ﷺ ـ الذي أرسله ربّه لتبليغ دعوته إلى الناس أجمعين، وذلك بدعوة الناس إلى توحيد الله ـ تعالى ـ وعبادته، إذ هي الوظيفة الأساسية التي جاء بها الرسل والأنبياء جميعاً واتفقت كلمتهم عليها، وتبليغ أوامر الله ونواهيه إلى الخلق، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وتعريفهم بالرسل وأحوال الأمم السابقة، وتذكيرهم بالنشأة والمصير.

1 ـ وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ:

ومن هنا فإن الاستقراء الكامل لآيات الرسالة. المبيِّنة لمهمّته يمكن تصنيفها حسب المهامِّ التي كُلِّف بها من المولى ـ سبحانه وتعالى ـ.

فمن وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ إنذار الناس بوحدانيّة الله ـ تعالى ـ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1].

وقد قرن في هذه الآية وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ بتوحيد الله الواحد القهّار، دلالة على أنّ الرسالة هي الموصلة والداعية لتوحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ودلالة على أنَّ الإيمان لا يكون صحيحاً إلاّ بهما معاً.

وقد بيّن القرآن الكريم أنَّ من وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ البلاغ والبيان، أي إبلاغ الناس جميعاً، بما أنزل إليه من ربّه، وبيانه لهم، وقد فعل ذلك، فقال تعالى:

---

(1) سورة ص 65.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1].

يرى أبو حيَّان: أنّ في هذه الآية دلالة على صحَّة نبوَّته؛ لأنَّ إعلامه بما يخفون من كتابهم وهو أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا يصحب القرّاء، دلالة على أنه إنَّما يعلِّمه الله تعالى»[2].

وفي التعبير بقوله ﴿ رَسُولُنَا ﴾ في هذه الآية وفي غيرها من الآيات، تشريفٌ له، ودلالة على مكانته السامية عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنَّه رسول الحقِّ، الذي يجب الإيمان به، واتباع رسالته، والعمل بما فيها.

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب أيضاً: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[3].

وفي التعبير بقوله: ﴿ قَدۡ جَآءَكُمۡ ﴾ بالفعل الماضي دلالة على أنَّهم يعرفونه؛ لأنَّه ذُكر في كتبهم، إذ الخطاب موجَّه لأهل الكتاب، الّذين هم على معرفة به.

وفي البيان بقوله: ﴿ يُبَيِّنُ ﴾ بالمضارع دلالة على التجدّد والاستمرار، فهذه المهمَّة متجدّدة ومستمرّة، وليست محدّدة بوقت معين، حتّى أكمل الله دينه، والنبي بيانه، وقد بيّن الحقُّ سبحانه وتعالى ـ علّة البيان في الآيتين إذ قال في الأولى: ﴿ مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ومن بينها رسالته وصدق نبوَّته، وفي الآية الثانية: ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ بعد انقطاع وطول عهد من الرسول، فذلك داع ومستوجب لإرسال رسول يبيِّن الحلال والحرام، ومراد الله من التشريع والأحكام.

---

(1) المائدة 15.

(2) البحر المحيط 3/ 463.

(3) المائدة 19.

ويأمره الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالبلاغ فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1].

ويحدد مهمَّته في البلاغ والبيان فيقول تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[2].

هذه الآية جاءت عقب بيان أحكام الخمر والميسر، آمرة بطاعة الله وطاعة الرسول، ومحذِّرَةً من مخالفتهما، ومتوعّدة من يعرض عن ذلك، ومحدِّدة مهمَّة الرسول ـ ﷺ ـ في البلاغ والبيان، والمراد من البلاغ والبيان كلُّ ما جاء به من الأوامر والنواهي.

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[3].

ويأمره بالبيان فيقول: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

يفهم من الآية الكريمة أنَّ مهمَّة الرسول ـ ﷺ ـ تبيين ما أُنزل في كتاب الله، أي بيان كلِّ ما ينزل عليه، وأنَّ هذه المهمَّة مستمرَّة ومتجدّدة ما دام ينزل عليه القرآن، يدلُّ على ذلك التعبير بالمضارع في قوله: ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ والجدير بالذكر في هذا المقام أنَّ السنَّة على كثرتها وكثرة مسائلها إنَّما هي بيان للكتاب، ذلك ما ذكره الشاطبيّ، مستدلاً على ذلك بهذه الآية، وبحديث النبي ـ ﷺ ـ: «ما من نبيّ من الأنبياء إلاّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله

---

(1) المائدة 67.

(2) نفسها 92.

(3) التغابن 12.

(4) النحل 44.

إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1]. وإنّما الذي أعطيَ القرآن وأما السنّة فبيان له.

ثم استطرد قائلا: «القرآن فيه بيان كلّ شيء على ذلك الترتيب المتقدّم، فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة، ولا يعوزه منها شيء، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[4]. يعني الطريقة المستقيمة، ولو لم يكن فيه جميع معانيها لما صحّ إطلاق هذا المعنى عليه حقيقة، وأشباه ذلك من الآيات الدالّة على أنّه هدى وشفاء لما في الصدور ولا يكون شفاء لجميع ما في الصدور إلاّ وفيه تبيان كلّ شيء»[5].

و«التبيين التوضيح بتصوير مسائله وإثباتها بقواطع الأدلّة، والبيان: إخراج الشيء من حيّز الأشكال إلى حيّز التجلّي»[6].

وقال الإمام الشافعيّ: «والبيان: اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعّبة الفروع، فأقلُّ ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعْبة: أنّها بيانٌ لمن خُوطب بها ممّن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الإستواء عنده، وإن كان بعضُها أشدّ تأكيد بيانٍ من بعضٍ ومختلفةٌ عند من يجهل لسان العرب»[7].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه 5/ 2272 باب قول النبي - ﷺ - (بُعِثْتُ بجوامع الكلم) بتقديم وتأخير، وزيارة في بعض ألفاظه.
(2) النحل 89.
(3) الأنعام 38.
(4) الإسراء 9.
(5) الموافقات 3/ 367 - 369.
(6) إتحاف المريد بجوهرة التوحيد، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 4/ 2218 د في مجموع من 130 - 295 ص 133.
(7) الرسالة ص 21.

تلك مكانة السنَّة النبويَّة وجب التنبيه إليها وبخاصَّة نحن بصدد الحديث عن مكانة النبوَّة والرسالة في القرآن الكريم.

ويأمره بالإنذار والبيان فيقول: ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

ويحدِّد البيان القرآنيُّ وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ في التبشير والإنذار فيقول: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[4].

قال أبو حيَّان: «بشيراً لمن آمن ونذيراً لمن كفر، وهذه الآية تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ فإنَّه كان يضيق صدره لتماديهم على ضلالهم.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لما ذكر أنه بيّن الآيات، ذكر من بُيِّنَتْ على يديه، فأقبل عليه وخاطبه ـ ﷺ ـ ليعلم أنَّه هو صاحب الآيات فقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالآيات الواضحة، وفسّر الحقّ هنا بالصدق وبالقرآن وبالإسلام»[5].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[7].

حدّدت هاتان الآيتان وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ في التبشير والإنذار، والمراد من ذلك معان كثيرة، شاملة لكلِّ ما كلِّف بإبلاغه وتوصيله إلى أمّته، إذ المراد بالتبشير كلُّ ما فيه صلاح المسلمين في دنياهم وأخراهم، والمراد بالإنذار كلُّ ما هو مخالف للشريعة الإسلاميَّة.

---

(1) الحجر 89.
(2) الحج 49.
(3) الملك 26.
(4) البقرة 119.
(5) البحر المحيط 1/ 537.
(6) الإسراء 105.
(7) الفرقان 56.

والآيتان وإن اتّفقتا في بعض مفرداتهما لا يعني ذلك أنّهما مكررتان، إذ اختلفتا في سوابقهما ولواحقهما، وأسباب نزولهما، الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنهما، وفيهما من البلاغة والبيان البديع ما لا يخفى.

وفي الوقت الذي يحدّد وظيفته في التبشير والإنذار، الذي يتضمّن - كما قلنا - جميع أوامر الشريعة ونواهيها - يؤكد أنّ إرساله بالحقّ، مكلّفاً بتلك المهمّة فيقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1].

ويضيف لهذه الوظيفة مهمّةً أخرى، إذ يكون شاهداً على أمّته مبشّراً ونذيراً، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[2].

ونجد البيان القرآني يأمر محمّداً - ﷺ - بالتذكير بالقرآن، فيقول تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[3].

ويأمره بالتذكير وينفي عنه الكهانة والجنون فيقول تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴾[4].

ويبيّن أنّ من وظيفته - ﷺ - الإنذار بالساعة فيقول تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾[5].

ويأمره بالتذكير ويحصره في ذلك فيقول تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾[6].

2 - الأمر بطاعة الرسول - ﷺ -:

أمر الله - سبحانه وتعالى - بطاعة محمّد - ﷺ - وقرنها بطاعته - عزّ وجلّ - في غير ما آية لوجوب امتثالها، والعمل بما جاء به، وهو أسلوب مطّرد في القرآن

---

(1) فاطر 24.
(2) الفتح 8.
(3) ق 45.
(4) الطور 29.
(5) النازعات 45.
(6) الغاشية 21.

الكريــم ، إذ قــال تعــالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

ويبيِّنُ أنَّ طاعة الله وطاعة الرسول ـ ﷺ ـ في امتثال جميع الأوامر والنواهي تُدْخلُ صاحبها الجنّة ، ومخالفتهما تدخله النار ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[2] .

وقد تضمَّن هذا الأسلوب الترغيب في طاعة الله ورسوله لامتثالها والترهيب من عصيانهما ، لاجتنابه بأسلوب تقابليٍّ بديع ، إذ قابل بين الطاعة والعصيان ، وبين جزاء المطيع وجزاء العاصي ، تلك هي بلاغة القرآن في تصريف بيانه .

ويأمر البيان القرآني المؤمنين بطاعتهما وردِّ التنازع إليهما فيقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[3] .

ويرغّب في طاعتهما ويشوّق المطيعين فيها ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[4] .

ويأمر بطاعته ـ ﷺ ـ ويتوعَّد من أعرض عن رسالته فيقول تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[5] .

---

(1) آل عمران 32 .
(2) النساء 13 ـ 14 .
(3) نفسها 59 .
(4) نفسها 69 .
(5) نفسها 80 .

قال أبو السعود: «بيان لأحكام رسالته ـ ﷺ ـ إثر بيان تحقُّقها وثبوتها، وإنّما كان كذلك؛ لأنّ الآمر والناهي في الحقيقة هو الله، ـ تعالى ـ وإنّما هو ـ ﷺ ـ مبلّغ لأمره ونهيه فمرجع الطاعة وعدمها هو الله ـ سبحانه ـ.

والتعبير عنه ـ ﷺ ـ بالرسول دون الخطاب للإيذان بأن مناط كون طاعته ـ ﷺ ـ طاعة له ـ تعالى ـ ليس خصوصيّته لذاته ـ ﷺ ـ بل من حيثيّة رسالته، وإظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عنوان الألوهيَّة، وحمل الرسول على الجنس المنتظم له ـ ﷺ ـ انتظاماً أوّليّاً يأباه تخصيص الخطاب به ـ ﷺ ـ»[1].

ويأمر بطاعته ويحذّر من مخالفته، ويقرن ذلك ببيان وظيفته المتمثّلة في البلاغ والبيان فيقول: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[3].

وقد بيّن سرّ تصريف هذه الآية والتي قبلها ابن الزبير الغرناطيّ، إذ قال: «فورد في الأولى زيادة ﴿ وَٱحْذَرُوا۟ ﴾ وزيادة ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ ﴾ مع اتحاد ما تضمّنته الآيتان في الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله، والتحذير من التنكُّب عن ذلك والتّولّي فيسأل عن ذلك.

والجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ آية المائدة لما أعقب بها آيات الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها، ثم أتبع ذلك بذكر العلّة في تحريمها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[4]. فختمت من التهديد بما يشعر بتهديد الوعيد؛

---

(1) إرشاد العقل السليم 2/ 206.

(2) المائدة 92.

(3) التغابن 12.

(4) المائدة 91.

ناسب ذلك قوله تأكيداً لما تقدّم من الإشعار بمخوف الجزاء، قوله ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾ وقوله ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لما في ذلك من التأكيد.

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد... فلما لم يرد هنا نهيٌ عن محرّم متأكّد التحريم بما أتبع النهي من التهديد والتأكيد، لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك، فجاء كلٌّ على ما يجب ويناسب وليس العكس الوارد بمناسب»[1].

وقال أبو السعود: «كرَّر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفيَّة وتوضيح مورد التولّي»[2].

أرى أن ذلك لا يعد تكراراً؛ لاختلاف الطاعتين، فطاعة الله تعني توحيده وعبادتَه وطاعة الرسول تعني اتّباع ما جاء به، ولذلك بيَّنت الآية مهمَّته - ﷺ - وهي البلاغ والبيان، وقد فعل ذلك.

ولا أرى أيضاً تكراراً بين الآيتين، والدليل على ذلك ما بيَّنه ابن الزبير مما ورد في بعضها من زيادة لا توجد في الآية الأخرى، وكذلك ما أعقب به كلّ آية، وأسباب نزولها؛ لأنّ كلّ آية تابعة لسياقها، ولأساليبها الواردة فيها، فلكلٍّ أسلوب مقاصده التي يحقِّقُها.

ويأمر المؤمنين بطاعته وينهاهم عن التولّي عنه فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[3].

ويأمرهم بطاعته وينهاهم عن إبطال أعمالهم فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[4].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 274 ـ 275.

(2) إرشاد العقل السليم 8/ 258.

(3) الأنفال 20.

(4) محمد 33.

ويأمرهم بطاعة الرسول - ﷺ - في القتال وينهاهم عن التنازع، ويقرن ذلك بالصبر فيقول: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1].

ويبين جزاء المطيعين مقروناً بأوصافهم التي استحقُّوا بها ذلكَ الجزاء فيقول تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ويرغّب في طاعته - ﷺ - ويقرنها بخشية الله وتقواه، مقرونة ببيان الجزاء فيقول تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4].

ويأمر نبيَّه - ﷺ - أن يأمر المؤمنين بطاعته - ﷺ - ويبيِّن أنّ طاعته سبب الاهتداء، ويقرن ذلك ببيان وظيفته وهي البلاغ والبيان، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[5].

قال أبو السعود: «كرَّر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأولى نهي بطريق الردِّ والتقريع، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[6]. وفي الثاني أمر بطريق التكليف

(1) الأنفال 46.
(2) التوبة 71.
(3) النور 52.
(4) الفتح 17.
(5) النور 52.
(6) المؤمنون 108.

والتشريع وإطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحة والإخلاص، ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنَّها ليست من الطاعة في شيء أصلاً»[1].

أرى أنه لا تكرار في ذلك، والسبب بيِّن، قد أوضحه أبو السعود حين قال: «باختلافهما من حيث إن المقول الأوّل نهى... وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع».

ويخبر بأنّ طاعته سبب في الفوز برضوانه ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال تعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[2].

ويبيِّن أنَّ طاعته شرطٌ في عدم نقص الأعمال، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

وأمر بطاعته مقروناً بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، دلالة على أهمِّيَّة المأمور به، وعدم التفريط فيه، فقال تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[4].

ويتوعَّد المعرضين عن رسالته، إذ يقول تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[6].

يتِّضح لنا من العرض السابق: أنّ القرآن الكريم يكثر من تصريف الأمر بطاعة الرسول ـ ﷺ ـ ويحذّر من عصيانه، مقروناً بطاعة الله ـ تعالى ـ بأسلوب مطَّرد، إظهاراً لأمره، ولعلوِّ شأنه، وإيجاباً لامتثال ما جاء به من عند الله ـ تعالى ـ.

(1) إرشاد العقل السليم 6/ 189.
(2) الأحزاب 71.
(3) الحجرات 14.
(4) المجادلة 13.
(5) النساء 80.
(6) الشورى 48.

ويرغِّب في طاعته لأجل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، ويرهِّب من عصيانه ومخالفته تنفيراً من ذلك. وفي الأمر بطاعته - ﷺ - تسلية له عمّا يلاقيه من أذى المخالفين وعصيانهم.

ويتّضح لنا من هذا العرض أيضاً، أن القرآن الكريم أولى عناية كبيرة بالنبوَّة والرسالة، مثل عنايته بأصول العقيدة الأخرى، وغيرها من أوامر الشريعة ونواهيها التي صرّف القرآن بيانها، فهو يذكرها في مواضع متفرِّقة، منوِّعاً بيانها بطرائق شتّى وأساليب مختلفة، وذلك لإثباتها وبيان صدقها، بالأدلَّة الواضحة والبراهين الساطعة، التي يعرضها من حين إلى آخر، وذلك ما سنراه في المبحث اللاحق - إن شاء الله تعالى -.

المبحث الثاني
تنوُّع أدلَّة إثبات النبوَّة والرسالة

سلك القرآن الكريم طرائق شتّى لإثبات النبوَّة والرسالة، وعرضها بأساليب مختلفة، تبعاً للأسباب الداعية إلى ذلك، إذ إنَّ هذا الموضوع ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، بيد أنَّ طرائق عرضها وأساليب تقريرها، يختلف من موضع لآخر، فتكون في كلِّ موضع جديدة في معانيها وأساليبها، وقد يظنُّ عند النظرة الأولى أنَّها مكرَّرة، لكن عند التدبُّر والتعمُّق يتّضح أنَّ الأمر بعكس ذلك.

إنَّ التنويع في هذه المعاني والأساليب يرجع إلى السياق وإلى الأسباب التي نزلت فيها الآيات، وكذلك سوابق الآيات ولواحقها، وذلك ما نلاحظه في تصريف تلك الآيات التي سيقت في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم.

إنّ ورود هذه المعاني بكثرة في القرآن الكريم، لم يقف عنده المهتمُّون بعلوم القرآن وتفسيره، وقد اكتفوا بتفسير هذه المعاني في مواضعها؛ فلم يبيِّنوا تصريفها في المواضع المختلفة في القرآن الكريم.

وقد لاحظ بعضهم أنَّ في بعض هذه الآيات تكراراً، غير أن المتعمِّقَ فيها بالنظر في سياقها وأسباب نزولها، يلاحظ أنَّ كثرة ورودها في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم هو تصريف للقول، وذلك ما أشار إليه المولى - عز وجل - في آيات كثيرة، ذكرناها في موضعها من هذه الأطروحة[1].

وحيث إن المقام لا يتَّسع لذكر هذه المعاني جميعاً، لذا فإنَّنا سنكتفي بذكر بعض الأمثلة التي تبيّن طرق القرآن الكريم في تصريفها والحكمة من إيرادها، لذلك ارتأينا أن نتَّبع في دراستها ما اتَّبعناه في دراسة أدلَّة البعث والجزاء بحيث نقسم هذا

---

(1) ينظر التمهيد.

المبحث إلى قسمين، ففي القسم الأول نتكلم عن تنوع المعاني الدالّة على النبوة والرسالة في المثال الواحد، وفي القسم الثاني: عن تنوّع الأساليب في نفس المثال.

المثال الأول: تنوُّع المعاني والأساليب الدالّة على النبوّة والرسالة في سورة الأنعام:

نجد أن القرآن الكريم يثبت نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ ورسالته بأدلَّة متعدِّدة، إذ يوردها بطرائق شتّى، تختلف عما عُرض في غيرها من السور، وحتى ما يعرض في هذه السورة من أدلَّة تثبت ذلك يكون جديداً في المعاني والأساليب في كلّ مرَّة يرد فيها ذكر النبوَّة والرسالة.

إنَّ هذا التنوُّع الدلالي والأسلوبي، في القرآن الكريم يبرز روعة القرآن الكريم وجلاله، وسماته الجمالية، التي لا نظير لها في غيره من الأساليب، النثرية والشعرية، وهو ممَّا جعل هذا التنوُّع الدلالي والأسلوبي لوناً من ألوان تصريف القول في القرآن الكريم، ومظهراً من مظاهر إعجازه، وسرّاً من أسرار بلاغته.

وقد أشار صاحب «خصائص التعبير القرآني» إلى ما تميَّز به القرآن الكريم من روعة الانسجام بين المعاني المختلفة فقال: «أمَّا صناعة القرآن فقد رأى نُقّاد الفنون وخبراء الأساليب روعة الانسجام بين المعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها، فهو على ما امتاز به أسلوبه من اجتناب سبيل الإطالة والتزام الإيجاز، بقدر ما يتسع له جمال اللغة، قد جعله أكثر الكلام امتناناً في شؤون القول، وأسرعه تنقُّلاً بينها من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل، إلى ضروب شتَّى من المعاني والفنون، تبدو كأنَّها وحدة واحدة، شديدة التماسك»[1].

إن الذي يهمُّنا في هذا الجانب هو تنويع المعاني والأساليب الدالَّة على النبوَّة والرسالة، وهو ما ستجلّيه هذه الدراسة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(1) خصائص التعبير القرآني 1/ 398.

أولاً: تنوُّع المعاني الدالَّة على النبوَّة والرسالة في سورة الأنعام:

فمن ذلك ما نجده من تنويع بياني في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة وجّه الخطاب لمحمَّد ـ ﷺ ـ مبيّناً أنَّ هؤلاء الكفَّار كلَّما أتتْهم حجّة دالَّة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وصدق نبوّة محمَّد ـ ﷺ ـ أعرضوا عنها وصدُّوا عن سبيلها.

وبيَّن في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾[2]. أنهم كذَّبوا بنبوَّة محمَّد ورسالته لـمَّا جاءهم من عند الله دون تفكير.

ذكر أبو السعود أنَّ الحقَّ عبارة عن القرآن الذي أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كلِّ آية منه، عبّر عنْه بذلك إبانـةً لكمال قبح ما فعلوا به، فإن تكذيب الحق مما لا يتصوَّر صدوره عن أحد، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنَّها شيء مغاير له في الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أنَّ الأوَّل هو عين الثاني حقيقة، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري، وقد لتحقيق ذلك المعنى؛ لأن مفهوم التكذيب بالحقِّ حيث كان أشنع من مفهوم الإعراض المذكور، لذلك أخرج مخرج اللازم البيّن البطلان، فترتب عليه بالفاء إظهاراً لغاية بطلانه، ثم قيَّد ذلك بكونه بلا تأمّل تأكيداً لشناعته وتمهيداً لبيان أنَّ ما كذَّبوا به له عواقب جليلة[3].

وقد ذكر المراغي أيضاً أنهم: «لم يتريّثوا ولم يتأمَّلوا؛ لأنَّهم سدُّوا على أنفسهم مسالك العلم»[4].

ولذلك توعَّدهم المولى ـ سبحانه وتعالى ـ على كفرهم واستهزائهم في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[5].

---

(1) الأنعام 4.
(2) نفسها 5.
(3) إرشاد العقل السليم 3/ 109 ـ 110.
(4) تفسير المراغي 7/ 37.
(5) الأنعام 5.

ثم يلفت انتباههم إلى ما حلَّ بالأمم السالفة مع ما مكّنهم به من الخيرات العظيمة والنعم الكثيرة التي رزقهم الله إيّاها فجحدوا نعمة ربِّهم وعصوا رسله، فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم، إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[1].

وبيّن في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[2]. أنّه أحدث بعد إهلاكهم أمماً آخرين جعلهم خلفاً لهم.

ثمَّ وجَّه الخطاب للرسول - ﷺ - مبيِّناً له مكابرة هؤلاء الكافرين وجحودهم لنبوَّته - ﷺ - ورسالته، مبيّناً كذلك مزاعمهم الباطلة وإصرارهم على الكفر والعناد، إذ يقول - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

يرى أبو السعود، أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب، لبيان شدَّة شكيمتهم في المكابرة، وما يتفرَّع عليها من الأقاويل الباطلة إثر بيان إعراضهم عن آيات الله - تعالى - وتكذيبهم بالحقِّ واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب، ونسبة التنزيل ههنا إليه - عليه السلام - مع نسبة إتيان الآيات ومجيء الحقِّ فيما سبق إليهم للإشعار بقدحهم في نبوّته - عليه السلام - في ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحاً[4].

ثم حكى مزاعمهم الباطلة، وهو قولهم هلاّ أنزل عليه ملك من السماء يصدِّقه ويشهد له بأنّ الله أرسله إلينا، إذ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[5].

---

(1) الأنعام 6.
(2) نفسها.
(3) نفسها 7.
(4) إرشاد العقل السليم 3/ 112.
(5) الأنعام 8.

ثم بيَّن المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لو أنزل ملكاً ثمَّ كفروا ولم يؤمنوا به لجاءهم العذاب عاجلاً، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾[1].

ثم بيَّن أنه لو بعث إليهم ملكاً لجعله في صورة رجل؛ لأنهم لا يقدرون على رؤية الملك، ولاختلط عليهم الأمر، فلم يدروا أملك هو أم بشر؟ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[2].

ثم يسلّي رسوله ـ ﷺ ـ عمّا يلاقيه من هؤلاء المشركين، مبيِّناً أنَّ ذلك سنَّة مطَّردة فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3].

ثمَّ ينتقل إلى توجيههم لهذه الأدلَّة، إذ يأمرهم بالسير في الأرض والنظر في عاقبة المكذِّبين، فيقول: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[4].

ثم أورد دليلاً من الأنفس والآفاق، دالاً على الملكيَّة المطلقة للَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ومؤكِّداً البعث والجزاء فيقول: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

إنّ الذي يمكن لنا استنباطه هو أن السياق يلعب دوراً في تصريف هذه المعاني وذلك ما نلاحظه في هذا التنويع البديع في معاني العقيدة، إذ قرن في هذه الآيات

(1) الأنعام 8.
(2) نفسها 9.
(3) نفسها 10.
(4) نفسها 11.
(5) نفسها 12.

إثبات النبّوة والرسالة بإثبات التوحيد، ثم بإثبات البعث والجزاء؛ لأنّ الله هو الذي أرسل الرسول ليبيِّن التوحيد للناس عامَّة، وليذكّر بيوم البعث والجزاء.

ثم يعود البيان القرآني فيسوق دليلاً من الأنفس والآفاق مقروناً بصفتين عظيمتين، آمراً نبيَّه ـ ﷺ ـ بالتوحيد الخالص، إذ يقول: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1].

ويستمرُّ البيان القرآني في إثبات التوحيد ونفي الشرك، إلى أن يقرنه بحجَّة على صحَّة النبوَّة والرسالة، ألا وهي شهادة اللّه لنبيِّه بذلك[2]. فيقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[3].

ثم يعرض حجَّة أخرى على صدقه ـ ﷺ ـ ألا وهي أنَّ أهل الكتاب يعرفون النبيَّ ـ ﷺ ـ كما يعرفون أبناءهم، مبيِّناً أنَّ عدم إيمانهم به افتراء وظلم، إذ يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4].

---

(1) الأنعام 13 ـ 14.

(2) شهادة الشيء حضوره ومشاهدته، والشهادة به الإخبار به عن علم ومعرفة، واعتقاد مبنيٌّ على المشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، أي العقل والوجدان، ومنه الشهادة بالتوحيد، وإثبات الشيء بالدليل والبرهان شهادته به، وشهادة الله بين الرسول وبين قومه قسمان: شهادته سبحانه ـ برسالة الرسول ـ ﷺ ـ وشهادته بما جاء به (تفسير المنار 7/ 338).

(3) الأنعام 19.

(4) نفسها 20 ـ 21.

قال صاحب: «في ظلال القرآن: «هذه الجولة عودة إلى مواجهة المشركين المكذِّبين بالقرآن الكريم، المكذِّبين بالبعث والآخرة، ولكنَّها لا تواجههم بتصوير تعنُّتهم وعنادهم، ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذِّبين من أسلافهم ـ كما سبق في سياق السورة ـ إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذِّبون به»[1].

ثم يلفت السياق انتباه الرسول ـ ﷺ ـ إلى حقيقة هؤلاء المكذِّبين، مبيِّناً قبائح أعمالهم فيقول تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

قال ابن عطيَّة: «آيات الله علاماته وشواهد نبيِّه محمَّد ـ ﷺ ـ والجحود إنكار الشيء بعد معرفته، وهو ضدُّ الإقرار، ومعناه على تأويل من رأى الآية في المعاندين مترتِّب على حقيقته، وهو قول قتادة والسُّدِّيّ، وغيرهما، وعلى قول من رأى أنَّ الآية في الكفَّار قاطبة دون تخصيص أهل العناد، يكون في اللفظة تجوُّز ذلك أنَّهم لما أنكروا نبوَّته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجَّة عبَّر عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار، وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم، إذ معجزاته وآياته نيِّرة تلْزِم كلَّ مفطور أن يعلمها ويقرَّ بها»[3].

ثم يعود البيان لإثبات النبوة والرسالة، مطمئناً رسوله، ـ ﷺ ـ ومبيِّناً أن تكذيب الرسل سنَّة مطَّردة، فيقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ

---

(1) في ظلال القرآن 2/ 1060.

(2) الأنعام 24 ـ 25.

(3) المحرر الوجيز 2/ 286.

مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1].

ويبين مهمّة الرسل ـ عليهم السلام ـ وجزاء المكذّبين بآيات اللَّه ـ تعالى ـ آمراً نبيَّه، ـ ﷺ ـ أن ينفي عن نفسه علم الغيب، وهو ليس مَلَكاً، إنما هو متّبع للوحي، ويأمره أن ينذر بالقرآن الذي أوحاه اللَّه إليه، ويبيِّن له الطريقة التي يجب أن يعامل بها الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ، وأن يقبل توبة من يأتيه تائباً، إذ يقول تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2].

---

(1) الأنعام 33 ـ 35.

(2) نفسها 48 ـ 55.

ذكر أبو السعود أنّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق وتحقيق ما في عهدة الرسل ـ عليهم السلام ـ وإظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه ـ عليه السلام ـ ليس مما يتعلّق بالرسالة أصلاً، وصيغة المضارع لبيان أنّ ذلك أمر مستمرٌّ جرت عليه العدالة الإلهيّة[1].

ونجد في موضع آخر من هذه السورة تصريفاً للقول يثبت إنزال الكتاب على محمَّد ـ ﷺ ـ بحجّة قاطعة قريبة من أذهانهم، وهو توجيه السؤال لهؤلاء الكافرين، مبيِّناً ظلم الّذين يفترون على اللّه كذباً، داحضاً شبهاتهم.

وقد جمع بين الكتاب الذي أُنزلَ على محمَّد ـ ﷺ ـ والكتاب الذي أنزل على موسى ـ عليه السلام ـ في سياق واحد، احتجاجاً عليهم فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[2].

وقد أوضح أبو حيَّان هذا الاحتجاج فقال: «إن كان المنكرون بني إسرائيل فالاحتجاج عليهم واضح؛ لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى، وإذا كانوا العَرَبَ فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول»[3].

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 135.

(2) الأنعام 91 ـ 93.

(3) البحر المحيط 4/ 181.

وكيفما كان المنكرون بني إسرائيل أو غيرهم فإن في هذه الآيات الإلزام المفحم والحجّة البالغة، والفيصل الفارق بين الحقّ والباطل، قد دحضت به حجّة الخصوم، وأرشدوا إلى المحجّة، وعند توجيه الله - تعالى - نظر المجادل إلى الحقائق من غير اتّجاه إلى إلزام من أوّل الأمر، أو بعد إلزامه وإفهامه يكون تصريف البيان، ومناحي التأثير، وتكون العبارات التي تخاطب العقل والوجدان، وتمسّ مواطن الإحساس، وتتنوّع المناهج وتتضافر المعاني، وللألفاظ جدّتها وطلاوتها، وتتنوّع الأساليب من استفهام إلى تعجُّب إلى تهديد إلى إخبار، ويختلف الاتجاه إلى مواضع الاستدلال وينابيعه، فمرّة يكون الاستدلال بردّ المسائل إلى أمور بدهيّة معروفة، أو حقائق مشهورة مألوفة يخرُّ المجادل أمامها صاغراً[1].

وهكذا فقد اتّجه الاستدلال القرآني في هذه الآيات إلى بطلان دعواهم بأمر معروف مشهور مألوف لديهم لا يماري فيه أحد، وهو إنزال الكتاب على موسى - عليه السلام - إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾[2]؛ لأنَّ هذا الكتاب اشتهر لديهم، وهو أمر مستمرٌّ عندهم يدلّ عليه التعبير بالفعل المضارع الدالّ على التجدُّد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ ﴾ مصوِّراً لهم بصورة دقيقة مشاهدة أمام العيان.

والجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام أنَّ قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[3]. في هذه السورة له نظائر في القرآن الكريم بلغ استقراؤها تسع آيات وردت في مواضع مختلفة ومع ذلك فإنَّ هذه الآيات الكريمة لا تكرار فيها ولا بينها؛ لأنَّ لكلِّ موضع سياقه ومعانيه التي يحقِّقها، وهو ما نلحظه من فروق بين هذه الآيات التي نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ

(1) المعجزة الكبرى ص 383.
(2) الأنعام 91.
(3) نفسها 21.

مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[4].

إنَّ الآية الأولى جاءت في سياق بيان أنَّ أهل الكتاب يعرفون النبيَّ - ﷺ - كما يعرفون أبناءهم، وأنَّ الجزء الثاني منها يختلف عما في غيرها وهو قوله: ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ وأنَّها أعقبت كذلك بتعقيب يختلف عن غيرها وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وأمَّا الآية الثانية فقد جاءت في سياق عرض حجَّة أخرى جديدة غير الحجَّة الأولى، وهو أنَّ القرآن الكريم مصدِّق للكتب التي قبله في إثبات التوحيد والأمر به ونفي الشرك والنهي عنه، وفي سائر أصول الشرائع التي لا تنسخ[5]. وفي سياق بيان مهمَّته - ﷺ - وقد اختلفت عن غيرها فيما لحقها من بيان كما هو واضح فيها.

وأمَّا الآية الثالثة فقد اختلفت عن غيرها بالتعقيب بالفاء لترتيب ما بعدها على ما سبق من تبكيتهم وإظهار كذبهم وافترائهم، أي هو أظلم من كلِّ ظالم[6].

وقد جاءت في سياق بيان أحكام فقهية في حق بني إسرائيل، كما أنَّ الجزء الثاني من الآية الكريمة وتعقيبها مخالف للآيات الأخرى في المعنى والأسلوب - وهو قوله: ﴿ لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(1) الأنعام 93.
(2) نفسها 144.
(3) نفسها 157.
(4) الأعراف 37.
(5) إرشاد العقل السليم 3/ 162.
(6) نفسه ص 194.

وأمَّا الآية الرابعة، فقد اختلفت كذلك عن غيرها في السياق والتعقيب، فجاءت في سياق الجمع بين ما أنزل على موسى - عليه السلام - والقرآن الكريم الذي أنزل على محمَّد - ﷺ - وبيان منزلته العظيمة والأمر باتّباعه، وأنَّه حجَّة بيِّنة من عند اللَّه - سبحانه وتعالى - لذلك جاءت هذه الآية مناسبة لموقعها، وكذلك التعقيب جاء مناسباً لما أعقب به، مخالفاً لما أعقبت به الآيات الأخرى.

وأمَّا الآية الخامسة فقد اتَّفقت مع الآية الأولى في شيء من المعاني والأسلوب، واختلفت معها وغيرها في السياق الواردة فيه، وكذلك اختلفت معها في الجزء الثاني منها وتعقيبها.

فقد وردت في سياق الوعيد لمن يكذِّب بآيات اللَّه - تعالى -، فجاءت هذه الآية مناسبة لسياقها.

ثانياً: تنوُّع الأساليب الدالَّة على النبوة والرسالة في سورة الأنعام:

يتنوَّع الأسلوب القرآني تنوُّعاً عجيباً في كثير من المواضع، وهو خاصيَّة من خصائصه الأسلوبيَّة؛ لتحقيق مقاصده المتنوِّعة، وذلك ما أشار إليه إسماعيل فاروقي، عند حديثه عن الخاصيَّة الثامنة من خصائص القرآن الكريم، إذ ذكر أنَّ التركيب القرآني ليست له بنية بالمعنى المألوف للكلمة[(1)]، فهو يشتمل على زمن الحاضر، والماضي، والمستقبل والأمر في مقطع واحد، بمعنى أنّه يتحرّك من الأسلوب الإخباري (ضمير المفرد الغائب) إلى الأسلوب الخطابي (ضمير المفرد المخاطب) ويتحرَّك أيضاً من الأسلوب الوصفي إلى الأسلوب التقريري، ومن الأسلوب الاستفهامي إلى الأسلوب التعجُّبي، وهو يرى أنَّه (أسلوب تكراري) ومع ذلك في كل إعادة هناك معان مختلفة[(2)].

---

(1) يعني بذلك أنَّه ليس هناك طريقة مطَّردة، تجدها في كلِّ مكان، وإنما يتنوَّع أسلوبه تنوُّعاً.

The Cultural of Islam, Ismail R. Alfaruqi, Page 733 - 734. (2)

إنَّ هذا التحليل يكشف لنا عن فهم عميق لما يتميَّز به القرآن الكريم من تنويع عجيب في أسلوبه البديع، وتنقُّلاته الفريدة بقصد تحقيق مقاصده المتنوِّعة، بيد أنَّني أخالفه الرأي فيما ذهب إليه من أنَّه (أسلوب تكراري) بل هو تصريف للبيان القرآني المعجز، والذي نستدلّ عليه بقوله: «ومع ذلك في كل إعادة معان مختلفة» فهذه المعاني المختلفة التي يلاحظها من يتأمَّل أسلوب القرآن الكريم ومعانيه، يجدها تبيِّن جديداً لم يكن في غيرها، وإذا كان الأمر كذلك فلا وجه لوصفها بالتكرار.

ومما تجدر الإشارة إليه ـ ونحن نتحدَّث عن الأسلوب القرآني وتصريفاته المختلفة ـ أنَّ بعض الباحثين، ممّن لم يمعن النظر في فهم هذا الأسلوب، يصفه أحياناً بالتكرار، ومن ذلك أنَّ الباحث عبد الله يوسف علي، تحدّث عن أسلوب الوحي وأسلوب البشر في الكتابة، مبرزاً ما يتميّز به القرآن الكريم عن الكتب المصنَّفة والمبوَّبة بمعنى أنَّه لم يكن مقسَّماً إلى أبواب وفصول.

إن ما ذكره من فروق بين الكتاب العزيز، وبين غيره من الكتب المبوَّبة في موضوعات معيَّنة، لا اعتراض لنا عليه، وإنّما اعتراضنا عليه في نقطتين الأولى فيما ذهب إليه من وصف القرآن الكريم بعدم الانسجام، حين قال: «إن الكتب التي ندرسها عامَّةً، نجد أنَّ جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه، بأسلوب تأليفي وبصورة منسجمة»[1].

إنَّ الأمر بخلاف ذلك، فآيات القرآن الكريم منسجمة تمام الانسجام، متماسكة مترابطة بعضها ببعض وهو ما بيَّناه في فصل بناء الآيات[2].

وأمّا الاعتراض الثاني فيما وصفه به من التكرار حين قال: «فيجد أسلوباً لم يألفه قبل، إذ إنَّه يرى فيه المسائل العقائديَّة والتعاليم الخلقيَّة، والأحكام الشرعيّة، والدعوة والنصيحة، والعبرة والنقد، والزجر والتخويف والترغيب، والحجج

---

(1) قرآن مجيد ص 5.

(2) يراجع فصل بناء الآيات.

والشواهد، والقصص التاريخية، والإشارات إلى آيات اللّـه في الكون كلُّ ذلك يتكرَّر بيانه بين حين وحين، ويبدأ ويعاد بوجوه متباينة وأساليب منوَّعة، كما أنَّه بينما يطرق موضوعاً فإذا به يوليّ وجهه شطر موضوع ثان وثالث، بل يكون الأمر أغرب من ذلك، حين يبدأ موضوعاً ثم يتخللّه موضوع آخر بغتة، كما يتبدَّل المخاطب والمتكلِّم بين حين وآخر، وتتَّجه وجهة المحاورة إلى جهات مختلفة مرة بعد أخرى»[1].

ومن ثمَّ نستطيع القول: إن ما ذكره هذا الباحث هو تصريف للقول، وليس التكرار الذي ذهب إليه، ذلك أنَّ التكرار يكون متَّفقاً في المعاني والأساليب، وليس له وجوه متباينة، وأساليب متنوِّعة.

إنَّه بهذا التحليل لم يهتد إلى المصطلح المناسب الذي كان عليه أن يُرجِعَ إليه هذا التنويع، وهذا التباين، الذي هو التصريف البديع، والتفنُّن العجيب، الذي اختص به الأسلوب القرآني المعجز، ذلك أنَّ الانتقال بين هذه الأساليب ودلالاتها المعنويَّة، دقيق إلى أبعد حدود الدقَّة، وهو انتقال تمّ بين الاتِّساق في التعبير، والاتِّساق في المعاني التي يحقِّقها ذلك التعبير.

ولا عجب في ذلك فهي روعة النظم القرآني وعظمته التي ميَّزته عن غيره من الأساليب النثرية والشعرية.

إنَّ الذي ينبغي أن أشير إليه في هذا الصدد أنَّ المعنى ـ كما قيل ـ هو الذي يحدِّد نوع اللفظ في كلّ النصوص العالية، ذلك أنّ الألفاظ في القرآن الكريم نزلت من لدن القدرة الإلهية معبّرة عن معانيها الدقيقة، بمعنى أنه إذا وردت مادَّة بصيغتين أو أكثر فليس ذلك فراراً من التكرار، وإنما يحدث لأن كل صيغة تُعبِّر عن معنى لا تُعبِّر عنه الصيغة الأخرى. مهما تقاربتا.

وعلى هذا ـ مع فارق المقارنة ـ فالبلغاء كلما علت أساليبهم فإنَّهم لا ينتقلون من صيغة إلى أخرى خشية التكرار، وإنَّما ينتقلون إذا انتقلوا لطروء جديد على المعنى

---

(1) قرآن مجيد ص 5.

لم يكن فيه عندما استعملوا الصيغة الأولى، وبقدر ما يخلُّ البليغ بهذه القاعدة بقدر ما يكون ذلك نقصاناً في بلاغته[1].

وقد أوضح هذا الانتقال الأسلوبي في القرآن الكريم، وتفنُّنُهُ الرائع في المعنى الواحد، صاحب «الصُّورة الأدبية في القرآن الكريم» إذ قال: «وكما أنَّ الأسلوب القرآني في تصويره ينتقل من معنى إلى معنى بهذا التفنُّن الرائع، فإنَّ هذا الانتقال قد يكون في المعنى الواحد بين الإنشاء والإخبار، والإظهار والإضمار، والمضيّ والحضور، والاستقبال والتكلُّم، والغيبة والخطاب، إلى غير ذلك من طرق الأداء، مما يطلق عليه العلماء اسم الالتفات، وهو الخروج من صيغة إلى أخرى لفوائد منها، تْطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال، لما جبِلت عليه النفوس من حبّ التنقُّلات، والسلامة من الاستمرار على منوال واحد، هذا من جهة فائدته، ويختصُّ بعد ذلك كلُّ موضوع بنُكت ولطائف باختلاف محلّه، وبخصوصية بلاغية دعت إليه، كالتعظيم أو التحقير أو التوكيد أو الإيضاح إلى غير ذلك»[2].

إن هذا التنوُّع في الأسلوب الدالِّ على إثبات النبوَّة والرسالة هو ما سنتحدّث عنه في المطلب اللاَّحق.

إنَّ المتأمِّل في أساليب إثبات النبوَّة والرسالة في سورة الأنعام يجدها قد تنوَّعت تنوعاً عجيباً، مظهرةً بذلك إعجاز القرآن الكريم وبلاغته من خلال تلك التنقُّلات البديعة من أسلوب إلى آخر حسب مقتضيات الأحوال، وما تحقِّقه هذه الأساليب من مقاصد متنوِّعة، ذلك أن معاني النبوَّة والرسالة في هذه السورة قد بدأت بالأسلوب الإخباريّ المؤكِّد الدالِّ على العموم لتأكيد حال المكذِّبين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[3].

---

(1) سرّ الإعجاز ص 118 ـ 119 بتصرف.

(2) الصُّورة الأدبية في القرآن الكريم ص 177.

(3) الأنعام 4.

وفـي الآيـة الموالية لـها أيضاً أسلوب إخباري مؤكّـد فـي قولـه تعـالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾[1].

وقد جمع في هذه الآية بين الزمن الماضي والمستقبل عندما قال: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

ثمّ انتقل إلى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾[2].

ثمّ أنتقل إلى أسلوب الشرط في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

ثمّ بعد ذلك ينتقل إلى الأسلوب الإخباريّ ويدمج فيه الأسلوب الشرطيّ في قولـه تعـالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾[4].

وهذا الأسلوب معدود من محسِّنات الوصل، وهو إيراد أحد الجملتين على الإطلاق، وفي الأخرى التقييد بفعل الشرط، فالمعطوف عليه جملة قالوا هي مطلقة، والمعطوف جملة ﴿ لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وهي مقيَّدة بفعل الشرط ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ لأن الشرط مقيِّدٌ للجواب[5].

ثمّ انتقل إلى الأسلوب الشرطيِّ في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[6].

---

(1) الأنعام 5.
(2) نفسها 6.
(3) نفسها 7.
(4) نفسها 8.
(5) انظر معجم البلاغة العربية 2/ 952 (باب الواو).
(6) الأنعام 9.

ثمَّ ينتقل إلى الأسلوب الإخباري التقريري، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

ثمَّ ينتقل إلى أسلوب الأمر ويدمج فيه الأسلوب الاستفهاميّ المبيِّن لحال المكذِّبين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[2].

ثمَّ ينتقل إلى الأسلوب الاستفهاميّ المراد منه تبكيت المكذِّبين، مقروناً به الأمر التقريريّ والقسم المراد به الوعيد في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

ذكر المفسِّرون أنَّ هذا سؤال تبكيت وتقرير على أنَّه المتعيِّن للجواب بالاتفاق، بحيث لا يتأتّى لأحد أن يجيب بغيره[4].

وقد حلَّل المراغي هذه الآية تحليلاً قيِّماً، مستخدماً في ذلك ذوقه الجمالي ومتلمِّساً أسرار البيان القرآني، إذ قال: «ثمَّ ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة - يعني التوحيد، والبعث والجزاء، ورسالة محمَّد ﷺ - بأسلوب آخر: أسلوب السؤال والجواب، بهرهم فيه بالحجَّة، ودلَّهم على واضح المحجَّة، تفنُّناً في الحجاج في المواضع الهامَّة، فإنَّ الأدلَّة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها في النفس قبولٌ أيَّما قبول، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم وجعلته ينْشط لسماع ما يلقى إليه، فهو إذا لم يعقل الدليل الأوَّل أو عمِّي عليه أسلوبه رأى في الدليل الثاني ما ينير له طريق المطلوب، أو رأى في الأسلوب الثاني ما يكفيه

(1) الأنعام 10.

(2) نفسها 11.

(3) نفسها 12.

(4) تفسير البيضاوي 2/ 7 وإرشاد العقل السليم 3/ 115، وفي ظلال القرآن 2/ 1048.

مؤونة البحث في الدليل الأوّل فهو في غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت أو يلجأ إلى غائب، ومن ثمَّ نرى الخطباء المفلقين والعلماء المبرّزين ينوّعون أساليب حجاجهم ويكثرون البراهين على المطلوب الواحد؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإقناع وأقرب إلى الاقتناع»[1].

نحمد له هذا التحليل الوجيه، الذي يبيِّن سرَّ الانتقال في الأسلوب القرآني بين المعاني المختلفة، موضِّحاً بذلك بلاغة التصريف القرآني وسرَّ إعجازه الذي لا نظير له في أسلوبه ومعانيه.

ثمَّ ينتقل إلى الإخبار في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2].

ثم نجده ينتقل في آية واحدة إلى عدَّة أساليب من الأمر إلى الاستفهام الإنكاريّ، فالأسلوب الخبريّ، فالأمر، فالأسلوب الإخباريّ المؤكّد مرة ثانية، فالنهي عن الشرك بالله ـ تعالى ـ وذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]. وهكذا فإنَّ هذا الانتقال العجيب والتفنُّن الدقيق من أسلوب إلى آخر، الذي ينفرد به القرآن الكريم عن غيره من ألوان الكلام، ما يؤكِّد أن للكلام القرآني من جلال الوصف وعظيم الحال، ما هو مظهر من مظاهر إعجازه وسرّ من أسرار بلاغته.

ثمَّ يجمع بين الأمر والإخبار المؤكِّد إنكار الرسول ـ ﷺ ـ في وجه المشركين، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[4].

---

(1) تفسري المراغي 7/ 85.
(2) الأنعام 13.
(3) آية 14.
(4) آية 15.

ثمَّ ينتقل إلى الأسلوب الشرطي، فيعطف ثلاثة أساليب شرطيَّة بعضها على بعض في قوله تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ثمَّ ينتقل إلى الأسلوب الخبريّ، تصويراً لقهر اللّه - تعالى - وعلوّه بالغلبة والقدرة[2] في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[3].

ثمَّ انتقل إلى الأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - فالأسلوب الاستفهاميّ التقريريّ، فالأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - بأنْ يتولىَّ الجواب بنفسه إمَّا للإيذان بتعيينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره أو لأنهَّم ربَّما يتلعثمون فيه لا لتردّدهم في أنه أكبر من كلِّ شيء بل في كونه شهيداً في هذا الشأن[4].

ثمَّ عطف عليه الأسلوب الخبريَّ المبيِّن للوحي القرآني، ولمهمَّة هذا الوحي.

ثمَّ عطف عليه الأسلوب الاستفهاميّ التقريري مع إنكار واستبعاد[5] ثم عطف عليه كذلك الأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - أن لا يشهد أنَّ مع الله آلهة أخرى، بل إنَّما يشهد بأن الله - تعالى - إله واحد لا إله إلاّ هو وأن يتبَّرأ من إشراكهم به - تعالى - وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[6].

والذي نريد أن نقف عنده في هذه الآية، أنَّه ليس هناك تكرار كما رآه أبو السعود حين قال: «إنَّ تكرير البين في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾

---

(1) الأنعام 16 - 17.

(2) انظر الكشاف 2/ 9، وتفسير البيضاوي 2/ 9، وإرشاد العقل السليم 3/ 117.

(3) الأنعام 18.

(4) إرشاد العقل السليم 3/ 118.

(5) تفسير البيضاوي 2/ 10، وإرشاد العقل السليم 3/ 118، والكشاف 2/ 10.

(6) الأنعام 19.

لتحقيق المقابلة»[1]. وذلك لاختلاف الضمائر وعودها، فالضمير الأوّل خاصٌّ بالرسول وعائد عليه، وأمّا الثاني فهو خاصّ بالمشركين وعائد عليهم، فلا وجه للتكرار في ذلك.

وكذلك فيما رآه من تكرير ﴿ قُلِ ﴾ حين قال: «قل: تكرير للأمر للتأكيد»[2].

فلا تكرار في ذلك؛ لأنه ورد في كل مرة دالّاً على معنى من المعاني، أي أنّ المعنى الأوّل غير الثاني، والثاني غير الثالث.

ومن ثمّ نستطيع القول: إنّه لا تكرار في المعاني ولا في الأساليب، الوارد في سياقها لفظ ﴿ قُلِ ﴾.

ولنرجع إلى تنوُّع أساليب هذه السورة، إذ انتقل الأسلوب إلى الإخبار فجاء جواباً عمّا سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، أخر عن تعيين الشهيد مسارعة إلى إلزامهم بالجواب عن تحكمُّهم، وذلك ما أشار إليه أبو السعود[3] عند توجيه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾[4].

ثمّ انتقل إلى الاستفهام المراد منه الإنكار والاستبعاد، مقروناً به الأسلوب الإخباريّ المؤكّد لعدم فلاح الظالمين، في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5].

ونجد أنّ آيات المقطع الثاني قد بدأت بالأسلوب الإخباريّ المؤكّد لعلم اللّه - تعالى -، عمّا يلاقيه الرسول - ﷺ - من إصرار الكفار على التكذيب والمبالغة فيه، ثم يدمج فيه أسلوب النفي فالاستدراك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[6].

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 118.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) الأنعام 20.

(5) آية 21.

(6) آية 33.

ذهب أبو السعود إلى أنَّ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته - تعالى - وإيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأنَّ آياته - تعالى - من الوضوح بحيث يشاهد صدقَها كلُّ أحد، وأنّ من ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم[1].

ثمَّ عطف عليه أسلوب القسم الذي صدّر به الكلام، مقروناً به الأسلوب الإخباريّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾[2].

فالاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو مقرّر لما قبله من إتيان نصره إيّاهم[3] ثمّ أدمج فيه الأسلوب القسميَّ المؤكِّد وعد الله لرسوله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

أشار أبو السعود إلى أنَّ «تصدير الكلام بالقسم في هذه الآية لتأكيد التسلية، وتنوين رسل للتفخيم والتكثير»[4].

ثمّ انتقل إلى الأسلوب الشرطيِّ المؤكِّد لإيجاب الصبر المستفاد من التسلية مقروناً بأسلوب النهي الموجَّه للرسول - ﷺ - عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلام الكفرة، والميل إلى إتيان ما يقترحونه من الآيات طمعاً في إيمانهم[5] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ﴾[6].

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 127.
(2) الأنعام 34.
(3) إرشاد العقل السليم 3/ 128.
(4) نفسه ص 127.
(5) نفسه ص 129.
(6) الأنعام 35.

وأمّا آيات المقطع الثالث، فقد بدأت بالأسلوب الإخباريّ، مقروناً به الأسلوب الشرطيّ، فأسلوب النفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1].

قال أبو السعود: «كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق وتحقيق ما في عهدة الرسل - عليهم السلام - وإظهار ما يقترحه الكفرة عليه - عليه السلام - ليس مما يتعلّق بالرسالة أصلاً، وصيغة المضارع لبيان أنّ ذلك أمر مستمرّ جرت عليه العادة الإلهيّة»[2].

ثمّ عاد إلى الإخبار، المراد به الترغيب في الإيمان والتحذير من تكذيب المرسلين، جامعاً فيه بين الفعل الماضي والمضارع، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[3].

ثمّ انتقل إلى الأمر الموجّه للرسول - ﷺ - فالنفي المراد به تبرئتُه - ﷺ - عما يقترحونه عليه، فأسلوب القصر، فأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، فأسلوب الاستفهام المراد منه التقريع والتوبيخ. وذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

كما أنَّ في هذا الأسلوب مثل للضالّ والمهتدي، في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ وذلك لبيان المفارقة بينهما وتقريبها إلى الأذهان.

إنَّ هذا المثل قد وقف عنده المفسرّون، وبيّنوا أسراره، فهذا أبو السعود يقول: «مثل للضالّ والمهتدي على الإطلاق، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من

(1) الأنعام 48.
(2) إرشاد العقل السليم 3/ 135.
(3) الأنعام 49.
(4) نفسها 50.

الحقائق ومن يعلمها، وفيه من الإشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب في الاهتداء ما لا يخفى[1].

وقال البيضاوي: «مثل للضالِّ والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدَّعي المستحيل كالألوهيَّة والمَلَكيَّة، ومدَّعي المستقيم كالنبوَّة»[2].

ومن ثمَّ نستطيع القول: إنّ هذين التوجيهين لا تعارض بينهما، وإنما يؤازر أحدهما الآخر في بيان أسرار هذا المثل، الذي يظهر روعة البيان القرآني وجلاله.

ثمَّ انتقل الأسلوب إلى الأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - فالأسلوب التعليلي في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[3].

ثمَّ إلى النهي الموجَّه للرسول - ﷺ - أيضاً، فالاعتراض في قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

قال البيضاويّ: «ورتَّبَ النهي عليه إشعاراً بأنَّه يقتضي إكرامهم وينافي إبعادهم»[5].

ثمَّ انتقل إلى الإشارة، فالتعليل، مقروناً به الاستفهام، المراد منه إنكار وقوع المنّ، فالاستفهام المراد منه تقرير علمه البالغ - سبحانه وتعالى - في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[6].

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 137.
(2) تفسير البيضاوي 2/ 19.
(3) الأنعام 51.
(4) آية 52.
(5) تفسيره 2/ 19.
(6) الأنعام 53.

ثمَّ انتقل إلى الأسلوب الشرطيّ، مقروناً به أسلوب الأمر، مدموجاً به الأسلوب الخبريّ المؤكِّد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ثمَّ عاد إلى الأسلوب الإشاريّ مرَّة ثانية، مقروناً به الأسلوب التعليليّ، وهو يختلف عنه في المرَّة الأولى، إذ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2].

وهذا الأسلوب يكثر وروده في القرآن الكريم، وهو بدء الجملة بلفظ الإشارة ثمَّ زيادة الواو قبل التعليل، كما حدث في الآية السابقة[3].

ثمّ انتقل إلى الأمر، فالأسلوب الإخباري المؤكِّد، فالنهي، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[4].

قال البيضاويّ: «تأكيد لقطع أطماعهم، وإشارة إلى الموجب للنهي وعلَّة الامتناع عن متابعتهم واستجهال لهم، وبيان لمبدأ ضلالهم، وأنَّ ما هم عليه هوى وليس بهدى وتنبيه لمن تحرَّى الحقّ على أن يتّبع الحجة ولا يقلدِّ»[5].

ثمَّ يعود إلى الأمر، فالأسلوب الخبريّ المؤكدِّ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[6].

---

(1) الأنعام 54.

(2) نفسها 55.

(3) انظر البيان في روائع القرآن ص 174.

(4) الأنعام 56.

(5) تفسيره 2/ 21.

(6) الأنعام 57.

وأمَّا المقطع الرابع: فقد بدأت آياته بنفي معرفتهم للّه تعالى ـ حقَّ معرفته في الرحمة والإنعام على العباد، فالأسلوب الإخباري المبيِّن إنكار المشركين لبعثة الرسل وإنزال الكتاب، فأسلوب الأمر، مدموجاً به الاستفهام التقريري، ثمَّ الأمر الموجَّه للرسول ـ ﷺ ـ أن يجيب على هذا السؤال على طريقة التبكيت وإلقام الحجر[1].

إذ قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[2].

قال الزمخشريُّ: «وإنَّما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ـ ﷺ ـ فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ وأدرج تحت الإلزام توبيخهم، وإن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم، وإبداء بعض وإخفاء بعض»[3].

وتبعه أبو السعود إذ قال: «فالنفي بمعناه الحقيقي، والقائلون هم اليهود، وقد قالوه مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ـ ﷺ ـ فألزموا بما لا سبيل لهم إلى إنكاره أصلاً»[4].

ثمَّ أشير إلى القرآن الكريم، وذكر صفاته، ثمّ إلى الأسلوب التعليليّ في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[5].

ثمَّ انتقل إلى الاستفهام التعجُّبيّ، فالنفي، فالشرط المبيِّن حال الظالمين وهم في غمرات الموت، فالوعيد المبيِّن لجزائهم بسبب تكذيبهم بآيات اللّه واستكبارهم عنها فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ

---

(1) انظر إرشاد العقل السليم 3/ 161.

(2) الأنعام 91.

(3) الكشاف 2/ 34.

(4) إرشاد العقل السليم 3/ 161.

(5) الأنعام 92.

تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1] .

يتّضح لنا مما سبق أنَّ الأسلوب القرآني يتصرَّف بطرائق شتَّى ؛ ليحقِّق مقاصد القرآن العالية ، المتنوِّعة في روعة وانسجام ، ذلك أنَّ الانتقال العجيب في هذه الأساليب من نوع إلى آخر ، لا يخفى وجه تأثيره في روعة الكلام ، وتحقيق المقاصد ، وبالتالي تأثيره على المخاطبين ، ممَّا لا يدع مجالاً للشكِّ أنَّ هذا الانتقال الرائع ، ما كان إلاّ استجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني التي تتعاقب أثناء الكلام .

إنَّ هذا الانتقال سواء كان في الأساليب أو في المعاني ـ هو مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، وسرٌّ من أسرار بلاغته .

المثال الثاني: تنوُّع المعاني والأساليب الدالَّة على النبوّة والرسالة في سورة يونس:

نجد أنَّ القرآن الكريم يصرِّف إثبات النبوَّة والرسالة في سورة يونس بطريقة تختلف عمَّا عُرض في غيرها ، فيما تضمَّنته من معان وأساليب تثبت نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ وصدق رسالته ، وهو ما ستبيِّنه هذه الدراسة ، والتي سنتحدَّث فيها عن أمرين ، أوَّلهما : تنوُّع المعاني ، وثانيهما تنوُّع الأساليب المحقِّقة لتلك المعاني .

أولاً: تنوَّع المعاني الدالَّة على النبوَّة والرسالة في سورة يونس:

إنَّ المتأمِّل في هذه السورة يظهر له أنَّ في هذه المعاني تصريفاً للقول ، يبيّنه التنويع في ذكر الدلائل المثبتة نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ ورسالته فمن ذلك ما بيَّنه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ هؤلاء الكافرين إذا تُليت عليهم آيات الله الواضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار ، فإنَّهم يطلبون الإتيان بقرآن غير هذا الذي أنزله على محمد ـ ﷺ ـ أو يبدّله ، إذ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[2] .

---

(1) الأنعام 93 .

(2) يونس 15 .

ثمَّ ينتقل الخطاب من بيان قبائح أعمال الكافرين إلى أمر الرسول - ﷺ - أن ينفي عن نفسه تبديل القرآن، وفي ذلك حجَّة عليهم أنَّه من عند الله، وأنَّ الرسول - ﷺ - متّبع للوحي ومتقيّد بما يوحى إليه، لا يزيد ولا ينقص شيئاً، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

ذكر ابن عطيَّة، أنَّ هذه الآية نزلت في قريش؛ لأنَّ بعض كفَّارهم قال هذه المقالة على معنى ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قبلك على اختيارنا وأحلَّ ما حرَّمَته، وحرِّم ما حللته؛ ليكون أمرنا حينئذ واحداً، وكلمتنا متَّصلة، فذمّ الله هذه الصنعة، وذكَّرهم بأنَّهم يقولون هذا للآيات البيّنات، ووصفهم بأنَّهم لا يؤمنون بالبعث، ثم أمر الله نبيّه - عليه السلام - أن يردَّ عليهم بالحقِّ الواضح، كما أنّ في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾[2]. كمال الحجّة، أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، وإنَّما هو من عند الله، ولو شاء ما بعثني به ولا تلوته عليكم، ولا أعلمتكم به[3].

وهو «تحقيق لحقيقة القرآن وكونه من عند الله - تعالى - إثر بيان بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته عبارة ودلالة، وإنَّما صدر بالأمر المستقل مع كونه داخلاً تحت الأمر السابق، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيذاناً باستقلاله مفهوماً وأسلوباً، فإنَّه برهان دالٌّ على كونه بأمر الله - تعالى - ومشيئته»[4].

يتَّضح لنا من هذين التوجيهين، أنَّه لا تعارض بينهما، وإنَّما يكمل أحدهما الآخر، في بيان ما اشتملت عليه الآيتان الكريمتان من حجج واضحة، على صدق نبوَّة محمَّد - ﷺ - وإثبات رسالته.

---

(1) يونس 15.

(2) نفسها 16.

(3) المحرر الوجيز 3/ 110.

(4) إرشاد العقل السليم 4/ 129.

ونجد أنَّ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾[1]. دليلاً جديداً على صحَّة النبوَّة والرسالة، وهو أيضاً حجَّة على كفَّار قريش.

وقد فصَّل أبو السعود هذا الدّليل تفصيلاً يدلُّ على عمق فهمه وسعة إطّلاعه إذ قال: «تعليلاً للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئته - تعالى - وأمره حسبما بيَّن آنفاً، لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته - ﷺ - فيما سبق بسبب مشيئته - تعالى - إيّاه، بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه - ﷺ - في تلك المدّة الطويلة من الأمور الدالّة على استحالة كون التلاوة من جهته - ﷺ - بلا وحي.

والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهراً مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالي طرّاً، وتحيطون بما لديَّ خبراً من قبل نزول القرآن الكريم، لا أتعاطى شيئاً مما يتعلَّق به لا من حيث نظمه المعجز، ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع»[2].

ونجده في موضع آخر من هذه السورة يثبت نبوَّة محمَّد - ﷺ - ورسالته بالتحدِّي بالقرآن الكريم؛ لأن فيه دلّيلاً على صدق النبوّة والرسالة، فيقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟

(1) الآية السابقة.

(2) إرشاد العقل السليم 4/ 130.

﴿لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وهكذا فإنَّ إثبات النبوَّة والرسالة يختلف في كل مرة عما ذُكر في غيره من السور التي ورد فيها، من حيث الدلالات والأساليب، إذ نجد في كلِّ مرَّة أنَّ إثباتها مرتبط ارتباطاً عضويّاً بسياقها الواردة فيه، ففي الآيات الكريمة ينفي المولى - عزَّ وجلَّ - افتراء القرآن - كما يدَّعون - ويتحدَّاهم ليثبت عجزهم وصدق القرآن الكريم، الذي هو صدق الرسول - ﷺ - فيقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال أبو حيَّان: «لَمَّا نفى - تعالى - أن يكون القرآن مفترىً، بل جاء مصدِّقاً لما بين يديه من الكتب، وبياناً لما فيها، ذكر أعظم دلّيل على أنَّه من عند الله، وهو الإعجاز الذي اشتمل عليه، فأبطل بذلك دعواهم افتراءه»[2].

والجدير بالإشارة إليه في هذا المقام، أنَّ التحدِّي بالقرآن الكريم ورد في غير ما آية، قد ذكرناها في حديثنا عن مكانة النبوَّة والرسالة في القرآن الكريم وهي تختلف في كلِّ مرَّة عمَّا في غيرها، معنىً وأسلوباً، تبعاً لمقتضيات الأحوال، ومناسبات النزول، كما أنَّ في هذا التحدِّي تدلِّياً من الصعب إلى السهل، ذلك أنَّ هذه الآيات تدرَّجت معهم من الصعب إلى السهل في كلِّ مرَّة، تمشِّياً مع المواقف التي وقع فيها التحدِّي، وهو تصريف للبيان القرآني بطرائق وأساليب مختلفة؛ لأنَّ هذا التصريف وجه من وجوه إعجازه وسرٌّ من أسرار بلاغته.

وقد أوضح هذا التدلِّي صاحب تفسير «التحرير والتنوير» إذ قال: «وقد كان التحدِّي بالإتيان بكتاب مثل ما نزل منه، ففي سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

---

(1) يونس 37 - 44.

(2) البحر المحيط 5/ 159.

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

فلما عجزوا استنزلوا إلى الإتيان بعشر سور مثله في سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2]. ثم استنزلوا إلى الإتيان بسورة مثله في سورة يونس[3].

وكذلك في سورة البقرة بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[4].

إنَّ الذي نلحظه في هذه الآيات الكريمة أنَّ التحدِّي بالقرآن الكريم كاملاً، ختم بقوله ﴿ ظَهِيرًا ﴾ وعند التحدِّي بعشر سور، وبسورة في كل من سورة يونس والبقرة بقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فما سرُّ ذلك؟

---

(1) آية 88.

(2) آية 13.

(3) التحرير والتنوير 1/ 337، يعني بذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (آية 38).

يرى صاحب تفسير «المنار» أنَّ أوَّل ما نزل في هذا المعنى آية سورة الإسراء، ثمَّ نزل بعدها آية سورة يونس، ثمَّ آية سورة هود. ويقول: «إنَّ هذه السور الثلاث نزلت بمكَّة متتابعات كما رواه العلماء بهذا الشأن، ولكن في رواية عن ابن عبَّاس أنَّ سورة يونس مدنيَّة، والرواية الأخرى هي الموافقة لقول الجمهور، ولأسلوبها فإنه أسلوب السور المكيَّة» ثمَّ نقل الترتيب الذي اختاره العلاَّمة محمَّد بن عاشور، عن بعض علماء الكلام، وتعقَّبه بقوله: «وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول والظاهر أن التحدِّي في سورتي يونس وهود خاصٌّ ببعض أنواع الإعجاز وهو ما يتعلق بالإخبار... وعلَّل وجه التحدِّي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو إرادة نوع خاصٍّ من أنواع الإعجاز، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعدِّدة متساوية في البلاغة.

فعلم من هذا التفصيل أن التحدِّي بإعجاز القرآن لذاته في جملته والتحدِّي ببعض أنواع إعجازه في عشر سور مثله وبسورة مثله، كلاهما ثابت في السور المكيَّة قبل نزول آية البقرة وسورتها بعد الهجرة في المدينة المنورَّة (تفسير المنار 1/ 192 ـ 194). وانظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص 66 وما بعدها.

(4) آية 23.

أقول - والله أعلم : - إنَّ هذه دقيقة من دقائق البيان القرآني ؛ لأن الختم يكون موافقاً ومكملاً لمعنى ما ختم به ، ذلك لأنَّ التحدِّي أولاً أتى للإنس والجنّ ، فناسبه أن يختم بذلك ؛ لأنه غير ممكن لهم حتى ولو كان بعضهم لبعض نصيراً .

وأمَّا فيما ختم به الآيات الأخر ففيه تكذيب لهم ، وتحدٍّ ما بعدَهُ تحدّ ، وإعجاز ما بعدَهُ إعجاز ، وفيه أيضاً بيان بأن الّذي يدعي دعوة لابد أن يكون صادقاً فيها ، بحيث يأتي بما طُلب منه ، بعكس ما حصل من هؤلاء المفترين ، فناسبه أن يأتي بذلك تحدِّياً لهم ، وبياناً لعجزهم وتوبيخاً لهم .

وقد بيَّن التنزيل في هذه السورة أنّهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولا غرابة في ذلك ، فهذه سنَّة مطَّردة في الّذين من قبلهم ، فقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(1) .

ويبيِّن القرآن الكريم ، أنَّ هؤلاء فريقان ، منهم من يؤمن بالقرآن ، ومنهم من لا يؤمن به ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالمفسدين ، فيقول - عزَّ وجلَّ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(2) .

ثم يعود البيان ليرسم الخطَّة التي يجب أن يسير عليها الرسول - ﷺ - ، لمواجهة هؤلاء المكذِّبين ، بعد إلزامهم الحجَّة بالتحدِّي ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(3) .

ويستمرُّ السياق مثبتاً النبوَّة والرسالة بدليلين قاطعين ، أولهما : الاستماع إلى النبيّ - ﷺ - عند قراءته للقرآن الكريم ، الذي أعجزهم وقد اعترفوا بالروعة والبيان .

وثانيهما : النظر إلى دلائل النبوَّة ومعاينتها ، مما لا سبيل لهم إلى إنكاره إلاّ عناداً وتكبُّراً ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ

---

(1) يونس 39 .

(2) نفسها 40 .

(3) نفسها 41 .

كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ۝ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾[1].

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ المعاني الدالَّة على إثبات النبوَّة وصدق الرسالة قد تنوَّعت في هذه السورة بطرائق شتَّى، تختلف عمَّا في غيرها من السور الأخرى؛ لأنها عرضت بأساليب مختلفة غاية في الروعة والبيان، وهو ما ستبيِّنه الدراسة اللاحقة.

ثانياً: تنوُّع الأساليب الدالَّة على النبوَّة والرسالة في سورة يونس:

بدأت آيات المقطع الأوَّل بأسلوب الالتفات من خطاب الكافرين إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً للخطاب إلى الرسول ـ ﷺ ـ بتعديد جناياتهم لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول، والكفر بالآيات البيِّنات وغير ذلك[2] إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا ﴾ الآية.

ثمَّ انتقل إلى أسلوب المقاولات والمحاورات، مدموجاً به الأسلوب الإخباريّ الذي يبيِّن حال المكذِّبين واقتراحاتهم الباطلة، كيداً وطمعاً واستهزاء به، فالأمر الموجَّه للرسول ـ ﷺ ـ أن يجيب بنفي طلبهم واقتراحاتهم حول القرآن الكريم، فأسلوب القصر الذي قصر حاله ـ ﷺ ـ على اتّباع الوحي، فالأسلوب الإخباريّ المؤكِّد خوف الرسول عصيان ربّه، وخوفه أيضاً من عذاب يوم القيامة، إذ يقول: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ ﴾ الآية.

وقد ذكر أبو السعود أنَّ في هذه الآية «تعليلاً لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره ـ ﷺ ـ على اتّباع الوحي، أي أخاف إن عصيته ـ تعالى ـ بتعاطي ما ليس لي من التبديل من تلقاء نفسي والإعراض عن اتّباع الوحي عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، أو يوم اللقاء الذي لا يرجونه، وفيه إشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح،

---

(1) يونس 42، 43.

(2) إرشاد العقل السليم 4/ 128، وفتح البيان في مقاصد القرآن 4/ 241.

والتعرُّض لعنوان الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضميره ـ ﷺ ـ لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته ـ ﷺ ـ عنه وإيراد اليوم بالتنوين التفخيميّ ووصفه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والإتيان بقرآن آخر من جهة الوحي»[1].

ثمَّ انتقل إلى أسلوب الأمر الموجَّه للرسول ـ ﷺ ـ أن يبيِّن حقيقة القرآن وكونه من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فالأسلوب الإخباريّ الذي يؤكِّد معرفتهم للرسول ـ ﷺ ـ وصدقه فيما بينهم، فالاستفهام الإنكاريّ التعجُّبيّ إذ قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

وقد علَّل صاحب «البيان في روائع القرآن»: استعمال ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم ﴾ بدلاً من (وما أدراكم) لاتِّقاء التباس النفي بالتعجُّب، إذ الموقف، موقف رفض الانصياع للإغواء[3]. ثمَّ انتقل إلى الاستفهام الإنكاريّ، فالخبر المؤكِّد عدم فلاح المجرمين، والمراد به المفتري والمكذِّب بآيات الله تعالى، إذ قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4].

ثمَّ عطف عليه أسلوباً إخباريّاً آخر، مبيِّناً حال المشركين، فأسلوب النفي، فأسلوب المقاولات والمحاورات مدموجاً به الأسلوب الاستفهاميّ المراد به التبكيت والتقريع والتهكُّم، فأسلوب التنزيه الذي ينزِّه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عمَّا يشركون به غيره، إذ يقول: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5].

---

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 129.
(2) يونس 16.
(3) البيان في روائع القرآن ص 181.
(4) يونس 17.
(5) نفسها 18.

وعبَّر بالمضارع في قوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار[1].

ثمَّ انتقل إلى أسلوب النفي، فأسلوب الاستثناء، فأسلوب الشرط، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾[2]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى أسلوب المحاورات في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[3]. الآية.

وأمَّا آيات المقطع الثاني فقد بدأت بنفي افتراء القرآن الكريم، فالاستدراك الذي يفيد شهادة الكتب السماويَّة بصدق القرآن الكريم، ثمَّ عاد إلى نفي الريب، عنه إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[4]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى الاستفهام الإنكاري[5] فالأمر المراد به التعجيز[6] تبكيتاً للمكذِّبين وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة[7] فالأسلوب الشرطي في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[8]. الآية.

ذكر صاحب «فتح البيان في مقاصد القرآن» أنَّ الاستفهام في هذه الآية للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجَّة.

ونقل عن أبي عبيدة: أنَّ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار والاستبعاد أي أنَّ هذا القول منهم في غاية البعد والشناعة[9].

---

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 133.
(2) نفسها 19.
(3) نفسها 20.
(4) نفسها 37.
(5) يرى صاحب الكشّاف: أنّ الهمزة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ تقرير لإلزام الحجَّة عليهم، وإنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان (الكشاف 2/ 237).
(6) «الأمر هنا للتعجيز، وهو من الأغراض التي تخرج إليها صيغ الأمر عن معناها الأصلي، إذ ليس المراد طلب إتيانهم بسورة مثله، لكونه محالاً» (معجم البلاغة العربيّة 2/ 517 باب العين).
(7) انظر إرشاد العقل السليم 4/ 146.
(8) يونس 38.
(9) فتح البيان في مقاصد القرآن 4/ 241.

ثمَّ انتقل إلى الإضراب الذي يفيد إظهار بطلان ما قالوه في حقِّ القرآن العظيم بالتحدِّي إلى إظهاره، ببيان أنَّه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل[1] فأسلوب التوقُّع على ما يراه صاحب الكشَّاف حين قال: «فإن قلت ما معنى التوقُّع في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ قلت: معناه أنهم كذَّبوا به على البديهة قبل التدبرُّ ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء، وكذَّبوه بعد التدبرُّ، تمرُّداً وعناداً فذمَّهم بالتسرُّع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقُّع ليؤذن أنَّهم علموا بعد علوِّ شأنه وإعجازه، لمَّا كرَّر عليهم التحدي، ورازوا قواهم في المعارضة، واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذَّبوا به بغياً وحسداً»[2].

وقال غيره: «فأضرب عن الكلام الأوَّل وانتقل إلى بيان أنَّهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبَّروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه... والمعنى أنَّ التكذيب وقع منهم قبل الإحاطة بعلمه»[3].

ثمَّ عطف عليه الأسلوب الوصفي المبيِّن لحال المكذِّبين، فالأمر المبيِّن عاقبة الظالمين، إذ يقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

ثمَّ انتقل إلى الأسلوب الوصفيِّ المبيِّن حال المكذِّبين، منوِّعاً إيَّاهم إلى مؤمن بالقرآن الكريم، وغير مؤمن به، مقروناً به أسلوب الوعيد، إذ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5].

ثمَّ انتقل إلى الأسلوب الشرطيِّ، فأسلوب الأمر، فالمقابلة بين العمل الصحيح، والعمل المخالف لشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا الأسلوب في رأينا هو

---

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 146.

(2) الكشاف 2/ 238.

(3) فتح البيان في مقاصد القرآن 4/ 268.

(4) يونس 39.

(5) نفسها 40.

أسلوب الإنصاف الذي جاء بعد إصرار الكافرين على التكذيب وإلزامهم الحجّة بالتحدّي إذ يقول تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقد سمّاه أبو السعود[2] أسلوب المتاركة والتوديع في قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[3].

ثمّ انتقل إلى الأسلوب الإخباريّ المبيِّن حال المكذِّبين، فالاستفهام الإنكاريّ الموجَّه للرسول - ﷺ - فأسلوب التقابل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

ثمّ نجده في الآية الموالية يوردها على النسق السابق، غير أنّ معانيها مختلفة إذ أوردها على سبيل التضادّ؛ الأمر الذي يبعد عنهما صفة التكرار، إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾[5].

ثمّ انتقل إلى الأسلوب الإخباريّ المؤكّد، الذي يفيد أنّ اللّه لا يظلم الناس شيئاً، فالاستدراك الذي يفيد أنّ الناس يظلمون أنفسهم بالتكذيب وعدم اتّباع شرع اللـه - تعالى -، إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[6].

يتّضح لنا ممّا سبق أنّ أسلوب إثبات النبوّة والرسالة، قد تنوّع في هذه السورة، كما تنوّع في غيرها من السور الأخرى التي عُرض فيها، غير أنّه يختلف في كلِّ مرّة عمّا في غيره من السور، بمعنى أنّ ما يعرض في هذا المقطع وغيره لا يسير على طريقة واحدة، بل يتنوّع حسب المقاصد التي يرمي إلى تحقيقها.

---

(1) يونس 41.
(2) إرشاد العقل السليم 7/ 9.
(3) القصص 55.
(4) يونس 42.
(5) نفسها 43.
(6) نفسها 44.

إنَّ هذا التنوُّع في الأساليب والمعاني، هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وسرٌّ من أسرار بلاغته.

المثال الثالث: تنوّع المعاني والأساليب الدالّة على النبوّة والرسالة في سورة الأنبياء:

نجد أنَّ القرآن الكريم يعرض إثبات النبوَّة والرسالة في سورة الأنبياء بطريقة جديدة في أسلوبها ومعانيها. وهو ما ستجلّيه هذه الدراسة والتي ستتحدَّث فيها عن المعاني ثمَّ الأساليب.

أولاً: تنوُّع المعاني الدالَّة على النبوَّة والرسالة في سورة الأنبياء:

إنَّ المتأمِّل في هذه السورة يجدها قد عرضت المعاني الدالَّة على النبوَّة والرسالة بطرائق تختلف عمَّا في غيرها، إذ جاءت في سياق الحديث عن غفلة الناس عن البعث والجزاء وإعراضهم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾[1]. فربطت بذلك بين ركنين أساسيين من أركان العقيدة في تلاحم متين وتماسك قويّ؛ لأنَّ ركن البعث والجزاء مرتبط معرفته بالرسالة والنبوَّة، وذلك عن طريق الوحي، مبيِّناً استهزاءهم وفي ذلك يقول: عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾[2].

وقد وصف القرآن الكريم المشركين في انصرافهم عن الإيمان بالبعث والجزاء، والنبوَّة والرسالة، بأنَّ قلوبهم ساهية عن كلام اللّه، غافلة عن تدبُّر معناه، مبيِّناً شبهة المشركين على الرسالة، إذ يقول: ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾[3].

ثمَّ ذكر حجَّة الرسول ـ ﷺ ـ ردّاً على هؤلاء المشركين والتي بيَّن فيها أنَّ اللّه، لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[4].

---

(1) الأنبياء 1.
(2) نفسها 2.
(3) نفسها 3.
(4) نفسها 4.

وجاء التعقيب بالصفتين العظيمتين (السّميع العليم) مناسباً لما أعقب به، فهو السميع لأقوالهم، والعليم بأحوالهم، وفي هذا التعقيب تهديد لهم ووعيد.

قال أبو حيَّان: «يعلم أقوالكم هذه ويجازيكم عليها، والقول عامٌّ يشمل السرَّ والجهر، فكان في الإخبار بعلمه (القول) علم السرّ وزيادة، وكان آكد في الإطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم سرّهم، ثمَّ بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ السميع لأقوالكم العليم بما انطوت عليه ضمائركم»[1].

ثمَّ عاد البيان فذكر اضطرابهم في مقالتهم الشنيعة، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[2].

«ولمّا ذكر اضطرابهم في مقالتهم، فذكر أنَّهم أضربوا عن نسبة السحر إليه، وقالوا ما يأتي به إنَّما هو أضغاث أحلام، أضربوا عن هذا فقالوا: ﴿ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي اختلقه وليس من عند الله، ثمَّ أضربوا عن هذا فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وهكذا المبطل لا يثبت على قول بل يبقى متحيِّراً، وهذه الأقوال الظاهر أنها صدرت من قائلين متّفقين انتقلوا من قول إلى قول، أو مختلفين قال كلٌّ منهم مقالة»[3].

قال الزمخشريّ: «ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله ـ تعالى ـ لأقوالهم في درج الفساد، وأنَّ قولهم الثاني أفسد من الأوَّل، والثالث أفسد من الثاني، وكذلك الرابع من الثالث»[4].

ثمَّ بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ سنَّته في إهلاك المكذِّبين، فقال تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

---

(1) البحر المحيط 6/ 276.
(2) الأنبياء 5.
(3) البحر المحيط 6/ 276.
(4) الكشاف 2/ 563.
(5) الأنبياء 6.

وهكذا فبعدما عرض البيان القرآني أوصاف المشركين وشبهاتهم على نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ ورسالته، عرض الأدلَّة الواضحة والبراهين الساطعة على إثبات رسالته إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾[1].

نوَّع القرآن الكريم في هذه الآيات أدلَّة إثبات الرسالة المحمديَّة، أولَّها: أثبت أن إرسال الرسل قبل محمَّد ـ ﷺ ـ كانوا رجالاً من البشر، ردّاً على إنكار المشركين لرسالة محمَّد ـ ﷺ ـ.

وثانياً: إثبات الوسيلة التي عن طريقها يتلقَّون الأوامر والنواهي الإلهيَّة، ألا وهي الوحي.

والدليل الثالث: سؤال العلماء بالتوراة والإنجيل لمعرفة ما إذا كان الرسل الّذين جاؤوا إليهم بشراً أم ملائكة؟ أم غير ذلك؟ والدليل الرابع: أنَّ اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ: لم يجعل هؤلاء الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة، بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ويموتون.

ثمَّ عقب هذه الأدلَّة بالتخويف لأهل مكَّة، لعلَّهم يرجعون عن عنادهم وضلالهم فقال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[2].

ثمَّ عاد البيان فأكَّد إنزال الكتاب العزيز، إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[3].

ثانياً: تنوُّع الأساليب الدالَّة على النبوَّة والرسالة في سورة الأنبياء:

بدأت الآيات الكريمة أسلوبها بالإخبار، فالأسلوب الوصفيّ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾[4]. وقد عبَّر بالماضي للدلالة على تحقُّق البعث والجزاء ووقوعه.

---

(1) الأنبياء 7، 8.

(2) نفسها 9.

(3) نفسها 10.

(4) نفسها 1.

ثمَّ انتقل السياق إلى أسلوب النفي، الذي يفيد عدم انتفاعهم بالقرآن الكريم، فالاستثناء الذي يفيد استماعهم للقرآن الكريم دون الاستفادة منه، إذ يقول: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1].

ثمَّ انتقل في الآية الثالثة إلى الأسلوب الوصفيّ، فالاستفهام الإنكاريّ في قوله: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[2].

ثمَّ انتقل إلى أسلوب الأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - فالاعتراض التذييليّ المقرّر لمضمون ما قبله، متضمّناً للوعيد[3]، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[4].

ذكر أبو السعود: أنَّ هذه الآية: «حكاية من جهته - تعالى - لما قاله - عليه السلام - بعدما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرِّهم وإيثار القول المنتظم للسرِّ والجهر على السرِّ لإثبات علمه - تعالى - بالسرِّ على النهج البرهاني مع ما فيه من الإيذان بأنَّ علمه، - تعالى - بالسرِّ والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعاً»[5].

ثمَّ انتقل إلى الإضراب عن قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب في مسالك البطلان[6].

ثمَّ توالى الإضراب شبهة فشبهة، فالتعجيز مدموجاً به التمثيل في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾[7].

---

(1) الأنبياء 2.
(2) آية 3.
(3) إرشاد العقل السليم 6/ 55.
(4) الأنبياء 4.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) نفسه.
(7) الأنبياء 5.

ثمَّ انتقل إلى الأسلوب الإخباريّ، مقروناً به الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

ثمَّ انتقل إلى النفي، الذي يفيد أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يرسل قبل محمَّد ـ ﷺ ـ إلاّ رجالاً، فالاستثناء، فالاستئناف المبيِّن لكيفيَّة الإرسال، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرَّة[2]، فالأمر الموجَّه إلى الكفرة، تلويناً للخطاب، ليسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدّمين، ليزيل عنهم الشبهة، وذلك لتبكيتهم[3] إذ يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4].

ثمَّ عاد إلى النفي الذي يفيد أنّ الرسل مثل أفراد جنسهم، يأكلون ويشربون، ثمَّ نفى عنهم الخلود في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾[5]، ثمَّ انتقل إلى الإخبار المؤكِّد صدق وعد الله لرسله، ونجاتهم وغيرهم ممَّن تستدعي الحكمة نجاتهم، مقروناً به التهديد والوعيد لأصحاب الكفر والمعاصي في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[6].

ثمَّ انتقل إلى التوكيد القسميّ إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمون القرآن الكريم وإيذاناً بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكير[7] فالاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ، الذي يبعث على التدبّر في أمر الكتاب والتأمُّل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ

---

(1) الأنبياء 6.
(2) إرشاد العقل السليم 6/ 56.
(3) انظر المرجع السابق ص 57، وتفسير البيضاوي 3/ 106.
(4) الأنبياء 7.
(5) آية 8.
(6) الأنبياء 9.
(7) إرشاد العقل السليم 6/ 58.

والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة[1] إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

المثال الرابع: تنوّع المعاني والأساليب الدالّة على النبوّة والرسالة في سورة الفرقان

عرض إثبات النبوَّة والرسالة في سورة الفرقان بطريقة جديدة تختلف عما في غيرها معنىً وأسلوباً، متضمِّنة ذكر شبهات المشركين والردّ عليها بما يبطلها، ذلك أنَّ لكلٍّ موضع سياقه ومعانيه التي يحقِّقها، وهو ما سنراه في هذا المثال.

أولاً: معاني إثبات النبوَّة والرسالة في سورة الفرقان:

ورد إثبات النبوَّة والرسالة في هذه السورة إثر إثبات التوحيد لله ـ سبحانه وتعالى ـ ونفي الشرك والوثنيَّة، وعرض الدلائل الدالَّة على وجوده وتفرُّده بالوحدانيَّة، ليدلَّ على الارتباط القويِّ بين هذين الركنين من أركان العقيدة الإسلامية، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[3].

ففي هذه الآيات الكريمة عرض افتراءات كفَّار قريش وشباتهم حول القرآن الكريم، وقد وردت شبهات أخرى في سورة الأنبياء ـ كما بيَّنا ـ وغيرها من السور، غير أنَّها تختلف عنها في المعاني ونظم الأساليب التي لا يتّسع المقام لذكرها، ذلك أنّ

(1) إرشاد العقل السليم 6/ 58.
(2) الأنبياء 10.
(3) الفرقان 4 ـ 9.

الشبهة الأولى في هذه السورة إدّعاء كفّار قريش أنّ القرآن الكريم كذب اختلقه محمّد - ﷺ - من تلقاء نفسه وساعده على هذا الاختلاق قوم من أهل الكتاب، فردّ عليهم زعمهم الباطل ووصفهم بالظلم والزور.

وأما الشبهة الثانية فهي ما حكاه عنهم القرآن من أنّه خرافات السابقين، أمر أن تكتب له، وتقرأ عليه صباحاً ومساءً، فجاء الرد الحاسم بإبطال زعمهم موجّهاً إلى الرسول - ﷺ - مبيّناً فيه أنّ القرآن الكريم أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض، وقد ربط إثبات النبوّة بالتوحيد، كما بدأها دلالة على العلاقة القويّة التي تربطهما معاً.

ثمّ يتنوّع البيان ليذكر مزاعم جديدة لم يتعرّض لها في هذه السورة، وهو حكاية أقوال المشركين وإنكارهم أن الرسول يأكل الطعام كالبشر، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كغيره من البشر، وأنّه ليس بملَك إلى آخر ما ذكروه من التهكّم والاستهزاء بالرسول - ﷺ -.

إن هذه الشبهة قد ورد ما ينفيها أيضاً في مواضع أخرى، يثبت فيهما المولى - سبحانه وتعالى - أنّ الرسل أسوةً بأفراد جنسهم في أحكام الطبيعة البشريّة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾[2].

إنّ هذه الآيات وإن اتّفقت في بعض المعاني، فلا تكرار فيها، وذلك لاختلاف بعض معانيها الأخرى، واختلاف نظم أساليبها، ذلك أنّ آية الفرقان الثانية جاءت

(1) الأنبياء 7، 8.

(2) الفرقان 20.

جواباً عن قولهم في الآية الأولى[1]؛ لتثبت للرسول ـ ﷺ ـ ما لغيره من أمور الطبيعة البشرِّية، فهي دليل آخر على بطلان شبهتهم.

ثمَّ يمضي البيان ليبيِّن للرسول ـ ﷺ ـ ما قالوه في حقِّه من الأقاويل العجيبة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، فضلّوا بذلك عن الهدى.

ثانياً: تنوّع أساليب إثبات النبوَّة والرسالة في سورة الفرقان:

غلب على أسلوب هذه الآيات، أسلوب المقاولات والمحاورات، إذ بدأت بأسلوب المحاورات، حاكياً المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أباطيل الكافرين الفاسدة المتعلِّقة بالقرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[2].

ثمَّ حكى شبهة أخرى من شبهات الكافرين الواهية في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[3].

ثمَّ ينتقل إلى الأمر الموجَّه للرسول ـ ﷺ ـ والمقرِّر لعلم الله المطلق، ردّاً على المكذِّبين وتحقيقاً للحقِّ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[4].

ثمَّ انتقل إلى الحكاية، فالاستفهام الإنكاريّ، فالأسلوب الشرطيّ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[5].

ثمَّ انتقل إلى أسلوب التنزيل من مرتبة إلى أخرى، وهو ما أشار إليه أبو السعود حين قال: «تنزَّل منهم من اقتراح أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والشرب

---

(1) إرشاد العقل السليم 6/ 210.
(2) الفرقان 4.
(3) نفسها 5.
(4) نفسها 6.
(5) نفسها 7.

إلى اقتراح أن يكون معه مَلَك يصدِّقه ويكون مَلَكاً ردءاً له في الإنذار، وقوله: ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ تنزّل من تلك المرتبة إلى اقتراح أن يلقى إليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلاً على صدقه، وقوله تعالى: ﴿ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَا ﴾ تنزّل من ذلك إلى اقتراح ما هو أيسر منه وأقرب من الوقوع»[1].

ثمَّ حكى شبهة أخرى من شبهاتهم الباطلة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴾[2]. قال أبو السعود: «هم القائلون الأوَّلون وإنَّما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحدّ فيما قالوه لكونه إضلالاً خارجاً عن حدِّ الضلال مع ما فيه من نسبته ـ ﷺ ـ إلى المسحوريَّة»[3].

وقد ذكر صاحب «أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية» أنَّ في هذه الآية الكريمة والتي سبقتها، التفاتاً عن الإضمار في صدر الأولى: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ إلى الإظهار في الآية الثانية: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ مبيِّناً ما فيه من نكت بلاغيَّة، إضافة إلى ـ ما سبق ذكره عن أبي السعود ـ إذ قال: «والمراد بالضمير والاسم الظاهر هم هؤلاء الضالُّون الّذين تحكي الآيتان افتراءاتهم على الرسول ـ ﷺ ـ تلك الافتراءات التي نحت ـ في مقولتهم ـ الأولى منحى التشكيك في رسالته عن طريق الزعم بأنَّ الرسول إنَّما يكون مَلَكاً من السماء أو ثريّاً من أثرياء الأرض، وعمدت ـ في مقولتهم الثانية ـ إلى التشكيك في صدقه عن طريق الزعم بأنّه مسحور»[4].

وذكر أيضاً أنَّ في هذا الالتفات إشعاراً بأنَّ فرية السحر خاصَّة لا تصدر إلاّ عن ظلم فادح، ومجاوزة لحدِّ العقل والمنطق صارخة، فوراء التحوُّل عن المضمر إلى

---

(1) إرشاد العقل السليم 6/ 204.
(2) الفرقان 8.
(3) إرشاد العقل السليم 6/ 204، وانظر تفسير البيضاوي 3/ 127.
(4) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ص 155.

الاسم الظاهر - إذن - إبراز لوجه المغايرة بين الافتراء على رسالة الرسول في المقولة الأولى والافتراء على شخصه بفرية السحر في المقولة الثانية من حيث مردُّ كلٍّ منهما أو مثيرة في نفوسِ هؤلاء الضالّين، إذ إنَّ مردَّ الافتراء الأوّل يكون هو الجهل بمعنى الرسالة التي لا تتنافى - كما يزعمون - مع بشريّة الرسول ولا تتعارض مع فقره، أما مردُّ فرية السحر فهو الظلم الصراح الذي لا يشوبه الجهل بشخص المفترى عليه - ﷺ - أو الغفلة عمّا عرف عنه واشتهر به، بين هؤلاء المفترين أنفسهم - من رجاحة عقل، واتّزان فكر، واستقامة سلوك.

ولعلَّ ممَّا يدعم دلالة العدول إلى الإظهار على فداحة الظلم: العدول في الإشارة إلى الرسول عن التعريف الماثل في المقولة الأولى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ إلى التنكير الموحي بمعنى التجاهل في المقولة الثانية ﴿ رَجُلاً ﴾ ثمَّ العدول عن طريق الاستفهام الذي وردت به المقولة الأولى إلى طريق الإخبار المؤكّد بأسلوب القصر في المقولة الثانية: ﴿ إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً ﴾ ففي هذا وذاك تأكيد لمدى شناعة الظلم وبشاعة التجاوز في دعوى هؤلاء الضالّين بأنّه - ﷺ - رجل مسحور[1] ثمَّ انتقل إلى أسلوب التعجُّب والاستعظام في قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾[2].

المثال الخامس: تنوُّع المعاني والأساليب الدالّة على النبوّة والرسالة في سورة القَصَص:

وردت أدلة إثبات صدق النبوَّة والرسالة في سورة القصص تختلف في كلِّ مرَّة حسب السياق وأسباب النزول المقتضية لتصريف هذا المعنى أو ذاك وهذا ما نلاحظه في هذه الدراسة، والتي سنتحدّث فيها عن المعاني ثمَّ الأساليب.

أولاً: تنوُّع معاني النبوَّة والرسالة في سورة القصص:

جاء إثبات النبوَّة والرسالة في سورة القصص في سياق قصص موسى - عليه السلام - ليثبت ذلك بالدلائل المعجزة، إذ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ

(1) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ص 155 - 156.
(2) الفرقان 9.

إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿44﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿45﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿46﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿47﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿48﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿49﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿50﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿51﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾(1) .

نفى القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة أن يكون محمَّد ـ ﷺ ـ بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلّم الله ـ تعالى ـ به موسى حيث أوحى إلى موسى ـ عليه السلام ـ بالنبوَّة وأرسله إلى فرعون، ونفى أيضاً حضوره في ذلك المكان، ولكنّ اللّه أوحى إليه ليكون حجَّة وبرهاناً على صدق نبوّته وإثبات رسالته.

قال ابن كثير: «يقول ـ تعالى ـ منبِّهاً على برهان نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأنّ سامعه شاهد وراء لما تقدَّم، وهو رجل أُمِّيّ لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأته بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك»(2) .

ويبيِّن في هذه الآيات أنَّه خلق أمماً وأجيالاً من بعد موسى ـ عليه السلام ـ فتطاول عليهم الزمان ونسوا ذكر الله، ولذلك استوجب إرسال محمَّد ـ ﷺ ـ رسولاً

---

(1) القصص 44 ـ 53.

(2) تفسير ابن الكثير 3/ 474.

لإقرار الدين، وتصحيح العقيدة ففي ذلك دلّيل على إثبات رسالته وصدق نبوّته، إذ نفى عنه معرفته - ﷺ - قصّة أهل مدين بالسماع ممّن شاهدها بمعنى أنّه لم يكن مقيماً معهم حتى يعلم هذه القصّة، وإنّما علمه عن طريق الوحي، قال أبو السعود: «ولكنّا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة، فتمادى الأمر، وتغيّرت الشرائع والأحكام، وعُمِّيت عليهم الأنباء لا سيّما على آخرهم، فاقتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا إليك، فحذف المستدرك اكتفاء بذكر ما يوجبه ويدلُّ عليه»[1].

وأمّا الدلّيل الثالث فهو نفي حضوره عندما نادى المولى - سبحانه وتعالى موسى - عليه السلام - مبيّناً مهمّته - ﷺ - وهي الإنذار رحمة بمن أرسل إليهم لعلّهم يتّعظون بما جاءهم به من البيّنات.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتّعظون بإنذارك وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر والثواء[2] في أهل مدين والنداء للتنبيه على أنّ كلاًّ من ذلك برهان مستقلٌّ على أنّ حكايته - ﷺ - للقصّة بطريق الوحي الإلهي، ولو ذكر أوّلاً ثواءَه - ﷺ - في أهل مدين ثمّ نفى حضوره - ﷺ - عند النداء ثمّ نفى حضوره عند قضاء الأمر كما هو الموافق للترتيب الوقوعي، لربّما توهّم أنّ الكلّ دلّيل واحد[3].

ثمّ ذكر دليلاً رابعاً على إثبات النبوّة والرسالة، وهو أنّ إرسال الرسل على وجه الإعذار وإقامة الحجّة، عليهم لئّلا يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

ثمّ بيّن المولى - عزّ وجلّ - أنّ أهل مكّة لمّا جاءهم محمّد بالقرآن المعجز من عنده - عزّ وجلّ - تعنّتوا وعاندوا، قائلين هلاّ أعطى محمّد من الآيات الباهرة والحجج القاهرة مثل ما أعطى موسى من العصا، مدحضاً تعنّتهم وعنادهم هذا، بأن البشر قد

---

(1) إرشاد العقل السليم 7/ 16.

(2) ثوى بالمكان وأثوَى: أقام (أساس البلاغة، ص 79 مادة «ثوى»).

(3) تفسير ابن كثير 3/ 474.

(4) القصص 47 وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ص 497.

كفروا بما أوتي موسى من تلك الآيات الباهرة ذاكراً دعاويهم الباطلة حول القرآن والتوراة وتصريحهم بالكفر بهما.

قال ابن جزي: «هذا ردٌّ عليهم فيما طلبوه، والمعنى أنهم كفروا بما أوتي موسى، فلو آتينا محمّداً مثل ذلك لكفروا به»[1].

وأمّا الدلّيل الخامس في هذه السورة، فهو التعجيز والتحدّي لهؤلاء المعاندين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

ويستمرُّ التحدِّي، مبيِّناً للرسول - ﷺ - إن لم يستجيبوا لطلبك، فاعلم أنَّ كفرهم عنادٌ واتّباع للأهواء بدون دلّيل، ويحذّر من اتّباع الأهواء، ويرشد إلى إتباع الهدى والبيان فيقول: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[3].

ثمَّ يبيِّن الغاية والحكمة من هذا التصريف فيقول: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[4].

والمعنى أنزلنا القرآن عليهم متواصلاً بعضه إثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، أو متتابعاً وعداً ووعيداً، قصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح[5].

وأوضح من هذا ما نقله أبو حيَّان عن مجاهد، إذ قال: «جعلناه متواصلاً من حيث كان أنواعاً من القول في معان مختلفة»[6].

---

(1) القصص 47 وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ص 497.
(2) القصص 49.
(3) نفسها 50.
(4) نفسها 51.
(5) إرشاد العقل السليم 7/ 18.
(6) البحر المحيط 7/ 119.

إنَّ في هذه الآية الكريمة، وتوجيهات المفسِّرين لها دليلاً واضحاً على تصريف القول في القرآن الكريم، الذي يعني تنويع المعاني بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، تحقيقاً للمقاصد التي يرمي إليها في كلِّ موضع.

ثمَّ بيَّن أنّ هذا التصريف البديع، يؤمن به مسلمو أهل الكتاب الّذين أنزلت عليهم التوراة والإنجيل، من قبل القرآن، وهم بهذا القرآن يصدِّقون، إذ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[1].

ثانياً: تنوّع أساليب النبوّة والرسالة في سورة القصص:

بدأت هذه الآيات بأسلوب النفي الموجَّه للرسول ـ ﷺ ـ الذي ينفي حضوره، حين أوحى الله إلى موسى ـ عليه السلام ـ فنفى المشاهدة للوحي، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ ﴾[2]. الآية.

قال أبو السعود[3]: «وحيث انتفى كلاهما تبيَّن أنَّه بوحي من علاّم الغيوب، لا محالة على طريقة قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾[4]».

ثمَّ انتقل إلى الاستدراك، فالنفي[5] الذي ينفي إقامته ـ ﷺ ـ في أهل مدين، فالاستدراك الذي يفيد إرساله ـ ﷺ ـ والوحي إليه في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾[6]. الآية.

---

(1) القصص 52 ـ 53.
(2) نفسها 44.
(3) إرشاد العقل السليم 7/ 16.
(4) آل عمران 44.
(5) نفي لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصَّة بالسماع ممن شاهدها (إرشاد العقل السليم 7/ 16).
(6) القصص 45.

ثمَّ انتقل إلى النفي الذي ينفي حضوره حين نداء المولى ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى عليه السلام، فالاستدراك الذي يفيد أنَّ إرساله رحمة من المولى ـ سبحانه وتعالى ـ للعالمين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[1]. الآية.

قال أبو السعود: «والالتفات إلى اسم الربّ للإشعار بعلة الرحمة وتشريفه ـ ﷺ ـ بالإضافة، وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر ما يوجبه من جهته تعالى»[2].

يتَّضح لنا أنَّ هذه الآيات انتظم أسلوبها على طريقة متقاربة، وبخاصَّة فيما يتعلَّق بالنفي الذي يعقبه الاستدراك، وليس معنى ذلك أنها مكرّرة؛ لأنَّ معانيها مختلفة فكلُّ مرَّة ـ كما رأينا ـ تنفي معنى من المعاني، ثمَّ تستدرك على آخر.

وبعد أن اتَّبعت الآيات السابقة طريقة متقاربة في نظم أساليبها، انتقلت الآيات إلى أسلوب آخر، لم يذكر فيما سبق، فبدأت بالأسلوب الشرطيّ، مقروناً به أسلوباً شرطيّاً آخر، في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

ثمَّ انتقل إلى أسلوب المحاورات، الذي يبيِّن اقتراحات الكافرين وشبهاتهم، فالإستفهام التقريريّ الإنكاريّ، فالأسلوب الإخباريّ المؤكِّد لكفرهم في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾[4]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى الأمر المراد به التعجيز، فالشرط الذي يراد به الإلزام والتبكيت والتهكُّم بهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[5].

---

(1) آية 46.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) القصص 47.

(4) نفسها 48.

(5) آية 49.

ذكر الزمخشريّ: «أنَّ هذا شرط المدلّ بالأمر المتحقِّق لصحّته؛ لأنَّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقّق لا مجال فيه للشكّ، ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ، التهكّم بهم»[1].

ثمَّ انتقل إلى الشرط الداعي إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، وجاء جواب الشرط أمراً موجَّهاً للرسول ـ ﷺ ـ يفيد اتّباع هؤلاء الكفرة لأهوائهم، فالاستفهام الإنكاريّ، الذي هو بمعنى النفي، فالأسلوب الخبري المؤكّد وعيد الظالمين في قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[2]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى الأسلوب الإخباريّ، الذي يفيد نزول القرآن متواصلاً بعضه إثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، أو متتابعاً وعداً وعيداً، قصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح[3] فأسلوب الترجّي الذي يفيد أنّ نزول القرآن وتصديقه رجاء إيمانهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[4]. ثمَّ عاد إلى الإخبار الذي يفيد أنَّ مؤمني أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

ثمَّ عطف عليه الأسلوب الشرطيَّ، فالأسلوب الخبريَّ المؤكّد حقيقة القرآن الذي كانوا يؤمنون به قبل نزوله في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾[6].

المثال السادس: تنوُّع المعاني والأساليب الدالّة على النبوّة والرسالة في سورة العنكبوت:

تنوَّعت المعاني والأساليب الدالّة على إثبات النبوَّة والرسالة في سورة العنكبوت، تنوُّعاً عجيباً، إذ عُرضت بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، مثبتة بذلك

(1) الكشاف 3/ 184.
(2) آية 50.
(3) إرشاد العقل السليم 7/ 18.
(4) آية 51.
(5) القصص 52.
(6) نفسها 53.

التصريف القرآني البديع، وهو ما ستكشف عنه هذه الدراسة، والتي ستبيِّن تنوُّع المعاني، ثمَّ تنوُّع الأساليب.

أولاً: تنوُّع المعاني الدالَّة على النبوَّة والرسالة في سورة العنكبوت:

صرَّف القرآن الكريم إثبات النبوَّة والرسالة في سورة العنكبوت في سياق بيان وجود الدلائل الدالَّة على وجود الله ـ تعالى ـ ووحدانيَّته، إذ يقول تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1].

وهكذا فبعدما عرض دلائل من الأنفس والآفاق على وجود الله ووحدانيَّته أمر النبيَّ ـ ﷺ ـ أن يتلو الوحي الذي أوحاه الله إليه من الكتاب العزيز، معطوفاً عليه الأمر بإقامة الصلاة مبيِّناً الغاية والحكمة من إقامتها، ثمَّ أمر بالتلطُّف في دعوة

(1) العنكبوت 44 ـ 52.

أهل الكتاب إلى الإيمان فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

ثمَّ بيَّن البراهين القاطعة على صدق محمَّد ـ ﷺ ـ وصحَّة القرآن، إذ قال تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2].

ففي هذه الآيات دلائل واضحة على صدق محمَّد وإثبات رسالته منها: أنَّ إنزال الكتاب العزيز ليس غريباً عليهم، فكما أنزل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ الكتاب على من قبل محمَّد ـ ﷺ ـ أنزله على محمَّد فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والدليل على ذلك أيضاً أنَّ أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن وهذه حجَّة على من لم يؤمن به، وكذلك أنَّ من أهل مكة من يؤمن بالقرآن أيضاً، ولذلك بيَّن أنَّ ببيان هذه الحجّة الواضحة لا ينكر هذه الآيات ويكذِّب بها إلاّ المتوغِّلون في الكفر، المصرّون على العناد، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

ثمَّ ساق دليلاً ثانياً: على صدق النبوَّة والرسالة، وهو كون النبيِّ ـ ﷺ ـ لا يعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول القرآن؛ لأنَّه أمِّيّ، إذ الأمر بخلاف ذلك، فلو كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يقرأ أو يكتب إذاً لشكَّ الكفَّار في القرآن، فهذه أكبر حجَّة على أن القرآن الكريم من عند الله؛ لأنَّ النبيَّ أمِّيّ وجاءهم بهذا الكتاب المعجز، المتضمِّن لأخبار الأمم السابقة، والأمور الغيبية، وهو أكبر برهان على صدق النبيِّ ـ ﷺ ـ وإثبات رسالته.

ثمَّ ساق دليلاً ثالثاً: وهو الذي تضمَّنه الإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ والمعنى ليس الأمر كما يظنُّ هؤلاء الظالمون، بل هو آيات واضحات الإعجاز، ساطعات الدلالة على أنَّها من عند المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ محفوظة في صدور العلماء.

---

(1) العنكبوت 46.

(2) نفسها 46.

قال القرطبيّ: «أي ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنّه سحر أو شعر، ولكنَّه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه، وهي كذلك في صدور الّذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمَّد - ﷺ - والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه، ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر، والشياطين»[1].

وقد حكى البيان القرآني مزاعم الكفار واقتراحاتهم حول الرسالة، رادّاً عليهم أن الخوارق والمعجزات من عند الله - سبحانه وتعالى - لا دخل فيها لأحد، حاصراً مهمّة النبيِّ - ﷺ - في الإنذار والبيان لا يتعدّاها، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[2].

ثمَّ عرض دليلاً رابعاً، متضمِّناً توبيخ هؤلاء المشركين على عدم اكتفائهم بالكتاب المعجز، الذي أنزله على محمَّد - ﷺ - يقرع أسماعهم، وهو أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صدق النبيِّ - ﷺ - وإثبات رسالته، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[3].

ثمَّ عرض كذلك دليلاً خامساً: طمأنةً لنبيِّه - ﷺ - وهو شهادة الله على صدق رسالته، مقروناً بصفة العلم ودلائل القدرة، إذ قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾[4].

ثانياً: تنوُّع أساليب إثبات النبوَّة والرسالة في سورة العنكبوت:

تنوّع الأسلوب في هذه السورة مثل تنوّع المعاني الدالَّة على النبُوَّة والرسالة، فبدأت بالأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - بتلاوة القرآن، تقرُّباً إلى الله - تعالى - بتلاوته، وتذكّراً لما في تضاعيفه من المعاني، وتذكيراً للناس، وحملاً لهم على العمل بما فيه

(1) تفسير القرطبي 13/ 354.
(2) العنكبوت 50.
(3) نفسها 51.
(4) نفسها 52.

من الأحكام ومحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق[1] ثمَّ عطف عليه الأمر بإقامة الصلاة. فالأسلوب الإخباريّ المؤكّد أن الصلاة سبباً للانتهاء عن المعاصي، حال الاشتغال بها، من حيث إنها تذكِّر الله، وتورث النفس خشية منه[2] في قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى النهي عن مجادلة أهل الكتاب، فاستثناء المجادلة بالحسنى، فاستثناء آخر يبيح مجادلة الّذين ظلموا من أهل الكتاب، فالأمر بالإيمان بالقرآن الكريم، والكتب المنزلة على أهل الكتاب، وإثبات التوحيد لله ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[4]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى التمثيل، الذي يبيِّن أنَّ إنزال القرآن مثل إنزال الكتب السابقة، فالإخبار الذي يفيد أنَّ أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن الكريم، ومنهم من لايؤمن به، فنفى الجحود بآيات الله ـ تعالى ـ فاستثناء الكافرين من ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[5]. الآية.

ثمَّ انتقل إلى النفي، الذي ينفي عن الرسول ـ ﷺ ـ تلاوته لشيء من كتاب، وخطَّه أيضاً، في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾[6]. الآية. وعبّر عن الخط باليمين زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتباً[7].

---

(1) إرشاد العقل السليم 7/ 41.

(2) تفسير البيضاوي 3/ 330.

(3) العنكبوت 45.

(4) نفسها 46.

(5) آية 47.

(6) العنكبوت 48.

(7) الكشاف 3/ 208.

وقد أشار بعض من اهتمَّ بعلوم القرآن الكريم، إلى أن القرآن استخدم في هذه الآية أسلوب الطريقة العقليّة التحليليّة التي تحاكم الفكرة المضادّة، على أساس التفكير الذي يطرح القضيَّة أمامه في مناقشة تحليليّة هادئة، للكشف عن تاريخ النبيِّ -ﷺ- الثقافيِّ، ذلك أنَّ النبيَّ -ﷺ- لم يسبق له أن قرأ كتاباً، أو خطّه بيمينه، أو انتمى إلى مدرسة كما أشار إلى ذلك في خطابه للنبيّ، وهو يوحي له بنوعيّة الأسلوب الذي يديره معهم في هذا الموضوع[1].

والذي نريد أن نقف عنده أنَّ نفي الجحود بآيات الله - تعالى - والاستثناء الذي سبق ذكره قد ورد في آيتين تفصل بينّهما آية واحدة، ولا يعني ذلك أنَّ هناك تكراراً فيهما، وإن اتفقتا في بعض أساليبهما، فقد اختلفتا في بعض المعاني، وذلك ما ختم به الآيتين، فالأولى ختمت بقوله: ﴿ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ والثانية بقوله: ﴿ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ فالمعنى مختلف، ذلك أنَّ معنى الكافرون: المتوغلون في الكفر المصمّمون عليه، وأما الظالمون[2] فالمتجاوزون للحدود في الشرِّ والمكابرة والفساد[3].

ثمَّ انتقل إلى أسلوب المحاورات الذي يحكي اقتراحات المشركين، فالأمر الموجّه للرسول -ﷺ- مدموجاً به أسلوب القصر، الذي يقصر الآيات على الله - سبحانه وتعالى - معطوفاً عليه أسلوب القصر، الذي يقصر مهمَّة الرسول -ﷺ- في الإنذار والبيان في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[4] الآية، ثمَّ انتقل إلى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ، رادّاً على اقتراحاتهم ومبيِّناً بطلانها، فالإخبار المؤكّد أنَّ نزول القرآن الكريم، نعمة عظيمة، وتذكرة لمن همّهم الإيمان لا التعنُّت[5] في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[6]

(1) الحوار في القرآن ص 107.

(2) وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ آية 49.

(3) إرشاد العقل السليم 7/ 43.

(4) العنكبوت 50.

(5) إرشاد العقل السليم 7/ 44. وتفسير البيضاوي 3/ 332.

(6) العنكبوت 51.

الآية، ثمَّ انتقل إلى الأمر الموجَّه للرسول - ﷺ - الذي لفته فيه إلى أنَّ اللّه يكفيه شاهداً بينه وبينهم، وهو الذي يعلم ما في السموات والأرض، فالوعيد الموجَّه للكافرين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] الآية.

المثال السابع: تنوُّع المعاني الدالّة على النبوّة والرسالة في سور متفرّقة:

نكتفي بالقدر السابق من بيان تنوُّع الأساليب الدالَّة على النبوَّة والرسالة، ونقتصر على بيان المعاني الدالَّة على ذلك والتي وردت في سور متفرِّقة، ذلك أنّ ما بيَّنّاه فيما سبق يكفي لبيان هذا التنوُّع العجيب، والتفنُّن الدقيق.

فمن ذلك ما جاء في سورة فاطر، التي عرض فيها إثبات النبوَّة وصدق الرسالة بطريقة تختلف في طرائق عرضها عن الآيات التي سبق ذكرها، ذلك أنَّ لكلِّ موضع سياقه ومعانيه التي يحقِّقها.

وقد جاءت هذه المعاني في سياق ضرب المثل للتفريق بيّن المؤمن والكافر، فقال تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[2].

ففي هذه الآيات الكريمة أثبت المولى - عزَّ وجلَّ - أن مهمَّة الرسول - ﷺ - إنذار الكفّار وتخويفهم من عذاب اللّه، وفيها تأكيد إرساله بالهدى، ودين الحقّ، بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين مبيِّناً أنّ ذلك سنَّة مطَّردة في الأمم السابقة.

وفيها أيضاً - تسلية للرسول - ﷺ - للتأسّي بالأنبياء في الصبر على تحمّل الأذى والبلاء.

ونجده في موضع آخر من هذه السورة يثبت صدق النبي - ﷺ - بالإشارة إلى وحي الكتاب إليه، وهو القرآن الكريم، الذي هو حقّ لا شكَّ فيه، ولا ريب في

---

(1) العنكبوت 52.

(2) فاطر 23 - 26.

صدقه، ومن الأدلّة على ذلك كونه مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلهيّة المنزلة على الأنبياء والرسل السابقين، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1].

قال أبو حيّان: «وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً؛ لأنه ـ عليه السلام ـ لم يكن قارئاً ولا كاتباً، وأتى ببيان ما في كتب اللّه ولا يكون ذلك إلاّ من اللّه ـ تعالى ـ»[2].

ونجد البيان القرآني في سورة يس يقسم على صدق نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ وإثبات رسالته، إذ يقول: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3].

فقد أقسم المولى ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة بالكتاب المحكم، المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، على أنَّ محمَّداً ـ ﷺ ـ رسوله، وذلك ما بيَّنه جواب القسم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

قال أبو السعود: «جواب للقسم، والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم في حقِّه ـ ﷺ ـ لست مرسلاً، وهذه الشهادة منْهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ من جملة ما أشير إليه بقوله ـ تعالى ـ في جوابهم: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[5]. وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولاً وبوصفه بالحكيم ثانياً تنويه بشأنه وتنبيه على أنَّه كما يشهد برسالته ـ ﷺ ـ من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع الحكم يشهد لها من هذه الحيثيّة أيضاً، لمّا أن الإقسام بالشيء استشهاد به على تحقُّق مضمون الجملة القسميَّة وتقوية لثبوته فيكون شاهداً به ودليلاً عليه قاطعاً»[6].

(1) فاطر 31.
(2) البحر المحيط 7/ 298.
(3) يس 1 ـ 2.
(4) نفسها 3.
(5) الرعد 43.
(6) إرشاد العقل السليم 7/ 158 ـ 159.

وبيّن في هذه الآيات أنّ الرسول ـ ﷺ ـ على طريق مستقيم لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وهو على دين الإسلام دين الرسل جميعاً، إذ قال تعالى: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1]. وذكر صاحب «الانتصاف» أنّ تنكير الصراط للتفخيم والتعظيم[2].

ثمَّ أتبع إثبات صدق الرسالة بإثبات صدق الوحي، إذ قال تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3].

والمعنى أنَّ هذا القرآن الهادي إلى صراط مستقيم هو تنزيل من ربّ العزّة، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه.

«وأيا ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول، عبر به عن القرآن بياناً لكمال عراقته في كونه منزلاً من عند اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ كأنَّه نفس التنزيل، وإظهاراً لفخامته الإضافيَّة، بعد بيان فخامته الذاتيَّة، بوصفه بالحكمة، وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعبّرَيْن عن الغلبة التامّة، والرأفة العامَّة، حثٌّ على الإيمان ترهيباً وترغيباً، وإشعارٌ بأنَّ تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4] وقيل النصب على أنَّه مصدر مؤكّد لفعله المضمر، أي نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنَّه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من فخامة شأن القرآن، وعلى كلٍّ تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسميَّة»[5].

ثمَّ أتبعه ببيان الغاية والحكمة من إرساله، فقال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾[6].

---

(1) يس 4.

(2) الكشاف 3/ 314.

(3) يس 5.

(4) الأنبياء 107.

(5) إرشاد العقل السليم 7/ 159.

(6) يس 6 ـ 9.

ونجد البيان القرآني في سورة فصِّلت يثبت صدق الوحي والرسالة بطريقة جديدة في المعاني والأساليب، وقد جاء في سياق عرض البراهين والدلائل الدالَّة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وكمال قدرته، إذ قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1]. ففي هذه الآيات الكريمة بيَّن أن الَّذين يطعنون في آيات الله ـ تعالى ـ بالتكذيب والتحريف والإنكار، لا يخفى أمرهم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو لهم بالمرصاد، وفي ضمنه الوعيد والتهديد، مقروناً بالتنبيه على كيفيَّة الجزاء.

ثمَّ أكدَّ البيان القرآني أنَّ الَّذين كفروا قد كذبَّوا بالقرآن الكريم حين جاءهم من عند الله، متبوعاً بتأكيد غلبته، فهو لا نظير له في إعجازه، نافياً عنه الباطل، مبيَّناً أنَّه لا مجال للطعن فيه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

قال الزمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾: «أي منيع محميٌّ بحماية الله تعالى»[3].

وقال أبو السعود: «أي كثير المنافع عديم النظير، أو منيع لا تتأتىّ معارضته، جملة حاليَّة، مفيدة لغاية شناعة الكفر به»[4].

(1) فصلت 40 ـ 44.

(2) الآيتان 41 ـ 42.

(3) الكشاف 3/ 455.

(4) إرشاد العقل السليم 8/ 15 ـ 16.

وجاء الختم بالصفتين العظيمتين ﴿ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، مناسباً لما تقدَّمه، إذ إنَّ الصفة الأولى تفيد أنَّه حاكم أو محكم لمعانيه، والثانية تفيد أنَّه محمود على ما أسدى لعباده من تنزيل هذا الكتاب، وغيره من النعم[1].

وأمَّا إثبات الرسالة في سورة الشورى فقد جاء في سياق بيان توحيد اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وعرض الدلائل الدالَّة على وحدانيّته، وكمال قدرته، فقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[2].

ففي هذه الآيات الكريمة بيَّن أنَّه سنَّ لأمَّة محمَّد ـ ﷺ ـ شريعة سمحاء، وديناً حنيفاً، وهو ما وصّى به الرسل والأنبياء السابقين، كنوح وإبراهيم، وموسى وعيسى، متضمِّناً لإقامة الدين والمراد توحيد اللّه وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله وبالبعث والجزاء[3].

(1) البحر المحيط 7/ 479.
(2) الشورى 13 ـ 17.
(3) تفسير القرطبي 16/ 10.

وقد أتبع الأمر بإقامة الدين بالنهي عن التفرُّق فيه، قال القرطبيُّ: «أي اجعلوه قائماً؛ يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه ولا اضطراب»[1].

وبيَّن فيها أنَّ أهل الأديان السابقة لم يتفرَّقوا إلاّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبيِّ المرسل إليهم، وتحمل في ضمنها تسليةً للنبيِّ - ﷺ - على إنكار هؤلاء المشركين لهذا الدين الحنيف.

ويمضي البيان القرآني، مؤكِّداً أنَّ بقيَّة أهل الكتاب الّذين عاصروا النبيَّ - ﷺ - لفي شكٍّ من التوراة والإنجيل؛ لأنَّهم ليسوا على يقين من أمر دينهم، وإنَّما هم مقلدِّون لآبائهم بلا دليل ولا برهان.

ولأجل ذلك التفرُّق الذي حدث لأهل الكتاب، أمر محمَّداً - ﷺ - أن يدعو الناس جميعاً إلى الدّين الحنيف، الذي وصَّى به جميع الرسل من قبله، وينهاه عن اتّباع أهواء المشركين الباطلة، وأمره أيضاً بالإيمان بما أنزل اللّه من الكتب السماوية السابقة، وأمره كذلك بالعدل بينَّهم في الحكم، قال القرطبيُّ: «لأن هذه البراهين قد ظهرت والحجج قد قامت، فلم يبق إلاّ العناد، وبعد العناد لا حجَّة ولا جدال»[2].

وفي موضع آخر من هذه السورة جاء إثبات الرسالة إثر بيان الإيمان باللّه - تعالى - إذ قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

---

(1) تفسير القرطبي 16/ 11.
(2) نفسه ص 14.
(3) الشورى 48 - 52.

إذ بيَّن في هذه الآيات الكريمة مهمَّةَ الرسول - ﷺ - والمعنى إن أعرض المشركون عن الإيمان، فإن مهمَّتك يا محمَّد، البلاغ وأتبعه بالإخبار عن طبيعة الإنسان وكفرانه بنعم اللّه - تعالى - ثمَّ أتبعه ببيان دلائل قدرته - تعالى - فهو المالك للكون كلِّه، والمتصرِّف فيه بالخلق والإيجاد كيفما شاء، ولذا عقَّب على ذلك بصفتين عظيمتين، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ والمعنى: إنه عليم بمصالح العباد، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تكوين ما يشاء[1].

ثمَّ أتبعه ببيان الوحي وأقسامه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ففي هذه الآية الكريمة ينفي المولى - سبحانه وتعالى - أن يكلِّم أحداً من البشر أيَّاً كان إلاّ بطريق الوحي، أو يكلِّمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى - عليه السلام - أو يرسل مَلَكاً فيبلِّغ الوحي إلى الرسول بأمره - تعالى - ما يشاء تبليغه، قال في التسهيل: «بيَّن اللّه - تعالى - فيها كلامه لعباده وجعله على ثلاثة أوجه أحدها الوحي، المذكور أوَّلاً، وهو الذي يكون بإلهام أو منام، والآخر أن يسمعه من وراء حجاب، والثالث: الوحي بواسطة الملَكَ، وهو قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ يعني ملكاً فيوحي بإذنه ما يشاء إلى النبيّ وهذا خاصٌّ بالأنبياء، والثاني خاصٌّ بموسى وبمحمَّد - ﷺ - إذ كلمه اللّه ليلةَ الإسراء، وأمَّا الأوَّل فيكون للأنبياء والأولياء كثيراً، وقد يكون لسائر الخلق»[2].

وسبب ذلك فيما ذكره الواحديُّ: «أنَّ اليهود قالوا للنبيِّ - ﷺ - ألا تكلِّم اللّه وتنظر إليه إن كنت نبيّاً، كما كلَّم اللّه موسى ونظر إليه؟ فإنا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك، فقال: لم ينظر موسى إلى اللّه، وأنزلت الآية»[3].

وهكذا فبعدما بيَّن طرق الوحي إلى الأنبياء والمرسلين أثبت أنَّ الوحي إلى محمَّد - ﷺ - مثل ذلك الإيحاء البديع الذي أوحاه إلى الأنبياء والمرسلين فقال تعالى:

---

(1) البحر المحيط 7/ 503.

(2) التسهيل لعلوم التنزيل ص 614.

(3) أسباب النزول ص 214 وانظر تفسير القرطبي 16/ 53، وإرشاد العقل السليم 8/ 37.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ والمعنى على ما ذكر أبو السعود «أي ومثل ذلك الإيحاء البديع أوحينا إليك القرآن الكريم الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبديَّة، وقيل: جبريل ـ عليه السلام ـ ومعنى إيحائه إليه ـ عليهما السلام ـ إرساله إليه بالوحي»[1].

ثمَّ عرض دليلاً على صحَّة الوحي وثبوت الرسالة، فقال تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[2].

ففي هذه الآية ينفي عن نبيِّه ـ ﷺ ـ معرفة القرآن قبل الوحي، وكذلك معرفة الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل، مبيِّناً الغاية والحكمة وكمال الوحدانيَّة إذ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[3].

ويتنوَّع إثبات النبوَّة والرسالة في سورة الأحقاف، إثر بيان التوحيد ونفي الشرك والوثنيَّة، فيقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

---

(1) أسباب النزول ص 214 وانظر تفسير القرطبي 16/ 53، وإرشاد العقل السليم 8/ 38.

(2) الشورى 52.

(3) نفسها 52 ـ 53.

(4) الأحقاف 7 ـ 12.

ففي هذه الآيات الكريمة يعرض القرآن شبهات الكافرين وطعنهم في القرآن الكريم، مبيِّناً دليل صدقه.

ثمَّ عرض دليلاً ثانياً - على صدق الرسول - ﷺ - ألا وهو أنَّ الرسول - ﷺ - لم يكن أوَّل رسول أرسل للعالمين، وهو متَّبع للوحي، حاصراً مهمَّته في الإنذار والبيان.

ثمَّ ساق دليلاً ثالثاً ألا وهو شهادة شاهد من بني إسرائيل على صدق القرآن فآمن به واستكبرتم عن الإيمان، قال أبو السعود: «(فآمن) للدلالة على أنَّه سارع إلى الإيمان بالقرآن لمَّا علم أنَّه من جنس الوحي الناطق بالحقِّ، وهو عبد اللّه بن سلام لمَّا سمع بمقدم رسول - ﷺ - المدينة، أتاه فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنَّه ليس بوجه كذَّاب، وتأمَّله فتحقَّق أنَّه النبيُّ المنتظر فقال له: إنِّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهُنَّ إلاّ نَبيٌّ، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أكله أهل الجنة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمِّه، فقال: عليه الصلاة والسلام - «أمَّا أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا طعام أهل الجنَّة فزيادة كبد حوت، وأمّا الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته» فقال: أشهد أنَّك رسول اللّه حقّاً، فقام ثمَّ قال: يا رسول اللّه إنَّ اليهود قوم بهت، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني عندك فجاءت اليهود، فقال لهم النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - أيُّ رجل عبد اللّه فيكم، فقالوا خيرنا، وابن خيرنا، وسيِّدنا وابن سيِّدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال أرأيتم إن أسلم عبد اللّه، قالوا: أعاذه اللّه من ذلك فخرج إليهم عبد اللّه فقال: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأشهد أنّ محمَّداً رسول اللّه، فقالوا شرُّنا وابن شرِّنا وانتقصوه»[1].

ثمَّ ذكر شبهة أخرى من شبه المشركين رادّاً عليها بالدليل القاطع لإبطالها، ومثبتاً صدق النبوَّة والرسالة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[2].

---

(1) إرشاد العقل السليم 8/ 80 - 81 والحديث أخرجه البخاري في صحيحه 3/ 1353 باب قوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ باختلاف قليل في لفظه.

(2) الأحقاف 11.

ولذلك جاء الدليل على صدق النبوَّة والرسالة بتذكيرهم بالتوراة التي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ إذْ هو مثله، وذلك أنَّ التوراة مشتملة على البشارة بمحمَّد ـ ﷺ ـ فإذا سلَّمتم أنَّها من عند الله الواحد القهار، فاقبلوا حكمها بأنَّ محمَّداً ـ ﷺ ـ رسول حقّاً من عند الله، وأنَّ القرآن كتاب عظيم مصدِّق لما قبله من الكتب، أنزله بلسان عربيٍّ، فصيح، متعجِّباً من إنكارهم له، وهو أظهر برهاناً، وأبلغ إعجازاً من التوراة.

وهكذا فلمَّا بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أحوال المشركين المكذِّبين بالقرآن، ناسبه أن يذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله، ليقارن بيْن الفريقين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

وأما سورة النجم فقد أطالت الحديث عن موضوع الرسالة والوحي، إذ قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2].

أقسم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه السورة بالنجم وقت سقوطه من علوٍّ على تنزيه الرسول ـ ﷺ ـ وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي[3].

وأمّا المقصود بالنجم ففيه ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه الثريا؛ لأنها غلب عليها التسمية بالنجم، ومعنى هوى غرب وانتثر يوم القيامة.

الثاني: أنّه جنس النجوم. الثالث: أنّه من نجوم القرآن وهي الجملة التي تنزل وهوى على هذا معناه نزل[4].

---

(1) الأحقاف 13.

(2) النجم 1 ـ 18.

(3) انظر التبيان في أقسام القرآن ص 308.

(4) التسهيل لعلوم التنزيل ص 665.

ذكر ابن قيِّم الجوزيَّة[1]: إنّ الناس اختلفوا في المراد بالنجم، فقال الكلبي عن ابن عبّاس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجّماً[2] على رسوله أربع: آيات، وثلاثا، والسورة، وكان بيّن أوّله وآخره عشرون سنة، وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل، والضحّاك، ومجاهد، واختاره الفرّاء، وعلى هذا فسمّي القرآن نجماً لتفرُّقه في النزول.

والعرب تسمّي التفرّق تنجُّماً، والمفرَّق نجماً، ونجوم الكتاب أقساطها، ويقول جعلت مالي على فلان نجوماً منجَّمة كلُّ نجم كذا كذا، وأصل هذا أنَّ العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها، مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون إذا طلع النجم، يريدون الثريا حلّ عليك الدين، ومنه قوله زهير[3] في دية جعلت نجوماً على العاقل[4].

ينجّمها قوم لقوم غرامة ولم يُهرقوا[5] ما بينَّهم ملءَ محجم[6]

وقال ابن عبَّاس في رواية عليّ بن أبي طلحة وعطيَّة: يعني الثريَّا، إذا سقطت وغابت، وهي الرواية الأخرى عن مجاهد، وقال أبو حمزة اليمانيّ: يعني النجوم إذا انتثرتْ يوم القيامة، وقال ابن عبَّاس في رواية عكرمة: يعني النجوم التي ترمي بها الشياطين، إذا سقطت في آثارها عنْدَ استراق السمع، وهو قول الحسن، وهو أظهر

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 308 ـ 309 وانظر مجمع البيان في تفسير القرآن 6/ 41.

(2) منجَّم: يعني نزول القرآن نجماً بعد نجم، أي مفرّقاً، مجزّأ (انظر لسان العربّ 12/ 569 مادة نجم).

(3) في ديوانه ص 17 وذكره الأزهري في »تهذيب اللغة 4/ 165 وابن منظور في لسان العرب 12/ 117 مادة حجم وص 570 مادة: نجم ونسباه لزهير.

(4) جاء في أساس البلاغة ص 431 (مادة عقل): عقلت القتيل: أعطيتُ ديته، وفي اللسان 11/ 460 عقل: العَقْلُ: الديّة وعقل القتيل يعقله عَقْلاً: وَدَاهُ وعقل عنه: أدّى جنايته، وذلك إذا لزمتْه ديةٌ فأعطاها عنه.

(5) رواية تهذيب اللغة، ولسان العربّ يُهَرِيقُوا بينّهم، وكذا في شعر زهير لأبي العبّاس ثعلب ص26 وشرح القصائد السبع الطول الجاهليّات لأبي القاسم الأنباري ص265 وشرح القصائد التسع المشهورات ص325، وشعر زهير للأعلمي الشنتمري ص17، وشرح المعلقّات السبع للزوزني ص145.

(6) الحَجْم: فعل الحاجم وهو الحجّام. . . والمِحْجَمة: قارورته، وتطرح الهاء فيقال: مِحْجم وجمعه مَحاجمُ (انظر تهذيب اللغة 4/ 165 ولسانَ العرب 12/ 117 مادة حجّم).

الأقوال. ويكون ـ سبحانه ـ قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها اللّه ـ سبحانه ـ آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أنَّ ما أتى به رسوله حقٌّ وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه... وعلى هذا فالارتباط بيِّن المقسم والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه[1].

وقد نفى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن نبيِّه ـ ﷺ ـ في هذا القسم الضلال واعتقاد الباطل، بل هو في غاية الهدى والرشاد.

قال الزمخشري: « ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمَّداً ـ ﷺ ـ والخطاب لقريش، وهو جواب القسم، والضلال نقيض الهدى، والغيّ نقيض الرشاد، أي هو مهتد راشد، وليس كما تزعمون من نسبتكم إيّاه إلى الضلال والغيّ، وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، وإنما هو وحي من عند اللّه يوحى إليه»[2].

وتبعه أبو السعود في أنَّ الخطاب لقريش، وإيراده ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبراً ببراءته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممّا نفى عنه بالكلّيّة، واتّصافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً[3].

وهكذا فإنَّ في التعبير عنه بـ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ دليلاً على إثبات رسالته وصدق الوحي المنزَّل عليه؛ وذلك لمعرفتهم له معرفة تامَّة، وهو المشتهر عندهم بالصدق.

قال ابن القيِّم: «وتأمَّل كيف قال ـ سبحانه ـ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل ما ضلّ محمَّد؛ تأكيداً لإقامة الحجَّة عليهم بأنَّه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنَّهم لا يعرفونه بكذب ولا غيّ ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قطُّ»[4].

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 310 ـ 311.

(2) الكشاف 4/ 28.

(3) إرشاد العقل السليم 8/ 154.

(4) التبيان في أقسام القرآن ص 312.

ولإثبات صدقه ـ ﷺ ـ نفى عنه النّطق عن هـوى نفسـيّ ورأي شـخصيّ، إذ نـزَّه رسوله ـ ﷺ ـ أن يصدر عنه ذلك، وبهذا الكمال هـداه وأرشـده، فقـال تعـالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ولم يقل: وما ينطـق بالـهوى؛ لأنَّ نطقـه عـن الـهوى أبلـغ، فإنَّـه يقتضي أنّ نطقه لا يصـدر عـن هـوى، وإذا لـم يصـدر عـن هـوى، فكيـف ينطـق بـه، فتضمَّن نفي الأمرين، نفى الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه، فنطـق بـالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغيّ والضّلال[1]. وبعد أن نفى عنه النطق عـن هـوى، أثبت له النطق بالوحي.

قـال أبـو السـعود: «أي مـا الـذي ينطـق بـه مـن القـرآن ﴿ إِلَّا وَحْيٌ ﴾، مـن اللّه ـ تعـالى ـ وقولـه تعـالى: ﴿ يُوحَىٰ ﴾ صفـة مؤكِّـدة لوحـي رافعـة لاحتمـال المجـاز، مفيدة للاستمرار التجدُّديّ»[2].

ثمَّ استمرَّ البيـان القرآني ذاكـراً كيفيَّـة اسـتقبال النبـيِّ ـ ﷺ ـ للوحـي، وصفـات الواسطة التي يتلقَّى عـن طريقـها ذلـك الوحـي مـن المولـى ـ عـزَّ وجـلَّ ـ فقـال تعـالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾[3]. ففي هاتين الآيـتين بيَّـن أنَّـه علَّمـه ملـك شديدٌ قواه، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ ومما يدلّ علـى شـدَّة قوَّتـه أنَّـه قلـع قـرى قـوم لـوط وحملـها علـى جناحـه ورفعـها إلـى السـماء، ثـمَّ قلبها، وصـاح بثمـود صيحـة فـأصبحوا جاثمِّين، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء وصعوده في أسرع من رجعة الطرف[4].

ومن صفاته أنَّه ذو حصافة في العقل، ومتانة فـي الدّيـن، وذلـك مـا أشـار إليـه قوله تعالى: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ ومعنى استوى: استقرّ على صورته الحقيقيَّـة، قـال ابن قيِّم الجوزيَّة «فصورَّ ـ سبحانه ـ لأهـل الإيمـان صـورة الحـال مـن نـزول جبريل مـن عنده إلى أن استوى بالأفق، ثمَّ دنا وتدلَّى وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره اللّه

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 313.

(2) إرشاد العقل السليم 8/ 155.

(3) النجم 5 ـ 6.

(4) إرشاد العقل السليم 8/ 155.

بإيحائه، حتى كأنَّهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى مستوياً عليه، ثمَّ نزل وقرب من محمَّد - ﷺ - وخاطبه بما أمره اللّه به، قائلاً: ربُّك يقول لك كذا وكذا»[1].

ثمَّ عاد البيان القرآنيُّ فأثبت صدق الوحي، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[2]. والمعنى فأوحى جبريل إلى عبد اللّه ورسوله محمَّد - ﷺ - ما أوحى إليه من اللّه - عزَّ وجلَّ -.

قال أبو السعود: «فأوحى جبريل - عليه السلام - إلى عبد اللّه - تعالى وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره»[3].

ثمَّ نفى عنه الكذب، فقال تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[4] والمعنى لم يكذب فؤاد محمَّد - ﷺ - حينما رأى ببصره من صورة جبريل - عليهما السلام - أي ما قال فؤاده لَمَّا رآه لم أعرفك، ولو قال ذلك لكان كاذباً؛ لأنَّه عرفه بقلبه كما رآه ببصره[5].

قال صاحب «التبيان في أقسام القرآن»: «ثمَّ أخبر - تعالى - عن تصديق فؤاده لما رأته عينه، وأنَّ القلب صدَّق العين، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدّقه الفؤاد وعلم أنَّه كذلك»[6].

وقد أنكر عليهم المولى - سبحانه وتعالى - مكابرتهم وجحودهم له على ما رآه، فقال تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[7].

قال أبو حيَّان: «والصحيح أنَّ جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[8] فإنَّه يقتضي نزلة متقدِّمة»[9].

---

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 317.
(2) النجم 10.
(3) إرشاد العقل السليم 8/ 156.
(4) النجم 11.
(5) نفسه.
(6) التبيان في أقسام القرآن ص 318.
(7) النجم 12.
(8) نفسها 13.
(9) البحر المحيط 8/ 156.

ثمَّ أثبت القرآن الكريم رؤية النبيّ - ﷺ - لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى، التي هي في السماء السابعة فقال تعالى: ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[1].

قال الزمخشريُّ: «أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزه، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكّن منها»[2].

نخلص من العرض السابق إلى أنَّ في هذه الأمثلة التي ذكرناها تصريفاً للقول، يبيِّنه التنويع البديع في التعبير في كل آية من الآيات الدالَّة على إثبات النبوَّة والرسالة، ويوضِّحه أيضاً اختلاف سوابق الآيات ولواحقها، وأسباب نزولها، ومكانها في السياق القرآنيّ، الذي هو ميزة للتصريف القرآني، فصار بذلك أبلغ كلام عرفته الإنسانيَّة؛ لأنَّه تنزيل من حكيم حميد، وأنَّه بديع في نسقه في أعلى درجات البلاغة والفصاحة إذ لا تكرار في هذه المعاني والأساليب؛ لأنها تختلف في طرائق عرضها وأساليب تقريرها، من موضع لآخر، فهي في كلِّ موضع جديدة في معانيها وأساليبها.

وهكذا فإنَّ في هذه الآيات تنويعاً بيانيّاً، يعرض الحجج والدلائل الدالَّة على نبوَّة محمَّد - ﷺ - ورسالته في كلِّ موضع من هذه المواضع، فمرَّة يكون الاستدلال بردِّ المسائل إلى أمور بدهية معروفة أو حقائق مشهورة، وأحياناً يضربّ اللّه الأمثال ليقرِّب الحقائق ويدنيها، وأحياناً أخرى يقرن دلائل النبوَّة والرسالة بالدلائل الدالَّة على الوحدانيَّة، وكمال القدرة الإلهيَّة، كما يقرنها أيضاً بالبعث والجزاء، للدلالة على أنَّ هذه المعاني مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً، كما أنّه يذكّر من حين إلى آخر بجزاء المخالفين، ويقرنه أحياناً بجزاء المطيعين.

---

(1) النجم 14.
(2) الكشاف 4/ 30.

المبحث الثالث
تصريف القول في إثبات الوحي

تصرَّفت الآيات الدالَّة على صدق الوحي والأمر باتِّباعه، وبيان وظيفته تصرُّفاً عجيباً، وتفنَّنت في ذلك تفنُّناً بديعاً، مبيِّنةً دلالاته وأغراضه المختلفة في كلِّ آية من الآيات، الأمر الذي يبعد صفة التكرار عن هذه الآيات وغيرها من آيات كتاب الله - تعالى -.

ومن هنا فإنَّ الاستقراء الكامل لهذه الآيات يصنِّفها حسب مواضيعها، والتي يمكن حصرها في صدق الوحي وإثباته، وأمر النبي - ﷺ - باتِّباعه، ووظيفة الوحي المنزل عليه.

أولاً: صدق الوحي وإثباته:

يرد الوحي دالّاً على مطابقة ما أوحي إلى محمَّد - ﷺ - بما أوحي إلى الأنبياء السابقين، ليثبت صدقه إذ يقول: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[1].

بيَّن الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية أنَّ الوحي إلى نبيِّه محمَّد - ﷺ - ليس بدعاً من الرسل، إذ شأنه في الإرسال وحقيقة الوحي كشأن سائر الأنبياء الّذين لا ريب في نبوَّتهم.

ويرد الوحي دالّا على صدق القصص القرآني، الموحى به إلى النبي - ﷺ - إذ يقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾[2].

وفيه أيضاً دلالة على أنَّه ليس من عنده، يبيِّنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ لأنَّه لو كان يعلمه لما خاطبه بذلك.

---

(1) النساء 163.

(2) يوسف 3.

ويصفه بالحقّ، مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتب السماوية، فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1].

ويدلُّ الوحي على قصْرِ صفته على القرآن، مؤكِّداً صدق الوحي المنزل على النبي - ﷺ - فيقول تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2]. مبيِّناً أنّ الذي يتلقّاه محمَّد - ﷺ - هو الوحي المنزل عليه عن طريق جبريل - عليه السلام - فيقول: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[3].

ويرد في بعض المواضع تفصيل لطرق الوحي وأقسامه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[4].

وهذه الطرق هي الكلام وحياً، أو من وراء حجاب، أو عن طريق رسول من الملائكة، والطريقة الأخيرة هي التي أوحى اللّه بها إلى سيدنا محمَّد - ﷺ - والوحي مطلق غير محدَّد من اللّه - سبحانه وتعالى - وختْم الآية بصفات العظمة والجلال، يدلّ على صدق الوحي والموحى إليه.

ولذلك بيَّن في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[5]. أنّ اللّه أوحى إليه القرآن الكريم، مقروناً بنفي علمه ودرايته بأيِّ شيء قبل نزول القرآن عليه، وقد جعله اللّه نوراً يهدي به من يشاء من عباده.

---

(1) فاطر 31.
(2) النجم 4.
(3) نفسها 10.
(4) الشورى 51.
(5) نفسها 52.

قال ابن عطيَّة: «المعنى وبهذه الطرق ومن هذا الجنس أوحينا إليك أو للرسل والروح في هذه الآية القرآن وهدى الشريعة، سماه (روحاً) من حيث يحيي به البشر والعالَم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على وجه التشبيه»[1].

وقال أبو السعود: «هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبديَّة، وقيل جبريل - عليه السلام - ومعنى إيحائه إليه - عليهما السلام - إرساله إليه بالوحي»[2].

وكيفما كان المقصود بـ ﴿ رُوحًا ﴾ القرآن أو جبريل، فالمراد ثبوت نزول القرآن على محمَّد - ﷺ - وصدقه، عن طريق الوحي، بواسطة جبريل - عليه السلام -.

ثانياً: الأمر باتّباع الوحي:

يرد الوحي دالّاً على قصر اتّباعه من جانب الرسول - ﷺ - في آيات عدّة، إذ أمره اللّه - عزَّ وجلَّ - بأن يبلغ الناس أنَّه لا يعلم الغيب، وليس بمَلَك، ومهمَّته متمثِّلة في اتّباع الوحي لا يتعدَّاه إذ قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

والسرُّ في بلاغة تصريف هذه الآية إظهار تبرُّئه - ﷺ - عما يقترحونه عليه، ويأمر نبيه - ﷺ - باتّباع الوحي المنزل عليه من ربِّه، مقروناً أيضاً بالأمر بالتوحيد والإعراض عن المشركين؛ لأن ذلك هو المقصود الأصليُّ من إنزال الوحي فقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

وقد بيَّن سرَّ تصريف هذه الآية أبو السعود إذ قال: «لمَّا حكى عن المشركين قدحهم في تصريف الآيات عقَّبَ ذلك بأمره - ﷺ - بالثبات على ما هو عليه وبعدم

---

(1) المحرر الوجيز 5/ 44.

(2) إرشاد العقل السليم 8/ 38.

(3) الأنعام 50.

(4) نفسها 106.

الاعتداد بهم وبأباطيلهم، أي دم على ما أنت عليه من اتّباع ما أوحي إليك من الشرائع والأحكام التي عمْدَتُها التوحيد.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضميره - ﷺ - من إظهار اللطف به ما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض بيَّن الأمرين المتعاطفين، مؤكّد لإيجاب اتّباعِ الوحي لا سيّما في أمر التوحيد»[1].

ويأمر المولى - سبحانه وتعالى - نبيَّه - ﷺ - باتّباع الوحي مدحضاً شبهات الكفّار ودعاويهم الباطلة، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقد بيَّن أنّ القرآن الكريم منزل من عند اللّه، والرسول - ﷺ - متّبع للوحي ومبلّغ له، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

تلك هي شبهات الكافرين ودعاويهم الباطلة التي أبطلها القرآن آمراً النبيَّ - ﷺ - باتّباع الوحي والصبر على ذلك فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[4].

وقد أوقفه اللّه - سبحانه وتعالى - على أقوالهم، رادّاً عليها ومبطلاً لها، فقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[5].

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 17.

(2) الأعراف 203.

(3) يونس 15.

(4) نفسها 109.

(5) هود 12.

وقد جاء الوحي دالّاً على الأمر باتّباع ملّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

قال أبو حيَّان: «ولما وصف إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيَّه ـ ﷺ ـ أن يتَّبع ملَّته، وهذا الأمر من جملة الحسنة التي آتاها اللّه إبراهيم في الدنيا»[2].

وقال الزمخشريُّ: «في ثمَّ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول اللّه ـ ﷺ ـ وإجلال محلّه والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل اللّه إبراهيم من الكرامة وأجلّ ما أولي من النعمة اتّباع رسول اللّه ـ ملّته من قبل أنّها دلّت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى اللّه عليه بها»[3].

ولذلك وردت الإشارة إلى أنَّ ما أوحاه اللّه إليه من الأوامر والنواهي هي الحكمة التي يجب اتّباعها، مقرونة بالتوحيد، وبيان جزاء المخالفين، دلالة على الترابط القويّ والتماسك المتين بيَّن هذه الأصول ـ إذ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾[4].

وقد يرد الوحي دالّاً على إخبار الرسول ـ ﷺ ـ عمَّا يطلبه الّذين يريدون أن يدخلوا دينه بشروط طلبوها من الرسول ـ ﷺ ـ فبيَّن نواياهم ومرادهم من ذلك، إذ أرادوا إبعاده عن الوحي، أو ادّعاء ما لم يوجّه إليه، أو فتنته عن الوحي فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾[5].

قال أبو السعود: «نزلت في ثقيف، إذ قالوا للنبيِّ ـ ﷺ ـ لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا نعشر ولا نحشر، ولا نجبي في

(1) النحل 123.
(2) البحر المحيط 5/ 529.
(3) الكشاف 2/ 434.
(4) الإسراء 39.
(5) نفسها 73.

صلاتنا، وكلُّ ربا لنا فهو لنا، وكلُّ رباً علينا فهو موضوع عنَّا، وأنْ تمتِّعَنا باللات سنة، وأن تحرِّم وادينا وجّ[1]، كما حرَّمت مكَّة، فإذا قالت العرب لم فعلت؟ فقل: إن الله أمرني بذلك»[2].

ويرد الوحي دالّاً على قدرة الله ـ تعالى ـ على إنزاله وذهابه، إذ لا دخل لأحد في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾[3].

ولذلك أمر نبيَّه ـ ﷺ ـ باتّباع الوحي، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[4].

وإذ أمر نبيَّه ـ ﷺ ـ باتّباع الوحي في غير ما آية، بيَّن أنَّه ليس بدعاً من الرسل، فهو لا يعلم من الغيب شيئاً، إذ هو متَّبع للوحي، ومنذر به ومبيَّن له لا يتجاوزه، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

ثالثاً: وظيفة الوحي:

يرد الوحي دالّاً على رسالة محمَّد ـ ﷺ ـ ومبيِّناً مهمَّته المتمثِّلة في تلاوة القرآن وبيانه، مقرونة بالتوحيد، والتوكُّل عليه ـ سبحانه وتعالى ـ وإثبات المعاد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[6].

---

(1) وجّ ـ بفتح أوّله وتشديد ثانيه ـ هو الطائف، قال النابغة: أتُهْوى لي الوَعيدَ ببطن وجٍّ: كأني لا أراك ولاتراني. وقيل: وجّ هو وادي الطائف، وقيل سميت وجّاً بوَجّ بن عبد الحق من العمالقة، وقيل: من خزاعة (انظر معجم ما استعجم 4/ 1369 ومعجم البلدان 5/ 361 (مادة وجّ).

(2) إرشاد العقل السليم 5/ 187.

(3) الإسراء 86.

(4) الأحزاب 2.

(5) الأحقاف 9.

(6) الرعد 30.

ويبيّن أنَّ الرسول ـ ﷺ ـ بشر ينزل عليه الوحي، المتضمِّن لتوحيد اللّه ـ تعالى ـ وعدم الإشراك به، مثبتاً المعاد، آمراً بالعمل الصالح، الذي ينال صاحبه حسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[1].

ويحدِّد وظيفة الرسول ـ ﷺ ـ إذ يأمره بالإنذار بالوحي فيقول تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾[2].

وقد أشار الرازيُّ إلى السرِّ في بلاغة تصريف هذه الآية فقال: «اعلمْ أنّه ـ سبحانه ـ لما كرَّر في القرآن الأدلَّة، وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدَّم، أتبعه بقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ ﴾ أي بالقرآن الذي هو كلام ربّكم فلا تظنّوا أنَّ ذلك من قبلي: بل اللّه أتاكم به وأمرني بإنذاركم، فإذا قمت بما ألزمني ربّي فلم يقع منكم القبول والإجابة، فالوبال عليكم يعود، ومثَّلُهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرته وتواليه، بالصّم الّذين لا يسمعون أصلاً، إذ الغرض بالإنذار ليس السماع بل التمسُّك به»[3].

ويحدَّد وظيفة الوحي الأساسيَّة في إعلان التوحيد وإثباته للّه ربِّ العالمين، فيقول تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[4].

وقال الزمخشريُّ: «إنَّما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك إنَّما زيد قائم، وإنَّما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية، لأنَّ: ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ مع فاعله بمنزلة إنَّما يقوم زيد، و﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ بمنزلة إنَّما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أنَّ الوحي إلى رسول اللّه ـ ﷺ ـ مقصور على استئثار اللّه بالوحدانيّة، وفي قوله: ﴿ فَهَلۡ أَنتُم

(1) الكهف 110.
(2) الأنبياء 45.
(3) تفسيره 22/ 175.
(4) الأنبياء 108.

مُّسْلِمُونَ ﴾ أنَّ الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله وأن تخلعوا الأنداد»[1].

والسرُّ في بلاغة تصريف هذه الآية: إظهار أنَّ التوحيد هو المقصود الأصليُّ من الوحي، وتأتي أركان العقيدة الأخرى والأحكام الشرعيَّة مكملة لذلك الأصل، ولذلك يأمر نبيه - ﷺ - بتلاوة الوحي المنزل عليه من ربِّه - تعالى - وبيانه، وإقامة الصلاة ويبيِّن علل إقامتها، فيقول - عزَّ وجلَّ - ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[2].

ونجد الوحي يحدِّد وظيفة الرسول - ﷺ - في الإنذار والبيان، فيقول - عزَّ وجلَّ - ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

والسرُّ في ذلك نفي علم الرسول - ﷺ - بأيِّ شيء غير الوحي، إذ قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[4].

قال أبو السعود: «استئناف مسوق لتحقيق أنَّه نبأ عظيم وارد من جهته - تعالى - بذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة، فإنَّ ذلك حجَّة بيِّنة دالَّة على أنَّ ذلك بطريق الوحي من عند اللّه - تعالى - وأنَّ سائر أنبيائه أيضاً كذلك»[5].

وقد بيَّن الوحي للرسول - ﷺ - ومن بعده أمَّته - كما بيَّن ذلك للأمم السابقة أن الإشراك باللّه - تعالى - يحبط العمل، ويأمرهم بالعبادة والشكر، فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[6].

---

(1) الكشاف 2/ 586.
(2) العنكبوت 45.
(3) ص 70.
(4) نفسها 69.
(5) إرشاد العقل السليم 7/ 234.
(6) الزمر 65.

ونجد الوحي يأمر بإقرار بشريَّة الرسول - ﷺ - ويبيِّن الفرق بينه وبيِّن بقيَّة البشر، إذ ينزل عليه الوحي المتضمن للتوحيد، ويأمر بالاستقامة والاستغفار، ويتوعَّد المشركين فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[1]. مبيِّناً أنَّ اللّه - تعالى - أوحى إليه القرآن عربيّاً؛ لأجل الإنذار، مقروناً بإثبات البعث والجزاء، الذي لا شكَّ فيه، وتقسيم الناس في ذلك اليوم إلى فريقين، فريق في الجنّة، وفريق في السعير، إذ قال - تعالى -: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

وقد بيَّن أنَّ في الوحي الأمر بإقامة الدين، والنهي عن التفرُّق فيه وهو الدين الذي شرعه اللّه لنوح - عليه السلام - وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء والمرسلين - صلوات اللّه عليهم أجمعين - فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[3].

يرى أبو السعود: أنَّ التعبير عن ذلك بالذي لزيادة تفخيم شأن النبيِّ - صلَّى اللّه عليه وسلّم - من تلك الحيثيَّة وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولما في الإيحاء من التصريح برسالته - عليه الصلاة والسلام - القامع لإنكار الفكرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وهو السرُّ في تقديمه على ما بعده مع تقدُّمها عليه زماناً، وتقديم توصية نوح - عليه السلام - للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وتوجيه الخطاب إليه - عليه الصلاة والسلام - بطريق التلوين للتشريف والتنبيه، على أنَّه - تعالى - شرعه لهم على لسانه - عليه الصلاة والسلام -[4].

---

(1) فصلت 6.

(2) الشورى 7.

(3) الشورى 13.

(4) إرشاد العقل السليم 8/ 25 - 26.

يتبيَّن لنا من العرض السابق أنَّ القرآن الكريم يصرِّف القول في إثبات الوحـي، بطرائق شتَّى وأساليب مختلفـة فيعرضـها فـي كـلٍّ مـرَّة بطريقـة تختلـف عمـا ذكـر فـي غيرها من السور التي وردت فيها، من حيث الـدلالات والأسـاليب، إذ نجد فـي كـلّ مرَّة أنَّ إثباتها مرتبط ارتباطاً قويَّاً بسياقها الواردة فيه، وهو يتضمَّن في كـلّ مـرَّة معنىً جديداً، يخضع لسـوابق الآيـات ولواحقـها ولأسـباب نزولـها، فذلـك هـو التصريـف البديع الذي تميَّز به القرآن الكريم؛ لتحقيق مقاصده السامية.

الباب الثالث

تصريف القول في آيات الموعظة

نوَّع القرآن الكريم آيات الموعظة، تنويعاً عجيباً، فصرَّفها بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، غاية في البراعة والبيان، حتى ظنَّ بعض من لم يمعن النظر فيها أنَّها مكرَّرة؛ بل الأمر خلاف ذلك؛ إذ هو البيان البديع، والتفنُّن الدقيق، الذي يحقِّق المقاصد المتعدِّدة لتلك الآيات، والذي يختلف باختلاف المقاصد والأسباب، وبناء الآيات، وارتباط كلٍّ منها بما قبلها وما بعدها، وموضوع السورة وسياقها، واختلاف التعقيبات، واختلاف الأساليب والدلالات، فإنَّ لكلٍّ منها أساليب ودلالات تختلف عن غيرها من الآيات.

ومن ثمَّ، نستطيع القول: إنَّ هذه الجزئيات تكفل نفي صفة التكرار عن هذه الآيات وغيرها من آي كتاب الله ـ تعالى ـ وهو دليل على التصريف البديع، الذي ينفرد به القرآن الكريم عن غيره من الأساليب؛ ليحقِّق بذلك التنويع مقاصد السور والآيات، في أعلى درجات البلاغة والفصاحة.

إنَّ تصريف القرآن الكريم لآيات القصص والأمثال، إنما هو للموعظة والاعتبار، والتذكُّر؛ ولبيان الآيات الدالَّة على التوحيد، والإيمان، وترسيخ أصوله في القلوب.

فالقصص القرآنيّ، الذي صرَّف القرآن بيانه، إنَّما هو للعبرة وإعطاء المثُلات، وبيان سنَّة الله في المكذِّبين، فهو قصص للعبرة والموعظة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

وأمَّا الأمثال القرآنيّة، فهي توجز المعاني، بقصد التذكُّر والتفكُّر والاعتبار بأحوال الماضين، وبيان مصير المكذِّبين، لتقريب ذلك إلى الذهن، ولتفهيم المعاني، وتصويرها، بصورة المثال الذي مُثِّلَ به، وتحمل في ضمنها الترغيب والترهيب، وهو أسلوب من أساليب الموعظة، يبيِّن جزاء الممتثلين والمخالفين لأوامر الله ـ عز وجل ـ بغية الاتّعاظ والاعتبار، وذلك ما ستجليِّه الدراسة اللاحقة، والتي أقسمها إلى فصلين:

الفصل الأول: تصريف القول في القصص القرآنيّ.

الفصل الثاني: تصريف الأمثال القرآنيّة.

---

(1) يوسف 111.

الفصل الأوّل
تصريف القول في القصص القرآنيّ

يجدر بنا قبل الحديث عن تصريف القول في القصص القرآنيّ، أن أذكر تعريفه الذي سمّاه الله به في أكثر من آي كتاب الله العزيز.

فالقصص تَتَبُّعَ الأثر، يقالُ قَصَصْتُ أَثَرَهُ والقَصَصُ الأثرُ، قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[2].

والقَصَصُ الأخبار المتتبَّعةُ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[6].

وقال ابن منظور فيما نقله عن الليث: «القصُّ فعل القاصّ، إذا قصّ القصَصَ، والقصَّة معروفة، ويقال في رأسه قصَّة يعني الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ أي نبيِّن لك أحسن البيان.

والقاصُّ: الذي يأتي بالقصَّة من فَصِّها، ويقال: قصَصْت الشيء إذا تتبَّعْت أثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ أي اتَّبعي أثره،

---

(1) الكهف 64.
(2) القصص: 11.
(3) آل عمران: 62.
(4) يوسف: 111.
(5) القصص: 25.
(6) يوسف: 3، وانظر المفردات في غريب القرآن ص 404 مادّة: قصص ومباحث في علوم القرآن منّاع القطان ص 305.

ويجوز بالسين، قسست قساً... الخ والقصَّة: الخبر وهو القَصَصُ: وقصَّ عليّ خبره يقُصُّه قصّاً وقصصاً أورده، والقصُّ: الخبر المقصوص ـ بالفتح ـ وضع موضع المصدر حتى صار أغْلَب عليه، والقصَصُ ـ بكسر القاف ـ جمع القصَّة التي تكتب... الخ.

والقصَّة: الأمرُ والحديث، واقتصصت الحديث، رَوَيْته على وجهه، وقصَّ عليه الخبر، قصصاً، وفي حديث الرؤيا «لا تقُصّها إلاّ على وادٍّ»[1] يقال: قصصت ـ بالفتح: الاسم.

والقاصُّ الذي يأتي بالقصَّة على وجهها كأنَّه يتتبَّع معانيها وألفاظها[2]».

وقال محمّد بن عاشور: «والقَصَص ـ بفتح القاف والصاد ـ اسم ما يُقصُّ، يقال قصّ الخبر قصّاً إذا أخبر به، والقصّ أخصّ من الأخبار، فإنّ القصّ إخبار بخَبَرٍ فيه طولٌ وتفصيل وتسمَّى الحادثة التي من شأنها أن يُخْبر بها قصَّة ـ بكسر القاف ـ أي مقصوصة، أي مما يقصُّها القُصّاص، ويقال للذي ينتصب لتحديث الناس بأخبار الماضين قصَّاص ـ بفتح القاف ـ فالقصص اسم لما يقصّ... وقيل: هو اسم مصدر وليس هو مصدراً، ومن جرى على لسانه من أهل اللغة أنَّه مصدر فذلك تسامح من تسامح الأقدمين، فالقصّ بالإدغام مصدر، والقصص بالفكّ اسم للمصدر واسم للخبر المقصوص»[3].

---

(1) أخرج ابن ماجة في سننه 2/ 1288 عن وكيع بن عُدُس العُقَيْليِّ، عن عمّه أبي رزين، أنه سمع النبيّ ـ ﷺ ـ يقول: «الرُّؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تُعْبَرْ، فإذا عُبِرَتْ وقعت» قال: «والرُّؤيا جُزْءٌ من ستّة وأربعين جُزءاً من النبوّة» قال: وأَحْسِبُهُ قال: «لا يُقُصّها إلاّ على وادٍّ أو ذي رَأْي» وأخرج التِّرمذي في صحيحه باختصار السند 2/ 260 عن أبي هريرة ـ قال: قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: «لا تَقَصَّ الرُّؤيا إلاّ على عالم، أو ناصح».

(2) لسان العرب 7/ 73 مادة: قصص.

(3) التحرير والتنوير 3/ 267.

فالقصص القرآنيّ هو ذكر الأخبار والأحداث الصادقة التي صرَّف القرآن بيانها، وذلك بقصد تحقيق جملة من المقاصد السامية التي سيأتي بيانها في محلّه - إن شاء اللّه تعالى - [1].

ولا بدّ لنا في بداية حديثنا عن تصريف القول في القصص القرآنيّ أن أبيِّن ما يتميَّز به القصص القرآنيّ؛ فهو يتميَّز بالصدق، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[2].

وقد وصفه بالحقّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

«فجملة ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى أنَّ القرآن أتى بوقائع صحيحة من التاريخ ليبيِّن لأتباع الأديان القول الفصل في القضايا التي اختلفوا فيها حول حقيقة الأنبياء ورسالتهم والدفاع عمَّا ألصق ببعضهم من تهم وأباطيل»[5].

وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[6].

---

(1) القصَّة: الأمر والخبر، والشأن، والحال، وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوَّات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبَّع آثار كلِّ قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.
والقصص في القرآن ثلاثة أنواع: النوع الأول: قصص الأنبياء وقد تضمَّن دعوتهم إلى قومهم والمعجزات التي أيدّهم اللّه بها وموقف المعاندين منهم. ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذّبين.
والنوع الثاني: قصص قرآنيّ يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوَّتهم، كقصَّة الّذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف... الخ.
والنوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول اللّه - ﷺ - كغزوة بدر وأحد (مباحث في علوم القرآن ص 306).

(2) يوسف: 111.

(3) آل عمران 62.

(4) هود: 120.

(5) اليهود في القرآن الكريم ص 256.

(6) الكهف: 13.

قرَّر عبد الكريم الخطيب أنَّ القصَّة القرآنيّة بنيت بناءً محكماً من لبنات الحقيقة المطلقة التي لا يطوف بحماها طائف من خيال، ولا يطرقها طارق منه، ثمَّ هي مع هذا قصَّة حيث سمَّى القرآن كلَّ ما جاء على هذا النحو قصصاً»[1].

«فمن حيث الموضوع هو نسيج خالص من الصدق المطلق والحقيقة لا يختلط به وهم أو خيال، يبنى من لبنات الحقيقة والواقع بلا تزويق أو تمويه أو خداع. ومن ناحية الأسلوب الرائع الممزوج فيه بالإعجاز بالروعة والصدق في الأداء، ووجهة النظر الواحدة»[2].

ويتميَّز القصص القرآنيّ أيضاً بالإعجاز، وقد أشار إلى ذلك في أكثر من آية إذ قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[5].

وقد اعتبر الباقلانيّ القصص القرآنيّ الوجه الثالث من وجوه معجزة الرسول ـ عليه السلام ـ دالاً على نبوته[6].

وقال محمَّد بن عاشور: «إنَّ قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيّامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان إشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلاَّ الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدّياً عظيماً لأهل الكتاب وتعجيزاً لهم بقطع حجَّتهم على المسلمين»[7].

---

(1) القصص القرآنيّ في منطوقه ومفهومه ص 40.
(2) من علوم القرآن، فؤاد علي رضا ص 198.
(3) هود: 49.
(4) القصص: 44.
(5) نفسها: 46.
(6) نكت الانتصار ص 59.
(7) التحرير والتنوير 1/ 65.

«إن القصَّة القرآنيّة، وإن تكن أحداثها مما يفيض به واقع الحياة، ومما يعيش فيه الناس، فإنها تشتمل دائماً على قدر من الإعجاز إن لم يكن في الحدث ذاته، فإنَّه في النظم القرآنيّ، من حيث هو إعجاز بما اشتمل عليه أسلوبه من قوى مدركة وغير مدركة، يعجز الناس جميعاً عن الجري معها، أو التعلُّق بأذيالها، فالحدث أيّا كان، هو في معرض النظم القرآنيّ معجزة قاهرة، تعنو لها الوجوه، وتخضع أمام جلالها الرقاب»[1].

«وإنَّما إعجاز القرآن الذي يظهر من خلال نقل الحقائق، والوقائع والأحداث، هو في الصدق الخالص، الصدق المطلق، المصفّى من كلِّ تنميق أو تزويق.

إعجاز القرآن هنا هو في نقل ما ينقل من الواقع البعيد أو القريب، نقلاً دقيقاً أميناً، يمسك بالحياة كلِّها في محيط الحدث الذي ينقله، فلا يفلت منه شيء»[2].

وقد امتنَّ اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ على رسوله ﷺ بالقصص الذي صرَّف بيانه في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾[3].

قال الزمخشريُّ: «والمراد بأحسن الاقتصاص أنَّه اقتُصَّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب»[4].

إنَّ في هذه الآية دليلاً على أنَّ ما قصَّه اللّه تعالَى من أحسن القصص إنَّما كان بإيحاء القرآن إليه[5].

---

(1) القصص القرآنيّ للخطيب ص 150.

(2) نفسه ص 153.

(3) يوسف: 3.

(4) الكشاف 2/ 300 ـ 301.

(5) الوحدة الموضوعيَّة في سورة يوسف ص 60.

كما أنَّ فيها أيضاً دليلاً على أنَّ القصص القرآنيّ كلام حسن في لفظه، دقيق في معناه، مشتمل على أحداث حقيقيَّة سابقة، متضمِّنة ما يهدي إلى الحقّ ويرشد إلى الخير[1].

ومن هنا فإنَّ الحديث في هذا الفصل سيكون مقسَّماً إلى أربّعة مباحث:

الأول: بلاغة تصريف القصص القرآنيّ.

الثاني: مقاصد تصريف القصص القرآنيّ.

الثالث: أسلوب القصص القرآنيّ.

الرابع: نماذج لتصريف القصص القرآنيّ.

(1) مجلّة كلّيّة التربيَّة جامعة الرياض، العدد الأول، السنة الأولى، 1397هـ/ 1977م، القصَّة القرآنيّة ودورها في التربية أحمد أحمد علّوش ص8.

المبحث الأول
بلاغة تصريف القصص القرآنيّ

تنبَّه الرمَّانيُّ إلى هذا النوع من التصريف القرآنيّ البديع، قائلاً: «أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، فقد جاء في القرآن في غير قصَّة، منها قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ ذُكرت في سورة الأعراف وفي طه والشعراء، وغيرها لوجوه من الحكمة، منها التصرُّف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة، ومنها حلُّ الشبهة في المعجزة»[1].

وقد أشار الباقلانيّ، إلى أنَّه أعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونُبِّهُوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبْتداً به ومكرَّراً.

ولو كان فيهم تمكُّن من المعارضة لقصدوا تلك القصَّة فعبّروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني وتحويها وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصَّلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به.

فعلى هذا يكون المقصدُ بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز[2].

ثمَّ ضرب مثلاً بالسورة التي يذكر فيها «النمل» وطلب من المتأمّل أن ينظر في كل كلمة كلمة وفصل فصل، بدأ بذكر السورة بأنْ بيَّن أنَّ القرآن من عنده، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3].

ثمَّ وصل بذلك قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ وأنَّه رأى ناراً، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[4]. وقال في سورة طه في هذه القصَّة: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[5]. وفي موضع: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾[6].

---

(1) النكت في إعجاز القرآن ص 101 ـ 102.
(2) إعجاز القرآن ص 88.
(3) النمل: 6.
(4) نفسها آية 7.
(5) طه 10.
(6) القصص: 29.

والقرآن قد تصرّف في وجوه، وأتى بذكر القصَّة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طُرُق ذلك ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجَّة عليهم.

وكلُّ كلمة من هذه الكلمات، وإن أنبأت عن قصَّة، فهي بليغة بنفسها، تامَّة في معناها[1].

وقد أكَّد هذا التصريف الشاطبيُّ، فقال: «وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن؛ لأنَّه يأتي مساقُ القصَّة في بعض السور على وجه، وفي بعضها على وجه آخر، وفي ثالثة على وجه ثالث، وهكذا ما تقرّر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأوّل، إلاَّ إذا سكت عن بعض التفاصيل، ونصَّ عليه في بعض، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت»[2].

ونجده يشير إلى هذا التصريف أيضاً عند حديثه عن بناء سورة المؤمنون، إذ يقول: «وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ـ كنوح، وهود، وصالح ولوط، وشعيب، وموسى، وهارون، فإنَّما ذلك تسلية لمحمَّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتثبيت لفؤاده، لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة، فتذكر القصَّة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصَّة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال، والجميعُ حقٌّ واقع لا إشكال في صحَّته»[3].

وقرَّر صاحب المعجزة الكبرى: أنَّ ذكر القصَّة الواحدة في القرآن الكريم، في عدَّة مواضع، تصريف في المعاني، وإن كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب، أو تتَّحد العبارات في بعض الأحيان[4].

والجدير بالتنبيه إليه في هذه المقام أنَّ بعض العلماء الّذين اعتنوا بالبلاغة وإعجاز القرآن، يطلقون على القصص القرآنيّ صفة التكرار أحياناً، وينفونها عنه

---

(1) إعجاز القرآن ص 202.

(2) الموافقات 2/ 67.

(3) نفسه 3/ 419.

(4) المعجزة الكبرى ص 157.

أحياناً أخرى. فهذا ابن قتيبة يعلِّل سبب تكرار القصص فيقول: «وأمَّا تكرار الأنباء والقصص، فإن اللّه ـ تبارك وتعالى ـ أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض: تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووَعْظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سِنَة الغَفْلَة، وشحْذاً لقلوبهم بمُتَجَدِّد الموعظة»[1].

وتبعه في ذلكَ الزركشيُّ قائلاً: «ومنه تكَرار القَصص في القرآن، كقصَّة إبليس في عدم السجود لآدم، وقصَّة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر اللّه موسى في مائة وعشرين موضعاً في كتابه، قال ابن العربيِّ في «القواصم» ذكر اللّه قصَّة نوح في خمس وعشرين آية، وقصَّة موسى في سبعين آية»[2].

ثمَّ ذكر فوائد تكرار القصص نلخِّصها من كتابه «البرهان في علوم القرآن» إحداها[3]: أنَّه إذا كرَّر القصَّة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحيَّة في عصا موسى ـ عليه السلام ـ وذكرها في موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كلُّ حيَّة ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرِّرَ أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أنَّ الرجل كان يسمع القصَّة من القرآن ثمَّ يعود إلى أهله، ثمَّ يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأوَّلين؛ فلولا تكرار القصَّة لوقعت قصَّة موسى إلى قوم، وقصَّة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ إشراكَ الجميع فيها، فيكون فيه إفادة قومٍ، وزيادة تأكيد وتبصرةٌ لآخرين وهم الحاضرون.

الثالثة: تسلية لقلب النبيِّ ـ ﷺ ـ.

الرابعة: أنَّ إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

---

(1) تأويل مشكل القرآن ص 232.

(2) البرهان 3/ 25، وانظر الإتقان 3/ 204، ومعترك الأقران 1/ 263. وفيهما: قصَّة موسى في تسعين آية.

(3) قال السيوطي: «إن في كلِّ موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة، وهذه عادةُ البلغاء» (الإتقان 3/ 204).

الخامسة: أنَّ الدّواعي لا تتوفَّر على نقلها كتوفُّرها على نقل الأحكام، فلهذا كرِّرت القصص دون الأحكام.

السادسة: أنَّ اللّه ـ تعالى ـ أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحَّة نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ ثمَّ بيَّن وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرَّر ذكر القصَّة في مواضع، إعلاماً بأنَّهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأيِّ نظم جاؤوا، وبأيّة عبارة عبَّروا.

السابعة: التحدّي: إذ أنزلها اللّه ـ سبحانه ـ في تعداد السور، دفعاً لحجّتهم من كلّ وجه.

الثامنة: أنَّ القصَّة الواحدة من هذه القصص؛ كقصَّة موسى مع فرعون ـ وإن ظُنَّ أنها لا تغاير الأخرى، فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فإنَّ كلّ واحدة لابدّ وأن تخالف نظيرتها في نوع معنى زائد فيها، ولا يوقف عليه إلاّ منها دون غيرها؛ فكأنّ اللّه ـ تعالى ـ فرّق ذكر ما دار بينها وجعله أجزاء، ثمَّ قسَّم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متَّفقة فيها؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وُجد الأمر عليه من الكتب المتقدِّمة؛ من انفراد كلِّ قصَّة منها بموضع؛ كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف ـ عليه السلام ـ خاصَّة، فاجتمعت في هذه الخاصِّيَّة؛ من نظم القرآن عدَّة معان عجيبة، منها: أنَّ التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدثَ ملَلاً، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها أنَّه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً، فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات.

ومنها، أنَّ المعاني التي اشتملت عليه القصَّة الواحدة من هذه القصص صارت متفرِّقة في تارات التكرير، فيجد البليغ ـ لما فيها من التغيير ـ ميلاً إلى سماعها، لما جُبلت عليه النفوس من حبِّ التنقُّل في الأشياء المتجدِّدة التي لكلٍّ منها حصَّة من الإلتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبيِّ - ﷺ - يَعْجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرَّفهم اللّه - سبحانه - أن الأمر بما يتعجَّبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد[1].

تلك خلاصة كلام الزركشيِّ، نصل منها إلى أنَّه لا تكرار في القصص القرآنيِّ، وإنَّما هو التصريف البديع الذي نستدلَّ عليه ببعض ما ذكره الزركشيُّ والسيوطيُّ في فوائد القصص.

فمن ذلك ما ذكره السيوطي في الفائدة الأولى: أنَّ في كل موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة[2].

فذلك هو التصريف، الذي يحصل من زيادة الحروف والكلمات في الآية، فلكل حرف ولكل كلمة معناها الدقيق الذي يميِّزها عن غيرها، وكذلك الحال إذا أبدلت كلمة بأخرى، فإن الكلمة التي تبدل تعطي معنىً جديداً غير معاني الكلمة الأخرى.

كما أنَّ تفرُّق المعاني التي اشتملت عليها القصَّة الواحدة لا يعدُّ تكراراً كما يراه الزركشيُّ[3] إذ إنَّ ذلك راجع إلى التنويع الذي يقتضيه السياق وموضوع السورة.

ثمَّ نراه يشير إلى هذا المعنى إذ يقول: «إنَّ المعاني التي اشتملت عليها القصَّة الواحدة من هذا القصص صارت متفرِّقة في تارات التكرير فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلاً إلى سماعها لما جُبلت عليه النفوس من حبِّ التنُّقل في الأشياء المتجدِّدة التي لكلٍّ منها حصَّة من الإلتذاذ به مستأنفة.

ومن ثمَّ فإنَّ قوله: لما فيها من التغيير - يعني التصريف، ولكنه لم يصرِّح به، ودليلنا على ذلك قول الراغب حين عرَّف التصريف، بردِّ الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره[4].

---

(1) البرهان في علوم القرآن 3/ 26 - 28، وانظر الإتقان 3/ 204 - 205 ومعترك الأقران 1/ 263 - 264.

(2) الإتقان 3/ 204.

(3) البرهان 3/ 28.

(4) المفردات في غريب القرآن ص 279 مادَّة صرَّف.

وكذلك التغاير في أنواع النظم لا يعني التكرار، على ما يراه الزركشيُّ فيما سبق ذكره؛ لأن التغاير يعني الاختلاف، والاختلاف سواء أكان في النظم أم في المعاني، فهو ينفي التكرار عما تغاير فيه.

ونراه يشير مرَّة ثانية إلى هذا التصريف فيقول: «ومنها أنَّه ألبسها زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً، فنزَّهه عن ذلك بهذه التغيُّرات»[1].

ونستدلُّ أيضاً على تصريف القصص القرآنيّ ونفي التكرار بما ذكره صاحب «في ظلال القرآن» حين ذهب إلى أنَّ ورود القصص القرآنيّ في مواضع ومناسبات، يحدِّدها مساق القصَّة، والمناسبات التي تساق من أجلها، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدّى بها، تنسيقٌ للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدّي دورها الموضوعيّ، وتحقِّق غايتها النفسيَّة وتلقي إيقاعها المطلوب[2].

ثمَّ قال: «ويحسب أناس أنَّ هنالك تكراراً في القصص القرآنيّ؛ لأنَّ القصَّة الواحدة قد يتكرَّر عرضها في سور شتَّى، ولكنَّ النظرة الفاحصة تؤكدِّ أنه ما من قصَّة، أو حلقة قد تكرَّرت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنَّه حيثمَّا تكرَّرت حلقة كان هنالك جديد تؤدِّيه، ينفي حقيقة التكرار.

ويزيغ أناس فيزعمون أنَّ هنالك خلقاً للحوادث أو تصرُّفاً فيها، يقصد به إلى مجرَّد الفنِّ - بمعنى التزويق الذي لا يتقيَّد بواقع - ولكن الحقَّ الذي يلمسه كلُّ من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أنَّ المناسبة الموضوعيَّة هي التي تحدِّد القدْرَ الذي يعرض من القصَّة في كلِّ موضع.

---

(1) البرهان في علوم القرآن 3/ 27.

(2) في ظلال القرآن 1/ 55.

كما تحدّد طريقة العرض وخصائص الأداء، والقرآن كتاب دعوة ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار بالقدْر وبالطريقة التي تناسب الجوَّ والسياق، وتحقِّق الجمال الفنِّيَّ الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض وقوَّة الحقِّ، وجمال الأداء»[1].

ويرى عبد الكريم الخطيب أنَّ الذي دعا إلى القول بالتكرار في القصص القرآنيّ، هو ظهور الشخصية في مواقف متعددة، فوقع للنظرة المجرَّدة من التعمُّق والتبصُّر أنَّ ذلك من التكرار، بل التكرار المملُّ، الذي لا تدعو إليه داعية، من حال أو مقام، هكذا يقول الّذين أعماهم الجهل عن أن يروا الحقيقة الواضحة من هذا التكرار.

ثمَّ أكَّد على أنَّ الشخصيَّة في القصص القرآنيّ ليست مقصودة لذاتها، ولا كان ذكر الأشخاص منظوراً إليه نظرة القصص التاريخي إلى شخصيَّاته، وعرضهم في معارض البطولة، في أيٍّ مجال من مجالاتها.

وإنَّما الأحداث والوقائع، أوَّلاً، ثمَّ الشخصيَّات التي تلبسَّت بها أو لابستها الأحداث ثانياً؛ لأنَّ مناط العبرة والعظة، إنما هو في الحدث، وفي مواقف الناس منه، وتلقيِّهم له، من بين محسن ومسيء، ومقبل ومعرض، ومستقيم ومنحرف.

ومن خلال هذه المواقف التي يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تتكشَّف وجوه العبرة والعظة منها، وهذا ما جاء القصص القرآنيّ من أجله.

وهو يرى أنَّه لا تكرار في القصص القرآنيّ، مرجعاً ذلك إلى أنَّ الأحداث في القصص القرآنيّ، تدور حول محيط الدعوة إلى الله، وإلى تحرير العقيدة، وتصفيتها من العبوديَّة لغير الله، وتوجيهها إلى عبادة الإله الواحد، الخالق ربِّ العالمين.

ولذلك كانت دعوة الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآنيّ، بحيث ساغ أن يسمَّى القصص باسم صاحب الدعوة، فيقال قصَّة يوسف، وقصَّة موسى، وقصَّة يونس، وقصَّة هود، وقصَّة نوح... الخ[2].

---

(1) في ظلال القرآن 1/ 55.
(2) القصص القرآنيّ للخطيب ص 42 ـ 43.

وممَّا ينفي التكرار عن القصص القرآنيّ، ما نبَّه إليه عبد الكريم الخطيب من أنّه قد يكون الاختلاف في اللفظ فضلاً عن الاختلاف في الأحوال والمواقف.

وقد ضرب لذلك مثلاً بعصا ـ موسى عليه السلام ـ وتصريفها بعد أن يلقيها من يده، فمرَّة[1] ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ومرَّة أخرى ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ومرَّة ثالثة ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ فهي صور من أحوال العصا، يكمل بعضها بعضاً، فهي حيَّة في ضخامتها، وهي ثعبان في خفّتها ونشاطها، وهي جانّ بما تثير من رعب وفزع، ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلِّها، وصحبها على هذه الوجوه التي تكشف له منها، وهذه الصور المتعدِّدة للعصا، وفيما يتشكلَّ منها حين يلقيها موسى من يده، هذه الصورة قد تظهر في مشاهد متعدِّدة، فتظهر مرَّة ثعباناً مبيّناً ومرَّة حيَّة تسعى، ومرَّة كأنَّها جانٌّ، كما أنَّ هذه الصور جميعها قد تظهر في مشهد واحد، ولكن يختلف موقعها من العين، فتختلف صورتها في المنظر، فتكون وهي قريبة من العين حيَّة تسعى، ثمَّ إذا بعدت عنها بدت ثعباناً مبيناً، ثمَّ إذا بعدت أكثر خيِّل أنَّها جانٌّ ينطلق كالسهم[2].

وقد أشار صاحب «التعبير القرآنيّ» إلى أنَّ القصَّة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلَّط الضوء عليه.

وهذا شأن القصص القرآنيّ، الذي ترى أنَّ القصَّة فيه كأنَّها تتكرَّر في أكثر من موطن والحقيقة أنَّها لا تتكرَّر ولكن يعرض في كلِّ موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

---

(1) وهو يعني بذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (طه 19 ـ 20). وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف 107، والشعراء 32) وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل 10) وكذا نظيرها في القصص الآية 31.

(2) القصص القرآنيّ للخطيب ص 71.

وهو بذلك ينفي التكرار عن القصص القرآنيّ، ويلمِّح إلى هذا التصريف البديع، دون أن يصرِّح به فيقول: «ولذا نراه - أي القرآن - لا يذكر القصَّة على صورة واحدة بل نراه يذكر في موطن ما يطوي ذكره في موطن آخر، ويفصِّل في موطن ما يوجز في موطن آخر، ويقدِّم في موطن ما يؤخِّره في موطن آخر، بل تراه أحياناً يغيِّر في التعبيرات ونظم الكلام تغييراً لا يخلُّ بالمعنى، كلُّ ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلَّبه المقام، وذلك في حشد فنِّيٍّ عظيم»(1). وكأنَّه بهذا يبيِّن لنا أنَّ ذلك هو التصريف البديع، والتنويع العجيب، الذي يقتضيه السياق ويتطلَّبه المقام.

وقد تكلَّم البوطيُّ عن منهج القصَّة في القرآن وذكر أنَّ هذا المنهج يتكَّون من ثلاثة مظاهر منها التكرار. وقرَّر أنَّ هذا - أي التكرار - ليس تعبيراً دقيقاً عن هذه الظاهرة، فالذي يحدث عند تكرار القصَّة أكثر من مرَّة في القرآن، ليس هو التكرار بمعناه المعروف، إنما الذي يحدث هو أنَّ القرآن يتناول من القصَّة الواحدة في كل مرَّة جانباً معيَّناً فيها، وهو الجانب الذي تستند عليه المناسبة.

وقد يحدث أن يتكرَّر عرض القصَّة نفسها أو عرض الجانب الواحد منها، بحسب الظاهر، ولكنَّ تلك القصَّة أو ذلك الجانب منها ينطوي على عبر وعظات متعدِّدة فيقتضي الغرض الدينيُّ أن يعاد ذكرها عندما تأتي مناسبة كلِّ عبرة من عبرها، فتلبس القصَّة في كلِّ مرَّة من الأسلوب والإخراج التصويري ما يناسب المعنى الذي سيقت بصدده، حتى لكأنَّك منها أمام قصَّة جديدة لم تتكرَّر على مسامعك(2).

وقد أشارت إلى مصطلح تصريف القصص القرآنيّ أيضاً الباحثة باربرا فراير، حيث تحدَّثت عنه في معرض حديثها عن النساء في القرآن والتراث والتفسير، دون أن تصرِّح به، وذلك مما يدُلّ على وضوح هذا المصطلح، ونفي التكرار عن القرآن الكريم، إذ تقول: «تكلَّم القرآن عن آدم وزوجه في سور كثيرة، وفي كلِّ مثال تكون القصَّة حكاية معادة مطعَّمة بإضاءات خاصَّة تجعل كلَّ قصَّة مخالفة للأخرى»(3).

---

(1) التعبير القرآنيّ ص 251.

(2) من روائع القرآن ص 232 - 233.

(3) BARBARA FREYER STOWASSER Women in the QUR'AN-TRADITIONS and Interpretation p. 25.

ونجد أنَّ بعض المهتمِّين بعلوم القرآن مضطربون في تحديد هذا المصطلح، فمرَّة يثبتون التكرار ومرَّة ينفونه، فمن ذلك صاحب «القصَّة في القرآن» إذ تحدَّث عن منهج القصَّة في القرآن، وذكر أنَّ القصَّة الواحدة وردت مكرَّرة في مواضع شتَّى، إذ قال: «فالقصَّة الواحدة تكرَّر أكثر من مرَّة في القرآن، وتكرار القصَّة الواحدة بصورة مختلفة منهج وطريق تربوي».

ثمَّ نجده يشير إلى التصريف دون أن يصرح به فيقول: «إن في كلّ مرَّة تجد أسلوباً جديداً يعطيك ثوباً من التصوير والتجسيم غير الذي كان يلبسه في المرَّة السابقة حتى لكأنه معنى جديدٌ».

ثمَّ نراه يقرّر أنّ تكرُّر القصَّة نفسها في عديد من سور القرآن حسب جوانبها المختلفة، وفي كلِّ مرَّة يختلف عرض القصَّة، ويختلف أسلوبها ويختلف لفظها، ثمَّ أخيراً يختلف الثوب الذي تلبسه والقالب الذي تصبُّ فيه؛ فتلبس القصَّة في كلِّ مرَّة ثوباً آخر من العرض والأسلوب والتصوير، وتأخذ القالب المناسب للمعنى الذي سيقت بصدده حتى لكأنَّك أمام قصَّة جديدة لم يطرق سمعك مضمونها ولا دقائقها من قبل[1].

وتبعه أيضاً صاحب «علوم القرآن» إذ يقول: «ونعني بالتكرار أن ترد القصَّة الواحدة مكرَّرة في مواضع شتَّى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصَّة كلَّها ـ غالباً ـ إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها، أما جسم القصَّة كلَّه فلا يكرَّر إلاّ نادراً ولمناسبات خاصَّة في السياق»[2].

يتبيَّن لنا من العرض السابق أنه لا تكرار في القصص القرآنيّ، وإنّما هو التصريف البديع، والتنويع العجيب، الذي يرجع إلى السياق وموضوع السورة التي تذكر فيها القصَّة؛ ليحقِّق بذلك مقاصد القصَّة بأبلغ أسلوب وأروعه، وذلك ما ستبيِّنه الدراسة اللاحقة.

---

(1) القصَّة في القرآن، محمود بن الشريف ص 84.
(2) علوم القرآن عبدالله شحاتة ص 162.

المبحث الثاني
مقاصد تصريف القصص القرآنيّ

رأينا - فيما سبق - أنَّه لا تكرار في القصص القرآنيّ، وإنَّما هو التصريف البديع، الذي يبيِّن المقاصد السامية للقصص القرآنيّ. لذلك سنتحدَّث في هذا المبحث عن مقاصد تصريف القصص القرآنيّ، التي نوَّع القرآن بيانها في مواطن متفرِّقة من الكتاب العزيز.

والقرآن الكريم حين يصرِّف قصصه لم يقصد بيان التاريخ بذاته، وإنما له مقاصد متنوِّعة تُتلمَّس فيها العبر والعظة.

قال محمّد رشيد رضا، نقلاً عن الأستاذ الإمام في ردِّه على شبهة كثير من أعداء القرآن الذين يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ما نصُّه:

«يفهم مّما قلناه مراراً في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن، وهو أنَّه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتَّبة بحسب أزمنة وقوعها وإنَّما المراد بها الإعتبار والعظة، ببيان النعم متَّصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتّقى من جهتها، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب، أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير»[1].

وتبعه القاسميُّ فقال: «إنَّ قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص وإنَّما هي عبرة للناس. . .».

ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرّم[2]، ويؤتى فيها بالجرّة وأذن الجرة، كما في بعض الكتب، التي تسمِّيها الملل الأخرى مقدَّسة»[3].

---

(1) تفسير المنار 1/ 327.

(2) يعني الشيء الكثيرَ والقليلَ (المعجم الوسيط 2/ 587 مادة طمّ).

(3) محاسن التأويل 1/ 114.

«إذ ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها، وإنما هي الآيات والعبر، تجلَّت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم، لبيان سنن الله - تعالى - فيهم، إنذاراً للكافرين بما جاء به محمّد - ﷺ - وتثبيتاً لقلبه وقلوب المؤمنين به، ولذلك لم تذكر قصَّةٌ بترتيبها وتفاصيلها، وإنَّما يذكر موضع العبرة فيها»[1].

فالذي ينظر إلى القرآن الكريم نظرة فاحصة تليق بمقامه العظيم، ومكانته في البيان العربيِّ، يجد أنَّ التكرار فيه له مغزىً، ذلك أنَّ القرآن ليس كتاب قصص، وليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخَيَّلة أو الواقعة.

إنَّما قصص القرآن، وهو قصص لأمور واقعة، يساق للعبر وإعطاء المثُلات[2] وبيان مكان الضالِّين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، وبيان ما يقاوَم به النبيّون ووراءهم كلُّ الدعاة للحقِّ، فهو قصص للعبرة بين الواقعات، لا لمجرَّد المتعة من الاستماع والقراءة[3].

«والقصص القرآنيّ، وإن يكن عرْضاً لأحداث مضت إلاّ أنَّه لا يعرض هذه الأحداث مجرَّد عرض تاريخيٍّ لإفادة العلم بها، أو لإظهار أنَّ أخباره التي يجيء بها منزلة من جهة عالمة بكلِّ شيء محيطة بكلِّ شيء، وإنَّما يعني هذا القصص، أوَّلاً وبالذات بما في هذه الأحداث من عظات وعبر، فيها تذكرة وموعظة، لمن يقف عندها ويستمع إليها»[4].

ولم يكن القرآن الكريم ليصوِّر الأحداث في الأزمان الغابرة لقصد التنبيه على أحوال الأمم السالفة، أو لغرض التسلية وجذب الأسماع فحسب، وإنَّما اجتمعت في

---

(1) تفسير المنار 2/ 205.

(2) المثُلَةُ: تَنْزِلُ بالإنسان فيُجْعَلُ مثالاً يرتدعُ به غيرهُ وذلك كالنّكال، وجمْعُهُ مُثُلاَتٌ ومَثُلاتٌ (المفردات في غريبِ القرآن ص 463 (مثل)).

(3) المعجزة الكبرى ص 162 ـ 163.

(4) القصص القرآنيّ للخطيب ص 193.

قصص القرآن مقاصد سامية، تقوم على تحقيق الإيمان وترسيخ أصوله في القلوب، فغلب عليها الاتِّجاه الروحي السامي الذي اقترن في حقيقته بالعبرة الجليلة.

فالقرآن الكريم كتاب دعوة دينيَّة أوَّلاً وقبل كلِّ شيء، ولم يكن هذا القصص سرداً مجرَّداً لبعض الروايات القديمة يتسلَّى بها السامعون، يصدِّق بعضها ويكذِّب بعضها، كما في سائر الكتب والقصص، ولكنَّها - أي قصص القرآن - اتَّسمت بالواقعيّة المطلقة التي لا زيف فيها، ولم تكن سرداً تاريخيّاً.

إنَّ القرآن الكريم يذكر القصَّة في مواطنها بأساليب متغايرة، وفي صور متقاربة، ولكلٍّ منها مغزى لا يؤدِّيه غيره، ومرمىً لا يصيبه سواه، وهي بذلك ليست عملاً فنيّاً مقصوداً لذاته، وإنَّما هي وسيلة للإرشاد والإيمان، وشرح الأوامر والنواهي الشرعيَّة[1].

وهكذا فإن ما يتميَّز به التصريف القصصي في القرآن، أنَّه لا ينظر إلى حوادث التاريخ على أنَّها مجرَّدُ صراع على السلطة أو على الأرض والثروات، ولا على أنَّها صراع بين القوميَّات، أو بين الحضارات، ولا يدرس حوادث الماضي بهدف التفاخر بالآباء والأجداد، أو التعصُّب لقوم أو ملَّة معيَّنة، بل يعتبر حوادث التاريخ قبل كلّ شيء صراعاً بين الحقّ والباطل، وبين الإيمان والكفر[2].

يستفاد مما سبق أنَّ القصص القرآنيّ يجيء لمقاصد سامية، هي المراد من ذلك التصريف، وذلك ما سنبيِّنه في هذه الدراسة.

إنَّ مقاصد القصص القرآنيّ تتنوَّع تنوُّعاً كبيراً، إذ يصرِّفها بطرائق شتَّى، موزَّعة على قصصه، حسب موضوعها وسياقها، وهذه المقاصد كثيرة لا نستطيع الإلمام بها جميعاً، لذلك سنكتفي بذكر أهمِّها بإيجاز، لنبيِّن أنَّ القصص القرآنيّ لم يأت اعتباطاً، وإنَّما صرَّفه القرآن الكريم لمقاصد عظيمة يمكن تحديدها في المقاصد التالية:

---

(1) روائع الإعجاز في القصص القرآنيّ ص 61 - 62.

(2) سنن التغيير التاريخي في القرآن الكريم ص 7.

المقصد الأوّل: إثبات الوحدانيّة لله ـ تعالى ـ والأمر بعبادته:

اتفَّقت دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً في إثبات الوحدانيَّة للّـه ـ تعالى ـ والأمر بعبادته بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، وهو أهمُّ مقاصد القصص القرآنيّ، وذلك لإبراز حقيقة التوحيد، وإبطال الشرك والوثنيَّة.

فالرسل والأنبياء جميعاً، دعوا إلى توحيد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والإقرار له بالوحدانيَّة، لا ربَّ غيره، ولا معبودَ سواه، فدعوتهم جميعاً اجتمعت على التوحيد.

قال صاحب «القصص القرآنيّ إيحاؤه ونفحاته»: «فلقد ركـزَّت القصَّة القرآنيّة في مقام الألوهيَّة على وحدانية اللّه، وعدله، وقدرته، وحكمته، وحبِّه ووداداته، لعباده»[1].

إنَّ القصص القرآنيّ يصوّر طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر، ويعرض نموذجاً للقلوب المستعدَّة للإيمان، ونموذجاً للقلوب المستعدَّة للكفر، وهذا التصريف كفيل بتعريف الإنسان بحقيقة وطبيعة الطريقين، ليختار المنهج الصحيح، ويبتعد عمّا عداه[2].

وفيما يلي نورد أدلَّة بعض الأنبياء الدالَّة على إثبات الوحدانيَّة لله ـ تعالى ـ على سبيل المثال لا الحصر.

فمن ذلك ما صرَّف القرآن بيانه بإثبات إبراهيم ـ عليه السلام ـ انفراد اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهيَّة وكمال صفات الربوبيَّة، وإفحامه الملك الذي آتاه اللّه الملك وادَّعى الألوهيَّة، فأفحمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحجج الواضحة التي أخرسته، والتي حكاها القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

---

(1) القصص القرآنيّ إيحاؤه ونفحاته ص 10.
(2) في ظلال القرآن 3/ 1306.
(3) البقرة: 258.

احتجّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ على باهر قدرة اللّه ـ تعالى ـ ومظهر وجوده بالإبداع الذي هو من صفات الإله الذي يبدع ما لا يقدر أحد على إبداع مثله، وربّ إبراهيم، الذي هو ربّ كل شيء هو الذي يبدع الحياة إبداعاً بقدرته ومشيئته، فيجعل غير الحيّ مما لا روح فيه حيّاً ذا حياة وروح، وهو الذي يسلب الحياة عن كل كائن خلقها فيه، فيميته بإعدام الحياة منه، ذلك ما فهمه العقل النيِّر.

أما العقل المظلم، حبيس الغرائز، عقل الذي كفر باللّه وآياته، فلم يفهم الإحياء والإماتة، كما هما في واقع الأمر على الصورة التي فهمها العقل النيِّر الملهم، عقل إبراهيم ـ عليه السلام ـ بل فهمها فهماً ماديّاً، خالياً من الشمول والإبداع اللذيْن هما خاصَّة الألوهيّة الحقّة، فقال في مناظرته ردّاً على إبراهيم ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ يريد من الإحياء والإماتة هذه المظاهر الجوفاء التي يملكها الجبَّارون الطغاة في تسلّطهم على حياة الناس، بسلطان القوَّة والطغيان.

فلمَّا تبيَّن لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بلادة عقل هذا الطاغية الجاهل بحقيقة الإله الحقِّ، وجمود ذهنه، وأنَّه ليس لديه صلاحيَّة إدراك المعقولات الخالصة، انتقل به إلى لون آخر من الحجَّة والبرهان ليستوفي معه طرائقها قطعاً لعذره. تلك الحجَّة التي عدل إليها إبراهيم ـ عليه السلام ـ هي لون من البرهان يشترك في إدراكه العقل والحسُّ.

وفي هذا العدول عن الحجَّة الأولى مع قيامها في صدقها وباهر آياتها تسفيه سلبيٌّ لعقل ذلك الكافر المتجبِّر في الأرض وإظهار لعجزه البليد عن التفكير في معنى الإحياء والإماتة، اللَّتين هما صفة الألوهيَّة الحقَّة[1].

ونجد إبراهيم ـ عليه السلام ـ في آية أخرى يطلب زيادة الإيمان ليطمئنَّ قلبه وقد حكى ذلك عنْهُ القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾[2].

---

(1) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 49 ـ 50.

(2) البقرة: 280.

وقصَّ علينا القرآن الكريم تدرُّج إبراهيم - عليه السلام - في الاستدلال على الحقيقة الإلهيَّة والإيمان بالوحدانيَّة، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

ذهب الإمام محمَّد أبو زهرة إلى أنَّ إبراهيم - عليه السلام - تدرَّج في الاتِّجاه إلى طلب الحقيقة الإلهيَّة والإيمان بالوحدانيَّة، وذلك عن طريق تأمّله في الكون؛ ليتعرَّف من الوجود سرَّ الوجود، وعظمة الخالق، فأوَّل ما استرعاه نجم ساطع تألقَّ، فحسبه ربَّه، ولكن الربَّ موجود دائماً، فلما غاب نفر مما زعم، ثم رأى القمر، فحسبه كذلك، ثم رأى الشمس، وهكذا حتى هديَ إلى أنَّ سرَّ الوجود يجب أن يكون غير هذا كلِّه، فاتجَّه إلى اللّه[2].

وذهب غيره إلى أنَّ ما جاء على لسان إبراهيم - عليه السلام - مجاراة للخصم من حيث الظاهر، واستدراجاً إلى الإنكار عليهم بصورة عمليَّة يشاهدونها ويحسُّونها حتى يهتدوا إلى الإيمان الحقِّ، فإذا كان الكوكب وهو في السماء والقمر وأثره في الكون ظاهر، والشمس وهي مصدر الدفء والنور، إذا كانت هذه الأشياء العلويَّة الفائقة مرفوضة، أن تكون أرباباً فما بالك بالتماثيل والأصنام التي يعبدها قوم إبراهيم.

وعللَّ ذلك بأنَّ هذا يتنافى مع الرسالة؛ لأن القرآن صريح في أنَّ إبراهيم إنَّما قال ذلك وهو رسول، وأنَّه في أثناء هذه المراحل بعد أن رأى القمر بازغاً، وقبل أن يرى الشمس قال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3].

---

(1) الأنعام 74 - 79.
(2) المعجزة الكبرى ص 165.
(3) الأنعام: 77.

فمن هو ربُّه إذن ومن ثمَّ القوم الضالّون إن لم يكونوا هم الّذين اتَّخذوا الأصنام أرباباً من دون اللّه؟[1].

والذي نراه أنَّ ما جاء على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان استدلالاً على وجود اللّه ـ تعالى ـ وإثباتاً لوحدانيَّته، منكراً على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وليس ـ كما ذكر محمَّد أبو زهرة ـ طلباً لحقيقة الإله والإيمان بالوحدانيَّة؛ لأنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان عالماً بحقيقة الإله ـ سبحانه وتعالى ـ مؤمناً به، يدلُّ على ذلك إنكاره على أبيه وقومه اتخاذ الأصنام آلهة، ووصفه لهم بالضلال المبين، الذي سبق استدلاله هذا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

قال الرازيُّ: «فإنَّه استدلَّ بأفولها على حدوثها، ثم استدلَّ بحدوثها على وجود محدثها، كما أخبر اللّه»[3].

وذهب ابن الزبير إلى أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال ذلك على جهة الفرض لإقامة الحُجَّة على قومه، مستدلا بتغيُّر الشمس والقمر، وتقلُّبهما في الطلوع والغروب على أنَّها حادثة مربّوبة مسخَّرة طائعة لُموجدها المنزَّه عن سمات التغيُّر والحدوث.

مستدّلاً على أنَّه قال ذلك بقصد إقامة الحجَّة على قومه بقوله تعالى: ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[4]. فأخبر عن حاله قبل هذا الاعتبار وبعده، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[5]. وفي طيّ قوله: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ تنزيه عن عبادة النيّرات وغيرها مما سواه تعالى[6].

(1) خصائص التعبير القرآنيّ 1/ 446 ـ 448.

(2) الأنعام: 74.

(3) عجائب القرآن ص 20.

(4) الأنعام: 78.

(5) آل عمران: 67.

(6) ملاك التأويل 1/ 16. وانظر صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل 1/ 437 ـ 438 والتفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم ص 103.

وقد تصدّى للردّ على الرأي الأوّل ابن قتيبة، إذ قال: «ومن الناس من يذهب إلى أنَّ إبراهيم - ﷺ - كان في تلك الحال على ضلال وحَيرة.

وكيف يتوهَّمُ ذلك على من عصمه اللّه وطهَّره في مُستقرِّه ومُسْتَوْدَعه؟ واللّه - سبحانه - يقول: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. أي لم يشرك به قطّ»[2].

وذهب الأخفش إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ مثل ضربه لهم ليعرفوا، إذا هو زال إنه لا ينبغي أن يكون مثله إلهاً، وليدلَّهم على وحدانيَّة اللّه، وأنَّه ليس مثله شيء[3].

واستدلَّ غيره على هداية اللّه لإبراهيم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾[4]. قائلاً: «في هذه الآيات المباركات بيان لهداية أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - إذ هداه ربُّهُ قبل بلوغه، وأعطاه الحجج، وكشف له البراهين التي توصله إلى الرشد من عقيدة التوحيد، وذلك لسابق علمه - سبحانه وتعالى - بأنَّ إبراهيم - عليه السلام - صالح للنبوَّة وأهلٌ للرشد، فمنَّ عليه وآتاه ما هو أهل له»[5].

ونجد إبراهيم - عليه السلام - يسخر من الأصنام وعابديها بقصد إثبات التوحيد، والنهي عن الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾[6].

وقال أيضاً في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا

---

(1) الصّافّات: 84.

(2) تأويل مشكل القرآن ص 337 - 338.

(3) معاني القرآن للأخفش 2/ 496.

(4) الأنبياء 51 - 52.

(5) الأمثال والمثل والتمثل والمثلات في القرآن الكريم ص 434.

(6) الأنبياء 57.

كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وبصدد إثبات التوحيد تبرأً من الشرك فقال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2].

ويقصُّ علينا القرآن الكريم مناظرته مع أبيه فيقول: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾[3].

ويبيِّن لنا حاله مع قومه وإنكاره عليهم عبادة الأصنام فيقول: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[5].

وجاء إثبات التوحيد على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ وبنيه في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[6].

وعلى لسان نوح ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[7].

وعلى لسان هود ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[8].

---

(1) الشعراء 69 ـ 77.

(2) الأنعام: 78.

(3) مريم: 42.

(4) الأنبياء: 52.

(5) العنكبوت: 16.

(6) البقرة 132.

(7) الأعراف: 59.

(8) نفسها: 65.

وعلى لسان صالح ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[1].

وعلى لسان شعيب ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[2].

وجاء في قصَّة سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3].

وعلى لسان موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[5].

وجاءت الدعوى إلى التوحيد واضحة في قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[6].

صرَّح يوسف ـ عليه السلام ـ بأنَّه لم يبتدع ديناً وإنَّما سار على ملَّة آبائه وأجداده الَّذين هداهم اللّه إلى العقيدة الصحيحة، ألا وهي وحدانيَّة اللّه، وهذه العقيدة لا تختلف من عصر إلى عصر، إذ لا يعقل أن يوحي اللّه إلى أنبيائه عقيدة في

---

(1) الأعراف 73.

(2) نفسها 85.

(3) النمل 25 ـ 26.

(4) طه 14.

(5) نفسها 49 ـ 50.

(6) يوسف 37 ـ 40.

حقيقته تتناقض من رسول إلى رسول، فوحدانيَّة اللّه دعوة اشترك في التأكيد عليها جميع الأنبياء[1].

ويتصرَّف البيان في قصَّة عيسى ـ عليه السلام ـ مثبتاً توحيد اللّه ـ تعالى ـ ومبيِّناً أن عيسى ـ عليه السلام ـ عبْدٌ لله والنهي عن كون اللّه ثالث ثلاثة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[2].

يتبَّين مما سبق أنَّ الأنبياء والمرسلين جميعاً دعوا إلى توحيد اللّه والأمر بعبادته، واتَّفقت كلمتهم على ذلك، ويشهد لذلك ما صرف القرآن بيانه على لسان كل نبيٍّ أو رسول، من الآيات التي سبق الاستشهاد بها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[3].

في الآية الكريمة دليل على أنَّ اللّه ـ تعالى ـ بعث الأنبياء بإقامة الدين، والمقصود التوحيد، وإقامة أصول الشرائع.

وقد أشار أبو السعود إلى أنَّ توصية نوح ـ عليه السلام ـ للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وتوجيه الخطاب إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنَّه ـ تعالى ـ شرعه لهم على لسانه ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمعنى ـ دين الإسلام، الذي هو توحيد اللّه ـ تعالى ـ وطاعته والإيمان بكتبه ورسله، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً[4].

---

(1) اليهود في القرآن ص 265.

(2) النساء 171.

(3) الشورى 13.

(4) إرشاد العقل السليم 8/ 26.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾[1].

في هذه الآية أيضاً دليلٌ واضحٌ على أنَّ اللّه أمر الرسل والأنبياء جميعاً بعبادته وتبليغ ذلك إلى من أرسلوا إليهم، وقد جاء ذلك في سياق حكاية القرآن لأقوال المشركين، الّذين علّقوا إيمانهم على مشيئة اللّه ـ وبيان أن هذا الفعل الشنيع متّفقٌ مع فعل من قبلهم فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[3].

يرى أبو السعود: أنَّ هذه الآية استئناف مقرَّر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهيَّة، وأجمعت عليه الرسل ـ عليهم السلام ـ[4].

فهذه الآية تبيِّن أنَّ الدين كلَّه من عند اللّه من نوح ـ عليه السلام ـ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد ـ ﷺ ـ والمؤمنون كلّهم أمّة واحدة، يضمّهم ركب واحد مبارك، واللّه هو ربّ الجميع، وكثيراً ما صرّف القرآن قصص عدد من الأنبياء في صورة واحدة معروضة بطريقة خاصة، لتؤدّي هذه الحقيقة[5].

نفهم مما سبق أنَّ وسائل الأنبياء في الدعوة موحَّدة، ولذلك تتصرَّف قصص كثير من الأنبياء مجتمعة لا تكرار فيها، بيد أنَّ هناك اختلافاً في الأسلوب، وهو الأمر الذي ينفي صفة التكرار عن القصص القرآنيّ، ويثبت في حقِّه التصريف البياني.

وقد لاحظ صاحب «دراسات قرآنية» أنَّ دعوة هؤلاء الرسل جميعاً، توحَّدت في الدعوة إلى اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ من أجل الإيمان باللّه ـ سبحانه وتعالى ـ.

(1) النحل 36.

(2) نفسها 35.

(3) الأنبياء 25.

(4) إرشاد العقل السليم 6/ 63.

(5) القصص القرآنيّ لعماد زهير ص 15، والتصوير الفني ص 119.

واختلف أسلوب كلٍّ واحد منهم فيما بعد هذه الدعوة، فنوح - عليه السلام - خاف على قومه من عذاب الله العظيم، إن هم عصوا وخالفوا أمر الله، وهود - عليه السلام - طلب من قومه التقوى؛ لأنه ليس لهم إلهٌ غيره - سبحانه وتعالى - وصالح - عليه السلام - بيّن لقومه أنّه قد جاءتهم دلالة واضحة، وعلامة بيِّنة، وأن يتركوها تأكل في أرض الله، ولا يمسّوها بسوء خوفاً عليهم من العذاب الأليم.

ويتّضح هذا الأمر جلياً في ردِّ الملأ على كلِّ رسول، فقوم نوح رموه بالضلال المبين وقوم هود رموه بالسفاهة والكذب، وقوم صالح شكّكوا في إرساله[1].

وقد أشار مونتجمري وات إلى أنَّ جوهر الرسالة المحمَّديَّة ليس مبتكراً، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[2].

ثم عقَّب على ذلك بقوله: «هذه الآية يستشهد بها عادة على جوهريَّة التشابه بين الرسالات، حتى وإن لم يكن تطابقاً كاملاً وتوضِّح الآيات التي ورد فيها ذكر الأنبياء السابقين طبيعة هذا التشابه»[3].

وقد توقَّف عند قصص نوح وعاد في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[4].

وخلص منه إلى أنَّ التشابه الوحيد في الرسالة هنا هو التأكيد على وجود الله على الرغم من وجود تشابه في مواقف الشعوب تجاه أنبيائهم من حيث صراعهم

(1) دراسات قرآنية ص 249 - 250.

(2) النساء 163 - 164.

(3) مجلة كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، العدد التاسع 1992م نص مترجم بعنوان «طبيعة الرؤية المحمَّدية» الفصل الأول من كتاب ما هو الإسلام، تأليف مونتجمري وات، ترجمة الدكتور محمَّد فتح الله الزيادي ص 631 - 632.

(4) الأعراف 59 - 68.

ومصائرهم، هذا هو التصوُّر الشائع الموجود في القرآن حول علاقته بالرسالات السابقة، وهو تطابق في الجوهر وليس في التفصيل، وهو مصدِّق للرسالات السابقة[1].

المقصد الثاني: إثبات الوحي والرسالة:

نجد أنَّ من مقاصد القصص القرآنيّ، إثباتَ الوحي والرسالة، فكثيراً مما صرَّف القرآن بيانه من القصص القرآنيّ كان غيباً مجهولاً، لا يعلمه النبيُّ ـ ﷺ ـ ولا قومه، وهو دليل على صدق الرسالة وإثبات الوحي، وقد عقَّب على قصص كثير من الأنبياء بما يفيد ذلك، فقال تعالى عقب قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقال تعالى تعقيباً على قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[3]. وقال تعالى في افتتاح قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾[4].

وقد ذكر الطبريُّ: إنَّ هذه القصص دالَّة على نبوَّة محمَّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنَّه ـ عليه السلام ـ كان أميّاً وما طالع كتاباً ولا تتلمذ على أستاذ، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف، ولا خطأ، دلَّ على أنَّه إنَّما عرفها بالوحي عن الله، وذلك يدلُّ على صحَّة نبوَّته[5].

وتبعه في ذلك صاحب «قصص الأنبياء، المسمَّى عرائس المجالس» إذ ذكر أيضاً أن من حكم القصص إظهاراً لنبوة محمَّد ـ ﷺ ـ ودلالةً على رسالته.

---

(1) مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد السابق ص 631 ـ 632.

(2) هود: 49.

(3) القصص: 44 ـ 46.

(4) يوسف: 3.

(5) تفسير الطبري 14/ 146.

وذلك أنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ كان أميّاً لم يختلف إلى مؤدِّب ولا إلى معلِّم، ولم يفارق وطنه بمدَّة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ فيه علم الأخبار، ولم يعرف له طلب شيء من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان، فنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ ولقَّنه ذلك، فأخذ يحدِّث الناس بأخبار مَنْ مضى من القرون وسير الأنبياء الماضين والملوك المتقدّمين، فمن كان في قومه عاقلاً موفَّقاً صدّق بما يوحي اللّه إليه وإخباره إيّاه بذلك، فآمن به وصدَّقه وكان ذلك معجزة له ودليلاً على صحّة نبوَّته، ومن كان منهم عدوّاً معانداً حسده وجحده وأنكر ما جاء به[1].

وذكر صاحب «المعجزة الكبرى»: أنَّ القصص القرآنيّ فيه إيناس صاحب الرسالة المحمَّدي بأخبار إخوته من المصطَفْينَ الأخيار، وإثبات قوله، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة ما كانت لتعلم إلاَّ لمن شاهد، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال في بطن الغيب، كما قال ـ تعالى ـ عقب قصَّة مريم: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[2].

فمحمَّد ـ ﷺ ـ لم يكن مشاهداً للأحداث التي جاء القرآن الكريم بقصصها، وهي صادقة، وثابتة في الصادقين من أخبار النبيِّين في كتبهم التي يتداولها أهل الكتاب، ولم يتناولها التحريف[3].

ومما يفيد إثبات الوحي والرسالة ما صرَّف القرآن بيانه في مقدَّمات بعض القصص كما قال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾[4].

---

(1) عرائس المجالس ص 2.
(2) آل عمران 44.
(3) المعجزة الكبرى ص 187 ـ 188.
(4) يوسف 2 ـ 3.

وجاء في سورة ص قبل عرض قصَّة آدم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

وقال تعالى في سورة القصص في بداية قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

يرى الرازيُّ: أنَّ الآيات الواردة في القصص منها ما ذكر فيه التوحيد، ومنها ما ذكر فيه النبوَّة، والذي يهمُّنا منها في هذا المقام هو النبوَّة، والتي يرى أنّها على وجهين:

الأوَّل: أنَّ القصص يأتي بألفاظ مختلفة، كما في سورة الشعراء بعد ذكر القصص فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾[3]. ووجه الاستدلال: أنَّه ـ عليه السلام ـ لما لم يتعلَّم علماً ولم يقرأ كتاباً، ولم يتتلمذ لأستاذ، استحال منه رواية القصص إلاَّ عن وحي الله وتنزيله.

والثاني: أنّه ذكر القصَّة الواحدة مراراً مختلفة بألفاظ مختلفة، وكلّ ذلك متشابهٌ في الفصاحة، مع أنَّ الفصيح إذا ذكر القصَّة الواحدة مرَّة واحدة بالألفاظ الفصيحة، عجز عن ذكرها بعينها مرَّة أخرى بالألفاظ الفصيحة، فيستدلُّ بفصاحة الكلِّ على كونها من عند الله لا من عند البشر[4].

المقصد الثالث: إثبات البعث والجزاء:

نجد أنَّ من مقاصد القصص القرآنيّ، إثبات البعث والجزاء، فكثيراً ما يرد في سياق القصص القرآنيّ إثبات هذا المقصد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي

---

(1) سورة ص 67 ـ 70.

(2) القصص: 3.

(3) آية 192 ـ 194.

(4) عجائب القرآن ص 18.

حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ونجد ذلك أيضاً في قصَّة أهل الكهف التي صرَّف القرآن الكريم بيانها، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[2].

فهذه القصَّة من أروع القصص القرآنيّ المصوّر في صدقه وسرِّ حقائقه والتي هي آية وحدها في التصوير البياني القصصيِّ الصادق، وهي في كلِّ جزئيَّة تصوِّر الأمر كأنَّه مرئيٌّ بالحسِّ، لا مذكور بالخبر وحده.

وهذه القصَّة بالإضافة إلى ما فيها من إثبات التوحيد، فيها دليل على البعث.

وقد تضمَّنت هذه القصَّة مشهدين، فالمشهد الأول: فتية آمنوا بربّهم، وزادهم الله - تعالى - هدى، وقد فرُّوا من الوثنيَّة إلى الوحدانيَّة، ومن الوثنيِّين إلى جوار ربِّهم، وقد ربط الله على قلوبهم فاستمسكوا بإيمانهم، واعتصموا بربِّهم.

وأما المشهد الثاني: فبعثهم، وقد اختلف في أمر المدّة التي بقوها في الكهف، وقد مرَّت الأجيال وهم يحسبون أنّهم أيقاظ، فقد لبثوا كما ذُكر في القرآن الكريم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً[3].

وجاء على لسان نوح - عليه السلام -: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4].

يستفاد مما سبق أنَّ القصص القرآنيّ، ترد فيه كثير من الأدلة على البعث والجزاء، فيصرِّفها بطرائق شتىً، وأساليب مختلفة؛ ليحقِّق الإيمان بذلك اليوم.

---

(1) البقرة: 258 - 260.

(2) الكهف: 9 - 26.

(3) انظر المعجزة الكبرى ص 207 - 210.

(4) نوح: 4.

المقصد الرابع: تثبيت قلب الرسول ـ ﷺ ـ وأمّته:

إنَّ القرآن الكريم حين يصرِّف قصص الأنبياء والمرسلين، والأمم السابقة يقصد أحياناً تثبيت قلب النبيِّ ـ ﷺ ـ وأمَّته، على دين اللّه ـ تعالى ـ وتوحيده وعبادته، وبذلك تقوى ثقة المؤمنين بنصرة الحقِّ وجنده، وخذلان الباطل وأهله[1]، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2].

ولقد كان القصص يتنزلَّ على رسول اللّه ـ ﷺ ـ في مكَّة والقلَّة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلاميَّة مجمَّدة فيها، والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون لها نهاية!

فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق؛ ويريهم معالمه في مراحله جميعاً، ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق.

إن هذه الطلائع في حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه، تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها، وتستوحيه في ما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات، وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق[3].

قال صاحب «عرائس المجالس»: «إنَّه إنَّما قصَّ عليه القصص، تثبيتاً له وإعلاماً بشرفه وشرف أمتَّه وعلوِّ أقدارهم، وذلك أنَّه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله علم أنه عوفي وأمتَّه من كثير مما امتحن اللّه به الأنبياء والأولياء، وخفَّف عنهم في الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التي كانت على الأمم الماضية. . .

فلما قصَّ اللّه ـ تعالى ـ هذه القصص على نبيِّه رأى فضل نفسه وفضل أمَّته، وعلم أنّ اللّه خصه هو وأمته بكرامات لم يخصَّ بها أحداً من الأنبياء والأمم، فواصل قيام ليله بنهاره وصيامه بقيامه»[4].

---

(1) انظر مباحث في علوم القرآن ص 306.

(2) هود: 120.

(3) في ظلال القرآن 4/ 1948.

(4) عرائس المجالس ص 3.

ذكر الطبريُّ: أنَّ من فوائد القصص القرآنيّ: التنبيه على أنَّ إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيِّنات ليس من خواصِّ قوم محمَّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمَّت خفَّت، فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم على الجهل والعناد يفيد تسلية الرسول ـ عليه السلام ـ وتخفيف ذلك على قلبه[1].

وهكذا فإنَّ في كثير من قصص الأنبياء، تسلية للنبيِّ ـ ﷺ ـ إذ فيها بيان ما لقيه هؤلاء الأنبياء من نفور عن الحقِّ، رغم الأدلَّة الواضحة والبراهين الساطعة، الدالَّة على رسالتهم، فإن كثيراً من أتباعهم عموا وصمُّوا، عن اتّباع الحق، وأصرّوا على اتباع الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾[3].

وفي هذا القصص أيضاً عزاء للنبيِّ ـ ﷺ ـ لئلاَّ تذهب نفسه حسرات على كفر الكافرين وجحودهم بعد الأدلَّة القاطعة التي جاءهم بها.

إنَّ من أسباب تسلية النبي ـ ﷺ ـ بالقصص القرآنيّ، شدَّة تعنُّت كفَّار مكَّة وشدَّة الصعاب التي صادفها المصطفى ـ ﷺ ـ والفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك، من أولئك المنكرين للبعث المبغضين لهذا الدين، الذي يأمرهم بعبادة اللّه ـ تعالى ـ ويدعوهم إلى كلِّ خير وينهاهم عن كلِّ شرٍّ، لذلك تتجدَّد التسلية من السماء، في كل حين، ويتوالى تثبيت فؤاده الكريم ـ ﷺ ـ ومن هنا كان قصُّ القرآن الكريم على

---

(1) تفسير الطبري 14/ 146.

(2) نوح 5 ـ 7.

(3) نفسها 21.

الرسول العظيم ما يثبّت فؤاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أنباء الرسل الكرام ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ[1].

المقصد الخامس: إبلاغ الرسالة:

نجد أنّ من مقاصد القصص القرآنيّ بيان أنّ من وظيفة الرسل ـ عليهم السلام ـ إبلاغ رسالة ربّهم التي أرسلوا بها إلى أقوامهم على أكمل وجه، فمن ذلك ما جاء على لسان نوح ـ عليه السلام ـ إذ قال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وقال هود ـ عليه السلام ـ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[3].

وقال صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[4].

وقال شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[5].

المقصد السادس: الحضُّ على التلطُّف في الخطاب والرفق بالمدعوِّين:

إنَّ من مقاصد القصص القرآنيّ التلطُّف في الخطاب والرفق في دعاء الخلق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[7].

فاللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أمر رُسُله ـ عليهم السلام ـ بالرِّفق في دعاء الخلق وحضّهم على التلطّف بهم، والصبر على أذاهم كما قال ذلك لنبيّه محمّد ـ ﷺ ـ:

---

(1) تأملات في سورة النازعات ص 57.
(2) الأعراف 61 ـ 62.
(3) نفسها: 68.
(4) نفسها: 79.
(5) نفسها: 93.
(6) طه: 43 ـ 44.
(7) هود: 28.

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1].

وعلى هذا جرى دعاء الرسل أممهم في إخبار اللّه ـ تعالى ـ عنهم.

ثم اختلف جواب الأمم: فمن مسرع في الإجابة بهداية اللّه ـ تعالى ـ، ومن مبطئ، ومن مصمِّم على ضلاله.

ثمَّ لكل نبيٍّ مقامات ومقالات بحسب اختلاف المواطن والمجتمعات، ولكلِّ مقام مقال يناسبه، فجرى اختلاف ما ورد جواباً بنسبة ما وقع الجواب عليه، مع إحراز الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ما أمروا به من الصبر والتلطُّف في أكثر أحوالهم[2].

المقصد السابع: العبرة[3] بأحوال الأنبياء والمرسلين والأمم السابقة:

نجد أنَّ في القصص القرآنيّ عبراً وعظات كثيرة، لمن تأمَّل في ذلك وتدبَّر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾[4].

وذلك ما ذهب إليه صاحب «المعجزة الكبرى»: إذ قال: «إنَّ القصص القرآنيّ فيه العبرة، وما ذُكرت قصَّة إلاّ كان معها عبرة أو عبر، وفيه المثُلات لمن عصوا وتركوا أمر ربِّهم، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الّذين غرَّهم الغرور، والجبابرة الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، واللّه من ورائهم محيط»[5].

والمراد بهذه العبرة، الاتِّعاظ والاعتبار بأحوال الأنبياء والمرسلين للاقتداء بهم في الصبر على الأذى، وتبليغ الدعوة، والاقتداء بإيمانهم القويِّ، وتصديق هؤلاء الأنبياء والمرسلين، والإيمان بهم، وتخليد آثارهم والإشارة إلى فضلهم ومكانتهم الرفيعة عند اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وفي المقابل الابتعاد عن مثل تصرُّفات المخالفين من الأمم السابقة.

---

(1) النحل: 125.

(2) ملاك التأويل 1/ 396 ـ 397.

(3) العِبْرَةُ: الاتعاظُ والاعتبار بما مضى (المعجم الوسيط 2/ 601 مادة عبر).

(4) يوسف: 111.

(5) المعجزة الكبرى ص 187.

وقد قصّ اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيِّه محمَّد ـ ﷺ ـ القصص تأديباً وتهذيباً لأمتَّه، وذلك أنَّه ذكر الأنبياء وثوابهم، والأعداء وعقابهم، ثم ذكر في غير موضع تحذيره إيأَّهم عن صنع الأعداء وحثَّهم على صنع الأولياء، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[1].

كما أنَّه قصَّ عليه أخبار الأنبياء والأولياء الماضين إحياء لذكرهم وآثارهم ليكون المحسن منهم في إبقاء ذكره مثبتاً له تعجيل جزاءه في الدنيا حتى يبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة[2].

ولذلك فإنَّ اللّه ـ تعالى ـ يحكي في هذا القصص، أنَّ عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة، وعاقبة أمر المحقِّين إلى الدولة في الدنيا والسعادة في الآخرة، وذلك يقوِّي قلوب المحقِّين، ويكسر قلوب المبطلين، وإنَّه ـ تعالى ـ وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه[3].

وللعبرة وجوه كثيرة وفوائد عظيمة؛ أهمُّها التنبيه على سنن اللّه ـ تعالى ـ في الاجتماع البشريِّ، وتأثير أعمال الخير والشرِّ في الحياة الإنسانيَّة، وقد نبَّه اللّه ـ تعالى ـ على ذلك في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[5].

فالآية الأولى جاءت في سياق الكلام عن المعرضين عن الحقِّ، الّذين لا يلوون عليه ولا ينظرون في أدلَّته لانهماكهم في ترفهم وسرفهم، وجحودهم على عاداتهم

---

(1) يوسف: 7.
(2) عرائس المجالس ص 3.
(3) تفسير الطبري 14/ 146.
(4) الحجر 13.
(5) غافر 85.

وتقاليدهم، والآية الثانية: جاءت في سياق محاجَّة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء، وبعد الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم القويَّة ذات القوى والآثار في الأرض وكيف هلكوا بعدما دَعُوا إلى الحقِّ والتهذيب فلم يستجيبوا لمَّا صرفهم الغرور بما كانوا فيه[1]. ولذلك بيَّن أن من مقاصده التفكّر والتدبّر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

المقصد الثامن: بيان جزاء الأمم السابقة ونهاية مصيرها:

بيَّن القصص القرآنيّ جزاء الأمم التي لم تلتزم بدعوة الأنبياء والمرسلين، ونهاية مصيرها، وهو الهلاك والدمار، نتيجة لانحرافها عن الطريق المستقيم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

---

(1) محاسن التأويل 1/ 114.

(2) الأعراف 176.

(3) الأنعام: 6.

(4) نفسها: 10 ـ 11.

(5) الروم: 9.

يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[1].

تضمّنت الآيات الكريمة السابقة الأمر بالسير في الأرض والنظر في أحوال الأمم السابقة التي كذّبت رسلها، والتي صرّف القرآن قصصها وفصّله أتمّ تفصيل، وذلك للاعتبار بأحوالها، والابتعاد عن أفعالها، وفي ذلك أيضاً تسلية للرسول ـ ﷺ ـ عمّا يصيبه من أذى قومه وجحودهم لرسالته.

«إنّ هذه الآيات كلّها تجمع على حثّ المؤمنين على النظر في عواقب المكذّبين، وهذا نهج عام يشترك فيه العلماء وغير العلماء من المسلمين على طريق الدعوة إلى الله يهتدي به الجاحدون إلى الحقّ، ويزداد به الّذين آمنوا إيماناً ويقيناً، وهو أن يتّعظوا بمجرّد رؤية آثار الكفار السابقين، وكيف دمّرت حضاراتهم وبادت حتى صارت أثراً بعد عين»[2].

قال الكرماني: «أمروا باستقراء الديار، وتأمُّل الآثار، وفيها كثرة، فيقع ذلك بسير بعد سير وزمان ـ بعد زمان»[3].

ويلاحظ أنّ موقف المنكرين للرسالات والرسل موحّد، مع كلّ رسول في الإنكار والتكذيب، فقوم نوح قالوا في حقّه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[5].

وقوم هود قالوا: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[6].

---

(1) غافر: 82 ـ 83.
(2) عظمة القرآن ص 89.
(3) البرهان ص 166.
(4) الأعراف 60.
(5) الشعراء 105.
(6) الأعراف 66.

وقوم صالح قالوا: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

وقوم لوط قالوا: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[2].

وقوم شعيب قالوا: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[4].

وقوم فرعون قالوا في حقِّ موسى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[5].

وقالوا أيضاً: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾[6].

وقد بيَّنت الآيات أيضاً أنَّ الملأ[7] هم الّذين يبدؤون بتكذيب من أرسل إليهم، وتهديده وتهديد من يتَّبعه في دعوته، فما السرُّ في ذلك؟

إنَّ السرَّ في ذلك أنَّ الملأ في المجتمع الجاهليِّ هم الّذين يملكون ويحكمون، وهم الّذين يشرِّعون من عند أنفسهم، بما يحفظ سلطانهم على أولئك العبيد، يسخّرونهم لمصالحهم، ويستعبدونهم لأنفسهم.

---

(1) الأعراف 76.

(2) نفسها 82.

(3) نفسها 88.

(4) نفسها 90.

(5) نفسها 109.

(6) نفسها 127.

(7) الملأ: الجماعة، وقيل: أشراف القوم ووجُوهُهم ورؤسائهم ومقدَّمُوهم، الذين يُرجع إلى قولهم. (لسان العربّ 1/ 159 والصحاح للجوهري 1/ 73 (ملأ).

وهؤلاء الملأ المستولون على السلطة بهذه الصورة يكرهون ـ دائماً ـ دعـوة لا إلـه إلاّ اللّه، ولا يطيقونها، ويتصدَّون لحربّها، ويصرُّون على القضاء عليها، بكلٍّ وسيلة في أيديهم، إلاَّ أن يتدخَّل قدر حاسم من عند اللّه فيهلكهم وينقذ المؤمنين منهم.

ويتبيَّن السرُّ في ذلك الموقف العجيب، في إدراك المعنى الحقيقيِّ لكلمة التوحيد والأمر بعبادة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ التي يُبعث بها كلُّ رسول.

إنَّ مدلول هذه الكلمة هو الّذي يهيج الملأ إلى هـذا الحدِّ! لأنَّ مدلولـها ـ يعنـي ـ أن الولاء للّه وحده، والعبادة للّه وحده، والطاعة له وحده، والملأ فـي الجاهليـة يريـد أن يكون الولاء له وحده، والطاعة له وحده، ومن ثمَّ فالعبادة له وحده، ولذلك يقع الصدامُ الحتميُّ ـ بين الملأ وبين دعوة لا إله إلاّ اللّه(1).

وقد اعتنى القصص القرآنيّ ببيان أسباب الهلاك التي أصـابت الأمـم السـابقة، ليعتبر المسلمون بأحوالها ويبتعدوا عن أفعالها وأقوالها، حتـى لا يصيبهم مـا أصابـهم من الهلاك والدمار.

وقد فصَّل ذلك تفصيلاً عجيباً، ومن أسـباب ذلـك ـ كمـا رأينـا ـ تكذيـب الأنبيـاء والمرسلين، والإعراض عنهم، والإشراك باللّه ـ تعالى ـ والظلـم والطغيـان، والتكذيـب بـالبعث والجزاء، ثـم التـهديد بـالأذى لـه وللّذيـن آمنـوا معـه، والتقليـد الأعمـى، والسخرية، والرضا بالذل، إلى غير ذلك مما صرَّف القرآن بيانه في هذا القصص.

وكذلـك كـان موقـف كفَّـار قريش مـن الرسـول ـ ﷺ ـ ودعوتـه إذ واجـهوها بـالتكذيب والإعـراض، فقـال تعـالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله تعـالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾(2).

وقد بيَّن القرآن الكريم في كثير من قصصه أنَّه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾(3).

---

(1) دراسات قرآنية ص 106 ـ 107.

(2) ص 4 ـ 8.

(3) غافر 51

«وهذه سنَّة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أنَّ العاقبة فيها للمتّقين، والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجّى نوحاً وأصحابه المؤمنين»[1].

وقال تعالى، مثبتاً هذه السُّنَّة: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

وقد بيَّن عاقبة من كذّب الرسل فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[5].

---

(1) تفسير ابن كثير 3/ 183.

(2) الأنعام 34، وفي ضمنها تسلية للنبيِّ ـ ﷺ ـ كما بيَّن ذلك أبو السعود إذ قال: «افتنان في تسليته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن عموم البليَّة ربَّما يهوِّن أمرها بعض تهوين، وإرشاد له ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام، في الصبر على ما أصابهم من أممهم من فنون الأذيَّة» تفسيره 3/ 127.

(3) الأعراف 96 ـ 101.

(4) سورة ص 12 ـ 15.

(5) الإسراء 101 ـ 103.

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[5].

قال عزُّ الدين بن عبد السلام: «حذّر الآخرين بما فعل بالأوّلين تحذيراً من سلوك سبيل المجرمين وطريق المكذّبين»[6].

وبيّن أنَّ الانتصار دائماً للحقّ وأتباعه، وإهلاك المكذّبين فقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[8]. وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[9]. وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[10].

---

(1) الفرقان 37.
(2) النمل: 13 ـ 14.
(3) سورة ص: 3.
(4) فصلت 43.
(5) الذاريات: 52.
(6) الإشارة إلى الإيجاز ص 213.
(7) الأعراف: 64.
(8) نفسها 72.
(9) نفسها 78.
(10) نفسها 83 ـ 84.

وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

وهكذا فإنَّ في هذا التصريف تذكيراً للكفَّار المكذِّبين من قوم محمَّد ـ ﷺ ـ بسوء العاقبة التي تنتظرهم بسبب تكذيبهم النبيَّ المرسل إليهم، والإعراض عن رسالته، وفي ضمنه أيضاً حسن العاقبة لمن صبر واتَّبع الرسول ـ ﷺ ـ.

ومما صرَّف القرآن بيانه إنذاراً لأمَّة محمَّد ـ ﷺ ـ قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[2].

«لقد نصَّت الآية الكريمة[3] على أنَّ نصيب ثمود جزاء تكذيبهم رسول اللّه ـ تعالى ـ إليهم، صالحاً ـ عليه السلام ـ الإهلاك التامّ.

تلك هي سنَّة اللّه ـ تعالى ـ بشأن مكذِّبي الرسل السابقين؛ فبعد ثبوت الحجَّة عليهم يأخذهم ـ عز وجل ـ أخذ عزيز مقتدر، وقد شاءت إرادته ـ جلَّ وعلاَّ ـ أن يستثنى من هذه القاعدة قوم يونس»[4] قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[5].

وقد بيَّن القصص القرآنيُّ أنَّ الحقَّ له السلطان الأعظم على النفوس، إذا عرفته وآمنت به، وأنَّه ليس بوسع أحد ـ أيِّ ـ أحدٍ أن يحول بينها وبينه مهما اتَّخذ من

---

(1) الأعراف 91 ـ 92.

(2) الحاقة 4 ـ 8.

(3) يعني قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ (الحاقة 5).

(4) تأمّلات في سورة الحاقة ص 32.

(5) يونس 98.

وسائل إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى - عليه السلام -[1] قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[2].

فعلى الرغم من تهديد فرعون ووعيده لهم، فلم يثنهم ذلك عن إيمانهم بالله - سبحانه وتعالى - قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[3].

ويتجلّى أيضاً في إيمان امرأة فرعون الطاغية، فهي مَثَلٌ أعلى للإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

ويتصرَّف القصص القرآنيُّ مصوِّراً حال الطغاة ومبيِّناً مصيرهم كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[5].

هذه الآية وما في معناها تصوِّر النفس الطاغية، تصويراً بليغاً، موضِّحة أنَّ مثل هذه النفس، يأخذها الله، أخذ عزيز مقتدر.

وقد بينَّ الباقلانيُّ النظم البديع في هذه الآية بقوله: «هذه - يعني الآية - تشتمل على ستِّ كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤُها على ما تشاهد، ورونقُها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تَعْرف.

وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وتفسير العُلُوِّ في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدَان وسبي النساء، وإذا تحكّم في هذين الأمرين فما ظنّك بما دونهما؛ لأن النفوس لا تطمئنُّ على هذا الظلم، والقلوب لا تقرُّ على هذا الجَوْر»[6].

(1) التعبير القرآني ص 251.
(2) الأعراف: 120 - 122
(3) نفسها: 126.
(4) التحريم 11.
(5) القصص: 4.
(6) إعجاز القرآن ص 206.

وفي المقابل يتصرَّف القول مبيِّناً أنَّ التمكُّن في الأرض لعباده المستضعفين فيقول تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[1].

وقد ذكر صاحب «المعجزة الكبرى»: أنَّ في المنَّ تعميماً، بمعنى أنه لم يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ ما يمنُّ به عليهم فهو يمنُّ عليهم بالحرية بعد الاستعباد، ويمنّ عليهم بالقوّة بعد الضعف، ويمنّ عليهم بالعزَّة بعد الذلَّة، ويمنّ عليهم بالثمرات بعد الجدب. وهكذا تتعدَّد النعم التي يمُنُّ بها ـ سبحانه ـ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[2].

وكلُّ هذه المعاني هي بعض ما تدلُّ عليه كلمة نمنُّ[3].

وقد بيَّن القصص القرآني في تصريفه عاقبة الظلم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[4].

ويتجلَّى أيضاً في نهاية فرعون النهاية الوبيلة إذ قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5].

المقصد التاسع: الدعوة إلى الخير والإصلاح، ومنع الفساد في الأرض:

نجد أنَّ من مقاصد القصص القرآني الدعوة إلى الخير والإصلاح، ومنع الفساد في الأرض. كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ

(1) القصص 5 ـ 6.

(2) إبراهيم: 34.

(3) المعجزة الكبرى ص 148.

(4) القصص 6.

(5) نفسها 40.

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]. وقال تعالى أيضاً في سورة هود: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[3].

ذهب صاحب «المعجزة الكبرى» إلى أنَّ في النصِّ القرآنيِّ الذي تتضمَّنه قصَّة شعيب - عليه السلام - دعوةً صريحة إلى ناحية عمليَّة، تتصّل بالإصلاح الإجتماعيّ، ومنع الفساد في الأرض، والقيام بحقِّ الأمانة في التعامل.

وهو يرى أنَّه في موضع آخر من قصَّة شعيب يجد تكراراً للدعوة، يبيِّن فيها - سبحانه وتعالى - كيف تقاوم دعوة الحقِّ بالإصرار على الشرّ[4].

والأمر خلاف ذلك، وهو واضح من الفروق الدقيقة بين هذه الآيات؛ لأنَّ كلَّ تعبير له دلالته الخاصة التي يؤدِّيها، فلكلٍّ مقام مقال ولكلٍّ سياق ألفاظ ومعان تناسبه.

وقد بيَّن القصص القرآنيُّ، عاقبة الصلاح والفساد، كما في قصَّة ابنَيْ آدم إذ قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ﴾ الآيات[5].

وقصَّة صاحب الجنَّتين في سورة الكهف إذ قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾

(1) الأعراف: 85.
(2) هود: 84 - 85.
(3) العنكبوت 36.
(4) المعجزة الكبرى ص 193.
(5) المائدة 27 - 32.

الآيات[1]. وقصَّة سد مأربّ، إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ الآيات[2].

وقد نبَّه القصص القرآنيُّ، أبناء آدم إلى غواية الشيطان وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم، منذ أبيهم آدم، ولذلك صرَّف القرآن قصَّة آدم وإبليس في مواضع شتَّى من القرآن الكريم، تبيِّن تلك العداوة؛ لأنَّ إبراز هذه العداوة عن طريق القصَّة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من هاجسة في النفس تدعو إلى الشرّ[3].

المقصد العاشر: مواجهة اليأس بالصبر:

إنَّ من مقاصد القصص القرآنيِّ، مواجهة اليأس بالصبر، كما في قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ والتي نستشهد منها بما يحقِّق هذا المقصد، وهو قوله تعالى: ﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[7].

---

(1) الآيات 32 ـ 42.

(2) سبأ 15 ـ 19.

(3) انظر التصوير الفني ص 125.

(4) يوسف 18.

(5) نفسها 64.

(6) نفسها 83.

(7) نفسها 87.

المقصد الحادي عشر: بيان أنّ قدر الله ماض لا محالة:

نجد أنَّ من مقاصد القصص القرآنيِّ بيان أنَّ قدر اللّه ماض لا محالة، وأنّه لا يستطيع أحد أن يغيرِّه أو يرجئه مهما حاول واتَّخذ من الأسباب والوسائل، ويتجلّى ذلك في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، ومع ذلك فقد ربّى في حجره الشخص الّذي كان مقدَّراً له أن يزيل ملكه، وهو موسى ـ عليه السلام ـ فقد رعاه اللّه وحفظه منه، ومن كيده[1].

المقصد الثاني عشر: بيان قدرة الله على الخوارق:

بيَّن القصص القرآنيُّ قدرة اللّه ـ تعالى ـ على الخوارق، كقصَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ والطير الذي آب إليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وقصَّة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية إذ قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾[3].

المقصد الثالث عشر: تحقيق العدالة وإرساء دعائمها:

يتجلّى تحقيق العدالة وإرساء دعائمها في قصَّة داوود ـ عليه السلام ـ إذ قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً

---

(1) انظر التعبير القرآني ص 251.

(2) البقرة 260.

(3) نفسها 259.

فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

ذكر الإمام محمَّد أبو زهرة: أنَّ تفصيل التفرقة بين الحكم الظالم والحكم العادل في قصَّة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبيُّناً وتأكيداً، ذلك لأنَّ ذكر أيِّ أمر في قصَّة يجعله يسري في النفوس ويدخل إلى الضمائر، إذا كان فيها استعداد للحقِّ.

ولا شكَّ أنَّ هذا كلَّه يدلُّ على أنَّ القرآن يصرِّف فيه ـ سبحانه ـ البيان تصريفاً، ليكون أقرب إلى التأثير والدفع إلى العمل، وليس ذكر القصص للعبرة فقط، بل هو مرشد وهاد مع ذلك إلى أقوم السبيل[2].

المقصد الرابع عشر: بيان أنَّ الأنبياء والمرسلين يختصُّون بعلم الظاهر وتوضيح أمور الشريعة:

نجد أنَّ من مقاصد القصص القرآني بيان أنَّ الأنبياء والمرسلين يختصُّون بعلم الظاهر وتوضيح أمور الشريعة، كما في قصَّة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ إذ قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ الآيات[3].

فموسى والخضر ـ عليهما السلام ـ بحران في العلم، أحدهما أعلم بالظاهر، وأعني بالظاهر علم الشرعيَّات، وهو موسى، والآخر أعلم بالباطن وأسرار الملكوت وهو الخضر[4].

«هذه القصَّة تبيِّن عنصراً لابدَّ أن يتوفرَّ للمسلم وهو عنصر العلم، ذلك أن العبادة بدون علم لا يأمن صاحبها على نفسه من أن يضلَّ ويطغى، وتزلَّ قدم بعد ثبوتها»[5]. وهي أنموذج رائع للعمليَّة التعليميَّة الناجحة.

---

(1) ص 21 ـ 26.
(2) المعجزة الكبرى ص 195 ـ 196.
(3) الكهف 65 ـ 82.
(4) التعريف والإعلام ص 188.
(5) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص 24 ـ 25.

المقصد الخامس عشر: بيان الأصل المشترك بين دين محمّد ـ ﷺ ـ والأنبياء المرسلين السابقين:

إنَّ من مقاصد القصص القرآنيِّ بيان الأصل المشترك بين دين محمَّد ـ ﷺ ـ ودين إبراهيم ـ عليه السلام ـ بصفة خاصَّة ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامَّة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾(3). وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾(4).

وقد تصرَّف القصص القرآني، مقارعاً أهل الكتاب بالحجَّة فيما كتموه من البيِّنات والهدى، إذ تحدَّاهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل(5) فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(6).

المقصد السادس عشر: بيان نعم الله على أنبيائه وأصفيائه:

نجد أنَّ من مقاصد القصص القرآنيِّ بيان نعم اللّه على أنبيائه وأصفيائه، فقد صرَّف القرآن الكريم حلقات من قصص الأنبياء، يبيِّن فيها نعمه عليهم في مواقف شتَّى، وفق ما يقتضيه المقام من بيانها، وذلك كإنعامه على سليمان ـ عليه السلام ـ بتسخير الجنِّ والطير، فقال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الآيات(7).

---

(1) الأعلى: 18 ـ 19.
(2) آل عمران 68.
(3) الحج 78.
(4) النجم 36 ـ 37.
(5) مباحث في علوم القرآن ص 306.
(6) آل عمران 93.
(7) النمل 16 ـ 46.

وتسخير الريح، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ الآيات[1]. وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾[2].

ففي هذه الآيات مع تعداد نعمه على سليمان ـ عليه السلام ـ بيان مقصد آخر من مقاصد القصص القرآنيّ، وهو أن الجنّ لا تعلم الغيب، بنصّ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[3].

وإنعامه على داوود بتسخير الجبال والطير وإلانة الحديد، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[4].

وتعليمه صنعة الدروع فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾[5].

وإنعامه على إبراهيم بالغلام الحليم، إذ قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[6].

والتبشير بإسحاق، فقال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[7].

وعلى موسى وقومه بفلق البحر لهم وإنجائهم من فرعون وجنده، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾[9].

---

(1) سبأ 12 ـ 14.
(2) الأنبياء 81.
(3) سبأ 14.
(4) نفسها 10 ـ 11.
(5) الأنبياء 80.
(6) الصافات 101.
(7) نفسها 112.
(8) البقرة 50.
(9) الشعراء 63 ـ 66.

والامتنان على موسى وهارون، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الآيات[1].

وإنعامه على إبراهيم وإسماعيل بفدائه بالذبح العظيم، إذ قال تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الآيات[2].

وإنعامه على يونس بنبذه من بطن الحوت، وإنبات شجرة اليقطين عليه، وهداية قومه للإيمان بعد ذلك، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ الآيات[3].

وإنعامه على عيسى - عليه السلام - بإظهار كثير من المعجزات على يديه، منها قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[5].

وإنعامه على مريم بتبرئة ساحتها مما اتهمها به قومها، فقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[8].

---

(1) الصافات 114 - 122.
(2) نفسها 107 - 110.
(3) نفسها 139 - 148.
(4) آل عمران 46.
(5) نفسها 49.
(6) نفسها 47.
(7) مريم 28 - 32.
(8) الأنبياء 91.

قال السهيليُّ: «هي مريم وابنها عيسى - عليهما السلام - وقال (آية) ولم يقل آيتين وهما آيتان؛ لأنها قصَّة واحدة وهي ولادتها له من غير ذكر»[1].

وإنعامه على زكريا بهبته يحيى وإصلاح زوجه إذ قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[3].

المقصد السابع عشر: بيان بعض الأحكام:

بيَّن التصريف البيانيُّ بالقصص القرآنيِّ، بعض الأحكام الشرعيَّة، وهذا مما يثبت هذه الأحكام ويدعمها؛ لأنَّها تكون أحكاماً متَّفقاً عليها في الشرائع السماويَّة، وبيان أنَّها غير قابلة للنسخ، وأنَّها مؤكَّدة ثابتة، وفي القصَّة تكون حكمة شرعيِّتها قائمة والغاية منها ثابتة، كما في قصَّة قابيل وهابيل ابنَيْ آدم، إذ قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ الآيات[4].

وهكذا فإنَّ القصَّة تثبت أنَّ الغيرة والحسد يؤدِّيان إلى الاعتداء، وأنَّ ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض، وأنَّه لا علاج للحسد بإخراجه من النفوس، وهو فيها دفين، وهو مرض، ولكنه مرض لا يمكن أن يكون منه شفاء، والناس ليسوا سواء فمنهم شقي وسعيد.

وإذا كان الأمر كذلك فلا علاج إلاّ ببتر من استكنَّ في قلبه، وذلك لإصلاح الجماعة، لا لصالح الآحاد فقط، ولذلك عقَّب ذكر قصَّة ابنَيْ آدم ببيان الحكم إذ

---

(1) التعريف والإعلام ص 211.

(2) آل عمران 38 ـ 39.

(3) الأنبياء 90.

(4) المائدة 27 ـ 31.

قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1].

وهكذا فقد ارتبط فيه الحكم بسببه، فهو في جزء من القصص ذكر ـ سبحانه ـ ما كان بين الأخ وأخيه من محاربته فطرة الأخوَّة الرابطة، وأنه حمل نفسه حملاً على ارتكاب جريمته، إذ هي مخالفة للطبائع السليمة.

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى، يجرم من يجرم ثم يندم، فكانت شريعة القصاص؛ لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة في كل إنسان ومن قتل نفساً بغير حقٍّ فهو على استعداد لقتل غيرها، ففي عمله تعريض النفوس الإنسانيَّة لاعتداء المعتدين، ومن أحياها بالقصاص من القاتل، فكأنما أحيا الناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

وإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ شريعة القصاص شريعة أزليَّة خالدة باقية. وأنَّها كانت في الشرائع السابقة، ولم تخل شريعة من شرائع النبيِّين الكرام منها[3].

المقصد الثامن عشر: تربية المسلمين على المشاورة:

نجد أن من مقاصد القصص القرآنيِّ تربية المسلمين على المشاورة، وذلك كما في قصَّة آدم ـ عليه السلام ـ إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الآيات[4].

---

(1) المائدة 32.

(2) البقرة 179.

(3) المعجزة الكبرى ص 196 ـ 197، والقصص القرآني، عماد زهير ص 16.

(4) البقرة 30 ـ 33.

وذلك ما ذهب إليه الزمخشريُّ إذ قال: «ليعلِّم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيّاً عن المشاورة»[1].

ووافقه البيضاويُّ إذ قال: «وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجعول بأنْ بشَّرَ بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم وجوابه»[2].

المقصد التاسع عشر: طلب إقتداء النبيّ ـ ﷺ ـ بالأنبياء والمرسلين:

نجد أن من مقاصد القصص القرآنيّ طلب إقتداء النبي ـ ﷺ ـ بالأنبياء والمرسلين، كما في سورة الأنعام لمَّا ذكر ثمانية عشر نبيّاً في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ الآيات[3].

أتبع ذكرهم بقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[4].

قال بكري شيخ أمين: «ونفهم من هذا التَّعداد أوَّلاً ومن التعقيب بعده، أنَّ الغرض كان إقتداء محمَّدٍ بهم في التبليغ وإقامة الحجَّة، والصبر على التكذيب، والصبر على أهل العناد والأقارب والأباعد، والتأسِّي بهم دون أن يكون الغرض عرض قصص يراد به التسلية والتلهِّي»[5].

نخلص ممَّا سبق أنَّ مقاصد القصص القرآني تتضافر جميعاً في تربية المسلمين التربية الصحيحة التي أرادها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ والتي جاء بها نبيُّه محمَّدٌ ـ ﷺ ـ والأنبياء من قبله.

---

(1) الكشاف 1/ 271، وانظر أضواء على متشابهات القرآن ص 42.
(2) تفسير البيضاوي 1/ 82.
(3) الأنعام: 83 ـ 86.
(4) نفسها: 90.
(5) التعبير الفنّي في القرآن ص 281.

فمنها التربية على العقيدة الصحيحة، من إيمان باللّه وحده وعبادته ـ سبحانه وتعالى ـ والإيمان بالبعث والجزاء، والإيمان بالأنبياء والمرسلين، والصبر على أذى الكافرين وإعراضهم عن الحقِّ، حتى يظهره اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ويهلك أعداءه ـ وقد رأينا ممَّا سبق بيانه ـ أنَّ الأنبياء والمرسلين وأتباعهم قد تعرَّضوا للإيذاء والتكذيب، وكانت الغلبة والنصر لهم في النهاية.

ونلاحظ ذلك أيضاً في قصَّة قوم موسى مع فرعون، وهو يسومهم سوء العذاب، يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

ثم منّ اللّه عليهم بالنجاة والتمكين في الأرض جزاء صبرهم فقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[2].

ونجد ذلك أيضاً في قصَّة السحرة الّذين آمنوا بموسى، فقضى عليهم فرعون بالصلب والقتل، فثبتوا على عقيدتهم رغم التهديد والوعيد، وفي قصَّة أصحاب الكهف تربّية على العقيدة التي فيها التوحيد، والبعث والجزاء.

والتربية التي ينشدها الإسلام شاملة للأنبياء والمرسلين، والناس أجمعين، وشاملة أيضاً لكلِّ ما يصلح دينهم ودنياهم، فممَّا ورد في تربية الأنبياء بالإضافة إلى ما سبق ذكره قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

قال أبو السعود في توجيه هذه الآية: «وليس الأمر على حقيقته بل هو تمثيل، والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدّية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام من الكوكب

---

(1) القصص 4.

(2) نفسها 5 ـ 6.

(3) البقرة: 131.

والقمر والشمس، وقيل أسلم - أي - أذعنْ وأطعْ، وقيل أثبت على ما أنت عليه من الإسلام والإخلاص، أو استقم وفوّض أمرك إلى اللّه - تعالى - فالأمر على حقيقته، والالتفات مع التعرُّض لعنوان الربوبيَّة والإضافة إليه - عليه السلام - لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربّيته، وإضافة الربِّ في جوابه - عليه الصلاة والسلام - إلى العالمين للإيذان بكمال قوَّة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيَّته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به»[1].

«إنَّ القرآن الكريم يستخدم قصصه لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربويُّ، تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة، والتربية بالموعظة، فهي سجلٌّ حافل لجميع التوجيهات»[2].

قال منَّاع القطَّان: «إنَّ القصص القرآنيَّ ذو أثر فعَّال في التربية والتهذيب، ذلك لأنَّ القصَّة المحكمة تطرق المسامع بشغف وتنفذ إلى النفس البشريَّة بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تملُّ ولا تكدُّ، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثمار»[3].

وقد أجمل أحمد أحمد علوش الأهداف التربويَّة للقصص القرآني في ثلاثة جوانب، حيث يمدُّ الفرد والجماعة بالقيم الإسلاميَّة، ويربيِّ الإنسان على الثقة المطلقة في اللّه بالقضاء والقدر، ويزوِّد قارئه وسامعه بعديد من المعارف والحقائق التي تفيده في مسيرة الحياة، والتعامل مع الآخرين، وبذلك يؤدِّي الفرد دوره صالحاً في مجتمع جميل[4].

---

(1) إرشاد العقل السليم 1/ 163.

(2) القصص القرآني، عماد زهير ص 16.

(3) مباحث في علوم القرآن ص 310.

(4) مجلة كلِّيَّة التربية جامعة الرياض، العدد الأول، السنة الأولى 1397هـ/ 1977. القصَّة القرآنية ودورها في التربية أحمد أحمد علوش ص 6.

لذلك أكثر القرآن من تصريف القصص القرآنيّ، وبيان مقاصده والتي من بينها تربية المسلمين على العقيدة وفي ضمنها البرُّ، كما في قصَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ الآيات[1].

ومنها التربية على الصبر والبرِّ وامتثال أوامر الله ـ تعالى ـ كما في قصَّة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ إذ قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

«إنَّ القرآن الكريم اهتمَّ بتربية الأمَّة الإسلاميَّة على الصبر والمصابرة خلال المحنة؛ لأنَّ فيها صقلاً لتكوينها وتركيزاً لحياتها، وتثبيتاً لوجودها وإعزازاً لشأنها وصوناً لقدْرها»[3].

وفي قصَّة لقمان مع ابنه كثير من الفضائل التربويَّة النبيلة، ففيها التوحيد والنهي عن الشرك بالله، وفيها البرُّ بالوالدين، وفيها شكر الله والوالدين، وفيها البعث والجزاء، وفيها الأمر بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المصيبة، والنهي عن إمالة الخدّ عُجْباً وكبرا[4] والنهي عن المشي في

(1) مريم 42 ـ 49.
(2) الصافات 101 ـ 110.
(3) التربية في القرآن، محمَّد عبدالله السمّان. ص 17.
(4) صعّر خدّه أماله عُجْباً وكبرا (المعجم الوسيط 1/ 534 مادة صعر).

الأرض فرحاً، والأمر بالاقتصاد في المشي، واغضاض الصوت، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ الآيات[1].

قال الزمخشريُّ: «فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الإستعارة، وإن جعلوا حميراً وصوتهم نهاقاً مبالغة شديدة في الذمِّ والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه، وتنبيه على أنَّه من كراهة اللّه بمكان»[2].

ومنها التربية على الصدق، إقتداء بالأنبياء والمرسلين، إذ قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[4].

ومنها التربية على الصدق والوفاء بالوعد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[5].

ومنها الوفاء والأمانة، إذ يضرب يوسف ـ عليه السلام ـ المثل الأعلى في ذلك، إنه ليذكر جيداً إكرام العزيز الفائق له، وكان دائماً يقابل الإحسان بالإحسان، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[6]. وبعد ثبوت براءته يجيء عنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[7].

---

(1) لقمان 12 ـ 19.

(2) الكشاف 3/ 234.

(3) مريم 41.

(4) نفسها 56.

(5) نفسها 54.

(6) يوسف 23.

(7) نفسها 52، وانظر الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، ص 532.

ومنها التربية على الوفاء بالعهد، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[3].

ومنها التربية على مكارم الأخلاق، ومن ذلك دعوة شعيب قومه إلى ذلك في عدَّة مواضع نذكر منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4].

وهكذا فقد بدأ بإصلاح العقيدة، وقفَّى عليها بالأمر بإيفاء الكيل والميزان، إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا، فقد ربط بين مكارم الأخلاق والإيمان، ودعا إلى التخلِّي عن الرذائل، وجعل الرسل صوراً مثاليَّة لتعليم أقوامهم على أساس أنَّ التعليم بالقدوة له تأثير كبير[5].

ومنها التربية على الإخلاص في الطاعة وتنفيذ أوامر الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[6].

تلك جملة من مقاصد القصص القرآنيِّ، والتي صرَّف القرآن الكريم بيانها، بأساليب مختلفة، وصور شتَّى غاية في البراعة والبيان، وذلك ما ستبيِّنه الدراسة اللاحقة، والتي سأخصِّصها لأسلوب القصص القرآنيِّ.

---

(1) البقرة: 100.
(2) نفسها: 83.
(3) نفسها: 84.
(4) الأعراف: 85.
(5) مجلّة كليّة التربية جامعة الرياض، العدد الأول، السنة الأولى 1397هـ / 1977م القصَّة القرآنية ودورها في التربية أحمد أحمد علوش، ص 12.
(6) مريم: 51.

المبحث الثالث
أسلوب القصص القرآني

يتنوَّع الأسلوب القصصيُّ في القرآن الكريم تنوُّعاً عجيباً، إذ يتصرَّف بطرائق شتَّى وصور مختلفة، ومعنى ذلك أن القصص القرآنيَّ، لم يلتزم طريقاً واحداً في تصريف بيانه، وإنَّما يتَّخذ لذلك طرقاً مختلفة؛ ليحقِّق بذلك مقاصده السامية، وإعجازه البديع، ولا يستطيع الباحث في هذا المقام الإلمام الشامل بتلك الأساليب كلِّها في القصص القرآنيّ، ولذا سنكتفي بدراسة بعضها، وذلك بعرض شواهد مختارة على أساس موضوعيّ، لبيان بلاغة القرآن وحكمة تصريفه.

ومن ثمَّ نستطيع القول: إنَّ القصص القرآني، يصرِّف ذكر الأساليب التي تعارف عليها البلاغيُّون تصريفاً بديعاً ويتفنَّن في ذلك تفنُّناً دقيقاً، وليس ذلك في القصص القرآني وحده، وإنَّما القرآن الكريم كلُّه في أعلى درجات البلاغة والكمال، سواء التي ذُكرت فيه تلك الأساليب، أو الذي جاء خالياً منها.

فقد صرَّف هذه الأساليب وفق نظام بديع يقتضيه المقام، ويتطلَّبه السياق، فهو تنزيل من حكيم حميد.

والقرآن الكريم حينما يصرِّف هذه الأساليب لم يكن يقصد ـ بذلك ـ أنَّه جاء بالإستعارة لأنَّها إستعارة، أو بالمجاز لأنَّه مجاز، أو بالكناية لأنَّها كناية، أو ما يطَّرد مع هذه الأسماء والمصطلحات، وإنَّما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه وارتباط معانيه. فهو يستعير حيث يستعير ويتجوَّز حيث يتجوَّز، ويُطنبُ ويوجز، ويؤكِّد ويعترض إلى آخر ما أحصيَ في البلاغة ومذاهبها.

فالعلماء يقولون: إنَّ كلَّ ذلك فنون من البلاغة وقع بها الإعجاز؛ لأنَّهم اصطلحوا على هذه التسمية التي حدثت بعد العرب، ولو قالوا: إنَّ القرآن معجز في العربية لأنَّ الفطرة والعقل لا يبلغان مبلغه في سياستَي البيان والمنطق بهذه اللغة،

لكان ذلك أصوب في الحقيقة، وأبلغ في حقيقة الصواب، وأمكن في معنى الإعجاز.

ثمَّ تدبُّر الألفاظ على حروفها وحركاتها وأصواتها وموسيقاها ومناسبة بعضها لبعض في ذلك، والتغلغل في الوجوه التي من أجلها اختير كلُّ لفظ في موضعه، أو عُدل إليه عن غيره، من حيث موافقته لمعنى الجملة ونظمها ومن حيث دلالته في نفسه، وملاءمته لغيره، ثمَّ النظر في روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصيغ التي أقيمت عليها اللغة ووجه اختيار الحروف أو الصيغة وموضع ذلك في الغناء والإبلاغ في الدلالة من سواه، ثم طريقة النسق والسرد في الجملة ووجه الحذف أو الإيجاز ونحوهما، ممَّا هو خاصٌّ بهذه الطريقة حسب ما توجِّهه المعاني، فإنَّ ذلك في القرآن على أتمِّه وليس فيه اضطراب أو التواء فإذا اعتبرت القرآن على تلك الوجوه رأيته أعلى من البلاغة التي وضعت لها تلك الفنون، فإن هذه من بيان اللسان الذي لا يرتفع عن طبقة اللغة ولا يخرج من وجوه العادة في تصريفها، وسنن أهلها في إبراز معانيها، وهذا أمر يقع فيه التفاوت[1].

وقد أشار صاحب «المعجزة الكبرى» إلى أنَّ أدلَّ شيء على بلوغ القرآن أعلى درجات البلاغة تصريف الألفاظ والمعاني في كلِّ باب من أبواب القول.

وتصريف القول يتناول الألفاظ وتصريف الألفاظ يتضمَّن لا محالة تصريف المعاني؛ لأنَّه لا مرادف في القرآن ولا يوجد لفظان يؤدِّيان معنىً واحداً. من الإحكام والدقَّة، ولا يوجد أسلوب يؤدِّي معنى الأسلوب الآخر، وإذا كان باديَ الرأي أنَّ المعنيين يتحدان في جوهر المعنى ولكن عند التأمل في الإشارات البيانية التي تشير إليها الألفاظ والتي تطوف حولها وتشعّ منها تجدها مختلفة، وإنَّ كلَّ تغيير في العبارات القرآنيَّة عن أخواتها في مثل موضعها يحدث تغييراً في المرامي، ولمح القول، حتى الوقوف والفواصل تؤدِّي باختلاف نغمها ما لا تؤدِّيه مثيلاتها ممَّا هو في موضوعها[2].

---

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النَّبويَّة ص 258 ـ 260.

(2) المعجزة الكبرى ص 211 ـ 212.

«ذلك أنَّ قصص الرسل - عليهم السلام - مع أممهم لم تأت في القرآن العظيم على منهج واحد في الدعاء، والجواب والمحاورة والمراجعة، ولا يمكن ذلك لاختلاف طباع الأمم، وأغراضهم واختلاف الحالات ولكلٍّ مقام مقال، فمرَّة ترد القصَّة مقتصرة على الدعاء وإبداء الحجة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعوِّين سوى الإخبار بتكذيبهم ومرَّة يورد من مقالات الأمم لرسلهم اليسير، ومرَّة بمدّ أطناب الكلام في المحاورات فيما بين الرسل والأمم»[1].

نصل من ذلك إلى أنَّ أساليب القصص القرآنيِّ تتصرَّف كثيراً لتؤدِّي أغراضها المعنويَّة المختلفة حسب موقعها من الآية الواردة فيها، والتي هي جميعاً في أعلى درجات البلاغة والفصاحة، ولا فرق بين هذه الأساليب - التي سأتكلَّم عليها - وبين غيرها من الأساليب الأخرى، فكلُّ أسلوب يتصرَّف ليؤدِّي معانيه في دقَّة وإحكام، وهو ما سنراه في دراستنا لهذه الأساليب، والتي يمكن تحديدها في الأساليب الآتية:

أولاً : التأكيد في القصص القرآني.

ثانياً : الدعاء في القصص القرآني.

ثالثاً : النداء في القصص القرآني.

رابعاً : الاستفهام في القصص القرآني وصوره.

خامساً : الأمر والنهي في القصص القرآني وصورهما.

سادساً : التناسب القصصي.

سابعاً : الإيجاز والإطناب في القصص القرآني.

أولاً: التأكيد في القصص القرآني:

يلاحظ على أسلوب القصص القرآني كثرة التأكيد، الذي يتصرَّف في مواضع متعدِّدة، ليؤدِّي مقاصده على أكمل وجه وأتمِّه والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي ببيان بعضها، فمن ذلك ما جاء من تأكيد على لسان إبراهيم - عليه السلام - حين قال:

---

(1) ملاك التأويل 2/ 746.

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

في هذه الآية خبر مؤكَّد بإنَّ؛ لأنَّ المخاطب كان شاكّاً في مدلول الخبر، طالباً التثبُّتَ من صدقه والخبر الذي عناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو عبادة اللّه ـ تعالى ـ وتوحيده. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2].

فقد أكَّد أيضاً بإنَّ التي تفيد تأكيد الخبر دلالة على نفي الشرك والتبرُّؤ منه، وصولاً إلى التوحيد الصحيح للّه ربِّ العالمين.

وفي قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ يبدو أسلوب السخرية والاستهزاء من جانب المشركين في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

نلاحظ في هذه الآية أنَّ السادة والأشراف من قوم نوح ـ عليه السلام ـ قد رموه بالضلال المبين، مؤكِّدين ذلك بإنّ واللام؛ لأنّه كان منكراً لما هم فيه من الضلال والكفر، ومنكراً أيضاً لسخريتهم واستهزائهم، لذلك نفى ما رموه به، مبيِّناً أنَّه رسول ربّ العالمين، قائلاً: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4]. محدِّداً وظيفته في ثلاثة أشياء مهمَّة وهي إبلاغ رسالات ربّه، وتقديم النصح لهم، وأنّه يعلم من اللّه عن طريق الوحي ما لا يعلمون، إذ قال تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[5].

قال أبو السعود: «استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامه وأحوالها، وقيل: صفة أخرى لرسول. . .

وجمع رسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوُّع معانيها، أو لأنَّ المراد بها ما أوحي إليه، وإلى النبيِّين من قبله، وتخصيص ربوبيَّته ـ تعالى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد

(1) الأنعام: 79.

(2) نفسها: 78.

(3) الأعراف: 60.

(4) نفسها: 61.

(5) نفسها: 62.

بيان عمومها للعالمين للإشعار بعلّة الحكم الذي هو تبليغ رسالته ـ تعالى ـ إليهم فإن ربوبيّته ـ تعالى له ـ عليه الصلاة والسلام ـ من موجبات امتثاله لأمره ـ تعالى ـ بتبليغ رسالته ـ تعالى ـ إليهم»[1].

إنَّ هذه الآيات بُنيت بناءً دقيقاً محكماً، مرتَّبة ترتيباً بديعاً، منطقيَّاً متسلسلاً، بدءاً بقول الملأ والسخرية والاستهزاء من نوح ـ عليه السلام ـ ثم ردِّ نوح ـ عليه السلام ـ نافياً تهمتهم الباطلة، مبيِّناً أنَّه رسول ربّ العالمين، ثمَّ تُرتِّبُ على إرساله وظائف محدَّدة بعثه اللّه بها، قد بيَّنها محدِّداً إيّاها ـ كما قلنا ـ في ثلاث وظائف مهمَّة هي عماد رسالته.

وفي قصَّة هود ـ عليه السلام ـ يبيِّن القرآن موقف الكفَّار من هود ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2]. عن طريق الخبر الذي يحمل السخرية والاستهزاء، وقد أكَّدت الآية بأكثر من مؤكِّد ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وذلك لأنَّه كان ـ عليه السلام ـ منكراً لكفرهم وعنادهم، ومنكراً لسفاهتهم وحمقهم، لذلك نفى ما رموه به، مبيِّناً أنه رسول ربِّ العالمين ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3]. محدّداً مهمَّته في الإبلاغ إذ قال تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[4].

«وإنما جيء بالجملة الإسميَّة دلالة على الثبات والاستمرار، وإيذاناً بأنَّ من هذا حاله لا تَحوم حوله شائبة السفاهة والكذب»[5].

ومنه قوله ـ تعالى ـ في سورة يوسف: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6].

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 136. وانظر الفتوحات الإلهيَّة 2/ 154.
(2) الأعراف 66.
(3) نفسها 67.
(4) نفسها 68.
(5) إرشاد العقل السليم 3/ 238.
(6) يوسف 53.

فقد أكَّد الخبر في الآية الكريمة بمؤكِّدَين وهما إنَّ واللاَّم دلالة على أنَّ النفس البشرية غير منزَّهة عن السوء ـ إلاّ من رحم اللّه ـ وتحمل في طيِّها براءة يوسف ـ عليه السلام ـ من التهمة المنسوبة إليه.

والمعنى كما قال أبو السعود: «أي لا أنزِّهها عن السوء قاله ـ عليه السلام ـ هضماً لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء، وربْئاً بمكانها عن التزكية والإعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله ـ عليه السلام ـ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] أو تحديثاً بنعمة اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ وإبرازاً لسرِّه المكنون في شأن أفعال العباد، أي لا أنزِّهها عن السوء من حيث هي هي ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من اللّه ـ عزَّ وعلا»[2].

وقد يكون التأكيد بالقسم كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾[3].

أقسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يحطم أصنامهم ويجعلها قطعاً صغيرة، وقد أكَّد هذا الخبر بالقسم في قوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ وباللاَّم ونون التوكيد الثقيلة في قوله: ﴿ لَأَكِيدَنَّ ﴾ ليؤكِّد لهم عزمه على تحقيق هذه المهمَّة؛ لأنَّهم كانوا منكرين أن يحصل ذلك من أحد؛ لاعتقادهم الخاطئ الذي بينه لهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[4].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[5].

---

(1) أخرجه ابن ماجة في سننه 2/ 1440 باب ذكر الشفاعة عن أبي سعيد قال: قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ «أنا سيِّدُ ولد آدم ولا فخر، وأنا أوّل من تنشقّ الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوّلُ شافع وأوّل مشفَّع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر». وأخرجه الخطابي في أعلام السُّنن 1/ 230.

(2) إرشاد العقل السليم 4/ 285.

(3) الأنبياء 57.

(4) نفسها: 63.

(5) يوسف: 91.

فقد أكَّد إخوةُ يوسف ـ عليه السلام ـ بهذا القسم اختيار اللّه ليوسف وتفضيله عليهم، إذ لم يعودوا ينكرون فضله وشرفه عليهم.

قال ابن عطيَّة: «هذا منهم استنزال ليوسف وإقرار بالذنب في ضمنه استغفار منه، و ﴿ ءَاثَرَكَ ﴾ لفظ يعمُّ جميع التفضيل وأنواع العطايا»[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بهذا القدْر؛ لأنها على حدٍّ واحد في البلاغة والبيان.

يتبيَّن لنا مما سبق أنَّ أسلوب التأكيد يرد كثيراً في القصص القرآنيِّ محقِّقاً مقاصد متنوِّعة، مستعملاً في ذلك طرقاً متعدِّدة.

ثانياً: الدعاء:

نوَّع القرآن الكريم أسلوب الدعاء، الّذي جاء على ألسنة الأنبياء والمرسلين، فمن ذلك ما جاء على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[3].

«فالأصل فيه يا ربِّ، وإنما حذفت الأداة لما فيه من الثقة باللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ والشعور بأنَّه أقرب إليه من كلِّ شيء وليس بعيداً عنه»[4].

والذي نريد أن نبيِّنه في هذا الصدد أنَّه لا تكرار في هاتين الآيتين وإنَّما هو التنويع البديع، الذي تصرَّف حسب السياق والموضوع، فآية البقرة جاءت في سياق بيان ابتلاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكلمات ربِّه ـ سبحانه وتعالى ـ وبيان إمامته للناس،

---

(1) المحرر الوجيز: 3/ 277.

(2) البقرة 126.

(3) إبراهيم 35.

(4) روائع الإعجاز في القصص القرآني ص 219.

وطلب إبراهيم أن يكون ذلك في بعض ذريَّته، وبيان أن اللّه - عزَّ وجلَّ - جعل الكعبة مثابة للناس وأمناً، والأمر باتّخاذ مقام إبراهيم مصلّى، وبيان عهده لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركَّع والسجود إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ الآيات[1].

وأما آية سورة إبراهيم، فجاءت في سياق بيان دلائل القدرة الدالَّة على وحدانيَّة اللّه - تعالى - والامتنان بنعم اللّه على عباده فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ الآيات[2].

وهناك أمر ثان وهو اختلاف المطالب الواقع بعد هذا في الآيتين، ففي سورة البقرة يطلب في دعائه أن يرزق أهل هذا البلد من الثمرات، وأمَّا في سورة إبراهيم فقد طلب منه أن يجنِّبه وبنيه عبادة الأصنام.

وهناك أيضاً أمر ثالث: يؤيِّد ما قلناه، ألا وهو تنكير (بلداً) في آية البقرة وتعريفه في سورة إبراهيم (البلد).

والسر في ذلك على ما بيَّنه ابن الزبير، أنَّ اسم الإشارة الذي هو هذا في سورة البقرة لم يقصد بتبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾[4]. وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد، لا سيما بما تقدَّم من قول إبراهيم عند نزوله بولده بحرم اللّه ودعائهما أوَّلاً - بقوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾[5].

---

(1) البقرة 124 - 125.
(2) إبراهيم 32 - 34.
(3) البقرة 125.
(4) نفسها 125.
(5) إبراهيم 37.

فتعريف البيت تعريف للبلد، فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبيّن جنسه في أسماء الإشارة، اكتفاء بما تقدَّمه مما يحصل منه مقصود البيان فانتصب (بلداً) مفعولا ثانياً، وآمنا نعتا له، واسم الإشارة مفعولاً أوّل، غير محتاج إلى تابع لقيام ما يقوم مقامه، ولو تعرَّف لفظ بلد بالألف واللام، وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بياناً زائداً، على ما تحصَّل مما تقدّم، بل كان يكون كالتكرار فورود الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود مع حصول ما كانت التبعيَّة تعطيه فجاء على ما يجب.

وآية إبراهيم لم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرِّف بجنس ما يُشار إليه، فلم يكن بدٌّ من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار، إليه باسم جامد في الغالب[1].

نفهم مما سبق أنَّ مجيء البيان القرآني بهذه الصورة أنسب في سياقه وموضوعه، وهو أنسب أيضاً لنفي التكرار، وأبلغ في تحقيق المقصود، وأحرز للإيجاز.

ومما جاء من الدعاء على لسان إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهما يرفعان قواعد البيت قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

فهذا الدعاء جاء مناسباً لمقامه مرتَّباً ترتيباً بديعاً، وذلك أنَّ إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ عندما كانا يرفعان قواعد البيت، والمراد الأساس طلبا من اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتقبَّل هذا العمل فهو السميع لدعائهما والعليم بنيَّاتهما وهي أمنيَّةُ كلِّ مسلم يعرف قدْر اللّه حقّ قدره، إذا قام بعمل يطلب فيه رضا اللّه أن يدعو اللّه بقبوله.

(1) ملاك التأويل 1/ 90 ـ 91.

(2) البقرة 127 ـ 129.

ثم طلبا منه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلهما مخلصين له ـ سبحانه وتعالى ـ قال أبو السعود: «أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، وأيّاً ما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه من الإخلاص، والإذعان»[1].

وأن يلحق بهما بعض ذريّتهما على الإسلام؛ لأنهم كما قال أبو السعود: «أحق بالشفقة؛ ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع، وإنما خص به بعضهم لَّما علما أنَّ منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لا تقتضي اتّفاق الكلّ على الإخلاص والإقبال الكلّيٍّ على اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن ذلك مما يُخلُّ بأمر المعاش»[2].

وأن يريهم مناسكهم من الرؤية بمعنى الإبصار أو بمعنى التعريف، أي بصِّرنا ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ والمراد متعَّبداتنا في الحجِّ أو مذابحنا، والنسك في الأصل غاية العبادة وشاع في الحجِّ لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة[3].

قال ابن عطيَّة ـ فيما نقله عن قتادة ـ: «المناسك معالم الحجِّ، وروى عن عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ أنَّه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة بعث اللّه إليه جبريل فحجَّ به، وقال ابن جريج: المناسك المذابح أي مواضع الذبح، وقال فريق من العلماء: المناسك العبادات كلُّها، ومنه الناسك أي العابد[4].

والذي نراه ونميل إليه، رأي فريق العلماء الذين يقولون: إنَّ المراد بالمناسك: العبادات كلُّها؛ لأنَّهما لا يطلبان تعريفهما ببعض العبادات دون بعض؛ ولأنَّ البيت الحرام كما هو مكان للحجِّ فهو أيضاً مكان للصلاة.

وقد طلبا في هذه الآية أيضا: أن يتوب عليهم، والمراد طلب التوبة لذرِّيَّتهما، قال ابن عطيَّة: «واختلف في معنى طلبهما التوبة وهما نبيّان معصومان، فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، وقيل: أرادا مَنْ بعدَهما من الذرِّيَّة، كما تقول: برَّني

(1) إرشاد العقل السليم 1/ 16.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) المحرر الوجيز 1/ 211.

فلان وأكرمني، وأنت تريد في ولدك وذرِّيّتك، وقيل وهو الأحسن عندي، إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يسنّا للنّاس أنَّ ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصُّل من الذنوب وطلب التوبة، وقال الطبريّ: إنَّه ليس أحد من خلق اللّه ـ تعالى ـ إلاّ وبينه وبين اللّه ـ تعالى ـ معان يجب أن تكون أحسن مما هي وأجمعت الأمَّة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به إنهم معصومون من الجميع، وإنّ قول النبيّ ـ ﷺ ـ «إنِّي لأتوب إلى اللّه في اليوم واستغفره سبعين مرَّة»[1].

إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها، لتزيد علومه واطّلاعُه على أمر اللّه فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغويّة[2].

وقد رُتِّبت هذه الجمل الدعائيَّة ترتيباً متناسقاً، منسوقاً بواو العطف، مرتبطة ببعْضِها ارتباطاً قويّاً، ومتلاحمة تلاحماً متيناً.

ثم طلبا من مولاهما ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبعث في هذه الأمَّة المسلمة رسولاً مبيّنين صفاته ووظيفته، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾[3].

وجاء على لسان إبراهيم أيضاً قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾[4].

وجاء على لسان زكرياء قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[5].

---

(1) أخرج البخاري في صحيحه 4/ 1984 باب استغفار النبي ـ ﷺ ـ في اليوم والليلة، عن أبي هريرة، قال سمعت رسول اللّه ﷺ ـ يقولُ: «واللّه إنّي لأستغفرُ اللّه وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة».

(2) المحرر الوجيز 1/ 211 ـ 212.

(3) البقرة 129.

(4) إبراهيم 40 ـ 41.

(5) آل عمران 38.

وجاء على لسان موسى ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾[2].

فموسى ـ عليه السلام ـ لمّا أمره اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بالذهاب إلى فرعون الطاغي، عرف أنه كُلِّفَ أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلاَّ ذو جأش رابط وصدر فسيح، لذلك دعا ربَّه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى أنْ يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر وحسن الثبات، وأن يسهِّل عليه أمره الذي هو خلافة اللّه في أرضه[3].

وجاء على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4].

قال محمود السيّد حسن: «تكرَّرت هذه الجمل الدعائيَّة على لسان خليل اللّه إبراهيم وقد اشتملت على خيري الدنيا والآخرة»[5].

والأمر عندي خلاف ذلك، إذ لا تكرار في هذه الجمل، لا من حيث المعاني ولا من حيث الألفاظ، وإنَّما هي جملة من الأدعية جاءت على لسانه، يطلب من اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يهبه إيّاها، إذ لو سلّمنا بما قاله لاعتبرنا أن ما ورد من أدعية في الآيات التي سبق ذكرها مكرَّرة، وهذا غير صحيح، فالمقصود تنويع المطالب.

وجاء على لسان نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[6].

وقال أيضاً: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[7].

---

(1) الأعراف 152.
(2) طه 25 ـ 27.
(3) الكشاف 2/ 535.
(4) الشعراء: 83.
(5) روائع الإعجاز في القصص القرآني ص 225.
(6) المؤمنون 26.
(7) نوح: 26.

وجاء على لسان لوط ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

وجاء على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[3].

وجاء على لسان امرأة فرعون: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ الدعاء يتصرَّف على ألسنة الأنبياء والمرسلين محقِّقاً مقصدين، أوَّلهما التذلُّل والخضوع لله ربِّ العالمين، وهو الذي ينفع ويضرُّ، وهو الواحد القهَّار.

وثانيهما: نصر الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذِّبين، كما جاء في الآيات السابقة على لسان نوح، ولوط ـ عليهما السلام ـ.

ثالثاً: النداء في القصص القرآني وصوره:

يتصرَّف النداء في القصص القرآني بطرائق شتَّى وصور مختلفة، وذلك متحقِّق في القرآن كلِّه، والذي أعنيه بصور النداء في القصص القرآني تنوُّعهُ ومجيئه على أحوال، ومن هذه الصور مجيء النداء على أصله وتقدُّمه على الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾[5].

---

(1) الشعراء: 169.

(2) العنكبوت 30.

(3) المائدة: 114.

(4) التحريم: 11.

(5) هود: 76.

وقـال أيضـاً: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[1].

ومن صور النداء مـا يصحبه الاستفهام كما فـي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾[2].

والسرُّ في ذلك قد بيَّنه أبو حيَّان بقوله: «وفـي قولـه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ تلطُّف واستدعاء بالنسب، واستفهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن السبب الحامل لأبيه على عبادة الصنم، وهو منتف عنه السمع والبصر والإغناء عنه، تنبيهاً على شنعة الرأي وقبحه، وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف»[3].

وقال الزمخشريُّ: «انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورِّطاً فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقل، وانسلخ عن قضيَّة التمييز كيف رتَّب الكلام معه في أحسن اتسِّاق وساقه أرشق مَسَاق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق، واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن، منتصحاً في ذلك نصيحة ربّه ـ جل وعلا ـ»[4].

تلك صور النداء التي تأتي في معناها الأصلي، وهو طلب الإقبال، وقد يتصرَّف النداء إلى معان أخر تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، يراد بها غير المعنى الأصليِّ، أشار إليها السيوطي بقوله: «وقد ترد صور النداء لغيره مجازاً كالإغراء والتحذير، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾[5]. والاختصاص كقوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾[6]. والتنبيه

---

(1) الأعراف: 59.
(2) مريم: 42.
(3) البحر المحيط: 6/ 182.
(4) الكشاف 2/ 510.
(5) الشمس 13.
(6) هود 73.

كقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾[1]. والتعجُّب نحو: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[2]. والتحسرُ كقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾[3].

وقد تتنوَّع صور النداء من حيث تنوُّع المنادى، فيأتي لنداء النسبة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[5].
ففي هذا النداء تذكير لهم بانتسابهم إلى بني إسرائيل، والأصل كما ذكر السهيليُّ: «وهو يعقوب بن إسحاق وسمى إسرائيل لأنَّه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى اللّه ـ سبحانه ـ فسمِّيَ إسرائيل»[6].

وفيه كذلك: تلوين للخطاب وتوجيه له إلى طائفة خاصَّة من الكفرة المعاصرين للنبيّ ـ ﷺ ـ لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول اللّه ـ ﷺ ـ وأمره بتذكيرهم كلِّهم بالنعمة العامَّة لبني آدم قاطبة وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لمّا أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفراً بها، وذكر النعمة يكون بالتفكُّر فيها، والقيام بشكرها، وفيه إشارة بأنهم قد نسوها بالكلِّيَّة، ولم يخطروها بالبال، لا أنَّهم أهملوا شكرها فقط، وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشريفها، وإيجاب تخصيص شكرها له ـ تعالى ـ[7].

ومنه نداء الشريعة[8] وهو لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث قال له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[9].

---

(1) النمل: 25.
(2) يس 30.
(3) النبأ: 40 وانظر الإتقان 3/ 246.
(4) الأعراف 27.
(5) البقرة 40.
(6) التعريف والإعلام ص 59 ـ 60.
(7) إرشاد العقل السليم 1/ 94 بتصرف.
(8) معترك الأقران 3/ 15.
(9) الحج 27.

ونداء العتاب ليوسف ـ عليه السلام ـ على ما في معترك الأقران[1] ومثّل له بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾[2]. والذي نراه أنَّه نداء شكوى، لمّا أصابهم الهزال.

وقد يأتي لنداء أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[5].

فقد جاء النداء في هذه الآيات مقترناً بالاستفهام ـ والمقصود منه ـ واللّه أعلم ـ تذكيرهم بأنَّهم أهل كتاب يعرفون هذه الحقائق، لعلَّهم يرجعون إلى صوابهم، وأنكر عليهم فعلهم هذا المخالف لدينهم.

يتبيَّن لنا مما سبق أنَّ النداء يتصرَّف في القصص القرآنيِّ بطرائق شتَّى وصور مختلفة محقِّقاً مقاصده في أعلى درجات البلاغة والفصاحة وذلك متحقِّق في القرآن كلِّه.

رابعاً: الاستفهام في القصص القرآني وصوره:

يتصرَّف أسلوب الاستفهام في القصص القرآني فيأتي على صور شتَّى وأنواع مختلفة وكلُّ صورة من تلك الصور تتصرَّف في موقعها الأقوى دلالة على المعنى المراد، وكلُّها في أعلى درجات البلاغة والكمال، والمقصود بهذه الصور تنوُّع تلك الأساليب في نسق دقيق، وتحوُّلها من نوع لآخر، إذ يأتي أحياناً على معناه الأصلي، وذلك الاستعمال كثير في القرآن الكريم، وأحياناً أخرى ينصرَّف عن معناه الأصلي إلى معان أخر تفهم من سياق الكلام، وهذا أيضاً أكثر من الأوّل وهو أنواع.

---

(1) الحج 27.
(2) يوسف: 88.
(3) آل عمران: 65.
(4) نفسها: 70.
(5) نفسها: 71.

لذا قبل الخوض في بيان هذه الصور وبلاغة تصريفها، أذكر تعريفه على ما عرَّفه به البلاغيُّون والمهتمُّون بعلوم القرآن، إذ قالوا: «وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول»[1]. وقالوا أيضاً: «وهو طلب الفهم، وهو بمعنى الاستخبار، وقيل: الاستخبار ما سبق أوّلاً، ولم يُفهم حقَّ الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً»[2].

وقالوا كذلك: «الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأدوات خاصة»[3].

ومما ورد من الاستفهام على أصل معناه قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4]. فالشاهد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ذهب أبو حيَّان إلى أنَّ سؤال فرعون كان على سبيل المباهتة والمكابرة، والمرادّة، وكان عالماً بالله ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[5].

ولكنَّه تعامى عن ذلك طلباً للرئاسة ودعوى الألوهيَّة واستفهم بـ(ما) استفهاماً عن مجهول من الأشياء، قال مكّيّ: كما يستفهم عن الأجناس وقد ورد له استفهام بمن في موضع آخر ويشبه أنَّها مواطن انتهى.

والموضع الآخر، قوله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾[6]. ولمَّا سأل فرعون وكان السؤال بما التي هي سؤال عن الماهيَّة، ولم يكن الجواب بالماهيَّة، أجاب بالصفات التي تبيِّن للسامع أنَّه لا مشاركة لفرعون فيها، وهو ربّوبيَّة السموات والأرض وما بينهما[7].

---

(1) من بلاغة القرآن ص 163.

(2) الإتقان 3/ 234.

(3) من بلاغة النظم العربيّ 2/ 93.

(4) الشعراء 23.

(5) الإسراء 102.

(6) طه 49.

(7) البحر المحيط 7/ 12.

وقال الزمخشريُّ: «وهذا السؤال لا يخلو إمّا أن يريد به أيَّ شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها بما يستدلُّ به عليه من أفْعاله الخاصَّة، ليعرِّفه أنَّه ليس شيئاً مما شوهد وعُرف من الأجرام والأعراض، وأنّه شيء مخالف لجميع الأشياء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

وإمّا أن يريد به أيَّ شيء هو على الإطلاق، تفتيشاً عن حقيقته الخاصَّة ما هي؟ فأجابه بأنّ الّذي إليه سبيل، وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته، استدلالاً بأفعاله الخاصَّة على ذلك.

وأمَّا التفتيش عن حقيقته الخاصَّة التي هي فوق فطرة العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه، والسائل عنه متعنِّت غير طالب للحقِّ، والذي يليق بحال فرعون ويدلُّ عليه الكلام، أن يكون سؤاله هذا إنكاراً لأن يكون للعالمين ربّ سواه لادّعائه الألوهيَّة»[2].

وقال الخطيب القزويني[3]: «إن سؤال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إما عن الجنس لاعتقاده ـ لجهله بالله تعالى ـ أن ألاّ موجود مستقلاً بنفسه سوى الأجسام، كأنه قال: أيُّ أجناس الأجسام هو؟ وعلى هذا جاء جواب موسى ـ عليه السلام ـ بالوصف، للتنبيه على النظر المؤدّي إلى معرفته، لكن لمّا لم يطابق السؤال عند فرعون؛ عجَّب الجهلة الّذين حوله من قول موسى بقوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[4]... الخ.

وإمّا عن الوصف طمعاً في أن يسلك موسى ـ عليه السلام ـ في الجواب معه مسلك الحاضرين لو كانوا هم المسؤولين مكانه، لشهرته بينهم بربّ العالمين، إلى درجة دَعَتِ السحرة إذ عرفوا الحقَّ أن أعقبوا قولهم: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[5]».

---

(1) الشورى 11.
(2) الكشاف 3/ 109.
(3) الإيضاح في علوم البلاغة 1/ 230 ـ 231.
(4) الشعراء 25.
(5) نفسها 47.

وقال الخازن: «وهو سؤال عن جنس الشيء والله - تعالى - منزَّه عن الجنسيَّة والماهيَّة، فلهذا عدل موسى عن جوابه وأجابه بذكر أفعاله وآثار قدرته التي تعجزُ الخلائق عن الإتيان بمثلها»[1].

يتبيَّن لنا مما سبق أنَّ السرَّ في بلاغة هذا الاستفهام إظهار حال فرعون، وما كان عليه من التعنُّت والإنكار للّه ربِّ العالمين، والجهل به - تعالى - وعلى ذلك جاء جواب موسى عليه السلام - مستدّلاً عليه بالأدلَّة الواضحة والبراهين الساطعة. حاكياً عنه ذلك المولى - سبحانه وتعالى -: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[2].

وهكذا فإنَّ هذا الاستفهام فتح باب المحاورة بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون الطاغية، فموسى يجيب موضِّحاً بالدليل، وفرعون محاولاً الهروب من الحقِّ والمعاندة في الباطل، إذ لم يكتف - عليه السلام - بالدليل الأوَّل بل أتبعه بأدلَّة أخر منها قوله: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[3].

ليبطل ادّعاءَ فرعون الربوبيّة ويثبتها للّه ربِّ العالمين، تلك هي بلاغة الاستفهام في هذه الآية الكريمة.

وممَّا جاء من الاستفهام على أصل معناه، قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4].

والسرُّ في بلاغة هذا الاستفهام إظهار حال الحواريّن، بتقديم سؤالهم هذا وبيان أنَّ مثل هذا السؤال لا يجوز في حقِّ اللّه - تعالى - سواءً كانَ ذلك شكّاً منهم، أو طلباً منهم للفهم، والّذي نراه أنَّ ذلك لأجل طلب الفهم؛ لأنَّهم كانوا مؤمنين،

(1) تفسيره 5/ 95.

(2) الشعراء 24.

(3) نفسها 26.

(4) المائدة 112.

والمؤمن لا يشكُّ في شيء يعلم قدرة اللّه فيه، وأما قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلا يدلُّ على أنَّهم غير مؤمنين؛ لأنَّ الأمر بالتقوى ورد في غير ما آية موجَّهاً للمؤمنين وفي سورة الأحزاب أمر نبيَّه - ﷺ - بالتقوى إذ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾[2].

والشاهد في الآيتين الكريمتين قوله: ﴿ مَا لَوْنُهَا ﴾ و ﴿ مَا هِىَ ﴾ وتصرف الاستفهام فيهما لطلب الفهم ومعرفة المجهول؛ لأنَّهم في الآية الأولى طلبوا فهم لون البقرة المأمورين بذبحها، وعلى ذلك جاء بيان لونها بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾.

قال الألوسيُّ: «إسناد البيان في كلِّ مرَّة إلى اللّه - عزَّ وجلَّ - لإظهار كمال المساعدة في إجابة مسؤولهم وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة - والفقوع - أشد ما يكون من الصفرة وأبلغه، والوصف به للتأكيد»[3].

وفي الآية الثانية طلبوا بيان حقيقتها، ولذلك بين حقيقتها فقال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[4].

قال الزمخشريُّ: ﴿ مَا هِىَ ﴾ مرَّة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها»[5].

(1) الأحزاب 1.

(2) البقرة 69 - 70.

(3) روح المعاني 1/ 288.

(4) البقرة: 71.

(5) الكشاف 1/ 288.

وقال الألوسيُّ: «إعادة للسؤال عن الحال والصفة لا لـردِّ الجواب الأوّل بأنّه غير مطابق وأنَّ السؤال باق على حاله بل لطلب الكشف الزائد على ما حصل وإظهار أنَّه لم يحصل البيان التامّ»[1].

إنَّ الّذي نراه أنَّه لا تكرار للسؤال كما يراه الزمخشريُّ والألوسيُّ؛ لأنَّ السؤال الأوّل عن لون البقرة المأمورين بذبحها، والثاني عن حقيقتها، فهو تصريف للبيان القرآنيّ.

وهكذا، فبعد أن أتينا ببعض الأمثلة لتصرُّف الاستفهام على أصل معناه نأتي بأمثلة للاستفهام الّذي يتصرَّف عن أصل معناه إلى معان أخر تفهم ـ كما قلنا ـ من السياق، ولها دلالات خاصة وأسرار عجيبة، قال الخطيب القزوينيُّ: «ثمَّ هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام»[2]. وقال غيره: «تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصليَّة لمعان وأغراض بلاغيَّة تفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال»[3].

والّذي نراه أنَّ هذه المعاني هي صور لتصريف البيان، إذ إنَّ في ذلك تنوُّعاً عجيباً، وهذا التنوُّع هو التصريف على ما بيَّنا ـ فيما سبق.

ومن ثمَّ نستطيع القول: إنَّ الاستفهام الّذي يخرج عن أصل معناه تكون له صور كثيرة، تفهم من سياق الكلام، ليؤدِّي دلالته في نسق قويٍّ وترابط متين.

ومن صور الاستفهام ما يكون للإنكار، وقد اعتبر الإمام محمَّد أبو زهرة هذا النوع من الاستفهام أقوى دلالة في معنى النفي، إذ إنَّ النفي المجرَّد، والنفي بطريق الاستفهام كلاهما يدلُّ على أصل النفي؛ لأنَّ النفي بالاستفهام فيه معنى أنَّ المخاطب سبق إلى النفي، فكأنَّ النفي من القائل والإقرار به من جهة المخاطب»[4].

---

(1) روح المعاني 1/ 289.
(2) الإيضاح في علوم البلاغة 1/ 234.
(3) من بلاغة النظم العربي 2/ 102.
(4) المعجزة الكبرى ص 212.

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني الحكمة في سبب تسمية الاستفهام بالإنكاريِّ فقال: «واعلم أنَّا وإن كنا نُفسِّر «الاستفهام» في مثل هذا بالإنكار فإن الّذي هو محض المعنى؛ أنَّه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويَعْيَا بالجواب، إمّا لأنُّه قد ادَّعى القُدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له «فافعل» فيفضحه ذلك وإمَّا لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يُسْتَصْعَب فعلُه، فإذا رُوجع فيه تنبَّه وعرف الخطأ، وإمَّا لأنَّه جوَّز وجودَ أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه قبّح على نفسه، وقيل له: فأرِنَاه في موضع وفي حالٍ، وأقم شاهداً على أنَّه كان في وقت، ولو كان يكون للإنكار، وكان المعنى فيه من بدء الأمر لكان ينبغي أن لا يجيء فيما لا يقول عاقل إنَّه يكونُ حتى ينكر عليه»[1].

ومما ورد على سبيل الإنكار قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]. والشاهد في هذه الآية الكريمة قوله ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ والاستفهام للإنكار، إذ أنكر عليهم استبعادهم أن يرسل اللّه ـ سبحانه ـ رجلاً منهم لينذرهم ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[3]. قال أبو السعود: «فالإنكار للتوبيخ والتبكيت»[4].

يتبيَّن لنا مما سبق أنَّ الاستفهام يتصرّف من معناه الأصلي إلى معنى الإنكار، وهذا يتصرّف فيكون الإنكار للتوبيخ، وقد يكون الإنكار للتكذيب، وقد يجمع بين التوبيخ والتكذيب.

وأمَّا الصورة الثانية فهو التوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[6].

---

(1) دلائل الإعجاز ص 119 ـ 120.

(2) الأعراف 63.

(3) النمل 61.

(4) إرشاد العقل السليم 6/ 38.

(5) طه 93.

(6) الصافات 95.

قال أبو السعود في تفسير الآية الأولى: «والهمزة للإنكار التوبيخيِّ، والفاء للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي ألم تتبعني أو أخالفتني فعصيت أمري»[1].

وفي الآية الثانية قال: «فالإنكار للتوبيخ والتبكيت»[2].

وقد يكون: «التوبيخ على فعل وقع، وكان الأولى ألاّ يقع، أو ترك فعل ما كان ألاّ يقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3].

فالاستفهام هنا يثير في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبُّر الأمور، حتى تقتنع بتفكيرها الخاصّ، بأنه كان ينبغي أن يقع ما وقع، أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع»[4] وهكذا فإنَّ الاستفهام في هذه الآية لم يكن على أصل معناه، وإنما تصرَّف بمعنى التوبيخ، إذ إنّ اللّه - تعالى - أنكر عليهم عبادة غير اللّه، موبِّخاً إيّاهم ومذكّراً إياهم بأنَّه ربُّهم وربّ آبائهم الأوّلين فقال تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5].

وأمّا الصورة الثالثة فهي التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[6].

ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أنَّه لا شبهة في أنَّهم لم يقولوا ذلك له - عليه السلام - وهم يريدون أن يُقرّ لهم بأنّ كَسْرَ الأصنام قد كان، ولكن أن يُقرّ بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ وقال هو - عليه السلام - في الجواب: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[7]. ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلتُ أو: لم أفعل.

---

(1) المرجع السابق ص 294.

(2) نفسه 7/ 198.

(3) الصافَّات 125.

(4) من بلاغة القرآن ص 163 - 164.

(5) الصافَّات 126.

(6) الأنبياء 62.

(7) نفسها 63.

فإنَّه إذا قال: أفعلتَ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردِّده بينه وبين غيره، وكان كلامهُ كلام من يُوهم أنّه لا يدري أنّ ذلك الفعل كان على الحقيقة، وإذا قال: أأنت فعلت؟ كان قد ردّد الفعل بينه وبين غيره، ولم يكن منه في نفس الفعل تردُّد، ولم يكن كلامهُ كلام من يوهم أنَّه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن بدلالة أنّك تقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار إليه[1].

وما ذهب إليه الشيخ عبد القاهر، والسكّاكيُّ وغيرهما القائلين بقول عبد القاهر السابق الإشارة إليه، تعقَّبه الخطيب القزويني بقوله: «وفيه نظر؛ لجواز أن تكون الهمزة فيه على أصلها؛ إذ ليس في السّياق ما يدُلّ على أنَّهم كانوا عالمين بأنَّه ـ عليه السلامُ ـ هو الّذي كسَّر الأصنام»[2].

والّذي نراه أنَّ السرَّ في بلاغة تصريف هذه الآية، تقرير الفاعل على فعله، وذلك بيّن من حكاية القرآن لقول نمروذ، الّذي أراد أن يقرِّر سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه الّذي كسّر الأصنام، ولكن الإجابة جاءت على عكس ما يريدون، تجهيلاً لهم، وإلزامهم الحجَّة لعلَّهم يرجعون إلى صوابهم ويقرُّون ببشاعة أمرهم.

ويدلُّ عليه أيضاً قولهم الّذي حكاه عنهم القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾[3].

قال أبو السعود: «مشيراً إلى الذي لم يكسره، سلك ـ عليه السلام ـ مسلكاً تعريضياً يؤدِّيه إلى مقصده الّذي هو إلزامهم الحجَّة على ألطف وجه وأحسنه يحملهم على التأمُّل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقِّي من الكذب، حيث أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه كما أبرزه في ذلك المعرض»[4].

---

(1) دلائل الإعجاز ـ ص 113 ـ 114.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة 1/ 235.

(3) الأنبياء 60 ـ 61.

(4) إرشاد العقل السليم 6/ 64.

وقال ابن عطيَّة: «هذا على معنى الإحتجاج عليهم، أي إنَّه غار من أن يعبد وتعبد الصغار معه، ففعل هذا بها لذلك»[1].

وأما الصورة الرابعة فهي التعجُّب، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

والشاهد في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ إذ السرُّ في بلاغة هذا التصريف التعجُّب من حال بني إسرائيل، لأمرهم الناس بالبرِّ ونسيانهم أنفسهم، وهو ينبئ عن توبيخهم لفعلهم هذا.

قال الزمخشريُّ: «الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجُّب من حالهم»[3].

ووافقه أبو السعود إذ قال: «والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجُّب»[4].

وهكذا فقد يتصرَّف الاستفهام بمعنى التعجُّب من فعل قبيح لا يرضاه اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ من عباده، ويحمل في ضمنه التوبيخ على ذلك الفعل.

وأما الصورة الخامسة فهي التذكير، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[5].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾[6]. على ما ذكره السيوطيُّ[7].

وأمَّا أبو حيَّان، فهو يرى أن ﴿ هَلْ عَلِمْتُم ﴾ استفهام معناه التقريع والتوبيخ ومراده تعظيم الواقعة»[8].

---

(1) المحرر الوجيز 4/ 86.
(2) البقرة 44.
(3) الكشاف 1/ 277.
(4) إرشاد العقل السليم 1/ 97.
(5) البقرة 33.
(6) يوسف 89.
(7) الإتقان 3/ 237.
(8) البحر المحيط 5/ 336 ـ 337.

والّذي أميل إليه أنَّ هذا الاستفهام للتذكير؛ لأنَّ يوسف ـ عليه السلام ـ ذكَّر إخوته بفعلهم، وهو أرفع من أن يقصد من ذلك التوبيخ، والّذي يؤيِّد ذلك أيضاً ما ذكره أبو السعود حين قال: «وإنَّما قاله نصحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم، لَمّا رأى عجزهم، وتمسكنهم لا معاتبة وتثريباً»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

قال أبو حيَّان: «قال لهم على جهة التوبيخ والتقريع، وقَّفهم على عهده إليهم ومخالفتهم إيّاه»[3].

وقال أبو السعود: «من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت، بيَّن الأمر بالامتياز وبيَّن الأمر بدخول الجنَّة»[4]. ويرى السيوطيُّ: أنَّ ذلك للتذكير[5].

والّذي نراه أنَّ هذه الآية تصرَّف الاستفهام فيها بمعنى التذكير، إذ إنَّ اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يذكِّر بني آدم بعهده إليهم، ألاّ يعبدوا الشيطان، ذلك لمن امتثل عهد اللّه، وأما من خالفه واتَّبع الشيطان، فهو توبيخ له وتقريع.

وأما الصورة السادسة فهي الاستبعاد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[7].

---

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 303.

(2) يس 60.

(3) البحر المحيط 7/ 328.

(4) إرشاد العقل السليم 7/ 175.

(5) الإتقان 3/ 237.

(6) آل عمران 47.

(7) مريم 8.

«أنّى الاستفهامية تعني التعجُّب والتهويل في كثير من الأحيان، وإنّ التعجب الّذي تشير إليه يعني الاستبعاد والاستحالة لعظم الأمر وارتقائه فوق المستوى البشريّ»[1].

وأمَّا الصورة السابعة فهي التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾[2].

إنَّ الاستفهام في هذه الآية بمعنى التكثير على ما ذكر ابن عطيَّة[3] والشاهد هو ﴿ وَكَم ﴾ والتي يسأل بها عن العدد، والسرُّ في بلاغة هذا التصريف إظهار قدرة اللّه تعالى - وإنذار الّذين لم يتبّعوا ما أُنزل إليهم من ربِّهم، بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن اتّباع دين اللّه واتّباعهم دين أوليائهم، ويحمل كذلك في ضمنه التهديد والوعيد لمن لم يتبع دين اللّه.

وأمَّا الصورة الثامنة فهي الافتخار، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4].

هذا الاستفهام يبيِّن افتخار فرعون على موسى - عليه السلام - بملك مصر، ومما زاد الافتخار وضوحاً قوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

وأمَّا الصورة التاسعة فهي التنبيه، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾[5].

إنَّ السرَّ في بلاغة هذا الاستفهام: «تنبيه المخاطب على الضلال حين تدفعه بالاستفهام إلى التفكُّر وتدبُّر العواقب»[6].

(1) روائع الإعجاز في القصص القرآني ص 264.
(2) الأعراف 4.
(3) المحرر الوجيز 2/ 373.
(4) الزخرف 51.
(5) البقرة 258.
(6) من بلاغة القرآن ص 164.

وهكذا فإنَّ في هذه القصَّة تنبيهاً وتذكيراً بموقَفين، موقف الإيمان، يمثله إبراهيم - عليه السلام - وموقف الكفر يمثله الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه، والانتصار في هذه المحاجَّة كان لأهل الحقِّ والإيمان.

ذلك تصريف الاستفهام من معناه الأصلي إلى معنى التنبيه، وقد جاء - كما رأينا - لبيان قدرة اللّه - تعالى - وتوحيده، مقترناً بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة.

وأمَّا الصورة العاشرة فهي الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾[1].

قال أبو حيَّان: «قيل: هذا الاستفهام على سبيل الإدلاء بالحجَّة في صيغة استعطاف وتذلُّل»[2]. وقال أبو السعود: «والهمزة إما لإنكار وقوع الإهلاك بلطف اللّه - عزَّ وجلَّ - كما قال ابن الأنباريُّ، أو للاستعطاف كما قاله المبرِّد»[3].

وذكر الزركشيُّ والسيوطيُّ[4] أنَّ الاستفهام في الآية للدعاء، وهو ما نميل إليه ويدلُّ عليه قولهم فيما حكاه عنهم القرآن الكريم: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾[5].

وأما الصورة الحادية عشرة فهي التهكُّم والإستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[6].

جاء الاستفهام في هذه الآية بمعنى التهكُّم والاستهزاء، فقد أظهر استهزاء قوم شعيب وتهكُّمهم منه.

---

(1) الأعراف 155.

(2) البحر المحيط 4/ 399.

(3) إرشاد العقل السليم 3/ 277.

(4) البرهان 2/ 341، والإتقان 3/ 239.

(5) الأعراف 155.

(6) هود 87.

قال أبو حيَّان: «لما أمرهم شعيب بعبادة اللّه، وترك عبادة أوثانهم، وبإيفاء المكيال والميزان، ردّوا عليه على سبيل الاستهزاء والهزء بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ وكان كثير الصلاة، وكان إذا صلّى تغامزوا وتضاحكوا وجعلوا الصلاة آمرَّة على سبيل التهكُّم بصلاته»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[2].

في هاتين الآيتين الكريمتين الخطاب موجَّه للأصنام، والمراد منه التهكُّم والاستهزاء بعابديها حتَّى يظهر لهم عجزها.

وأما الصورة الثانية عشرة، فهي الإيناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[3].

قال أبو حيَّان: «وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه - تعالى - لموسى - عليه السلام - استناس عظيم، وتشريف كريم»[4].

وأيّاً ما كان فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له - عليه الصلاة والسلام - على ما سيبدو له من الأعاجيب، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه[5].

نستخلص من العرض السابق لصور الاستفهام في القصص القرآنيّ، وتصريفها المختلف، أنَّ الاستفهام منه ما يأتي على أصل معناه، ومنه ما يتصرَّف إلى معان أخر تفهم من سياق الكلام، وتؤدِّي معانيها في دقَّة وإحكام، وغيرها لا يحلُّ محلها مهما كان، لأن ذلك تنزيل من حكيم حميد.

إنَّ تلك الصور تتنوَّع كثيراً في نسق دقيق، وتفنُّن عجيب، لتؤدِّي أغراضها البلاغيَّة العالية حسب مواقعها من الآيات الواردة فيها أداءً تاماً.

---

(1) البحر المحيط 5/ 253.

(2) الصافات 91 - 92.

(3) طه 17.

(4) البحر المحيط 6/ 220.

(5) إرشاد العقل السليم 6/ 9 - 10.

خامساً: الأمر والنهي في القصص القرآني وصورهما:

يعدُّ الأمر والنهي من صور تصريف الأساليب في القصص القرآني، وذلك متحقِّق في القرآن كلِّه، لذا، سأتحدَّث في هذه الفقرة عنهما، مبيِّناً صور ذلك التصريف وأسرار بلاغته، والمقصود بهذه الصور تنوُّع تلك الأساليب، في تناسق متين، وترابط قويٍّ، وتحوُّلهما من نوع إلى آخر، وذلك ما ستبيِّنه هذه الدراسة.

1 ـ صور الأمر في القصص القرآني:

يتصرَّف أسلوب الأمر في القصص القرآني بطرائق شتَّى وأنواع مختلفة، تفهم من سياق الكلام، وكلُّها في أعلى درجات البلاغة والكمال، وكلُّ صورة من صور ذلك التصريف الأقوى في دلالتها على المعنى المراد، ولا يغني عنها غيرها من الصور الأخر.

لذلك وقبل الخوض في بيان تلك الصور وبلاغة تصريفها، أذكر تعريفه على ما عرَّفه به البلاغيُّون، إذ قالوا: «طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى إلى الأدنى»[1].

بيد أن الأمر يجيء لغير التكليف والإلزام، فيتصرَّف على وجوه كثيرة، لأغراض بلاغيَّة تفهم من سياق الكلام.

وقد يكون مسبوقاً بالنداء، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[2].

جاء الأمر في هذه الآية، موجَّهاً إلى مريم ـ عليها السلام ـ مسبوقاً بالنداء، قال الزمخشريُّ: «أمرت مريم بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئات الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: ﴿ وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلِّين؛ أي في الجماعة، أو انظمي نفسك في جملة المصلِّين، وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم»[3].

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة 1/ 241، ومن بلاغة القرآن ص 166، ومن بلاغة النظم العربي 2/ 71.
(2) آل عمران 43.
(3) الكشاف 1/ 429.

وهكذا فقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أوامر، وهي القنوت[1] والسجود والركوع، «وقد اختلف المتأوِّلون لم قدَّم السجود على الركوع؟ فقال قوم: كان ذلك في شرع زكرياء وغيره منهم، وقال قوم: الواو لا تعطي رتبة، وإنما المعنى افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع، وهذه الآية أكثر إشكالاً من قولنا قام زيد وعمرو؛ لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أنَّ السجود بعد الركوع فكيف جاءت الواو بعكس ذلك، فالقول عندي في ذلك، أنَّ مريم أمرت بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة وهما طول القيام والسجود، وخصَّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، وإن العبد يقرب في وقت سجوده من اللّه - تعالى - وهذان يختّصان بصلاتها مفردة، وإلاَّ فمن يصلّي وراء إمام، فليس يقال له أطل قيامك، ثم أمرت بْعدُ بالصلاة في الجماعة»[2].

والّذي نراه في تقديم السجود على الركوع، لقرب العبد من ربّه في سجوده مصداقاً لقول الرسول - ﷺ -: «أقربُ ما يكونُ العبْدُ من ربّه وهو ساجدٌ فأكثروا الدُّعاءَ»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾[4].

تضمَّنت هذه الآية الكريمة أمراً موجَّهاً لعيسى - عليه السلام - مسبوقاً بالنداء، وهذا الأمر مفاده التذكير بنعمه - تعالى - على عيسى وأمِّه مريم - عليهما السلام - المتمثِّلة فيما أيَّده به من المعجزات الباهرة التي بينَّتها الآية الكريمة، بعد هذا الأمر فقال تعالى: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا

(1) القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع (المفردات في غريب القرآن ص 413 مادَّة قنت).
(2) المحرر الوجيز 1/ 434.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه (4/ 200). النسائي في سننه 2/ 180.
(4) المائدة 110.

﴿ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

وقد جاء الأمر موجَّهاً من عيسى ـ عليه السلام ـ إلى بني إسرائيل، آمراً إيّاهم بعبادة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾[2].

إنَّ هذا الأمر يتضمَّن الأمر بعبادة اللّه الواحد القهَّار، والإخلاص له في ذلك ويحمل في ضمنه أنَّ المسيح عبد اللّه، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾[3]. وكما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾[4].

ومن ذلك ما جاء في قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾[5].

جاء الأمر في هذه الآية مسبوقاً بالنداء، وذلك استهزاء منهم وسخرية بموسى ـ عليه السلام ـ.

وتصرَّف الأمر مسبوقاً بالنداء في قصَّة آدم في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[6]. والمراد منه اتّخاذ الجنَّة مسكناً.

والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بهذا القدر.

وقد يحذف حرف النداء، كما في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾[7]. «بحذف حرف النداء والمعنى أيها البليغ في الصدق، إنما

---

(1) المائدة 110.

(2) نفسها 72.

(3) مريم 30.

(4) هود 76.

(5) الزخرف 49.

(6) البقرة 35.

(7) يوسف 46.

قال له ذلك لأنّه ذاق أحواله وتعرّف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل، ولذلك كلّمه كلام محترز»[1].

ومما حذف منه حرف النداء قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾[2].

قال الزمخشريُّ: «حذف منه حرف النداء؛ لأنّه منادى قريب فطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ الأمر واكتمه ولا تحدِّثْ به»[3].

والأمثلة على ذلك كثيرة أكتفى بما ذكرته، فهي تكفل بيان بلاغة الأمر المسبوق بالنداء، وكذلك الأمر الّذي حذف منه حرف النداء، ولكلٍّ منهما بلاغته ومحلُّه الّذي هو فيه أبلغ من غيره.

وقد يتصرَّف الأمر مجرَّداً من النداء كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾[4].

جاء الأمر في هذه الآية موَّجهاً من الأدنى إلى الأعلى، مبِّيناً تعنُّتَ بني إسرائيل في مجادلتهم لموسى ـ عليه السلام ـ في أمر البقرة التي أمروا بذبحها قال الشوكانيُّ: «هذا نوع من أنواع تعنُّتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم اللّه به، ولو تركوا التعنُّت والأسئلة المتكلِّفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد اللّه عليهم»[5] وقال ابن عطيَّة: «هذا تعنُّت منهم وقلَّة طواعية، ولو امتثلوا الأمر فاستعرضوا بقرة فذبحوها لقضوا ما أمروا به، ولكن شدَّدوا فشدَّد اللّه عليهم، قال ابن عبَّاس وأبو العالية، وغيرهما» ولذلك جاء الأمر بالتنفيذ وهو قوله تعالى: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾[6]. وفي ذلك «تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنُّت فما تركوه»[7].

---

(1) الكشاف 2/ 324.

(2) يوسف 29.

(3) الكشاف 2/ 315.

(4) البقرة 68.

(5) فتح القدير 1/ 97.

(6) البقرة 68.

(7) المحرر الوجيز 1/ 162 ـ 163.

بل استمرُّوا في تعنتُّهم وعادوا إلى مكرهم وذلك ما حكاه القرآن عنهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾[1]. والمراد من الأمر هنا بيان لون البقرة المأمورين بذبحها، ولذلك جاء بيان لونها فقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[2]. ومع ذلك استمرُّوا في عنادهم ومكرهم، فطلبوا على سبيل الأمر بيان صفاتها متذرِّعين بالتشابه، فقال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾[3]. ومن ثم فقد جاء بيان صفاتها بياناً وافياً، فقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[4].

والجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام أنَّ مجيء الأمر بصيغة (ادع) ثلاث مرَّات ليس تكراراً، كما يظن بعض من لم يمعن النظر وإنَّما هو التصريف البديع، المراد منه في كلِّ مرَّة بيان غير البيان الأوَّل، ففي المرَّة الأولى جاء الأمر متبوعاً بالاستفهام المراد منه بيان صفات تلك البقرة، وفي المرَّة الثانية جاء متبوعاً بالاستفهام المراد منه بيان لونها، وفي الثالثة جاء متبوعاً بالاستفهام المراد منه بيان صفاتها لتشابه البقر عليهم.

وممَّا جاء من الأمر على لسان بني إسرائيل موجَّهاً لموسى ـ عليه السلام ـ جهلاً منهم باللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وبصفاته العظيمة قوله تعالى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[5].

وجاء أيضاً في قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ والمراد منه التبليغ، فقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[6].

---

(1) البقرة: 69.
(2) نفسها: 69.
(3) نفسها: 70.
(4) نفسها: 71.
(5) المائدة 24.
(6) طه 42 ـ 43.

وقال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾[2].

والمراد من الأمر في هاتين الآيتين إظهار المعجزة لموسى ـ عليه السلام ـ وجاء على لسان فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ على سبيل التعجيز وإبطال الحجّة ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[3].

وقد يكون للاحتقار، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾[4]. وقد يكون للحثّ على الاجتهاد وملازمة العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾[5].

وقد جاء الأمر للتعجيز والتعنُّت على لسان قوم شعيب ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[6].

وجاء الأمر في قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ دالّاً على الحسد والغيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴾[7].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾[8].

وجاء دالّاً على الخديعة والمكيدة في قوله تعالى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[9]. وجاء دالّاً على نشر العدل ورفع الظلم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[10].

---

(1) النمل 12.
(2) القصص 32.
(3) الشعراء 31.
(4) نفسها 43.
(5) آل عمران 41.
(6) الشعراء 187.
(7) يوسف 9.
(8) نفسها 10.
(9) نفسها 12.
(10) نفسها 55.

قال الشوكانيُّ: «طلب يوسف ـ عليه السلام ـ منه ذلك ليتوصَّل إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوسَّل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان باللّه وترك عبادة الأوثان»[1].

وقد يكون الأمر للنصح والإرشاد، كما جاء على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾[2].

وقد يكون لطلب الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾[3].

وقد يصوِّر المخاطَبين بصورة بشعة، إهانة لهم واحتقاراً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[4].

وقال الزمخشريُّ: «أي كونوا جامعين بين القردِّية والخسوء وهو الصغار والطرد»[5].

2 ـ صور النهي في القصص القرآنيّ:

والأصل في النهي أن يكون لطلب الكفِّ على سبيل التحريم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾[6].

قال السيوطيُّ: «لا تفعل وهي حقيقة في التحريم»[7] كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[8].

يرى المهتمُّون بالبلاغة: أنَّ النهي يخرج عن معناه الحقيقيِّ إلى معان مجازيَّة، ويؤدِّي أغراضاً بلاغيَّة[9].

---

(1) فتح التقدير 3/ 35.
(2) يوسف 67.
(3) نفسها: 87.
(4) البقرة 65.
(5) الكشاف 1/ 286.
(6) الأعراف 85، وانظر من بلاغة القرآن ص 166.
(7) الإتقان 3/ 243.
(8) البقرة 35.
(9) انظر المرجع السابق، ومن بلاغة القرآن ص166.

والّذي نراه أنَّ النهي يتصرَّف من معناه الأصلي إلى معان أخر تفهم من السياق، وأعني بهذا التصريف، التنويع، الّذي تكون له صور كثيرة، منها الدعاء، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1].

ومن النهي ما يكون للكراهية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[2].

وقد يكون بمعنى الالتماس والاعتذار، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾[3].

وسرُّ ذلك إظهار حرص الأخ على أخيه، واستعطاف قلبه، قال الألوسيُّ: «خصَّ الأمَّ بالإضافة استعطافاً وترقيقاً لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمِّه، فالجمهور على أنهما كانا شقيقين»[4].

وقد يكون للنصح والإرشاد كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾[5].

وقد يكون على سبيل التوجيه والإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾[6].

وقد يكون النهي عن الخوف من أجل إحقاق الحقِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[7].

وقد يكون للموعظة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[8].

---

(1) نوح: 26.
(2) لقمان: 18.
(3) طه 94.
(4) روح المعاني 16/ 251.
(5) مريم 44.
(6) طه 61.
(7) نفسها 68.
(8) لقمان 12.

يتبيَّن لنا مما سبق أنَّ الأمر والنهي قد يكون كلٌّ منهما دالّاً على معناه الأصليِّ، وقد يخرجان إلى معان أخر تفهم من السياق، وهي أبلغ في محلِّها، وأدلُّ على معانيها.

سادساً: التناسب القصصي:

يلاحظ أنَّ بعض القصص القرآني يرد مرَّة واحدة في سورة واحدة، ويتصرَّف بعضه الآخر في حلقات متعدِّدة، إذ يعرض منها في كل مرَّة ما يناسب السورة وموضوعها، والمقاصد التي تُبيِّنُها، فما السرُّ في ذلك؟

علَّل بعض العلماء حكمة ورود سورة يوسف مرَّة واحدة في موضع واحد لما فيها من تشبيب[1] النسوة به، وتضمُّن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتنّ بأبدع الناس جمالاً، وأرفعهم مثالاً، فناسب عدم تكرارها ـ على حدِّ قولهم ـ لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك، مستدلِّين بالحديث المرفوع الّذي صححه الحاكم في مستدركه، والّذي ينهي عن تعليم النساء سورة يوسف ـ عليه السلام ـ ولأنَّها اختصَّت بحصول الفرج بعد الشدَّة، بخلاف غيرها من القصص، فإنَّ مآلها إلى الوبال ـ كقصَّة إبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم، فلمّا اختصت هذه القصَّة في سائر القصص بذلك اتفَّقت الدّواعي على نقلها لخروجها عن سمت القصص[2].

ونقل الزركشيُّ والسيوطيُّ، رأياً آخر عن أبي إسحاق الإسفرايينيِّ، وذلك قوله: إنَّما كرَّر اللّه قصص الأنبياء وساق قصَّة يوسف مساقاً واحداً، إشارة إلى عجز العرب، كأنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة، فافعلوا على قصَّة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء[3].

---

(1) شبَّب الشاعرُ بفُلانَة تشبيباً، قال فيها الْغَزَلَ وعَرَّضَ بحُبِّها، وشَبَّبَ قصيدتَه حسَّنها وزيَّنها بذكر النساء (المصباح المنير ص 158 مادة: شبب).

(2) البرهان 3/ 29، والإتقان 3/ 205.

(3) البرهان 3/ 29 ـ 30 والإتقان 3/ 206.

وظهر للسيوطي جواب رابع: وهو أنَّ سورة يوسف نزلتْ بسبب طلب الصحابة أن يقصّ عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه، فنزلت مبسوطة تامّة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصَّة وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها[1].

وله أيضاً جواب خامس، وهو أقوى ما يجاب به ـ على حدِّ قوله ـ وذلك أنَّ قصص الأنبياء إنَّما كُرِّرت، لأنَّ المقصود بها إفادة إهلاك مَنْ كذَّبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك، لتكرير تكذيب الكفَّار لرسول اللّه ـ ﷺ ـ فكلَّما كذَّبوا أُنزلت قصَّة منذرة بحلول العذاب، كما حلَّ على المكذِّبين، ولهذا قال تعالى في آيات: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2]. ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾[3].

وقصَّة يوسف لم يُقصد منها ذلك[4].

يرى صاحب «القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته»: أنَّ القصص الّذي ذُكر أكثر من مرَّة في كتاب اللّه هو الّذي كان ذا صلة وثيقة بقضيَّة الدعوى والدعاة إلى اللّه ـ تعالى ـ.

أمَّا الّذي ذُكر مرَّة واحدة فمع سموِّ الحقائق التي يقرِّرها، وما فيه من مناهج تربويَّة وغايات رائدة، إلاّ أنّه لم يكن يتحدث عن مجال الدعوة، وعما كان بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأممهم وما لاقاه هؤلاء من أولئك، إنما كان حديثه مجالات اجتماعيَّة وجوانب إنسانيَّة، وقيم خلقيَّة.

ولعلَّ القصَّة الوحيدة التي خرجت عن هذه القاعدة فذُكرت أكثر من مرَّة وليس لها صلة مباشرة بالدعوة والدعاة قصَّة آدم[5].

نرى أنَّ هذه الآراء لا تعارض بينها، وإنَّما يكمل بعضها بعضاً، وإن كنت أرى أنَّ ذلك سرٌّ من أسرار كتاب اللّه ـ تعالى ـ وإظهار لإعجازه، وتنويع لأسلوب الدعوة.

---

(1) المرجع السابق للسيوطي ص 206.
(2) الأنفال 38.
(3) الأنعام 6.
(4) الإتقان 3/ 206.
(5) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص 23.

ولقد صرَّف القرآن قصصه مفرَّقاً على عدَّة سور، حيث خصَّت كل سورة بجانب يتلاءم مع موضوعها وشخصيَّتها.

ذلك مما يدلُّ على أنَّ القصص الّذي تصرَّف أكثر من مرَّة هو القصص المتعلِّق بالدعوة؛ لأنها تتطلَّب التنويع، وبيان الحجج الدامغة والبراهين القاطعة، على صحَّتها؛ لإقناع المكذِّبين ولإحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل.

وهو ما نجده في القصص الّذي نوَّع القرآن بيانه، والذي هو مرتَّب ترتيباً بديعاً، مكّوناً منهجاً فريداً في تحقيق مقاصده، منوِّعاً حججه وبراهينه، من أجل إقامة الدين الحقِّ، وإثبات الرسالات، وإصلاح الدين والدنيا، ونشر الخير والابتعاد عن الفساد.

قرَّر صاحب «القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته» أنَّ القصص الّذي ذُكر أكثر من مرَّة في كتاب اللّه لا توجد منه قصَّة واحدة ذُكرت في سورتين بطريقة واحدة، بل نجد كلَّ قصَّة جاء فيها ما لم يجيء في الأخرى، ففي كلِّ قصَّة من المشاهد والجزئيَّات والأحداث ما تفرَّدت به السورة التي ذُكرت فيها هذه القصَّة(1).

فهذا خير دليل على تصريف القصص القرآني ونفي التكرار عنه.

وذهب صاحب «التحرير والتنوير» إلى أنَّ القرآن يأخذ من كلِّ قصَّة أشرف مواضيعها ويعرض عمَّا عداه؛ ليكون تعرُّضه للقصص منزَّهاً عن قصد التفكُّه بها، من أجل ذلك كلِّه لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرَّقة موزَّعة على مقامات تناسبها؛ لأنَّ معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه.

وللقرآن أسلوب خاصٌّ هو الأسلوب المعبَّر عنه بالتذكير وبالذكر، فكان أسلوبه قاضياً للوطرين وكان أجلَّ من أسلوب القصَّاصين في سَوْق القصص لمجرَّد معرفتها؛ لأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين: صفة البرهان، وصفة البيان(2).

---

(1) القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ص 25.

(2) التحرير والتنوير 1/ 64.

ولكي نبيِّن هذا التصريف العجيب، والطريقة البديعة التي يصرِّف بها القرآن الكريم قصصه في مواضع متعدِّدة، وبطرائق مختلفة، متناسبة مع سياقها وموضوعها، لابدَّ لنا من ذكر بعض الأمثلة، وذلك من خلال ثلاثة موضوعات.

الأول: تناسب الألفاظ والمعاني في القصص القرآنيّ.

الثاني: ترتيب المعاني في القصص القرآنيّ.

الثالث: تناسب التعقيبات في القصص القرآنيّ.

1 ـ تناسب الألفاظ والمعاني في القصص القرآني:

تتصرَّف الألفاظ والمعاني في القصص القرآني، وفق نظام بديع، لتناسب سياقها وموضوعها؛ ولتحقَّقَ مقاصدها في أعلى درجات البلاغة، وهي جديرة بنفي التكرار عن الآيات المتشابهة، التي يظنُّ أنَّها مكرَّرة، مكوِّنة بذلك وحدة موضوعيَّة في الآية أو السورة التي هي منها، مبنيَّة بناءً محكماً.

ذلك أنَّ كلَّ قصَّة أو حلقة من قصَّة، أو إشارة موجزة، تختصُّ بموضعها الواردة فيه، وأعني بذلك التلاؤم والتناسب بين القصَّة والسورة التي هي منها، إذ تتصرَّف كلُّ حلقة في موضعها المناسب من السورة الواردة فيها، وهذا التلاؤم والتناسب ليس واقعاً بين القصَّة والسورة التي هي فيها وحدَها، وإنما تجده في كلِّ كلمة، بل وفي كلِّ حرف من الآية.

والقرآن الكريم حينما يصرِّف هذه الوجوه بأسلوبه المعجز، فهو يضرب لذلك مثالاً عالياً في الدقَّة والبيان، وذلك ما بيَّنه الباقلانيُّ حين أورد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[1].

ثم أمر بالنظر إلى ما جرى له من الكلام في علُّو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأوَّل وكيف اتصَّل بتلك المقدمَّة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الرُّبُوبيَّة، وما دلّ به عليها من قلب العصا حيَة.

(1) النمل: 8.

وكذلك الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثمَّ ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سُوء.

فكلُّ كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتُها وضامّتُها ذواتُها تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها.

وهكذا من قصَّة إلى قصَّة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يُصوّر لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف وبليغ التنزيل[1].

يتبيَّن مما سبق أنَّ الباقلانيَّ أراد أن يبيِّن التناسب بين الألفاظ والمعاني في القصص القرآني، وهو مكوِّن وحدةً عضويَّة، بين الآيات.

وقد أورد هذه الآية أيضاً ابن الزبير، ونظائرها، في سورة طه وهو قوله تعالى: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾[2].

وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وأرجع سبب اختصاص كلِّ سورة بما ورد فيها من هذه القصص إلى أمور منها: أوَّلاً - إنَّ فواصل هذه السور، ومقاطع آيها مناسبة للوارد فيها، أمَّا سورة طه فمقاطع آيها لازمة الألف المقصورة، وعلى ذلك آي السورة كلِّها.

---

(1) إعجاز القرآن ص 202 - 203.

(2) طه 10 - 11.

(3) القصص 29 - 30.

وأمَّا النمل والقصص فقد اكتنف الواقع من آي هذه القصَّة فيها ما مقطعه من الآي النُّونُ الواقع قبلها الياء، أو الواو الساكنان بحسب ما تقدَّمهما من حركتي الضمَّة والكسرة.

وأمَّا الأمر الثاني: فهو الإيجاز والطول، أما سورة النمل فأوجز في هذا المقصد، وأما سورة القصص فإنَّ خبر موسى ـ عليه السلام ـ فيها يكاد يستغرق آيها كلَّها فناسبه طول الوارد فيها ممَّا فيه الكلام.

والأمر الثالث، هو بناء سورة طه على تأنيس نبينا ـ عليه السلام ـ ومن هنا يلح لك التلاؤم والتناسب، وقد وضح أنَّ كلَّ ما في كلِّ سورة من السُّور الثلاث من هذه القصَّة لا يُلائم غيرُها، وأنّ كل قصَّة منها لا يحسُنُ وقوعها في موضع الأخرى؛ لعدم المناسبة وبُعْد التّلاؤم[1].

إنَّ تناسب الألفاظ والمعاني يدلُّ على التصريف البديع، وينفي صفة التكرار عن القصص القرآني، ومن ثمَّ عن القرآن كلِّه، ويتَّضح هذا الأمر جلّياً في الآيات المتشابهة في بعض ألفاظها ومعانيها، كما في قصَّة آدم ـ عليه السلام ـ التي صرَّف القرآن بيانها، إذ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2].

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3].

وهكذا فقد تنوَّع أسلوب الآيتين، وذلك لاختلاف مورد الآيتين، إذ الوارد في سورة البقرة قصد به مجرَّد الإخبار والإعلام لرسول الله ـ ﷺ ـ بما جرى في قصَّة آدم ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ وابتداء خلقه، وأمر الملائكة بالسجود له وما جرى من إباء إبليس عن السجود، ثم ما أُمر به آدم من سكنى الجنَّة، والأكل منها، ولم يُقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية، فناسبه بعض المفردات التي لم تذكر في الآية الأخرى المشابهة لها.

---

(1) ملاك التأويل 2/ 674 ـ 675.

(2) آية 35.

(3) آية 19.

وأمَّا آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم اللّه ـ جلّ وعلا ـ على آدم وذرِّيَّته، من الامتنان عليهم بالتمكين في الأرض، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وما أتبع به هذا من ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسجود لآدم، فهذا أيضاً ناسب ذكر مفردات في الآية لم يذكرها في الآية الأخرى[2].

ويتَّضح هذا أيضاً لمن تأمَّل الفرق بين الآيتين، إذ يجد أنَّ الآية الأولى بدأت بلفظ ﴿ وَقُلْنَا ﴾ على حين أنَّ الآية الثانية خلت منها، فارتبطت بما قبلها بواو النسق، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ﴾.

وأمَّا الفرق الثاني، فنجده في ورود الأمر بالأكل في سورة البقرة بواو النسق المقتضية عدم الترتيب، فجاء اللفظ ﴿ وَكُلَا ﴾ وفي سورة الأعراف بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب فجاء اللفظ ﴿ فَكُلَا ﴾ ولكلٍّ من هذين الرابطين دلالته الخاصة به، التي يتميَّز بها عن غيره.

وأمَّا الفرق الثالث فنجده في ورود ﴿ مِنْهَا رَغَدًا ﴾ في آية البقرة، وورود ﴿ مِنْ ﴾ في آية الأعراف.

يتَّضح لنا مما سبق أنه لا تكرار بين هاتين الآيتين، وأنَّ كلَّ آية جاءت مناسبة لموضعها، ومبيِّنة لمقاصدها.

ومن ثمَّ فإنَّ تنوُّع طرائق عرض القصَّة الواحدة ينبئ عن براعة فائقة في تصريف القصص القرآني، وإنَّ في هذا التنويع مناسبة وتلاؤماً بين حلقات القصص والسورة الواردة فيها، كما في قوله تعالى: في سورة البقرة: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾[3]. وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ

(1) الأعراف: 10.
(2) ملاك التأويل 1/ 42.
(3) آية 38.

﴿ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[1]. وقوله تعالى في سورة طـه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[2].

نلاحظ أنَّ هناك فروقاً بين هـذه الآيات، تبيِّن تصريفها، وتنفي صفة التكرار عنها، فلو لم توجد فيها، لكان هناك تكراراً لا يحرز فائدة - كما ذكر ذلك ابن الزبير[3].

ويبرز أسلوب القصص واضحاً عن طريق عرض الحلقتين المتشابهتين من قصص بني إسرائيل في تعداد نعمه عليهم في سورة البقرة، إذ يقول: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[4].

وقال في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[5].

إنَّ في هاتين الآيتين فروقاً دقيقة تبيِّن الدقَّة الفائقة في بناء هـذه الحلقات المتناسقة في مواضعها، فمن هذه الفروق، التعبير في البقرة بـ﴿ نَجَّيْنَـٰكُم ﴾ مضعَّفاً، وفي الأعراف ﴿ أَنجَيْنَـٰكُم ﴾ غير مضاعف، وفي البقرة: ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ وفي الأعراف: ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ وقد ورد في سورة إبراهيم: ﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[6].

وعلَّل ابن الزبير، أنَّ الوارد في سورة البقرة مقصود به تعداد وجوه الإنعام على بني إسرائيل وتوالي الامتنان ليبين شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر[7].

---

(1) آية 24.

(2) آية 123.

(3) ملاك التأويل 1/ 45.

(4) آية 49.

(5) آية 141.

(6) آية 6.

(7) ملاك التأويل 1/ 53.

وقال ابن جماعة[1]: «إنَّه جعل ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ هنا بدلاً من يسومونكم، وخص الذبح بالذكر لعظم وقعه عند الأبوين؛ ولأنه أشدُّ على النفوس، وفي سورة إبراهيم، تقدَّم قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[2]. فناسب العطف على سوم العذاب للدلالة على أنَّه نوع آخر، كأنَّه قال: يعذِّبونكم ويذبِّحون، ففيه يعدِّد أنواع النعم التي أشير إليه بقوله: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ هو في تنويع الألفاظ، ويحتمل أنّه لـمَّا تَعدَّدَ هنا ذكر النعم أبدل ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ من ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ وفي إبراهيم عطفه ليحصل نوع من تَعدُّدِ النعم ليناسب قوله: ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾[3].

وقد يكون في تصريف القصص القرآني تنويع للألفاظ والمعاني، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[4]. وقال في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾[5].

إذ نجد أنَّ في الآيتين اختلافاً في الألفاظ التي تبعدهما عن التكرار، وتثبت في حقِّهما التصريف البديع، وهذا الاختلاف نجده في سورة البقرة حين قال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ ﴾ وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ ﴾.

---

(1) كشف المعاني ص 95 ـ 96.

(2) إبراهيم 5.

(3) نفسها 6.

(4) البقرة 58 ـ 59.

(5) الأعراف 161 ـ 162.

فالفرق واضح بين التعبيرين في الآيتين، وذلك ما بيّنه ابن الزبير بقوله: «إنَّ أمرهم بدخول القرية مغاير من حيث المعنى لأمرهم بسكناها، وإن كان الأمر بدخولهم قد يشير بما نسق معه إلى سكناها، لكن ليس نصّاً، بل ولا ظاهراً فبيّنتْ آية الأعراف ذلك، وأوضحت المقصود، وحصل الأمر بالدخول والسكنى، وتبيَّن وجه ورود العبارتين على الترتيب»[1].

وأمَّا الفرق الثاني فنجده في تعقيب آية سورة البقرة بالفاء في قوله: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ وفي الأعراف ﴿ وَكُلُواْ ﴾.

وقد بيَّن هذا الفرق أيضاً ابن الزبير إذ قال: «إن الأكل لا يكون إلاّ بعد الدخول ولا يكون قبله بوجه، ولا معه، لتعذّرُ ذلك، وإنَّما يكون مرتَّباً عليه، فجيء بالحرف المحرز لذلك المعنى، وأنَّه على التعقيب من غير مهلة.

وأمَّا الوارد في سورة الأعراف، فإن السكنى مُنجرٌّ معه الأكل ومساوق له، ولا يمكن أن يكون مرتَّباً عليه، فجاء بالحرف الصالح لذلك المعنى»[2].

وأمَّا الفرق الثالث فنجده في انفراد سورة البقرة بكلمة ﴿ رَغَدًا ﴾ دون سورة الأعراف؛ لأنَّ تحته معنى مقصوداً لا يحصل من شيء مما ورد في الآية، وانطوت عليه من الكلام بخلاف آية الأعراف، فإنَّ مفهوم السكنى وهو الملازمة والإقامة مع الأمر بالأكل حيث شاؤوا مع انضمام معنى الامتنان والإنعام المقصود في الآية، كلٌّ ذلك مُشعرٌ ومعرِّفٌ بتمادي الأكل، وقوة السياق مانعة من التحجير[3] والاقتصار، فحصل معنى الرغد، فوقع الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعاً من سياق آية الأعراف[4].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 59.

(2) نفسها 60.

(3) التحجير: المنع، قال في اللسان: «وأصل الحْجر في اللغة ما حجرت عليه، أي منعته من أن يوصل إليه، وكلٌّ ما منعت منه فقد حجرت عليه (4/ 167 حجر) وانظر الصحاح للجوهري 2/ 624. وتاج العروس 10/ 547 حجر.

(4) ملاك التأويل 1/ 60.

وأمَّا الفرق الرابع فنجده في تقديم بعض المفردات في سورة البقرة، وهو قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ وتأخيرها في سورة الأعراف، إذ قال: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ ذلك مما يقتضيه المقام ويتطلّبه السياق الدالُّ على التصريف البديع، والتنويع العجيب، الّذي يحقِّق المقاصد السامية في أعلى درجات البيان.

ووجه تصريف ذلك، أنَّ قولهم ﴿حِطَّةٞ﴾ دعاء أمروا به في سجودهم - على ما ذكر ابن الزبير -[1].

يتبيَّن مما سبق أن القرآن الكريم يصرِّف القصَّة الواحدة في أكثر من موضع مناسبة لسورتها مع اختلاف في جوانب التناول بين هذه المواضع، ذلك أنَّه يقدِّم في كلِّ حلقة أو مشهد من المشاهد القصصيَّة جديداً، مع تنوُّع في الأساليب والمعاني، مما يضفي على كل حلقة موضوعها وخصائصها التي تتميَّز بها عن غيرها من الحلقات، وذلك يكفل نفي التكرار عن تلك القصص المتشابه في بعض ألفاظه ومعانيه.

ويختلف كذلك طول القصَّة وقصرها تبعاً لاختلاف الهدف، ذلك أنَّ المقادير المأخوذة من كلِّ موضوع تختلف في كلِّ سورة عن الأخرى باختلاف الهدف من إيرادها ونقطة التركيز فيها[2].

2 - ترتيب المعاني في القصص القرآني:

ترتَّب المعاني في القصص القرآني، وفق نظام بديع، وتسلسل منطقي، وذلك متحقِّق في القرآن الكريم كلِّه، وأعني بذلك الدقَّة التامَّة في انتقاء الألفاظ، ووضعها في موضعها المناسب، الّذي يؤدِّي دلالاته في أعلى درجات البلاغة.

فمن ذلك ترتيب المعاني في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[3].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 60.

(2) دراسات قرآنية ص 151.

(3) الأعراف 63.

فكلُّ معنى من المعاني التي اشتملت عليها الآية الكريمة مرتَّب في موضعه من الآية، فقوله: ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ علَّة للمجيء، أي ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصي، وقوله: ﴿ وَلِتَتَّقُواْ ﴾ عطف على العلَّة الأولى مرتَّبة عليها، وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ عطف على العلَّة الثانية مرتَّبة عليها، أي ولتتعلَّق بكم الرحمة بسبب تقواكم.

وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأنَّ المقصود من الإرسال الإنذار، ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة[1].

وما قد يلاحظ من فرق في التعبير في قصص الأنبياء الذي تشابه في بعض ألفاظه ومعانيه، يبين تصريف هذه المعاني، وينفي صفة التكرار عنها كما في قصَّة نوح - عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[2]. وفي قصَّة هود - عليه السلام - إذ قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[3]. فما السرُّ في التعقيب بالفاء في قصَّة نوح، وترك ذلك في قصَّة هود، مع أنَّ الدعوة التي يدعون إليها واحدة؟

السرُّ في ذلك على ما قيل[4]: إنَّ نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيها؛ لأنَّ الفاء تدلُّ على التعقيب، وأمّا هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر اللّه - تعالى - عنه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾[5].

وينوِّع الأسلوب القصصيُّ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، فيكون كلٌّ منها في محلّها المناسب، وذلك ما نلاحظه من فرق في التعبير بين نوح وهود - عليهما السلام -

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 236، وتفسير الخازن 2/ 203، والفتوحات الإلهية 2/ 155.

(2) الأعراف 59.

(3) نفسها 65.

(4) تفسير الخازن 2/ 203 والفتوحات الإلهية 2/ 156.

(5) نوح: 5.

إذ اختار الأول الجملة الفعليَّة، فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. واختار الثاني، الجملة الاسميَّة فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2].

فما السرُّ في ذلك؟ إنَّ كلَّ لفظ في القصص القرآني، وفي غيره يرتَّب في مكانه ليؤدِّي معانيه في دقَّة وإحكام، فنوح ـ عليه السلام ـ أتى بالجملة الفعليَّة حيث قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ بالفعل المضارع للدلالة على تجدُّد نصيحته لهم، كما بيَّنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[3]. وذلك لأنَّ صيغة الفعل تدلُّ على تجدُّده ساعة بعد ساعة، وكان نوح يكرِّر في دعائهم ليلاً ونهاراً في غير تراخ فناسب التعبير بالفعل.

وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان يدعوهم في وقت دون وقت، فلهذا عبَّر بالجملة الإسمية، دلالة على الثبات والاستمرار وإيذاناً بأن من هذا حاله لا تحوم حوله شائبة السفاهة والكذب[4].

ونجد أنَّ في القصص القرآني كلمات مصوِّرة لمعانيها تصويراً بليغاً، مرتَّبة ترتيباً دقيقاً، وذلك مما يكشف عن بلاغة تصريفها في تسلسل منطقي، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5].

قال ابن أبي الإصبع: «فإنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أراد اقتصاص هذه القصَّة بأوجز لفظ وأبلغه، فجاء بها كما ترى مرتَّبة الألفاظ والجُمل، على حسب ما وقع، في صورٍ لا تُفصل عن معانيها، ولا تقصِّر عنها»[6].

---

(1) الأعراف 62.
(2) نفسها 68.
(3) نوح 5.
(4) إرشاد العقل السليم 3/ 236 ـ 238، والفتوحات الإلهية 2/ 156.
(5) هود 44.
(6) بديع القرآن ص 80.

3 ـ تنوُّع التعقيبات في القصص القرآني :

يتنوَّع التعقيب على القصص القرآني ثلاثة أنواع، مناسباً لما أعقب به، دالّاً على معاني القصَّة أو الحلقة التي أعقب بها، مذكِّراً بمقاصد قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

فالنوع الأوَّل، وهو الذي يرد فيه تعقيب واحد بعد كلِّ قصَّة من قصص الأنبياء التي تسرد في سياق السورة الواحدة، وهذا النوع تصرَّف في كلٍّ من سورة الشعراء، والصافَّات، والقمر.

وأمَّا النوع الثاني من التعقيبات، فهو الذي يتنوَّع فيه التعقيب، ويتضمَّن في الغالب التذكير بمقاصد قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، ويتصرَّف في مواضع مختلفة من العرض القصصي[1].

وأمَّا النوع الثالث، فهو الذي يأتي مناسباً لما بُنيت عليه السورة وسياقها، وهذا التعقيب يكون في الغالب تعقيباً على قصَّة، أو حلقة من حلقات القصص القرآني الذي يختصُّ بنبيٍّ من الأنبياء أو قوم من الأقوام السابقة التي صرَّف القرآن قصصها.

إنَّ هذه الأنواع من التعقيبات على القصص القرآني تتصرَّف كلُّها مناسبة لموضوعها وسياقها في السورة أو في القصَّة، متسلسلة معها تسلسلاً منطقيّاً، وذلك ما ستبيِّنه هذه الدراسة.

فأمَّا النوع الأول فأهمُّه ما ورد في سورة الشعراء، إذ تصرَّف التعقيب على القصص الوارد في هذه السورة في ثمانية مواضع بصيغة واحدة، أولها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[2].

---

(1) انظر التناسب البياني ص 120.

(2) الشعراء 8 ـ 9. وثانيها الآيتان 67، 68 عقب قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ وثالثها الآيتان 103، 104 عقب قصَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ورابعها الآيتان 121، 122، عقب قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ وخامسها الآيتان 139، 140 عقب قصَّة هود ـ عليه السلام ـ وسادسها الآيتان 158، 159 عقب قصَّة صالح ـ عليه السلام ـ وسابعها الآيتان 174، 175 عقب قصَّة لوط ـ عليه السلام ـ وثامنها الآيتان 190، 191 عقب قصَّة شعيب ـ عليه السلام ـ.

وقد وردتا بعد ذكر النبيّ ـ ﷺ ـ فما وجه ذلك التصريف؟

وللإجابة عن ذلك نقول: إنَّ الزمخشريّ قد بيَّن سرّ ذلك التصريف فقال: «كلُّ قصَّة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كلُّ واحدة منها تدلى بحقٍّ في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما اختتمت به»[1].

ويرى الأستاذ أبو زيد أنَّ هذا التعقيب يتضمّن تذكيراً للمخاطبين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ وتسجيلاً على أكثرهم بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ووعيدا ووعداً في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لأن العزيز هو الغالب القاهر.

ومن ثمَّ يتبيَّن أنَّ ورود الوصفين الجليلين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في ختام كل تعقيب، مناسب لمضمون كلِّ قصَّة ولروح السورة وجوِّها الخاصِّ، ويشهد لذلك أن الوصفين وردا في خاتمة السورة في تضاعيف خطاب محمَّد ـ ﷺ ـ وتسليته، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]. وفي ذلك تنبيه إلى أنّ التوكّل على من هو بهذين الوصفين كافية شرَّ هؤلاء وغيرهم، فهو يقهر أعداءه بعزَّته، وينصره عليهم برحمته[3].

وقال أبو السعود: «فإنَّ كلَّ واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدِّد النزول قد أتاهم من جهته ـ تعالى ـ بموجب رحمته الواسعة، وما كان أكثرهم مؤمنين بعدما سمعوها على التفصيل قصَّة بعد قصَّة، لا بأن يتدبَّروا فيها ويعتبروا بما في كل واحدة منها من الدواعي إلى الإيمان والزواجر عن الكفر والطغيان، ولا بأن يتأمَّلوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمهم بأنَّه ـ ﷺ ـ لم يسمع شيئاً منها من أحد أصلاً»[4].

---

(1) الكشاف 3/ 127.

(2) الشعراء 216 ـ 217.

(3) التناسب البياني ص 121.

(4) إرشاد العقل السليم 6/ 263.

وقد ورد تعقيب واحد، عقب قصص نوح وإبراهيم، وموسى وهارون، وإلياس - عليهم السلام - في سورة الصافَّات، فقال عقب قصَّة نوح: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقال عقب قصَّة إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وقال عقب قصَّة موسى وهارون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

وقال عقب قصَّة إلياس: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

يلاحظ أن قصَّة إبراهيم - عليه السلام - قد سقط منها لفظ ﴿إِنَّا﴾ وثبت في القصص الأخر، فما وجه اختصاص قصَّة إبراهيم دون غيرها بذلك؟

والجواب أنَّه تقدم في قصَّة إبراهيم نفسها قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5]. فاكتفى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لبناء علَّة الجزاء وموجبه عليه، لذلك صرَّف الجملة بأسرها وهي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لينبني عليها ما ورد علَّةً موجبة لجزائهم، لتجري هذه القصَّة مجرى نظائرها، فوضح أنه لا فرق بينها وبين ما اكتنفها من القصص الواردة فيها بوجه، وفي ذلك أيضاً إشادة بجلالة إبراهيم، وإعلاماً بعظيم جلاله.

فلما طال الكلام بما ورد تتميماً وتكميلاً لحاله - عليه السلام - وبَعُد عن قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أعيد منه الجملة الواقعة خبراً لأن ينبني عليه ما بني على نظائره من قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(1) الصافات 79 - 80.
(2) آية 109 - 110.
(3) آية 120 - 121.
(4) آية 130 - 131.
(5) آية 104 - 105.
(6) الصافات 111.

فقصَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أوْفى هذه القصص تعريفاً بكمال الحال، ولم ينقص منها شيء من الإخبار بصفة الجزاء وسببه كما في غيرها، بل زاد فيها ما ورد من الجمل الواردة مورد جمل الإعتراض، وذلك لما زاد في قصته من عظيم ابتلائه وزيادته[1].

ويلاحظ أيضاً أنَّ هذا التعقيب الذي ختم به كلَّ قصَّة من قصص هؤلاء الأنبياء، لم يرد تعقيباً على قصَّة لوط ـ عليه السلام ـ فما وجه ذلك؟

قال الأستاذ أبو زيد: «ولما كانت الحلقات الأخيرة موضع العناية في هذا العرض القصصيّ، إظهاراً لاطِّراد سنَّة اللّه في نصرة أنبيائه، وتدمير أعدائهم فإن هذا التعقيب وما يتضمنه من تأكيد لهذه السنَّة الإلهية مناسب للسياق المعنويّ»[2].

وقد ورد كذلك تعقيب في سورة القمر بصيغة واحدة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3]. عقب قصص كلٍّ من نوح وعاد وثمود، ولوط فما وجه ذلك؟.

والجواب: إنَّ فائدة تصريف هذا التعقيب مع كلِّ قصَّة، أن يجدِّد المخاطبون: عند استماع كل نبأ من أنباء الأوّلين ادّكاراً وإتّعاظاً، وأن يستأنفوا تنبيها واستيقاظاً إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرَّات لئلاَّ يغلبهم السهو، وهكذا حكم التصريف عامة، وكذلك تصريف الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصوَّرة للأذهان، مذكورة غير منسيَّة في كلِّ أوان[4].

ويرى الكرمانيُّ أنَّ ذلك لما في كلٍّ واحدة منها من التخويف والتحذير، وما حلَّ بهم، فيتَّعظ به حافظ القرآن وتاليه ويعظ غيره[5].

---

(1) انظر ملاك التأويل 2/ 803 ـ 805.

(2) التناسب البياني ص 122.

(3) القمر 17، 22، 32، 40.

(4) الكشاف 4/ 40 ـ 41.

(5) البرهان ص 339.

وقال البيضاوي: «كررَّ ذلك في كلِّ قصَّة إشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب واستماع كلِّ قصَّة مستدع للادِّكار والاتِّعاظ، واستئنافاً للتنبيه، والإيقاظ لئلاَّ يغلبهم السهو والغفلة»[1].

وقال أبو السعود: «جملة قسميَّة وردت في أواخر القصص الأربع تقديراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[2].

وتنبيهاً على أنَّ كلَّ قصَّة منها مستقلَّة بإيجاب الإدِّكار كافية في الإزدجار، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار»[3].

وقال العلاَّمة عبد اللّه كنوُّن: «هو تعقيب على ما قبله من طلب الاتِّعاظ بقصَّة نوح المثمر للإيمان بالقرآن الذي هو المطلوب، فكأنه إرشادٌ لمغزى القصَّة ودلالة على المقصود من إيرادها، فما أحكم أسلوب القرآن!.

وهو ختمٌ للقصَّة بما يبعثُ على الاعتبار والتذكُّر ويحملُ على التصديق والإيمان»[4].

وقد ذكر صاحب «ظاهرة التكرار في القرآن الكريم» جملة من أسرار تصريف هذا التعقيب، فمنها أن الكفَّار من قوم محمَّد ـ ﷺ ـ أنكروا كون القرآن من عند اللّه واتهموا محمَّداً ـ ﷺ ـ بافترائه، فأكَّد اللّه لهمً عند كل قصَّة ذكرها أنه لم يكن لمحمَّد من سبيل إلى الإطِّلاع على ما وقع لأهل تلك الأصقاع إلاّ القرآن الذي يَّسره اللّه له وجمعه اللّه في قلبه تحقيقاً لوعده إيَّاه.

ومنها: الإشارة من اللّه ـ تعالى ـ إلى جعل القرآن مصدراً موثوقاً به معوَّلاً عليه من بين مصادر التاريخ بل هو منها في الذروة لا يطاوَلُ شأنه ولا يقادر قدره ولا يدَرك شأوه ولا ينتهى إلى مداه.

---

(1) تفسيره 4/ 217.

(2) القمر 4 ـ 5.

(3) إرشاد العقل السليم 8/ 170.

(4) تفسير سور المفصَّل من القرآن الكريم ص 76 ـ 77.

ومنها: أنَّ هذه الآية عندما تتصرَّف في ختام قصَّة وابتداء أخرى تكون ـ ولله المثل الأعلى ـ بمثابة ستار يسدل عن حقبة ليفتح على حقبة أخرى، أو بمثابة صفحة تطوى لتنشر صفحة أخرى، وفي ذلك تهيئة للأذهان وإعداد لها؛ لتأخذ أهبتها لتلقِّي المزيج من أخبار هذا الكتاب الصادق المنزل على النبيّ الصادق. ومنها؛ أنَّ الله ـ تعالى ـ: يؤكد للناس تيسيره للقرآن لهم وتفضله عليهم بحفظ هذا الكتاب وصيانته من عبث العابثين وتبديل المبدِّلين تحقيقاً لوعده ـ جلَّ وعلا ـ[1].

يتبيَّن مما سبق أنَّ التعقيب على القصص القرآني ذي الصيغة الواحدة، وقد ورد في كلٍّ من سورة الشعراء والصافَّات، والقمر، متناسباً مع جو السورة وموضوعها وسياقها، لا تكرار في هذه التعقيبات، بقدر ما فيها من تناسب مع قصصها.

النوع الثاني: وهو الذي تنوَّعت فيه صيغة التعقيب، واختلفت مواقعه في العرض القصصي، وهو الذي يأتي في الغالب تعقيباً على مجموعة من قصص الأنبياء، بمعنى أنَّه بعد أن يصرَّف بيان قصص مجموعة من الأنبياء يختم ذلك القصص بتعقيب مناسب لهذه القصص، كما جاء بعد ورود إشارة موجزة عن آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، حلقات من قصص امرأة عمران وزكرياء، ومريم، إذ قال تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾[2]. مخاطباً نبيَّه محمَّداً ـ ﷺ ـ ومثبتاً صدق رسالته، والذي لم يكن يعلم هذا القصص من قبل.

وقد جاء التعقيب بعد قصص كلٍّ من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم السلام ـ بقوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3].

---

(1) ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ص 86 ـ 87.

(2) آل عمران 44.

(3) الأعراف 101.

مبيِّناً سنَّة الله المطَّردة في أخذ المكذِّبين، تحذيراً لمن بعدهم، وقد بيَّن ابن الزبير، تناسب هذا التعقيب مع قصصه فقال: «إنّ آية الأعراف لما تقدَّمها قصصٌ قد جرى فيها ذكر مكذّبي الأمم أنبياءهم، وما ردّوا عليهم، وخاطبوهم به كقول كفَّار قوم صالح ـ عليه السلام ـ لمن آمن به منهم ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾[1]. وقولهم: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[2]. وقول الملأ من قوم شعيب لمن آمن منهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾[3]. إلى ما بعْدُ، وما قيل من سَيِّئ المحاورة من مكذِّبي الأمم، فحصل من هذا الآي من التعريف بحال هؤلاء من الأمم، وتعقيب هذه القصص بذكر غيرهم من الأمم ممّن سلك مسلك من تقدَّمهم من المذكورين ما ناسبه قوله تعالى عُقَيبَ جميعها: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[4]».

وقد جاء التعقيب بعد عرض حلقات من قصص كلٍّ من هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وموسى ـ عليهم السلام ـ وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[5].

وجاء التعقيب مبيِّناً بعض مقاصد القصص في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[6].

وقد جاء التعقيب بعد عرض حلقات قصيرة من قصص كلٍّ من قوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر في سورة الحجر، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[7]. مبيناً دلائل القدرة الإلهية.

---

(1) الأعراف 76.
(2) نفسها 77.
(3) نفسها 90.
(4) ملاك التأويل 1/ 433.
(5) هود 100 ـ 101.
(6) نفسها 120.
(7) آية 85.

وقد جاء التعقيب بعد ورود حلقات من قصص كلٍّ من زكرياء ومريم وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ـ عليهم السلام ـ في سورة مريم، وهو قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾[1].

وعرضت حلقات من قصص كلٍّ من موسى، وإبراهيم ولوط، ونوح وداود وسليمان وإسماعيل وإدريس، وذي الكفل، وذي النون وزكرياء، ومريم ـ عليهم السلام ـ في سورة الأنبياء، معقباً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2]. ونظير هذه الآية في سورة المؤمنون، التي جاءت تعقيباً على ما ورد من قصص في هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[3]. تعقيباً على ذلك، وكلٌّ واحدة من الآيتين الكريمتين جاءت مناسبة لموضعها، ومبيِّنة لمقاصدها، لا تكرار بينهما؛ لاختلاف ختم الآيتين، إذ الأولى ختمت بقوله: ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ والثانية بقوله: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ فالاتِّصاف بالتقوى ثان عن الاتِّصاف بالعبادة، فقيل في الأنبياء: ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وفي سورة المؤمنون: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ رعياً لما ذكر وعلى مقتضى الترتيب، وأيضاً إذا اعتبرنا ما قدم من قصص الرُّسُل في السورتين، فإنَّ الوارد في سورة الأنبياء مقصوراً على ذكر منحهم وتخليصهم وتأييدهم، من لدن قوله تعالى في إبراهيم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾[4].

فتضمَّنت هذه بضعة وعشرين نبيّاً أوَّلهم إبراهيم وآخرهم من أعقب ذكره بالآية المذكورة، وقد اقتصر من قصصهم في هذه الآية على ما يُطْلِعُ المؤمنين على

---

(1) آية 58.

(2) آية 92.

(3) آية 52.

(4) الأنبياء 51 ـ 53.

تكفُّله ـ سبحانه ـ بالمصطفيْن من عباده وما خصَّهم به، ولم يرد مع ذلك تكذيب قومهم لهم، ولا ما يرجع إلى هذا، وكلٌّ هذا تأنيس، وذكر نعم وآلاء وألطاف يناسبها قوله: ﴿ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ لكونه أمراً بالعبادة مجرَّداً عمَّا في قوله: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ من التخويف.

وأمَّا الوارد في سورة المؤمنون فتضمَّن الطرف الذي عدل عنه في سورة الأنبياء وهو ذكر جواب الأمم للرسل، وقبيح تكذيبهم إيَّاهم، وشنيع ردِّهم، وقبيح مقالهم كقولهم في نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[(1)].

ثم بالغوا في الاستهزاء بقولهم من إخبار اللّه ـ سبحانه ـ عنهم: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾[(2)]. فناسب هذا التخويف قوله عقب هذا ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ كما ناسب ما قدَّم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ ولم يكن ليناسب ورود واحدة منهما في موضع الأخرى، فجاء كلٌّ على ما يجب ولا يمكن خلافه[(3)].

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ هناك نوعاً من التعقيب على القصص القرآني تنوَّعت صيغته واختلفت مواضعهُ، يأتي في الغالب تعقيباً على حلقات من قصص الأنبياء، ويكون مناسباً لموضوعها، مبيِّناً العظة والعبرة من القصص التي جاء تعقيباً عليها.

وأما النوع الثالث: فهو الذي يتصرَّف تعقيباً على قصَّة أو حلقة من قصص نبيٍّ من الأنبياء، أو قوم من الأقوام السابقة، مبيِّناً مقاصد تلك القصَّة أو الحلقة بياناً تامَّاً، ومكمِّلاً لمعانيها، ومناسباً لسياقها وموضوعها، والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي بإيراد بعضها على سبيل المثال لا الحصر، فمن ذلك ما جاء تعقيباً على قصَّة بني إسرائيل في آيتين متشابهتين الأولى في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ

---

(1) المؤمنون 24.

(2) نفسها 25.

(3) ملاك التأويل 2/ 709.

ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[1]. والثانية في سورة الأعراف، وهو قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

ومن ثمَّ فإنَّ كلا التعقيبين مناسب لموضعه، ووجه ذلك أنَّه لما وصف إعتداءهم نيطت بهم أولاً صفة الظلم، ومن المعلوم أنَّ مواقعه تتَّسع، ثم لما ذكر من إعتدائهم وسوء مرتكبهم غير ما تقدَّم، وتضاعفُ موجب وَبيلِ جزائهم، وصفوا بالفسق المبنيِّ على حال أوبَق من الظلم.

وجعل الفسق ختام وصفهم الجاري جزاء على مرتكباتهم ولم يقع بعده ذكر علَّة مَنُوطة بجزاء ما وقع منهم[3].

وجاء تعقيب حلقات من قصَّة نوح - عليه السلام - في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[4]. وفي سورة هود بقوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[5]. وفي المؤمنون بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[6].

فجاءت هذه التعقيبات مناسبة لسياق السورة، إذ إنَّ التعقيب بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ مناسب لما تقدم من أهوال هذا اليوم، ما لم يتقدَّم في السورتين الأخريَيْن، لذلك ناسبه في مقالة نوح - عليه السلام - لقومه هذا التعقيب.

وأما التعقيب في آية هود فمناسب لقوله تعالى على لسان نبيِّنا - عليه الصلاة والسلام - لقومه ممّن خاطبه وشافهه: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[7]. وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾[8].

---

(1) البقرة 59.
(2) آية 162.
(3) ملاك التأويل 1/ 65 - 66.
(4) الأعراف 59.
(5) آية 26.
(6) آية 23.
(7) هود 3.
(8) نفسها 8.

وقولـه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[1]. فتعـداد ذكـر العذاب، ناسب ما ختمت به آية دعاء نـوح ـ عليه السلام ـ مـن قولـه تعـالى: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[2].

وأمَّا آية المؤمنون فلمَّا ذكر فيها نعماً متناسبة وآلاء متوالية، لم يذكر في هذه الآيـة ذكـر عـذاب إلاّ بالإيحـاء الوجيز وخصَّت بقوله عقب الأمر بالعبـادة: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فذكَّرهم بالتقوى المحرزة لنجاتهم وتخلُّصهم من العذاب، ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدَّم من التذكير بإحسانه ـ سبحانه ـ وإنعامه من أوَّل السورة إلى هنا[3].

وقد ختمت حلقات من قصَّة لوط ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف بقوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[4]. وفي سورة النمل بقولـه تعـالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[5]. وفي سورة العنكبوت بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[6].

مبيِّنة سنَّة اللّـه المطَّـردة فـي المكذّبـين، المخـالفين لشـرائعهم، محـذِّرة أمَّـة محمَّد ـ ﷺ ـ من أعمالهم، وقد ورد التعقيب في كلٍّ منها مناسباً لموضعه من الآية التي هو فيها.

فالتعقيب في سورة الأعراف جاء مناسباً لما ارتكبوه من الفحش والإجرام الذي لم يسبق إليه غيرهم، لذلك أعقب بقوله تعـالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وأمَّـا التعقيب في سورة النمل فجاء مناسباً لما سبقه من التعنيف والإنذار الذي لم يقع مثله في الأعراف، لذلك ناسب إنذارهم بهذا ما أعقب به.

(1) هود 17،
(2) نفسها 26.
(3) ملاك التأويل 1/ 387 ـ 390.
(4) آية 84.
(5) آية 85.
(6) آية 30.

قال ابن الزبير: «ولو أعقبت آية الأعراف بهذا، وآية النمل بما أعقبت به آية الأعراف، لم يكن متناسباً، فجاء كلٌّ على ما يجب ـ والله أعلم ـ»[1].

وأمَّا التعقيب في سورة العنكبوت فجاء دعاء لوط مناسباً لارتكابهم الفواحش وعدم امتثالهم الأوامر واجتناب النواهي، وطلبهم من لوط ـ عليه السلام ـ أن يأتيهم بعذاب الله، إن كان صادقاً، لذلك ناسب التعقيب بالدعاء لينصره الله عليهم.

وتعدَّدت التعقيبات في ثنايا العرض القصصي في سورة يونس، فختمت قصَّة نوح بقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[2].

وختمت قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ منها أيضاً بقوله تعالى ـ مخاطباً محمَّداً ـ ﷺ ـ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[3]. وجاء تعقيب قصَّة نوح في سورة هود، مخاطباً محمَّداً ـ ﷺ ـ بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾[4]. مثبتاً صدق رسالته ـ ﷺ ـ طالباً منه الصبر على أذى قومه وتبليغ رسالته، كما صبر نوح على ذلك.

وجاء تعقيبان متشابهان، الأوَّل على حلقة من قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

والثانية على حلقة من قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ في سورة القصص، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[6].

جاء هذا التعقيب المتشابه على قصَّتين مختلفتين، وفرَّق بينهما بكلمة (استوى) في قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ للدلالة على أنَّه لا تكرار بينهما؛ لأن ذلك ـ كما قلنا ـ في قصَّتين مختلفتين، ولورود كلمة (استوى) في قصَّة موسى، والمعنى أي استكمل

(1) ملاك التأويل 1/ 426.

(2) آية 73.

(3) آية 94.

(4) آية 49.

(5) آية 22.

(6) آية 14.

وانتهى إلى أحسن الحالات في السنِّ، وأمَّا يوسف ـ عليه السلام ـ في الوحي إليه في الجبِّ فحاله وإنْ بلغ ما سمّي أشداً غير حالة الاستواء فامتنع مجيء الاستواء في قصته وورد في قصَّة موسى[1].

وختمت قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[2]. مثبتاً صدق القرآن المنزل على محمَّد ـ ﷺ ـ وختمت حلقة من قصَّة صالح ـ عليه السلام ـ في سورة النمل بقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3]. مبيِّناً سنَّة اللّه المطَّردة في المكذِّبين لرسلهم، محذِّراً من يأتي بعدهم، من سوء مصيرهم.

وقد جاء هذا التعقيب مناسباً لسياق الحلقة التي هو فيها ومكملاً لمقصودها.

وعرضت حلقات مفصَّلة من قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ في سورة القصص، وختمت بقوله ـ تعالى ـ مخبراً عن أمر فرعون وجنوده وعاقبتهم فقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

ثم حوَّل الخطاب إلى محمَّد ـ ﷺ ـ فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[5].

وختمت حلقة من قصَّة هود ـ عليه السلام ـ في سورة المؤمنون، بقوله تعالى: ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[6]. كما ختمت أيضاً حلقة من ذكر القرون الماضية بقوله تعالى: ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[7].

---

(1) ملاك التأويل 2/ 539.

(2) آية 102.

(3) آية 51.

(4) آية 39 ـ 40.

(5) آية 44 ـ 46، وانظر التناسب البياني ص 124.

(6) آية 41.

(7) آية 44.

فجاء كلٌّ تعقيب مناسباً لموضعه من الحلقة التي أعقب بها، إذ إنَّ الآية الأولى في أمَّة معيَّنة قد بينَّ حالها، وقبيح مرتكبها، وتحصَّل العلم بكفرهم وظلمهم أنفسهم فقيل: ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ووقوع اسم الظلم على أتمِّ ما يقع عليه من عدم الإيمان وارتكاب العظائم، من الكفر والتعذيب، وقبيح الردِّ على ما تفصَّل في الآي قبلها، وأما قوله بعد ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فورد عقب إجمال وإخبار بطوائف وأمم اجتمعوا في التكذيب، وردِّ ما جاءتهم به رسلهم، فأعقب بوصْف إذا وجد كان ما سواه من قول وعمل مناسباً له ويحسبه، وهو عدم الإيمان، ولم يَكن وصفهم بالظلم ليعطي ذلك لوقوعه على الظلم بالكفر، وعلى الظلم بمعصية ليست كفراً، ذلك أنَّ بعض من يقع عليه اسم الظلم، ويُوسَمُ به قد يكون مُبقى عليه اسم الإيمان ما لم يقترن به ما يقتضي كفره، وأما من اتَّصف بعدم الإيمان فلا فلاح معه فاجتمع هؤلاء الطوائف في عدم الإيمان، ووُسمُوا به.

ولما كانَ عدم الإيمان حاصلاً لما تقدَّم بما ذكر من تكذيبهم، وأخذهم بالصيحة وجعلهم غثاء، أعقب وصفهم بما ينِّبئ بالزيادة على كفرهم إذ الكفر حاصل[1].

سابعاً: الإيجاز والإطناب في القصص القرآني:

يعد الإيجاز والإطناب من صور تصريف القول المعنويَّة في القرآن الكريم ذلك أنَّ القرآن الكريم يصرِّف القول بالإيجاز في موضعه، والإطناب في موضعه الأخصِّ به والأقوى دلالة على المعنى المراد، وهو كما قال الرَّماني: «فإن لكلٍّ واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون أولى به من الآخر؛ لأنَّ الحاجة إليه أشدُّ والاهتمام به أعظم»[2].

إنَّ أساليب القصص القرآني تختلف بين الإيجاز والإطناب والتفصيل والإجمال، تبعاً لسنَّة القرآن في تصريف قصصه، المنزل لأجل العبرة والموعظة،

(1) ملاك التأويل 2/ 734 ـ 735.

(2) النكت في إعجاز القرآن ص 79.

والتأثير، فكلُّ مقصد من تلك المقاصد يتطلَّب أسلوباً، يكون الأقوى في موضعه، والأدلَّ على مقاصده.

فالقرآن الكريم يختلف عن غيره من الأساليب، في هذين الأمرين، فإنَّ القرآن يمتاز بالبيان مع الإيجاز، فهو بعكس الكلام الذي قد يفسده الاختصار، ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً لتمكّنه ووقوعه ويتضمَّن الإيجازُ منه تصرَّفاً يتجاوز محلَّه وموضعه[1].

وقد بيَّن ابن الزبير، وجه ورود القصَّة الواحدة موجزة مرَّة ومطوَّلة أخرى بقوله: «ليحصل من ذلك الإطّلاع على البلاغة، وجلالة النظم، وعَلِيِّ الفصاحة في طرفي الإيجاز والإطناب، فإن الفصيح البليغ من البشر، رَامَ هذا، لم يَفِ في الطرفين بما يريده، ووضح التفاوت في مرتكبه، وَلاَنَ وظهر الضعف مهما طال، ولا ينفكُّ كلام الفصحاء والبلغاء عن التفاوت في هذا بوجه»[2].

وجعل محمَّد بن عاشور الإيجاز من مميَّزات أسلوب قصص القرآن؛ ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص[3].

والجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام، أنَّ صاحب كتاب «اليهود في القرآن» ذهب إلى أنَّ الناحية الفنيَّة من التكرار في القرآن تتمثَّل في أسلوبه وعباراته البليغة، فتارة يجيء أسلوبه في موطن عن طريق الإطناب وفي موطن آخر عن طريق الإيجاز، مع إختلاف الفواصل، من موطن لآخر، ومع التنوَّع بالعبارات البليغة، والألفاظ العذبة، لتتجلَّى بلاغته وفنونه الرفيعة في التعبير.

هذا التكرار البليغ برهان على كونه وحياً إلهيّاً يستشعره كلُّ مضطلع على أسرار فصاحة اللغة العربيَّة[4].

(1) إعجاز القرآن ص 204.
(2) ملاك التأويل 1/ 365 ـ 366.
(3) التحرير والتنوير 1/ 65.
(4) اليهود في القرآن ص 255.

أخالفه الرأي في أنَّ التكرار في القرآن يتمثَّل في مجيء الأسلوب عن طريق الإطناب تارة وعن طريق الإيجاز تارة أخرى؛ لأنَّ ذلك هو عين التصريف في صور العبارات والمعاني، التي سار عليها الأسلوب القرآني في كثير من المواضع التي أظهرت بلاغته وإعجازه، وهو ما أشار إليه بقوله: «مع اختلاف الفواصل من موطن لآخر، ومع التنوُّع بالعبارات البليغة والألفاظ العذبة».

فإنّ في اختلاف الفواصل دليلاً على عدم التكرار؛ لأنَّ الفاصلة القرآنيّة تتصرَّف موافقة لمعاني الآية التي هي منها ـ كما بيَّنا ذلك في محلَّه من هذا البحث[1] ـ وكذلك التنويع تصريف للقول، وهو أحد معاني التصريف.

إنَّ القصص القرآني يختلف من موضع لآخر من حيث الطول والقصر، والإجمال والتفصيل، وبالنظر إلى هذا التصريف، فإن قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ جاءت مفصَّلة في سورة الأعراف، كما أنَّ قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ فصلت في سورة هود، وقد تتصرَّف القصَّة مجملة كما في قصَّة نوح في سورة الأعراف، وقصَّة موسى في سورة هود.

وهكذا فقد أجملت كلٌّ من السورتين ما فصَّلته السورة الأخرى. كذلك فإن سورة يونس قد فصَّلت بعض التفصيل في قصَّة موسى ـ عليه السلام ـ وأجملت قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ.

ومن ثمَّ نستطيع القول: إنَّ كلَّ قصَّة مجملة أو مفصَّلة، طويلة أو قصيرة، تتصرَّف وفق موضوع السورة وروحها؛ لتحقَّق المقاصد التي سيقت من أجلها.

«إنَّ عدم التفصيل يدعو العقل إلى النظر والتفكير في ما عرض عليه من أمر بوجه عامٍّ، فيتحوَّل بذلك المتلقِّي من طرف سلبيٍّ متلقٍّ فقط، إلى طرف إيجابيٍّ يؤكِّد حضوره بكثافة، في جوِّ الخطاب المبثوث إليه»[2].

---

(1) ينظر فصل بناء الآيات.

(2) أسلوب السرد القصصي في القرآن ص 124.

فمن ذلك مثلاً، سورة إبراهيم مبنيَّةٌ على الإجمال والإيجاز فيما تضمَّنته من قصص الرسل وغير ذلك، ولم يقصد فيما بسط كما في غيرها يُبْنى على الاستيفاء، وكلا المرتكبين مقصود معتمد للعرب.

وعلى ذلك جرى خطابهم في الكتاب العزيز، وتأمُّل المقصدين، فقد ورد في سورة الأعراف وسورة هود: قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وموسى - عليهم السلام - فتأمَّلْ ما بين ورود هذه القصص الخمس في هاتين السورتين، وورود خمسها في سورة القمر، وكيف مُدَّتْ أطناب الكلام في السورتين الأوليين، ثم أوجزَت في سورة القمر أبلغ إيجاز وأوفاه بالمقصود[1].

وقد بيَّنَ سبب الإيجاز والإطناب في القصص القرآني ابن الزبير الغرناطي، إذ قال: «إنَّ قصص الرسل - عليهم السلام - مع أممهم لم تأت في القرآن العظيم على منهج واحد في الدعاء، والجواب والمحاورة والمراجعة ولا يمكن ذلك لاختلاف طباع الأمم، وأغراضهم واختلاف الحالات، ولكلٍّ مقام مقال، فمرَّة ترد القصَّة مقتصرة على الدعاء وإبداء الحجَّة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدْعُوِّين سوى الإخبار بتكذيبهم، ومرَّة يورد من مقالات الأمم لرسلهم اليسير، ومرَّة يَمُدُّ أطناب الكلام في المحاورات فيما بين الرسل والأمم»[2].

لذلك فإن الإيجاز والإطناب يكون مناسباً لما عليه آيُ السورة من الإطناب والإيجاز، فلكلّ مقام مقال، وكلُّ سورة أو حلقة يناسبها أسلوب خاص، لا يناسب غيرها، والقرآن في ذلك في أعلى درجات البلاغة والكمال، فالإيجاز أبلغ في محلِّه والإطناب كذلك.

ومن ثمَّ فإنَّ الحديث في هذه الفقرة سيكون مقسَّماً إلى قسمين:

الأوَّل: الإيجاز وتصريفه في القصص القرآني.

الثاني: الإطناب وتصريفه في القصص القرآني.

---

(1) ملاك التأويل 1/ 56.

(2) ملاك التأويل 2/ 746.

1 ـ الإيجاز وتصريفه في القصص القرآني :

ومما صرَّف القرآن فيه ذكر القصص بصورة موجزة، سورة الحاقَّة التي صرَّف فيها مجموعة من قصص الأمم السابقة عرضاً سريعاً موجزاً، مستهِّلاً بذكر قصَّة عاد، ثمَّ قصَّة ثمود، فقصَّة لوط، فقصَّة فرعون، فقصَّة نوح، وأشير في كل منها إلى صورة الهلاك التي أصابت القوم، جزاء عصيانهم رسل اللّه، فهذه خمس قصص عرضت في ثماني آيات.

«وقد يلمِّح القرآن ويشير إلى القصَّة اعتماداً على أنَّ القصَّة معروفة ومشهورة»[1].

ونظراً لكثرة تصريف الإيجاز في القصص القرآني بطرائق مختلفة وأنواع شتَّى، فإنني أكتفي بذكر بعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر؛ لنتبَّين منها ذلك التصريف البليغ وصوره، فمن ذلك الإيجاز بحذف حرف، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾[2].

إذ المعنى ـ على ما ذكروا ـ تا للّه لا تفتأ، فحذفت (لا) في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها، فمن ذلك قول امرئ القيس[3].

فقلت يمين اللّه أبرح قاعداً ولو قَطّعُوا رَأْسي لديك وأوْصالي[4].

وقد يتصرَّف بحذف المضاف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[5]. قال ابن عطيَّة: «ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها ـ وهي مصر ـ قاله ابن عبَّاس وغيره، وهذا مجاز، والمراد

(1) من بلاغة القرآن ص 368.

(2) يوسف 85.

(3) ديوانه، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ص 32.

(4) المحرر الوجيز 3/ 272.

(5) يوسف 82.

أهلها، وكذلك قوله: (العير) هذا قول الجمهور، وهو الصحيح»، وقال أيضاً: «وحذف المضاف هو عين المجاز وعظمه»[1].

وقد يتصرَّف بحذف المضاف إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾[2]. والمعنى: أي بعشر ليال، فحذف المضاف إليه، ومع ذلك فهو في غاية البيان.

وقد يتصرَّف بحذف الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾[3].

إذ حذفت الصفة التي تقديرها، أي سفينة صالحة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾.

وقد يتصرَّف بحذف المفعول به، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾[4].

قال عبد القاهر الجرجانيُّ: «ففيها حذفُ مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى، وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهمُ أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، و﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي﴾ غنمنا ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غنمهما.

ثمَّ إنَّه لايخفى على ذي بصر أنَّه ليس في ذلك كلِّه إلاَّ أن يُتْرك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذلك إلاّ أنَّ الغرض في أن يُعلم أنَّه كان من الناس في تلك الحال

---

(1) المحرر الوجيز 3/ 271.

(2) الأعراف 142.

(3) الكهف 79.

(4) القصص 22 ـ 23.

سَقْيٌ، ومن المرأتين ذودٌ، وأنّهما قالتا: لا يكون منّا سَقْيٌ حتى يصدر الرعاء... أن لحذف المفعول في هذا النحو من الرّوعة والحُسْن ما وجدتَ، إلاّ لأن في حذفه وتَرْكِ ذكره فائدةً جليلةً، وإنَّ الغرض لا يصحُّ إلاّ على تركه»[1].

وقد يتصرَّف بحذف الجملة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

وقد يتصرَّف بحذف جمل كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]. أي: فضربوه ببعضها، فحيي، فقلنا: كذلك يحي اللّه الموتى[4].

قال السكاكي: «أليس يفيد فضربوه، فحييَ، فقلنا: كذلك يحيي اللّه الموتى، وقدَّر صاحب الكشاف» قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]. نظراً إلى الواو في وقالا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ فعملا به، وعلَّماه، وعرفا حقَّ النعمة فيه، والفضيلة، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ويحتمل عندي أنه أخبر - تعالى - عمَّا صنع لهما، وأخبر عمَّا قالا كأنَّه قال: نحن فعلنا إيتاء العلم، وهما فعلا الحمد، تفويضاً استفادت ترتب الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع... وإنّه من فنِّ المبالغة لطيف المسلك»[6].

يتبيَّن مما سبق أنَّ الإيجاز يتصرَّف في القصص القرآني بصور كثيرة، مؤدِّياً أغراضاً بلاغيَّة لطيفة.

---

(1) دلائل الإعجاز ص 161 - 162.
(2) القصص 44.
(3) البقرة 73.
(4) الإيضاح 1/ 297.
(5) النمل 15.
(6) مفتاح العلوم ص 278.

2 ـ الإطناب وتصريفه في القصص القرآني :

بعد أن أتينا بأمثلة للإيجاز في القصص القرآني ، نـأتي بأمثلة كذلك للإطناب وتصريفه في القصص القرآني ، على سبيل المثال لا الحصر ، فمن ذلك الإيضاح بعد الإبهام ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1] .

«فهذا وما شاكله فيه تفصيلٌ بالغٌ ، وتعديد لمن يجب الإيمان به من الأنبياء ، وما أوتوا من الكتب المنزلة على أتمِّ وجه وأبلغه ، ولو آثر إيجازه لقال : «قولوا آمنّا باللّه وبجميع رسله وما أوتوا» لكنه بسطه على هذا البَسْط العجيب ، لما فيه من وفائه بالإيمان باللّه وبرسله ، وما اشتمل عليه من ذكر هذه الزوائد المؤكدِّة»[2] .

وقال السكاكي : «أوثر الإطناب فيه على إيجازه ، وهو آمنَّا باللّه وبجميع كتبه ، لما كنّا نسمع من أهل الكتاب فيهم من لا يؤمن بالتوراة وبالقرآن ، وهم النصارى القائلون[3] : ليست اليهود على شيء ، وفيهم من لا يؤمن بالإنجيل وبالقرآن ، وهم اليهود ، وكل منهم مدَّع للإيمان بجميع ما أنزل اللّه ، تقريعاً لأهل الكتاب ، وليبتهج المؤمنون بما نالوا من كرامة الاهتداء»[4] .

وقد يتصرَّف الإطناب لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾[5] .

---

(1) البقرة 136 .

(2) كتاب الطراز 3/ 318 ـ 319 .

(3) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ (البقرة 113) .

(4) مفتاح العلوم ص 281 .

(5) طه 24 ـ 25 .

قال القزويني: «فإنَّ قوله: ﴿ ٱشْرَحْ لِى ﴾ يفيد طلب شرح لشيء ماله، وقوله: ﴿ صَدْرِى ﴾ يفيد تفسيره وبيانه، وكذلك قوله: ﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ والمقام مقتضٍ للتأكيد، للإرسال المؤذن بتلقيٍّ المكاره والشدائد»[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[2]. فالآية الكريمة أبهمت كلمة (الأمر) وذلك لجذب الذهن إلى معرفة ذلك الأمر، ثم وضَّحته بعد ذلك بقوله: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ تهويلاً لأمر العذاب وتقريراً للمعنى في ذهن السامع بذكره مرَّتين، مرَّة على طريق الإجمال والإبهام، ومرَّة على طريق الإيضاح والتفصيل.

قال القزوينيُّ: «ففي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له»[3] وقد يتصرَّف بذكر العامِّ بعد الخاصِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[4].

تضمَّنت الآية الكريمة الأمر على سبيل التذلُّل والخضوع، والمراد الدعاء له وللوالدين، وهي ألفاظ خاصَّة، ثم تصرَّفت بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات، وهما لفظان عامَّان، يدخل فيهما من ذكر قبل، والسرَّ في ذلك إظهار العناية بالخاصِّ لذكره مرَّتين، مرَّة بلفظه ومرَّة مندرجاً تحت العامِّ.

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ الإيجاز والإطناب يتصرَّف كلٌّ منهما في موضعه الأخصِّ به، والأقوى دلالة على المعنى المراد، وذلك من بلاغة القرآن وحكمة إعجازه.

---

(1) الإيضاح 1/ 301ـ302.

(2) الحجر 66.

(3) الإيضاح 1/ 302.

(4) نوح: 28.

المبحث الرابع
أنموذج لتصريف القصص القرآني

يصرِّفُ القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين، والأمم السابقة في حلقات متفرِّقة، بحيث تناسب كلُّ حلقة موضوع السورة التي تعرض فيها، وتناسب كذلك محورها ومقاصدها، كما أنَّ القرآن الكريم في تصريفه لقصصه لم يلتزم الترتيب الطبيعي لحلقات القصَّة، فمرَّة يعرض حلقة من أوَّل القصَّة، ومرَّة من وسطها، ومرَّة من آخرها، وتارة تعرض بكاملها، كلُّ ذلك بحسب ما يقتضيه مقصد السورة وموضوعها[1].

إنَّ القرآن الكريم إذا ذكر أخبار قوم من الماضين يذكرها نتفاً من هنا ونتفاً من هناك، فيختارها اختياراً يوافق غايته الدينيَّة، وهو بعكس الكتاب التاريخيِّ الذي يذكرها كاملة غير منقوصة، ويرتِّبها ترتيباً يوافق ترتيبها في حوادث الزمن، ويندر أن يقع في القرآن قصَّة تُرتَّب حوادثها ذلك الترتيب الزمني.

ولا يكاد هذا يجاوز عدد أصابع اليد من السور، ومن هذا قصَّة يوسف ـ عليه السلام ـ فإنَّها مرتَّبة ترتيباً زمنياً يبتدئ من صغره إلى أن وصل أمره في مصر إلى ما وصل إليه، ومع ذلك فلا يذكر فيها إلاّ ما يدخل في باب العظة والعبرة، فيحذف فيها ما عداه ممَّا يدخل في باب التاريخ المحض[2].

ويجدر بنا في بداية دراستنا لهذا المبحث أن نبيِّن أنَّ هناك نوعين من قصص الأنبياء الذي يتصرَّف في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، فالنوع الأوَّل وهو ورود إشارات متفرِّقة في كتاب اللّه ـ تعالى ـ وأمَّا النوع الثاني: فهو يتمثَّل في تصريف القرآن لحلقات متعدِّدة في سور مختلفة، ويلاحظ أنَّه في تصريفه لهذه الحلقات

(1) التناسب البياني ص 67.

(2) النظم الفنّي في القرآن ص 38.

يعرضها تارة مجملة وأخرى مفصَّلة، ولا يعرض منها في كلِّ مرَّة إلاّ ما يتَّفق وسياق السورة وموضوعها[1].

لذلك سأقتصر في هذا المبحث على دراسة أنموذجين للقصص القرآني الذي يرد في مواضع مختلفة من القرآن الكريم.

ونظراً لكثرة القصص القرآني، فإنَّني أكتفي في دراسته بقصَّتي نوح ويونس ـ عليهما السلام ـ.

الأنموذج الأوّل: تصريف قصّة نوح ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم:

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس ـ بن يرد بن مهلاييل بن قنين بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ[2].

ـ وكما قلنا ـ إنَّ القصص الذي يتصرَّف في حلقات متعدِّدة يتنوَّع إلى نوعين، لذلك ستكون دراستي لقصَّة نوح ـ عليه السلام ـ مقسَّمة إلى فقرتين، الأولى: الإشارات المتفرَّقة من قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ والثانية تنوُّع الحلقات الواردة في مواضع مختلفة في سورٍ مختلفة.

أولاً: الإشارات المتفرِّقة من قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ:

إنَّ هذه الإشارات لم يرد فيها تكرار وإنَّما كان في كلِّ واحدة منها إشارة جديدة، وذلك ما تبيِّنه هذه الدراسة.

فقد ورد منها إشارة في سياق مخاطبة محمَّد ـ ﷺ ـ في سورة النساء، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾[3].

فقد بيَّنت الآية الكريمة أنَّ وحي اللّه إلى محمَّد ـ ﷺ ـ مثل وحيه إلى نوح والنبيين من بعده.

---

(1) انظر التناسب البياني ص 69.
(2) قصص القرآن لابن كثير ص 64.
(3) آية 163.

وأمَّا سورة الأنعام، فقد ورد فيها إشارة بهداية الله لنوح، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾[1]. وذلك في معرض امتنانه ـ سبحانه وتعالى ـ على أنبيائه، وعدَّ هداه نعمة على إبراهيم ـ عليه السلام ـ[2].

وأمَّا سورة التوبة، فقد ورد فيها إشارة تحذيراً للمنافقين، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾[3].

وأمَّا سورة إبراهيم فقد ورد فيها إشارة تحذيراً لبني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾[4].

وأمَّا في سورة الإسراء، فقد جاءت تأكيداً على التوحيد، إذ قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[5].

وأمَّا في سورة الأنبياء فقد جاءت امتناناً على نوح وأهله باستجابة دعائه ونصره على المكذِّبين، وإغراقهم، فقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[6].

وقد وردت هذه الإشارة موجزة تبعاً لموضوع السورة التي أشارت إلى عدد كبير من الأنبياء، إشارة موجزة أيضاً، باستثناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي فصَّلت قصَّته تفصيلاً يتناسب مع موضوع السورة وسياقها.

وجاءت إشارة في سورة الفرقان في معرض تكذيب الكافرين بالقرآن الكريم وعيداً لهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[7].

---

(1) آية 84.

(2) إرشاد العقل السليم 3/ 157.

(3) آية 70.

(4) آية 9.

(5) آية 3.

(6) آية 76 ـ 77.

(7) آية 37.

وجاءت إشارة في سورة الأحزاب، في سياق أخذ الميثاق من النبيِّن وذكر أولي العزم من الرسل، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[1].

وجاءت إشارة في سورة ص، إثر خصومة المشركين للنبيِّ - ﷺ - وتعجُّبهم أن يرسل اللّه رسولاً من جنسهم، وتعجُّبهم أيضاً من جعل الآلهة إلهاً واحداً، وتكذيبهم بالقرآن، مبيِّناً سنَّة اللّه المطردة في المكذِّبين وعقابهم فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾[2].

وجاءت إشارة في سورة غافر في معرض تنزيل الكتاب، وبيان التوحيد وبيان مجادلة الّذين كفروا، فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[3]. وجاءت إشارة في سورة الشورى تنبِّه على كون دين الإسلام ديناً قديماً أجمع عليه الرسل وذلك قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[4].

وجاءت إشارة في سورة ق في سياق إثبات البعث والجزاء، فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾[5].

قال أبو السعود: «استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث، ببيان كافَّة الرسل - عليهم السلام - وتعذيب منكريها»[6].

وجاءت إشارة في سورة الذاريات في سياق بيان سنَّة اللّه المطرَّدة في المكذِّبين، فقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾[7].

---

(1) آية 7.
(2) آية 12.
(3) آية 5.
(4) آية 13.
(5) آية 12.
(6) إرشاد العقل السليم 8/ 127.
(7) آية 46.

وجاءت إشارة في سورة النجم، في معرض بيان دلائل القدرة الإلهيَّة، وبيان عاقبة الأقوام السابقة، مبيِّنة أنَّ قوم نوح أكثر ظلماً وطغياناً، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾[1].

وجاءت إشارة في سورة التحريم، في سياق بيان جزاء امرأة نوح، فقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[2]. وجاءت إشارة في سورة الحاقَّة، في معرض بيان تكذيب الأقوام السابقة بالبعث والجزاء، وفيها امتنان على نوح ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾[3].

تلك جملة الإشارات التي وردت متفرِّقة في سور القرآن الكريم، والمتعلِّقة بنوح ـ عليه السلام ـ ومنها يتبيَّن أنَّه لا تكرار فيها، وأنَّ كل إشارة منها جاءت مناسبة لمقامها ومحقِّقة لمقصودها.

ثانياً: تنوُّع حلقات قصَّة نوح في السور المختلفة:

بعد العرض الذي بيَّنا فيه الإشارات المتفرِّقة الواردة فيه قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ نأتي إلى عرض حلقات قصَّته في السور التي وردت فيها؛ لنبيِّن طريقة القرآن في تصريفها، ونفي صفة التكرار عنها.

فقد وردت حلقات من قصَّته في كلٍّ من سورة الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والقمر، وسورة كاملة سميِّت باسمه ألا وهي سورة نوح.

---

(1) آية 52.

(2) آية 10.

(3) آية 11.

إنَّ قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ جاءت في عدَّة سور، في كلِّ سورة منـها ما ليس في سائرها من ذلك، ولهذا لـم يذكر من حادثـة الطوفـان فـي سـورة هـود إلاّ ما فيـه العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها، فذكرت في بعضها بآية وفي بعضها بآيتين فما فوقها من جمع القلَّة، وما في هذه السورة هو أطولها وأجمعها[1].

وقد نبَّه صاحب «النظم الفنّي في القرآن» في أكثر من موضع إلى أنَّ قصَّـة نـوح وغيره من الأنبياء في سورة الأعراف تختلف عمـا فـي غيرهـا مـن السـور فـي السياق والأسلوب والزيادة والنقص»[2].

ويؤكِّد الخطيب تصريف قصَّة نـوح، فيقـول: «قصَّـة نـوح وهـي أوَّل القصـص القرآني من حيث زمانها، يذكرهـا القـرآن فـي مواضـع كثيـرة، وهـي فـي كـلِّ موضـع تحمل الدعوة إلى عبادة اللّه وحـده، وفـي كـلِّ موضـع تقـابَلُ هـذا الدعـوة بـالتكذيب والعناد، والإصرار على التكذيب والعناد»[3].

وقد أوضح محمَّد المجذوب، تصريف قصَّة نـوح فقـال: «أخبـار نـوح منشـورة في العديد من سور القرآن العظيم، على تفاوت في الإجمال والتفصيـل، وقـد خصَّـه اللّه ـ عز وجل ـ بسـورة كاملـة سـميِّت باسـمه، ووقَّـف أنبائـه أربِّعـاً وعشـرين آيـة مـن أوائل هود، وهذا التعدُّد في طرق إيرادهـا إنمـا يـدلُّ علـى أهمِّيَّتـها وعظمـة العِـبر التـي تحملها»[4].

ومن هنا فإنَّني سأتحدَّث عن تلـك الحلقـات وتنوُّعـها، وفـق ترتيـب السـور فـي القـرآن الكريـم، محـاولاً عـرض مـا تشـابهت فيـه بعـض الحلقـات مـع بعضـها لبيـان تصريفها، ففي سورة الأعراف، عرضت حلقة إرساله إلى قومه، ودعوته إيَّـاهم إلـى عبـادة اللّـه وتوحيـده، ورفـض الملأ مـن قومـه هـذه الدعـوة، وإلحـاح نـوح عليـهم

---

(1) تفسير المنار 12/ 101، ويعني بهذه السورة، سورة هود.

(2) ينظر ص 142، 147، 191.

(3) القصص القرآني ص 200.

(4) نظرات تحليلية في القصَّة القرآنية ص 32.

وإغرائهم على تقبُّل دعوته بالمنطق والحجَّة، مبيِّناً أنَّه رسول ربِّ العالمين، محدِّداً مهمته، وإستمراره على ذلك مع إصرارهم على الرفض والتكذيب، ونجاته والذين معه، وإغراق المكذِّبين، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[1].

وقد جاءت هذه الحلقة في سياق تسلية النبيِّ - ﷺ - عمَّا يلاقيه من أذى قومه[2]، كما يلاحظ في عرض هذه الحلقة أسلوب الملاينة في دعوتهم، وقد استخدمه نوح - عليه السلام - طمعاً في هدايتهم، ومن ثمَّ نستطيع القول إنَّ مجمل حديث هذه الحلقة كان عن دعوته لقومه، ورفض الملأ من قومه لهذه الدعوة، وبيان سنَّة الله المطَّردة في المكذِّبين.

وجدير بالذكر في هذا المقام، أنَّ هناك تشابهاً بين بعض آيات هذه الحلقة وغيرها من الحلقات الأخر، لذلك سأبيِّن ما تشابهت فيه، مثبتاً تصريفه، فمن ذلك في هذه الحلقة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

---

(1) الأعراف 59 - 64.

(2) أتبع ذلك بقصص الأنبياء - عليهم السلام - وما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبيِّ - ﷺ - لأنَّه لم يكن إعراض قومه فقط عن قبول الحقِّ، بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية، والقرون الماضية، وفيه تنبيه على أن عاقبة أولَئك الذين كذبُّوا الرسل كانت الخسارة والهلاك في الدنيا والآخرة إلى العذاب العظيم، فمن كذَّب بمحمَّد - ﷺ - من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذِّبة (تفسير الخازن 2/ 202).

(3) الأعراف 59.

وفي سورة هود قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

وفي سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2].

فعلى الرغم مما بين هذه الآيات من تشابه لفظيٍّ ومعنويٍّ، فإنَّ هناك فروقاً دقيقة في بناء كلِّ آية من هذه الآيات وارتباط كلٍّ واحدة منها بما قبلها، وما بعدها، وهذا يكفل نفي صفة التكرار عنها، وإثبات تصريفها.

فما يلاحظ على هذه الآيات، أنَّ الآية الأوّلى انتظمت مع ما قبلها بدون واو، على حين أن الثانية والثالثة انتظمت ما قبلها بالواو، فما وجه تصريف هذه الآيات على هذا النحو؟.

وللإجابة على ذلك نقول: إنَّ الكرماني، لاحظ أنَّ عدم ورود الواو في الآية الأوّلى، راجع إلى أنَّه لم يتقدَّم في هذه السورة ذكر رسول، فيكون هذا عطفاً عليه، بل هو استئناف كلام، وفي سورة هود تقدَّم ذكر الرسل، مرَّات، وفي سورة المؤمنون تقدَّم ذكر نوح ضمناً لقوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[3]. لأنَّه أوَّل من صنع الفلك فعطف ما في السورتين بالواو[4].

وتبعه ابن الزبير في أنَّ آية الأعراف لم يتقدَّمها ذكر إرسال، ولا أمر بدعاء الخلق، ولا جملة يناسبها عطف إرسال إلى الأمم، ودعاء الخلق إلى الإيمان، إنَّما تقدَّم قبلها ذكر أصحاب الأعراف، ثمَّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ إلى قوله تعالى:

---

(1) آية 25 ـ 26.

(2) آية 23.

(3) آية 22.

(4) البرهان ص 187.

﴿ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾[1] . ثمَّ ابتدأت قصص الرسل مع أممهم فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا ﴾ وتابع قصصهم، وأما آية هود فقد تقدَّم قبلها ذكر رسالة محمَّد ـ ﷺ ـ وبذلك افتتحت السورة، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2] .

ثمَّ استمرَّ ذكر دعائهم وتحذيرهم، من التولِّي وما يعقبه إن وقع منهم، ثمَّ ذكر تحدّيه ـ عليه السلام ـ إيَّاهم بالقرآن وطلبهم بمعارضته والإتيان بعشر سور مثله في البلاغة وعلى النظم، وإن كان ما يأتون به مفترى ليكون أسهل عليهم، ولم يعدل بالآي عن هذا الغرض وما يرجع إليه، إلى ذكر إرسال نوح ـ عليه السلام ـ فوردت الآي بذلك منسوقة على ما تقدَّمها بواو العطف على أتمِّ مناسبة، وأمَّا آية المؤمنون، فقد ورد قبلها ما يناسب عطفها عليه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾[3] . وبعدها: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾[4] .

فذكّرهم بإيجادهم وانتقالهم منقلبين في أطوار، مكتنفين بمتوالي إنعامه منسوقاً بعض ذلك على بعض مفتتحة المطالع بما يتأتّى به القسم من قوله: ﴿ لَقَدۡ ﴾ تحكيماً وإظهاراً للظاهر من اكتناف إنعامه وإحسانه، ثمَّ عطف على ذلك ما أنعم به من إرسال الرسل، فذكر أوَّلهم إرسالاً إلى الخلق ليناسب ما بُدئوا به من النعم الأوَّليَّة فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا ﴾ وكل ما ذكر في هذه الآي نعم متناسبة وآلاء متوالية.

ولهذا لم يذكر في هذه الآية ذكر عذاب إلاَّ بالإيماء الوجيز، وخصَّت بقوله عقب الأمر بالعبادة: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فذكّرهم بالتقوى المحرزة لنجاتهم وتخلُّصهم

---

(1) الأعراف 54 ـ 58.

(2) آية 1.

(3) آية 12.

(4) آية 17.

من العذاب، ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدَّم من التذكير بإحسانه ـ سبحانه ـ وإنعامه من أوَّل السورة إلى هنا[1].

يستفاد من هذين التوجيهين أنَّ كلَّ آية من هذه الآيات جاءت مناسبة لسياقها في السورة التي هي منها، لذلك انتظمت الآية الأوَّلى مع قبلها بدون عطف لتناسب ما قبلها، وانتظمت آية هود والمؤمنون مع ما قبلها بالواو، لتناسب كذلك كلٌّ منهما ما تقدَّمها.

كما أنَّ هناك فرقاً آخر، نستدلّ به على تصريف هذه الآيات، ألا وهو اختلاف مقالة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه، ففي سورة الأعراف والمؤمنون قال: ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[2]. وفي سورة هود: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

ونلاحظ أنَّ في آية الأعراف والمؤمنون، انتظم القول مع ما قبله بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب، منادياً قومه وآمراً إيَّاهم بعبادة اللّه ـ تعالى ـ الواحد القهار، وفيهما أيضاً دلالة على أنه حينما أرسل إلى قومه طلب منهم توحيد اللّه وعبادته في الحال، دون تراخ منه، فالرسل ـ عليهم السلام ـ مبلِّغون لرسالتهم دون تقصير.

وأما آية هود فقد جاءت على نسق مخالف لهاتين الآيتين، فبينت مهمته التي أرسله اللّه بها، ألا وهي الإنذار والبيان، والأمر بعبادة اللّه ـ تعالى ـ وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[4].

وقد أرجع الخطيب الإسكافيّ ذلك إلى التنويع في أسلوب الدعوة، إذ قال: «للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الإعذار والإنذار، ويرجع فيها عوداً على بدء الوعد والوعيد، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان باللّه ورفض عبادة ما سوى اللّه في

---

(1) ملاك التأويل 1/ 386 ـ 387.

(2) الأعراف 59، والمؤمنون 23.

(3) آية 25.

(4) الآيتان 25، 26.

موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله، بل الواعظ يفتّن في مقاله والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه، فإذا جاءت المحكيَّات على اختلافها لم يطالب وقد اختلف في الأصل باتِّفاقها؛ لأنَّه قال لهم مرَّة باللفظ الذي حكي، ومرَّة بلفظ آخر في معناه كما ذكر»[1].

وتبعه في ذلك ابن الزبير قائلاً: «إنَّ دعاء الرسل أممهم مما يتكرَّر ويتوالى في أوقات مختلفة، ومحالَّ متباينة فمرَّة يرغِّبون ومرَّة يخوِّفون وينذرون، وذلك بحسب حال، حال، ولكلّ مقام مقال، فاختلاف المحْكِيِّ من مقالهم إنَّما هو بحسب اختلاف الأوقات، وما يناسب كلَّ وقت وَقْت، وما يجري فيه ويشاهد من أقوال المدعُوِّين وأحوالهم وكل المحكيّ من معنى مقالاتهم لا إشكال فيه»[2].

وبيَّن أنَّ اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنَّما هو لاختلاف مقاماتهم، إذ ليس دعاؤهم إيَّاهم في موقف واحد، ولا لقوم مخصوصين، بل يدعو النبيُّ طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتَّى، وقد يكون للطائفة منهم خصوصُ مرتكب فيراعي نبيّهم ذلك في دعائهم، وقد يخاطب ملأهم الأعظم في موطن، والفئة القليلة منهم في موطن آخر، وربَّما أطال في موطن وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يرونه - عليهم السلام - أجدى وأرجىَ فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم، ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم، فهذا ممَّا لا يحتاج إلى سؤال عنه[3].

«فلكلِّ نبيٍّ مقامات ومقالات بحسب اختلاف المواطن والمجتمعات، ولكلِّ مقام مقال يناسبه»[4].

واستدلَّ ابن الزبير على التنويع في أسلوب الدعوة من أن نبينًا - ﷺ - كان يدعو قبائل العرب إذا وفدوا على مكَّة ويقف على كلِّ قبيلة قبيلة، فيكلمهم ويُسْمِعُهم

(1) درة التنزيل ص 151.
(2) ملاك التأويل 1/ 387.
(3) ملاك التأويل 1/ 419.
(4) نفسه ص 397.

القرآن، ويدعوهم إلى الله بما يناسب أحوالهم ومقالهم، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقبيلة كانت تُعرَف ببني عبد الله: «يا بني عبد الله، إن الله قد حسّن اسم أبيكم» فكان يفتتح دعاء كلّ طائفة بمثل هذا، فلكلٍّ مقام مقال[1].

كما أنّ المناسبة الموضوعيّة هي التي تحدّد ما يعرض من حلقات القصّة، وذلك ما بيّنه صاحب «في ظلال القرآن»[2].

وهناك فرق ثالث، ألا وهو تعقيب كلّ آية بما أعقبت به، فآية الأعراف أعقبت بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[3]. وآية هود بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[4]. وآية المؤمنون بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[5].

فقد أعقبت كلّ آية من هذه الآيات بما يناسب سياقها، فآية الأعراف، لمّا تقدّم ذكر اليوم الآخر في غير ما آية من أوّل هذه السورة إلى ابتداء قصّة نوح ـ عليه السلام ـ وقد تضمّن ما ذكر من ذلك من أهوال ذلك اليوم ما يعظم أمره، ولما لم يتقدّم في السورتين الأخريين ما تقدّم من أهوال هذا اليوم ناسبه من مقالة نوح ـ عليه السلام ـ التعقيب بأنّ العذاب عظيم.

وأمّا التعقيب في سورة هود فمناسب لقوله ـ تعالى ـ على لسان نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾[6].

فناسب ذلك ما أعقبت به آية هود، وأمّا آية المؤمنون، فلمّا ذكّر عباده بإيجادهم وأطوار خلقهم وإنعامه عليهم ناسب أن يعقب على ذلك بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[7].

---

(1) ملاك التأويل 1/ 387 ـ 388.

(2) في ظلال القرآن 1/ 55.

(3) آية 59.

(4) آية 26.

(5) آية 23.

(6) هود 3.

(7) انظر ملاك التأويل 1/ 388 ـ 390.

يستفاد مما بينّاه من فروق دقيقة بين هذه الآيات، أنّه لا تكرار فيها ولا بينها، وإنما هو التنويع العجيب، والتفنُّن الدقيق، الراجع إلى التنويع في أسلوب الدعوة، وسياق الآية في السورة التي هي منها.

ويلاحظ أنّه كما تشابهت الألفاظ والمعاني في إرسال نوح ـ عليه السلام ـ ودعوة قومه لعبادة اللّه ـ تعالى ـ تشابهت أيضاً الألفاظ والمعاني في قول الملأ من قومه، الذي حكاه القرآن عنهم، فقال في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

وقال في سورة هود: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾[2]. وقال في سورة المؤمنون: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[3].

وهذه الآيات أيضاً وإن اتَّفقت في بعض ألفاظها ومعانيها، فقد اختلفت في بعضها الآخر، وارتباطها بما قبلها، ذلكم هو التصريف البديع الذي نلاحظه في الفروق الدقيقة بين هذه الآيات، فآية الأعراف جاءت مفصولة غير موصولة على حين أنَّ آية هود وآية المؤمنون، جاءتا موصولتين بالفاء، وذلك ـ واللّه أعلم ـ لاختلاف مقالة الملأ من قوم نوح ـ عليه السلام ـ إذ ترتَّب القول في آية هود والمؤمنون على مجرَّد سماعهم لدعوة نوح ـ عليه السلام ـ فجاء عقب ذلك مباشرة، بينما في آية الأعراف جاء على خلاف ذلك.

---

(1) آية 60 ـ 61.

(2) آية 27.

(3) آية 24.

يرى الخطيب الإسكافيّ: أنَّ الموضعين اللّذين دخلتهما الفاء ما بعدهما مما اقتضاه كلام النبي - ﷺ - مما رواه الكفّار جواباً له، فكان بناء الجواب على الابتداء، يوجب دخول الفاء.

وليس كذلك الآية في سورة الأعراف؛ لأنّهم في جوابهم صاروا كالمبتدئين له بالخطاب غير سالكين طريق الجواب؛ لأنّهم قالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فكان كلامهم له كالكلام الذي يبتدئ به الإنسان صاحبه، فلذلك جاء بغير فاء مخالفاً طريقة ما الكلام بعده مبنيٌّ بناء الجواب[1].

ويرى ابن الزبير أنَّ هذه أجوبة في مقامات شتَّى وأحوال مختلفة[2].

ومما يؤكِّد هذا التصريف اختلاف قول الملأ في كلِّ مرَّة، ووصفهم بالكفر في هود والمؤمنون، وخلوِّه من الأعراف.

وقد لاحظ ابن الزبير أنَّ جوابهم في سورة الأعراف مناسب لما تقدَّم من قول مكذِّبي الرُّسل حين تتوفَّاهم الملائكة فقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾[3]. وقول أخراهم لأوّلاهم عند دخولهم النار، وتداركهم فيها جميعاً: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا ﴾[4].

فصار هذا مألوفاً من كلامهم، وجواباً متكرِّراً منهم، ثمَّ قد جرى على هذا إخبار الله - سبحانه - عنه عند تمنّيهم الشفاء، والردِّ إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[5].

وأمَّا الوارد في سورة هود من قول الملأ المذكورين من قوم نوح فهو مناسب لما تقدَّم في صدر السورة من قوله - تعالى - مخبراً عن كفّار قريش وغيرهم من معاندي

---

(1) درّة التنزيل ص 151.

(2) ملاك التأويل 1/ 392.

(3) آية 37.

(4) آية 38.

(5) الأعراف 53.

رسول اللّه ـ ﷺ ـ: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ ﴾[1]. وذلك مما اختصَّت به هذه السورة عن غيرها[2].

أما قولهم الوارد في سورة المؤمنون فإنه مناسب كذلك لما تقدَّم فيها من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾[3]. فذكر ـ سبحانه ـ تطوُّرَ الإنسان في تقلبات وأحوال تشهد بحالته الحضيضية ومهانته الأوَّليَّة إلى أن تلحقه العناية الربَّانية والاختصاص الاصطفائي فيعزُّ بإعزاز مُوجِده ويختص باختصاص التقريب والتشريف، فتتفاوت أقدار الخلق عند ذلك فمنهم اللاّحق بأشرف المقامات، وأسنى الحالات، ومنهم الباقي في حضيضيَّته من غير ترقٍّ لما فوقها من الانتقالات.

ولـمّا لم يتلمّح الملأ من قوم نوح جليل مزيَّة التشريف، وما مُنحَه هذا النبيُّ الكريم من عَليّ قدره المُنيف، وظنُّوا التساوي على مقتضى الحالة الأوَّليَّة، قالوا يخاطبون أتْبَاعَهُم جواباً لنبيِّهم ـ عليه السلام ـ ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ ﴾[4].

وهكذا فإنَّ مقالة الملأ هنا باطلة، وهي مناسبة لما تقدَّم من خلق الإنسان[5] ولعلَّ أكثر تشابه في قول الملأ من قوم نوح ـ عليه السلام ـ في آيتي هود والمؤمنون، بيد أنَّ هناك فروقاً دقيقة، تنفي تكرار هاتين الآيتين وتثبت تصريفهما، ففي آية هود عبَّر بقوله: ﴿ نَرَىٰكَ ﴾ وفي المؤمنون بالإشارة ﴿ هَٰذَآ ﴾؛ لأنَّ ثمَّ فرقاً واضحاً بين الرؤيا وبين الإشارة، ثمَّ عبَّر بعد ذلك في هود بضمير المتكلِّم فقال: ﴿ بَشَرٗا مِّثۡلَنَا ﴾ وفي المؤمنون بضمير المخاطب ﴿ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ ثمَّ بعد ذلك اختلفت الألفاظ والمعاني اختلافاً واسعاً، فقال في هود: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾[6].

---

(1) آية 5.
(2) ملاك التأويل 1/ 392 ـ 393.
(3) آية 12.
(4) المؤمنون 24.
(5) ملاك التأويل 1/ 393 ـ 394.
(6) آية 27.

وقال في المؤمنـون: ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

وأما وصف الملأ بالكفر في آيتي هود والمؤمنون، فقد أرجع ذلك ابن الزبير إلـى أنَّ قوم نوح لمَّا ذكر اللّـه ـ تعـالى ـ عنـهم فـي هـاتين السـورتين إسـاءة جوابـهم لنبيِّـهم، وإطالة في المرتكب حين قالوا في سورة هود: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ فجمعوا في هـذا مـع الإطالـة توهُّمـهم مسـاواته ـ عليه السـلام ـ فيمـا وراء البـادئ مـن البشـرية والصورة الإنسانية إلى استرذال اتّباعه، كما قالوا فـي الموضـع الآخـر: ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[2]. إلى التّعامي عن فضله ـ عليه السلام ـ وظنُّهم كذبه، وقد نزّهه اللّه عن ذلك كلِّه، ووصفهم بالكفر لهذه الأسباب مجتمعة.

وللسبب نفسه من غير فرق قولهم فـي آيـة سـورة المؤمنـون: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾[3].

فلإسـاءتهم فيمـا ذكـر مـن الـوارد عنـهم فـي الموضعـين وصفـوا بـالكفر فـي السورتين، فجاء ذلك مناسباً لقولهم[4].

وقد ذكـر صـاحب «الفتوحـات الإلهيّـة» أن تقييـد قـوم نـوح بـالذين كفـروا فـي سورة هود لما سيأتي في دعائهم إلى الإيمان في أثناء زمن رسالته فكـان فيـهم مـن آمـن ومن كفر، وأما في سورة الأعراف فهو في أوّل دعائهم له[5].

وقد تشابه أيضاً قولـه تعـالى فـي سـورة الأعـراف: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾[6]. وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾[7].

---

(1) آية 24.
(2) الشعراء 111.
(3) آية 24 ـ 25.
(4) ملاك التأويل 1/ 398.
(5) الفتوحات الإلهية 2/ 154.
(6) آية 64.
(7) آية 73.

ومع ذلك فلا تكرار بينهما لاختلاف بعض ألفاظهما، فقد اختصَّت الآية الأولى بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ والثانية بقوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

وزاد فيها: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ فما اختصَّت به كلٌّ واحدة منهما، وما زادت به الثانية عن الأولى يكفل نفي صفة التكرار عنهما؛ لأنَّ لكلٍّ لفظ دلالته الخاصَّة به دون غيره.

يتبيَّن مما سبق أنَّ كلَّ حلقة تعرض مناسبة لسياقها ومبيِّنة لمقاصدها على أتمِّ وجه، وقد عُرضت حلقة جديدة من قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ مجملة في سورة يونس لا تكرار فيها، لا من حيث الألفاظ ولا من حيث المعاني، فهي حلقة تضمَّنت جديداً من تلك القصَّة، جاءت مناسبة لموضوعها وسياقها، فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[1].

وقد ذكر صاحب «المنار» أنَّ هذا سياق جديد متَّصل بما سبق من مقاصد هذه السورة، أتمَّ الاتصال، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال، وهو الاحتجاج على مشركي مكَّة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذِّبين، بأنَّ اللّه سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين، فأهلكهم وأنجى المؤمنين.

جاء هذا في سياق إقامة الحجج العقليَّة على صدق الرسول ـ ﷺ ـ في دعوى الوحي وكون القرآن من عند اللّه لا من عنده، والحجج على مضمون الدعوى من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء والتفنُّن فيها، والبيان البليغ لمقاصدها، وإنذار

---

(1) يونس 71 ـ 73.

أولّئك المكذِّبين بها ، فناسب أن يفصِّل لهم شيئاً من ذلك الإجمال من هذا الوجه ، فجاء به معطوفاً؛ لأنَّه مرتبط به متمم له[1] .

وعُرضت في سورة هود حلقة مطوَّلة مفصَّلة ، وقد بيَّنت هذه الحلقة إرسال نوح إلى قومه وأمرسم بعبادة اللّه وتوحيده ، وبيان الغاية من إرساله ، والشبهات التي جابهه بها قومه والردّ على هذه الشبهات والتلطُّف في الخطاب معهم ، والرفق بهم في الدعوة إلى الحقِّ ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] .

وبيَّنت طول الزمان والمجادلة بينه وبينهم ، وطلب البيِّنة على صدق رسالته ، وبيان نوح أن الذي يقدر على ذلك هو اللّه وأنَّ مهمَّته النصح ، ووصفهم له بالافتراء ، وتبرُّئه من ذلك ، وتعزية اللّه لنوح في قومه عن طريق الوحي ، وفيها أيضاً تسلية للرسول محمَّد ـ ﷺ ـ عمَّا يلاقيه من قومه ، فقال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[3] .

وتضمَّنت الأمر إلى نوح بصنع السفينة برعاية اللّه وعنايته ، والحكم على الذين ظلموا بالغرق ، وسخرية قومه منه ، واستبعادهم وقوع ما توعَّدهم به ، والتوجيه والحكمة الإلهيَّة فيمن يحمله على ظهر السفينة ، وبيان الوصف الدقيق لحالة السفينة في بيان رائع ، وموقف نوح مع ابنه والتدخُّل الإلهيِّ في حسم الموقف الصعب ، والأمر الإلهي للأرض بالاستواء على الجوديّ ، كل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

---

(1) تفسير المنار 11/ 458 .

(2) آية 25 ـ 31 .

(3) آية 32 ـ 36 .

(4) آية 37 ـ 49 .

إنَّ ممَّا تشابه في هذه الحلقة ولم يتمَّ التنبيه إليه - فيما سبق - قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾[1].

بقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾[2].

فكلُّ آية من هذه الآيات جاءت مناسبة لسياقها وموضوعها، وإنَّ في كل واحدة منها من الدلالات ما ليس في غيرها، ففي هود ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ ﴾ وفي المؤمنون ﴿ فَإِذَا جَآءَ ﴾ كما اختصَّت الأولَى بقوله: ﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا ﴾ والثانية بقوله: ﴿ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا ﴾، وقد ذكر ابن الزبير، أنَّ لفظ احمل أوسعُ مواقِعَ في اللغة وأكثر تصرُّفاً في الكلام، تقول: حملتُ الشيء إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحملت العلم عن فلان، وحمل فلان الأمانة، وحملن القصب على كذا، وحمل الفارس على صاحبه، وحملتْ المرأة الشجرة ولا تقول في شيء من هذا سلك، إلاَّ أن يكون المحمول فيه جسماً فيتعاقب سلك وحمل إن لم يعرض من المعنى ما يمنع، وأما سلك فإن العرب تقول: سلكت الشيء في الشيء وأسلكته أي أدخَلتُه.

وأمَّا حمل ففيها اتِّساع لا يكون في سلك، فوجه ورودها في سورة هود مناسبتها من حيث المعنى ومن حيث ما اقترن بها من لفظ قلنا؛ فطال الكلام لفظاً لسعة المحامل.

وقد ناسب مجموع هذه العبارة ما ورد في سورة هود من استيفاء قصَّة نوح - عليه السلام - وطول الكلام بذلك، وأمَّا آية المؤمنون ففي قصَّة نوح فيها إيجاز وإجمال؛ لذلك ورد من سورة المؤمنون لفظ: اسلك لإيجازه من حيث معناه وعروِّه من اقتران لفظ قلنا وغيره مما يحرز الطول بخلاف ما في سورة هود[3].

---

(1) هود 40.

(2) آية 27.

(3) ملاك التأويل 2/ 516 - 517.

يتبيَّن مما سبق، أنَّ حلقة سورة هود جاءت مطوَّلة ومفصَّلة، جديدة في معانيها، ومناسبة لسياقها، وذلك ما ذهب إليه صاحب «المنار» إذ قال: «إنَّ هذا سياق جديد في السورة أكَّد به ما قبله من الدلائل على أصول الدين من التوحيد والبعث والنبوَّة، فهو يشترك معه في جملته لا مع آخر آية منه، وعندي أن هذه القصَّة معطوفة على ما في أوَّل هذه السورة، من ذكر بعثة محمَّد رسول اللّه وخاتم النبيِّين ـ ﷺ ـ بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة اللّه وحده، وبعثه نذيراً وبشيراً، والإيمان بالبعث والجزاء، ليعلم قومه أنَّه ـ ﷺ ـ ليس بدعاً من الرسل، وأنَّ حاله معهم كحال من قبله من الرسل ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم إجمالاً وتفصيلاً»[1].

وهكذا يتبيَّن من خلال تصريف حلقات قصَّة نوح ـ عليه السلام ـ في ثلاث حلقات متوالية أنَّه أوجز القصَّة في سورة الأعراف وسورة يونس، وأسهب في سورة هود، ذلك أنَّ القصَّة القرآنيَّة من خصائصها التنوَّع بين الإيجاز والإسهاب ـ كما بيَّنا ذلك في محلِّه ـ تبعاً لموضوع السورة، والمقاصد التي تبيِّنها، فأوجزت القصَّة عندما كانت المقاصد التي تبيِّنها في سورة الأعراف ويونس موجزة، وأسهبت عندما تعدَّدت المقاصد في سورة هود.

نصل من ذلك إلى أنَّ الاختلاف بين هذه الحلقات من حيث الإيجاز والإطناب دليل على عدم التكرار، كما أنَّ اختلاف المقاصد دليل ثان على ذلك، وأنَّ الاختلاف أيضاً في الألفاظ والمعاني دليل ثالث، بالإضافة إلى اختلاف السياق وموضوع السورة.

وعُرِضت في سورة المؤمنون حلقة إرساله إلى قومه وأمره إيَّاهم بعبادة اللّه وتوحيده، وبيان شبهات السادة الكبراء من قومه، ودعاء ربِّه بالنصر على المكذِّبين، والوحي إليه بصناعة السفينة برعاية اللّه وعنايته، وتوجيه الأمر إليه فيمن يدخله في تلك السفينة، والنهي عن مخاطبته ـ سبحانه وتعالى ـ في الذين ظلموا، والحكم

---

(1) تفسير المنار 12/ 59.

عليهم بالغرق، والأمر بالثناء على الله عند الاستواء على الفلك ونجاتهم من القوم الظالمين، وأمره بالتوجُّه إلى ربِّه بالدعاء أن ينزله منزلاً مباركاً وهو خير المنزلين، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[1].

يلاحظ على هذه الحلقة أنَّها أكثر تفصيلاً من حلقتي سورة الأعراف ويونس، وأقلُّ من حلقة سورة هود، وأنّها تحمل جديداً لم يكن في غيرها من الحلقات، وقد جاءت في سياق ذكر المؤمنين، وبيان صفاتهم، وبيان أطوار خلق الإنسان، وإثبات البعث والجزاء، وبيان دلائل القدرة الإلهيَّة.

وعُرضت في سورة الشعراء، حلقة تكذيب قوم نوح المرسلين، وبيان أنَّه أخوهم، وطلب تقواهم لله ربِّ العالمين، وبيان أنَّه رسول أمين، وأمرهم بتقوى الله وطاعة رسولهم، وهو لا يسألهم على ذلك أجراً إلا من ربِّ العالمين، وبيان شبهاتهم وردِّه عليهم، وبيان أنَّه نذير مبين، وتهديد قومه له ـ عليه السلام ـ والتضرُّع إلى الله على تكذيبهم، وطلبه من ربِّه أن يفتح بينه وبين قومه، وأن ينجِّيه ومن معه من المؤمنين، وإنجاء الله له ومن معه في الفلك، وإغراق الباقين، فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2].

وهكذا فإنَّ في هذه الحلقة جديداً لم يرد في غيرها من الحلقات، وذلك من حيث الأسلوب والدلالات.

وعُرضت في سورة العنكبوت حلقة موجزة، مختلفة عن غيرها من الحلقات، تبيِّن إرساله إلى قومه، ومدَّة دعوته إلى قومه، التي حدَّدها في ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبيان عاقبة قومه، ونجاة نوح وأصحاب السفينة، وجعل ذلك آية للعالمين،

---

(1) آية 23 ـ 30.

(2) آية 105 ـ 122.

فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وعُرضت في سورة الصافَّات، حلقة جديدة تبيِّن نداء نوح لربِّه واستجابته له، ونجاته وأهله ممَّا أصابهم من الكربِّ العظيم، والامتنان عليه بإبقاء ذرِّيَّته، وذلك جزاء المحسنين، ووصفه بالإيمان، وبيان إغراق الكافرين من قومه فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾[2].

وعُرضت في سورة القمر، حلقة جديدة مختلفة تمام الاختلاف عن بقيَّة الحلقات وذلك من حيث الأسلوب والدلالات، فقد جاءت في معرض إنذار الكافرين بيوم القيامة، ووصف حالهم، وعنادهم رغم رؤيتهم الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة بصدق الدعوة المحمَّدية، ومع ذلك يكذِّبون ولا يؤمنون.

لذلك بينت أنَّ ذلك ليس بجديد، فقد كذَّبت قبلهم قوم نوح ورموه بالجنون وزجروه، فدعا ربَّه حين غلبه الكفار، فنصره اللّه عليهم.

وذلك بالطوفان، وقد صوَّر وقوعه في الآية تصويراً بليغاً[3]، ونجَّى اللّه نوحاً ومن آمن معه فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ

---

(1) الآيتان 14 ـ 15.

(2) آية 75 ـ 82.

(3) تفسير سور المفصل من القرآن الكريم ص 75.

﴿وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [1].

هذا تسجيل عليهم للأنباء الزجريَّة التي جاء بها الكتاب العزيزُ إلى الكُفَّار عساهم يرجعون عن غيِّهم وضلالهم، وهي طريقة للقرآن في الوعظ والزجر لا يفتأ يذكر ما أصاب الأمم المكذِّبة من أليم العذاب وما كتب لرسُله والمؤمنين من حسن المآب.

وذلك حكاية حالهم من الإصرار على التكذيب؛ لأنَّه ـ عليه السلام ـ لبث فيهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً يدعُوهم إلى الإيمان وما آمن معه إلاَّ قليل، فهو تسلية للنبيِّ ـ ﷺ ـ [2].

وقد خصَّه اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بسورة كاملة، سُمِّيت باسمه، كما اختصت سورة يوسف ـ عليه السلام ـ بذكر قصَّته، وقد افتتحت السورة بإرسال نوح لقومه، وتكليفه بتبليغ الدعوة، وإنذار قومه من عذاب اللّه، وأمرهم بثلاثة أوامر مهمَّة هي أساس ما جاءهم به، ألا وهي عبادة اللّه ـ تعالى ـ وتقواه ـ وهي امتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه، وطاعته ـ عليه السلام ـ لأنَّه وليُّ الأمر فيهم، وعن طريقه يتلقَّون أوامر اللّه، وتضمَّنت بيان الجزاء العادل، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [3].

قال العلاَّمة عبد اللّه كنُّون: «وفي مساقها هذا المساق إنذارٌ لكفَّار مكَّة أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح من العذاب، وتسليةٌ للنبيِّ ـ ﷺ ـ وتثبيت له على الدعوة برغم ما يلقاه من قومه من أذى وتكذيب» [4].

(1) القمر 9 ـ 17.
(2) تفسير سور المفصَّل من القرآن الكريم ص 75.
(3) آية 1 ـ 4.
(4) نفسه ص 253 ـ 254.

وبيَّنت جهاد نوح الطويل وصبره وتضحيته في سبيل دعـوة قومـه إلـى التوحيد وعبادة اللّـه ـ تعـالى ـ وشـكوى نـوح ـ عليـه السـلام ـ إلـى ربِّـه ـ سبحانه وتعـالى ـ مـن قومه، رغم دعوته إيَّاهم ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً من الحقِّ، وإمعاناً في الضلال والعصيان، ولم يستمعوا له، وأصرُّوا على ذلـك واستكبروا استكباراً فقـال تعـالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ إلـى قولـه تعـالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[1].

وبيَّنت الطرق التي سلكها معهم نوح في دعوته لقومه، مذكِّراً إيَّاهم بنعـم اللّـه وأفضاله عليهم وتعنيفهم لعدم تعظيمهم اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ رغم بيان الدلائل فـي الأنفس والآفـاق، فقـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ إلـى قولـه تعـالى: ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[2].

وبيَّنت خطاب نـوح ربِّـه، معلناً عصيان قومه، معدِّداً رذائلـهم، وختمـت السورة بدعاء نوح ـ عليه السلام ـ على قومـه بـأن لا يبقـي مـن الكـافرين أحداً، مبيِّناً أسباب ذلـك، متضرِّعـاً إلـى ربِّـه أن يغفـر لـه ولوالديـه، ولمـن دخـل بيتـه مؤمنـاً، وللمؤمنين والمؤمنات فقـال تعـالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[3].

يتبيَّن مما سبق أنَّ سورة نوح ـ عليه السلام ـ تميَّزت عـن غيرهـا مـن الحلقـات مـن ناحية الأسلوب ومن ناحية الموضوع، فهي نمط جديد فـي أسـلوبها وموضوعـها، فـلا تكرار فيها.

---

(1) نوح: 5 ـ 7.

(2) نوح 8 ـ 20، «تلك أدلَّة توجب توحيد اللّه وإختصاصه بالعبادة؛ لأنَّها نعم إلهيَّة. في نفس الإنسان وفي الكون من حوله» (مجلة كليَّة التربيَّة جامعة الريـاض العـدد الأول، السنة الأولَـى، 1397هـ / 1977م بحث بعنوان «القصَّة القرآنية ودورها في التربيَّة» أحمد أحمد علوش ص 11.

(3) نوح 21 ـ 28.

وأمَّا ما تشابه فيه قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ مع قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[1]. وقوله تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾[2]. وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[3]. وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[4].

فإنَّ ذلك لا يعدُّ تكراراً بقدر ما هو تصريف للبيان، الراجع إلى التنويع في أسلوب الدعوة ـ كما بيَّنا فيما سبق ـ إذ إنَّ ما في هذه السورة جاء فاتحة لها، وإنَّ ما في غيرها جاء في أثناء السور، كذلك إن هذه الفاتحة أكِّدت بأداة التوكيد «إنَّ» بخلاف غيرها التي تضمَّنت أسلوب قسم، وكذلك تناسب التعقيب فإنَّ كلَّ واحدة أعقبت بما يناسبها؛ لأن التعقيب مكمل للمعنى.

وأمَّا تشابه قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[5]. مع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[6].

فإنَّ ذلك لا يعدُّ أيضاً تكراراً؛ لاختلاف الفاصلة ﴿ ضَلَٰلًا ﴾ و﴿ تَبَارًا ﴾ ولأنَّ كلاً منهما جاء مناسباً لموضعه، وذلك ما بيَّنه ابن الزبير الغرناطيّ، إذ قال: «للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما دعا به نوح ـ عليه السلام ـ على قومه في الموضعين؟

والجواب عن ذلك أنَّ نوحاً ـ عليه السلام ـ لما ذكر أوّلاً في إخبار اللّه ـ سبحانه ـ عن عصيانه قومه له، وقولهم: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي لا تتركوها: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾[7]. أردف هذا بما يناسبه من الدعاء في زيادة ضلالهم ولم يَدْعُ هنا بهلاكهم.

---

(1) آية 59.
(2) آية 25.
(3) آية 23.
(4) آية 14.
(5) نوح 24.
(6) نفسها 28.
(7) آية 23 ـ 24.

وأمَّا الآية الثانية فقد تقدَّمها دعاؤه ـ عليه السلام ـ بهلاكهم وأخذهم في قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1]. فأتبع ذلك بما يناسبه تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ أي هلاكاً»[2].

الأنموذج الثاني: تصريف قصّة يونس ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم:

أمَّا الأنموذج الثاني الذي تصرَّف في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، فهي قصَّة يونس ـ عليه السلام ـ وهي من القصص القصيرة الموجزة، التي تذكر العبرة المقصودة من إيرادها ولا تتعدَّاها، وقد وردت في أربع سور هي سورة يونس والأنبياء، والصافَّات، والقلم، ففي سورة يونس التي سمِّيت باسمه، عُرضت بإيجاز بليغ، مبيِّنة أنَّ القرية التي نفعها إيمانها هم قوم يونس لمَّا آمنوا، فكشف اللّه عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والامتنان على تمتيعهم إلى حين، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[3].

وعُرضت في سورة الأنبياء حلقة موجزة تختلف عن سابقتها، في الأسلوب والموضوع، فهي لم تذكره باسمه وإنَّما أضافته إلى النون وهو الحوت ـ على ما ذكره السهيلي[4] ـ وذكرت توحيده وتسبيحه للّه ربِّ العالمين، واعترافه بالظلم، واستجابة اللّه له، وتنجيته من الغمّ ومثل ذلك ينجي اللّه المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

---

(1) آية 26.

(2) ملاك التأويل 2/ 912.

(3) آية 98.

(4) التعريف والإعلام ص 209.

(5) الآيتان 87 ـ 88.

وعُرِضت في سورة الصافَّات حلقة أكثر تفصيلاً من الحلقات الأخر، وهي تختلف كذلك في أسلوبها وموضوعها، وجاءت بجديد لم تذكره الحلقات الأخر، فقد بيَّن فيها أنَّ يونس من المرسلين، وأنَّه أبق إلى الفلك المشحون، والتقام الحوت له، وبيَّن أنَّه لو لم يكن من المطيعين المصلِّين لبقي في بطن الحوت إلى يوم البعث، ونبذه بالعراء وهو سقيم، وأنبت عليه شجرة اليقطين، وبيان عدد من أرسله اللّه إليهم، فآمنوا ومتَّعهم إلى حين.

فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1].

وعُرِضت في سورة القلم حلقة موجزة أيضاً في سياق أمر النبي - ﷺ - بالصبر لحكم ربِّه، وأمره أن لا يكون مثل صاحب الحوت، حين نادى وهو مكظوم، وبيَّن أنَّه لولا نعمة ربِّه لنبذ بالعراء وهو مذموم، وبيان إختياره وجعله من الصالحين، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

قال السهيليُّ: «سمَّاه في سورة الأنبياء ذا النون، وفي سورة القلم صاحب الحوت، والمعنى واحد، ولكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالتين»[3].

---

(1) الصافات 139 ـ 148.

(2) آية 48 ـ 50.

(3) التعريف والإعلام ص 209.

يتبيَّن من عرض قصَّة يونس ـ عليه السلام ـ أنَّها جاءت موجزة، متفقّة مع سياق سورها وموضوعها، وأنَّ في كلٍّ منها جديداً، لم يكن في غيرها من تلك الحلقات، يبيِّن المقاصد التي لم تكن في غيرها.

نكتفي بهذا القدر من القصص التي صرَّف القرآن بيانه في صور متعدِّدة، مستخلصين منه أنَّه يعرض منها في كلٍّ مرَّةٍ ما يناسب السورة وموضوعها، وما يحقِّق المقاصد المرادة من تلك القصَّة.

الفصل الثاني
تصريف الأمثال في القرآن الكريم

إنَّ تصريف الأمثال القرآنيَّة، دلَّت عليه الآيات الكريمة في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[8].

فهذه الآيات الكريمة تبيِّن تصريف الأمثال، والمقاصد السامية من تصريفها، ألا وهو التذكُّر والتفكُّر والاعتبار، بأحوال من ضرب لهم أو بهم الأمثال؛ «لأنَّ في

---

(1) الإسراء 89.
(2) الكهف 54.
(3) الإسراء 48.
(4) إبراهيم 25.
(5) العنكبوت 43.
(6) الروم: 58.
(7) الزمر 27.
(8) الحشر 21.

ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنَّه تصوير المعاني العقلية بصور المحسوسات وبه يرتفع التنازع بين الحسِّ والخيال»[1].

وقال الرازيُّ: «إنَّ المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكُّر والعلم»[2]. وقال الخروبيُّ: «الإشارة إلى الأمثال المذكورة بينَّها - تعالى - للعالمين ليتفكَّروا في معانيها وليخلِّصوا أعمالهم ممَّا يفسدها»[3].

فذلك جملة المقاصد، وأمَّا تفصيلها فهو أنواع كثيرة سيأتي في محلِّه من هذا البحث - إن شاء اللّه تعالى -.

ودلَّ عليه أيضاً حديث الرسول - ﷺ - الذي أخرجه البيهقيُّ عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - قال: قال رسول اللّه - ﷺ -: «إنَّ القرآن نزل على خمسة أوجه، حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتّبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال»[4].

وعن عليٍّ - رضي اللّه عنه - أنَّ رسول اللّه - ﷺ - قال: «إن اللّه أنزل القرآن آمراً وزاجراً، وسنّة خالية، ومثلاً مضروباً»[5].

---

(1) روح المعاني 13/ 214.

(2) تفسيره 26/ 257.

(3) تفسيره ص 472.

(4) البرهان 1/ 486، والإتقان 4/ 38. والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 7/ 153 عن عمر بن أبي سلمة أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال لعبد اللّه بن مسعود: «إن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد، وإنَّ القرآن أنزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف؛ حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وضرب أمثال، وأمر وزجر فأحلَّ حلاله، وحرِّم حرامه، واعمل بمحكمه وقف عند متشابهه، واعتبر بأمثاله، فإنَّ كلاً من عند اللّه وما يذكَّر إلاَّ أولوا الألباب، رواه الطبرانيُّ وفيه عمّار بن مطر، وهو ضعيف جداً، وقد وثّقه بعضهم» وأورده في مورد الظّمآن إلى زوائد ابن حبَّان ص 441. وأخرجه أيضاً ابن حجر العسقلاني، في المطالب العالية 3/ 284 مع اختلاف قليل، وتقديم وتأخير في نصِّ الحديث. وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين 1/ 553 وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه.

(5) مباحث في علوم القرآن ص 282.

وقد عدَّه الشافعيّ مما يجب على المجتهد معرفته من علـوم القرآن، فقـال: «ثـمَّ معرفةُ ما ضرب فيه من الأمثال الدوالِّ على طاعته، المبيِّنـة لاجتنـاب معصيتـه، وتـرْكُ الغفلة عن الحظّ، والازدياد من نوافل الفضل»[1].

«وقال الماورديُّ: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه، لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم المُثُلات، والمثل بلا ممثّل كالفرس بلا لجـام، والناقـة بلا زمام»[2].

وضربها النبيَّ - ﷺ - في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله فـي كـلِّ عصـر، لنصرة الحق، وإقامة الحجَّة، ويستعين بها المربـون، ويتَّخذونـها مـن وسـائل الإيضـاح والتشويق؛ لأنَّ الأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقـوى في الإقناع، وقد أكثر الله - تعالى - الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة[3].

«وقد تقرَّر عند علماء البلاغة أنَّ لضرب الأمثال شأناً عظيماً، في إبراز خفيَّات المعاني ورفع أستار محجَّبات الدقائق، ولهذا استكثر الله من ذلـك فـي كتابـه العزيـز، وكان رسول الله - ﷺ - يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه»[4].

والجدير بالتنبيه إليه في هذا المقام، أنَّ بعض العلماء يرى أنَّ في الأمثال القرآنيَّـة تكراراً، فمنهم عزُّ الدين بن عبد السلام، إذ قال: «وتكرير الأمثال يدلُّ على الإعتناء بالإيضاح والبيان»[5].

وارتضاه القاسميُّ، في تفسيره دون أن يعقِّب عليه[6].

وقال الزركشيُّ في «البرهان»: «ومنـه تكريـر الأمثـال، كقولـه تعـالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ

---

(1) الرسالة ص 41.

(2) الإتقان 4/ 38.

(3) مباحث في علوم القرآن ص 289.

(4) فتح القدير 1/ 47.

(5) الإشارة إلى الإيجاز ص 218.

(6) تفسيره 1/ 257.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[1].

وكذلك ضرب مثل المنافقين أوَّل البقرة، ثنّاه اللّه ـ تعالى ـ»[2]. وتبعه السيوطي في ذلك فنقل ما ذكره الزركشيُّ بنصِّه في كتابه «معترك الأقران»[3] ومع ذلك فلم يبيِّنوا وجه التكرار ـ على حدِّ قولهم ـ.

والذي نراه أنَّه لا تكرار في أمثال القرآن بصفة عامَّة، ولا في ما استدلَّ به الزركشيُّ والسيوطيُّ من قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الآية بصفة خاصَّة.

فهذه الآية تضمَّنت أكثر من مثل، وذلك ما بيَّنه الزمخشريُّ، إذ قال: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم ـ واللّه عزَّ وجلَّ ـ.

والظلمات والنور، والظّل والحرور، مثلان للحقِّ والباطل، وما يؤدِّيان إليه من الثواب والعقاب، والأحياء والأموات مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه، وأصرُّوا على الكفر»[4].

وكذلك ما رآه الزركشيُّ من تكرار في ضرب مثل المنافقين أوَّل البقرة[5] فهذا أيضاً ليس بتكرار، وإنما هو التصريف الذي ضرب فيه المثل كلَّ مرَّة لفئة من المنافقين، ونوع يختلف عن الآخر؛ لأنَّ كلاًّ منهما اقتضى بياناً، غير بيان الثاني، قال الرازيُّ: «ذلك لأنَّ المنافقين قسمان: بعضهم يشبهون أصحاب النار، وبعضهم يشبهون أصحاب المطر»[6].

---

(1) فاطر 19 ـ 22.

(2) البرهان 2/ 25.

(3) معترك الأقران 1/ 263.

(4) الكشاف 3/ 306.

(5) وهو يعني بذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة 17 ـ 20).

(6) تفسيره 2/ 86.

وتبعه في ذلك ابن قيِّم الجوزيَّة، إذ قال: «فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين، مثلاً نارياً، ومثلاً مائياً، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق، فإنَّ النار مادَّة النور والماء مادَّة الحياة، وقد جعل اللّه ـ سبحانه ـ الوحي الذي أنزله من السماء متضمِّناً لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمَّاه روحاً ونوراً»[1].

وقال صاحب المنار: «ضرب اللّه ـ تعالى ـ لهذا الصنف في مجموعه مثلين ينبئان بانقسامه إلى فريقين خلافاً لما في أكثر التفاسير في أنَّ المثلين لفريق واحد، وأنَّ معناهما وموضوعهما واحد»[2].

وقال صاحب «التفسير الواضح»: «أردف المثل السابق بمثل آخر مستقلٍّ واضح ليظهر حالهم، فلا تخفى على أبسط الناس فهماً وإدراكاً. . .

والظاهر ـ واللّه أعلم ـ أنَّ المثل الأوَّل للمنافقين الخلص، والثاني للمتردِّدين، تارة يظهر لهم وميض الإيمان ونوره، وتارة يخبو، وقيل: هما لصنف واحد»[3].

وقال صاحب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع»: «فقد اشتمل هذا النّصُّ كما هو واضح على مثلين للمنافقين، ومن تدبُّر هذين المثلين تبيَّن لي أنَّهما مثلان لصنفين من المنافقين، وليسا جميعاً لأيِّ منافق، فالتنويع في التمثيل يُقصد منه ـ واللّه أعلم ـ الإشارة إلى صنفين من المنافقين.

فالأوَّل: للصنف الذي مَرَدَ على النفاق، فهو كافر ضمناً دون تردُّد، متظاهر بالإسلام كذباً وزوراً، لذلك جاء في وصف أمره ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾.

والثاني: للصنف المتذبذب بيّن الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب، وهذا الصنف لم تنطمس بصيرته انطماساً تامّاً، بل يتلامع له نور الحق أحياناً فيراه، فيسير قليلاً فيه، ثمَّ يعود إلى حالته الأوَّلى»[4].

---

(1) أعلام الموقِّعين 1/ 150 ـ 151. والأمثال في القرآن الكريم ص 174 ـ 175.
(2) 1/ 168.
(3) 1/ 20.
(4) ص 22.

وقال الزمخشريُّ: «والثاني أبلغ من الأوَّل؛ لأنَّه أدلُّ على فرط الحيرة، وشدَّة الأمر وفظاعته، ولذلك أخَّر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ»[1].

يتبيَّن مما سبق أنَّه لا تكرار في أمثال القرآن الكريم، وإنَّما هو التصريف البديع، والتنويع العجيب، الذي يكشف الحقائق الخفيَّة، وذلك بتقريبها إلى الأذهان في أبلغ صورة.

وهكذا فقد «نهج القرآن الكريم نهج العرب في أساليبها، فضرب الأمثال التي تجلِّي المعاني أتمَّ جلاء، وتُحدثُ في النفوس من الأثر ما لا يُقْدر مُوره ولا يسبر غَوْرُهُ، لما فيها من إبراز المعقولات الخفيَّة في معرض المحسوسات الجليَّة، وإظهار ما يُنْكَر في لباس ما يُعْرَف ويُشْهَر»[2]. وذلك ما ستجلِّيها الدراسة اللاحقة، والتي سنتحدَّث فيها عن أمرين:

الأوَّل: بلاغة تصريف الأمثال في القرآن الكريم.

والثاني: مقاصد تصريف الأمثال في القرآن الكريم.

(1) الكشاف 1/ 213.

(2) تفسير المراغي 1/ 57.

المبحث الأوَّل
بلاغة تصريف الأمثال في القرآن الكريم

يجدر بنا قبل الدخول في هذا المبحث، أن أذكر تعريفه على ما عرفه به أهل اللغة، إذ قالوا: «المَثَلُ عبارةٌ عن قولٍ في شيء يشبهُ قولاً في شيء آخر بيَّنهما مشابهةٌ ليُبيَّن أحدهُمُا الأخر ويصوِّره.

والمَثَلُ يقال على وجْهَيْنِ أحدُهُما: بمعنى المِثْل نحوُ شِبْه وشَبَه ونقْض ونَقَض، قال بعضُهم وقد يُعَبَّرُ بهما عن وصفِ الشيءِ نحوُ قولَه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

والثاني: عبارةٌ عن المشابَهة لغَيْره في معنى من المعاني أيِّ معنىً كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضُوعَة للمشابهة، وذلَك أن النِّدَّ يقال فيما يُشَارِكُ في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يُشاركُ في الكيفّية فقط، والمساوي يقال: فيما يشارك في الكميِّة فقط، والشكل يقال فيما يشاركُهُ في القدر والمساحة فقط، والمِثْلَ عامٌّ في جميع ذلك»[2].

ومِثْل: كلمة تسوية، يقال: هذا مِثْلُهُ، كما يقال: شِبْهُه وشَبَهه بمعنى؛ والمثل ما يضرب به من الأمثال، ومَثَلُ الشيء أيَضاً صفتُه.

قال ابن بري[3]: الفرق بيَّن المُماثلة والمُساواة أنَّ المساواة تكون بيَّن المختلفين في الجنْس والمتَّفقَين؛ لأن التساوي هو التكافُؤُ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين، تقول: نحوه، كنحوه وفقهُه كفقه، ولونُه كلَّونه، وطعمه

---

(1) الرعد 35، ومحمَّد 15.

(2) المفردات في غريب القرآن ص 462 مادَّة: مثل. وتفسير الخازن 1/ 30.

(3) ابن بري: هو عبدالله بن بري بن عبد الجبَّار المقدسيّ الأصل المصريّ، أبو محمَّد، من علماء العربيَّة النابهين له «شرح شواهد الإيضاح» و«حواش على صحاح الجوهري» توفِّي سنة 582هـ (الأعلام للزركلِّي 4/ 200).

كطعمُه، فإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يسدُّ مسدَّه، وإذا قيل: هو مثلُه في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون جهة. والمثل: الشّبْه، يقال: مِثل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد.

قد يكون المثل بمعنى العبرة، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[1]. فمعنى السلف أنَّا جعلناهم متقدِّمين يتَّعظ بهم الغابرون، ومعنى قوله: ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي عبراً يعتبر بها المتأخِّرون، ويكون المثل بمعنى الآية، قال اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ في صفة عيسى ـ على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ـ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[2].

أي آية تدلُّ على نُبُوَّته والمثل الصورةُ والصفة[3] «ثمَّ استعمل في بيان حال الشيء وصفته التي توضِّحه وتبيِّن حاله»[4].

والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير، يقال مثل ومثل ومثيل، كشبه وشبه وشبيه، ويجمع المثل والمثل على أمثال،

قال اليزيديُّ[5]: الأمثال الأشباه، وأصل المثل الوصف، هذا مثل كذا، أي وصفه مساوي لوصف الآخر، بوجه من الوجوه، والمثل القول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه.

وقيل: المثل ذِكْر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس، يستدلُّ به على وصف مشابه له في بعض الوجوه، فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساوياً للأوَّل في الظهور من وجه دون وجه.

---

(1) الزخرف 56.

(2) نفسها 59.

(3) الصحاح للجوهريّ 5/ 1815، ولسان العرب 11/ 610 ـ 612، مادَّة مثل وتأويل مشكلّ القرآن ص 496.

(4) تفسير المراغي 1/ 57.

(5) اليزيديُّ هو: يحيى بن المبارك بن المغيرة العدويّ الإمام، أبو محمَّد اليزيديّ النحويّ، المقرئ اللّغويّ، وكان أحد القرَّاء الفُصحاء العالمين بلغة العربِّ والنحو، صنَّف مختصراً في النحو، والمقصور والممدود مات سنة 202 هـ (انظر بغية الوعاة 2/ 340).

والمقصود من ذكر المثل أنَّه يؤثرِّ في القلوب ما لا يؤثِّره وصف الشيء في نفسه[(1)] .

وقيل المثل : الصفة والقصَّة الغريبة ، والمراد أنَّ حالهم تناهت في الظهور والوضوح حتى أضحت كالمثل الذي لا ينكر[(2)] .

وأمَّا الضرب : فهو التبيين والوصف[(3)] وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانه ، وهو في الكلام أن يذكر لحال من الأحوال وما يناسبها ويشابهها ويظهر من جنسها أو قبحها ما كان خفيّاً .

وقد اختير لفظ الضرب مع المثل ؛ لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهياج الانفعال ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ، بحيث ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسه[(4)] .

ومن ثَمَّ فإنَّ المستقرئ لآيات الأمثال في القرآن الكريم ، يجد أنَّها ذات بيان عال ، كما هو الحال في القرآن الكريم كلِّه ، وأنَّها تتصرَّف بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة ، لا تكرار فيها ولا بينها ، تزيد النفوس تمسُّكاً بالدين الإسلاميِّ ، وتحثُّ على اتّباع أوامره ، وتنهى عن مخالفته ، وتبيِّن الطريق الصحيح الذي يجب على المسلمين اتّباعه ، فهي بمثابة المدِّرس والمربِّي للناس .

ذلك أنَّ الأمثال القرآنيَّة تتميَّز بالروعة والبيان الذي يكشف المعاني الخفيَّة فيجعلها جليَّة ، مصوَّراً ذلك تصويراً بليغاً ، يحقِّق المقاصد المرادة من ذكر الأمثال في القرآن الكريم .

---

(1) الكشاف 1/ 195 ، والبحر المحيط 1/ 207 ، وإرشاد العقل السليم 1/ 20 . انظر مباحث في علوم القرآن ص 282 ، والأمثال والمثل ، والتمثّل والمُثلات في القرآن الكريم ص 9 .

(2) التفسير الواضح 1/ 19 ، والأصل في المثل أنَّه قائم على تشبيه شيء بشيء لوجود عنصر تشابه أو تماثل بيَّنهما ، أو لوجود أكثر من عنصر تشابه . ويطلق المثل في القرآن ويُراد منه ذكر أنموذج أو أكثر لنوع من الأنواع ، أو عمل من الأعمال أو سنَّة من سنن الله ، نظراً إلى التشابه الموجود بين أفراد النوع الواحد ، أو نظراً إلى اطّراد سنن الله وأعماله الحكيمة . (أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ص 19 ، 24) .

(3) تأويل مشكلٌ القرآن ص 487 .

(4) تفسير المنار 1/ 236 ، والأمثال والمثل والتمثُّل والمُثلات في القرآن الكريم ص 9 .

وفي ذلك يقول الجرجانيُّ: واعلم أنَّ ممَّا اتَّفق العقلاء عليه أنَّ التمثيل، إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصليَّة إلى صورته، كساها أبَّهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة، وكلَفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبَّة وشغفاً، فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزَّ للعطْف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغرِّ المواهب والمنائح، وأسْيَر على الألسن وأذكر، وأولَى بأنْ تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذمّاً كان مَسُّه أوجع وميسمه ألذع، ووقعه أشدَّ، وحده أحدَّ.

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد، وشرفه أجدَّ، ولسانه ألدَّ.

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم(1) أسلَّ، ولغرب(2) الغضب أفلَّ، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلِّي الغياية(3)، ويبصِّر الغاية، ويبرئ العليل ويشفي الغليل(4).

وأبرز الرازي بلاغة الأمثال فقال: «إنَّ المقصود من ضرب الأمثال أنَّها تؤثِّر في القلوب ما لا يؤثِّره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأنَّ الغرض من المثل تشبيه الخفيِّ بالجليِّ، والغائب بالشاهد، فيتأكَّد الوقوف على ماهيَّته، ويصير الحسن مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح.

---

(1) السخيمةُ: الحقد في القلب، والجمع سخائم (كتاب جمهرة اللغة 2/ 221 مادة سخم).

(2) غَرُبَ أي بَعُد، يقال: اغرُبْ عنّي، أي تباعد (الصحاح للجوهري 1/ 193وتاج العروس 3/ 458 مادَّة غرب، ومعنى أفل الشيء أفْلاً وأفُولاً: غاب ومنه قيل: أفل فلانٌ عن البلد إذا غاب عنها (المصباح المنير ص 14 مادة: أفل).

(3) الغياية: كلُّ شيء أظلّ الإنسان فوق رأسه مثل السحابة والغُبرة والظُّلمة، ونحو ذلك، (الصحاح للجوهري 6/ 2451 مادة: غيا).

(4) أسرار البلاغة في علم البيان ص 92 ـ 96.

ذلك أنَّ الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرَّداً عن ضرب مثل له لم يتأكَّد وقوعه في القلب كما يتأكَّد وقوعه إذا مثِّل بالنور، وإذا زهّد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكَّد قبحه في العقول كما يتأكَّد إذا مثِّل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته في الإخبار بضعفه مجرَّداً، ولهذا أكثر اللّه - تعالى - في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله»[1].

وقد أشار الزمخشريُّ إلى أنَّ ضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفيِّ، في إبراز خبيّات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيَّل في صورة المحقَّق والمتوهَّم في معرض المتيقَّن والغائب كأنَّه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألدّ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ، ولأمر ما أكثر اللّه في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلاَّم رسول اللّه - ﷺ - وكلام الأنبياء والحكماء[2].

وتبعه أبو السعود، إذ قال: «فإنَّ التمثيل ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيِّ وقمع سورة الجامح الأبيِّ كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيَّة، وإبراز لها في معرض المحسوسات الجليَّة، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشيِّ في هيئة المألوف»[3].

وقال أيضاً: «إنَّ التمثيل ليس إلاّ إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس؛ لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفيَّة، وفهم الدقائق الأبيَّة، كي يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه إلى ما يرتضيه»[4].

---

(1) التفسير الكبير 2/ 80، وانظر البحر المحيط 1/ 207، ورياض الأزهار وكنز الأسرار ص 72.

(2) الكشاف 1/ 195. وانظر مجلةَّ البحث العلميِّ والتراث الإسلاميِّ، العدد الرابع عام 1401هـ دراسات في أمثال القرآن الكريم، عبد المجيد السيّد قطّا مش ص 109 - وما بعدها.

(3) إرشاد العقل السليم 1/ 50.

(4) إرشاد العقل السليم 1/ 71.

وذكر الخروبيُّ أنَّ سرَّ ضرب الأمثال في القرآن للوقوف على حقائق الأمور، إذ المحسوسات تفيد الوقوف على الحقائق أكثر من المعاني[1].

وقال إبراهيم النظَّام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو في نهاية البلاغة».

وقال ابن المقفَّع: «إن جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث»[2].

وقال الزمخشريُّ: «إن التمثيل إنَّما يصار لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهَّم من المشاهد، فإن كان المتمثَّل له عظيماً كان المتمثَّل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثَّل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل، إذاً إلاّ أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجرُّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضيَّة»[3].

«ذلك أنَّ الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبَّله العقل؛ لأنَّ المعاني المعقولة لا تستقرُّ في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسيَّة قريبة الفهم»[4].

«إنَّ الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربِّها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقينيّ.

والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حيَّة تستقرّ في الأذهان بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير، وكم من معنى جميل ألبسه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلكِ أدعى لتقبَّل النفس له، واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن في ضروب بيانه، ونواحي إعجازه[5]».

---

(1) رياض الأزهار وكنز الأسرار ص 77.

(2) من علوم القرآن ص 54 وانظر مجلّة كلِّيَّة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، مكَّة المكرَّمة، السنة الأولى 1393هـ/ 1394هـ العدد الأوَّل، مع القرآن في أمثاله محمود الشريف ص 93.

(3) الكشَّاف 1/ 262.

(4) مباحث في علوم القرآن ص 287.

(5) نفسه ص 281.

«والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصَّتهم»[1].

وضرب الأمثال فنٌّ من الأسلوب البيانيّ دقيق المسلك، بعيد الغور، شديد الأسر، سريع الإصابة، قويُّ الإهابة، هو لخاصَّة العقلاء دلالة، ولعقلاء الخاصّة نبالة، عبقريُّ الأساليب، وأسلوب لخطاب العبقريّين، يرتفع به الكلام إلى أوج البلاغة، وتسمو به البلاغة إلى ذروة الإعجاز، يقرِّب البعيد، ويدني الغريب، ويسهِّل الصعب، ويوضِّح المبهم، ويفسِّر المجمل، ويبيِّن الغامض، ويكشف عن الحقائق، ويجعل المعقول محسوساً، والأبيَّ ميسّراً ملموساً، والعصيَّ طيِّعاً مستجيباً يوجز كأنَّه في بيانه قد أطنب، ويومئ وكأنه في براعته قد أسهب، ويشير وهو أبين معبِّر، ويعبِّر وهو أخفى رامز، دلالته وحي، وتعبيره مفهم، ووحيه مفحم، حجته لنصاعتها تتبختر اتّضاحاً، والشبه أمامه تتضاءل افتضاحاً[2].

قال الحكيم الترمذيُّ: «ثمَّ اعلم بأنَّ ضرب الأمثال لمنْ غاب عن الأشياء؛ وخفيتْ عليه الأشياءُ؛ فالعبادُ يحتاجون إلى ضرب الأمثال كلّما خفيت عليهم الأشياء؛ فضرب اللّه لهم مثلاً من عند أنفسهم، لا من عند نفسه، ليُدْركُوا ما غاب عنهم، فأمَّا من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال - تعالى اللّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً -.

فلا جرم ما ضرب الأمثال من نفسه لنفسه؛ وكيف ولا مِثْلَ له، ولا شبيه له، فلذلك قال - جلّ ذكره - ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[3].

فالأمثال أنموذجات الحكمة لِمَا غاب عن الأسماع والأبصار، لتهتديَ النفوسَ بما أدركَتْ عياناً.

فمن تَدبير اللّه لعباده ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعْقلُوا بها، فيدركوا ما غابَ عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة؛ فمَنْ عقل الأمثال سمّاه

(1) التحرير والتنوير 1/ 302.
(2) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 102.
(3) النحل 74.

الله ـ تعالى ـ في كتابه عالماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]. فضرب الله الأمثالَ لنُفُوس العباد، حتى يُدركوا ما غاب عن أسماعهم وأبصارهم الظاهرة، بما عايَنُوا»[2].

وضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمورٌ كثيرة، التذكير، والوعظ، والحثّ، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويرهُ في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحسّ، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[3]. فامتنَّ علينا بذلك لَمّا تضمَّنت هذه الفوائد.

والأمثال مقادير الأفعال، والمتمثّل كالصانع الذي يقدّر صناعته، كالخيَّاط يُقَدّر الثوبَ على قامة المخيط، ثمَّ يفريه، ثمَّ يقطع، وكلَّ شيء له قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال.

وقال الخفاجيُّ[4]: سمِّي مثلاً لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبداً، أي شاخص، فيتأسَّى به ويتّعظ، ويخشى ويرجو، والشاخص المنتصب.

ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمَثَلُ أعوَنُ شيء على البيان[5].

وقد ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمثال وصرَّفها، قدراً وشرعاً ويقظةً ومناماً، ودلَّ عباده على الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشيء إلى نظيره،

---

(1) العنكبوت 43.

(2) الأمثال من الكتاب والسنَّة ص 11 ـ 13.

(3) إبراهيم 45.

(4) الخفاجيُّ هو: عبد الله بن محمَّد بن سعيد بن سنان أبو محمَّد الخفاجيّ، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعرِّي، وغيره له ديوان شعر، و«سر الفصاحة» توفي سنة 466هـ (الأعلام للزركلّي 4/ 266 ـ 267).

(5) البرهان في علوم القرآن 1/ 486 ـ 487.

واستدلالهم بالنظير على النظـير؛ لتقريـب المراد وتفـهيم المعنـى، وإيصالـه إلـى ذهـن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثـال الـذي مثَّـل بـه، فإنَّـه قـد يكـون أقـرب إلـى تعلُّقه وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره.

ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لمـا ضـرب لـها مثلـه مـن الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلَّما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنـى وضوحـاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكيِّة لـه، فـهي كـزرع أخـرج شـطأه فـآزره فاسـتغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصَّة العقل ولبّهُ وثمرته[1].

وهكذا فإنَّ للمثل في الكلام مكانة هامَّة نظراً لما له من وقع غريـب فـي الآذان، وتأثير عجيب في النفوس والقلوب؛ فهو يقرب المعاني إلـى الذهـن، ويعطـي السـامع الصورة المعبّرة بأقصر اللفظ وأحسنه[2].

والمثل القرآني يتميَّز بالدقَّة والواقعيَّة، ذلك أنَّ المتأمِّل في المثل القرآنيّ يلحـظ دقَّته الفريدة المؤثِّرة؛ لأنَّ المثل القرآنيَّ دائماً لا يمثِّل بـالغريب العجيـب، وإنمـا يتخـير المحسوسات الموجودة ويعرضها بأوصافـها، ثـمَّ يعرضـها فـي المثـال، لتكـون شـاهداً واضحاً على ما يريد؛ وهو لا يضع للممثَّل به وصفاً زائداً، أو ناقصاً، مـن أجـل أن تكون صورته صادقة ملموسة.

كما أنَّ الأمثال القرآنيَّة تستمدُّ عناصرهـا مـن الكـون والحياة والإنسـان، لتظـلَّ قريبة منه، أيّاً كان تعيش معه، وتؤثِّر فيـه؛ فكـانت ـ مـن أجـل ذلـك ـ روعـة التصويـر التي بدت فيها ضروريَّة لها، وهو يتَّخذ من الطبيعة ميداناً، يرسـم منـها صـورة، فمـن نباتها نجـد الحبَّـة التـي تنبـت سـبع سـنابل، ونجـد الشـجرة الطيِّبـة، والشـجرة الخبيثـة، والزرع الذي أخرج شطأه.

ذلـك أنَّ الأمثـال تؤثِّـر فـي المدعوِّيـن عـن طريـق ترغيبـهم بـالخير والثـواب، وترهيبهم من الشرِّ والعقاب، فذلـك أدعـى لأن يتفاعلوا مع واقع المثل المضروب،

(1) أعلام الموقّعين عن ربِّ العالمين 1/ 190.

(2) الأمثال والمثل والتمثّل والمثُلات في القرآن الكريم ص 21.

ويندفعوا في تقصِّي الحقائق فتستقرَّ في نفوسهم الاستجابة لتعاليم الدين الحقِّ، ويكون إيمانهم بحقيقة وجود الله راسخاً ثابتاً، وبما أنزل على عبده صادقاً مصدِّقاً[1].

«ومن المعلوم أنَّ نفع الكلام ما تجلت الحقائق، واهتدى به السامع إلى سواء السبيل، وأجلُّه في ذلك الأمثال»[2].

ولذلك دَعَا القرآن الكريم للوقوف على أمثاله ومعرفتها؛ لما فيها من حكم وعبر ومواعظ لا يعقلها إلاَّ العالمون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[3].

وقد ضرب الله الأمثال تبياناً وتوضيحاً للحقائق المقابلة لما يحمل من صور هذه الحقائق، وذلك أنَّ المثل يستحضر صوره من واقع الحياة الماضية أو الحاضرة التي سجَّلها التاريخ أو شهدها الناس ليكشف عن حقيقة واقعة أو متوقعة تشبه تلك الصورة التي حملها المثل وبهذا ينبِّه المثل الغافلين عن تلك الحقيقة، ويلفتهم إلى الآثار المشينة أو الحسنة التي وقعت بمن ضرب بهم المثل.

فإن كانت وقائع المثل سيِّئة حملهم العقل على اجتنابها وأخذ طريق غير طريق من ضرب عليهم المثل أو ضرب المثل بهم، وإن كانت وقائع المثل حسنة طيِّبة، دعاهم العقل إلى الأسوة والقدوة والمقدرة على الاتِّباع الصحيح بالمضروب بهم هذا المثل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]. وإنه بغير التذكُّر والتفكُّر والعقل والتدبُّر لا تحصل العبرة والعظة من الأمثال المضروبة.

والأمثال في مضامينها، هي إشارة موجزة إلى قصص الأمم السابقة، وما وقع للجماعات الإنسانيَّة على طول المسيرة على الأرض ولأفرادها من هدى أو ضلال، وما كان إليه مصير هؤلاء وهؤلاء.

---

(1) الأمثال والمثل والتمثُّل والمثلات في القرآن الكريم ص 48 ـ 51.
(2) تفسير المراغي 1/ 72.
(3) العنكبوت 43.
(4) الحشر 21.

فضرب الأمثال في القرآن آية من الآيات البليغة التي تقدِّم معرضاً عظيماً، يرتاده ذوي العقول للتذكُّر والوعظ والزجر والإعتبار، وكون المثل مضروباً من اللّه فهذا يعني صدق مضمونه وحادثته وسببه ونتيجته التي انتهت إليها، وأنَّهُ جاء ليمثِّل محاولة جادة لتقريب الحقائق للعقل، وتصويرها بصورها المحسوبة، وتشبيهاً بالخفيِّ والجليِّ منها، والغائب بالمشاهد[1].

«والتمثيل: أمثل أساليب البلاغة وأشدُّها تأثيراً في النفس وإقناعاً للعقل»[2].

وقد ذكر صاحب «دراسات قرآنيَّة» أنَّ للأمثال في ذاتها جاذبيَّة ليست لغيرها من أنواع التعبير، ذلك لأنَّ الناس تحبُّ المثل وتتأثَّر به، أكثر من الصور المباشرة في التعبير؛ لأن فيه جمالاً «فنيّاً» زائداً، فبدلاً من أن يُعرِض المعنى مباشرة، فإنه يُعرض معكوساً من خلال مرآة خاصَّة لا كالمرايا العاديَّة!

فالمرآة العاديَّة تعكس الشيء في نفس صورته بلا فرق، ولكن هذه المرآة ذات خصيصة غير عادية، فهي لا تعكس الشيء على صورته الأصليَّة، وإنما على صورة أخرى مشابهة ولكنها أبهى رونقاً وأكثر وضوحاً، وأشدُّ جاذبيَّة، ومن ثمَّ تُعين على تذوُّق المعنى الأصليِّ بعقد المقارنة بين الأصل والصورة، ثمَّ إنَّ هناك متاعاً فنِّياً ونفسيّاً في هذه العمليَّة ذاتها، عمليَّة عقد المقارنة بيِّن الأصل والصورة؛ ومن ثمَّ يتضاعف المعنى في الحسِّ حين يصبح أصلاً وصورة، كلُّ منهما قائم بذاته، ومتَّصل بالآخر في ذات الوقت، ويجد الإنسان متعة في تملِّي المعنى بخياله بدلاً من أن يتملاَّه بذهنه فحسب[3].

إنَّ الأمثال القرآنيَّة، ترقى إلى ذروة البلاغة في النسج، وذروة المعنى في الأداء، وهو لا يترك شأناً من الشؤون المتعلِّقة بالعقيدة إلاَّ ويبرزه بجلاء ووضوح.

---

(1) من علوم القرآن ص 155 ـ 156.

(2) تفسير المنار 1/ 167.

(3) دراسات قرآنية ص 169.

وقد تنزلت على قدر الطاقة البشريَّة، لتبرز رحمة اللّـه ـ سبحانه ـ بعباده، فهو يضرب لهم المثل لكي يقرِّب إلى أذهانهم المعاني الصعبة فيدركوها، وبذلك يهديهم إلى طريق الدين الحقّ فيتَّبعونه.

ولما كانت أمثال القرآن الكريم على هذا القدر الكبير من الروعة والعظمة والفائدة، فقد راع الكافرين، والمعاندين والمكذِّبين هذا النمط من الأسلوب القرآني، فعمدوا إلى التشكيك فيه، مستنكرين أن يضرب اللّه الأمثال، وزاعمين أنَّ اللّه أعلى وأجلُّ من ذلك، ثمَّ غالوا في استنكارهم وتساءلوا متعجِّبين بأنَّ اللّه عظيم ولن يتضمَّن كلامه إلا عظيماً، فجاءهم الجواب الذي يدحض كذبهم ودعواهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1].

والحقيقة أنَّه لا مجال لأيِّ استنكار أو استغراب، إذا كان المراد من المثل والتمثيل كشف المعنى وبيان الغرض المطلوب، ولو جاء التدليل بأضعف المخلوقات أو بأحقر الجمادات[2].

إنَّ القرآن الكريم دقيق في اختيار ألفاظه ومعانيه، إذ يضع اللفظ المناسب في محلِّه الأليق به، الأقوى دلالة على المعنى المراد، كما في المثل الذي ضربه للمنافقين، بمستوقد النار، في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾[3].

فجاء التعبير بلفظ (استوقد) دون (أوقد) وذلك كما قيل: أبلغ في تصوير المثل، ليدلَّ على حقيقة حال الممثّل له، فليس معنى (استوقد) رديفاً لمعنى (أوقد) متَّحداً معه في المعنى، وإنَّما معنى: استوقد أوسع وأدقُّ في دلالته على المعنى المقصود، الذي وضع في مكانه ليدلَّ عليه؛ لأنَّ (استوقد) يُشعر بالإعداد والأهمِّيَّة وقوَّة الإيقاد ممَّا ينشأ عنه عموم الإضاءة من سائر الجوانب، وعلماء اللغة يقولون: إنَّ

(1) البقرة 26.
(2) الأمثال والمثل والتمثُّل والمثُلات في القرآن الكريم ص 51 ـ 54.
(3) نفسها 17.

زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وهذا لازم في القرآن مطَّرِد، فلن تكون فيه كلمة بلغت في البناء منتهى صيغتها مساوية في أداء المعنى لكلِّمة أخرى من مادَّتها لم تقع فيه وقصَّرت في بنائها عن صيغة أختها على أنَّ حذاق العلماء يرون أنَّ الترادف مطلقاً معدوم في القرآن[1].

إنَّ التناسق بيِّن الصورتين والدقَّة في إحكام كلٍّ منهما، حيث التطابق بين الأجزاء، وإنَّ المغزى واحد، كما أنَّ النهاية واحدة، تضع الصورة على غاية من الدقَّة والقوَّة.

وإنَّ الصور لتزداد تناسقاً بحسن العرض، وجمال الأسلوب اللذَين تصاغ بهما كالحوار بقُلْ، وضرب الأمثلة بالمقايسة، وحسن النسق بين أجزاء الآية مع تعقيب يرتبط عضوياً بالمعنى العامّ للآية.

إنَّ قوة التناسق بين الصور التي يعمد إليها القرآن تتناول تفصيلاً في إحدى الصورتين وإيجازاً مستوفياً لأبعاد الصور في الصورة الأولى[2].

يتبيَّن لنا مما سبق أنَّ الأمثال القرآنية تتصرَّف في غاية الروعة والبيان، بصور شتَّى وطرائق مختلفة، محقِّقة بذلك جملة من مقاصد القرآن الكريم[3].

وأنَّ الأمثال القرآنيَّة لا تكرار فيها، ولا بينها، وإنَّما هو التصريف البديع، والتنويع العجيب، الذي يجلِّي الحقائق الخفيَّة فيجعلها ظاهرة جليَّة، وذلك بتقريبها إلى الأذهان في أبلغ صورة، وأدلِّ عبارة على المعنى المقصود، مبرزة المعقولات الخفيَّة في معرض المحسوسات الجليَّة.

وأنَّها في غاية البلاغة والإيضاح، فهي تبرز خفيَّات المعاني وتكشفها وتَبين الحقائق، فهي فنٌّ من الأسلوب البيانِّي دقيق المسلك، يرتفع به الكلام إلى أوج البلاغة، وتسمو به البلاغة إلى ذروة الإعجاز.

---

(1) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 177.
(2) الإعجاز الفَنّيّ في القرآن ص 199 ـ 200.
(3) سيأتي بيانها في المبحث اللاحق.

فضرب الأمثال آية من الآيات البليغة في القرآن الكريم، تزيد النفوس تمسُّكاً بالدين الإسلاميِّ، وتحثُّ على اتّباع أوامره واجتناب نواهيه، بالترغيب في الخير والثواب تارة، والترهيب من الشرِّ والعقاب تارة أخرى.

فهي عمدة الداعي إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعينه على تحقيق مهمَّته وتنير الطريق أمامه، وتقرِّب البعيد، وتسهِّل الصعب.

كما أنَّها تنير الطريق أمام المؤمنين جميعاً، وتسهِّل على المربين مهمَّتهم في التربِّية والتعليم، وذلك لتأثيرها العميق في القلوب.

وأنَّها توضِّح المبهم، وتفسِّر المجمل، وتبين الغامض، وتكشف الحقائق، وتتميَّز بالدقَّة والواقعيَّة، والتناسق بين الصور، واختيار الألفاظ المعبرة عن معانيها أدقَّ تعبير.

المبحث الثاني
مقاصد تصريف الأمثال القرآنية

تتصرَّف الأمثال في القرآن الكريم بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، محقِّقَةً بذلك مقاصده السامية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[2].

قال عزُّ الدين بن عبد السلام: «ضرب الأمثال في القرآن حثٌّ على الطاعات وزجر عن المخالفات، ولا تنفكُّ الأمثال من وعد أو وعيد، أو مدح أو ذمٍّ، أو لوم أو توبيخ»[3].

وقال أيضا: «الأمثال وهي مؤكِّدة للأحكام ترغيباً وترهيباً، أو تقبيحاً أو تحسيناً»[4].

فالأمثال في القرآن الكريم لون من ألوان الهداية الإلهيَّة تغري النفوس بالخير وتحضّها على البرِّ، وتمنعها عن إتيان الإثم والمعصية، وتدفعها إلى الفضيلة دفعاً، والامتناع عن النقيصة، مقدِّمة لها الوقائع والأحداث والعبر والعظات بآيات ذات أدلَّة حسيَّة، وأخرى ذات مضامين عقليَّة، بما يهدي للتي هي أقوم.

وقد تناولت الأمثال في القرآن الكريم مجالات شتَّى، فمثَّلت الإيمان والكفر، وفضحت النفاق والرياء، ونددَّت بالشرّ الباطل، وصوَّرت الطيِّب والخبيث، وحضَّت على البرِّ والتقوى، وأبرزت الصالح والطالح، وأبرزت

---

(1) الإسراء 89.

(2) الكهف 54.

(3) الإشارة إلى الإيجاز ص 213.

(4) نفسه ص 217.

المعقول في صورة مجسَّمة، وألبست المعنويَّ ثوب المحسوس، لتهذِّب بذلك طبائع الناس، وتخفِّف من غلواء النفوس، ولتضع الإنسان أمام المصير الذي يختاره بنفسه وبملء إرادته.

لذلك كلِّه صرَّف القرآن الأمثال في كلِّ مراحله حين كان يواجه الكفار والمعاندين والمكذِّبين من قريش ومن والاهم، ويلقي إليهم بالمثل البليغ فاستنكروا أن يضرب اللّه الأمثال[1].

وقد أكثر القرآن الكريم[2] من تصريف أمثاله، ليحقِّق بذلك - كما قلنا - مقاصده العظيمة. منوِّعاً تلك المقاصد تنويعاً عجيباً، موزِّعاً إيَّاها على كتابه العزيز، حسب أسبابها وسياقها.

كما أنَّ المثل الواحد قد يكون له أكثر من مقصد، تلك هي بلاغة القرآن العالية وبيانه الرفيع المعجز.

ولذا فإنَّه من الصعب في هذه الدراسة الإلمام الشامل بالأمثال القرآنيَّة ومقاصدها، وإنَّما سأكتفي بذكر بعضها، مغلِّباً ما اشتهر من تلك المقاصد، بمعنى أنَّني لا أذكر للمثل الواحد إلا مقصداً واحداً اشتهر به عند البلاغيِّين والمفسِّرين الذين اعتمدت عليهم في هذه الدراسة.

المقصد الأوَّل: الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك والوثنيّة:

نجد أنَّ من مقاصد الأمثال القرآنيّة: الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك والوثنيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ

---

(1) من علوم القرآن ص 152 - 154، والأمثال والمثل والتمثّل والمثُلات في القرآن الكريم ص 39.

(2) قال ابن قيِّم الجوزيَّة: «في القرآن الكريم ثلاثة وأربعون مثلاً» (كتاب الأمثال في القرآن ص 57، وقال بديع الزمان النورسيّ: «ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف» إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز ص 141.

﴿ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

مثّل في هذه الآية الكريمة الذين يدعون من دون اللّه ما لا ينفع ولا يضرُّ بالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران.

وذلك ما ذهب إليه أبو حيَّان، إذ قال: «مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه، فيصبح وقد ألقته في مهمه ومهلكة، فهو حائر في تلك المهامه»[2].

وقال ابن كثير: «يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضلَّ الطريق، فحيَّرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم، يقولون ائتنا فإنَّا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمَّد ـ ﷺ ـ ومحمَّد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام.

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية هذا مثل ضربَه اللّه للآلهة ومن يدعوا إليها، والدعاة الذين يدعون إلى هدى اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ كمثل رجل ضلَّ عن طريق تائهاً إذ ناداه منادٍ يا فلان بن فلان هلمَّ إلى الطريق»[3].

وقد يرد المثل القرآنيُّ بقصد إثبات التوحيد والنهي عن الشرك باللّه كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ

---

(1) الأنعام 71.

(2) البحر المحيط 4/ 161.

(3) تفسير ابن كثير 2/ 177 ـ 178.

أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ذهب الزمخشريُّ: إلى أنَّ قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تمثيل للإشراك باللّه والتشبيه به؛ لأنَّ من يضرب الأمثال مشبِّهاً حالاً بحال وقصة بقصة وجوَّز بأن يراد بلا تضربوا للّه الأمثال: إن اللّه يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون، ثمَّ علَّمهم كيف تضرب، فقال: مثلكم في إشراككم باللّه الأوثان، مثل من سوَّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرُّف وبين حرٍّ مالك قد رزقه اللّه مالا فهو يتصرَّف فيه وينفق منه كيف شاء[2].

وتعقَّبه أحمد بن المنير: «فعلى تفسيره الأوَّل قوله للّه متعلِّقاً بالأمثال كأنَّه قيل: فلا تمثلوا للّه ولا تشبِّهوه، وعلى الثاني يكون متعلِّقاً بالفعل الذي هو تضربوا كأنه قيل: فلا تمثِّلوا للّه الأمثال، فإنَّ ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ليبيِّن له ما خفي عنه - واللّه - تعالى - هو العالم وأنتم لا تعملون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة - واللّه أعلم -»[3].

وذهب ابن قتيبة إلى أنَّ هذا مثل ضربه اللّه لنفسه ولمن عُبِد دُونه، فهذا مثل من جُعِلَ إلهاً دونه أو معه؛ لأنُّه عاجز مُدَبَّرٌ، مملوك لا يقدر على نفع ولا ضرٍّ.

واللّه - سبحانه وتعالى - هو الواسع الجواد القادر، الرزّاق عِباده جهراً من حيث يعلمون، وسرَّاً من حيث لا يعلمون.

ونقل عن بعض المفسِّرين، أنَّ هذا «مثل للمؤمن والكافر» فالعبد هو الكافر، والمرزوق هو المؤمن.

ورجَّح التفسير الأوَّل؛ لأنَّه أعجب عنده، معلِّلاً أنَّ المثل توسَّط كلامين، هما للّه - تعالى -[4].

---

(1) النحل 73 - 76.

(2) الكشّاف 2/ 420.

(3) نفسه.

(4) تأويل مشكلٌ القرآن ص 384 - 385.

ووجَّه الألوسيّ أنَّ قوله: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، والفاء للدلالة على ترتيب النهي على ما عدَّد من النعم الفائضة عليهم منه ـ تعالى ـ وكون آلهتهم بمعزل من أن يملكوا لهم رزقاً فضلاً عما فضل. . . فكأنه قيل: فلا تجعلوا للّه ـ تعالى ـ الأمثال والأكفاء.

والمراد من ضرب المثل للّه ـ سبحانه ـ الإشراك والتشبيه به ـ جلّ وعلا ـ من باب الاستعارة التمثيليّة.

ونقل عن الزمخشريّ وغيره جواز أن يكون المراد النهي عن ضرب الأمثال للّه ـ سبحانه ـ حقيقة، والمعنى فلا تضربوا للّه ـ تعالى ـ الأمثال التي يضربُها بعضكم لبعض.

ووجه الربِّط بيَّن الآيتين: أنَّ النهي عن الإشراك أنَّه ـ سبحانه ـ لما نهاهم عن ضرب المثل الفعليّ وهو الإشراك عقبه بالكشف لذي البصيرة عن فساد ما ارتكبوه[1].

وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾[2] مثل ثان ضربه اللّه لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينيَّة والدنيويَّة وللأصنام التي هي أموات لا تضرُّ ولا تنفع[3].

وقد نزَّهت الأمثال القرآنيَّة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عن الولد، في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4].

قال الرازيُّ: «والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهي احتياجهم إلى الولد وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي الصفة العالية

---

(1) روح المعاني 14/ 193 ـ 194.

(2) النحل 76.

(3) الكشاف 2/ 421.

(4) النحل 60.

المقدَّسة، وهو كونه ـ تعالى ـ منزَّهاً عن الولد، مع قوله: ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ قلنا: المثل الذي يذكره اللّه حقٌّ وصدق، والذي يذكره غيره فهو الباطل»[1].

ووافقه أبو السعود: «إذ قال: «﴿ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ صفة السوء الذي هو كالمثل في القبح وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وإيثار الذكور للاستظهار بهم»[2].

وتبعهم الألوسيُّ في ذلك[3].

وقال ابن عطيَّة: «قالت فرقة ﴿ مَثَلُ ﴾ في هذه الآية بمعنى صفة، أي لهؤلاء صفة السوء ولله الوصف الأعلى.

وهذا لا يضطرُّ إليه؛ لأنُّه خروج عن اللفظ بل قوله ﴿ مَثَلُ ﴾ على بابه، وذلك أنَّه إذا قالوا: إنَّ البنات لله فقد جعلوا له مثلاً أبا البنات من البشر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو مثل السوء الذي أخبرَ اللّه ـ تعالى ـ أنَّه لهم ليس من البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كلِّ شيء، ولا غاية أبعد من عذاب النار.

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ على الإطلاق أيضاً في الكمال المستغنى، وقال قتادة: ﴿ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ لا إله إلا اللّه»[4].

وكيفما كان المراد الصفة على ما رآه بعض المفسِّرين، أو أنَّ المثل على بابه كما رآه ابن عطيَّة، فالمقصود ـ واللّه أعلم ـ تنزيه المولى ـ سبحانه وتعالى عن الولد ـ تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيراً ـ.

وقد بيَّنت جزاء الشرك باللّه ـ تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾[5].

---

(1) تفسيره 20/ 58.

(2) تفسيره 2/ 122.

(3) روح المعاني 14/ 170.

(4) المحرر الوجيز 3/ 402.

(5) الحج 31.

جاء هذا المثل في سياق النهي عن اجتناب رجس الأوثان واجتناب قول الزور، وطلب الميل إلى الدين الحقِّ، مخلصين للّه ـ تعالى ـ.

ولذلك مثَّلت الآية الكريمة الذي يشرك باللّه ـ تعالى ـ بالذي يسقط من السماء فتخطَفُهُ الطير أو تقذفه الريح إلى مكان بعيد، وفي هذا التمثيل صورة بليغة تكشف جزاء الإشراك باللّه ـ تعالى ـ.

قال صاحب «الكشّاف»: «فإن كان تشبيهاً مركَّباً فكأنَّه قال: من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفتْهُ الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح[1] بعيدة، وإن كان مفرَّقاً فقد شبَّه الإيمان في علوِّه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك باللّه بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزَّع أفكاره بالطير المختطِفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة»[2].

وقال أحمد بن المنير: «أمَّا على تقدير أن يكون مفرَّقاً فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين: إمَّا أن يكون الإشراك المراد ردَّته، فإنَّه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه، ثمَّ هبط بإرادته، وإمّا أن يكون الإشراك أمليّاً فيكون قد عدَّ تمكُّنَ المشرك من الإيمان ومن العلوِّ به، ثمَّ عدوله عنه اختياراً بمنزلة من علا إلى السماء ثمَّ هبط»[3].

وقال الألوسيُّ: «وهي جملة مبتدأة مؤكِّدة لما قبلها من الاجتناب من الإشراك وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الإشراك، وقد شبَّه الإيمان بالسماء لعلوِّه، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر»[4].

---

(1) المَطَاوِحُ: المهالك والمقاذِف (الصحاح للجوهري 1/ 389 مادة طيح).

(2) الكشاف 3/ 12 ـ 13.

(3) الكشاف 3/ 13.

(4) روح المعاني 17/ 149.

وبصدد إثبات التوحيد ونفي الشرك، بيَّنت الأمثال القرآنيَّة هوان الأوثان وضعفها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[1].

يصوِّر هذا المثل هوان الأوثان وضعفها تصويراً بليغاً، مبيِّناً حقيقتها، وفيه من التحدِّي الدالِّ على ضعفها وعدم مقدرتها على الخلق ما لا يخفى، وهو كما قيل: «من أبلغ ما أنزله اللّه في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أنَّ الشيطان قد خزمهم[2] بخزائمه حيث وصفوا بالألوهيّه التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلِّها الإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقلِّ ما خلقه اللّه وأذلِّه وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا، وأدلّ من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم، أن هذا الخلق الأقلَّ الأذلَّ لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا»[3].

وقال ابن عطيَّة: «بدأ - تعالى - بنفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصَّة به، فكأنّه قال ليس لهم صفتي، ثمَّ ثنَّى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز»[4].

وقال أبو السعود: «أي بيِّن لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائعة حقيقة بأنْ تسمَّى مثلاً وتسير في الأمصار والأعصار، أو جعل للّه مثلاً، أي مثلاً في استحقاق العبادة وأريد بذلك ما حكى عنهم من عبادتهم للأصنام ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ أي:

---

(1) الحج 73.

(2) يعني: ربطهم الشيطان بحباله، دلالة على اتّباعهم له، وتحكُّمه فيهم، قال الجوهريُّ: «الخزم - بالتحريك - شجر يُتخذ من لحائه الحبال، وخَزَمْتُ البعير بالخزامَة، وهي حلقة من شعر تُجعل في وترة أنفه يُشدُّ فيها الزمامُ (الصحاح 5/ 1910 مادة: خزم).

(3) الكشّاف 2/ 23.

(4) المحرر الوجيز 4/ 134.

للمثل نَفْسه استماع تدبُّر وتفكُّر، أو فاستمعوا لأجله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ بيان للمثل وتفسير له على الأوَّل وتعليل لبطلان جعلهم الأصنام مثل الله ـ سبحانه ـ في استحقاق العبادة على الثاني»[1].

وقد أبطلت الأمثال القرآنيَّة الشرك والوثنيَّة، وأثبتت التوحيد للّه ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2].

ففي هذه الآيات الكريمة مثَّل الكافرين في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون اللّه، ويعتمدون عليها، ويرجون شفاعتها ونفعها، بالعنكبوت في اتّخاذها بيتاً واهياً من نسجها لا يغني عنها في حرٍّ ولا قرٍّ[3]؛ ليكشف لهم حقيقة هذه الأصنام، وبطلان عبادتها عن طريق التصوير البليغ لحالة هذه الأصنام بتمثيلها ببيت العنكبوت الواهي؛ وليثبت بذلك التوحيد الخالص له ـ سبحانه وتعالى ـ واستحقاقه للعبادة وحده؛ لأنَّه المتَّصف بالصفات الجليلة، وذلك بيِّن لمن تأمَّل هذه الأمثال وتدبَّرها.

قال الرازيُّ: «لما بيَّن الله ـ تعالى ـ أنَّه أهلك من أشرك عاجلاً وعذَّب من كذَّب آجلاً، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لا يجير آوياً ولا يريح ثاوياً»[4].

وقد أشار صاحب «الكشّاف» إلى أنَّ الغرض تشبيه ما اتَّخذوه متَّكلاً ومعتمداً في دينهم وتولَّوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوَّة، وهو نسج

(1) تفسيره 6/ 120.

(2) العنكبوت 41 ـ 43.

(3) القرآن والصورة البيانيَّة ص 53. وانظر البيان في ضوء أساليب القرآن ص 76، وقرَّ اليوم قرّاً بَرَدَ والاسم القُرُّ ـ بالضمّ ـ فهو قَرٌّ، تسمية بالمصدر، وقارّ: على الأصل، أي بارد (المصباح المنير ص 257 مادة قرر).

(4) تفسيره 25/ 68.

العنكبوت؛ وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبيَّن أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون.

ولقائل يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخَّذ بيتاً.

وكما أنَّ أوهن البيوت إذا استقْريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ توكيد للمثل وزيادة عليه، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً، قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيه تجهيل لهم، حيث عبدوا ما ليس بشيء؛ لأنَّه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً، وتركوا عبادة القادر القاهر على كلّ شيء الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلاّ بحكمة وتدبير.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: لا يعقل صحَّتها وحسنها وفائدتها إلاّ هم؛ لأنَّ الأمثال والتشبيهات إنَّما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار، حتى تبرزها وتكشف عنها، وتصورها للأفهام كما صوَّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحِّد، وعن النبيِّ - ﷺ - أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته، واجتنب سخطه»[1].

وقد اعتبر ابن قيِّم الجوزيَّة هذا المثل من أحسن الأمثال وأدلِّها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه، وحصوله على ضدِّ مقصوده[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

(1) الكشاف 3/ 206 - 207.
(2) أعلام الموقِّعين 1/ 155.
(3) الروم 28.

ففي الآية الكريمة ضربَ لهم مثلاً من أنفسهم، وذلك بمملوكيهم الّذين لا يرضون بمشاركتهم فيما رزقهم الله؛ ليكشف لهم بطلان عقيدتهم، ويظهر التوحيد الخالص له وحده، وفي ضمنها توبيخ المشركين[1].

قال الزمخشريُّ: «لأنَّ التمثيل مما يكشف المعاني ويوضِّحها؛ لأنَّه بمنزلة التصوير والتشكيل لها، أترى كيف صوّر الشرك بالصورة المشوَّهة؟»[2].

وقال الرازيُّ: «لما بيَّن الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بيَّن الوحدانيَّة أيضاً بالمثل بعد الدليل، ومعناه أن يكون له مملوك ولا يكون شريكاً له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيِّده، فكيف يكون عباد الله شركاء له، وكيف يجوز أن يكون له عظمة مثل عظمة الله ـ تعالى ـ حتى يعبدوا، ينبغي أن يكون بين المثل والممثَّل به مشابهة ما»[3].

وقال الألوسيُّ: «يتبيَّن به بطلان الشرك ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم، وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولويَّة»[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5].

«فهذا المثل يوضّح الفارق الكبير بين من يعبد اللّه وبين من يعبد أرباباً سواه، وهو مثل يصوِّر حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك بأوضح بيان، إنَّه مثل العبد المملوك الذي يملكه شركاء متخاصمون، وهو بينهم حائر لا يستقرُّ على نهج، ولا يستقرُّ على

(1) الإشارة إلى الإيجاز ص 214.

(2) الكشاف 3/ 222.

(3) تفسيره 25/ 119.

(4) روح المعاني 21/ 37.

(5) الزمر 29.

طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتعارضة، والعبد الذي يملكه سيِّد واحد يسيِّره على نهج واحد فهو مستقرٌّ مستريح»[1].

قال الرازيُّ: «وهذا مثل في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد»[2].

قال الألوسيُّ: « ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ إنكاراً واستبعاداً لإستوائهما، ونفياً له على أبلغ وجه وآكده، وإيذاناً بأنَّ ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوَّه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أنَّ أحدهما في لوم وعناد والآخر في راحة بال ورضاء»[3].

وقد بيَّنت الأمثال القرآنيَّة الفرق بين التوحيد والشرك، في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٌ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ۝٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[4].

فرَّق في هذه الآيات بين التوحيد والشرك وصوَّرهما تصويراً رائعاً، إذ مثَّل كلمة التوحيد بالشجرة الطيِّبة ذات الأصل الثابت، وفرعها في السماء تعطي أكلها في كل وقت بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومثَّل كلمة الشرك بالشجرة الخبيثة التي قطعت من فوق الأرض ولم يبق لها أثر.

وذلك ما أشار إليه عزُّ الدين بن عبد السلام إذ قال: «شبَّه كلمة الكفر بالشجرة الخبيثة تنفيراً منها وذمّاً لها، وشبَّه كلمة الإيمان بالشجرة الطيِّبة حثّاً عليها ومدحاً لها»[5].

---

(1) إيجاز البيان ص 161. قال ابن قتيبة: »هذا مثل ضربه الله لمن جعل له شركاء من خلقه« (تأويل مشكل القرآن ص 382).

(2) تفسيره 26/ 276.

(3) روح المعاني 23/ 262.

(4) إبراهيم 24 ـ 27.

(5) الإشارة إلى الإيجاز ص 213.

وقال الحكيم الترمذيُّ: «ومَثَلُ كلمة طيّبة كشجرة طيّبة، وهي كلمةُ الشهادة، طابَتْ واستنارت، وتفرَّعت بالأعمال الصّالحة، وكلمة الشرك كشجرة خبيثة، وهي الحنظلة، ليس لها قرار ولا قائمة، فهي ساقطة بالأرض»[1].

وقال الرازيُّ: «معرفة الله ـ تعالى ـ والاستغراق في محبَّته وفي خدمته وطاعته تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع؛ إنما مثَّل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمان بالشجرة؛ لأن الشجرة لا تستحقُّ أن تسمَّى شجرة إلاّ بثلاثة أشياء عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية، كذلك الإيمان لا يتمُّ إلاّ بثلاثة أشياء، معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبْدان.

فاعلم أنْ الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله، فإنَّه أوَّل الآفات وعنوان المخالفات ورأس الشقاوات»[2].

وذكر الألوسيُّ: أنّ المراد بالكلمة الطيِّبة «شهادة أن لا إله إلاّ الله» على ما أخرجه البيهقي[3] وغيره عن ابن عبَّاس، وعن الأصمِّ أنَّها القرآن، وعن ابن بحر دعوة الإسلام، وقيل: التسبيح والتنزيه، وقيل الثناء على الله ـ تعالى ـ مطلقاً، وقيل: كلُّ كلمة حسنة، وقيل: جميع الطاعات، وقيل: المؤمن نفسه.

وفسَّر: الكلمة الخبيثة: بكلمة الكفر أو الدعاء إليه أو الكذب، أو كلِّ كلمة لا يرضاها الله ـ تعالى ـ[4].

وهكذا فإنَّ من أساليب القرآن الكريم التقابل بين الإيمان والكفر وعواقبهما، والفضيلة والرذيلة، والخير والشرِّ، والحقِّ والباطل، والآخرة الباقية والدنيا الفانية.

وذلك لتنبيه الذهن إلى فضائل الأولى فيلتزم بها المؤمن من تلقاء نفسه، ويعرض عن الأخرى وهو قانع بشرِّها وسوئها.

---

(1) الأمثال من الكتاب والسنَّة ص 23.

(2) تفسيره 19/ 119 ـ 123.

(3) في كتاب الأسماء والصفات ص 108 ـ 109 وهو أيضاً في تنوير المقباس من تفسير ابن عبَّاس ص213 وأورده السيوطي في الدُّرّ المنثور في التفسير بالمأثور 4/ 75.

(4) روح المعاني 13/ 213 ـ 214.

والشجرة الخبيثة قد تكون كذلك بسبب ريحها وطعمها وصورتها في مقابل الشجرة الطيِّبة، بسبب ريحها وطعمها وصورتها، وقد استؤصلتْ كلُّها فلم يبق لها أصل ولا فرع، فهي مقابل الشجرة الطيِّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إنَّه تناسق في الصورة الجزئية وتقابل في المشهد الكلِّي يوحي بالأبعاد المتوازنة التي تستقرُّ جمالياتها في الوجدان والإدراك.

إنَّ التقابل بين هذين المثلين منسَّق الألفاظ والمعاني، فقابل الطيِّب نباته بإذن ربه، بالخبيث النكد، والأصل الدائم بالذي قطع من فوق الأرض.

إنَّه الأسلوب البديع الذي يبرز تصريف القرآن وبراعته في ذلك[1].

وبصدد إثبات التوحيد، ذمَّت الأمثال القرآنية الكفر وقبّحته في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2].

ذهب ابن الزبير إلى أنَّه مثّل حال الكافرين فيها بحال الغنم، في كونها يُصاح بها، وتُنادى فلا تفهم عن راعيها، ولا تسمع إلاّ صوتاً لا تعقل معناه، ولا تفهم ما يراد به؛ كذلك الكفَّار في خطاب الرسل إيَّاهم، يُجيبُونهم ولا يعقلون ما يراد بهم[3].

وأشار أبو السعود إلى أنَّه مثل الّذين كفروا ـ فيما ذكر ـ من انهماكهم فيما هم فيه وعدم التدبُّر فيما ألقى إليهم من الآيات كمثل بهائم الذي ينعق بها وهي لا تسمع منه إلاّ جرس النغمة ودويَّ الصوت، وقيل: المراد تمثيلهم في اتّباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته، وقيل: تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو تصويته على البهائم[4].

(1) انظر الظاهرة الجماليَّة في القرآن ص357ـ 359.
(2) البقرة 171.
(3) ملاك التأويل 1/ 35.
(4) تفسيره 1/ 190.

يستفاد مما سبق أنَّ في هذا المثـل بياناً لحـال الكفّـار، وذمّاً للكفـر وتقبيحاً لـه؛ وذلك بتصويره بأبلغ صورة وأبشعها، من أجل كشف حقيقته، والتنفير منه.

وقد بيَّنت الأمثال القرآنيَّة، قـدرة الله على الخلـق والإبـداع فـي قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

بيَّن هذا المثل قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذ قاس خلـق عيسى على خلق آدم ـ عليهما السلام ـ تقريباً للأذهان وإظـهاراً لدلائـل القـدرة الإلهيـة التـي تقـول للشـيء كن فيكون.

وهكذا فقد تضمّن هذا المثل حجّة قياسية، وفي هذه الحجـة ردّ علـى النصـارى الّذين ادّعوا أن عيسى ـ عليه السلام ـ هو الله، أو ابن الله، أو هـو ثـالث ثلاثـة، علـى اختلاف مذاهبهم في ذلكَ وكانت شبهتهم في ذلك أنه وُلـد مـن أمٍّ بـلا أب، وأنـه قـد كان معجزته إحياء الموتى، فقال قائلون منـهم: إذن هـو ابـن اللـه، وغلَـوا فـي عيسـى غُلواً كبيراً، مع أنَّه ـ عليه السلام ـ لا يزيدُ على أنَّه عبد الله ورسوله، وقـد جعلـه اللـه آية للناس، إذ خلقه من أمٍّ بلا أب، وآتاه من المعجزات وخوارق العادات ما يشـهد لـه بصدق دعواه[2].

ويعلِّل ابن أبي الإصبع سبب العدول في تصريـف هـذه الآيـة عـن الطـين الـذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه إلى ذكر مجرد الـتراب؛ لأنـه أدنى العنصرين وأكثفهما لَمّا كان المقصود مقابلة من ادَّعى في المسيح الألوهية بما يصغّر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظة التراب أمتن بالمعنى مـن غيرهـا من العناصر، ولو كان موضعه غيره لكـان اللفـظ غـير مؤتلـف بـالمعنى المقصـود، ولمـا أراد ـ سبحانه ـ الامتنان على بني إسرائيل بعيسى ـ عليه السـلام ـ أخـبر عنـه أنـه يخلـق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه إذ كان المعنى المطلـوب الاعتـداد عليهم بخلقه ليعظِّموا قدر النعمة به[3].

---

(1) آل عمران 59.
(2) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ص 26.
(3) تحرير التحبير ص 194.

يتبيَّن من العرض السابق أنَّ الأمثال القرآنيَّة تتصرَّف بقصد إثبات التوحيد الخالص لله وحده، ونفي الشرك والوثنيَّة.

المقصد الثاني: إثبات البعث والجزاء:

نجد أنَّ من مقاصد الأمثال إثبات البعث والجزاء كما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

فقد بيَّنت هذه الآية دلائل البعث والجزاء، «ولم يكن هدف القرآن من إيراد قصَّة ذلك الإنسان المؤمن الإخبار لما حدث لفرد من الناس، وإنَّما ليكون هذا الإنسان آيةً وشاهداً لكلِّ إنسان مثله، في كلِّ زمان ومكان يعتبر بمثَله، ويؤمن بأنَّ البعث بعد الموت هو حقيقة ثابتة، كثبوت القرآن في واقعه الحسِّيِّ، وبين ظهراني الناس»[2].

وقد بينت الأمثال حقيقة البعث والجزاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[5].

---

(1) البقرة 259.

(2) الأمثال والمثل والتمثّل والمثُلات في القرآن الكريم ص 145.

(3) الروم 27.

(4) نفسها 58.

(5) يس 77 ـ 83.

قال الألوسيُّ: «والمعنى ففاجأ خصومتنا وضربّ لنا مثلاً أي، أورد في شأننا قصَّة عجيبة في نفس الأمر، هي في الغرابة كالمثل، وهي إنكار إحيائنا العظام، أو قصة عجيبة في زعمه واستبعاده، وعدَّها من قبيل المثل، وأنكرها أشدَّ الإنكار، وهي إحياؤنا إيَّاها أو جعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق، وقاس قدرتنا على قدرتهم، ونفي الكلَّ على العموم، وقوله ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي خلقنا إيَّاه على الوجه المذكور الدّالِّ على بطلان ما ضربه»[1].

وقد بيَّنت الأمثال صفات الجنَّة وجزاء المتَّقين في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[2].

قال الرازيُّ: «إنَّ الله ـ تعالى ـ وصف الجنّة بصفات ثلاث: أولها: تجري من تحتها الأنهار، وثانيها: أنَّ أكلها دائم، والمعنى أنَّ جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها.

أمَّا جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة، وثالثها: أنَّ ظلَّها دائم أيضاً، والمراد أنه ليس هناك حرٌّ ولا برد، ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة.

ثمَّ إنَّه ـ تعالى ـ لما وصف الجنَّة بهذه الصفات الثلاث بيّن أن ذلك عقبى الّذين اتَّقوا، يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنَّة، وعاقبة الكافرين النار، وحاصل الكلام من هذه الآية أنَّ ثواب المتّقين منافع خالصة، من الشوائب موصوفة بصفة الدوام»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[4].

---

(1) روح المعاني 23/ 54.
(2) الرعد 35.
(3) تفسير الرازي 19/ 60.
(4) محمد 15.

«استئناف مسوق لشرح محاسن الجنَّة الموعودة آنفاً للمؤمنين وبيان كيفيَّة أنهارها التي أشير إلى جريانها من تحتها، وعبَّر عنهم بالمتقين إيذاناً بأنَّ الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات وترك السيِّئات»[1].

وبيَّنت جزاء السابقين إلى الإيمان في قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

قال الرازيُّ: «الكاف للتشبيه، والمثل حقيقة فيه، فلو قال أمثال اللؤلؤ المكنون لم يكن إلى الكاف حاجة، فما وجه الجمع بين كلمتي التشبيه؟ نقول الجواب المشهور أنَّ كلمتي التشبيه يفيدان التأكيد والزيادة في التشبيه»[3].

المقصد الثالث: إثبات النبوّة والرسالة:

بيَّنت الأمثال القرآنيَّة تنزيه القرآن من جهة ما وقع فيه من الأمثال، وامتحاناً للعباد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[4].

أشار الرازيُّ إلى أنَّه ـ تعالى ـ لما بيَّن بالدليل كون القرآن معجزاً أورد شبهة أوردها الكفَّار قدحاً في ذلك، وأجاب عنها، وتقرير الشبهة أنَّه جاء في القرآن ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً،

---

(1) روح المعاني 26/ 47.

(2) الواقعة 22 ـ 24.

(3) تفسير الرازي 29/ 155.

(4) البقرة 26.

فأجاب الله ـ تعالى ـ عنه بأنَّ صغر هذه الأشـياء لا يقـدح فـي الفصاحـة، إذا كـان ذكرها مشتملاً على حكم بالغة[1].

وذكر الألوسيُّ عن ابن عبَّاس ـ رضي اللـه تعـالى عنـهما ـ وغـيره، أنَّ هـذه الآية في اليهود لما ضرب اللـه ـ تعـالى ـ الأمثـال فـي كتابه بـالعنكبوت والذبـاب، وغير ذلك ممَّا يستحقر، قالوا: إنَّ الله ـ تعالى ـ أعزُّ وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقَّرات، فردَّ الله ـ تعالى ـ عليـهم بـهذه الآية، ووجـه ربطـها بمـا تقـدَّم على هذا ـ وكان المناسب عليه أن توضع في سورة العنكبوت مثلاً ـ أنَّها جواب عن شبهة تورد على إقامة الحجَّة على حقيقة القرآن، بأنَّه معجز، فهي من الريب الذي هو في غاية الاضمحلال: فكان ذكرها هنا أنسب، وقـال مجاهد وغـيره: نزلـت في المنـافقين، قـالوا: لـما ضـرب اللـه ـ سبحانه ـ المثـل (بالمستوقد والصيِّـب) اللـه تعالى أعلى وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء التي لا بـال لـها، فـرد الله ـ تعالى ـ عليهم[2].

وقـال أبـو السـعود: «شـروع فـي تنزيـه سـاحة التنزيل عـن تعلُّـق ريـب خـاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال، وبيان لحكمتـه، وتحقيـق للحـقِّ، إثـر تنزيهها عمّا اعتراهم من مطلق الريب بالتحدّي وإلقام الحجر وإفحام كافَّة البلغـاء مـن أهل المدر والوبر»[3].

---

(1) تفسيره: 2/ 144، ومعنى الآية أنَّ الله لا يدع ضرب المثل بالأشياء الحقيرة لمقارنتها، إذا رأى الصلاح في ضربِّ المثل بها، وقد روى عن الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال: إنما ضرب اللـه المثـل بالبعوضة؛ لأنَّ البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كـبره، وزيـادة عضوين آخرين، فأراد ـ سبحانه ـ أن ينِّبه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعـه؛ وقـد جـاء في كتب حياة الحيوان، البعوضة تحيـا مـا جـاعت، فإذا شـبعت مـاتت، فسبحان مـن صوَّرهـا ونـوَّع أعضاءها الظاهرة والباطنة، وأجلى بصرها واطَّلَعَ على ضميرها، ومن في خلقه ما هـو أصغـر منـها. (أضواء على متشابهات القرآن ص 36).

(2) روح المعاني 1/ 206.

(3) إرشاد العقل السليم 1/ 71.

وذهب صاحب «في ظلال القرآن» إلى أنَّ هـذه الآيـة تشي بـأن المنـافقينَ وربمـا كان اليهود والمشركون ـ قد وجدوا في هذه المناسبة منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجَّة أنَّ ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لـهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله، فجاءت هذه الآيات دفعاً لهذا الوهم، وبياناً لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيراً لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وطمأنـةً للمؤمنين أن ستزيدهم إيماناً[1].

وكيفما كان المراد: المنافقون، أو اليهود والمشركون، فإنَّ في ذلك تنزيهاً للقرآن الكريم عن المطاعن، وإثباتاً لصدق نبوّة محمّد ـ ﷺ ـ لأنَّ في صدق القرآن صدق للنبوَّة.

وقد بيَّنت الأمثال صدق نبوّة محمّد ـ ﷺ ـ ونفى السحر والجنون عنه، في قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[2].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين من الوعيد وتسلية الرسول ـ ﷺ ـ ما لا يخفى[3].

ومنه قوله تعالى ـ مبيِّناً صدق نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[4].

قال الألوسيُّ: «استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوُّه بها وتعجيب منها، أي انظر كيف قالوا في حقِّك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية

---

(1) 1/ 50.

(2) الإسراء 47 ـ 48.

(3) إرشاد العقل السليم 5/ 176.

(4) الفرقان 8 ـ 9.

لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذَّة البعيدة من الوقوع»[1].

وقد بيَّنت الأمثال حال المكذِّبين بالرسل في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

ومنه قوله تعالى - مبطلاً مثل الكافرين ومثبِّتاً صدق نبوَّة محمَّد - ﷺ -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[3].

فقد بيَّن في هذه الآيات أنَّ الذي يأتي به القرآن أحسن تفسيراً؛ لأجل ما فيه من المزيَّة في البيان والظهور، ولمَّا كان التفسير هو الكشف عما يدلُّ عليه الكلام وضع موضع معناه[4].

وقد أثبتت الأمثال رسالة محمَّد - ﷺ - وبيَّنت صفاته وأصحابه في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[5].

فقد بيَّن في هذه الآية الكريمة أنَّ أصحاب محمَّد - ﷺ - فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين، ولين ورحمة مع إخوانهم المؤمنين، فيهم خشوع وخضوع، وركوع

(1) روح المعاني 18/ 239.
(2) يس 13 - 17.
(3) الفرقان 32 - 33.
(4) تفسير الرازي 24/ 79.
(5) الفتح 29.

وسجود، يبتهلون بالدعاء إلى الله ابتغاء فضله ورضوانه، وقد وصفهم الله ـ تعالى ـ بهذه الصفات في التوراة والإنجيل، فصاروا مثل زرع أثمر وأينع، ثم اشتدَّ واستغلظ، ثم استوى واستقام، فصار في أبهر صورة تعجب خاصَّة الزرَّاع.

وهكذا فإنَّ في هذه الآية مدحاً للنبيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابه بشدتهم على الكافرين ورحمتهم بالمؤمنين، وطلبهم فضل الله ورضوانه في ركوعهم وسجودهم[1].

وقد صورَّ هذا المثل محمَّداً وأصحابه تصويراً رائعاً، فوصفهم بأوصاف كثيرة ومتنوِّعة، وصف شدَّة بطشهم بالأعداء، وتراحمهم فيما بينهم، وسعيهم لابتغاء مرضاة الله بالعبادة والتسبيح والتهجُّد، تعرفهم بشاراتهم ﴿ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ وشبَّههم في الإنجيل بالزرع في مراحل نموِّه، يكون نباتاً ضعيفاً، ثم يتكاثر بسرعة فائقة، ويعظم نبته ويشتدُّ ساقه، ولم يغفل النظم الكريم وصف نفوس المؤمنين وابتهاجها بأعمالها، كما يعجب النبات الزرَّاع، وقوله تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ وصف لنفسية كل كافر ملحد، فهذا التصوير الفنيِّ الرائع نجده في كلِّ أمثال القرآن الكريم[2].

ونجد في الأمثال القرآنية ذمّاً لليهود الّذين لم يؤمنوا بالرسول ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3].

ذكر الرازيُّ أنَّ الله ـ تعالى ـ ضرب هذا المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة فشبِّهوا بالحمار؛ لأنَّهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها، ولم يوردوا تلك الشبهة، وذلك لأن فيها نعت الرسول ـ عليه السلام ـ، والبشارة بمقدمه والدخول في دينه.

---

(1) القرآن والصورة البيانية ص 68.

(2) الإحياء، مجلة إسلامية جامعة تصدرها رابطة علماء المغرب بالرباط، العدد الرابع من السلسلة الجديدة رقم 16، أهميَّة الأمثال القرآنيَّة كلون من ألوان الإعجاز القرآنيّ، هلالي محمد ص 133.

(3) الجمعة 5.

وقد شبَّه اليهود، إذ لم ينتفعوا بما في التوراة وهي دالَّة على الإيمان بمحمَّد - ﷺ - بالحمار الذي يحمل الكتب العلميَّة ولا يدري ما فيها.

والمراد بالآيات ههنا، الآيات الدالَّة على صحَّة نبوَّة محمَّد - ﷺ - وهو قول ابن عبَّاس، ومقاتل[1].

وقد بيَّنت حال المكذّبين بآيات الله - تعالى - في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

قال ابن قتيبة: «وكلُّ شيء يلهثُ من إعياء أو عطش أو علَّة، خلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال[3]، وحال الرّاحة، وحال الصحَّة والمرض، وحال الرِّيِّ أو العطش.

فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضالٌّ، وإن لم تعظْه فهو ضالٌّ، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، أو تركته على حاله أيضاً لهث»[4].

وتبعه الرازيُّ، إذ قال: «واعلم أنَّ هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخسُّ الحيوانات هو الكلب، وأخسُّ الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض كان مشبهاً بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث...

---

(1) تفسيره 30/ 5، شبَّه اليهود الّذين أوتوا التوراة وكلّفوا العمل بمحتواها، فأعرضوا عنها ولم ينتفعوا بها، واستنكروا نبوَّة محمَّد - ﷺ - وقد أمروا فيها بتصديقه واتّباعه، شبّههم بالحمار الذي يحمل على ظهره أحمالاً من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولايعقل ما فيها، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة، فحملهم التوراة أمر معنوي، المراد به القيام بما فيها، وليس حملاً حسِّيّاً، كالحمل على العاتق، فهو من تشبيه المعنويّ بالحسيّ (القرآن والصورة البيانية ص 53 - 54 وانظر البيان في ضوء أساليب القرآن ص 77).

(2) الأعراف 175 - 177.

(3) الكلال: العيّ. كللت من المشي أكلُّ كلالاً، وكلالةً، أي عيِيْتُ (الصحاح 5/ 1811 مادة كلل).

(4) تأويل مشكل القرآن ص 369.

إنَّ كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلاّ الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء وفي حال الراحة، وفي حال العطش وفي حال الريّ فكان ذلك عادة منه وطبيعة»[1].

المقصد الرابع: بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين:

نجد أنَّ من مقاصد الأمثال بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

ففي هذه الآية الكريمة مثّل الكافرين بالأعمى الذي لا يبصر ما حوله وبالأصمّ الذي لا يسمع ما يقال له، ثم قابله بمثل المؤمنين الّذين مثّلهم بالبصير والسميع، وفي هذا الأسلوب بيان رائع، يكشف الفرق بين المؤمنين والكافرين ترغيباً في الإيمان، وتنفيراً عن الكفر.

وهكذا فقد بيّن هذا المثل، أنَّ حال الكافرين، كحال من جمع بين العمى والصمم، وأنَّ حال المؤمنين كحال من جمع بين البصر والسمع، فهناك تشبيهان، الأول: تشبيه حال الكفرة الموصوفين بالتعامي والتصامّ عن آيات الله ـ تعالى ـ بحال من خلق أعمى أصمّ لا تنفعه عبارة ولا إشارة، والثاني: تشبيه حال الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم اهتداء إلى الجنّة، وانكفاءاً[3] عمّا كانوا خابطين فيه من ضلال الكفر[4].

وقد بيَّنت الفرق بين المؤمن والكافر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[5].

---

(1) تفسيره 15/ 60.
(2) هود: 24.
(3) كفى الشيءُ يكفي كفاية فهو كاف إذا حصل به الاستغناء عن غيره، واكتفيت بالشيء: استغنيتُ به أو قنعتُ به (المصباح المنير ص 277 مادة: كَفَى).
(4) روح المعاني 12/ 34.
(5) الأعراف 58.

ذكر ابن كثير عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر[1].

وذكر الألوسيُّ: أنَّ هذا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ للمؤمن يقول: هو طيِّب وعمله طيِّب، والذي خبث، مثل للكافر، يقول: هو خبيث وعمله خبيث[2].

إنَّها حكمة قرآنيَّة ذات أفق إنسانيٍّ تزدحم فيها تجارب الحياة والأحياء، فالأرض الطيِّبة التربة العذبة المشارب تنبت الزرع الطيِّب والثمر اليانع، والأرض الرديئة التربة السبخة المنبت، المالحة المشارب لا تخرج إلاّ شؤماً وبُخلاً، وهذه الحكمة لا تقتصر على البلد وأرضه، وإنَّما تشمل كلَّ الموجودات وجميع القيم والأفكار والفضائل والأحوال، وهو مثل لا يفترق عن الشجرة الطيِّبة والخبيثة، وقد ضربه الله للمؤمن والكافر، يصوّر فيه نزول القرآن بنزول المطر، والمؤمن بالأرض الخيِّرة التي نزل عليها المطر فأخرجت الأزهار والثمار، كما يصوِّر الكافر بالأرض السبخة الفاسدة التي لا تنتفع بالأمطار، فهو أيضاً لا ينتفع بنور القرآن ولا بتربيته وتوجيهاته ومعارفه[3]؛ ليبيِّن بذلك الفارق الكبير بين النوعين، عن طريق التقابل، إذ قابل البلد الطيب بالبلد الخبيث، وقابل الذي يخرج نباته بإذن ربه، بالذي لا يخرج إلاَّ نكداً، وفيه من البيان والروعة ما يحمل العاقل على اختيار الطريق الصحيح، وهو طريق الإيمان والعمل بشريعة الإسلام.

وقد بيَّنت الفرق بين عمل المؤمن والكافر، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(1) تفسيره 2/ 271.

(2) روح المعاني 8/ 148.

(3) الظاهرة الجمالية في القرآن ص 358 ـ 359.

(4) النور 35.

وبيَّنت أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة بيان لحال الفريقين المؤمنين والكافرين، وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتّباع المؤمنين الحقّ وفوزهم وفلاحهم واتّباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم، وجوَّز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل ـ سبحانه ـ اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكفّار والإضلال مثلاً لخيبتهم واتّباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم[2].

وقد بيَّنت الفرق بين الحقّ والباطل، في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[3].

«هذا مثل ضربه الله للحقّ والباطل، يقول: الباطل وإن ظهر على الحقّ في بعض الأحوال وعلاه، فإنَّ الله سيمْحَقه ويُبطله، ويجعل العاقبة للحقّ وأهله، ومثل ذلك مَطَرٌ جَوْدٌ أسال الأودية بقدرها: الكبير على قدره، والصغير على قدره»[4].

قال ابن عطيَّة: «صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله، وإقامة الحجَّة على الكفرة به، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثالاً للحقّ والباطل، والإيمان والكفر، والشكّ في الشرع واليقين به»[5].

---

(1) محمد 3.

(2) روح المعاني 26/ 38.

(3) الرعد 17.

(4) تأويل مشكل القرآن ص 326.

(5) المحرر الوجيز 3/ 307 وانظر تأملات في سورة الرعد ص 123 ـ 129.

وبيّنت عدم قبول دعاء الكافر وبطلانه في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾[1].

يشبّه الله في هذه الآية عبّاد الوثن حينما يدعون آلهتهم ولا يرجع هذا الدعاء بفائدة، بمن يبسط كفيه للماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه ما دامت كفّاه مبسوطتان[2].

وبيّنت عاقبة الإيمان والكفر، والصلاح والفساد، في قوله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[3].

قال الرازيُّ: «إنَّ المقصود من هذا أنَّ الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبيَّن الله ـ تعالى ـ أنَّ ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيّاً والغنيُّ فقيراً، أمَّا الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبيَّن ذلك بضرْب هذا المثل»[4].

وبيَّنت بطلان أعمال الكافرين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[5].

---

(1) الرعد 14.

(2) البيان في ضوء أساليب القرآن ص 43.

(3) الكهف 32 ـ 43.

(4) تفسيره 21/ 124.

(5) النور 39 ـ 40.

«هذا مثل ضربه الله للكافرين، الّذين يحسبون أنَّ أعمالهم تنجيهم، فمثَّله بالسراب الذي يحسبه العطشان من البُعْد ماءً يرويه، فإذا وصل إليه لم يجده، فكذلك الكافر يحسب ما قدّم من عمله نافعه، حتى إذا جاءه، أي مات لم يجد عمله شيئاً؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أبطله بالكفر ومحقه»[1].

وبعد أن شبه أعمال الكافرين الضائعة بالسراب الذي ليس بشيء، شبَّه مرَّة أخرى سوء أعمالهم وحقد قلوبهم بهذه الظلمات في البحر الزاخر العميق تغطِّيه الظلمات، ظلمة السحاب، وظلمة الأمواج، وظلمة البحر، ظلمات بعضها فوق بعض، ولشدَّة الظلمة لا يستطيع المرء أن يبصر يده بينها، فقلوبهم وأعمالهم بمنزلة هذه الظلمة الكثيفة، لا ينفذ منها شعاع من رحمة الله، ومن لم يرد الله أن يهديه لنوره فما له من نور[2].

وبيَّنت قيمة أعمال الكافرين في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[3].

فقد «مثَّل إحباط الكفر لأعمال البرِّ بالريح تنفيراً من الكفر، وتهديداً بأنَّه يسقط ثواب البرِّ الذي فعلوه»[4].

ذلكَ أنَّ أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة، لا ينتفعون بشيء منها، وعند هذا يظهر كمال خسرانهم؛ لأنَّهم لا يجدون في القيامة إلاَّ العقاب الشديد وكلُّ ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعاً باطلاً، وذلك هو الخسران الشديد.

ومن الواضح أنَّ وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أنَّ الريح العاصف تطير الرماد وتفرِّق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر،

---

(1) تأويل مشكل القرآن ص 329.

(2) القرآن والصورة البيانية ص 52 ـ 53.

(3) إبراهيم 18.

(4) الإشارة إلى الإيجاز ص 213.

فكذا إنّ كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر.

وقد اختلفوا في المراد بهذه الأعمال على وجوه: الأوّل: أنَّ المراد منها ما عملوه من أعمال البرِّ، كالصدقة، وصلة الرحم، وبرِّ الوالدين، وإطعام الجائع، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم، ولولا كفرهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أنَّ المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلَّفوه من كفرهم، والوجه الثالث: أنَّ المراد من هذه الأعمال كلا القسمين[1].

وفرَّقت بين الهداية والضلال، تنفيراً للمسلمين عن طاعة المشركين، وتحذيراً عن أعمالهم في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقد ذكر أبو السعود: إنَّهُ تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين، إثر تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنَّهم مستضيئون بأنوار الوحي الإلـهيِّ، والمشركون خابطون في ظلمات الكفر والطغيان، فكيف يعقل طاعتهم لهم...

وهذا مثل أريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلاً، كما أنَّ الأوَّل مثل أريد به من خلقه الله ـ تعالى ـ على فطرة الإسلام، وهداه بالآيات البينة إلى طريق الحقِّ يسلكه كيف يشاء لكن لا على أن يدلَّ على كل واحد من هذه المعاني بما يليق به من الألفاظ الواردة في المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها، فإن ألفاظ

---

(1) تفسير الرازي 19/ 106 ـ 107. شبَّه ما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البرّ والخير مهما جلّ وعظم في إحباطه وذهابه؛ لأنّه قائم على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونه لغير الله وعلى غير أمره، بهذا الرماد الهشّ الذي لا يصمد أمام قوى الرياح العاتية العارمة، فيتلاشى في جوفها الهادر ووجه الشبه عدم ظهور أثر الشيء ورجاء نفعه، إذ بُني على أساس واه، وأقيم على ركن ضعيف. (القرآن والصورة البيانية ص 52).

(2) الأنعام 122.

المثل باقية في معانيها الأصليَّة بل على أنَّه قد انتزعت من الأمور المتعدِّدة المعتبرة في كل واحد من جانبي الممثلين هيئة على حدة، فشبّهت بهما الأوليان ونزلتا منزلتيهما فاستعمل فيهما ما يدلّ على الآخرين بضرب من التجوّز[(1)].

وما ذكره أبو السعود: ذكره أيضاً الألوسيُّ في تفسيره معقّباً على المراد بمن أحياه الله ـ تعالى ـ وهداه بقوله: «وأياماً كان فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك كلُّ من انقادَ لأمر الله ـ تعالى ـ ومن بقى على ضلاله وعتوِّه»[(2)].

وقال ابن الكثير: «هذا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ للمؤمن الذي كان ميِّتاً أي، في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتّباع رسله. . . والنور هو القرآن، كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عبَّاس، وقال السدِّي: الإسلام، والكلُّ صحيح.

وزعم بعضهم أنَّ المراد بهذا المثل رجلان معيَّنان، فقيل عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وقيل: عمّار بن ياسر، وأمَّا الذي في الظلمات ليس بخارج منها، أبو جهل عمرو بن هشام ـ لعنه الله ـ والصحيح أنَّ الآية عامَّة يدخل فيها كل مؤمن وكافر»[(3)].

المقصد الخامس: بيان سنَّة الله في المكذِّبين:

نجد أنَّ من مقاصد الأمثال القرآنيَّة بيان سنَّة الله في المكذِّبين كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(4)].

---

(1) إرشاد العقل السليم 3/ 180 ـ 181.

(2) روح المعاني 8/ 18 ـ 19.

(3) تفسيره 2/ 210.

(4) البقرة 214.

وقوله تعـالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[1].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين بيان لسنَّة الله في المكذِّبين، تحذيراً عن أعمالهم وسلوك سبيلهم، قال الألوسيُّ: «لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومالكم على مالهم، وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى العذاب الآجل، فتردعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي، وجوَّز أن يراد من الأمثال ما هو جمع مثل بمعنى التشبيه، أي بيناً لكم أنهم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب»[2].

ومنه التهديد بآفات الدنيا في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[3].

ذكر الرازيُّ: أنَّ الله ـ تعالى ـ لما هدَّد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة، هدَّدهم أيضاً بآفات الدنيا؛ وهو الوقوع في الجوع والخوف[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[5].

ففي هذا المثال بيان لسنَّة الله ـ تعالى ـ في المكذِّبين؛ لأجل العبرة والموعظة بأحوالهم.

قال أبو السعود: «تتعظون به وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرَّمات والمكروهات، وسائر ما يخلُّ بمحاسن الآداب، فهي عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور»[6].

---

(1) إبراهيم 45.
(2) روح المعاني 13/ 250.
(3) النحل 112.
(4) تفسيره 20/ 129.
(5) النور: 34.
(6) تفسيره 6/ 174.

والمراد: أنزلنا مثلاً كائناً من قبيل أمثال الّذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم من الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء - عليهم السلام -[1].

وقوله تعالى: تعقيباً على قصّة عاد وثمود وأصحاب الرسّ: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[2].

فقد بيّن في هذه الآية سنّته في ضرب الأمثال، وسنّته في المكذّبين، تحذيراً لقوم محمّد - ﷺ - من سلوك سبيلهم، قال الرازيُّ: «حذّر - تعالى - قوم محمّد - ﷺ - من الاستمرار على تكذيبه لئلاً ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلاً وآجلاً»[3].

وهكذا فإنّ هذا المثل في معنى التذكير والتحذير، والمراد بيان القصص العجيبة، الزاجرة عمّا هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطة الرسل - عليهم السلام -[4].

وقد بيّنت سنّة - الله تعالى - في المكذّبين، تسلية للرسول - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[5].

ففي هذه الآية تحذير لكفّار قريش من سلوك سبيل الكافرين المكذّبين من الأمم السابقة، لئلاً ينزل بهم ما نزل بمن سبقهم من المكذّبين الّذين جعلهم مثلاً لهؤلاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[6].

فقد بيّن في هذه الآية، سنّته - تعالى - في المكذّبين المتقدّمين ليتّعظ بهم قوم محمّد، - ﷺ - وفي ذلك آية وعبرة لمن فكّر واعتبر بما جاء به الرسول - ﷺ - ..

---

(1) روح المعاني 18/ 160.
(2) الفرقان 39.
(3) تفسيره 24/ 83.
(4) روح المعاني 19/ 20.
(5) الزخرف 8.
(6) نفسها 55 - 56.

المقصد السادس: بيان حال المنافقين:

نجد أن من مقاصد تصريف الأمثال القرآنيَّة بيان حال المنافقين وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(1)].

في هذه الآيات الكريمة، مثلان للمنافقين، ففي الأوَّل مثل القرآن الكريم حالهم بحال الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت النار ما حوله من الأمكنة والأشياء أطفأ الله نارهم التي منها استمدُّوا نورهم، بنحو مطر شديد، أو ريح عاصف، فصيرَّهم لا يبصرون شيئاً؛ لأنَّ النور قد زال، ولم يبق منه أثَر ولا عين[(2)].

وهكذا فبعد ما ذكر الله ـ تعالى ـ حقيقة وصف المنافقين عقبَّه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان؛ لأنَّه يؤثِّر في القلوب ما لا يؤثِّره وصف الشيء في نفسه؛ ولأنَّ المثل تشبيه الشيء الخفيِّ بالجليِّ، فيتأكَّد الوقوف على ماهيَّته، وذلك هو النهاية في الإيضاح[(3)].

وقد ذكروا أنَّ في ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم، إحداها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره لا من قبل نفسه، فإذا هبَّت تلك النار بقي هو في ظلمته، فكأنَّهم لما أقرُّوا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم، كان نور إيمانهم كالمستعار.

---

(1) البقرة 17 ـ 20.

(2) تفسير المراغي 1/ 58، اختلف العلماء في الذي ضرب الله تعالى ـ له هذا المثل من أحوال المنافقين على قولين: أحدهما: أنّه ضرب بكلمة الإسلام التي يتلفّظون بها، ونورها صيانة النفوس وحقن الدماء، فإن ماتوا سلبهم الله ذلك العزَّ، كما سلب صاحب النّار ضوءه، وهذا المعنى مروى عن ابن عبَّاس، والثاني: أنَّه ضَرَبَ إقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول، فذهاب نورهم إقبالهم على الكافرين والضَّلال، وهذا قول مجاهد (زاد المسير في علم التفسير 1/ 40).

(3) تفسير الخازن 1/ 30.

والثانية: أنَّ ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادَّة الحطب لتدوم، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادَّة الاعتقاد ليدوم.

والثالثة: أنَّ الظلمة الحادثة بعد الضوء أشدُّ على الإنسان من ظلمة لم يجد معها ضياء، فشبَّه حالهم بذلك[1].

وقال ابن قتيبة: «مثل المنافقين كمثل قوم كانوا في ظلمة فأوقدوا ناراً، فلما أضاءت النار ما حولهم أطفأها الله وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

فالظلمة الأولى التي كانوا فيها: الكفر، واستيقادُهم النار قولهم: «لا إله إلاّ الله وأنَّ محمَّداً رسول الله» فلما أضاءت لهم ما حولهم اهتدوا وآمنوا: خَلَوْا إلى شياطينهم فنافقوا، وقالوا: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[2].

فسلبهم نور الإيمان، وتركهم في ظلمات الكفر لا يبصرون»[3].

وذكر صاحب «المنار» أن هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته؛ لأنَّه سدَّ على نفسه جميع أبواب الهداية، فلا يتقي بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه، إذا خالفت تقاليده[4].

وفي هذا المثل تصوير بارع لحال المنافقين يكشف عن خبيئة قلوبهم المريضة، وعمى بصائرهم وجمود أحاسيسهم، وخمود شعورهم، فهم صمٌّ لا يسمعون نداء الحق، وإذا سمعوه أشاحوا[5] عنه معرضين، بكم لا ينطقون الحقَّ، وإذا نطقوه أصابهم عيّ البلَة، وحُصروا فلم يستطيعوا أن يبيِّنوا عن ذات أنفسهم، وهم عمي لا يبصرون طريق الحقِّ، فهم في غيِّهم سادرون، لا يرجعون عن ضلالتهم، ولا يفيئون إلى ظلٍّ من الأمل في الخلاص[6].

وقد ضرب المثل لهذه الطائفة زيادة في الإيضاح، وليكشف عن طبيعتها وتقلُّباتها، وتأرجحها، ليزيد هذه الطبيعة جلاءً وإيضاحاً.

---

(1) زاد المسير في علم التفسير 1/ 40، وتفسير الخازن 1/ 31.

(2) البقرة 14.

(3) تأويل مشكل القرآن ص 362.

(4) تفسير المنار 1/ 171.

(5) أشاحوا: أعرضوا مبدين كرهاً أو إزدراءً. (المعجم الوسيط2/ 521 مادة: شيح).

(6) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص 178.

إنهم يعرضون عن الهدى ابتداء، ولم يصمُّوا آذانهم عن السماع، وعيونهم عن الرؤية، وقلوبهم عن الإدراك، كما صنع الّذين كفروا، ولكنهم استحبُّوا العمى على الهدى، بعدما استوضحوا الأمر وتبيَّنوه[1].

وقد صوَّر حالهم حينما أسلموا أوّلاً، ودخل الإيمان في قلوبهم ثم داخلهم الشكُّ فيه فكفروا به، إذ لم يدركوا فضائله ولم يفقهوا محاسنه.

وصاروا لا يبصرون مسلكاً من مسالك الهداية، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين، بحال جماعة أوقدوا ناراً لينتفعوا بها في جلب خير أو دفع ضرٍّ، فلما أضاءت ما حولهم من الأشياء والأماكن جاءَ عارض خفيٌّ، أو أمر سماويٌّ، كمطر شديد، أو ريح عاصف جرفها وبدّدها، فأصبحوا في ظلام دامس، ولا يتسنى لهم الإبصار بحال[2].

وقد أعقب تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إلحاقاً لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة؛ لأنَّ النفس إلى المحسوس أميل.

وإتماماً للبيان بجمع المتفرِّقات في السمع، المطالة في اللفظ، في صورة واحدة؛ لأن للإجمال بعد التفصيل وقعاً من نفوس السامعين.

وتقريراً لجميع ما تقدَّم في الذهن بصورة تخالف ما صوّر سالفاً لأنَّ تجدُّدَ الصورة عند النفس أحبُّ من تكرُّرها[3].

وهو مثل من مثلين ضربهما الله في هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الّذين قرع القرآن أبواب قلوبهم، وكان من عناية الله ـ تعالى ـ في بيان حاله أن قفَّى على ذلك التفصيل في شرِّ فرقة وأطوارهم بضرب المثل الذي يقصد به تجلِّي المعنى في أتمِّ مجاليه، وتأثُّر النفوس بما أودعه فيه.

(1) في ظلال القرآن 1/ 45 ـ 46.
(2) تفسير المراغي 1/ 57 ـ 58.
(3) التحرير والتنوير 1/ 302.

ناهيك بما في التنقُّل في الأساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول ودعوة الفكر إلى مراجعة ما مضى منه، ولولا أنَّ بلاء هذا الصنف عظيم، وداءه دفين، وعلاجه متعسر، لما كان من البلاغة ولا من الحكمة، أن يعني بشأنه كلّ هذه العناية[1].

وذلك زيادة كشف لحالهم، وتصوير لها غبّ[2] تصويرها بصورة ما يؤدّي إلى الخسار بحسب المآل، بصورة ما يفضي إلى الخسار من حيث النفس تهويلاً لها وإبانة لفظاعتها.

والآية نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع، فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم في ظلمات هائلة من غير تعرّض لمشعري السمع والنطق، ولاختلال مشعري الأبصار.

فالآية الكريمة تتمّة للتمثيل وتكميل له بأنّ ما أصابهم ليس مجرّد انطفاء نارهم وبقائهم في ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها بل اختلت مشاعرهم جميعاً واتّصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة، فبقوا جامدين في مكاناتهم لا يرجعون ولا يدرون[3].

وأمّا المثل الثاني، ففي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

قال أبو السعود: «تمثيل لحالهم إثر تمثيل ليعمّ البيان منها كلّ دقيق وجليل ويوفي حقّها من التفظيع والتهويل، فإنّ تفنُّنهم في فنون الكفر والضلال وتنقُّلهم فيها من حال إلى حال حقيق بأن يضرب في شأنه الأمثال، ويرخى في حلبته أعنّة المقال، ويمدّ لشرحه أطناب الإطناب، ويعقد لأجله فصول وأبواب، لمّا إنّ كلّ كلام له حظٌّ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة، لابدّ أن يوفّى فيه حقّ كلٍّ من مقامَيْ الإطناب والإيجاز، فما ظنُّك لما في ذروة الإعجاز من التنزيل الجليل؟»[5].

---

(1) تفسير المنار 1/ 168.

(2) غبّ كل شيء عاقبته، وقد غبّت الأمور أي صارت إلى أواخرها، (الصحاح للجوهري 1/ 190، وتاج العروس 3/ 451 مادة غبب).

(3) إرشاد العقل السليم 1/ 50 ـ 52.

(4) البقرة 19 ـ 20.

(5) إرشاد العقل السليم 1/ 52.

وقال صاحب «الكشّاف» : «وهذا التمثيل لشدَّة الأمر على المنافقين بشدَّته على أصحاب الصيِّب وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل بما يأتون وما يذرون»[1] .

ويرى أبو حيَّان : أنَ أو هنا للتفصيل ، وأنَّ التمثيل أتى كاشفاً لحالهم بعد كشف الأوَّل ، وإنَّما قصد بذلك التفصيل والإسهاب بحال المنافق ، وشبَّهه في التمثيل الأوَّل بمستوقد النار وإظهار الإيمان بالإضاءة وانقطاع جدواه بذهاب النور ، وشبَّهَ في الثاني دين الإسلام بالصيِّب وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيبهم من الإفزاع والفتن من جهة المسلمين بالصواعق[2] .

وذهب الخروبيُّ إلى أنَّه مثَّل حال المنافقين بالمستوقد النار ، أو الصيِّب ، لما في ذلك من المناسبة بينه وبين أحوال المنافقين ، إذ المنافقون ظنُّوا أنَّ ما أظهروه من الإيمان وأخفوه من الكفر نافع لهم ، وهو ضرر عظيم ، فظنُّوا انتفاعهم بما هو ضرر عليهم ، كالمستوقد ناراً على الحالة المذكورة في الآية ، فهو يظنُّ انتفاعه بها وليس له فيها نفع ، وكذلك الصيب الذي فيه ظلمات ورعد وبرق ، كما ذكر في الآية ، ظنَّ الانتفاع به ، فإذا هو غير ذلك[3] .

وعدَّ الرازي المثل الثاني للمنافقين ؛ إذ شبَّههم في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الّذين وصفهم ، إذ كانوا لا يرون طريقاً ولا يهتدون ، ثم قدَّم سؤالاً أيُّ التمثيلين أبلغ ؟ وأجاب عنه بقوله : «التمثيل الثاني ؛ لأنَّه أدلُّ على فرط الحيرة ، وشدَّة الأغاليظ ، ولذلك تراهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ»[4] .

ووافقه أبو حيَّان إذ قال : «والتمثيل الثاني : أبلغ ؛ لأنَّه دلَّ على فرط الحيرة وشدَّة الأمر ، ولذلك أخَّر فصار ارتقاء من الأهون إلى الأغلظ»[5] .

ويرى الألوسيُّ أنَّ قوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ شروع في تمثيل لحالهم إثر تمثيل ، وبيان لكلِّ دقيق منها وجليل ، فهم أئمَّة الكفر الّذين تفنَّنوا فيه وتفيَّؤوا ظلال

---

(1) الكشاف 1/ 219 .

(2) البحر المحيط 1/ 221 .

(3) رياض الأزهار وكنز الأسرار ص 78 .

(4) تفسيره 2/ 84 ـ 85 .

(5) البحر المحيط 1/ 221 .

الضلال بعد أن طاروا إليه بقدامى النفاق وخوافيه، فحقيق أن تضرب في بيداء بيان أحوالهم الوخيمة خيمة الأمثال، وتمدَّ أطناب الأطناب في شرح أفعالهم ليكون أفعى[1] لهم ونكالاً بعد نكال، وكلُّ كلام له حظٌّ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة لابدَّ أن يوفّى فيه حقُّ كلٍّ من مقامَيْ الإطناب والإيجاز، فماذا عسى أن يقال فيما بلغ الذروة العليا من البلاغة والبراعة والإعجاز؟

ولقد نعى ـ سبحانه ـ عليهم في هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم العديمة التمثيل[2].

ويرى آخر: أنه شبَّه المطر المنَّزل من السماء بالقرآن، وشبَّه ما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، والاختبار، وشبَّه ما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر، وشبه ما فيه من البرق بما في القرآن من البيان، وشبَّه ما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد، آجلاً، والدعاء إلى الجهاد عاجلاً[3].

وقد أنزل الله القرآن الكريم، وقد اعترى المنافقين شبهة واهية فيه، وفي هذا القرآن وعد لمن آمن ووعيد لمن كفر، وفيه حجج بيِّنات واضحات، وفيه آيات فاضحة لهم، وكاشفة أستارهم، كانت تنزل عليهم نزول الصاعقة أو أشدَّ، وهم مع القرآن إذا نزلت آية فيها مغنم فرحوا وساروا مع المسلمين، وإذا نزلت آية تطالبهم بالجهاد أو تكشف حالهم وقفوا وبهتوا.

فحالهم هذه تشبه حال قوم نزل عليهم مطر غزير من كلِّ جانب، وكان يصاحبه صواعق تصمُّ الآذان، حتى أنَّهم يجعلون أنامل أصابعهم في آذانهم خوفاً من الموت.

وأما برقه ونوره فكلما ظهر في الأفق فرحوا وساروا آمنين، وهم حريصون على ذلك، وإذا أظلم الأفق وانتهى البرق وقفوا حيارى مبهوتين.

والله محيط بهم قادر عليهم، ولو شاء لأذهب أسماعهم بقوَّة الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، فهو القادر المختار[4].

---

(1) أفعَى فُلانٌ، صار ذا شرّ بعد خير (المعجم الوسيط 2/ 721 مادة «أفعى».

(2) روح المعاني 1/ 170.

(3) أضواء على متشابهات القرآن ص 28.

(4) التفسير الواضح 1/ 20.

وقد بيّنت الأمثال القرآنية، أنَّ جهنَّم مجمع المنافقين والكافرين في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[1].

وقد بيّنت جزاء المكذّبين من الكافرين والمنافقين في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

ثم مثّل المنافقين بالشيطان في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[3].

المقصد السابع: ذمُّ الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

ذكر الرازيُّ أنَّ هذا المثل العجيب ضربه الله لمن يبغي في الأرض ويعتزُّ بالدنيا، ويشتد تمسكه بها، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة، والتأهُّب لها[5].

وقال أبو السعود: «كلام مستأنف، مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدَّة التمتُّع بها وقرب زمان الرجوع الموعود، وقد شبَّه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها في سلك الأمثال في سرعة تقضيِّها وانصرام نعيمها غبَّ إقبالها واغترار الناس بها، بحال ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاماً، لم يبق لها أثر أصلاً بعدما كانت غضَّة طريَّة، قد التفَّ بعضها ببعض وزيِّنت

---

(1) النساء 140.

(2) الحشر 15.

(3) نفسها 16.

(4) يونس 24.

(5) تفسيره 17/ 76.

الأرض بألوانها وتقوَّت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنُّوا أنها سلمت من الجوائح[1]، وتبعه في ذلك الألوسي[2].

وذهب غيرهم إلى أنَّه شبَّه حال الدنيا، وهي تسحر الناس وتبهرهم بما فيها من نعيم ومتاع، وتخدعهم بما فيها من زخرف وضياء، فيغرقون في ملذَّاتها بعد أن وهموا أنهم متحكِّمون فيها، قادرون عليها، ثم بغتة يدركون قصر زمانها وسرعة انقضائها وزوال ملذَّاتها، وأنَّها قد حيل بينهم وبينها، شبَّه ذلك بصورة الأرض ينزل الغيث عليها، فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغترُّبه، ويظنُّ أنُّه قادر عليها، مالك لها، فتدركها الآفات بغتةً وتصبح كأن لم تكن، فيخيب ظنه، ويفشل مراده، فهكذا حال الدنيا وحال من يثق بها ويركن إليها[3].

«لقد صوَّر القرآن الكريم مشهد الحياة القصيرة تصويراً متحركاً رائعاً، وهي تطوي المراحل بسرعة فائقة يعقب بعضها بعضاً، وهي تأخذ من كلِّ مرحلة ما يناسبها من الألوان، فكلُّ صورة لمرحلة من المراحل لا تشبه الأخرى»[4].

يتبيَّن من التوجيهات السابقة أنَّه لا تعارض بينها، وإنَّما يكمل بعضها بعضاً، بغية بيان مقاصد هذا المثل الذي تضمنته الآية الكريمة، والذي يكشف عن حقيقة الحياة الدنيا وزوالها، مصوِّراً إيَّاها تصويراً بليغاً، ليظهر قيمتها لمن يتمسَّك بها وبزخارفها، وبذلك يبتعد عنها من فكَّر واتعَّظ بها بعد بيان حالها.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[5].

(1) إرشاد العقل السليم 4/ 137.
(2) روح المعاني 11/ 100.
(3) أعلام الموقِّعين 1/ 153، وكتاب الأمثال في القرآن الكريم لابن قيِّم الجوزيّة ص 185، والقرآن الكريم والصورة البيانية ص 66 وانظر البيان في ضوء أساليب القرآن ص 53.
(4) الإحياء، مجلَّة إسلامية جامعة تصدرها رابطة علماء المغرب بالرباط، أهميَّة الأمثال القرآنية كلون من ألوان الإعجاز القرآني، هلالي محمد ص 131.
(5) الكهف 45.

ففي هذه الآية الكريمة مثَّل الحياة الدنيا وزوال نعيمها، وقلَّة نفعها بحال النبات الذي ينزل عليه الماء من السماء فيخضرُّ ثم يصفرُّ فجأة، ويصبح حطاماً وهشيماً تنقله الرياح، فكذلك الحياة الدنيا في ذهاب نعيمها وقلَّة نفعها.

وفي هذا المثل تنفير للناس من الاستغراق في ملذَّات الحياة الدنيا والاغترار بها.

قال الرازيُّ: «إنَّ هذا المثل يدلُّ على حقارة الدنيا وقلَّة بقائها».

ثم بين أن أحوال الدنيا مثل هذا النبات يظهر أوّلاً في غاية الحسن والنضارة، ثمَّ تتزايد قليلاً قليلاً، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء، ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به[1].

وقد حقّر حال الدنيا وعظّم حال الآخرة في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2].

بيَّن الرازي: أنّ المقصود من هذه الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة؛ ذلك أنَّ الدنيا لعب ولهو، وزينة وتفاخر، ولا شك أنَّ هذه الأشياء أمور محقَّرة، وأمَّا الآخرة فهي عذاب شديد دائم، أو رضوان الله على سبيل الدوام، ولا شكَّ أن ذلك عظيم.

ثمَّ إنَّه ـ تعالى ـ وصف الدنيا بأمور، أولّها: أنَّها لعب: وهو فعل الصبيان، وثانيها: أنَّها لهو، وهو فعل الشبّان، وثالثها: أنّها زينة، وهو دأب النساء[3].

المقصد الثامن: الحثُّ على إنفاق المال في طاعة الله والتنفير من إنفاقه في المعاصي:

فمن الحثّ على إنفاق المال في طاعة الله، قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[4].

---

(1) تفسيره 21/ 131.
(2) الحديد 20.
(3) تفسيره 29/ 233 ـ 234.
(4) البقرة 261.

قال ابن عطيَّة: «هذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوُّع، وسبل الله كثيرة[1] وهي جميع ما هو طاعة، وعائد بمنفعة على المسلمين والملَّة، وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد؛ لتكون كلمة الله هي العليا»[2].

«أي مثل نفقتهم كمثل حبَّة، أو مثلهم كمثل باذر حبَّة والمنبت هو الله، ولكن الحبَّة لَمَّا كانت سبباً أسند إليها الإنبات، كما يسند إلى الأرض، وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب لكلٍّ واحدة سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنَّها ماثلة بين عيني الناظر»[3].

إنَّ الإنفاق المثالي وقد صوّره المثل القرآني بأنَّه هو الذي يرتكز على دعائم من الإخلاص والتقرّب إلى الله، وتثبيت النفس على الإيمان، كما صوَّر أنَّ هذا الإنفاق وإن جلَّ أو قلَّ فمثوبته جلَّى وثوابه دائم[4].

وهكذا فإن في هذا المثل «ترغيباً في الممثَّل به؛ لأنَّه مما ترغب فيه النفوس، وذلك لما يعود به من خير كثير على النفس المنفقة في سبيل الله ـ تعالى ـ.

وقد بيَّنت الأمثال القرآنية أنَّ الإنفاق نوعان: إنفاق المرائين، وإنفاق المخلصين، فأما النَّوع الأوَّل فهو الذي لا يبقى منه شيء؛ لأنه إنفاق في غير طاعة الله، وأمَّا الثاني: فهو الذي يضاعفه الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فمن أمثلة النوع الأوَّل، وهو إنفاق المرائي، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

---

(1) قال الألوسيّ: «أي في وجوه الخيرات الشاملة للجهاد وغيره، وقيل المراد: الإنفاق في الجهاد؛ لأنه الذي يضاعَفَ هذه الأضعاف، وأما الإنفاق في غيره، فلا يضاعَفَ كذلك، وإنما تجري الحسنة بعشر أمثالها» (روح المعاني 2/ 32).

(2) المحرّر الوجيز 1/ 355.

(3) الكشاف 1/ 393.

(4) الأمثال في القرآن محمود بن الشريف ص 40.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

ففي الآية الكريمة مثَّل الله هذا الذي يمنُّ ويؤذي بحسب مقدّمة نيته بالذي ينفق رئاء لا لوجه الله، والرياء مصدر من فاعل الرؤية، كأنَّ الرياء تظاهر وتفاخر بين من لا خير فيه من الناس.

يحتمل أن يريد الكافر الظاهر الكفر؛ إذ قد ينفق ليقال جواد، وليثنى عليه بأنواع الثناء ولغير ذلك، ويحتمل أن يريد المنافق الذي يظهر الإيمان.

ثم مثَّل هذا المنفق رئاء بـ﴿ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ فيظنّه الظانُّ أرضاً منبتة طيِّبة، كما يظنُّ قوم أنَّ صدقةَ هذا المرائي لها قدر أو معنى، فإذا أصاب الصفوان وابل من المطر انكشف ذلك التراب وبقي صلداً، فكذلك هذا المرائي إذا كان يوم القيامة وحصلت الأعمال انكشف سرُّه وظهر أنه لا قدر لصدقته ولا معنى؛ فالمنُّ والأذى والرياء يكشف عن النيَّة، فيبطل الصدقة كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظنَّ أرضاً[2] .

ومن أمثلة النوع الثاني، وهو إنفاق المخلصين، ما سبق بيانه في الآية الدالَّة على الحثِّ على الإنفاق في سبيل الله، ومنه أيضاً قوله تعالى: مقابلاً صدقة المرائي، بصدقة المنفق في سبيل الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3] .

---

(1) البقرة 264.

(2) المحرر الوجيز 1/ 357، قال المراغي: «إنَّ صفة عمل المنافق المرائي كصفة تراب على حجر أملس نزل عليه ماء مطر شديد، فأزاله وترك الحجر صلداً نقيّاً لا تراب عليه، والوجه المشترك بينهما، أنّ الناس يرون أنَّ لهؤلاء المرائين أعمالاً كما يرى التراب على الصفوان، فإذا جاء يوم القيامة، وصاروا إلى الله اضمحلَّ ذلك كلهُّ وذهب؛ لأنّه لم يكن لله، كما يُذهب الوابل من المطر ما كان على الصفوان، فيتركه أملس لا شيء عليه». (تفسيره 3/ 34) «وانظر الأمثال في القرآن ص 41».

(3) البقرة 265.

ففي هذه الآية الكريمة، مثَّل صدقة المخلصين، وذلك على سبيل التقابل بما سبقها في صدقة المرائين، ليبيِّن البون الشاسع، بين هذه وتلك وليدرك المتدبِّر لكتاب الله ـ تعالى ـ الفارق بينهما، وهو كما قيل: «من أساليب فصاحة القرآن، أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما يتقدَّم ذكره لتبين حال التضادّ بعرضها على الذهن، فلمَّا ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم ونهى المؤمنين عن مواقعة ما يشبه ذلك بوجه ما، عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الّذين تزكو صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع، فضرب لها مثلاً»[1].

وقال أبو حيَّان: «لما ضرب مثل من أنفق ماله رئاء الناس، وهو غير مؤمن ذكر ضدَّه، بتمثيل محسوس للذهن، حتى يتصوَّر السامع تفاوت ما بين الضدَّين، وهذا من بديع أساليب فصاحة القرآن، ولما وصف صاحب النفقة بوصفين قابل ذلك هنا بوصفين، فقوله: ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ مقابل لقوله: ﴿ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وقوله: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ مقابل لقوله: ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾»[2].

وقد بيَّن الغاية من تصريف هذه الأمثال في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

قال أبو حيَّان: «أي مثل هذا البيان، تصرف الأمثال المقربة الأشياء للذهن، يبيِّن لكم العلامات التي يوصل بها إلى اتّباع الحق»[4].

«لتتفكَّروا فيها وتعتبروا بما اشتملت عليه من العبر، فتضعوا نفقاتكم في مواضعها، وتقصدوا بها أن تكون خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ بدون رياء ولا أذى»[5].

وفي عطف مثل المخلصين في إنفاقهم على ما سبقه، زيادة بيان ما بين المرتبتين من البوْن، وتأكيداً للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفنُّناً في التمثيل، فإنَّه قد مثَّله فيما سلف

---

(1) المحرر الوجيز 1/ 358.

(2) البحر المحيط 2/ 322 ـ 223.

(3) البقرة 266.

(4) البحر المحيط 2/ 327.

(5) تفسير المراغي 3/ 38.

بحبّة أنبتت سبع سنابل، ومثّله فيما سلف تمثيلاً غير كثير التركيب لتحصل السرعة، بتخيُّل مضاعفة الثواب، فلمَّا مثَّل حال المنفق رئاء بالتمثيل الذي مضى، أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في التخيُّل، فإن الأمثال تهيج السامع كلَّما كانت أكثر تركيباً وضمَّنت الهيئة المشبَّهة بها، أحوالاً حسنة تكسبها حُسناً، يسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه[1].

وهكذا فقد مثَّل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوان الله ـ تعالى ـ وتمكيناً لأنفسهم في مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها حين البذل حتى يكون ذلك سجيَّةً لها، كمثل جنَّة جيِّدة التربة ملتفَّة الشجر، عظيمة الخصب، تنبتُ كثيراً من الغلاَّت، نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مِثْلَيْ ما كانت تُغلُّ، وإن لم يصبها الوابل فطلّ، ومطر خفيف يكفيها لجودة تربتها، وكرم منبتها، وحسن موقعها، وهكذا كثير البر كثير الجود، إن أصابه خير كثير أغدق ووسَّع في الإنفاق وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره، فخيره دائم، وبرُّه لا ينقطع[2].

وقد بيَّنت إهلاك نفقات الكفَّار، وأنها لم تنفعهم شيئاً في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3].

قال الألوسيُّ: «إنَّ هذه الآية كالدليل لعدم إغناء الأموال وأنَّها حقيرة، والمراد تمثيل جميع صدقات الكفَّار ونفقاتهم كيف كانت، وهو المرويُّ عن مجاهد، وقيل: مثل لما ينفقه الكفار مطلقاً في عداوة الرسول ـ ﷺ ـ وقيل: لما أنفقتْه قريش يوم بدر وأحد، لَمَّا تظاهروا عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقيل: لما أنفقه سفلة اليهود على علمائهم المحرّفين، أي حال ذلك وقصتّه العجيبة ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي برد شديد، قاله ابن عبَّاس ـ رضي الله ـ تعالى ـ عنهما ـ وجماعة»[4].

(1) التحرير والتنوير 3/ 50.
(2) تفسير المراغي 3/ 36.
(3) آل عمران 117.
(4) روح المعاني 4/ 36.

وهكذا فإن هذه الآية الكريمة، مثّلت الّذين ينفقون أموالهم في غير طاعة الله؛ وذلك في ملذّات الدنيا الفانية، ونشر الصيت، واكتساب الشهرة، بالريح الباردة الشديدة، التي أصابت حرث قوم فأهلكته، فتلك نفقات هؤلاء، فلا يستفيدون منها شيئاً.

إنَّ في هذا المثل صورة بديعة، تشخّص الّذين ينفقون في هذه الحياة الفانية، باذلين في ذلك الجهد، وليس في إنفاقهم نفع ولا فائدة؛ لأنَّ قلوبهم خلت من روح القرآن، فكان ما ينفقونه بمثابة زرع اهلكتْه ريح عاتية، فبوغت أصحابه، ويشهد عليهم القرآن بأنَّهم ظلموا أنفسهم، إذ لم يعطوا حقَّ الله في الحرث، وحقَّ نفوسهم في التعب والكدِّ.

أمَّا النفس المؤمنة فهي وإن تألّمت، تسلِّمُ أمرها إلى خالقها، فهو المدّبر الوحيد لشؤونها، إن دقَّة التناسق تكتمل في صورة منتظمة حيث التحمت صورة إنفاق أهل الشرك في الحياة ممَّا لا يجدي نقيراً، بصورة من يملك حرثاً، وهو ينتظر بسرور وشغف عطاءه وإذا بريح باردة شديدة تجعله حطاماً، كان لم يكن بالأمس، ولم يشاهد البتَّة[1].

المقصد التاسع: بيان قبائح اليهود في مساواتهم البيع بالربا:

بيَّنت الأمثال القرآنية، قبائح اليهود في مساواتهم البيع بالربا، وبيّنت تحريمه، مصوِّرة إياه بصورة بشعة، تنفيراً وتحذيراً منه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[2].

وقد أوردنا هذه الآية في هذا الموضع، وذلك لمناسبتها لما قبلها، في تفصيل الإنفاق والصدقة في سبيل الله، وأن يكون ذلك من طيِّب ما كسب، ولا يكون من الخبيث، فذكر نوعاً غالباً عليهم في الجاهلية، وهو خبيث، وهو الربا حتى يمتنع من الصدقة بما كان من ربا، وأيضاً فتظهر مناسبة أخرى، وذلك أنَّ الصدقات فيها نقصان مال، والربا فيه زيادة مال، فاستطرد من المأمور به إلى ذكر المنهيِّ عنه لما بينهما من مناسبته ذكر التضاد[3].

---

(1) الإعجاز الفنّي في القرآن ص 201.
(2) البقرة 275.
(3) البحر المحيط 2/ 346.

«إنَّ هذه الآية صوَّرت المرابي حين يقوم يوم القيامة؛ فإنه يتخبَّط في قيامه؛ لأنَّ الربا يربو في بطونهم حتى يتلفها، وفي هذا إهانة لهم وتشهير بهم.

والآية في دلالتها الظاهرة لا تضيق بتصوير المرابي في الدنيا أيضاً»[1].

المقصد العاشر: النهي عن نقض العهد:

نهت الأمثال القرآنيَّة عن نقض العهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًاۢ بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

قال ابن قتيبة: «هذا مثل لمن عاهد الله وحلف به، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾[3].

فتكونوا إن فعلتم كامرأة غزلت غزلاً وقوَّت مِرَّته وأبرمَتْه، فلمَّا استحكم نقضته، فجعلته أنكاثاً»[4].

المقصد الحادي عشر: وصف الكافرين بالجدال والمخاصمة:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[5].

قال السهيليُّ: «الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزبعْرى السهميُّ»[6].

وقال الألوسيُّ: «بيان لعناد قريش بالباطل والردِّ عليهم، فقد روى أن عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه قال للنبيِّ وقد سمعه يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[7].

---

(1) التصوير البياني ص 96.
(2) النحل 92.
(3) نفسها 91.
(4) تأويل مشكل القرآن ص 386.
(5) الزخرف 57 ـ 59.
(6) التعريف والإعلام ص 287.
(7) الأنبياء 98.

أليست النصارى يعبدون المسيح، وأنت تقول كان نبيّاً وعبداً من عباد الله ـ تعالى ـ صالحاً فإن كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرحت قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ فالمعنى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلاً وحاجّك بعبادة النصارى إيّاه إذا قومك من ذلك ولأجله يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وجدلاً، والحجّة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل، أو المثل بمعنى المثال، أي جعله مقياساً وشاهداً على إبطال قوله ـ عليه السلام ـ إن آلهتهم من حصب جهنم، وجعل عيسى ـ عليه السلام ـ نفسه مثلاً من باب «الحجّ عرفة»[1].

وقال ابن عطيّة: «أي ما مثّلوا هذا التمثيل إلاّ جدالاً منهم ومغالطة، ونسوا أنّ عيسى لم يعبد برضى منه، ولا عن إرادة، ولا له في ذلك ذنب»[2].

المقصد الثاني عشر: بيان أنّ صلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضرّ المصلح:

وذلك ما بينه قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

ففي الآية الأولى ضرب مثلاً للكافرين بإمرأة نوح وإمرأة لوط، وخيانتهما للنبيّين؛ إذ كانتا تحت رسولين، لم يغنيا عنهما من الله شيئاً، قال الزمخشريّ: «مثّل الله ـ عزّ وجلّ ـ حال الكفّار في أنّهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبتّ الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب، وإن كان المؤمن الذي يتّصل به الكافر نبيّاً من أنبياء الله بحال

(1) روح المعاني 25/ 92 والحديث أخرجه الدّار قطني في سننه 1/ 188 ـ 189.
(2) المحرر الوجيز 5/ 61.
(3) التحريم 10 ـ 11.

امرأة نوح وإمرأة لوط، لَمّا نافقتا وخانتا الرسولَيْن، لم يغن الرسولان عنهما بحقٍّ ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناء ما من عذاب اللّه»[1].

ومثَّل في الآية الثانية الّذين آمنوا بإمرأة فرعون المؤمنة التي أخفت إيمانها في بيت الطاغية فرعون، فنجَّاها الله من كيد فرعون ومكره.

«ومثَّل حال المؤمنين في أنَّ وصلة الكافرين لا تضرُّهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله، بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله ـ تعالى ـ مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى»[2].

يتبيَّن من العرض السابق لمقاصد تصريف الأمثال في القرآن الكريم، أنَّها تناولت مقاصد شتَّى، موزَّعة في كتاب الله العزيز، حسب مناسباتها، وسياق كلٍّ منها في سورته، وذلك لإثبات أصول العقيدة الإسلاميَّة، وتصحيحها، وترسيخها في النفوس، ولذا اقتضى الأمر أن تبيِّن الأمثال القرآنية أيضاً، الفرق بين المؤمنين والكافرين، وجزاء كلٍّ منهما، وسنَّة الله في المكذِّبين، ليتَّعظ بهم المتأخِّرون، وفضحت النفاق، وبينت جزاء المنافقين، تحذيراً من سلوك سبيلهم، وذمَّت الحياة الدنيا، تنفيراً من الاستغراق في ملذَّاتها، والاغترار بها، وعظَّمت حال الآخرة، ترغيباً في الأعمال التي تقرِّبُ إليها.

وقد حثَّت على إنفاق المال في طاعة الله، ونفَّرت من إنفاقه في غير طاعته ـ تعالى ـ وفرَّقت بين إنفاق المخلصين، وإنفاق المرائين، ترغيباً في الأوَّل، وتنفيراً وتحذيراً من الثاني، وبيَّنت قبائح اليهود في مساواتهم البيع بالربا.

تلك أغلب مقاصد تصريف الأمثال في القرآن الكريم، نكتفي منها بهذا القدر، والتي يظهر منها أنَّ في بيان هذه المقاصد، ترغيباً في مبادئ الإسلام وتعاليمه، وترهيباً من مخالفته، وذلك بصورة مطَّرِدَة.

---

(1) الكشاف 4/ 130 ـ 131.

(2) نفسه ص 131.

خاتمة الكتاب

بعد هذه الرحلة الطويلة التي عاشها الباحث مع «بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى)» يصل إلى بيان أهمِّ النتائج التي استخلصها من هذه الدراسة.

ففي التمهيد تبيِّن للباحث أنَّ تصريف الآيات هو تنويعها في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد، وعرضها بصور شتَّى وأساليب مختلفة، وذلك لتقرير أصول العقيدة وعرض أدلَّتها، وبيان الحجج والدلائل الدالَّة على الوحدانيَّة، وعظيم القدرة الإلهيَّة، وإثبات البعث والجزاء، والنبوَّة والرسالة، وإيراد القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، والشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، وما إلى ذلك مما صرَّف القرآن بيانه، وأنَّ هذه الموضوعات ترد كثيراً في مواضع متعدِّدة من القرآن، لكنَّ طرائق عرضها وأساليب تقريرها تبدو جديدة في كلِّ موضع، وقد يظنُّ عند النظرة السريعة أنَّ ذلك تكرار قصد به ترسيخ تلك المعاني، لكن عند التدبُّر والتعمُّق يظهر أن ليس تكراراً، ولا ينبغي أن يسمَّى تكراراً، وأن من الأنسب تسميته بالتصريف.

وقد تبيَّن للباحث أيضاً استبدال مصطلح التصريف بمصطلح التكرار: لما في المصطلح الثاني من المساوئ التي يراها بعض العلماء الذين تعرَّضوا لهذا المصطلح.

كما يجب أن يستعمل مصطلح التصريف إقتداء بتلك الآيات الكريمة التي ترشدنا إلى هذا المصطلح، ولما لاحظناه من تضارب بين العلماء في إثبات مصطلح التكرار ونفيه.

وقد استنتج الباحث من تتبُّعه للآيات التي يرون أنَّ فيها تكراراً، أنه لا يوجد تكرار في القرآن الكريم، وإنما هو تصريف للقول، بدليل أنَّ الذي يستقرئ آيات الكتاب العزيز لا يجد نصاً بذلك.

بمعنى أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يقل كررّنا الآيات أو ردَّدناها، وإنما يجد آيات تشير إلى مصطلح التصريف، وهذا من باب أَوْلى أن ينفي هذه الصفة عن القرآن الكريم، الذي وصفه الله ـ تعالى ـ بالإحكام والتفصيل، فقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

(1) هود 1.

إنَّ الذي يتأمَّل الآيات المتشابهة، والآيات التي يرى البعض أنَّها مكرَّرة يتبيَّن له اختلاف كبير في بعض مفرداتها، واختلاف في سوابقها ولواحقها، وأسباب نزولها.

إنَّ هذا التنوّع البياني في الآيات هو تصريف للقول في القرآن الكريم في أعلى مراتبه، وله مقاصد ومرام سامية يرمي إليها في كلِّ مرَّة، بل وفي كلِّ كلمة من آي كتاب الله العزيز.

وأمَّا في الفصل الأوَّل من الباب الأول فقد تبيّن للباحث أنَّ القرآن الكريم يتميَّز في بناء سوره وآياته بقدرته على الانتقال من موضوع إلى آخر في روعة من الانسجام والتماسك بين المعاني المختلفة، وهو مظهر من مظاهر إعجازه، وسرٌّ من أسرار بلاغته.

وأن القرآن الكريم ينوع مقاصده في السورة الواحدة، وبخاصَّةً في السور الطول، تنويعاً عجيباً، وينتقل من مقصد إلى آخر في ترابط قويٍّ، وتماسك متين، ذلك أنه ينوع المعاني بطرائق مختلفة، وأساليب شتّى، غاية في الروعة والبيان.

وأنَّ القرآن الكريم على كثرة سوره، وتفرق مناسبات نزوله، واختلاف مقاصده وتنوُّعها، فهو بناء متماسك في تصريف سوره، وبناء تلك المقاصد في السور.

وأن هذه السور على ما فيها من اختلاف في بنائها، وفي تنوُّع مقاصدها، فهي جميعاً في أعلى درجات البلاغة والكمال، كلٌّ منها تؤدّي مقاصدها في دقَّة وإحكام.

وأن هذا التماسك القويَّ، والترابط المتين، بين الآيات والسور، يرجع إلى أنَّ ترتيب الآيات والسور توقيفيّ.

وقد رجَّح الباحث أن ترتيب السور توقيفيّ، للآثار الشاهدة بذلك؛ ولأنَّ النبيَّ - ﷺ - لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلاَّ بعد أن اكتمل القرآن الكريم.

كما أنَّه لا يتصوَّر أنَّ النبيَّ - ﷺ - قد بيَّن ترتيب بعض السور، وترك الآخر، ذلك لا يقال في حقِّه؛ لأنَّ الله - تعالى - أمره بالتبليغ فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[1].

(1) المائدة 67.

وأيضاً فإنَّ من مهمَّته - ﷺ - البيان بنصِّ القرآن الكريم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

واتَّضح لنا أنَّ بناء السور على هذا النحو، والتنويع في إيراد مقاصده بطرائق شتى وأساليب مختلفة سرٌّ من أسرار إعجازه.

وأنَّ ذلك التصريف على تنوُّعه وحدة مترابطة الأجزاء بين الآيات والسور كلِّها، متَّصل بعضها ببعض في نسق رائع، وكلُّ آية في السورة مرتبطة بما قبلها وما بعدها، برباط قويٍّ.

واتَّضح لنا من الأنموذج الأوَّل، وهو السور الطول، أنَّ سور هذا القسم منها المدنيُّ، ومنها المكيُّ، فالمدنيُّ اهتمَّ بالجانب التشريعيِّ بفروعه المختلفة، وقد يأتي في سورة مجملاً ثم تفصِّله التي بعدها، وقد يترقَّى في أحكامه من السهل إلى الصعب، تمشِّياً مع سماحة الإسلام، وتدرُّج أحكامه، ومع ذلك لم تغفل جانب العقيدة، فهي من حين إلى آخر تثبت التوحيد والنبوَّة والرسالة، والبعث والجزاء.

وتعرض أيضاً لقصص بعض الأنبياء والأمم السابقة، تسلية للنبيِّ - ﷺ - عمَّا يلاقيه من أعداء الدعوة والمكذِّبين بها.

وأمَّا السور المكيَّة فقد تعرَّضت بالتفصيل لجانب العقيدة بكلِّ أركانه، ففصَّلت ما جاء في السور المدنيَّة، وتوسَّعت في ذلك توسُّعاً كبيراً؛ لأنَّ ذلك من خصائصها التي تميزَّت بها، عارضة الأدلَّة الباهرة والبراهين الساطعة، منوِّعة عرضها، تحقيقاً لأصول الإيمان وأركانه الأساسية وتعرَّضت كذلك بالتفصيل لقصص الأنبياء والأمم السابقة، التي سبق ذكرها في السور المدنيَّة، وأتت بجديد لم تذكره تلك السور، وذلك في بناء محكم، وتناسق متين، وترابط قويٍّ، غاية في الدقَّة والإحكام.

وأنَّ السور رغم طولها وتنوُّع مقاصدها، فهي متناسقة في بنائها ومتلاحمة في ترتيبها، وأنَّ آيات كلِّ سورة مترابطة فيما بينها، ومبنيَّة بعضها مع بعض في تلاحم قويٍّ، وتسلسل منطقيٍّ، وأنَّ لكل سورة شخصيَّتها التي تميِّزها عن غيرها.

---

(1) النحل 44.

وتبيَّن لنا أنَّ القسم الثاني وهو المئون، أن سوَرَه كلها مكّيّة تعالج أصول العقيدة الإسلامية وأركانها الأساسية؛ إذ توسَّعت في إيرادها توسُّعاً كبيراً أخذ معظم هذه السور.

وأنَّ هذا القسم تميَّز بقصر السور والآيات بخلاف القسم الأوَّل الذي طالت فيه السور والآيات، وأنَّ لكلٍّ منها شخصيَّتها المتميزة في أسلوبها وطريقة بنائها.

وقد تتشابه في بعض الأحيان، ولكنَّها لا تتماثل على عادة القرآن في تصريف مقاصده، بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة.

وأما القسم الثالث، وهو المثاني، فمنه المكيُّ ومنه المدنيُّ، والمكيُّ أكثر من المدنيِّ، ولكلٍّ منهما موضعه الخاصُّ، والقضايا التي يتناولها، فالمدنيُّ يتناول الجانب التشريعيَّ، والمكيُّ يتناول الجانب الإعتقاديَّ، ومع ذلك لا يغفل كلٌّ منهما الجانب الآخر، فتورد إشارات للجانب الإعتقاديّ في المدنيّ، والعكس في السور المكيّة.

وأما القسم الرابع، وهو سور المفصَّل، فمنه المكيُّ، ومنه المدنيُّ كذلك، ولكلٍّ منهما سماته الخاصَّة التي تميِّزه عن الآخر، وأنَّ لهذه السور مميِّزاتها الخاصَّة، التي تتميّز بها عن سور الأقسام الأخرى في بنائها، وبخاصَّة كلَّما قصرت السور، وأنَّ نظمها يكاد يكون على نسق واحد، وأنَّ أغلبها في موضوع واحد، وأنَّها تتميَّز كذلك بالإيجاز، ومع ذلك فقد تناولت معظم مقاصد القرآن الكريم إجمالاً، وأنَّها تتميَّز بقصر السور والآيات، بخلاف الأقسام الأخرى التي تطول فيهما على تفاوت في القصر كلَّما قصرت السور.

وأمَّا في الفصل الثاني فقد تبيَّن لنا أنَّ التصريف في فواتح السور مرجعه سرُّ الإعجاز القرآني ودقَّتُهُ المتناهية، التي جعلته في أعلى مراتب الحسن والبيان، في ألفاظه ومعانيه.

واتَّضح لنا أنَّ الحروف المقطَّعة اقترنت في تنويع بيانها بذكر الكتاب ووصفه بصفات الإحكام والبيان، فلا يتطرَّق إليه خلل، ولا تناقض، ولا يدخله شكٌّ، ولا يعتريه كذب؛ لأنه تنزيل الحكيم العليم.

وأنَّ في هذه الفواتح جميعاً إشارة إلى الإعجاز وحسن البيان، وأنَّها تنوَّعت بطرائق شتَّى، غاية في الدِّقة والإحكام، والحسن والبيان، واختصَّ كلٌّ واحد منها بما افتتح به، وأنَّ غيره لا يحلُّ محله، ولا يؤدِّي غرضه.

وأمَّا الخواتم فهي مثل الفواتح في الحسن والبيان، والدقَّة والإحكام، وهي على وجازتها، قَدْ تضمَّنت في مجموعها وجوهاً من التصريف البليغ، والبيان البديع المعجز.

وتبيَّن لنا في الفصل الثالث أنَّ ألفاظ القرآن الكريم تختار بعناية فائقة، وتُبنى بناءً دقيقاً محكماً، وأنَّ كلَّ لفظة تؤدِّي معانيها في الآية التي هي منها أبلغ أداء، وغيرها لا يحلُّ محلَّها ولا يؤدِّي معانيها.

وأنَّ بناء الآيات في السورة الواحدة من أهمِّ وأدقِّ الخصائص التي تميَّزَ بها القرآن الكريم في بناء مقاصده المختلفة التي يتصرَّف فيها بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة؛ إذ يتنوَّع هذا البناء بحيث يجعل من السورة الواحدة ترابطاً قوياً في آياتها ودلالاتها المعنوية واللفظية؛ لأنَّ القرآن الكريم يهتُّم اهتماماً كبيراً ببناء ألفاظه المعبِّرة عن معانيه الدقيقة؛ إذ يصرِّف اللفظ المناسب في موضعه الذي يؤدِّي معانيه أبلغ أداء.

وأنَّ هذا الاهتمام لا يقتصر على المفردات وحدها، بل يتعدَّاها إلى مقاصدها المتنوِّعة، فيصرّفها تصريفاً يناسب المقام والمناسبة، لتأخذ العبارة منفذها إلى النفس؛ ولتحقِّق المعاني مقاصدها المرادة منها بدقَّة متناهية.

وأنَّ القرآن الكريم يأتي باللفظ المعبِّر والمصوِّر لمعانيه تصويراً دقيقاً، وهو يراعي في تصريفه الفروق الدقيقة بين المفردات؛ لأنَّ لكلٍّ منها دلالاتها التي يؤدِّيها أبلغ أداء، مراعياً في ذلك روح السورة ومناسبتها ومقاصدها، فلكلٍّ مقصد ألفاظه التي تحقِّق مراد الله - سبحانه وتعالى - من ذلك المقصد في جلاء ووضوح، فلا تعقيد في ألفاظه، ولا تنافر بينها، بل تماسك متين، وانسجام تامّ.

وأنَّ ألفاظ القرآن الكريم تتصرَّف وفق بناء محكم بالتقديم تارة، والتأخير أخرى، إذ إنَّه لا يتقدَّم لفظ أو يتأخَّر إلا لموجب يقتضيه المقام، أو لمناسبة يكون اللفظ فيها أنسب من غيره، وكذلك لاختلاف المقاصد، فيكون اللفظ الأليق في مكانه، والأدلَّ على معناه؛ ليؤدِّي أسراره المعنوية التي يقتضيها السياق في دقَّة وإحكام.

وأنَّ الجمل القرآنيَّة تأتي مفصولة وموصولة؛ ليكونَ كلٌّ منها أدقَّ في موضعها، وأبلغ في تحقيق مقاصدها، وبذلك تحقَّق العلاقة القويّة بين المفردات والمعاني في الآية، مع ما قبلها وما بعدها، وتحقِّق أيضاً الترابط المتين، والبناء القويَّ المتماسك.

كما أنَّ الكلمة الواحدة تتصرَّف في القرآن الكريم إلى معان مختلفة، يرجع الأمر فيها إلى السياق المنتظمة فيه تلك الكلمة، وأسباب النزول، وسوابق الآيات ولواحقها.

وأنَّ هذا التنوُّع يدلُّ على الاستعمالات الدلالية للكلمة الواحدة في القرآن الكريم.

وأنَّ هذا التنوُّع هو الذي جعل القرآن الكريم معجزاً في ألفاظه ومعانيه، وهو الأمر الذي ينفي صفة التكرار عنه، ويطبعه بطابع التصريف، الذي هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وسرٌّ من أسرار بلاغته.

وأنَّ التعقيبات القرآنية، تتصرَّف بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، وكلُّها في غاية الدِّقة والإحكام، وأنَّها مناسبة لما أعقبت به، ومكمِّلة لمقصود الآية التي أعقبت بها، وبذلك تؤدِّي معانيها على أكمل وجه وأتمِّه، وهي تتنوَّع بتنوُّع مقاصد الآيات، ومع ذلك يكون كلُّ تعقيب هو الأخصُّ في مكانه، والأدلُّ على معناه، وأنَّ غيره لا يحلُّ محلَّه ولا يؤدِّي معناه أيضاً.

وأنَّ الفواصل القرآنية تتنوَّع تنوُّعاً عجيباً، إذ تأتي في مواضعها من الآيات لتكمل مقاصدها، وتزيد معانيها وضوحاً، محدثة إيقاعاً موسيقيّاً ينسجم مع الآيات.

وتبيَّن لنا في الفصل الأول من الباب الثاني أنَّ القرآن الكريم نوَّع أدلَّة إثبات التوحيد، إذ أوردها بطرائق مختلفة، وأساليب شتَّى، موزَّعةً على سور القرآن الكريم وآياته، حسب أسباب النزول والسياق الواردة فيه تلك الدلائل.

وأنَّ طرق عرضها وأساليب تقريرها يختلف من موضوع إلى آخر، فتكون في كلِّ موضع جديدة في أدلَّتها وأساليبها، منسجمة في مواضعها تمام الإنسجام.

وأنَّ هذه الأدلَّة المتعددِّة جاء بها القرآن الكريم لأجل إثبات التوحيد الخالص لله ربِّ العالمين، وإفراده بالعبادة وحده، وإظهار بديع صنعه وإبطال الشرك والوثنيَّة التي كانت سائدة قبل نزول القرآن الكريم.

وقد لاحظنا أنَّ التنوُّع في هذه المعاني وأساليبها، وطرائق القرآن في تصريفها، لم يقف عنده المهتمُّون بالتفسير وعلوم القرآن الكريم وبلاغته، وقد اكتفوا بتفسير هذه المعاني في مواضعها، فلم يشيروا إلى تصريفها في المواضع المختلفة.

وتبيَّن لنا أيضاً أنَّ القرآن الكريم صرَّف القول في الآيات الدالَّة على التوحيد تصريفاً بديعاً يكشف عن إعجاز القرآن الكريم وروعة بيانه .

وأنَّ القرآن الكريم تفنَّن في تصريفه لهذه الآيات وغيرها ، فهو ينتقل من معنى إلى آخر عن طريق أساليبه المتنوِّعة ، التي تجعل كلّ آية تابعة لسياقها ، ومحقِّقة لمقصودها في السورة .

وأنَّ هذا التنويع يكشف عن عظمة الخالق ، وبديع صنعه ، وعلمه وحكمته ، واستحقاقه للعبادة وحده .

وتبيَّن لنا أنَّ القرآن الكريم ينوِّع أساليب إثبات التوحيد بصور شتَّى ، وطرائق مختلفة ؛ لتحقيق مقاصده العالية في تناسق بديع ، وتفنُّن عجيب .

وأنَّ التنويع في الأساليب ، والذي يقابله التنويع في المعاني ، يكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، وسرِّه البيانيِّ الرفيع .

وأمَّا تصريف القول في إثبات البعث والجزاء ، فقد اتَّضح لنا منه أن كثيراً من العلماء الذين اهتمُّوا بتفسير القرآن الكريم وعلومه ، قد اضطربوا في إختيار المصطلح المناسب لكثرة ورود إثبات البعث والجزاء وتصريفه في القرآن الكريم ، فمرَّة يصفون هذه الآيات بالتكرار ، ومرة أخرى ينفونه عنها .

وتبيَّن لنا أن القرآن صرَّف الآيات الدالَّة على البعث والجزاء وتحقُّقهما في سور وآيات كثيرة ، إذ تنوَّعت تنوَّعاً كبيراً ، وفصِّلت تفصيلاً واضحاً ؛ لإثبات ذلك اليوم وتحقُّقه .

وأنَّ القرآن الكريم ينوِّع المعاني والأساليب الدالَّة على البعث والجزاء بما لا يدع مجالاً للشكِّ في إثباتهما وتحقُّقهما ، مصوِّراً إيّاهما في بعض المشاهد كأنَّه أمر حاضر الآن ، ذلك أن أساليب القرآن الكريم كلها تتآزر في تصوير المعاني البيانيَّة الرائعة في الآية .

وأنَّ تنويع المعاني يرجع إلى تنويع الأساليب ، ذلك أن الأسلوب القرآنيَّ يتَّجه إلى عدَّة ألوان ؛ ليقرِّب القضيَّة إلى الأذهان ، فيعرضها بأساليب مختلفة غاية في الروعة والبيان ، ويأتي بالأسلوب المقنع المؤثِّر ، المؤدّي للفكرة أبلغ أداء ، الذي لا يمكن معه إلاّ التسليم والإقتناع .

وأنَّه لا تكرار في المشاهد المتنوِّعة ، لا في المعاني ولا في الأساليب ، وأنَّ ذلك هو التنويع العجيب ، والتفنُّن الدقيق ، الذي انفرد به القرآن الكريم عن غيره في روعة بيانه ، وتحقيق مقاصده .

وقد تنوَّع إثبات البعث والجزاء، إذ عرض في مواضع متفرِّقة من سور القرآن الكريم، فجاء في كلِّ موضع مناسباً لموقعه أتمَّ مناسبة.

وقد لاحظنا أنَّ هذه الآيات وإن اتَّفقت في دلالاتها المعنويَّة الدالَّة على البعث والجزاء، فقد اختلفت في بعض أساليبها اللفظية، وما ختمت به هذه الآيات، وهو ممَّا ينفي صفة التكرار عنها.

وأنَّ لكل سورة معانيها وأساليبها المختلفة عن غيرها في عرض مشاهد البعث والجزاء، وذلك مما يميِّزها عن غيرها من المعاني والأساليب.

وأنَّ القرآن الكريم في إثباته للبعث والجزاء ينتقل من أسلوب إلى آخر بحسب مقتضيات الأحوال، والمقاصد التي يحقِّقها.

وأنَّه لا يسير على طريقة واحدة في نظم أساليبه، بل ينوِّعها تنويعاً بديعاً؛ لأنَّ كلَّ أسلوب يحقِّق مقاصد معيَّنة لا يحقِّقها غيره من الأساليب.

وأنَّ مشاهد النعيم والعذاب تعتبر من أبرز الموضوعات التي صرَّف القرآن الكريم بيانها على وجوه كثيرة، وطرائق شتَّى، مصوِّراً إيَّاها أبلغ تصوير على سبيل التقابل بين النعيم والعذاب، أي بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين.

وأمَّا تصريف القول في إثبات النبوَّة والرسالة فقد تبيَّن لنا منه أنَّ القرآن الكريم أولى عناية كبيرة بالنبوَّة والرسالة، مثل عنايته بأصول العقيدة الأخرى، وغيرها من أوامر الشريعة ونواهيها التي صرَّف القرآن بيانها، فهو يذكرها في مواضع متفرِّقة، منوِّعاً بيانها بطرائق شتَّى وأساليب مختلفة، وذلك لإثباتها وبيان صدقها بالأدلَّة الواضحة، والبراهين الساطعة التي يعرضها من حين إلى آخر، بيد أنَّ طرائق عرضها وأساليب تقريرها، يختلف من موضع إلى آخر، فتكون جديدة في كلِّ موضع في معانيها وأساليبها.

وأنَّ التنويع في هذه المعاني والأساليب يرجع إلى السياق، وإلى الأسباب التي نزلت فيها الآيات، وكذلك سوابق الآيات ولواحقها.

وتبيَّن لنا أن هذا التنوّع الدلالي والأسلوبي في القرآن الكريم يبرز روعة القرآن الكريم وجلاله، وسماته الجمالية التي لا نظير لها في غيره من الأساليب النثريَّة والشعريَّة، وهو مما جعل هذا التنوُّع الدلاليَّ والأسلوبيَّ لوناً من ألوان تصريف القول في القرآن الكريم، ومظهراً من مظاهر إعجازه، وسرّاً من أسرار بلاغته.

وتبيَّن لنا أيضاً أنَّ في هذه الآيات تنويعاً بيانياً، يعرض الحجج والدلائل الدالَّة على نبوَّة محمَّد ـ ﷺ ـ ورسالته في كلِّ موضع من هذه المواضع.

وأنَّ القرآن الكريم يصرِّف القول في إثبات الوحي بطرائق شتَّى، وأساليب مختلفة، فيعرضها في كلِّ مرَّة بطريقة تختلف عما ذكر في غيرها من السور التي وردت فيها، من حيث الدلالات والأساليب.

واتَّضح من دراستنا لتصريف القول في آيات الموعظة أنَّ القرآن الكريم نوّع القول فيها تنويعاً عجيباً، فصرّفها بطرائق شتى وأساليب مختلفة، غاية في الروعة والإنسجام.

وتبيَّن لنا أنَّه لا تكرار في القصص القرآني، وإنَّما هو التصريف البديع الذي يرجع إلى السياق، وموضوع السورة التي تذكر فيها القصّة؛ ليحقق بذلك مقاصد القصَّة بأبلغ أسلوب وأروعه.

وأنَّ القرآن الكريم نوَّع مقاصد القصص القرآني في مواطن متفرَّقة من الكتاب العزيز، تنويعاً كبيراً، إذ صرَّفها بطرائق شتَّى موزّعة على قصصه.

وتبيَّن لنا أنَّ القصص القرآني نوَّع الأساليب التي تعارف عليها البلاغيّون تنويعاً بديعاً، وتفنَّن في ذلك تفنُّناً دقيقاً، وليس ذلك في القصص القرآني وحده، وإنّما القرآن كلُّه في أعلى درجات البلاغة والكمال، سواء الذي ذُكرت فيه تلك الأساليب، أو الذي جاء خالياً منها.

وأنَّ القرآن الكريم صرّف هذه الأساليب وفق نظام بديع، يقتضيه المقام ويتطلَّبه السياق.

وأنَّ القرآن الكريم حينما يصرِّف هذه الأساليب لم يكن يقصد هذه الأساليب لذاتها، وإنَّما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه وإرتباط معانيه المختلفة حسب موقعها من الآية الواردة فيها، ولا فرق في ذلك بين أساليب القصص القرآني، وبين غيرها من الأساليب الأخرى، فكلُّ أسلوب يتصرَّف ليؤدِّي معانيه في دقَّة وإحكام.

وتبيَّن لنا أنَّ كلَّ قصَّة أو حلقة من قصة، أو إشارة موجزة تختصُّ بموضوعها الواردة فيه، وأعني بذلك التلاؤم والتناسب بين القصَّة والسورة التي هي منها.

وأنَّ التلاؤم والتناسب ليس واقعاً بين القصَّة والسورة التي هي فيها وحَدها، وإنَّما تجده في كلِّ كلمة، بل وفي كلِّ حرف من الآية.

وأنَّ القرآن الكريم حينما يصرِّف هذه الوجوه بأسلوبه المعجز، فهو يضرب لذلك مثالاً عالياً في الدقَّة والبيان.

وأنَّ تناسب الألفاظ والمعاني يدلُّ على التصريف البديع، وينفي صفة التكرار عن القصص القرآني، ومن ثمَّ عن القرآن كلِّه، وبخاصَّةٍ الآيات المتشابهة في بعض ألفاظها ومعانيها.

وأنَّ تنوُّع طرائق عرض القصَّة الواحدة ينبئ عن براعة فائقة في تصريف القصص القرآني، وأنَّ في هذا التنويع مناسبة وتلاؤماً بين حلقات القصص والسورة الواردة فيها.

وأنَّ القرآن الكريم يصرِّف القصَّة الواحدة في أكثر من موضع مناسبة لسورتها مع إختلاف في جوانب التناول بين هذه المواضع.

ويقدِّم في كلِّ حلقة أو مشهد من المشاهد القصصيَّة جديداً مع تنوُّع في الأساليب والمعاني، وهو مما يضفي على كلِّ حلقة موضوعها وخصائصها التي تتميَّز بها عن غيرها من الحلقات.

وأنَّ هذا التنويع يكفل نفي التكرار عن تلك القصص المتشابهة في بعض ألفاظها ومعانيها.

واستخلصنا أنَّ هناك نوعين من قصص الأنبياء الذي يتصرَّف في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، فالنوع الأوَّل: وهو ورود إشارات متفرقة في كتاب الله ـ تعالى ـ وأما النوع الثاني: فهو يتمثل في تصريف القرآن لحلقات متعدِّدة في سور مختلفة.

ويلاحظ أنَّ القرآن الكريم في تصريفه لهذه الحلقات يعرضها تارة مجملة، وأخرى مفصَّلة، ولا يعرض منها في كل مرَّة إلا ما يتَّفق وسياق السورة وموضوعها، وما يحقِّق المقاصد المرادة من تلك القصَّة.

وتبيَّن لنا من دراستنا لتصريف القول في الأمثال القرآنيَّة، أنَّها تتصرَّف في غاية الروعة والبيان، بصور شتى وطرائق مختلفة، محقِّقة بذلك جملة من مقاصد القرآن الكريم.

وأنَّ الأمثال القرآنيَّة لا تكرار فيها، ولا بينها، بل التصريف البديع، والتنويع العجيب، الذي يكشف الحقائق الخفيَّة، ويجعلها ظاهرة جليَّة، وذلك بتقريبها إلى الأذهان في أبلغ صورة، وأدلِّ عبارة على المعنى المقصود.

وأنَّها تزيد النفوس تمسُّكاً بالدين الإسـلاميِّ، وتحثّ على اتّباع أوامره، واجتناب نواهيه، بالترغيب في الخير والثواب، تارة، والترهيب من الشرِّ والعقاب تارة أخرى.

وأخيراً فإنَّ من المقترحات المهمَّة في هذا الشأن هو وجوب الإهتمام بمصطلح تصريف القول في القرآن الكريم، وإيثاره على غيره من المصطلحات الأخرى التي نافسته في الاستعمال، وخصوصاً حينما يكون الكلام متعلّقاً بتنوُّع معاني وأساليب البيان القرآنيّ.

ـ والله سبحانه وتعالى ـ أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم ـ.

والحمد لله ربِّ العالمين

الفهارس العامَّة

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، والرّسم العُثمانّي، جمعّيةُ الدعوة الإسلامّية العالميّة، طرابلس، ليبيا.

2 ـ الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدّين عبد الرحمن السُّيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، ط الثالثة، 1405هـ.

3 ـ إتحاف المريد بجوهرة التوحيد، لعبد السلام إبراهيم اللّقّاني، مخطوط بالخزانة العامَّة بالرباط تحت رقم 4/ 2218 د في مجموع من 130 ـ 295.

4 ـ أساس البلاغة لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ، مطبعة دار الكتب، ط الثانية، 1972م.

5 ـ الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، عبيد درَّاز، مطبعة الأمانة، مصر، ط الأولى، 1406هـ/ 1986م.

6 ـ أسباب النزول، تأليف: أبي الحسن علي بن أحمد الواحديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ت.

7 ـ أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، تصحيح محمد عبده، وتعليق محمَّد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، د ت.

8 ـ أسرار ترتيب القرآن للحافظ جلال الدّين السيوطيّ، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، د ت.

9 ـ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنيَّة، حسن طبل، المدينة المنوّرة 1411هـ/ 1990م.

10 ـ إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، لبديع الزمان سعيد النّورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحيّ، دار الأندلس للطباعة والنشر ط الأولى، 1409هـ/ 1989م.

11 ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، تأليف الإمام الحافظ عز الدّين عبد العزيز بن عبد السلام، اعتنى بطبعه وقدَّم له رمزي سعد الدّين دمشقية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط الأولى، 1408هـ/ 1987م.

12 ـ الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها، تأليف عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد المصري، سَعْدُ الدّين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، القاهرة، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبّيّ، القاهرة، ط الأولى، 1404هـ/ 1984م.

13 ـ الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي، دراسة وتحقيق عبدالله محمود شحاتة، الهيئة المصرية للكتاب 1414هـ/ 1994م ط ثانية مصورة عن الطبعة الأولى.

14 ـ أضواء على متشابهات القرآن ، الشيخ خليل ياسين ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط الثانية ، 1980 .
15 ـ الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق ، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط الثانية ، د ت .
16 ـ الإعجاز الفنّي في القرآن ، عمر السّلامي ، نشر وتوزيع مؤسّسات عبد الكريم بن عبدالله ، تونس 1980م .
17 ـ إعجاز القرآن للإمام أبي بكر محمد بن الطيِّب الباقلاني ، تحقيق عماد الدّين أحمد حَيْدَر ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، ط الأولى ، 1411هـ/ 1991م .
18 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة ، تأليف مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1410هـ/ 1990م .
19 ـ إعجاز القرآن ، الإعجاز في دراسات السابقين ، عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربي ، ط الأولى ، 1974م .
20 ـ إعراب القرآن لأبي جعفر النّحاس ، تحقيق زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط الثالثة ، 1409هـ/ 1988م .
21 ـ الأعلام ، تأليف خير الدين الزركلي ، ط الثالثة ، بيروت 1389هـ/ 1969م .
22 ـ أعلام السُّنن في شرح صحيح البخاري ، لأبي سليمان الخطابي ، دراسة وتحقيق يوسف الكتاني ، مطابع منشورات عكاظ ، الرباط 1991م .
23 ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزيّة ، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل للطباعة والنشر ، بيروت 1973م .
24 ـ الإكسير في علم التفسير للعالم الطوفي سليمان ، تحقيق عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب لصاحبها علي حسن ، القاهرة ، د ت .
25 ـ الأمثال في القرآن ، محمود بن الشريف ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط الرابعة ، 1985م .
26 ـ أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ، تأمّلات وتدبّر ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، ط الثانية ، 1412هـ/ 1992م .
27 ـ الأمثال من الكتاب والسنّة لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي ، تحقيق مُصطفى عبد القادر عطا ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط الأولى ، 1409هـ/ 1989م .
28 ـ الأمثال والمثل والتمثّل والمثُلات في القرآن ، مجمع البيان الحديث ، تأليف سميح عاطف الزّين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط الأولى ، 1407هـ/ 1987م .
29 ـ إيجاز البيان في سور القرآن ، محمد علي الصابوني ، دار الصابوني ، ط الثانية ، 1406هـ/ 1986م .

30 - الإيضاح في عُلوم البلاغة للإمام الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح محمّد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1989م.
31 - بدائع الفوائد، لأبي عبد الله محمد المعروف بابن قيّم الجوزية، تحقيق وتعليق: معروف مصطفى زريق وآخرين، دار الخير بيروت، ط الأولى، 1414هـ/ 1994م.
32 - بديع القرآن لابن أبي الإصبع المِصْرِي، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر، د ت.
33 - براهين وأدلة إيمانية، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، ط الأولى 1408هـ/ 1987م.
34 - البرهان في ترتيب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي، دراسة وتحقيق محمّد شعباني، وزارة الأوقات والشؤون الإسلامية، المغرب 1410هـ/ 1990م.
35 - البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط الثالثة، 1400هـ/ 1980م.
36 - البرهان في متشابه القرآن للإمام محمود بن حمزة الكرماني، قدم له وراجعه أحمد عز الدّين عبد الله خلف الله، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ط الأولى، 1411هـ/ 1991م.
37 - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تأليف كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزَملكاني، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط الأولى، 1394هـ/ 1974م.
38 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرزوابادي، تحقيق محمد علي النجار، يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، القاهرة، 1383هـ.
39 - بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة، للحافظ جلال الدّين عبد الرحمن السُّيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت، د ت.
40 - بلاغة العطف في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، عفّت الشرقاوي، دار النهضة العربية، بيروت 1981م.
41 - البيان في روائع القرآن، تأليف تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، ط الأولى 1993م.
42 - البيان في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار المعارف القاهرة، ط الثانية، 1985.
43 - البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، د ت.
44 - تاجُ العروس من جواهر القاموس للسيّد محمد مُرتضى الزّبيدي، تحقيق إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت 1392هـ/ 1972م.
45 - تأمّلات في سورة الإسراء، حسن محمد باجودة، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة 1978م.
46 - تأمّلات في سورة البقرة، حسن محمد باجودة، دار مصر للطباعة 1410هـ.

47 ـ تأمّلات في سورة الحاقة، محمد حسن باجودة، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1982م.
48 ـ تأمّلات في سورة الرّعد، محمد حسن باجودة، دار الاعتصام، القاهرة، د ت.
49 ـ تأمّلات في سورة الفرقان، محمد حسن باجودة، دار النور، د ت.
50 ـ تأمّلات في سورة النازعات، محمد حسن باجودة، دار الاعتصام، القاهرة، د ت.
51 ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، شرح ونشر السيّد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ط الثالثة، 1410هـ/ 1981م.
52 ـ التبيان إعراب القرآن، تأليف أبي البقاء العكبري، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار الشام للتراث بيروت، د ت.
53 ـ التبيان في أقسام القرآن، تأليف شمس الدّين أبي عبد الله بن قيّم الجوزيّة، تقديم وتحقيق محمّد شريف سُكّر، دار إحياء العلوم بيروت، ط الأولى، 1409هـ/ 1988م.
54 ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، 1416هـ/ 1995م.
55 ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الرابعة، د. ت.
56 ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام شمس الدين أبي عبد الله القرطبي، تحقيق وشرح وتعليق السيّد الجميلي، دار ابن زيدون بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط الأولى، 1406هـ/ 1986م.
57 ـ التربية في القرآن، محمد عبد الله السمّان، دار الثناء للطباعة، إبراهيم محمد عيسى، ط الرابعة، 1373هـ/ 1954م.
58 ـ ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة القاهرة، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، ط الثالثة، 1980م.
59 ـ التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزي، الدار العربية للكتاب، د ت.
60 ـ التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه، ليحيى بن سلاّم، تقديم وتحقيق هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع 1979م.
61 ـ تصنيف آيات القرآن الكريم، تقديم محمّد محمود إسماعيل، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، 1413هـ/ 1993م.
62 ـ التصوير البياني محمد أبو موسى، دار التضامن للطباعة القاهرة، ط الثانية، 1400هـ/ 1980م.
63 ـ التصوير الفنّي في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية الخامسة 1399هـ/ 1979م.
64 ـ التعبير الفنّي في القرآن، بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت ط الثالثة 1399هـ/ 1979م.

65 ـ التعبير القرآني، تأليف فاضل صالح السّامرائي، نشر جامعة بغداد 1986م/ 1987م.
66 ـ تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد ابن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الرابعة، 1414هـ/ 1994م.
67 ـ تفسير الإمام ابن عرفة برواية تلميذة الأبيّ، دراسة وتحقيق حسن المنّاعي، نشر مركز البحوث بالكليّة الزّيتونية، ط الأولى، 1407هـ/ 1986م.
68 ـ تفسير أوائل سورة الدخان، للشيخ علي بن زين العابدين الأجهوري، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي تحت رقم ع 145 وع 730.
69 ـ تفسير الآيات الكونية، عبد الله شحاتة ـ دار الاعتصام القاهرة 1977م.
70 ـ تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسيّ، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجُود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1413هـ/ 1993م.
71 ـ تفسير البغوي، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط الثانية، 1414هـ/ 1993م.
72 ـ تفسير البيضاوي، تأليف ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط الأولى، 1410هـ/ 1990م.
73 ـ تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، النشرة الثانية، الدار التونسية للنشر 1973م.
74 ـ تفسير الثعالبي، الموسوم بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د ت.
75 ـ التفسير الحديث، محمد عزّة دروزة، دار إحياء الكتب العلمية 1381هـ/ 1962م.
76 ـ تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف الإمام علاء الدين علي بن محمد، المعروف بالخازن، دار الفكر بيروت، د ت.
77 ـ تفسير سور المفصّل من القرآن الكريم، تأليف العلاّمة عبدالله كنون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط الأولى، 1401هـ/ 1981م.
78 ـ تفسير غريب القرآن لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية بيروت 1398هـ/ 1978م.
79 ـ تفسير فخر الدّين الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط الأولى، 1401هـ/ 1981م.
80 ـ تفسير القاسمي: المسمى محاسن التأويل، تأليف محمد جمال الدين القاسمي، طبع وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط الأولى، 1376هـ/ 1957م.

81 ـ تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، للإمام محمّد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ط الثانية، د ت.
82 ـ تفسير القرآن العظيم، للإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1412هـ/ 1992م.
83 ـ تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب المصرية القاهرة، 1354هـ/ 1935م.
84 ـ تفسير مبهمات القرآن، الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل، للإمام أبي عبد الله محمد بن علي البلسني، دراسة وتحقيق حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى، 1411هـ/ 1991م.
85 ـ تفسير المراغي، تأليف المرحوم محمد مصطفى المراغي، ط الثالثة، 1394هـ/ 1974م.
86 ـ التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم، تأليف عبد العزيز بن الدّردير، مكتبة القرآن، د ت.
87 ـ التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، دار الجيل القاهرة، ط السادسة، 1389هـ/ 1969م.
88 ـ تفصيل آيات القرآن الحكيم، نقله إلى العربية محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط الثانية، 1373هـ/ 1954م.
89 ـ تقييد على سورة الفاتحة، لعبد الرحمن بن زكري، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي تحت رقم ع 194.
90 ـ التناسب البياني في القرآن، دراسة في النّظم المعنوي والصّوتي، أحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1992م.
91 ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، لأبي طاهر بن يعقوب الفيروزابادي، دار الفكر، د ت.
92 ـ تهذيب التهذيب للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف النظامية الهند، ط الأولى، 1325هـ.
93 ـ تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبد الله درويش، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966م.
94 ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرُّماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة، د ت.
95 ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الثانية، 1373هـ/ 1954م.
96 ـ جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق وتقديم رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط الأولى 1987م وطبعة دار صادر بيروت، طبعة جديدة بالأوفست، د ت.

97 ـ جواهر القرآن، لحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، مكتبة الجندي بمصر، د ت.
98 ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل، تأليف الشريف الرّضي، شرح العلاّمة محمّد الرّضا آل كاشف الغطاء، دار الأضواء بيروت، ط الأولى، 1406هـ/ 1986م.
99 ـ الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات بيروت، ط الخامسة، 1407هـ/ 1987م.
100 ـ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد المنعم إبراهيم محمد المعطي، مكتبة وهبة القاهرة، ط الأولى، 1413هـ/ 1992م.
101 ـ دراسات قرآنية، محمّد قطب، دار الشروق بيروت، دار الثقافة الدار البيضاء، طبعة 1414هـ/ 1993م.
102 ـ درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط الثالثة، 1979م.
103 ـ الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السُّيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، د ت.
104 ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط الثانية، 1413هـ/ 1992م.
105 ـ ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، د ت.
106 ـ ديوان النابغة الذبياني، شرح وتعليق حنا نصر الحتّي، دار الكتاب العربي بيروت، ط الثانية 1416هـ/ 1996م.
107 ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني، صنفه وشرح وبين أدلة مسائله، محمد عز الدين الغرياني، منشورات ELGA مالطا 1996م.
108 ـ الرسالة للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث القاهرة، ط الثانية 1399هـ/ 1979م.
109 ـ رسالة التوحيد، محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1406هـ/ 1986م.
110 ـ روائع الإعجاز في القصص القرآني، تأليف محمود السيّد حسن، المكتب الجامعي الحديث، إسكندرية، د ت.
111 ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي، دار الفكر بيروت 1403هـ/ 1983م.
112 ـ رياض الأزهار وكنز الأسرار للخروبي، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم 22362.
113 ـ زاد المسير في علم التفسير، تأليف الإمام أبي الفرج جمال الدّين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط الأولى، 1384هـ/ 1964م.

114 ـ سر الإعجاز في تنُّوع الصيّغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، عودة الله منيع القيسي، دار البشير عمان، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الأولى، 1416هـ/ 1996م.
115 ـ سنن أبي داود، ضبط وتعليق محمد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصطفى محمد القاهرة، د ت.
116 ـ سُنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجة، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د ت.
117 ـ سنن الدّار قطني للإمام الكبير علي بن عمر الدار قطني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1414هـ/ 1994م.
118 ـ السُّنن الصّغير للإمام الحافظ أبي بكر البيهقي، وثّق أصوله وخرّج حديثه، وعلق عليه: عبد المعطي أمين قلعجي، سلسلة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي ـ باكستان ـ ط الأولى، 1410هـ/ 1989م.
119 ـ السّنن الكبرى للإمام الحافظ أبي بكر البيهقي، دار المعرفة بيروت، ط الأولى، 1346هـ.
120 ـ سنن النسائي المجتبي، تأليف الحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر، ط الأولى، 1383هـ/ 1964م.
121 ـ سورة الرحمن وسُور قصار، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط الثانية، د ت.
122 ـ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، د ت.
123 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د ت.
124 ـ شرح شعر زهير بن أبي سُلمى، صنعه أبي العباس ثعلب، تحقيق فخر الدّين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الأولى، 1402هـ/ 1982م.
125 ـ شرح الصغري للإمام السنوسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 603 د.
126 ـ شرح القصائد التسع المشهورات، صنعه أبي جعفر النحاس، تحقيق أحمد خطاب، دار الحرية، بغداد 1393هـ/ 1973م.
127 ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط الرابعة، 1400هـ/ 1980م.
128 ـ شرح المعلّقات السبع للزوزني، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، مكتبة المعارف بيروت، ط الرابعة، 1980م.
129 ـ شعر زهير بن أبي سُلمى، صنعه الأعلمي الشنتمري، دار القلم العربي بحلب، ط الثانية، 1393هـ/ 1973م.

130 ـ الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط الثانية، 1399هـ/ 1979م.
131 ـ صحيح البخاري، بحاشية السند، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبي، د ت.
132 ـ صحيح البخاري، تأليف الإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة جديدة منقّحة 1415هـ/ 1994م.
133 ـ صحيح الترمذي بشرح الإمام أبي بكر بن العربي المالكي، مطبعة الصاوي، القاهرة، 1353هـ/ 1934م.
134 ـ صحيح الجامع الصّغير للسيوطي، تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي ط الأولى، 1388هـ/ 1969م.
135 ـ صحيح سنن الترمذي باختصار السند، تأليف محمد ناصر الدّين الألبناني، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط الأولى، 1408هـ/ 1988م.
136 ـ صحيح مسلم بشرح النّووي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الأولى، 1347هـ/ 1929م.
137 ـ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1399هـ.
138 ـ الصورة الأدبية في القرآن الكريم، صلاح الدين عبد التواب، الشركة العالمية للنشر لونجمان، ط الأولى، 1955م.
139 ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت 1388هـ/ 1968م.
140 ـ طبقات المفسرين للداودي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة القاهرة، ط الأولى، 1392هـ 1972م.
141 ـ الطريف في علم التّصريف، دراسة صرفية تطبيقية، تأليف عبد الله محمد الأسطى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، 1401و. ر/ 1992م.
142 ـ ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، لعبد المنعم السيّد حسن، دار المطبوعات الدولية، القاهرة، ط الأولى، 1400هـ/ 1980م.
143 ـ الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنار جدّة، ط الأولى، 1412هـ/ 1991م.
144 ـ ظواهر قرآنية في ضوء الدّراسات اللّغوية بين القدماء والمحدثين، البدراوي زهران، دار المعارف القاهرة، ط الثانيةن 1993م.
145 ـ عجائب القرآن للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1404هـ/ 1984م.

146 ـ عظمة القرآن، تأليف عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1405هـ/ 1984م.
147 ـ العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم، محمد أبو زهرة، مجمع البحوث الإسلامية 1389هـ/ 1969م.
148 ـ العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن جبنّكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط الرابعة، 1406هـ/ 1986م.
149 ـ عقيدة التوحيد في فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، تأليف أحمد عصام الكاتب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الأولى، 1403هـ/ 1993م.
150 ـ علوم القرآن، عبد الله شحاتة، دار الاعتصام، القاهرة، ط الثالثة 1985م.
151 ـ عُمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، تحقيق عبد السلام التونجي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط الأولى، 1424م/ 1995إفرنجي.
152 ـ غرائب القرآن ورغائب الفُرقان، تأليف نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق إبرايهم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط الأولى، 1381هـ/ 1962.
153 ـ غرر التبيان في من لم يسمّ في القرآن، بدر الدين محمد بن جماعة، دراسة وتحقيق عبد الجواد خلف، دار قتيبة، دمشق، ط الأولى، 1410هـ/ 1990م.
154 ـ غريب القرآن وتفسيره لأبي عبد الرحمن عبد الله بن يحيى المعروف بابن اليزيدي، تحقيق عبد الرزاق حُسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، 1407هـ/ 1987م.
155 ـ فتح الباري بشرح الإمام البخاري لابن حجر العسقلاني، وبهامشة متن الجامع الصحيح للإمام البخاري، المطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر، ط الأولى، 1301هـ.
156 ـ فتح البيان في مقاصد القرآن، للعلامة صديق حسن خان، الناشر أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، د ت.
157 ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريّاء الأنصاري، تحقيق وتعليق محمد علي الصابوني، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى، 1405هـ/ 1985م.
158 ـ فتح القدير، الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د ت.
159 ـ فتح المجيد بكافية المريد، تأليف عبد السلام إبراهيم اللقّاني، مخطوط محفوظ في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1817 د.

160 ـ الفُتُوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدّقائق الخفية، تأليف سليمان بن عمر العجيلي، الشهير بالجمل، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، د ت.
161 ـ الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم، جمع وترتيب محمد مصطفى محمد، دار عمّار عمّان، دار الجيل، بيروت، ط الرابعة، 1409هـ/ 1989م.
162 ـ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة في علوم القرآن وفضائله، لحسين بن علي الرجراجي الشوشاوي، تحقيق ودراسة الأمين عبد الحفيظ أبو بكر الدغروغي منشورات كلية الآداب والتربية بجامعة سبها، ط الأولى، 1994م.
163 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط الشرعية السابعة عشر 1412هـ/ 1992م.
164 ـ القاموس المحيط للفيروزابادي، دار العلم للجميع، د ت، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت الأولى 1415هـ/ 1995م.
165 ـ القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط الثانية، 1410هـ/ 1989م.
166 ـ القرآن كائن حيّ، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، ط الثالثة، د ت.
167 ـ قرآن مجيد شرح وترجمة إلى اللغة الإنجليزية، بقلم عبد الله يوسف علي، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، د ت.
168 ـ القرآن والصُّورة البيانية، عبد القادر حسين، دار المنار، القاهرة، ط الأولى، 1412هـ/ 1991م.
169 ـ قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الحديث القاهرة، د ت.
170 ـ قصص الأنبياء المسمّى عرائسُ المجالس، لأبي إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالثعلبي، المكتبة الثقافية، بيروت، د ت.
171 ـ القصة في القرآن، محمود بن الشريف، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط الأولى، 1983م.
172 ـ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، فضل حسن عباس، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع عمان الأردن، ط الثانية 1413هـ/ 1992م.
173 ـ القصص القرآني بين الآباء والأبناء، تأليف عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط الأولى، 1410هـ/ 1990م.
174 ـ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة، 1974م.
175 ـ كتاب الأسماء والصفات للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

176 ـ كتاب الأمثال في القرآن الكريم، لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1981م.
177 ـ كتاب التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، للعلامة شرف الدّين الطيبي، تحقيق وتقديم هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط الأولى، 1407هـ/ 1987م.
178 ـ كتاب التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء الأعلام لعبد الرحمن السهيلي، دراسة وتحقيق عبدالله محمد النقراط، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ط الأولى، 1401 و. ر/ 1992م.
179 ـ كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، ط الثالثة، 1403هـ/ 1983م.
180 ـ كتاب السير والمغازي، لمحمد بن إسحاق، دار الفكر، ط الأولى، 1398هـ.
181 ـ كتاب الضّعفاء الصغير للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق بورَان الضّناوي، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى، 1404هـ/ 1984م.
182 ـ كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تأليف يحيى بن حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت 1400هـ/ 1980م.
183 ـ كتاب هدية المريد بجوهرة التوحيد، للعلاّمة إبراهيم اللّقاني، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 601 د.
184 ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، د ت.
185 ـ كشف الظنون، حاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى بغداد، د ت.
186 ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة، لأبي الوليد محمد بن رشد، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الأولى، 1982م.
187 ـ كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تأليف بدر الدين بن جماعة، تحقيق وتعليق عبد الجواد خلف، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي باكستان، ط الأولى، 1410هـ/ 1990م.
188 ـ الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه عدنان درويش، محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط الثانية، 1982م.
189 ـ لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور، دار الفكر ودار صادر بيروت، د ت.
190 ـ لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

191 ـ مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط الأولى، 1410هـ/ 1989م.
192 ـ مباحث في علوم القرآن، تأليف منّاع القطان، مكتبة المعارف الرياض، ط الثامنة، 1408هـ/ 1988م.
193 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط الثانية، د ت.
194 ـ مجاز القرآن، صنعه أبو عبيدة معمر بن المثنى، التميمي، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية، 1410هـ/ 1981م.
195 ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، تأليف أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت.
196 ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي، عنيت بنشره مكتبة القُدسي لصاحبها حسام الدين القُدسي، القاهرة 1353هـ.
197 ـ مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، 1404هـ/ 1984م.
198 ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1413هـ/ 1993م.
199 ـ مختار الصّحاح، للإمام محمّد بن أبي بكر الرّازي، طبعة جديدة، دراسة وتقديم عبد الفتاح البركاوي، دار المنار، د ت.
200 ـ مختصر تفسير الطبري، اختصار وتحقيق محمَّد علي الصابوني وصالح أحمد رضا، عالم الكتب، بيروت، ط الثانية، 1413هـ/ 1993م.
201 ـ المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.
202 ـ المُستقصى في أمثال العرب لأبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثالثة، 1407هـ/ 1987م.
203 ـ مُسند أبي داودُ الطيالسي، للحافظ الكبير سليمان بن داود دار المعرفة، بيروت، د ت.
204 ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر، ط الثانية، 1398هـ/ 1978م.
205 ـ المسند الجامع، حقّقه ورتبه وضبط نصه: بشار عوّاد معروف وآخرين، دار الجيل، بيروت، الشركة المتحدة الكويت، ط الأولى، 1413هـ/ 1993م.
206 ـ مشاهد القيامة في القرآن، سيّد قطب، دار الشروق، ط الحادية عشرة، 1413هـ/ 1993م.

207 ـ مصاعدُ النظر للإشراف على مقاصد السُّوَر ، تـأليف الحـافظ أبي الحسـن إبراهيـم بـن عمـر البقَّاعي ، تقديم وتحقيق : عبد السميع محمَّد أحمد حَسنين ، مكتبة المعـارف ، الريـاض ، ط الأولى 1408هـ/ 1987م .
208 ـ المصباح المنير للعلامة أحمد بن محمَّد الفيومي ، اعتنـى بـها يوسـف الشـيخ محمَّـد ، المكتبـة العصرية ، بيروت ، ط الأولى ، 1417هـ/ 1996م .
209 ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيـق المحـدِّث حبيـب الرحمن الأعظمي ، دار الكتب العلمية بيروت ، د ت .
210 ـ معاني القرآن الكريم ، تفسير لُغوي موجز ، تأليف إبراهيم عبد الله رفيدة وآخرين ، جمعيـة الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ط الأولى ، 1398 و . ر/ 1989م .
211 ـ معاني القرآني للأخفش ، دراسـة وتحقيـق عبـد الأمير محمَّـد أمـين الـورد ، عـالم الكتـب ، بيروت ، ط الأولى ، 1405هـ/ 1985م .
212 ـ معاني القرآن للفراء ، تأليف أبي زكريّاء الفراء ، تحقيق ومراجعة محمَّد علي النجـار ، الـدار المصرية للتأليف والترجمة ، د ت .
213 ـ معاني القرآن وإعرابه ، للزّجّاج ، شـرح وتحقيـق عبـد الجليـل عبـدُه شـلبي ، عـالم الكتـب ، بيروت ، ط الأولى ، 1408هـ/ 1988م .
214 ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن ، لأبي الفضـل جـلال الديـن السُّيـوطي ، ضبـط وتصحيـح أحمد شمس الدّين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ، 1408هـ/ 1988م .
215 ـ معجزة القرآن ، الشيخ محمَّد متولي الشعراوي ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، د ت .
216 ـ المعجزة الكبرى القُرآن ، محمَّد أبو زهرة ، دار الفكر العربي 1390هـ/ 1970م .
217 ـ معجم البلاغة العربية ، تأليف بدوي طبانة ، منشورات جامعـة طرابلـس ، كليـة التربيـة ، ط الأولى ، 1395هـ/ 1975م .
218 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت 1397هـ/ 1977م .
219 ـ معجم طبقات الحفّاظ والمفسرين ، إعداد ودراسـة عبـد العزيـز عـز الديـن السّيروان ، عـالم الكتب ، بيروت ، ط الأولى ، 1404هـ/ 1984م .
220 ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبي عُبيد البكـريّ ، تحقيـق وضبـط مصطفـى السّقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط الأولى ، 1371هـ/ 1951م .
221 ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مطبعة بريل في مدينة ليدن 1967م .
222 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمَّد فـؤاد عبد البـاقي ، دار الحديـث ، القـاهرة ، 1407هـ/ 1987م .

223 ـ معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط الأولى، 1371هـ.

224 ـ المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية، ط الثالثة.

225 ـ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مطبعة التّرقي، بدمشق 1377هـ/ 1957م.

226 ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تأليف أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1405هـ/ 1985م.

227 ـ مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1403هـ/ 1983م.

228 ـ المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمَّد، المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمَّد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د ت.

229 ـ مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى، 1415هـ/ 1995م.

230 ـ مقدمة تفسير ابن النقيب المصري، إشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة، بيروت 1987م، وقد نسبت خطأ لابن قيم الجوزية، بعنوان «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن» وهو ما نبهى إليه أستاذي الجليل أحمد أبو زيد، إذ قال: «ثبت بالتحقيق العلمي، أن هذا الكتاب لابن النقيب المصري»[1].

231 ـ مقدمة في الدراسات القرآنية، محمَّد فاروق النّبهان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب 1415هـ/ 1995م.

232 ـ ملاكُ التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ/ 1985م.

233 ـ الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، المطبعة الأدبية، بمصر، ط الأولى، 1317هـ.

234 ـ من أسرار البلاغة في القرآن، تأليف محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط الأولى، 1404هـ/ 1984م.

235 ـ من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـ/ 1982م.

236 ـ من أسرار التعبير القرآني، محمَّد أبو موسى، دار الفكر العربي 1396هـ/ 1976م.

---

(1) سمعت ذلك منه مرتين، الأولى في إحدى الجلسات معه، والثانية عند مناقشته لأطروحة الزميل: علي عون.

237 ـ من الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تأليف عبد العزيز سيّد الأهل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1400هـ/ 1980م.

238 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمَّد عبد العظيم الزّرقاني، دار الفكر، بيروت 1408هـ/ 1988م.

239 ـ من بلاغة القرآن، تأليف أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة، القاهرة، د ت.

240 ـ من بلاغة النظم العربي، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، بيروت، ط الثانية، 1405هـ/ 1984م.

241 ـ منتخب قُرة العيون النواظر في الوجوه والنّظائر في القرآن الكريم، للإمام ابن الجوزي، تحقيق ودراسة محمَّد السيد الصفطاوي وفؤاد عبد المنعم أحمد، منشأة المعارف بالإسكندرية، د ت.

242 ـ من روائع القرآن، تأمّلات علمية وأدبية في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ تأليف محمَّد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، ط الخامسة، 1397هـ/ 1977م.

243 ـ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، لأبي محمَّد القاسم السجلماسي، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، ط الأولى، 1401هـ/ 1980م.

244 ـ من علوم القرآن فؤاد علي رضا، دار اقرأ، بيروت، ط الثانية، 1403هـ/ 1983م.

245 ـ منهج البحث في العلوم الإسلامية، محمَّد الدسوقي، دار الأوزاعي، ط الأولى 1404هـ/ 1984م.

246 ـ من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، السيّد تقي الدين، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1995م.

247 ـ الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، شرح عبد الله دراز، ضبط وترقيم محمَّد عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، د ت.

248 ـ مورد الظّمآن إلى زوائد بن حبّان للحافظ نور الدّين علي بن أبي بكر الهيثمي، حققه ونشره محمَّد عبد الرزاق حمزة، المطبعة السلفية ومكتبتها، د ت.

249 ـ الموّطأ للإمام مالك بن أنس، صحّحه ورقمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء التراث العربي، د ت.

250 ـ النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، محمَّد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط السابعة، 1413هـ/ 1993م.

251 ـ نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي، تحقيق محمَّد إبراهيم البنّا، دار الإعتصام، د ت.

252 ـ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمَّد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط الثانية، 1416هـ/ 1996م.

253 ـ نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز لأبي بكر محمَّد بن عُزَيْز السّجسْتاني، تحقيق وتعليق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى، 1410هـ/ 1990م.

254 ـ نظرات تحليلية في القصَّة القرآنية، محمَّد المجدوب، مؤسسة الرسالة، ط الثانية، 1391هـ/ 1971م.

255 ـ نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي، توزيع مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط الأولى، 1393هـ/ 1973م.

256 ـ النّظمُ الفنّي في القرآن، تأليف عبد المتعال الصّعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.

257 ـ نكت الإنتصار لنقل القرآن للإمام أبي بكر الباقلاني، دراسة وتحقيق محمَّد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، د ت.

258 ـ هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف استانبول 1955م منشورات مكتبة المثنى، بيروت.

259 ـ الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، تأليف حسن محمَّد باجودة، دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي عامر، القاهرة 1393هـ/ 1973م.

260 ـ الوحي المحمَّدي، محمَّد رشا رضا، المكتب الإسلامي، بيروت، ط العاشرة، 1405هـ/ 1985م.

261 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1970م.

262 ـ اليوم الآخر، القيامة الكبرى، عُمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح الكويت، ط الأولى، 1407هـ/ 1986م.

المراجع المرقونة

263 ـ أسلوب السرد القصصي في القرآن، رسالة ماجستير للطالب محمَّد طول، المعهد الوطني للتعليم العالي، تلمسان، (مرقون بكلية الآداب الرباط).

264 ـ سنن التغيير التاريخي في القرآن الكريم، إعداد الطالب: أحمد الشاكر، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية 1411هـ/ 1412هـ/ 1991/ 1992م.

265 ـ مصطلحات بيانية في القرآن الكريم. بحث للأستاذ: أحمد أبو زيد لم ينشر بعد.

الدوريّات والمجلاّت العلمية

266 ـ أهميَّة الأمثال القرآنية كلون من ألوان الإعجاز القرآني، إعداد هلالي محمَّد، الإحياء، مجلة إسلامية جامعة، تصدرها رابطة علماء المغرب بالرباط، العدد الرابع من السلسلة الجديدة، الرقم المسلسل 16 سنة 1994م.

267 ـ آيات الله في الأنفس والآفاق. عبد الباسط بلبول، أضواء الشريعة، مجلة جامعة تصدرها كلية الشريعة، الرياض، العدد السابع 1996م.

268 ـ تقييد على سورة الإخلاص، تأليف محمَّد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي، تقديم وتحقيق عبد الله محمَّد النقراط، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد الثالث عشر 1425 م ر/ 1996 أفرنجي.

269 ـ حقيقة التوحيد والشرك، لعبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجلة البحوث الإسلامية، تصدر عن رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، العدد التاسع والثلاثون 1414هـ.

270 ـ دراسات في أمثال القرآن الكريم، عبد المجيد السيّد قَطامش، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، العدد الرابع عام 1401هـ.

271 ـ طبيعة الرؤية المحمَّدية، الفصل الأول من كتاب: ما هو الإسلام، تأليف مونتجمري وات، ترجمة: محمَّد فتح الله الزيادي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد التاسع 1402 ور/ 1992م.

272 ـ القصَّة القرآنية ودورها في التربية، أحمد أحمد علوش، مجلة كلية التربية جامعة الرياض، العدد الأول، السنة الأولى 1397هـ/ 1977م.

273 ـ مع القرآن في أمثاله، محمود بن الشريف، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة. السنة الأولى 1393هـ/ 1394هـ، العدد الأول.

المراجع الأجنبية

274 - BARBARA FREYER STOWASSER, Women in the au RAN, Traditions, and interpretion, New York Oxford University press, 1994.

275 - Ismail R. Alfarruqi and Losis Lamya Al Faruq, the Cultural Atlas of Islam, Mac millan Publishing Company, New York, Collier Macmillian Publishers London.

276 - Michael Sells. Sound and Meaning Surat al-Oarca, Corrected Version May 7, 1991. Forthcoming in Arabica, Paris, ed Mohamed Arkoun.

فهرس الموضوعات

الباب الثالث

تصريف القول في آيات الموعظة